الفلسطينيون

ماضٍ مجيد ومستقبل باهر

الجزء الأول

الدكتور عزت طنوس



الفلسطينيون

ماضٍ مجيد ومستقبل باهر

الجزء الأوّل

الدكتور عزت طنوس

مركز الأبحاث
منظمة التحرير الفلسطينية

الطبعة الأولى: ايار (مايو) ١٩٨٢

محتويات الكتاب

الموضوع — الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

تقديم

في هذا الكتاب يقدم الدكتور عزت طنوس رؤية الجيل الذي ينتمي للقضية الفلسطينية، ويعرضها كما عايشها من موقعه كمناضل في صفوف الحركة الوطنية الفلسطينية، منذ نشأت وتبلورت في اعقاب الحرب العالمية الأولى، ثم ككادر متقدم من كوادرها، وكقائد من قادتها.

وبهذه الصفة، فالكتاب شهادة، يدلي بها واحد من الذين لم يكونوا شهوداً على الاحداث فحسب، بل كانوا، أيضاً، من الذين اسهموا في صنعها وتوجيهها.

وربما اختلفنا، أو اتفقنا، مع وجهات النظر وزوايا الرؤية التي تخصّ المؤلف، الا ان الشهادة التي يدلي بها تحتفظ بقيمتها الكبيرة في كل الاحوال.

وقد شاء الدكتور طنوس ان يضيف إلى حرارة الشهادة الشخصية فصولاً من التاريخ، فربط بين الوقائع التي عايشها، وكان أحد شهودها المباشرين، والسيرة الشخصية التي تبرز معاناة جيله، والمجرى العام للاحداث التي ألمت بفلسطين، خلال النصف الأول من هذا القرن، وشغلت العالم المعني بها. وفي الحصيلة، قدم صاحب الشهادة تاريخاً موجزاً لهذه الحقبة.

ومع ان الكتاب وضع، في الاساس، باللغة الانكليزية، واراد مؤلفه ان يبرز فيه عدالة القضية الفلسطينية أمام قارىء هذه اللغة في الغرب، فاننا رأينا ان للقارىء العربي الحق في الاطلاع عليه؛ ذلك ان في الكتاب ثمرة جهد واحد من الرعيل الأول من الوطنيين الفلسطينيين، وعرضاً لتجربة هذا الرعيل، بما تحمله من اخفاقات ونجاحات، وبما تشتمل عليه من خطأ وصواب.

مركز الابحاث

مقدمة الكتاب

مـضى على القضية الفلسطينية اربع وستون سنة ونيف، وهي اليوم وكأنها في بدايتها؛ ذلك لأن الذين خلقوها، لا يزالون يعملون بكل ما لديهم من قوة، على تعقيدها وتصعيدها وتفاقمها، حتى تطورت واصبحت قضية عالمية كبرى؛ ويبدو أن حلها حلًّا سلمياً عادلاً شاملاً، قد أصبح شبه مستحيل. وبسبب هذا التطور المصطنع، اخذت القضية الفلسطينية تشكل خطراً داهماً، ليس على الأمة العربية فحسب، بل على العالم كله ايضاً.

ولعل ما كتب عن القضية الفلسطينية، منذ سنة ١٩١٧ حتى الآن، يفوق ما كتب عن اية قضية اخرى في العالم. ولو جمع ما كتب عنها، في جميع اللغات وفي جميع الأقطار، لملأ بناءً بحجم الأمم المتحدة. ولسوء الحظ، كان أكثر تلك الكتابات للصهيونيين وأعوانهم ومؤيديهم؛ وقد استطاعوا، بواسطتها، تشويه الحقائق وقلب المبادىء، وتضليل الشعوب، حتى صُوّر اصحاب الحق وكأنهم ارهابيون، وصُوّر الصهيونيون، وهم الارهابيون الحقيقيون من اوروبا وغيرها، وكأنهم اصحاب الحق... انه ظلم لا يفوقه ظلم. والآن، وبعد ان وصلت القضية الفلسطينية إلى هذا الحد الخطير من التنازعات الدولية والتحديات المصيرية، صار من الواجب الوطني المقدس، اثارة ثورة عربية اعلامية، تشرح القضية الفلسطينية على حقيقتها، وتظهر للعالم الظلم الفاضح الذي تنطوي عليه، وتحطم، بالصورة الحقيقية، الصورة المشوهة التي لا يزال العدو واعوانه يضللون العالم بها؛ ومن المفيد أن يسهم في هذا العمل، اولئك الذين عايشوا القضية الفلسطينية منذ بدايتها ونموا معها واختبروها يوماً بعد يوم، وجاهدوا في سبيلها، وشاركوا في تحمل ويلاتها، وهم لا يزالون على عهدهم، وهذا ما يشجعني على خوض هذا المضمار، لأبين الحقيقة، بعد الذي اختبرته ولمسته من ملمات هذه القضية المقدسة دون خوف أو وجل، مسجلاً وقائع لم يسجل التاريخ مثلها من قبل سواء كان ذلك عن قصد ام عن غير قصد.

في هذا الكتاب، دراسة حول السنوات الثلاثين الأول من هذه القضية الفريدة التي خلقها اولئك الطغاة؛ واخص بالذكر: بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الاميركية، ابطال «حقوق الانسان»...!، وفي الجزء الثاني من هذا الكتاب، سأبين كيف انهم لم يكتفوا بتجريد الشعب العربي الفلسطيني من اعزّ ما يملك الانسان، من الوطن، بل يريدون تجريده أيضاً من كرامته، المتجسدة في نضاله النبيل المقدس، ضد الظلم، ناعتين جهاده لتحرير وطنه السليب

«بالارهاب»، وهو اقدس الواجبات، وما هذه النعوت والأعمال الجائرة والتعسفية ضد الشعب العربي الفلسطيني، داخل فلسطين وخارجها، الا لابقائه بعيداً عن وطنه، وترسيخ العصابات الارهابية الصهيونية مكانه تحت «مظلة اسرائيل»؛ هذه هي سياسة الولايات المتحدة اليوم تجاه الشعب العربي الفلسطيني الثائر على الظلم، الشعب الذي لا يزال يملك ٩٠ بالمئة من ارض فلسطين المحتلة.

وقبل أن أبدأ كتابي، ارى من واجبي ان اسجل شكري للمساعدة القيمة التي قدمها لي بعض الأصدقاء، وكان لها كبير الأثر في اخراج هذا الكتاب، والتي بدونها ما كنت لأقدر على وضعه بين يدي القارىء، وأخص بالذكر: القس والأستاذ ج. سبنسر تريمنغهام، خريج اكسفورد، المستشرق والمؤلف، الذي تبرع بتنقيح الطبعة الانكليزية من الكتاب وتصحيحها والتي ستصدر قريباً، إن شاء الله، وذلك بالمجيء الى بيتي عشرات المرات، لاتمام هذا العمل الشاق، وهو بذلك يستحق خالص شكري وامتناني.

ولا أنسى ما تبرعت به الصديقة الودود، السيدة ليلى قعوار غريب، من طبع الجز الأكبر من الطبعة الانكليزية، على الآلة الكاتبة، وما صرفته من وقت وجهد في هذا العمل الطويل الشاق؛ كذلك لا انسى ما قامت به، تبرعاً، ابنة استاذي ومعلمي واشبيني، المرحوم سليم أبو فاضل، السيدة فيوليت ابو فاضل عمران، في الطباعة وفي تحضير هذا الكتاب؛ كما اني اشكر أيضاً الآنسة حُسن عويس والآنسة فريهان دجاني، للمساعدة القيمة التي قدمتاها لي في إتمام هذا العمل.

عزت طنوس

بيروت في ٢٦ شباط (فبراير) ١٩٨٢

«أنا أقول اننا ثابتون في أهدافنا، مواظبون على خدمة الأمة العربية، مهما زادت المشاكل وكثرت الصعوبات. وكل ما نسعى إليه هو خدمة الأمة العربية. وما كان يجب وضع العراق وسوريا [وهو يعني لبنان وفلسطين وشرق الأردن أيضاً] تحت الانتداب كما نصت عليه المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم، لأن هذه الأقطار كلها وضعت ضمن المعاهدة التي وقّعتُ عليها مع بريطانيا العظمى سنة ١٩١٦ والتي تعهدت بريطانيا فيها باستقلال هذه الأقطار جميعها. . .

«إن أوطى البدو لا يخل بوعده، مثل مَا فعل الانكليز. . .».

الملك الحسين بن علي

* * *

«وإذا اتبعنا التوراة، نرى أن القائد اليهودي الذي قاد الجيش واكتسح فلسطين كان يشوع بن نون. فاحتل مدينة اريحا التي كان يسكنها الكنعانيون وكان احتلاله لها وحشياً همجياً وهذا ما قاله لجيشه حين دخل إلى المدينة:

«احرقوا كل ما في المدينة واذبحوا، بحد السيف، كل رجل وامرأة، صغيراً كان أو كبيراً، وكل ثور وكل خروف، واحرقوا المدينة بالنار وكل ما فيها». (سفر يشوع، ص ٧ عدد ٢١ ــ ٢٤).

«وفي سنة ٦٣٧ ميلادية، فتح العرب فلسطين وبقوا فيها إلى يومنا هذا. . . وكان امر الخليفة لقواده في فلسطين عكس أوامر يشوع بن نون: لا تخونوا احداً، وكونوا امناء، ولا تشوهوا احداً، ولا تقتلوا طفلاً أو امرأة أو عجوزاً، لا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تقتلوا خروفاً أو بقرة أو جملاً، ولا تزعجوا من كان يصلّي. . .

«إن الصهيونيين اليوم يريدون سحق الشعب العربي في فلسطين وهو ظلم لا مثيل له في التاريخ. إن اعمالهم أعمال نازية همجية. . .»

من كتاب الملك عبد العزيز آل سعود ملك العربية السعودية،
إلى الرئيس فرنكلين روزفلت، رئيس الولايات المتحدة.

* * *

«أصدقائي وأبناء وطني:

«كونوا أمناء وعادلين، تجاه جميع الشعوب. عيشوا بسلام وتعاون مع الجميع. ومن شأن دولة على طريق الحرية والتقدم أن تكون للانسانية المثل الأعلى هدفها العدالة وفعل الخير. . .

«وفي سبيل تنفيذ هذه المبادىء، أرى أنه في غاية الأهمية أن لا تحمل امتنا الكراهية

لأحد، وان لا تشغف بالحب لأحد ايضاً، وبدلاً من هاتين المزيتين، أن يكون شعورنا المحبة لجميع الناس. إن الأمة التي تنغمس في الكراهية لأحد او بشغف الحب لآخر، تصبح، الى حد ما، عبداً؛ عبداً لكرهها وشغفها بالتساوي وأي منها سيقودها الى ما هو ليس من واجبها عمله أو مصلحتها.

«لذلك، إن عطف امة على اخرى مفضلة. يجلب أنواعاً كثيرة من الشرور. إن العطف على الشعب المفضل يعطي الوهم أنه لصالح الطرفين، وهو في الحقيقة ليس كذلك. وحين ينغمس في كراهية الآخر، يصبح طرفاً معادياً له دون سبب أو مبرر. ان العطف على الأمة المفضلة يقوده إلى إعطاء الأمة المفضلة امتيازات تنكر على الغير، وبذلك يتضاعف الضرر، بالتقديم للمفضلة ما يجب ابقاءه للأمة. كما انه يجلب الحسد والغيرة للذين حرموا من هذه الامتيازات، وهذا يعطي الفرصة للفاسدين من الأمة أن يسهلوا للأمة المفضلة أن تعبث بمصالح الأمة وتخونها...».

من خطاب جورج واشنطن، اول رئيس جمهورية للولايات المتحدة الاميركية، الوداعي للشعب الاميركي.

الفصل الأول

أنا عربي مسيحي ولدت في مدينة نابلس . . .موت أبي المبكر أجبر عائلتي على الانتقال إلى بيت المقدس. . . مدرسة سان جورج (المطران) مدرسة مثالية. . . الكلية السورية الانجيلية في بيروت للتعليم العالي. . . نهضة علمية ورياضية ابتدأت في فلسطين أوقفتها الحرب العالمية الأولى، ١٩١٤

أنا عربي مسيحي

نابلس، في فلسطين، مسقط رأسي. ولدت، عام ١٨٩٦، من أبوين مسيحيّين تلقيا بعض التعليم في مدرسة إرسالية أسقفية في نابلس، ونشأت وأخي الأكبر سليمان وأختي الصغرى ليديا، في بيت ملؤه التقوى والورع. ولسوء الطالع، فقدت أبي في سنٍ مبكرةٍ، حتى أني لا أذكر عنه شيئاً حتى ولا صورة وجهه. ولأن أمي أضاعت صورته الوحيدة التي أخذت له قبل ولادتي، رافقني إحساس، طوال حياتي، بأني فقدت شيئاً عزيزاً، شيئاً لا أستطيع شراءه أو استرداده، مهما بذلت من جهدٍ أو عناء. غير أني وجدت بعض العزاء حينما أنبأتني أمي، وبعض الأقرباء أيضاً، بأنه كان تقياً وقف نفسه على الخير والمحبة. وكم كانت أمي تردد، بفرح وعزاء، أن الله دعا أبي إليه، يوم «الجمعة العظيمة»، وهذا كان يعني لها أنه مات مع سيده ومعلمه.

وكان موت أبي المبكر، وهو في سن الثالثة والأربعين، كارثة عظيمة لعائلتنا الآمنة. فقد كان الأكبر سناً فينا، لا يتجاوز التاسعة من العمر، والأصغر لا يتجاوز الثلاث سنوات. فأصبحت مسؤولية أمي أكبر من طاقتها. ولم يكن أبي فقيراً، لكنه لم يكن غنياً أيضاً. وهكذا، فهو لم يترك من المال ما يعيل عائلة تتألف من أربعة قصّر، لا معين لهم. وكان اقتصاد البلاد تحت الحكم التركي في أوائل هذا القرن، سيئاً جداً، والأشغال قليلة، وأقل منها النقود الشحيحة المتداولة والمسبوكة من الذهب والفضة فقط. وما سمع أحد، في تلك الأيام، في نابلس، أن امرأةً حلت محل زوجها وقامت بإعالة عائلتها، وهي مقيدة بسلاسل الحجاب الذي كان يغطي وجوه نساء المدن، ويمنعهن عن العمل وتحصيل العيش، كما حدث لعائلتنا المنكوبة. وبما أن أبي كان وحيداً، ولم يكن له أخوة يعينوننا، وبما أن أهل أمي كانوا يسكنون القدس، المدينة الأكبر والأرقى، عزمت أمي على الانتقال بنا إلى القدس، وبالفعل، انتقلنا إليها بعد سنوات قليلة.



مدينة نابلس قبل الحرب العالمية الأولى

في نابلس

أذكر القليل عن حياة الطفولة في نابلس؛ حيث درست في مدرسة الجمعية الارسالية الكنسية(Church Missionary Society, C.M.S.) الواقعة غربي المدينة، والمؤلفة من أربع غرف، تحت الكنيسة، مخصصة لأربعة صفوف ينال الطالب عند إنهائها، الشهادة الابتدائية.

والمدرسة مؤلفة من غرفتين للصبيان، يديرهما معلمان، وغرفتين للبنات، تديرهما معلمتان، وما كان فصل الجنسين من التلاميذ، إلا لفصل المعلمين عن المعلمتين! ولم يتجاوز عدد التلاميذ الستين، في كلٍ من المدرستين. ولهذا، كان كل طالب يعرف كل الطلاب. كان موسى ناصر، رئيس كلية بيرزيت (الآن جامعة بيرزيت) المشهور، رفيق صفي، وكان ينتظرني كل يوم دراسة، أمام بيته، لنترافق إلى المدرسة. وما ذلك إلا لاننا كنا صديقين حميمين. والغريب في أمر هذه الصداقة أنها دامت بقية الحياة؛ وذلك بالرغم من انتسابنا إلى مدرستين مختلفتين في القدس، وأننا لم نعش في المدينة نفسها، إلا نادراً فيما بعد؛ فهو لم ينتقِ، بعد عشرين سنة، اشبيناً لزواجه الميمون من ليندا، سواي. وقد نتج عن تلك الصداقة العجيبة «معجزة»، فبعد أن استقال، سنة ١٩٤٦، من منصب مساعد السكرتير العام في حكومة الانتداب ليصبح رئيس كلية بيرزيت، ذهب إلى السكرتارية التي كانت تحتل جزءاً من فندق الملك داوود، في القدس، ليسلم مكتبه إلى خلفه، عطاالله

منطوره. وكان ذلك في الثاني والعشرين من شهر تموز (يوليو) ١٩٤٦. وبعد أن دخل موسى من البوابة وعمد إلى المصعد، غيّر رأيه، وعزم على أخذ فنجان قهوة مع رفيق العمر في شارع مأمن الله، غير البعيد عن الفندق. وفيما كنا نرتشف القهوة، أحالت قنابل عصابة أرغون تسفاني ليؤمي (اتسل) الارهابية التي كان يرأسها مناحيم بيغن، رئيس الوزراء الاسرائيلي الحالي، أحالت السكرتارية، في فندق الملك داود، إلى ركام دُفِنَ تحته الخلف البائس، ومئة آخرون، من موظفي الحكومة.



المؤلف مع موسى ناصر وزوجته

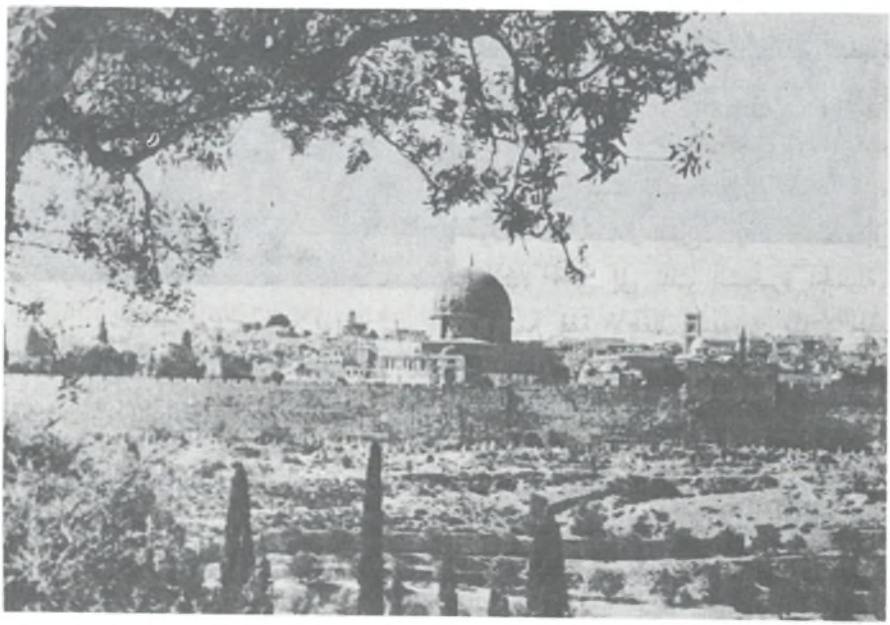
ولا يزال في مخيلتي إلى الآن منظر أبهجني طوال حياتي، وهو منظر شجرة الميلاد التي كانت المدرسة تزينها في عيد كل سنة؛ فهناك رأيت مثل هذه الشجرة لأول مرة. فلما دخلت الغرفة، وبقية الأطفال، بهرني جمالها حقاً، ولم أذكر، أبداً، أني رأيت شيئاً جميلاً إلى هذا الحد، وكدت لا أصدق عيني، وما زلت، إلى الآن، أحنُّ إلى تلك الشجرة الجميلة، وأسمع لهفة الأطفال المبهورين مثلي. ولقد تأمّلت عشرات الشجرات الرائعة، منذ ذلك اليوم، في «روكفلر سنتر» في نيويورك وغيره، ولكني لم أرَ، إلى الآن، أبهى من تلك الشجرة التي رأيتها في مدرستي الأولى.

وبينما كانت أمي تعدّ العدة، لنقلنا، أنا وأخي سليمان وأختي ليديا، إلى القدس، تخرجنا، نحن الثلاثة، من المدرسة. وكانت القاعدة أن يعمد أهل الخريجين الصغار، إلى تعليمهم حرفة، ما داموا قد وصلوا إلى نهاية الدراسة التي يمكن الحصول عليها في نابلس. لكن قرار أمي، لم يكن حسب القاعدة المتبعة، فقد أرسلتنا، نحن الثلاثة، إلى القدس لنتمّ دراستنا. فبعثت بأخي الأكبر سليمان إلى مدرسة الأسقف جوبت، المشهورة بمدرسة صهيون لأنها بنيت على جبل صهيون؛ وهي أقدم مدرسة إرسالية إنجيلية في فلسطين، أسسها الأسقف جوبت، حوالي سنة ١٨٥٣. وأرسلتني أنا إلى مدرسة القديس جورج، المعروفة بمدرسة المطران، وأختي الصغرى ليديا إلى مدرسة القديسة ماري، فرع البنات. وقد أسس هاتين المدرستين الأسقف بلايث، أسقف القدس الانجليكاني، سنة ١٨٩٨.

مشقة السفر على ظهر الحمار

كانت الرحلة من نابلس إلى القدس، في العقد الأول من هذا القرن، جهداً مضنياً، أما عند الأطفال فكانت عذاباً. كان ظهر الحمار، أو أية دابة أخرى تدب على

أربع، الوسيلة الوحيدة للسفر، في تلك الأيام، لعدم وجود الطرق المعبدة للعربات. وكانت مسافة الستة والستين كيلومتراً، أو الأربعين ميلاً، من نابلس إلى القدس، تحتاج كي يقطعها الحمار، إلى يوم ونصف اليوم. وبوسع الانسان التخيل كم كنا نعاني، نحن الصغار، ما بين الثامنة والثانية عشرة، من عذاب، خلال الرحلة والأيام القليلة التي تليها. فكنا نصل رام الله أو البيرة، بعد عشر ساعات من السفر الشاق، وننام هناك مع الحيوانات التي كانت تنقلنا، في خان حنا الرفيدي الوحيد. وكنا، حوالي ظهيرة اليوم الثاني، نرى، من منحدر عالٍ بعد قرية شعفاط، مشهد المدينة المقدسة «القدس» الجميل بأبراجها وقبابها ومآذنها. إنه منظرٌ رائعٌ حقاً، يجعل حتى الصغار التعبين ينسون ألمهم.



منظر بيت المقدس الجميل

لبثنا نقوم بهذه الرحلات الشاقة من نابلس إلى القدس، حتى سنة ١٩٠٨، حين جاءت بنا أمي إلى القدس، وأنقذتنا من مشقة لا يدركها طلاب هذه الأيام. وهل كان تلامذة نابلس أشقى التلاميذ في تلك الرحلات؟. فكم كان شقاء الصغار الذين كانوا يأتون من مدن بعيدة، كالناصرة والكرك والسلط ومأدبا، ويقضون ثلاثة أيام، على ظهر الحمار، قبل وصولهم إلى القدس. وعلى كل حال، فقد كنا في نهاية الرحلة، نذكر الحديث القديم الحكيم: «أطلب العلم ولو في الصين».

الحنين المستمر لنابلس

لا أزال أشعر بحنين دائم لمسقط رأسي، نابلس. كانت نابلس، في بداية هذا القرن، مدينة مقفلة. سكانها حوالي اثنا عشر ألفاً، أكثريتهم الساحقة من المسلمين، وطائفة قليلة العدد من المسيحيين، وطائفة أخرى أقل عدداً هي الطائفة السامرية، أو اليهود الذين يؤمنون بالأسفار الخمسة الأول من العهد القديم، وهي الطائفة السامرية الوحيدة في العالم. وكان الحجاب الذي زال تدريجياً، يشمل جميع النساء، حتى القليل من النساء الأوروبيات اللائي عشن هناك. وكان مفروضاً أن لا ترى حتى طرف ثوب المرأة، تحت الازار الأبيض الواسع، أو تحت الملاءة الأكثر أناقة وأعتم لوناً. وما كان حجاب النساء عادة اسلامية؛ بل تقليداً اتخذته المدن. أما نساء القرى المسلمات فما كن يتحجبن؛ بل كن يأتين المدن بلا حجاب، ويقمن بشؤونهن، دون ارتباك، كالرجال، ودون أن يستغرب أحد ذلك منهن. والحجاب ليس من الاسلام، وما كان سائداً خلال حياة النبي العربي الكريم. وقد اختفى بالتالي في فلسطين، كما اختفى في بقية البلاد العربية.

في مدرسة سان جورج

قضيت أروع مرحلة من حياتي، (١٩٠٥ ــ ١٩١٤)، في مدرسة سان جورج. وهي مدرسة صغيرة كانت تضم مئة تلميذ وتدار وفق نهج المدارس الانكليزية. أسسها أسقف القدس الانجليكاني، جورج فرانسيس بوفام بليث، وأقامها لتربية التلاميذ وتثقيفهم أكثر منها لتعليمهم، وكانت أول مدرسة، في فلسطين، يُمنع فيها المعلمون من استعمال العصا،



مدرسة سان جورج (المطران)

مما جعل للمدرسة مستوى تربوياً ميزها عن بقية المدارس التي كانت تفرط في استعمال العصا. وزاد من نقاوة جو هذه المؤسسة التربوية، مساهمة بنات الأسقف الأربع فيها. كما أن الرئيس، ك. ل. رينولدز، كان، لحسن الحظ، مربياً عظيماً ومحباً للرياضة، ولهذا، كانت مدرسة سان جورج الرائد الأول في حقل التربية.

كانت أول مدرسة في القدس تعطي أهمية خاصة للرياضة. وللمرة الأولى، باتت لعبة كرة القدم، لعبة تقنية ولم تعد قذفاً للكرة لأقصى العلو. وكنا، في الصيف، نلعب «الكريكت»؛ وهي اللعبة الانكليزية الوطنية. كما أُدخلت، إلى المدرسة، ألعاب جديدة، مثل «كرة السلّة» و«الهوكي». وكنا نحتفل، في آخر السنة، بيوم المباريات (Field Day). وبالفعل، فقد أشعلت مدرسة سان جورج ثورة رياضية انتشرت في جميع مدن فلسطين، حتى خُصِّص بعد ظهر يوم السبت من كل أسبوع، لمباريات كرة القدم، وكان حماس الجمهور لمشاهدة هذه المباريات عظيماً، حتى بلغ عدد مشاهدي إحدى المباريات على ملعب المدرسة، سنة ١٩١٠، خمسة آلاف، منهم بضع مئات من النساء المحجبات. وكان من شأن هذا الاهتمام الوطني الكبير بهذه اللعبة، أن حمّس جميع الطلاب في فلسطين، على لعبها حسب أصولها. ولقد كان هدف كل تلميذ أن ينتمي إلى فريق ما، كي يلعب في مباريات السبت، أما أنا، فقد أصبحت اللعبة جزءاً من حياتي، وبقيت كذلك، طيلة أيام دراستي في المدرسة وفي الكلية. ولن أنسى، أبداً، اليوم الذي استحققت فيه قميص فريق المدرسة، سنة ١٩١٠. فقد نام القميص المخطط (أحمر وأبيض) تحت مخدتي، وابقاني فرحي ساهراً الليل كله.


المؤلف في الفرقة الأولى

مدرسة سان جورج ــ مدرسة مثالية

تخرجت من مدرسة سان جورج سنة ١٩١١. وكنت تلميذاً مجداً، بوجه عام. وقد كان الرئيس يلقبني «بالأستاذ» (Professor). كنت أكره تعلّم الفرنسية

وحفظ الشعر، وأحب الرياضيات بكل فروعها: الحساب والجبر والهندسة. وكنت إذا تعبت من دراسة المواد الأخرى، ألجأ إلى حل مسألة رياضية صعبة، تسرني وتريحني أكثر كلما زادت صعوبتها.

وارتبطت بصداقات متينة، في مدرسة سان جورج، ساعد عليها جو المدرسة الحلو، الذي جعل التلاميذ يشعرون بأنهم عائلة واحدة. ولا أظن أني رأيت، يوماً، تلميذين يتشاجران جدياً، أو يتبادلان بذيء الكلام. وفي مثل هذا الوسط تنمو الصداقة الحقيقية. وذكرياتي الخالدة مع داوود دعدس وجورج الياس قسيس وأخيه أندريا وأحمد سامح الخالدي وشريف وفؤاد النشاشيبي وابراهيم جورج وشكري حرامي وجورج وباسيل شبر ونجيب بوارشي وواصف جوهرية وصليبا جوزي وكثيرين غيرهم، سوف تنزل معي إلى القبر. إن بعض هؤلاء، للأسف الشديد، توفاه الله، غير أنهم عندي لا يزالون أحياء.

كانت مدرسة سان جورج، وما زالت، مدرسة ثانوية. يقبل متخرجوها، بناء على توصية الرئيس، دون فحص، في صف «الفرشمان» في **الكلية السورية الانجيلية في بيروت** (الآن الجامعة الأميركية في بيروت)، التي أسسها سنة ١٨٦٦، الارسالي الأميركي «دانيال بلس»، وكانت الكلية الوحيدة في الشرق الأوسط، لخريجي المدارس الثانوية التي تدرّس بالانكليزية، ليتابعوا دراساتهم العليا. ولم تكن هنالك صعوبة ما، في تلك الأيام، في الدخول إلى هذه الكلية، خلافاً لما هي عليه اليوم، في الجامعة الأميركية في بيروت، لأن أكثر الأهل لم يكونوا قادرين على إرسال أبنائهم للكلية لفقرهم. وكان الأهل يفضلون تشغيل الأبناء، كي يساعدوهم في كسب معيشتهم. ولقد روت لي أمي أن رئيس مدرسة صهيون في القدس، رجا أباها كي يرسل ابنه «صالحاً» للمدرسة ليتعلم فيها، آكلاً، شارباً، لابساً، دون أية نفقة. وبعد عشرين سنة من ذلك، كان على أخي سليمان أن يدفع عشر ليرات استرلينية ذهباً في العام، كي يحصل على الامتيازات نفسها. أما اليوم، فإن موضوع النفقة على فداحته، ليس موضوع نقاش، وإنما الموضوع هو القبول.

بعد تخرجي، من مدرسة سان جورج سنة ١٩١١، دعاني الرئيس، المستر رينولدز، لألتحق بجهاز التعليم وأدرّس الرياضيات في المدرسة. ففرحت بهذه الفرصة كثيراً لأنني كنت غير قادر، بسبب المال، على الذهاب إلى الكلية في بيروت، وقبلت العرض آملاً بالادخار، لأتمكن، بعد بضع سنوات، من متابعة دراستي، إذ كنت أريد أن أصبح طبيباً. وقد عرض عليّ الأسقف بليث منحة دراسية، في اللاهوت أو التربية، في جامعة درهام في انكلترا، غير أن ميلي إلى الطب دفعني إلى رفض كل العروض.

كانت السنوات الثلاث التي علّمت فيها، في مدرسة سان جورج، سنوات سعيدة لأنني أحببت التعليم، والمواضيع التي كنت أدرّسها. وبقيت أعيش في المدرسة، ولم يتبدّل

من حياتي فيها، بعد أن صرت معلمًا، إلا القليل. واستمر اهتمامي بالرياضة، سيما بكرة القدم، حتى استطعت الابقاء على الصيت الحسن، الذي تمتعتُ به وأنا طالب. ولقد كان معروفاً، في القدس، أن شريف النشاشيبي وأنا أسرع مهاجمين وهدّافين.



فرقة سان جورج الأولى

أول مباراة بكرة القدم بين بلد وآخر في الشرق الأوسط

في ربيع ١٩١٢، جاء فريق الكلية السورية الانجيلية في بيروت، إلى القدس، ليلعب مع مختلف فرق كرة القدم في المدينة المقدسة. وكانت مناسبة فريدة حقاً لسكان القدس الذين جاؤوا آلافاً لحضور أربع مباريات، ضد السي. أم. اس. والشبان المسيحية ومدرسة سان جورج ومنتخب القدس. وقد فاز الضيوف، في المباريات كلها، ماعدا مباراة مدرسة سان جورج؛ حيث تعادلنا بثلاثة أهداف لكل منا.

وفي سنة ١٩١٣، ذهب فريق القدس لينازل فريق الكلية في بيروت. ولعبنا أربع مباريات، فزنا بواحدة منها، وتعادلنا في اثنتين، وخسرنا خسارة فادحة أمام منتخب الكلية (٦ ــ صفر). وعندما عاد فريق الكلية إلى القدس سنة ١٩١٤، انتقمنا منه وهزمناه شر هزيمة. وفي سنة ١٩١٥ دعي الكثيرون من لاعبينا ليلعبوا أدوارهم. ولكن ليس على ملعب كرة القدم؛ بل، للأسف الشديد، على ساحة الحرب.



القـدس ضـد الكليـة الســوريـة الإنجيليـة

لقد أكثرت الحديث عن المرحلة التي قضيتها من حياتي في مدرسة سان جورج، والسبب في ذلك يعود إلى الدور العظيم الذي لعبته هذه المؤسسة في حياتي، حيث اكتملت شخصيتي بين جدرانها وفي صفوفها وعلى ملاعبها، وفي بيت الأسقف؛ حيث كانت تستضيفنا عائلته الكريمة كل مساء أحد. وكنا نعامل كسادة، وكان ينتظر منا أن نسلك سلوك السادة. ولم يكن هذا كل شيء، بل كان للمستوى الاخلاقي وللروح الرياضية، تأثير عظيم على حياة الطلاب. ومَنْ مِنْ خريجي مدرسة سان جورج، استطاع أن ينسى طيبة آل بليث، وروح رينولدز الرياضية، ومعاملة بارون الديمقراطية. لقد غرس فينا إخلاص هؤلاء الكبار واستقامتهم حب العالم الغربي، ودفعانا إلى طلب مساعدته، فهل خدعنا؟! إن استبداد الغرب، بعد الحرب العالمية الأولى، بالشعب العربي وبالأخص بالشعب الفلسطيني، أفقدنا إيماننا بإخلاص الغرب وصدقه. ولقد أدّى تجاهل دول الغرب لكل العهود التي قطعتها للعرب، خلال الحرب العالمية الأولى، إلى اتهام مرسلي ما قبل الحرب، بمقاصد مشبوهة. فهل جاؤوا إذاً إلى الشرق الأوسط، استعداداً للاستيلاء عليه؟!

. . . لا أجد صعوبة في الجواب على هذا السؤال لأنني مقتنع، بسبب تجربتي الشخصية، بأن مرسلي ما قبل الحرب، الذين تعاملت معهم، لم يأتوا إلى الشرق الأوسط لأسباب سياسية، وإنما، سواء كان هذا الاقتناع خطأ أم صواباً، بدوافع دينية فقط. لقد دفع النداء: «إذهبوا وبشروا جميع الأمم»، بعض هؤلاء المرسلين، إلى الذهاب إلى مجاهل الأرض، متكبدين المشاق في خدمة مبدأ. واني أؤدي هذه الشهادة إرضاءً لضميري واستحقاقاً لهؤلاء الطيبين.

الاستعداد للذهاب إلى الكلية السورية الانجيلية

بينما كنت أعلّم في مدرسة سان جورج، كنت أعدّ نفسي للذهاب إلى الكلية السورية الانجيلية في بيروت، لأدخل مدرسة الطب. وكانت شهادة مدرسة سان جورج تؤهلني لدخول صف «الفرشمان»، وهو أول صف في مدرسة الآداب والعلوم. ولكي أقبل في مدرسة الطب، كنت بحاجة إلى دراسة سنتين في مدرسة الآداب: «الفرشمان» و«السفمور» الخاص (اعـدادي الطب). ولكي أختصر هذين الصفين، اعتمدت أن أدرس في وقت الفراغ، مواضيع الصفين، حسب المنهاج، وهذا ما فعلته. وفي أيار (مايو) ١٩١٤، كتبت إلى عميد مدرسة الآداب والعلوم، كي يسمح لي بالتقدم لفحص دخول مدرسة الطب في الكلية وكان موعده تشرين الأول (أكتوبر)، فأجابني، بعد أن اتصل برئيس مدرسة سان جورج، بأني أستطيع التقدم لفحص الدخول وسيكون الفحص في الموادّ التالية: الفيزياء، الكيمياء المعدنية، علم النبات، علم الحيوان وفي الهندسة المسطحة والفراغية. فسررت جداً بهذا الجواب، لأني أُعفيت من الامتحان في مواضيع شتى.

وفي أول يوم من أيام تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٤، تركت القدس، بالقطار، إلى يافا، وهي مدينة البرتقال. وغادرتها بعد الظهر على ظهر باخرة ايطالية مسافرة إلى بيروت. كانت الباخرة مزدحمة جداً، حتى اضطر أكثر التلاميذ للبقاء على ظهرها. وكان الكثير من الركاب في قلق وهياج، وكأن الأمور غير طبيعية. ثم شاع الخبر التالي: ان الأمبراطورية العثمانية تورطت في حرب عالمية. وأدرك الذين كانوا أكبر منا سناً خطورة الوضع، وتنبأوا بالكارثة. أما نحن التلاميذ، فلم نقدّر مدى النكبة في ذلك الوقت، وخصوصاً أولئك الذين كانت نكبتهم الوحيدة، فحص الدخول إلى مدرسة الطب!

وصلنا إلى بيروت في الصباح الباكر، وكان لدي الوقت لمقابلة عميد كلية الآداب والعلوم، الأستاذ إيلي داي. كان مكتبه في مدرسة الآداب، وهو أول بناء أقيم على أرض الكلية، يرتفع منه برج ساعة يحلّق عالياً، ليُرى من جميع أنحاء المدينة. وكان في مكتب العميد رتلٌ من الطلاب؛ ولما جاء دوري قلت: «سيدي، أنا عزت طنوس، من مدرسة سان جورج في القدس» فأجاب في الحال، ودون الرجوع إلى أي ملف أو سكرتير: «يا سيد طنوس، عليك أن تقدم فحصاً في الفيزياء، الكيمياء المعدنية، علم النبات، علم الحيوان والهندسة المسطحة والفراغية. تبدأ الفحوص في الخامس من تشرين الأول (أكتوبر) وبوسعك، خلال هذه المدة، أن تسكن في بناء بلس، أهلاً بك في الكلية». قلت: «شكراً لك يا سيدي». وذهبت مستغرباً جوابه الدقيق دون الرجوع إلى سجل. كان التعامل بين الناس، في تلك الأيام، شخصياً، وأصبح اليوم آلياً ميكانيكياً.

وفي العاشر من تشرين الأول (أكتوبر)، كان على المتقدمين أن يراجعوا رئيس الكلية، للحصول على النتائج، الرئيس، هاورد بلس، ذلك العملاق، ابن المؤسس، الذي سلمني البطاقة الخضراء، بطاقة الدخول إلى مدرسة الطب. تلك لحظات يصعب وصفها. ركضت مبتهجاً إلى دائرة البريد، وأبرقت بالخبر السار إلى أمي التي كانت تصلي لأجلي، وتنتظر برقيتي بفارغ الصبر. وهكذا بدأت مرحلة جديدة من حياتي. الحلم تحقق وسوف أصبح طبيباً.

الفصل الثاني

العالم العربي تحت حكم الخلفاء
العالم العربي ـ العالم المتمدن
العالم العربي تحت حكم الامبراطورية العثمانية
الثورة التركية سنة ١٩٠٨ والنهضة الاستقلالية العربية
جمال باشا يشنق المجاهدين العرب الأحرار في
بيروت ودمشق والقدس

لكي نصل إلى تفّهم أفضل لما نكتبه عن فلسطين، أرى من الضروري أن نلقي نظرة على تاريخ الوطن العربي تحت حكم الخلفاء، وما تلاه من احتلال وتلاحم، مع الامبراطورية العثمانية التي دامت ٤٠٠ سنة تحت حكم سلاطين بني عثمان والتي انتهت أخيراً، حين مزقتها قوى الحلفاء، في الحرب العالمية الأولى.

العالم العربي مركز الحضارة

كانت سوريا، قبل الحرب العالمية الأولى، تضم لبنان وفلسطين وشرق الأردن، بالاضافة إلى سوريا الحالية، وهي جزء من العالم العربي، الذي امتد من الخليج العربي شرقاً، إلى المحيط الأطلسي غرباً*. هذا العالم العربي، ومنشؤه الجزيرة العربية، انتشر مباشرة بعد قيام الإسلام في القرن السابع، حين أراد أتباع النبي العربي العظيم، متحمسين لرسالته، أن ينشروا مبادىء العدالة والمساواة وأخوة الإسلام، بين شعوب كان أكثرها عبدة أصنام وآلهة تصنعها أيديهم. فخاضوا الحرب واحتلوا الأراضي الواسعة، حتى أصبح كل شمال افريقيا وجزء من افريقيا الوسطى، تحت حكمهم. كما احتلوا العراق وسوريا وجزءاً من اوروبا، جاعلين إسبانيا مركزهم الثقافي.

وقد ازدهرت الامبراطورية العربية تحت حكم الخلفاء، أمراء المؤمنين، ونمت، علميا وثقافياً، حتى أصبحت، بالفعل، محور العالم المتمدن كله. وما عهد الخليفة هارون الرشيد

---

* سنة ١٨٦٤، وبعد أحداث الشغب التي وقعت بين الدروز وطائفة من المسيحيين سنة ١٨٦٠ في جبال لبنان، قامت مقاطعة لبنانية صغيرة مستقلة استقلالاً داخلياً بموجب معاهدة وقعها الباب العالي في الأستانة (اسطمبول) وبعض الدول الأوروبية، وأهمها: بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا. وفقدت هذه المقاطعة استقلالها سنة ١٩١٤، حينما أعاد الأتراك احتلالها في بداية الحرب العالمية الأولى.

الذهبي إلا دليل على ذلك الازدهار الذي استمر حتى سنة ١٥١٧، حين احتل الأتراك بقيادة السلطان سليم الأول، الامبراطورية العربية كلها، واستطاعوا إقامة الامبراطورية التركية مكانها؛ وهي التي عرفت، فيما بعد، بالامبراطورية العثمانية. وبدخول الأتراك في الإسلام، استطاعوا سرقة الخلافة أيضاً، وأصبح السلطان التركي، في الاستانة، «أمير المؤمنين»، إلى أن زالت الامبراطورية والخلافة معاً، سنة ١٩١٨.



العالم العربي أثناء النكبة



عمر بن الخطاب

حكم الامبراطورية العثمانية

تعاقب على حكم الامبراطورية العثمانية دكتاتوريون هم سلاطين بني عثمان الذين جعلوا مركز حكومتهم في الاستانة، وكانت تعرف باسم «الباب العالي». ولم يكتف هذا الحكم الدكتاتوري بهدم كل ما بناه العرب من تمدن وحسب؛ بل أغرقوا العالم العربي في ظلام الجهل والتخلف، مدة أربعمئة سنة، بوسعنا أن نسميها «العهد المظلم» في تاريخ العرب. غير أننا يجب أن نسجل أيضاً، للتاريخ فقط، أن حكومة الامبراطورية العثمانية، في أواخر أيامها، كانت رسمياً حكومة برلمانية يتمثل الشعب فيها بجميع جالياته، من عرب وأرمن وأكراد وأتراك إلخ. . . في «مجلس المبعوثان» أو «مجلس النواب»، دون أن يكون ذلك التمثيل بنسبة عدد السكان، وهذا يعني أن العنصر التركي كان سيد المجلس، ليس لأنه يمثل الأكثرية، بل لأنه الأقوى. وكان السلطان، في الباب العالي، هو السيد الأعلى للمجلس والدكتاتور الذي حكم الامبراطورية كلها، حسب مصلحته فقط.

السلطان عبد الحميد: آخر دكتاتور عثماني (١٨٧٦ ــ ١٩٠٨)

كان السلطان عبد الحميد آخر سلسلة الدكتاتوريين. وما زلت أذكره وأنا طفل في نابلس، وتلميذ في مدرسة سان جورج. فقد كان أكثر فساداً من السلاطين جميعهم. وانحدرت الامبراطورية، في عهده، إلى أدنى مستوى من الانحطاط والانحلال. وقد كانت الدول الأوروبية، وبخاصة بريطانيا وفرنسا وألمانيا وروسيا، التي نمت بسرعة، صناعياً وعسكرياً، تُلقبّ الامبراطورية المنهارة «برجل اوروبا المريض» وترغب في أن تقتسمها فيما بينها. وكانت أول دولة أوروبية انتزعت لها قطعة واسعة من الامبراطورية العثمانية، فرنسا، حينما ألحقت الجزائر بممتلكاتها سنة ١٨٣٠، ثم ضمت بريطانيا العظمى عدن لامبراطوريتها سنة ١٨٣٩. ومع أن هذين الجزئين فُقدا، قبل جلوس عبد الحميد على العرش، غير أنهما قليلا الأهمية بالنسبة لما فقدته الامبراطورية في عهده. وفي سنة ١٨٨١ (بعد خمس سنوات من جلوسه على العرش) احتلت فرنسا تونس ومراكش. وفي سنة ١٨٨٢، احتلت بريطانيا العظمى مصر. وفي سنة ١٨٨٣ احتلت السودان.

ضياع الأراضي يحرك الثورة

كان لضياع هذه المناطق الواسعة من الامبراطورية ولاستيلاء الدول العظمى عليها، ردود فعل ثورية عند الضباط والسياسيين، نجم عنها تأليف هيئتين هما: حزب تركيا الفتاة وجمعية الاتحاد والترقي. وقد استطاعت هاتان الحركتان، بعد أن انتشرت فروعهما في جهات عديدة من الامبراطورية، تغيير الرأي العام في الحكم القائم، تغييراً كبيراً وصل أقصاه، سنة ١٩٠٨، حينما قامت جماعة من شبيبة الضباط «بانقلاب»، أعلن سقوط السلطان عبد الحميد عن عرشه، ونادى بحكومة الثورة.

الثورة التركية وسقوط السلطان عبد الحميد

كنت تلميذاً صغيراً في مدرسة سان جورج في القدس، لما أعلنت الثورة التركية. وبينما كنا ذات صباح من شهر تموز (يوليو)، نستعد للدخول إلى الصفوف، أعلن رئيس المدرسة، المستر رينولدز، أن الحكومة منحت جميع المدارس في الامبراطورية العثمانية، عطلة أسبوع كامل. وقبل أن نعرف أسباب هذه «المنحة»، طارت قلوبنا فرحاً، لأن عطلة أسبوع، وقت الامتحانات النهائية، هدية غير منتظرة. والحقيقة، كنت، وبقية الطلاب، أصغر من أن نقدر أهمية ما حدث، وكنا، لصغر سننا، نجهل أن السلطان عبد الحميد، سلطاننا، كان مستبداً صارماً، حكم رعيته بيد من حديد، وراح يسجن الأبرياء ويقسو على الشعب المُثقل بالضرائب. وكنا نجهل أن ميزانية الدولة، للتعليم والصحة وبناء الطرق والزراعة... الخ، كانت شحيحة وغير كافية، وأن الإدارات كانت فاسدة لدرجة أن أية قضية حكومية لا تجري بدون رشوة. كما كنا نجهل، أيضاً، أن لغتنا العربية، لم تكن لغة رسمية، وأن اللغة التركية كانت اللغة الرسمية الوحيدة في الامبراطورية، مع العلم أن العرب، أكبر الجاليات عدداً، ما كانوا يتكلمون التركية، كما أن الموظفين الأتراك ما كانوا يتكلمون العربية.



السلطان عبدالحميد

كان ٢٤ تموز (يوليو) سنة ١٩٠٨، يوم إعلان الثورة، ثورة أحداث الضباط، وكان أبطالها: طلعت ونيازي وأنور وجمال، جميعهم ينتمون إلى حزب تركيا الفتاة وجمعية الاتحاد والترقي، كما كان ينتمي أيضاً لهاتين الحركتين، ضباط من العرب. وكانت الأهداف الرئيسية لهذه الثورة هي: إسقاط السلطان عبد الحميد؛ تحرير السجناء السياسيين؛ تسريح ثلاثين ألف جاسوس كان يستخدمهم السلطان لحمايته؛ وتشكيل حكومة تمثل بإنصاف جميع أجزاء الامبراطورية. وكان شعار الثورة: «حرية، إخاء، مساواة»، أفضل الأهداف والشعارات وأنبلها. فكانت ردود الفعل عليها تفوق الوصف؛ إذ عم الفرح جميع أنحاء الامبراطورية العثمانية وبالأخص عند العرب؛ كيف لا وصدى هتافات: «الحرية والإخاء والمساواة» ملأ الآفاق.

وما زلت أتذكر جيداً تأثير إعلان الثورة على أهالي القدس. كان الناس، دون استثناء، في أبهج حال، يتبادلون القُبل في الشوارع، ويهنىء بعضهم البعض الآخر لخلاصهم

من نير العبودية، وينشدون، في مظاهرات ضخمة، الأناشيد الوطنية ويهتفون لأبطال الثورة، وكانوا يرقصون ويهزجون، وهم في هياج وحماس منقطعَي النظير، وبعواطف لا ضبط لها. وكان كل ما شاهدته في حياتي، من هذا القبيل، لا يقارن مع ما شاهدتهُ في القدس في ذلك الأسبوع، إلا بمناسبة واحدة سأذكرها فيما بعد.



أنور وجمال، من ضباط الانقلاب سنة ١٩٠٨

وما زلت أذكر أيضاً كيف كانوا يأخذوننا، كأطفال، من مكان إلى مكان، لنشترك في هذه الاحتفالات ولننشد الأناشيد الوطنية التي علمونا إياها بسرعة مثل:

مدحت في الجيش يدعو   أشهروا ماضي السلاح

وكذلك الشعر، حيث ألقيت قصيدة في إحدى الحفلات قلت فيها:

واستلَّ سيفاً نيازي كله لهبُ   وقال أنورُ قولاً دونَهُ الذهبُ

كان العرب أسعد شعوب الامبراطورية العثمانية لسقوط السلطان عبد الحميد، لأنهم كانوا ينتظرون إصلاحاً، ودستوراً جديداً يمنح شعوب الامبراطورية حقوقاً متساوية. وكانوا، في ذلك الوقت، من حيث العدد، ثلاثة أضعاف الأتراك. وانتظر العرب أن يتمثلوا، في مجلس المبعوثان الجديد، كالأتراك على الأقل. وكانوا يحبذون الإدارة اللامركزية؛ وهي نوع من الحكم الذاتي تحت حكومة فدرالية اتحادية.

ولم يطل الوقت حتى اكتشف العرب أنهم في ذهول، لأن الأتراك رفضوا اشراك أي من الجاليات الأخرى في الحكم، ولم يسنوا قانوناً يجعل اللغة العربية لغة رسمية. أما مجلس المبعوثان، فكان عدد النواب العرب فيه ضئيلاً، ولا قيمة عملية له. وأكثر من هذا، فقد

تملك الطيش ابطال الثورة فصمموا على تتريك العرب، وحاولوا أن يجعلوا اللغة التركية لغة الشعب العربي، فجعلوا تعليمها إلزامياً في جميع مدارس الامبراطورية وكلياتها وجامعاتها؛ الأمر الذي لم يجرؤ عليه الدكتاتور عبد الحميد. لذلك، ابتدأت مدرسة سان جورج، وأنا من طلابها، تعليم اللغة التركية، منذ سنة ١٩٠٩ كباقي المدارس.

العرب بين الاستقلال والشهادة

وبعد أن يئس العرب من أي إصلاح في الحكم التركي، رجعوا إلى نشاطهم السري السابق الذي بدأه عظماء الوطنيين، في أوائل هذا القرن، كالعالم فارس نمر، في «مقطم» القاهرة، والمجاهد، الشاعر الملهم، ابراهيم اليازجي، صاحب قصيدة: «تنبهوا واستفيقوا أيها العرب...»، «رمز الثورة العربية». ومن الجمعيات والأحزاب السرية التي استأنفت نشاطها: الإخاء العربي، والمنتدى الأدبي، وحزب العهد وحزب الفتاة واللامركزية وحزب الإصلاح. وكان أعضاء هذه الأحزاب والجمعيات، من جميع انحاء العالم العربي، يعملون سراً، مخاطين بأخطار جسيمة وبتأييد بعض الدول الأجنبية وبخاصة فرنسا. وكانت باريس والقاهرة مركزي اجتماعاتهم. وأخذ نشاط هؤلاء الوطنيين في السنوات ١٩١٢ و ١٩١٣ و ١٩١٤، يزداد، حتى بدا النجاح ظاهراً في الأفق لولا حلول الحرب العالمية الأولى، التي، وللأسف الشديد، أوقفت جميع النشاطات وأدت بأكثرية الأعضاء إلى الكارثة، وانتهت بتقديم العشرات منهم إلى «المحاكم العرفية» في عاليه (لبنان)، حيث حكم عليهم بالموت شنقاً، وكانت المشانق التي نصبها «السفاح» جمال باشا تنتظرهم في ساحات بيروت ودمشق والقدس.



جمال باشا

كل هذه الجهود الوطنية العظيمة، ونحن في المدارس والكليات، نجهل ما قام به هؤلاء الوطنيون من تضحيات جسيمة في سبيل استقلال الأمة العربية. لقد كانوا شهداء الأمة العربية، والأمة العربية لن تنساهم؛ فلا تزال جميع الأقطار العربية إلى اليوم، تحتفل بعيد الشهداء يوم ٦ أيار (مايو) من كل عام.

وقبل أن أنهي قصة «الشهادة»، وهي التضحية الكبرى، أرى من واجبي تسجيل أسماء بعض الذين أعطوا هذه الشهادة: مفتي غزة (فلسطين)، أحمد عارف الحسيني وابنه؛ سليم بك الجزائري؛ عبد القادر خرسا؛ شكري بك العسلي؛

عبد الوهاب الإنكليزي؛ عبد الغني العريسي؛ علي الأرمنازي؛ جورج حداد؛ سعيد الكرمي؛ سعيد عقل؛ حافظ السعيد؛ سليم الأحمد عبد الهادي؛ الشيخ عواد طبارة؛ صادق بك حيدر؛ شفيق المؤيد؛ بيترو باولي؛ محمود المحمصاني؛ عارف الشهابي؛ نايف تلّو؛ محمود الأفغاني؛ محمد شمالي؛ رفيق رزق سلّوم؛ أمين لطفي وسيف الدين الحبيب.

وفي القدس، نفذ حكم الإعدام بإثني عشر وطنياً دفعة واحدة.

ولم يكن شهداؤنا النبلاء جبناء، بل واجهوا الموت ببسالة خارقة، إذ صاح أكثرهم حينما سئلوا عن أمنيتهم الأخيرة، بأعلى أصواتهم: «لتسقط تركيا، ليسقط الأتراك، يحيا الاستقلال العربي». وكانت شتائم علي الأرمنازي قاسية جداً بحيث جعلت الجلاد التركي الدنيء يلطم الأرمنازي على فمه فيسيل دمه قبل أن يعدمه.

الفصل الثالث

في الكلية السورية الانجيلية في بيروت
(الجامعة الأميركية)
الكلية السورية الانجيلية كنز الشرق الأوسط
استمرار الحرب والمجاعة في لبنان
ثورة الشريف حسين، وجيش الأمير فيصل وجهته دمشق

في الكلية السوررية الانجيلية

كان العاشر من تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٤، وهو اليوم الذي أصبحت فيه تلميذاً في مدرسة الطب في الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الأميركية في بيروت)، يوم فرح لعائلة طنوس كلها. وقد قالت لي أمي أنها أخذت البرقية التي تلقتها عند نجاحي في فحص الدخول، ليقرأها كل أقاربي وأصدقائي في القدس. ثم ذهبت إلى مدرسة سان جورج لتنقل الخبر السار إلى زملائي السابقين الذين كانوا لا يزالون يعلّمون في المدرسة، ولا يعرفون ما يخبىء لهم الزمن، بسبب الحرب القائمة؛ ذلك أن مدرسة سان جورج، كانت مؤسسة انكليزية، أغلقتها الحكومة التركية بعد أسابيع، وبقيت مغلقة حتى نهاية الحرب.

تعريف بالكلية

كانت الكلية السورية الانجيلية في بيروت، وقد أسسها القس دانيال بلس سنة ١٨٦٦، مرسل أميركي، نتيجة ذهبية لجهود إرسالية طويلة في سوريا. وكانت سوريا، في ذلك الوقت، تضم لبنان وفلسطين وشرق الأردن، بالاضافة إلى سوريا الحالية.



دانيال بلس، مؤسس الكلية

كان المرسلون الأميركيون والفرنسيون أول من جاء لفتح مراكز تربوية في سوريا. فقد جاء المرسلون الأميركيون سنة ١٨٢٠ وركزوا عملهم في مدينة بيروت. وكانت آنذاك محاطة بالأسوار ويسكنها حوالي ٩ آلاف من الأهالي فقط. أما المرسلون الفرنسيون، فقد كان مجيئهم إلى سوريا سنة ١٦٢٥

ولكن الأتراك أوقفوا أعمالهم، فلم يرجعوا ثانية إلاّ سنة ١٨٣١، حين انتشرت معاهدهم في جميع أنحاء سوريا. وكانت النتيجة الذهبية، لهذه الجهود الطويلة جامعة القديس يوسف الشهيرة في بيروت (The University of Saint Joseph)

ونحن في هذا الحقل، جديرون بأن نذكر، أنه قبل افتتاح الكلية السورية الانجيلية بثلاثين سنة، لم تكن توجد كتب مدرسية مطبوعة باللغة العربية، ولم تكن توجد مطبعة في كل سوريا، تطبع باللغة العربية. وأول مطبعة عربية دخلت بيروت كانت المطبعة الأميركية التي نقلت من جزيرة مالطة، سنة ١٨٣٤. وقد بذل المرسلون الأميركيون جهوداً عظيمة، بمساعدة العالمين العربيين الشهيرين: ناصيف اليازجي وبطرس البستاني، لإيجاد كتب مدرسية مطبوعة باللغة العربية. وفي هذا المجال يجب أن نخص بالذكر الدكتور كرنيليوس فانديك، وايلي سميث ومجموعته، الذين اضطروا جميعاً لتعلم اللغة العربية بغية سد هذا الفراغ؛ وتكملة للمشروع، أسسوا مدرسة لتدريب المعلمين. وهكذا، لما فتحت الكلية السورية الانجيلية في بيروت سنة ١٨٦٦، وجدت الكتب ووجد المعلمون أيضاً.


أول عمدة للكلية السورية الانجيلية

لعبت الكلية السورية الانجيلية دوراً كبيراً جداً في نمو الشرق الأوسط التربوي. وكانت قد بدأت التدريس بـ١٦ تلميذاً فقط. وهي تقع في منطقة رأس بيروت، على قمة هضبة تطل على البحر الأبيض المتوسط الأزرق الجميل، ويشرف حرمها على منظر من أجمل مناظر العالم. ففي البعد، ترى جبل الكنيسة وجبل صنين مغطيان بالثلوج حتى منتصف السنة؛ وفي الأسفل القريب، ترى خليج سان جورج، وبعده خليج جونية؛ ولا يمكن للزائر إلاّ أن يلاحظ الموقع الفريد الجذاب الذي أقيمت عليه هذه الكلية.

في سنة ١٩١٤، كان أكثر طلاب الكلية من بلدان الشرق الأوسط وأغلبهم من العرب السوريين واللبنانيين والفلسطينيين، كما جاء إليها أيضاً، بعض الأرمن من شمال سوريا وأرمينيا، وعدد قليل من مصر وغيرها من البلدان، كإيران وتركيا. أما جهاز التعليم، فكان أيضاً مختلطاً: أغلبية أميركية وعربية وكندية، إضافة إلى عدد من البلدان الأخرى.

فروع الكلية

وكان للكلية ستة فروع هي: مدرسة الآداب والعلوم، مدرسة التجارة، مدرسة الطب، مدرسة طب الأسنان، مدرسة الصيدلة، ومدرسة الهندسة، وهي أحدثها. وكان هنالك أيضاً مدرسة اعدادية تدعى الآن: «الكلية الدولية (International College)، تابعة للكلية، يدخل خريجوها صف «الفرشمان».

إنطباعي الأول عن الكلية

كانت الحياة الجامعية في الكلية السورية الانجيلية، سنة ١٩١٤، تشبه كثيراً الحياة المدرسية في مدرسة سان جورج في القدس؛ فالمؤسستان إنجيليتان إرساليتان. وكلتاهما، انجلو ساكسون، تعلمان بالانكليزية. وكانتا تختلفان في وجوه أخرى أهمها حجم كل منهما، حيث كان كل شيء في الكلية أكبر وأضخم منه في المدرسة، وصرت أشعر أن مدرسة سان جورج، بحيرة صغيرة تعلمت فيها السباحة، وأن الكلية، بحر يجب أن أقلع فيه لأكتشف شواطىء جديدة.



دائـرة الآداب والعلوم (College Hall)

ولم يطل الوقت حتى تكيفت مع جو الكلية، وبما أني لعبت في السابق مع فريق مدرسة سان جورج لكرة القدم، ضد فريق الكلية، فقد استلمت مركزي في فريق مدرستي الجديدة، مدرسة الطب؛ وهو أحد فرق الفروع الستة. وكانت هذه الفرق الست تلعب الواحدة منها ضد الأخرى، وفي آخر الموسم، يلعب المنتصران، في يوم المباريات (Field Day)، لأجل كأس الكلية، والفريق المنتصر يحمل الكأس، ويحتفل به، بين الهتاف والتصفيق وينشد الجميع نشيد الكلية، النغم الذي قلما نسمعه في هذه الأيام.

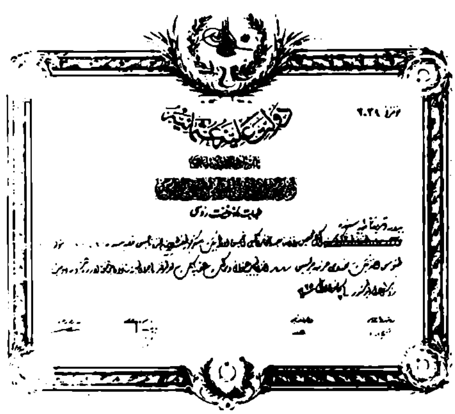
اهتممت كثيراً، إبان دراستي في الكلية بكرة القدم، وذلك كما فعلت في مدرسة سان جورج في القدس. وكنت قائد الفريق الطبي، في السنتين الأخيرتين، وربح فريقنا الكأس أربع سنوات متتالية؛ ويرجع ذلك للمستوى الرفيع الذي وصل إليه الفريق، وهو لا يقل عن مستوى فريق إحدى الولايات الانكليزية. وأريد هنا أن أخص بالذكر أنطون شدياق

من الاسكندرية، في مصر، نصف الظهير الوسط، وابراهيم شحادة، من زحلة في لبنان، نصف الظهير الأيمن؛ واسكندر بزجيان من أرمينيا، جناح اليمين؛ وجورج رزق من بيروت، جناح اليسار؛ وفايق شبيطة من الرملة في فلسطين، هجوم يمين؛ وعباس وكيل، من القاهرة، الظهير الأيمن. وأرجو أن يكون هؤلاء الرياضيون جميعهم على قيد الحياة ليتأملوا في تلك الأيام السعيدة التي قضيناها حقاً. وان أحببت يوماً الرجوع إلى الفتوة، فذلك، لألعب، مرة أخرى، كرة القدم على ملعب الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الأميركية) في بيروت فقط.

مدرسة الطب

كانت مدرسة الطب، في الكلية السورية الإنجيلية، إحدى المدرستين الطبيتين في بيروت؛ أما الثانية، فهي المدرسة اليسوعية، مدرسة القديس يوسف (سان جوزيف) التي تلقن الدروس بالفرنسية.

كانت دراسة الطب في الكلية تحتاج إلى دراسة سنتين في مدرسة العلوم والآداب، وأربع سنوات في مدرسة الطب، واتمامها، يخول التلميذ درجة «دكتور في الطب والجراحة» تليها سنة تمرين في مستشفى. وكان على الخريجين، أي الأطباء الذين يريدون ممارسة الطب في الامبراطورية العثمانية، أن يتقدموا إلى فحص حكومي. وكانوا قديما، يسافرون إلى الآستانة لتقديم هذا الامتحان، وكان في ذلك مشقة عظيمة. وإذا فشل الطبيب في الامتحان الأول، كان عليه أن يبقى سنة أخرى في الآستانة، أو في مكان آخر، قبل أن يدخل الامتحان الثاني.. ولحسن الحظ، ألغي هذا القانون وعوّض عنه بلجنة طبية تركية حكومية، تأتي كل سنة من الآستانة إلى بيروت، لإجراء هذه الفحوص، ويحصل الناجحون على شهادة تبيح لهم ممارسة الطب في الامبراطورية العثمانية (كما في الصورة).



مأذونية الطب التركية (الدولة العلية العثمانية)

وهذه الشهادة مكتوبة على رق، باللغة التركية، وقد شاءت الصدف أن يكون صفنا، سنة ١٩١٨، آخر من تلقى تلك الشهادة العلية العثمانية، وبهذا نكون قد وضعناً حداً للأربعمئة عـام التي حكم الأتراك العثمانيون فيها، العالم العربي.

كانت مدرسة الطب، لسنة ١٩١٤، في الكلية السورية الانجيلية، كنزاً للشـرق الأوسط؛ إذ أنه كان مؤلفاً من أطباء ينتمون إلى عدة جنسيات أهمها: الأميركية والكندية. وكان لهؤلاء الأطباء شهرة واسعة، مما أكسب مدرسة الطب شهرة اقليمية احتفظت بها إلى هذا اليوم. وليس من ضير في أن نذكر أسماء هؤلاء الأطباء واختصاصاتهم: فكان الدكتور وبستر اختصاصياً بامراض العين والأنف؛ والدكتور هاري دورمان، اختصاصياً في أمراض الأطفال؛ والدكتور مور، في أمراض النساء؛ والـدكتور جـون وورد، الجراح المعـروف؛ والدكتور وليم فان ديك، في الفيزيولوجيا وحفظ الصحة؛ والدكتور نعمة نخو،في الطب الشرعي و«الباثولوجي»؛ والدكتور أدامز، في أمراض الجلدية... إلخ. وكلهم كانوا مؤلِّفين، كل في إختصاصه وذوي خبرة واسعة جداً. وأوسعهم شهرة وخبرة كان الدكتور هاري غراهام، الاختصاصي في الأمراض الداخلية وعميد مدرسة الطب، وكانوا يقصدونه من جميع أنحاء الشرق الأوسط، وكانت أمام عيادته محطة ترام لا تزال معروفة باسمه إلى هذا اليوم.

هول الحرب العالمية الأولى

بالرغم من السلام والهدوء اللذين كانا يهيمنان داخل الكلية، كان التوتر والذعر مسيطرين في الخارج. فقد اضطرمت الحرب، وأعلنت الأحكام العرفية، وخيم الخوف على مناطق الأمبراطورية العثمانية جميعها. وزاد هذا الرعب، عندما شاع خبر محاكمة عدد من الوطنيين الأحرار الذين كانوا أعضاء في الجمعيات السرية، قبل الحرب، والذين تم شنقهم على يد السفاح، جمال باشا، في ساحات بيروت ودمشق والقدس. وقد وجد الأتراك اسماء هؤلاء الوطنيين الأحرار، في القنصلية الفرنسية في بيروت، وقد تركها القنصل، إهمالاً منه، وذلك بدلاً من أن يحرقهـا قبل سفره. واتهم الأتراك هؤلاء الوطنيين بالخيانة، وتولد من إعدامهم ذعر شديد في الأوساط العربية، وصار العرب يتوقعون سوء المصير، سيما بعد أن وصلت أخبار الثورة العربية في الحجاز ضد الأتراك؛ مما جعل الأتراك ينظرون إلى كل عربي كعدو، وليس كمواطن.. ولهذا كله، صار العرب يتجنبون الاختلاط بالأتراك، ويتحاشون الاجتماعات العامة والخاصة والحفلات، ويبتعدون عن الظهور في الشوارع ابتعاداً عن الشر. وحذا تلامذة الكلية هذا الحذو وبقوا ما استطاعوا، داخل حرم الكلية، مقاطعين كل التسليات الخارجية. ولم تكن السينما منها في ذلك الوقت، واكتفوا بالحفلات التي كانت ترتبها إدارة الكلية.

وست هول: ملاذ الاطمئنان

كانت «وست هول»، وهي البناء الضخم الذي بني سنة ١٩١٢، مسرحاً للحفلات والتمثيليات والمحاضرات والمناقشات، وجميع هذه النشاطات. وكانت تقام فيها أيضاً، صلوات الأحد المسائية الموحية. وكان، في الطابق السفلي، مطعم ومكان للعبة البولنغ، وعلى السطح حلقة التزلج على الدراجات. وكانت تستعمل غرفها المتعددة مكاتب لهذه النشاطات، وللجمعيات مثل جمعية الشبان المسيحية. والحقيقة، كانت «وست هول» مشغولة، ليلاً نهاراً، بهذه النشاطات، مقدمة الاستراحة والهدوء والطمأنينة التي كان الطلاب بأشد الحاجة إليها إبان الحرب.

كان مدير «وست هول»، القس دودج، الإنسان والمربي الكبير، في خدمة جميع الطلاب، واني لا أجد من الكلام ما يليق بوصف هذا الإنسان. فقد كان، أيام الحرب الحرجة، «السامري الرحوم» الذي وصفه الانجيل. وفي سنة ١٩٢٤، انتخب باستحقاق، رئيساً للكلية التي أصبحت الجامعة الأميركية في بيروت، خلفاً لحميه القس هاورد بلس، وكان شعار الرئيس الجديد: «التعمير لا التدمير»، كما كانت حياته مثالية.


القس الدكتور بايرد دودج، مدير وست هول

وكانت الرياضة، بسبب الحرب القائمة، النشاط الذي عكف عليه الطلاب أكثر من المعتاد فتحولت ملاعب الكلية إلى «ستاديوم أولمبياد» لجميع الألعاب: كرة القدم، كرة السلة، كرة المضرب، هوكي، رمي الجريد، رمي الطابة الحديدية، القفز العالي، قفز الحواجز، والركض على أنواعه. كانت هذه الألعاب كلها تلعب باستمرار ودون توقف، وبشكل لم يسبق له مثيل. وأستطيع القول: إن حرم الكلية كان للطلاب، مدة أربع سنوات (فترة الحرب)، الملجأ الأمين للراحة والاطمئنان.

وطالت الحرب، وبلغ عدد كبير من الطلاب سن الجندية فالتحقوا بالجيش العثماني، وكنا، كلما دعي أحد الطلاب إلى الخدمة العسكرية، نودعه في المعبد (Chapel) والحزن مالك قلوبنا، بترنيمة الوداع التي أولها:

«تشجع يا أخي، لا تتعثر
ولو كان دربك بظلام الليل»

«Courage Brother do not Stumble
Though thy path be Dark as night»

وكم كنت أرى، ونحن نرتل هذه الترنيمة المحزنة، دموعاً تسيل على الخدود. وكلما طالت الحرب ازداد الطلب للخدمة وتضاءل عدد الطلاب في الكلية تدريجياً، حتى انتهينا بنصف العدد عند انتهاء الحرب؛ وصفنا الذي ابتدأ بخمسة وخمسين طالباً سنة ١٩١٤، انتهى سنة ١٩١٨، بأحد عشر خريج فقط.

الحرب العالمية الأولى: كارثة عالمية

كانت الحرب، في السنوات الأربع التي قضيتها في الكلية السورية الانجيلية، كارثة عالمية. كانت أربع سنوات من القتال المتوحش. جنود أحداث من مختلف الجنسيات، في معركة يقتل الناس فيها بعضهم بعضاً ولا يعرف الواحد لماذا يقتل الآخر. وكانت اوروبا والشرق الأوسط يحترقان. ولست هنا لأسجل تاريخ الحرب العالمية الأولى ولكنني لا أستطيع إهمال ما تركته هذه الحرب من تأثير على منطقتنا. أما في ما يختص بأوروبا، فقد عانى شبانها أربع سنوات في الخنادق، أسميت في حينه: «حفر الرعب» (the pits of horror).

وقد ضحى هؤلاء الشبان، وكان عددهم يبلغ الملايين، لتحرير الشعوب، كما كان يعلن جميع المتقاتلين. ولكن للأسف الشديد، ذهبت هذه التضحيات عبثاً، وسنبين ذلك فيما بعد. وقد قيل أن هذه الحرب أضرمت لتنهي الحروب ولتنهي الاستعمار. وقد ظهر أخيراً، أنها أضرمت للمزيد من الاستعمار وللمزيد من التسلط والاستغلال، ولقد كان ذلك العصر، عصر الاستعمار وليس عصر تحرير.

قررت قيادة الضباط في الآستانة، وعلى رأسها طلعت ونيازي وأنور وجمال، وهؤلاء لا يقلون طموحاً عن الباقين، لسوء حظ الأمبراطورية العثمانية، دخول الحرب إلى جانب المانيا وأمبراطورية النمسا والمجر، ضد فرنسا وروسيا وبريطانيا العظمى. وغدا العالم العربي، وهو جزء من الأمبراطورية العثمانية، بطبيعة الحال، في حرب مع الحلفاء. ولم يكن لبنان قبل الحرب تحت سلطة الأتراك بل كان منطقة مستقلة استقلالاً داخلياً. ولكن السلطات التركية في الآستانة، حينما أعلنت الحرب على الحلفاء سنة ١٩١٤، ألغت الحكم الذاتي واجتلت لبنان واستولت عليه بكامله؛ غير أنها احترمت مادة واحدة من المعاهدة التي كانت بينها وبين الدول الأوروبية، وهي المادة المتعلقة بالجندية ولم تبطلها، فلم يُدْعَ اللبنانيون إلى الخدمة العسكرية في الجيش العثماني طوال مدة الحرب، باستثناء الأطباء وأطباء الأسنان والصيادلة. ولم تبين السلطات التركية في الآستانة، لماذا أبقت على هذا البند

من المعاهدة، وكان بوسعها إلغاءه؛ وربما كان السبب فقدان الثقة بالشعب اللبناني الذي عرف عنه، في ذلك الوقت، أنه شديد الميل إلى فرنسا.

المجاعة في لبنان

أراد الأتراك، مقابل منحة عدم تجنيد اللبنانيين في هذه الحرب الطاحنة، تعويضاً. وما أرادوا هذا التعويض ذهباً وفضة؛ بل أرادوه عيناً (مواد غذائية)، وهكذا جلبوا المجاعة إلى البلاد وأعطوا هذه المهمة، مهمة التجويع، لجمال باشا، القائد الأعلى للفيلق الرابع والذي كانت المناطق العربية كلها تحت إمرته.

وأول خطوة قام بها جمال باشا، لتنفيذ خطته، كانت تحديد استيراد القمح إلى لبنان. والخبز، دون شك، سيما في أيام الحرب، هو أهم مواد التغذية، وحينما ينقص، تبدأ المجاعة. وازداد تحديد الحنطة إلى البلاد تدريجياً. وحين جاءت سنة ١٩١٦ إذا بالطحين لا يقل وجوده فقط، بل يصبح غالياً جداً. ولا يمكن أن ينسى كل من عاش في لبنان، بين سنتي: ١٩١٦ و١٩١٨، المناظر المريعة اليومية بسبب فاقة الجوع. وكنت كلما مشيت من الكلية في رأس بيروت إلى البرج في وسط المدينة، أقفز فوق الجثث (عشر إلى خمس عشرة) الممدّدة على الرصيف وتبقى هناك حتى تأتي عربة البلدية ذات البغل الواحد لتلتقطها وتدفنها. وكنت أنزعج كثيراً لهذه المناظر المؤلمة في بادىء الأمر، ولكنها صارت روتينية لا أسأل عنها. وكان الأطفال يزعجونني أكثر بصراخهم «جوعان، جوعان»، ويرمون أنفسهم على أية نفاية لعلهم يجدون ما يأكلون، مناظر تقطع القلب حزناً. وكان الرضع من هؤلاء الأطفال يوضعون على أبواب المستشفيات ليلاً، سيما مستشفى الكلية، كي يؤخذوا ويطعموا في الصباح.

عامل جمال باشا الكلية السورية معاملة حسنة جداً؛ وذلك لعدة أسباب، منها: أولاً، لأن الولايات المتحدة لم تكن من المحاربين. وثانياً، لأن الكلية مصدر لعدد من الأطباء وأطباء الأسنان والصيادلة الذين يستلمهم الجيش كل سنة. وكان يأمر بتموين الكلية بالقمح بسعر زهيد حتى استمرت الكلية بإطعام الطلاب كالمعتاد. وكان لهذه المعاملة الحسنة سبب ثالث، وهو «أسنان جمال باشا». فقد كان القائد الأعلى، لحسن طالع الكلية، بحاجة إلى عناية دقيقة بأسنانه المعطوبة، وطلب من الدكتور دراي، (D^r Dray) عميد مدرسة طب الأسنان، الاعتناء بها، فأصبح طبيبه الخاص وصديقه العزيز. وقد أدت مهارة الدكتور دراي في العناية بأسنان جمال باشا إلى إنقاذ الكلية من أسنان الجوع.

الأمراض المعدية، الوباء في لبنان

وفي أوج اجتياح الجوع للبنان، جاءت الأمراض المعدية بلاءً آخر. كانت ضحايا التيفوس والتيفوئيد والحمة الراجعة بالآلاف. ومن بقي حياً، فرّ ليخلص نفسه، فهجر

اللبنانيون قراهم، وساروا على الأقدام، وأمتعتهم على ظهورهم، طلباً للنجاة. مشيت يوماً، وليس من طريقة أخرى للسفر في تلك الأيام، من بيروت إلى قرية الشوير، وهي مصيف على الجبال العالية، فما وجدت في طريقي غير قليل من القرى المأهولة، فأكثر القرى كانت مقفلة، هجرها أهلها ورحلوا إلى حوران في سوريا، حيث كان القمح غير مقنن.

يوبيل الكلية الفضي

كانت سنة ١٩١٦، السنة الخمسين للكلية السورية الانجيلية، أي موعد الاحتفال باليوبيل الفضي، وهل كان للكلية بسبب الأحوال السيئة السائدة أن تمر بهذه المناسبة السعيدة، دون أن تحتفل بهذا العيد السعيد؟ لا - فقد ظلت الكلية أسبوعاً كاملاً محتفلة بيوبيلها الفضي، وذلك تقديراً لإنجازات خمسين سنة في تدريب شباب الشرق الأوسط من رجال ونساء عظماء وهبوا أنفسهم لهذه الغاية الشريفة وتهذيبهم. والذي زاد في روعة هذه الحفلات حضور المؤسس العظيم، القس دانيال بلس، الذي أطال الله بعمره حتى يشاهد بعد عمل خمسين سنة، ثمرة جهوده العظيمة.

وقد ابتدأت لجنة الاحتفالات برنامجها بإقامة «صلاة شكر» في المعبد، حيث أجلس المؤسس، دانيال بلس، في ثوبه الجامعي، وسط المنصة وعن يمين الرئيس هاورد بلس، ابنه، وجلس جميع أساتذة الكلية، بثيابهم الجامعية، في محلاتهم. وعزف الأرغن الألحان البهيجة فيما كان الطلاب ينتظرون الاستماع إلى الرئيس البليغ.. بدأ الرئيس بمقدمته المعتادة «الله في معبده المقدس، لتركع الأرض كلها أمامه.

The Lord is in His Holy Temple, let all the Earth kned down before Him.

صلى الرئيس وحكى، فتأثر الجميع بكلامه، ولكن الذي أثر علينا أكثر من أي شيء آخر، لم تكن خطبته البليغة، بل الطريقة المتواضعة التي ترك فيها المنبر ومشى نحو أبيه وركع أمامه على ركبتيه ثم قبّل يده. وبذلك، فقد أبقى رئيس الكلية على الطريقة الشرقية في الاحترام والتبجيل الذي لسوء الحظ، تركه الغرب منذ زمن بعيد. ان هكذا مشاهد نادرة ومؤثرة إلى حد كبير، تبقى في الذاكرة طوال الحياة.

كان مسرح وست هول في حركة دائمة كل أسبوع الاحتفالات. كانت هنالك مسرحيات وحفلات موسيقية وحفلات رقص على اختلافها وجميع أنواع التسلية. والبرنامج الذي نال إعجاب الجمهور، بنوع خاص، كان «رحلة حول العالم»، حين أخذونا جماعات إلى بلدان العالم لنرى عاداتها وطرق معيشتها ومميزاتها ولبسها، فشاهدنا رقصة القبقاب في الولايات المتحدة، وسمعنا جزءاً من الأوبرا الايطالية، وشاهدنا عرساً لبنانياً بألوانه وأغانيه على العود والدربكة، «انني لا أذكر عدد البلدان التي سحنا فيها، ولكن السفرة دامت ساعتين».



وست هول

والمشهد الآخر الذي أعجب الجمهور كان التقدم العلمي الذي حصل في العالم، منذ تأسيس الكلية، ويمثل دور الصيدلي، سنة ١٨٦٦ ودوره سنة ١٩١٦. وكان أخي سليمان يتعلم الصيدلية في تلك السنة، فمثل صيدليّ سنة ١٨٦٦، وهو قاعد على الأرض في «دكان العطار» يبيع البابونج والميرامية وجميع أنواع الأعشاب، وهي في أدراج، لكل الأمراض. وكان الأطفال يبكون ويصرخون في الدكان وهم يجرعون زيت الخروع. وإلى جانب دكان العطار «بائع العقاقير، كانت صيدلية حديثة وفيها يقدم الصيدلي زيت الخروع للأطفال، بأقراص لا طعم لها ويركب العلاج ويزن الأدوية، بأدق الموازين. وقد جرى هذا التمثيل لبقية المهن في الكلية. وبالفعل كنا نجد أن تقدم العالم العلمي، في الخمسين سنة الماضية، كان مذهلاً. وإننا لم نكن نعرف إلاّ القليل جداً عن تقدم العلم في الخمسين سنة التي تليها. وقبل أسابيع قليلة، شاعت الأخبار عن استخدام الطيران من قبل المتقاتلين، في حربها البشعة، فوق المانيا وفرنسا. وصرنا نتصور أن السفر، بواسطة الطائرة من بلد إلى آخر، يصبح ممكناً بعد قليل. ولكن لم نكن أبداً نتصور في تلك الايام، أن يستطيع الإنسان في الخمسين سنة القادمة، أن يضع قدمه على القمر.

الولايات المتحدة تعلن الحرب على المانيا

كان عام ١٩١٧ مليئاً بالأحداث. كان الجوع ينهش لبنان بضراوة، والأوبئة، وبخاصة التيفوس، تفتك بالأهالي فتكاً ذريعاً. ودخلت الحرب سنتها الرابعة، ولا دليل في الأفق لنهاية قريبة للحرب القائمة. وتخيل الناس أن لا نهاية لها، لتعادل القوى، وكأنها حرب إبادة يمكن امتدادها سنين عديدة. فاستولى القنوط على الناس وهبطت المعنويات إلى

أدنى الدرجات. أما طلاب الكلية، فما كانوا في هذا الانهيار لأن الكلية السورية الانجيلية، نجت من هذه الفئات كلها بأعجوبة، فبرغم الجوع والأمراض المعدية والوباء والحرب الضروس القائمة، بقي التعليم طبيعياً والأكل عادياً والجو هادئاً دون معكر. واستمر هذا النعيم حتى ربيع سنة ١٩١٧، حين ابتدأت تظهر المتاعب في الأفق، وكان أولها أنباء إغراق السفن التجارية الأميركية، من قبل الغواصات الالمانية، وهي في طريقها إلى اوروبا، وانتقام أميركا لهذه الأعمال بإعلانها الحرب على المانيا. وكان أكثر الناس ارتعاباً، لهذا الخبر، قادة الأتراك في الأستانة، لأنهم يعرفون أن دخول أميركا الحرب مع الحلفاء في هذا الوقت المتأخر من الحرب يضمن النصر للحلفاء والخسارة لهم ولحلفائهم الألمان، دون أدنى شك.

الأمر بإغلاق الكلية السورية الانجيلية

بالرغم من أن الولايات المتحدة، بعد أن أعلنت الحرب على المانيا، لم تعلن الحرب على الامبراطورية العثمانية، فقد بقي عمدة الكلية والأساتذة في قلق شديد لم يستطيعوا إخفاءه. وقد تبين أنهم كانوا على حق، لأن والي بيروت، عزمي بك، المعروف بعدائه للأوروبيين، حتى وللألمان أنفسهم، جاء إلى بيت رئيس الكلية في اليوم التالي، وسلمه أمراً بإيقاف الكلية، وإيقاف التعليم فيها.

ودق جرس الكلية يدعونا إلى الاجتماع. ركضنا كلنا وأفكارنا قلقة لنسمع الخبر. كان الرئيس هاورد بلس واقفاً على المنبر ينتظرنا وهو شاحب الوجه. وبصوت خافت، أنبأنا بالمأساة. وكانت مأساة فعلاً. كان على الكلية أن تنقطع عن التدريس في كل فروعها، تلك هي أوامر الحكومة. ثم طلب الرئيس منا على كل حال البقاء في أمكنتنا حتى إشعار آخر، بينما تتدبر الإدارة أمرها مع القائد الأعلى، جمال باشا. ثم طلب من الجميع الالتقاء يومياً، في الساعة الرابعة بعد الظهر، في المكان نفسه.



القس الدكتور هاورد بلس، رئيس الكلية

كان هذا الخبر مؤلماً لنا، وكان له وقع شديد على الطلاب الذين كانوا يتساءلون: «ماذا سنفعل إذا لم تفتح الكلية ثانية؟ وكم ستكون مدة إغلاقها؟ وهل يستطيع الدكتور دراي التأثير على القائد الأعلى؟» كانت هذه الأسئلة كلها تحوم في أفكارنا دون أن نجد لأي منها جواباً، وكأن دائرة عريضة مظلمة تحيط بعقولنا.

أخذنا نجتمع في المعبد كل يوم، في الساعة الرابعة بعد الظهر، ونرقب الرئيس

الحزين يكرر الخبر المؤلم: «لا جديد». وعندما مرّ الأسبوع الثاني دون نتيجة، زاد قلقنا واضطرابنا؛ ولأننا لا نستطيع عمل شيء في هذا الموضوع سلمنا أمرنا للّه وهو الملجأ الوحيد.

الكلية تستأنف الدورس

وبعد اسبوع، دقت أجراس الفرح وتسربت الأخبار السارة التي تفيد أن جمال باشا أمر بإعادة فتح الكلية والعودة إلى التدريس فيها. وقرع جرس الكلية وكان الرئيس هورد بلس على المنبر ومن ابتسامة وجهه عرفنا ما سيقول. زف البشرى السارة لنا، وشكر القائد الأعلى، جمال باشا، شكراً حاراً لمساعدته القيمة. ثم قال: «إذهبوا بسلام»، ولم تسمع هذه الكلمات الأخيرة من شدة الهتافات التي استمرت وقتاً طويلاً. ويا لها من فرحة! الدروس ستستأنف والأحلام ستتحقق!!

إشاعات عن تقدم الجنرال اللنبي

في أواخر سنة ١٩١٧، انتشرت إشاعات تفيد أن قوات الجنرال اللنبي، القائد البريطاني الأعلى للحملة المعسكرة في مصر، غربي قناة السويس، قد تحركت شمالاً عبر صحراء سيناء باتجاه سوريا. قلت إشاعات لأنه، في تلك الأيام، لم يكن هنالك مذياع أو تلفاز؛ والجرائد المحلية، إن وجدت، فإنها مراقبة مراقبة شديدة، ولا تستطيع نشر أي خبر يثبط همة السكان الذين بات ولاؤهم للامبراطورية العثمانية، أمراً مشكوكاً فيه جداً. وفي الحقيقة، كان كل خبر سيء عن الحكومة مفرحاً لنا؛ ولقد كانت أكثرية الشعب العربي، سنة ١٩١٧ تدعو الله أن ينصر الحلفاء على الأتراك؛ وذلك لأننا كنا نريد الاستقلال عن السيطرة التركية. أما الذين كانوا يدعون لنصرة الأتراك فكانوا قلة، أكثرهم من الشيوخ ذوي النظرة البعيدة، ومنهم الأستاذ جبر ضومط، أستاذ اللغة العربية في الكلية... وهذا الرجل الوقور كان يؤكد لنا أن الفرح بنصرة الحلفاء لا يدوم أكثر من «شهر العسل» وأن الحلفاء لن يترددوا في السيطرة علينا، وتقسيمنا إلى بلاد متعددة وإلى أمم متعددة، ويعملون، في تخريبنا، أكثر من الأتراك، لأننا سنصبح أمماً ونحن الآن أمة واحدة. وكنا لا نصدق الأستاذ ضومط، وكيف نصدقه والمرسلون الذين كانوا عندنا كانوا أناساً صالحين مستقيمين، والبعض منهم كانوا مثاليين، فكيف يمكن أن تكون حكوماتهم مختلفة عنهم؟ وعلى هذا الخطأ استمررنا بالدعاء الحار لتقدم اللنبي، واعتبرنا جيشه جيش التحرير الذي سيخلصنا من الاضطهاد التركي.



الجنرال اللنبي داخل القدس

الإشاعات عن معركة الأمير فيصل

وفيما نحن في إشاعات تقدم الجنرال اللنبي، جاءتنا أخبار سارة أخرى من الشرق، رفعت معنوياتنا كثيراً، وهي أن الحسين، شريف مكة المكرمة، ثار ضد الأتراك، وحشد جيشاً بقيادة ابنه الأمير فيصل وهو سائر الآن غرباً باتجاه دمشق. وسمعنا أيضاً أن الشريف حسين وقّع معاهدة مع بريطانيا العظمى، على أن يساعدها العرب في هذه الحرب، وتتعهد هي بتحقيق استقلالهم بعد الحرب.

الجنرال اللنبي يحتل القدس

في الحادي عشر من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٧، دخل الجنرال اللنبي المدينة المقدسة، ففرح العرب بذلك وامتلأت صدورهم أملاً بأن سنة ١٩١٨، ستشهد نهاية الحرب. والحقيقة أن تبدلاً عظيمًا حدث في مركز الحلفاء العسكري: فالولايات المتحدة، بمواردها الضخمة وقوتها الضاربة، استطاعت دعم الحلفاء في الحرب في اوروبا وأصبحت القدس بيد الانكليز، وكان جيش الشريف حسين، بقيادة فيصل، يساعده في ذلك الضابط البريطاني، لورنس، متجهاً إلى دمشق. ودلّت هذه الوقائع العسكرية كلها على أن الحرب دخلت مرحلة دقيقة، وأن عام ١٩١٨ هو عام أحداث كبرى، أو العام الذي سوف ينقشع فيه الظلام ويطلع الفجر.

وانقضت الشهور الأولى من سنة ١٩١٨، والهدوء سائد على الجبهات كلها. وما كان العرب يهتمون بالجبهة الاوروبية التي كانت تدور فيها حرب الخنادق ببطء، والتقدم فيها بالياردات. كنا مهتمين بقوات اللنبي التي عسكرت على خط: نصف الطريق بين القدس ونابلس، ولم تتقدم ميلاً واحداً منذ الحادي عشر من كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٧. أما جيش فيصل، فقد كان، حسب الأخبار المتسربة، في الصحراء لا يتحرك بالسرعة التي نريدها نحن المتألمين. فنفد صبر الناس من الجوع والأمراض المنتشرة، وارتفع عدد الوفيات إلى أرقام مخيفة. ولا شك، بأن السلطات التركية كانت على علم بكل هذه المصائب، ولكنها ما كانت تشعر مع الأهالي، ولم يكن موقفها اللامبالاة فقط، بل زادت في الكارثة، بمصادرة أكثرية الحبوب في الأراضي العربية، لإطعام جيشها الجائع. وكان اهتمام هذه السلطات سنة ١٩١٨، منصباً على العنصر التركي فقط مهملة الاهتمام بغيره إهمالاً تاماً، حتى صار الجنود العرب يُرون، في بعض الأحيان، يشحذون أكلهم في المدن التي

يفرون إليها. ومع هذا كله كانت الكلية السورية الانجيلية لا تزال بعيدة عن فظائع الحرب، وعادت إلى جوها الهادىء بعد صدمة الإقفال في السنة السالفة، وكلنا أمل في أن يبقى كل شيء هادئاً حتى يوم التخرج المرتقب.

خطأ طلابي جسيم

غير أن أملنا في الهدوء والسكينة لم يتحقق. ففي ذات يوم من آذار (مارس)، كانت تمخر البحر ببطء، سفينة حربية للحلفاء، محاذية لشاطىء بيروت، ولما رآها الطلاب، اندفعوا جميعاً إلى حرم الكلية وابتدأوا يهتفون ويصفقون فرحاً، وكانت الهتافات جنونية فاحمرّت أكفنا من التصفيق وطارت طرابيشنا الحمراء عالية في الهواء ابتهاجاً دون أن نفكر أن السفينة الحربية هي للعدو، ودون أن نأبه للنتائج. وكان ما أظهره الطلاب من الفرح يفوق الخيال،فتصورنا أن سفينة الخلاص قد أتت أخيراً وما من عبودية بعد الآن، وصرنا ننظر بعيداً في الأفق، لنرى الأسطول الملكي يقترب؛ وما كان ذلك إلا تخيلاً بالذي نريده وهو يطمس الحقائق. وبينما نحن في غمرة نشوة الفرح هذه، فوجئنا بدقات جرس الكلية فأسرعنا إلى المعبد، وإذا بالرئيس هاورد بلس، على المنبر، شاحب اللون يرتجف غضباً، ولا يعرف ماذا يقول. لقد ارتكبنا خطأً فادحاً لا تصححه الكلمات؛ والخطأ، أيام الحرب، أكثر تدميراً من أيام السلم. هذا ما كان يجول في عقل الرئيس بلس. فاستعمل الرئيس أقسى كلمات التوبيخ: «هل أدركتم الخطر العظيم الذي وضعتم فيه الكلية وأساتذتها ومدرسيها وطلابها؟ إنه خطر الإقفال والابعاد والتوقيف والاضمحلال!»

وقفنا جميعاً في صمت تام مذعورين، فقد تبين لنا كم كنا أغبياء، وأن أخطاءً كهذه فادحة، لا تؤدي إلا لخرابنا. ولقد سقطت كلمات الرئيس كالقنابل على رؤوسنا، وابتدأ الخوف والذعر يدبان في قلوبنا، وصرنا نسأل أنفسنا عن المخرج السليم من هذه الورطة.

جمال باشا يزور الكلية

بقي الخوف والذعر في نفوسنا كل الوقت إلى أن جاء نبأ زيارة جمال باشا إلى الكلية. ومن أجل إظهار أسفنا وتوبتنا عما فعلنا، اصطففنا لاستقباله من بوابة الكلية إلى المعبد حتى إذا وصل تكررت مظاهرة الأسبوع الفائت. وهكذا كان، فارتفعت الهتافات واحتد التصفيق وطارت الطرابيش الحمراء في الهواء من جديد فكان استقبالاً حاراً فعلاً ثم سار جمال باشا بأبهة مع الرئيس بلس في مقدمة الموكب تتبعه حاشيته بثيابها الأنيقة البراقة، ثم مشى في رواق المعبد المزدحم بالطلاب وأُجلس على كرسي كبير على المسرح. ثم بدأ الرئيس الاحتفال بخطبة بليغة رحب فيها، بحرارة، بالقائد الأعلى واشاد بمواقفه الكريمة تجاه المؤسسة. وفي آخر الخطاب لقب الرئيس الزائر الكبير جمال باشا، «برجل التربية في تركيا». فرد القائد الأعلى على المجاملة بكلمة قصيرة باللغة التركية، وعند انتهائها، بادرنا

إلى القيام بعاصفة هائلة من الهتاف والتصفيق، دون أن نفهم كلمة واحدة منها. ثم عزف الأرغن النشيد التركي العثماني الذي تعلمنا أن ننشده بالتركية وهو يبدأ «برفدائي ملتز» وقد رتلناه جميعنا، أساتذة وتلاميذ، بحماس شديد.

سُر القائد الأعلى سروراً عظيمًا، ولا شك في أنه استغرب ولو قليلاً، أن ينشد النشيد التركي في مؤسسة أميركية، باللغة التركية. ولم يكن هذا نهاية الحفلة، فقد وقف الرئيس في وسط المسرح ورفع يده اليمنى، وصاح: «بادي شاهن شوق يشا» وهي «يعيش السلطان»، فرددناها بعده مرات ثلاث. وكان الهتاف للسلطان يعني دائمًا، نهاية الاحتفال، فخرج القائد الأعلى، الحائر، من المعبد، يرافقه الرئيس وسط هتافات تصم الآذان.

أحداث نادرة كهذه في حياة الإنسان تترك في نفسه حيرة. كل من عرف الرئيس بلس كما عرفناه لا يشك البتة في صدقه واستقامته، وانا أؤكِّد أنه أراد منا، كمواطنين شرفاء، أن نكون مخلصين للحكومة وهو أمر للأسف، غير ممكن، لأن الإخلاص، في أحوال كهذه، لا يكون للحكومة التي هي ليست حكومتنا، وفي هذا خيانة لوطننا العربي واستقلاله.

أيامي الأخيرة في الكلية السورية الانجيلية

اقتربت نهاية العام الدراسي، وفي خلال أسابيع قليلة، سنتقدم إلى امتحانات الكلية: الكتابية والشفوية. والذي كان يقلقني أكثر من أي شيء آخر، امتحانات الحكومة التي ستكون إما بالتركية أو بالفرنسية. ولأنني كنت أجهل التركية، فسأتكل على الله وسأقدمها بالفرنسية. وأخيراً، زالت المحنة ونجحت في جميع الامتحانات. وفي الخامس عشر من أيار (مايو) ١٩١٨، تقام الحفلة التي تمنحني، لقباً حلمت به طوال عمري.

لم يكن عندي المال لأخيط بدلة جديدة، أو «بونجور»، كما فعل بعض رفاقي، لأظهر فيها في الخامس عشر من أيار (مايو). وبما أنه لم يكن عندي أيضاً بدلة سوداء، اضطررت لأن أصبغ بدلة قديمة باللون الأسود حتى لا اختلف عن رفاقي. وقد كان اللباس هاماً، سنة ١٩١٨، لأن المتخرجين ما كانوا يرتدون اللباس الجامعي في حفلات التخرج، وهو تقليد اتبعته الكلية بعد عدة سنوات.

حفلة التخرّج

في الخامس عشر من أيار (مايو)، وهو أيضاً يوم عيد الكلية: اليوم الذي يجنى فيه ثمر العام، بدا لي كل شيء بهيجاً ومضيئاً.

جرى الاحتفال، وهو احتفال رسمي، كالمعتاد، في المعبد، ولكن صوت الجمهور المرح وفرح أهل المتخرجين وأصدقائهم يجعله يبدو وكأنه عرس. وكان الأرغن يغرق الضجيج.

ويأتي الموكب، أعضاء جهاز التعليم، وفي مؤخرته، الرئيس هاورد بلس، بأثوابهم الجامعية، يمشون الرواق ببطء حتى يحتلوا مقاعدهم على المسرح. ويجلس متخرجو مختلف المدارس في مقاعدهم، ومن ورائهم الأهل والأصدقاء.

وألقى الرئيس خطبته الأكاديمية للخريجين، وكان الموضوع: «كثيرون يُدعون وقليلون يُنتخبون»، فقال: «أنتم الآن من الذين دعوا، ولكن هل أنتم من الذين انتخبوا»؟ لقد كان خطاباً مثيراً حقاً، كما كان خطاباً موحياً لا ينسى.

طلب الرئيس من خريجي مدارس الطب وطب الأسنان والصيدلة، الوقوف. وقرأ يمين أبقراط، فأقسمنا اليمين.. ثم أتت اللحظة المهيبة. بعد ثوان سنُعطى الشهادات التي تجعلنا مسؤولين عن حياة جميع الذين يرغبون في عوننا من أي عرق أو لون أو عقيدة. ومشينا برُكَب راجفة إلى المسرح؛ حيث كان العميد يقدمنا، والرئيس يسلمنا الشهادات وسط الهتافات العاصفة. ولما تم كل شيء، انتهت الحفلة بنشيد «الالما ماتر».

والآن، لابد من القول: إني وأنا ذاهب إلى البيت مع أمي وأُختي، أحسست بأنني ماشٍ على بساط من المخمل ومحمول على أجنحة الابتهاج، شعور لم أشعر بمثله في الماضي.



خريجو كلية الطب سنة ١٩١٨

الفصل الرابع

طبيب في الجيش التركي
دمشق، مركز قيادة جمال باشا ــ قائد الفيلق الرابع
بيت المقدس تحت الحكم البريطاني
تصريح الجنرال اللنبي لأهالي القدس
اللنبي يحتل مدينة حيفا

الخدمة في الجيش العثماني

حل تموز (يوليو) عام ١٩١٨، والحرب لا تزال في أوجها. كان الهدوء على جميع الجبهات إلا الغربية منها، حيث عُزِّزت بقوات الولايات المتحدة، فأنعشت مشاة الفرنسيين والبريطانيين المتربعين في الخنادق.


المؤلف في الجيش العثماني

وبما أني حصلت على شهادة الطب، دُعيت لألتحق بالجيش العثماني. كما دُعي، أيضاً، اثنان آخران من رفاق صفي، وهما: زاهي حداد من يافا في فلسطين، وجورج أيوب من بسكنتا في لبنان. غير أن الجيش لم يقدم لنا البزات العسكرية التي كان مفروضاً أن نرتديها، حتى ولا الحزام أو السيف اللذين يميزان لباس الضباط. فكان علينا أن نشتريها. وما كان لدي المال لأشتري طقماً عسكرياً جديداً، فاضطررت لأن أعدّل طقماً قديماً جعلته بزة عسكرية رسمية. ووضعت، حول عنقي ياقة مخملية من اللون الأحمر القاني التي تشير إلى مهنتي الطبية، بينما كان يتميز الصيدلي بياقة خضراء. ولم يكن على كتفيَّ غير نجمة واحدة تدل على أني

ملازم أول (رتبة الطبيب تحت التدريب)، على أن أرقى، بعد عام، لرتبة نقيب بنجمتين. وبصف الأزرار النحاسية اللامعة في الأمام والسيف على جانبي الأيسر، ألمحت أمي بأني في غاية الأناقة.

دمشق محطتنا الأولى

حزنت لمغادرة بيتنا في بيروت، ولكنني سررت بالذهاب للخدمة العسكرية، لسبب وجيه وهو أن ضباط الجيش كانوا يأخذون «تعييناً» من المواد الغذائية شهرياً، وكنت، بكل فرح، أحول هذا «التعيين» إلى أمي وأختي في بيروت، كي أنقذهما من الجوع.

ذهبت ورفيقي بالقطار إلى دمشق حيث أقمنا في مستشفى القنوات. وكانت له حديقة كبيرة، يعتني بها أسيران انكليزيان سبق لهما أن اشتغلا في الحدائق سابقاً في انكلترا، فجعلا منها قطعة من الجنة مما حثّ «السير طبيب» (رئيس الأطباء) على تمديد مرضهما المصطنع ستة أشهر أخرى؛ مما جعلهما في غاية السعادة. وكانت لنا أحاديث ممتعة مع هذين الأسيرين اللذين تعودا زيارتنا كل مساء، ليسألا عن تطور الحرب، ولنثرثر بالانكليزية التي قلما كانا يسمعانها.

كانت دمشق، خلال الحرب العالمية الأولى، أهم مدينة في الشرق الأوسط، ففيها كانت قيادة القائد الأعلى، قيادة جمال باشا، القائد الأعلى للجيش الرابع والحاكم العسكري الأعلى للشرق الأوسط، شبه المستقل. وما كان الناس يعرفون شيئاً عن جمال باشا قبل الحرب، لكنه اشتهر حين بدأ ولايته بإعدام عدد كبير من العرب الوطنيين لاتهامهم بخيانة الدولة، وشنقهم في ساحات بيروت ودمشق والقدس. وقد هزّ هذا العمل الاجرامي كل الشعب العربي الذي لقبه، بعدئذٍ، «بالسفاح»، أو المجرم، وغدا اسمه مرادفاً لكلمة «رعب».



جمال باشا وأركان الفيلق الرابع

كانت دمشق، سنة ١٩١٨، «ترسانة»، وقد أخفى منظرها العسكري طابعها المدني؛ فبدت لي كأنها جبهة حرب لا مدينة. وكنا ننتظر قرار رئاسة الأركان، بتعييننا في الجبهات. وأثناء هذا الانتظار، تمتعنا بإقامة خمسة عشر يوماً في مستشفى القنوات، نجول على الأقدام شوارع أقدم مدينة في العالم، وأهم هذه الشوارع، شارع الحميدية الطويل، الذي يسميه الانجيل المقدس «المستقيم». والشارع هذا له

سقف من حديد مموج يحمي زواره من الشمس والمطر.... وأخيراً علمت، رسمياً، أنني عينت في مستشفى عسكري جميل يقع على جبل الكرمل في مدينة حيفا.

في مستشفى حيفا العسكري

كان المستشفى في السابق ديراً كاثوليكياً، ثم أُخلي ليستوعب مئتي سرير، وُضع خمسون منها في أوسع قاعة (الكنيسة). وكان المستشفى يمتلىء بالجنود المرضى، وكان أكثرهم مصاباً بحمى التيفوس والديزنتاريا. وكان الجهاز الطبي مؤلفاً من أربعة أطباء، يرأسهم عجوز تركي متعصب، عصبي، ينتهر أي واحدٍ منا دون سبب. كان لا يتكلم العربية ويكره العرب، ويريد الانتقام منا لأنه كان يعرف شعورنا؛ غير الموالي للأتراك ولقد ظن، من الاسم: عزت، أنني تركي مسلم؛ ولما علم أني لست كذلك، صب غضبه على رأسي. ولأنني كنت في فترة التدريب، كنت دائم الحذر منه. ولحسن الحظ، نقل، بعد شهر من التعايش المرير، إلى دمشق، وحل محله طبيب آخر دمث الأخلاق، نشأت بيني وبينه صداقة حقيقية. كان يعلم أنني مبتدىء، فجرّب أن يساعدني. ونمت صداقتنا، حتى أنه لما تحركت قوات الجنرال اللنبي، في أيلول (سبتمبر) متجهة شمالاً، ووصلت أطراف حيفا، فرّ هذا الطبيب الفاصل مع الجيش العثماني إلى بيروت وتركني وحدي مسؤولاً عن المستشفى. وكم كنت أريد أن أراه ثانية. أما رفيقا دراستي: الطبيبان زاهي حداد وجورج أيوب اللذان عُيِّنا في مستشفى عسكري آخر في حيفا، فقد أُمرا بالتراجع مع الجيش العثماني المهزوم، إلى بيروت. فاتصلت بهما، ففرّا وجاءا إلى مستشفى جبل الكرمل حيث عولجا كمريضين خوفاً من رجوع الأتراك إلى حيفا.

القوات التركية تتراجع وقوات اللنبي تتقدم

بقيت حيفا أربعة أيام بدون حكومة، فقد فرَّ الأتراك شمالاً باتجاه بيروت، والانكليز الهاجمون من الجنوب، أوقفتهم بطارية مخندقة في أعلى جبل الكرمل، بقصفها المحكم، ولم تستطع الفرقة الهندية ــ البريطانية التقدم واحتلال حيفا إلا بعد أربعة أيام من القتال المرير، وبعد أن أصيبت بخسارة فادحة. دخلت القوات البريطانية حيفا وهي في حالة غضب شديد، تسدد بنادقها على كل من تشك بأمره، وعلى كل مرتدٍ للّباس العسكري. وبدون تفكير، كنت واقفاً فرحاً باللباس العسكري على باب المستشفى كي أرحب بالجيش البريطاني الذي كنا ننتظره بفارغ الصبر، وإذا بقائد الفرقة يأمرني من بعيد بالوقوف وعدم الحركة، ووقفت الفرقة كلها. ولما اقترب مني سألني بغضب: من أنت؟ فقلت له: إنني طبيب المستشفى وانني واقف هنا لأرحب بكم. فلما سمعني أجيبه بالانكليزية خفف من غلوائه، وأمرني بأن أبقى ضمن جدران المستشفى، إذا أردت أن أبقى حياً.

العرب يرحبون بالقوات البريطانية

استقبل أهالي حيفا القوات البريطانية، كما في كل المدن والقرى السورية الأخرى، بفرح مفرط، ورحبوا بالجيش البريطاني وكأنه جيش الخلاص الذي انتظرناه طويلا. وقد استقبل كجيش حليف للجيش العربي الذي كان يقوده الأمير فيصل متوجهاً به إلى دمشق؛ حيث أستقبل على أنه جيش التحرير!

ولما توقف إطلاق النار وهدأت العاصفة، اندفع الناس إلى الشوارع يهنىء بعضهم البعض الآخر، واستمرت الأفراح المنقطعة النظير أسابيع، وكانت أفراحاً شبيهة بأفراح سنة ١٩٠٨، حين سقط السلطان عبدالحميد. وفي كلتا المناسبتين، كان الفرح عظيمًا؛ ولكن، لسوء الحظ، لم يتم التحرير الذي صار الفرح لأجله، كما سنرى.

وفي اليوم التالي، جاء طبيب بريطاني برتبة عسكرية عالية ليستلم المستشفى. وجُلت في المستشفى معه، فكان مسروراً جداً بما رأى، وطلب إليّ أن أستمر في الخدمة ووعد بأن يزور المستشفى يومياً للإشراف على العمل، وهكذا كان.

وسار العمل في المستشفى كالمعتاد مدة شهر، وبعدها ابتدأ المستشفى يتحول إلى معسكر أسرى، وأخذ أسرى الحرب من الأتراك يحلون محل المرضى، فتأسفت لهذا التغيير وحبذت الاستقالة والذهاب إلى القدس، حيث ينتظرني أهلي وأصدقائي الكثيرون، وفضلت هذا على البقاء في دير كاثوليكي محول إلى سجن. والحقيقة أن قلبي صار في القدس، أجمل مدينة في العالم لديّ.

رفضت السلطات العسكرية البريطانية استقالتي، وهددت بإرسالي، إن أصرّيت على ترك المستشفى، إلى معسكر الأسرى في اللد، واعتبرتني أسير حرب ما دامت الحرب قائمة. فدافعت عن نفسي أمام رئيس الأطباء، وأمام رئيس الأركان العامة، وأكدت أني لم أكن يوماً جندياً وفي يدي بندقية أطلق منها النار، بل كان في يدي الدواء الشافي للمرضى وللمقاتلين. ثم شددت على أن أهل القدس، وأهلي وأقربائي وأصدقائي منهم، بحاجة ماسة إلى خدماتي وخدمات الذين مثلي لنساعدهم في أمراضهم وننقذهم من ويلات الجوع والحرب بعد أربع سنوات من الحرب وجور الأتراك.

ويظهر أني حظيت بعطف رئيس الأطباء فأرسلني، تحت الحراسة، إلى قائد الشرطة العسكرية الذي أرسلني بدوره إلى دائرة المخابرات العسكرية للاستجواب. وقمنا بهذه الرحلات، بين مختلف المكاتب العسكرية، على الخيل؛ وكان الحمار آخر دابة ركبتها إذ نقلني من نابلس إلى القدس سنة ١٩٠٨، أي قبل عشر سنوات تماماً. وكان سروري عظيمًا حين وجدت أن الذي سيستجوبني في المخابرات هو رئيسها، النقيب دافيلد، وهو الذي التقيت به مراراً في بيت الدكتور ناصيف قعوار وصرنا أصدقاء. فصرف الحرس وأجلسني

على كرسي ليخفف من تعبي وروعي، ثم استجوبني بكل لطف. ولما علم أن ثقافتي انكليزية ـ أميركية وليست ألمانية، أعطاني رسالة مغلقة إلى قائد الشرطة العسكرية كتب فيها: «هذا الرجل حرّ منذ اليوم».

العودة السعيدة إلى القدس

ذهبت إلى القدس وقلبي طائر فرحاً. وبعد أن مررت بقرية شعفاط، رأيت المدينة المقدسة الخالدة ومنظرها الخلاب، بأبراجها وقبابها ومآذنها التي لم تتبدل. القدس، المدينة المقدسة التي أراد «الأشرار»، عبر التاريخ أن يستولوا عليها بالسيف وباسم الدين، وفشل السيف في كل مرة.

ولما وطأت قدماي الأرض، أرض القدس، رفعت شكري القلبي إلى الله القدير، الذي حفظني وعائلتي برحمته الواسعة، من أخطار الحرب وويلاتها والذي أعاننا في العودة إلى أقدس مدينة في العالم المسيحي وأحبّها. إن مدينة القدس تختلف عن باقي المدن. إن كل شيء فيها خاص ـ كنائسها، جوامعها، مقدساتها، مزاراتها. وفوق كل شيء تاريخها المقدس. إنها مدينة فريدة، مدينة الأنبياء والقديسين، مدينة الشهداء والتلاميذ والحجاج الأتقياء على مدى الدهور. أما اليوم، فقد تحولت إلى مدينة للفريسيين، للجيوش، للطائرات الحربية، للقنبلة الذرية، للنهب للسلب والتعذيب، مجردة من كل قدسيّة. «الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون، لأنكم جعلتم بيت أبي بيت لصوص» (الانجيل المقدس).

كم كان فرحي عظيًما حينما التقيت أقربائي وأصدقائي الذين لم أكن قد اتصلت بهم منذ أربع سنوات. وبدت القدس كئيبة حزينة، لا تشبه القدس سنة ١٩١٤؛ وذلك لما عاناه أهلها من عذاب وجوع ومشقة أيام الحرب. وقد انتعش الأهالي قليلاً بدخول الجيش البريطاني القدس، وبدأ الفرح يدخل قلوبهم لخلاصهم من النير التركي ولأملهم بمستقبل باهر. وعلى كل حال، كانوا يتمتعون «بشهر العسل» مع الادارة العسكرية البريطانية المؤقتة وضباطها المستقيمين الطيبين.

زيارتي لمدرستي القديمة

وأول زيارة قمت بها، كانت لمدرسة سان جورج التي قضيت فيها أحلى أيام حياتي. وكان حزني شديداً حينما وجدت جميع أقسام المدرسة والكاتدرائية وبيت الأسقف والملاعب، مقفلة، والسكون مخيًما على المنطقة كلها. وقد بدأ هذا السكون المخيف، منذ بداية الحرب. ولم أرَ خراباً وعلمت، فيما بعد، أن شيئاً في المطرانية لم يمس، ما عدا منبر الكاتدرائية ومذبحها؛ فقد نسفتها السلطات التركية في بحثها عن مدفع قيل لها إنه مخبأ داخل الكنيسة. وهذا حدث حينما كان القس «الكنون» هيتشنز مسؤولاً عن الكاتدرائية.

وقد فسر الأتراك هذا اللقب اللاهوتي (كَنون) بـالمدفـع*. ولم يكتشف الضباط الأتراك خطأهم، إلا بعد نسف المنبر والمذبح. وستر الله ما كان أعظم.



باحة الكتدرائية؛ حيث دخل الجيش التركي يفتش على «الكانون»

كان سروري عظيًا حينما وجدت في المكتبة؛ وهي المركز الوحيد الذي لم يغلق، صديقي القديم الحميم، داود دعدس الذي تركته السلطات التركية ليقوم بالاشراف على المطرانية، حتى رجوع الأسقف. وبعد أن تبادلنا القبل والدموع والسلامات الحارة، أخذني إلى بيته، في البقعة الفوقى؛ حيث قضينا عدة ساعات في ذكريات الأيام الخوالي الحلوة. وروى لي، أيضاً، أن السلطات العسكرية التركية، لّما سمعت بوجود مدفع (كانون) في البناء، أرادت أن تنسف المطرانية كلها، بما فيها المدرسة بكاملها.

ممارسة مهنتي، هي النار التي تلتهب في أحشائي. والصعوبة في الأمر أن المستشفيات في القدس، كانت جميعها أجنبية ومن الصعب أن تجد عملاً في أي منها. وكان أخي سليمان صيدلياً في الجيش العثماني يخدم في أضنة، وقد سُرِّح من الجيش، وهو الآن في

* نشير إلى أن كلمة كانون بالأجنبية تعني مدفع (Cannon) وقس أو كاهن (Canon).

طريقه إلى القدس. فرأيت من الأفضل أن نفتح معاً حالما يعود، مركزاً طبياً. ولكن، قبل هذا كله، كان من الضروري الاستقرار باستئجار بيت نسكن فيه. ولسوء الحظ، ذهلت لما اكتشفت أنه لا وجود لطابق نسكن فيه، وسبب هذا النقص يعود إلى قلة البناء في القدس طوال مدة الحرب، وهو عجز في الإسكان يشمل أكثر بلاد العالم. ولكن، لحسن الحظ، لم يتأثر الكرم والنخوة العربيان بشذوذ الحرب وويلاتها، فخف في الحال إلى نجدتنا آل عكرا الكرام؛ وأحد ابنائهم الآن أستاذ مشهور في الجامعة الأميركية في بيروت، وعرضوا علينا أن نقاسمهم سكنهم حتى يأتي الفرج، وهو عرض قبلته بكل شكر وامتنان. فحصروا أنفسهم في غرفتين وكذلك نحن. وفي الحال، أبرقت إلى أمي وأختي بالمجيء إلى القدس.

البدء بممارسة الطب

أصبحت جاهزاً لممارسة مهنة الطب التي طالما تمنيتها. ولحسن الحظ، التقيت بالدكتور وورد، استاذي في الجراحة في الكلية، وهو المشرف على مراكز الصليب الأحمر الأميركي للإسعافات الطبية. ولقد افتتح الصليب الأحمر الأميركي للاسعاف، مشغلين للخياطة في القدس، تعمل في كل منهما ٥٠٠ امرأة بأجر يومي. وقد ألحقت بكل مشغل، عيادة طبية صغيرة لمعالجة المريضات منهن. فطلب مني الدكتور وورد أن أقوم بهذا العمل، فوافقت مسروراً. كنت أزور كل يوم عيادة واحدة وكان معدل عدد المريضات اليومي نحو الخمسين، أكثرهن كن مصابات بحمى الملاريا، آفة تلك الفترة، التي كانت تفتك بالسكان فتكاً ذريعاً. وكنا، نحن الأطباء، نحسب كل حمى، ملاريا، إلى أن يثبت التشخيص عكس ذلك، وهذا عكس ما هو عليه الآن.

كان راتبي الشهري يبلغ ١٧ جنيهاً مصرياً يضاف إليها «تعيين» من المواد الغذائية، وهو راتب كان يعد، في تلك الأيام، جيداً لقاء عمل نصف نهار في اليوم. وكان الجنيه المصري، الذي جاء به الجيش البريطاني من مصر، هو العملة الرسمية الوحيدة في فلسطين، إلى أن حلت محله بعد أربع سنوات الليرة الفلسطينية. وكان الجنيه المصري عملة ورقية تحتفظ بقيمتها الذهبية. وما استعملنا عملة ورقية قبل الحرب العالمية الأولى، وكانت ليرة الذهب العملة الرسمية الوحيدة.

أما من الناحية السياسية، فقد كان كل شيء هادئاً في القدس. انتهت كارثة الحرب والمال كثر في التداول لكثرة ما جاء به الجيش البريطاني والصليب الأحمر الأميركي.

القدس تحت الاحتلال البريطاني

لم تصب القدس بأذى بسبب الحرب العالمية الأولى، فقد كان الأتراك، على قسوتهم مع الشعوب الخاضعة لهم، عاطفين تجاه بيت المقدس، دينياً؛ ولما اقتربت قوات اللنبي من المدينة المقدسة، وأصبحوا في ضواحيها، أرسل متصرف القدس، خوفاً من أن تضرب

المدينة أكثر بالقنابل، إلى القائد البريطاني رسالة باليد، هذا نصها:

«إلى القيادة الانكليزية

منذ يومين، والقنابل تسقط على بعض الأماكن في القدس الشريف، وهي بيت المقدس لجميع الأمم. ولكي تحمي الأماكن المقدسة من الدّمار فقد سحبت الحكومة العثمانية جنودها من المدينة وقد عينت موظفين ليحرسوا كنيسة القيامة والقبر المقدس والجامع الأقصى الشريف وبقية الأماكن الدينية ونحن نأمل نفس المعاملة من قبلكم».

أرسلت هذه الرسالة مع حسين بك الحسيني، رئيس البلدية باليد لكي يضمن وصولها(*).

بعد ذلك، غادرت القوات العثمانية القدس كلها ولم يبق من سبب لضرب المدينة المقدسة لاحتلالها، فدخلتها القوات البريطانية بسلام في الحادي عشر من كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٧. وللتاريخ يجب أن أسجل هذا الحدث التاريخي، بالشكر والمديح، لمتصرف القدس النبيل «عزت»؛ فهو، بهذا العمل الشريف، وفرّ على القدس، ضربها بالقنابل، لأن التجربة علمتنا، فيما بعد، أن القيادة البريطانية ما كانت وفرّت المدينة المقدسة من أجل أماكنها المقدسة أو لأنها أرض مقدسة، في سبيل احتلالها.



حسين سليم الحسيني، رئيس بلدية القدس، يستقبل الجيش البريطاني كحليف

(*) أرسل لي هذه الوثيقة الهامة المطران نجيب قبعين، عن السيد ميخائيل أبو حاطوم الذي كان في القدس، في ١١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٧.

اللنبي يدخل القدس مترجلاً



الجنرال اللنبي يدخل مدينة القدس على قدميه

كان لدخول الجنرال اللنبي القدس مترجلاً، احتراماً لمدينة القدس الشريفة، أثر كبير على أهالي المدينة. وأمام بوابة القلعة الشهيرة داخل باب الخليل، ألقى الجنرال اللنبي بيانه التاريخي بين حشد كبير من الناس، موجهاً كلامه إلى أهالي المدينة المقدسة؛ قائلاً:

«بما أن مدينتكم ينظر إليها، بعطف، المؤمنون بثلاثة من أعظم أديان الإنسانية، وبما أن أرضها كرستها، عبر القرون، صلوات جماهير الحجاج الاتقياء، من الديانات الثلاث، فإني أعلن لكم أن كل بناء مقدس، أو مكان أثري، أو بقعة مقدسة أو مقام، أو مكان تقليدي أو وقف أو وصية دينية، أو مكان جرى عليه العرف للصلاة أو ما شابه من اعتقادات الديانات الثلاث، سيبقى كما كان وسيُحمى حسب الأعراف القائمة وبحسب عقيدة الذين يؤمنون بقدسيتها».



الجنرال اللنبي أمام القلعة وحداد باشا يقرأ تصريحه (اللنبي) لأهل القدس

إن البعض يعتقد أن الجنرال اللنبي ألقى بيانه لشعب القدس، قبل أن يعرف شيئاً عن وعد بلفور الذي تبنته حكومته سراً، قبل شهر واحد من إلقاء الجنرال لبيانه. وقد تجاوز صدى البيان القدس إلى سوريا والعالم العربي. كان بياناً عادلاً ومستقيماً، أكد للعرب المحافظة على الوضع الراهن، وأن القدس ستبقى الملجأ الروحي للأديان الثلاثة العظيمة.

أخيراً، تجب الملاحظة أن الجنرال اللنبي في بيانه، حصر نفسه بالأماكن المقدسة ووضعها الراهن دون سواها، وهذا ما كان متوقعاً، لأن الجنرال اللنبي كان رجلاً عسكرياً وليس رجلاً سياسياً.

الفصل الخامس

اتفاقات وتصريحات وبيانات صدرت عن الحلفاء في الحرب العالمية الأولى

١ ـ مراسلات «ماكماهون ـ الحسين»
٢ ـ اتفاقية «سايكس ـ بيكو»
٣ ـ «وعد بلفور»
٤ ـ بيان القائد هوغارت
٥ ـ التصريح البريطاني للعرب السبعة في القاهرة
٦ ـ تصريح ولسون. رئيس الولايات المتحدة
٧ ـ نداء الحكومة البريطانية للجنود العرب
٨ ـ تصريح الجنرال اللنبي في القدس (الفصل الرابع)
٩ ـ التصريح الانكليزي ـ الفرنسي في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨

انتهت الحرب العالمية الأولى بهدنة احتفل العالم بها، في الساعة الحادية عشرة من اليوم الحادي عشر من الشهر الحادي عشر لعام ١٩١٨. وبالفعل، فقد كان العالم كله فرحاً في ذلك اليوم، اليوم الذي انتصر فيه الحلفاء في حرب سقطت فيها ملايين الضحايا من الشبان، من أجل حرية النوع البشري، وبات العالم على عتبة عصر جديد، عصر الحرية والخير.

وقد كان العرب يوم الهدنة أكثر الشعوب تفاؤلاً وأملاً، ولهم العذر في ذلك؛ فهم، عدا عن حقهم الطبيعي بالاستقلال، عقدوا معاهدة مع بريطانيا العظمى (مراسلات ماكماهون الحسين)، اتفقوا فيها على أن يثور العرب ضد الأتراك وأن تضمن بريطانيا، بالمقابل، استقلال العرب بعد الحرب. فثار العرب ضد الأتراك ووفوا بتعهداتهم بموجب المعاهدة... ولم يكن هذا التأكيد الوحيد لهم، فإلى جانب الشعار الذي كان يردده الحلفاء يومياً: «نحن نحارب من أجل حرية العالم» (We Fight For World Freedom)، أعطى زعماؤهم للعرب، تصاريح وبيانات وإعلانات في أوقات مختلفة يؤكدون لهم فيها استقلالهم. وكان منها: «نداء بريطانيا العظمى للجنود العرب في الجيش العثماني»، سنة ١٩١٧، كي يثوروا ضد الاتراك. كذلك تصريح الرئيس وودرو ولسون، رئيس الولايات المتحدة، في

الرابع من آب (أغسطس) عام ١٩١٨. وأكثرها تأكيداً، كان التصريح الانكليزي ـ الفرنسي الذي صدر قبل أربعة أيام من الهدنة، أي في السابع من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨. والذي كان واضحاً جداً في ما يخص «التحرير الكامل والنهائي للشعوب التي كانت مضطهدة من الأتراك، مدة طويلة، وإقامة حكومات وإدارات وطنية، تستمد سلطتها من ممارسة السكان لحريتهم وحقوقهم، حسب اختيارهم». وانني لا أجد كلمات أوضح وأنبل من هذه.

لكن، ويا للأسف! كانت هذه الاتفاقات التي عقدها الحلفاء، والتصاريح والبيانات التي أدلوا بها، والمتعلقة باستقلال العرب، تطمئنهم، لو أن الحلفاء تابعوا الحرب بنية صافية، من أجل المبادىء النبيلة التي أعلنوها والتي كان منها: «نحن نقاتل من أجل حرية العالم». والحقيقة أن هذا الشعار كان شعار القواد العسكريين لا السياسيين الطامحين. فقد كان هدف السياسيين الوحيد، كسب أكبر ما يمكن من المستعمرات وليس تحقيق حرية الشعوب. وقد كانت كل الاتفاقات المعقودة، خلال الحرب، بين الحلفاء ومختلف الفرقاء قد أبرمت لتلبّي متطلبات الحرب فقط، دون أن تثني المنتصرين عن تحقيق هدفهم الأساسي: وهو الاستعمار.

وقد كان لهذه الاتفاقات والتصاريح والبيانات التي أعطاها الحلفاء، خلال الحرب، أهمية كبرى عند العرب لأنها لعبت دوراً هاماً، في تقسيم أراضي الشرق الأوسط في مؤتمرات الصلح؛ وهذه الاتفاقات هي التالية:

١) مراسلات ماكماهون ـ الحسين؛ ٢) اتفاق «سايكس ـ بيكو»؛ ٣) وعد بلفور؛ ٤) بيان القائد هوغارث؛ ٥) التصريح البريطاني للزعماء العرب السبعة في القاهرة؛ ٦) نداء بريطانيا العظمى للجنود العرب في الجيش العثماني؛ ٧) تصريح الرئيس وودرو ويلسون، رئيس الولايات المتحدة؛ ٨) الاعلان الانكليزي ـ الفرنسي، في السابع من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨.

١ ـ مراسلات ماكماهون ـ الحسين

مراسلات ماكماهون ـ الحسين هي المعاهدة التي عقدت بين السير هنري ماكماهون، المفوض السامي البريطاني في مصر، ممثلاً لحكومة بريطانيا العظمى، والشريف حسين بن علي، حامي الحرمين الشريفين في مكة المكرمة، بالنيابة عن العرب، والتي اتفق بموجبها على أن يثور الشريف حسين ضد الأتراك العثمانيين، أي ضد السلطان، «خليفة المسلمين» و«أمير المؤمنين»، وبالمقابل، تعمد الحكومة البريطانية بعد الحرب إلى:

١ ـ الاعتراف باستقلال العرب في كل أراضيهم باستثناء الأراضي الواقعة غربي الخط الممتد شمالاً من دمشق إلى حمص وحماه وحلب. وهي تعني جغرافياً لبنان. والسبب

الذي حدا بالانكليز إلى هذا الاستثناء هو المطامع الفرنسية في لبنان.

٢ ـ توافق بريطانيا العظمى على إعلان «خلافة عربية للإسلام» وهذا يعني عودة الخلافة للعرب بعد خسارتها أربعمئة سنة.

ابتدأت المفاوضات بين بريطانيا العظمى والشريف حسين في مطلع سنة ١٩١٤، قبل الحرب العالمية الأولى، بينما كان اللورد كيتشنر مفوضاً سامياً في مصر. فقد عرج الأمير عبدالله، الابن الثاني للشريف حسين، في طريق عودته من الاستانة (اسطمبول) إلى مكة؛ حيث كان يمثل الحجاز في «مجلس المبعوثان» (النواب)، على القاهرة، حيث التقى بالمستر رونالد ستورز (السير رونالد ستورز فيما بعد) في مكتب المفوض السامي، وتناقشا في مساعدة الانكليز لاستقلال العرب؛ ومن ثم تحادث الأمير عبدالله مع اللورد كيتشنر بالموضوع. ومع أن هذه المحادثات لم تؤد إلى نتيجة، غير أنها كانت اتصالاً مفيداً، لأن الحرب ما لبثت أن اندلعت بين بريطانيا وفرنسا وروسيا، من جهة، وألمانيا وامبراطورية النمسا والمجر والامبراطورية العثمانية، من جهة أخرى. وقد ارتاح العرب لانضمام العثمانيين إلى ألمانيا لأنهم كانوا ينوون الثورة ضد الأتراك ومع الانكليز الذين يثقون بهم، وليس ضدهم.



الشريف حسين بن علي شريف مكة المكرمة

استؤنفت المفاوضات بين بريطانيا العظمى والشريف حسين، في سنة

١٩١٥، وكانت الحرب قائمة. وغادر اللورد كيتشنر مصر إلى لندن ليتسلم وزارة الحربية وحل محله السير هنري ماكماهون. وتبودلت ثماني رسائل بين الشريف والسير هنري؛ أربع رسائل من الشريف حسين أجاب عليها السير هنري ماكماهون بأربع، وهي رسائل طويلة سجلناها في سجل خاص. ويسعنا أن نلخص الاتفاق بأسطر قليلة نجدها في رسالة السير هنري الأولى، بتاريخ ٣٠ آب (أغسطس) ١٩١٥:


السير هنري ماكماهون

«... التزاماً بذلك، نؤكد هنا تصريح اللورد كيتشنر كما نقله إليكم، علي أفندي، والذي بينّ فيه رغبتنا باستقلال البلدان العربية وسكانها، واستعدادنا للموافقة على «خلافة عربية حين إعلانها».

لا نرى أي التباس في هذه الكلمات المعلنة من بريطانيا، ولا نرى أي تردد من جانب العرب، في القيام بواجباتهم تجاه المعاهدة. ولقد ثار العرب ضد الأتراك، وقاتلوا بقيادة الأمير فيصل بن الحسين الثالث، وقد دون المعركة التاريخية الدامية كاملة، الرجل الذي غدا شبه اسطورة، لورنس العرب، رفيق فيصل في المسيرة الشاقة عبر الصحراء العربية، في كتابه «أعمدة الحكمة السبعة».


الشريف حسين ورونالد ستورز

لقد بقي هذا الاتفاق، على أهميته، سراً في وثائق وزارة الخارجية البريطانية، مدة ٢٣ سنة، وذلك لأن بريطانيا بعد أن وقعته، وقعت اتفاقين آخرين مناقضين له ويلغيانه، وعلى ذلك. أخفته كي تخفي خيانتها للعرب.

٢ ـ اتفاق «سايكس ـ بيكو» (١٩١٦)

اتفاق سايكس ـ بيكو هو الاتفاق الذي عقد بين بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا وسمي اتفاق سايكس ـ بيكو، لأن اللذين حاكاه سراً، كانا، السير مارك سايكس، وكيل وزارة الحرب البريطانية،

وجورج بيكو، من وزارة الخارجية الفرنسية. فقد اتفق الحلفاء على تقسيم المنطقة العربية الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط غرباً والحدود الايرانية شرقاً، والمؤلفة من العراق وسوريا بما فيها لبنان وفلسطين وشرق الأردن، فيما بينهم. وقد تم هذا الاتفاق بعد أن تمت «اتفاقية ماكماهون ـ الحسين»، وربما قبل أن يجف حبرها. وكان هدفه، إلغاء اتفاقية ماكماهون ـ الحسين واستغلال الشعب العربي. وتم هذا الاتفاق سراً إلى أن غدت روسيا بلشفية، عام ١٩١٧، وانسحبت من الحرب، فنشرت حينئذٍ على العالم، بكثير من التبجح، أسرار الحرب، ومنها اتفاق سايكس ـ بيكو. فصدم العرب وذهل الشريف حسين والأمير فيصل وهما ما زالا ينفذان بأمانة ما تعهدا به.

وقد ربط السير مارك سايكس وجورج بيكو خريطة بالاتفاق ولوناها بالأزرق والأحمر والبني: «فرنسا في المنطقة الزرقاء (لبنان وسوريا) وبريطانيا في المنطقة الحمراء (شرق الأردن والعراق)؛ على أن تكونا [أي بريطانيا وفرنسا] حرّتين في إقامة إدارة مباشرة، أو سلطة، حسب ما ترغبان أي تريانه ملائمًا، بعد التفاهم مع الدولة العربية أو اتحاد الدول العربية.

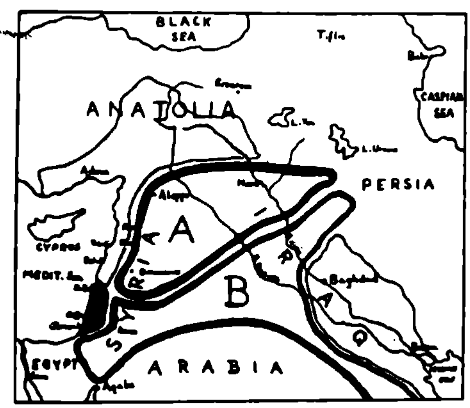
«وتقام في المنطقة البنية (فلسطين)، إدارة دولية يقرِّر شكلها بالتداول مع روسيا، وبعد أن تليها موافقة الحلفاء الآخرين، وممثلي الشريف حسين.

«منح بريطانيا العظمى مرفأي حيفا وعكا...».

تعليق على اتفاق سايكس ـ بيكو

ليس بوسعنا أن نجد تعليقاً على هذا الاتفاق أفضل مما قاله جورج أنطونيوس سنة ١٩٣٨ في كتابه: «يقظة العرب»: «إن اتفاق سايكس ـ بيكو هو وثيقة مذهلة، وهو ليس نتاج أسوأ الطمع، فحسب، بل أنه نموذج مريع للخداع».

ومن المفيد أن نلاحظ، أن مؤتمر الصلح قد تبنى هذا الاتفاق، لولا أن التغيير إلى ما هو أسوأ، جرى في فلسطين؛ حيث حل وعد بلفور محل التدويل.



خارطة اتفاقية سايكس ـ بيكو

٣ ـ وعد بلفور

وهو الاتفاق الثالث الذي وقعته بريطانيا العظمى، إبان الحرب بسرّية

قصوى . . . ووعد بلفور مغامرة مستحيلة لم يعرف مثلها التاريخ، وقد نتج عنها أكبر الأذى، والشرق الأوسط لا يزال دامياً منها. وقد فجّر هذا الوعد معركة بشعة ابتدأت منذ أكثر من ستين سنة، ولا نرى نهاية قريبة لها.

إن رواية وعد بلفور طويلة لا أستطيع أن أتحدث عنها بالتفصيل ولكن يمكن التأكيد أن وعد بلفور هو نموذج الخداع والغدر، وقد حرم الملايين من شعبنا بيوتهم ووطنهم، ونجم عنه قتال واصطدامات أديا إلى ذبح الآلاف من الأبرياء، كما أيقظ الانحيازات الدينية والتمييز العنصري القديم، وباء الشرق الأوسط منذ مئات السنين، وأحال حوض البحر الأبيض المتوسط الهادىء إلى بركة دم. وما من سياسة في التاريخ سببت أذى روحياً ومادياً، ولمدة طويلة، كما فعل وعد بلفور.



اللورد بلفور صاحب الوعد المشؤوم

كيف صنع وعد بلفور

لم يكن وضع الحلفاء الحربي، سنتي ١٩١٦ و١٩١٧، حسنا، وقد فشلت كل جهود بريطانيا وفرنسا وايطاليا، لجر الولايات المتحدة إلى الحرب. فكان لا بد من عمل شيء ما، وعندها اقترح السير مارك سايكس، وكيل وزارة الحرب البريطانية، أنه من الممكن أن نعول على نفوذ اليهود الأميركيين في هذا السبيل إذا وعدهم الحلفاء بفلسطين. وفلسطين كانت، دون شك، حلم الصهيونيين.

وقد عمل على تنفيذ هذا الاقتراح الموظفون التالون: السير مارك سايكس وجورج بيكو (اتفاق سايكس ـ بيكو)؛ جيمس مالكولم، وهو عضو في الوفد الوطني الأرمني؛ المستر أورمزبي غور والمستر آمري، موظف في وزارة الحرب البريطانية. واتجه كل من هؤلاء العملاء، اتجاهاً خاصاً، وبدأت الاتصالات أولاً بعدة زعماء من الصهيونيين، ومنهم: سوكولوف، وايزمان، تاهلينوف، السير هربرت صموئيل وجيمس روتشيلد، وكان مارك سايكس أكثر الموظفين حماساً، وهو الذي أثر على وزارة الحرب في إعطاء الوعد. وهنا، بدأت المفاوضات بين بريطانيا والصهيونيين الأميركيين وأرسلت الخطة إلى برانديس (Brandeis)، أحد قضاة المحكمة العليا، وهو الذي قاد المعركة في الولايات المتحدة.

كان الصهيونيون في شك من موقف قداسة البابا من هذا الموضوع، فاستطاعوا بواسطة فيتس موريس، الأيرلندي، صاحب النفوذ في الفاتيكان، الحصول على الأذن لسوكولوف بمقابلة قداسته، إذ قال سوكولوف بعدها، ان البابا مستعد للموافقة؟.

كان بعض اليهود في انكلترا يعارضون بشدة إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين. وقد اعترض ايدوين مومنتاجيو، وما زال، ضد الصهيونية، مع عشرة من اليهود الانكليز، لدى الحكومة الانكليزية، ولكن عبثاً، لأنهم كانوا الأقلية. غير أن المعارضة اليهودية للصهيونية، أكرهت وزارة الحرب البريطانية على القيام بعدة تعديلات على النص الأصلي، ووضعت كلماته الأخيرة بطريقة ترضي مؤيدي سياسة الوطن القومي اليهودي، وفي الوقت نفسه أزالت مخاوف من خشي عواقب ذلك الوطن. وطبعاً، لم يساهم أحد من العرب في هذه اللقاءات السرية: لا الشريف حسين ولا أحد من سكان فلسطين!

أُرسل وعد بلفور، بصورة رسالة مؤرخة في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧. وقعها اللورد جيمس بلفور. وزير الخارجية البريطانية، إلى اللورد روتشيلد في لندن وهذا نصها:

«إن حكومة جلالته تنظر بعطف، إلى إقامة وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي، وأن تحاول ما وسعها لتسهيل تنفيذ هذا الهدف. وليكن مفهوماً بوضوح، أن شيئاً لن يعمل مما يمكن أن يضرّ بالحقوق المدنية والدينية، للطوائف غير اليهودية الموجودة في فلسطين، أو بالحقوق والأوضاع السياسية التي يتمتع بها اليهود، في البلدان الأخرى».

وُقع وعد بلفور بسرية قصوى، وربما بسرية تفوق سرية «اتفاق سايكس ـ بيكو»، وذلك حين كان فيصل ولورنس يحتلان العقبة، على الطرف الأعلى للبحر الأحمر، على الحدود المصرية. ولقد خشيت الحكومة البريطانية أن يؤدي الخبر إلى تمرد في جيش فيصل، وأن يثير ثورة في سوريا والعراق، فعملت على طمس الخبر، وتركت الشريف حسين في جهل تام بما يحدث سراً، وكانت الحكومة البريطانية في ذلك الوقت في حالة بائسة من «وخز الضمير».

أرى من الضروري، قبل أن آتي على ذكر رد الفعل العربي على هذا الوعد المشؤوم، التحدث عن الغدر والقواعد اللاأخلاقية التي بني الوعد عليها، وما حوى من تناقضات وعدم امكانية للتطبيق. لقد عكف الشعب الفلسطيني على تحليل وعد بلفور بدقة لأنه كان، أكثر من أية وثيقة أخرى، سبب تعاسته وعذابه الطويل ومنفاه.

وفي تحليلنا لوعد بلفور، سجلنا الملاحظات التالية:

١ ـ تعد بريطانيا العظمى اليهود، من كل القوميات، المبعثرين في كل أنحاء العالم، بوطن قومي في فلسطين.

٢ ـ ينفذ دون الاضرار بحقوق الطوائف غير اليهودية في فلسطين.

٣ ـ انه لا يضر أيضاً بوضع اليهود في البلدان الأخرى.

(أ) الوطن القومي اليهودي في فلسطين

بأي شريعة تعد بريطانيا شعباً آخر بحقوق في فلسطين الآهلة بالسكان، وهي لا تمتلكها ولم يسبق لها أن امتلكتها في زمن من الأزمان، وهي بعيدة عنها وعن أهلها بكل أنواع البعد: مسافة وقارة وجنساً ولغة وقومية واحتلالاً وحكماً. فالجرم في وعد بلفور يتمثل في أن بريطانيا، وكانت العظمى في تلك الأيام، أعطت لنفسها الحق، ما دامت دولة قوية لها جيش قوي وأسطول من أقوى الأساطيل، أن تتصرف بفلسطين كما تريد دون الرجوع إلى أهلها العرب، الذين يؤلفون ٩٣ بالمئة من السكان. ان آفات الجشع والسيطرة والتسلط المتغلغلة في نفوس ساسة الانكليز والفرنسيين، آنئذٍ، أعمتهم عن كل المبادىء السامية، وعن حقوق الانسان، كإنسان، وجعلتهم يعتقدون أن القوة وحدها تمنحهم حق احتلال البلدان الضعيفة، والسيطرة على شعوبها والتصرف بها كما يشاؤون.

لقد اعتبرت الحكومة البريطانية وعد بلفور بمثابة «ماجنا كارتا» (Magna Carta) لليهود في فلسطين. وأعطتهم وطناً في وطن شعب آخر، ولهذا قال تشرتشل، بصفته وزيراً للمستعمرات في كتابه الأبيض سنة ١٩٢٢. (بلاغ رسمي رقم ١٧٠٠): «من الضروري أن تعرف (الطائفة اليهودية) أنها في فلسطين كحق وليس كمنّة»، والحق الذي يعنيه تشرشل هو ما منحه وعد بلفور للشعب اليهودي. . . وهو الذي جعل الدكتور وايزمان يقول يوماً: «ان توراتنا اليوم هي وعد بلفور». وأنا سمعته يقول هذا، أمام اللجنة الانكليزية ــ الأميركية، في القدس سنة ١٩٤٦. . . وهو أيضاً الذي جعل اللجنة الملكية (لجنة بيل) التي أتت إلى فلسطين سنة ١٩٣٧، تقول: «ان الصراع العربي اليهودي هو صراع حق ضد حق»، أي صراع الحق الذي منحه وعد بلفور لليهود ضد حق العرب الطبيعي. . . وكانت عصبة الأمم أول من أجرم في هذا الموضوع؛ وذلك حين لزمها التحيز وجعلت الانتداب على فلسطين يختلف عنه في سوريا ولبنان والعراق وشرق الأردن، لأنها أدخلت وعد بلفور في صلب صك الانتداب واعتبرته مساوياً لحقوق العرب الطبيعية، لا بل أكثر أهمية منها. واعتبرت أيضاً، أن الدولة التي أعطت وعد بلفور، أي بريطانيا العظمى، لها الحق في اعطائه، وأن لها حق التصرف في فلسطين، كما تريد!! هذا هو مصدر الجريمة في القضية الفلسطينية؛ فالجرم هو وعد بلفور نفسه. فالحكومة البريطانية حين وقعته، لم تتصرف كحكومة متمدنة تحترم حقوق الانسان وحقوق الشعوب الانسانية، بل تصرفت كطاغية وكتاجر عبيد، يشتري الناس ويبيعهم حسب منفعته. ان بريطانيا لم يكن لها الحق أن تعطي حقاً حتى للفلسطينيين، في أرضهم وبلدهم، لأن الحقوق لا تأتي من الخارج، بل من الداخل، وحق الشعب الانكليزي في انكلترا لا يمنحه أجنبي من الخارج إلا إذا كان طاغية.

«تقرير لجنة موم» يعترف رسمياً بعدم شرعية وعد بلفور

أظهر تقرير لجنة موم، في ١٦ آذار (مارس) ١٩٣٩. عدم شرعية وعد بلفور وبطلانه. واتفق على التقرير أعضاء اللجنة العربية ـ الانكليزية التي عينها مؤتمر فلسطين في لندن، لدراسة ما إذا كانت المعاهدة المعروفة «برسائل ماكماهون ـ الحسين»، قد شملت فلسطين أم لا. وقد وقعه خمسة أعضاء عرب كانوا يحضرون مؤتمر لندن (١٩٣٩)، وثلاثة من كبار الموظفين البريطانيين يرأسهم الجدير بالاحترام، اللورد موم. قاضي قضاة انكلترا (Lord Chancellor of England, Lord Maugham)

وتقول نهاية هذا التقرير:

«برأي اللجنة، أنه واضح، من هذه البينات، أن حكومة جلالته لم تكن حرة في التصرف بفلسطين، دون الأخذ برغبات جميع سكان فلسطين ومصالحهم».

إن هذا النص الواضح يلغي كل الحقوق التي منحتها بريطانيا لليهود في وعد بلفور، وهو حكم بإدانة بريطانيا. ولكن هذا الحكم، صدر سنة ١٩٣٩، بعد وقوع الأذى. وقد أخفت الحكومة البريطانية، حتى ذلك التاريخ، «رسائل ماكماهون ـ الحسين» في محفوظات وزارة الخارجية، وفي كل مرة طالب فيها العرب، أو أصدقاؤهم، الحكومة البريطانية، في البرلمان أو خارجه، بالإفراج عنها حتى يعرف العالم حقيقة الوعود التي أُعطيت للعرب كما جاءت في تلك الرسائل، كان جواب الحكومة البريطانية: «ليس من مصلحة الامبراطورية نشر هذه الوثائق». والحقيقة أن ذلك ليس من مصلحتها بل هو من مصلحة العرب الذين خانتهم. وأن نشرها يفضح الجريمة والغدر اللذين ارتكبا بحق الشعب العربي الفلسطيني البريء... ولنسمع ما قاله مجلس اللوردات في هذا الخصوص:

مجلس اللوردات سنة ١٩٢٣:
يجب نشر مراسلات ماكماهون ـ الحسين

كان لعناد الحكومة البريطانية، وإصرارها على إخفاء «مراسلات ماكماهون ـ الحسين»، أثر سيء. فأثار عضو مجلس اللوردات، اللورد أزلنغتون (Lord Islington)، موضوع الافراج عنها وذلك في آذار (مارس) سنة ١٩٢٣. وقد صرح اللورد أزلنغتون أن مجلس اللوردات لا يمكنه القبول بالانتداب على فلسطين، لأنه يخرق التعهدات التي أعطيت للعرب سنة ١٩١٥، كما نصت عليها مراسلات ماكماهون ـ الحسين، ولأنه أيضاً يخرق التصريح البريطاني ـ الفرنسي، في السابع من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨.

وقد شارك في الجدال اللورد غْراي (Lord Grey)، الذي كان وزيراً للخارجية، حين تبودلت مراسلات ماكماهون ـ حسين وعقد الاتفاق. فطالب بالإفراج عنها لأن الشرف يقتضي ذلك، وانتهى من خطابه الطويل إلى القول:

«يجب أن نضع كل هذه التعهدات جنباً إلى جنب، وأظن أن أنبل ما نفعله هو أن ننظر إليها بعدل، وأن نرى ما بينها من تناقض، ونأخذ بعين الاعتبار، كل تعهد والتاريخ الذي أُعطي فيه. وبعد أن نضع جميع هذه الوقائع أمامنا ونقابلها، نستطيع أن نميز ما هو عادل، ونفعله».

وتابع اللورد باكماستر (Lord Buckmaster) الجدل وهذا جزء مما قاله: «إن كانت هذه البيانات والوثائق صحيحة، وأنا مضطر أن أقول، كما يظهر، أنها تبدو صحيحة دون شك. فإنها، كما أوحى لنا الفيكونت النبيل غراي، لم تكن تناقضات عادية وتصريحات مختلفة أعطيت في أزمنة مختلفة. بل إنما هي تعهد مدروس أعطي [للعرب] من جهة وأهمل من جهة أخرى. إننا عنينا ما قلنا، سنة ١٩١٥، وما نفذناه سنة ١٩١٨، وأريد أن أسأل الحكومة، أن تعيد لنا الآن ما عملته في الماضي، وأن ترجع إلى الوعدِ الذي أعطته للعرب والظرف الحالك الذي أعطته فيه. وقد ساهم العرب مساهمة فعالة، في فترة من الزمن كانت فيها الصعوبات تحدق بنا من كل جانب، وكان لمساهمتهم نصيب كبير غير هين في انفراجها».

وساهم اللورد بلفور، أيضاً، بالجدال، لكنه حاول مساندة الحكومة التي افترضت أن السكان العرب يستفيدون من توظيف المال اليهودي في بلد فقير وصغير، كفلسطين. وكان شديد الحذر من ذكر مراسلات ماكماهون ــ الحسين، وما أشار إلى وعده إلاّ على انه مغامرة، مجازفة، لا بد منها!! وأية مجازفة!!

وبعد انتهاء المناقشة، جرى التصويت، فخسرت الحكومة (٢٩ صوتاً معها مقابل ٥٠ دعموا الشعب العربي الفلسطيني). وعم الفرح فلسطين كلها لهذا الخبر السار، بانتصارنا على الحكومة المتحيزة، وأذكر كيف تظاهرنا في شوارع القدس، ابتهاجاً لهذا الانتصار، وفكرنا، لبساطتنا، أننا ربحنا قضيتنا. ومما لا شك فيه، انه لو أفرجت الحكومة البريطانية حينئذٍ عن مراسلات ماكماهون ــ الحسين لاضطرت إلى الغاء وعد بلفور؛ الشيء الذي لم تكن تريده. ولذلك بقيت الرسائل طي الخفاء، واستمرت سياسة الغش والخداع.

(ب) لا ينفذ شيء يمكن أن يضر بالحقوق المدنية والدينية للسكان غير اليهود

لا ندري كيف يمكن إقامة وطن قومي لليهود، يهود العالم، في بلاد صغيرة، كفلسطين، والسماح لمئات الآلاف منهم، بالهجرة إلى فلسطين، واستخدام مواردها والاستيلاء على اقتصادياتها، دون الاضرار بالسكان الأصليين؟ وقد أجاب على هذا التساؤل المستر ايرنست بفين، وزير خارجية بريطانيا، في مجلس العموم، في الخامس والعشرين من شباط (فبراير) ١٩٤٧. أي، بعد ثلاثين سنة من إعطاء الوعد.

بيان المستر بفين

«الواقع الذي لا شك فيه، هو ان الانتداب (الانتداب الذي تضمن وعد بلفور) يحوي وعوداً متناقضة، فقد وعد، في المقام الأول، اليهود بوطن قومي. وفي الثاني، أعلن عن حماية حقوق ووضع العرب، وبذلك سمح له هو عملياً، غزو البلاد بمئات الألوف من المهاجرين اليهود، وقال في الوقت نفسه، أن ذاك يجب أن لا يزعج السكان الموجودين».

وأية سلطة يمكن الحصول عليها أفضل من وزير خارجية بريطاني ينتقد وعد بلفور الذي أعطته حكومته ويزدريه ويدينه ويقدح بالوعد الذي بني عليه الوطن القومي اليهودي!

٤ ــ بيان القائد هوغارت

تسرب نبأ وعد بلفور حالما نجحت الثورة في روسيا، سنة ١٩١٧، فقد خرجت حكومة الثورة من حلفها مع بريطانيا العظمى وفرنسا، وبدأت تنشر أسرار ذلك الحلف، وكان وعد بلفور السري أحد هذه الأسرار. وحين وصل النبأ إلى الشريف حسين اضطرب اضطراباً عظيًما وطلب تفسيراً من بريطانيا العظمى بالحال. فأوفدت إليه القائد هوغارت، أحد كبار موظفي مكتب المفوض السامي في القاهرة. وصل القائد هوغارت إلى جدة في أوائل كانون الثاني (يناير) ١٩١٨، وقابل الشريف حسين وقدم له رسالة من الحكومة البريطانية غايتها تهدئة الزعيم العربي. وتذرعت الرسالة بأن الوعد ليس فيه ما يسيء إلى حقوق السكان العرب في فلسطين وحريتهم. والحقيقة أن الرسالة ما كانت إلاّ خدعة، كوعد بلفور وكما شرح وزير الخارجية، فإن وعد بلفور يحتوي على وعود متناقضة، جعلت تنفيذه، بعدل، مستحيلاً، وما إدخال عبارة: «لا يعمل ما يضرّ بالسكان غير اليهود»، إلاّ للخداع فقط، كما قال بفين وكما ثبت فيما بعد.



القائد هوغارت

٥ ــ التصريح البريطاني للزعماء العرب السبعة

كان لوعد بلفور رد فعل آخر في القاهرة. فقد تقدم سبعة من الزعماء العرب بمذكرة، عبر المكتب العربي بالقاهرة، إلى وزارة الخارجية البريطانية، فكان الجواب عليها تصريحاً أرسلته الحكومة البريطانية وقرأه ضابط من المكتب العربي، في اجتماع دعي إليه الزعماء

العرب السبعة، في السادس عشر من حزيران (يونيو) ١٩١٨. وباختصار، فقد حوى التصريح تأكيدات تفيد «أن الحكومات المقبلة، لتلك المناطق، ستقوم على مبدأ إرادة الشعب، وهذه السياسة ستكون دائماً، سياسة حكومة جلالته»

بيان خادع! لأن حكومة جلالته لم تطبق هذا المبدأ في تلك المناطق أبداً، مما سبب الثورات في العراق وسوريا ولبنان وفلسطين. ومن الجدير بالذكر أن هذه الثورات لم تحدث في شرق الأردن.

٦ ـ نداء بريطانيا العظمى للجنود العرب في الجيش العثماني

«علمنا بمزيد الأسف، أنكم تقاتلون ضدنا، نحن الذين نعمل لحفظ أحكام الدين الإسلامي المقدس من أي سوء. ولتحرير كل العرب من الحكم التركي ونعتقد أن الحقيقة الصادقة لم تصلكم. وعليه، أرسلنا اليكم هذا البلاغ كي نؤكد لكم أننا نقاتل من أجل هدفين نبيلين: حفظ الدين وحرية العرب عامة.

«لقد قضت المملكة العربية، مدة طويلة، تحت نير الأتراك الذين قتلوا اخوتكم وصلبوا رجالكم ونفوا نساءكم وعائلاتكم وأساؤوا إلى دينكم، فكيف تقبلون بذلك وتتحملون مرارة البقاء معهم والموافقة على عونهم؟

«تعالوا وانضموا إلينا نحن الذين نكافح من أجل الدين وحرية العرب كي تعود المملكة العربية كما كانت في عهد آبائكم».

الجيش البريطاني في فلسطين ١٩١٧

كيف نقارن هذا التصريح مع حالة عرب فلسطين اليوم؟ قارن هذا التصريح بحالة اللاجئين العرب الفلسطينيين وكفى!!

٧ ـ بيان الرئيس وودرو ويلسون

إن الذي حطم وعد بلفور كان بياناً لا يقل عظمة عن عظمة واضعه، الرئيس وودرو ولسون، رئيس الولايات المتحدة وعضو مجلس الحلفاء الأعلى. لقد أعلن في خطابه الذي القاه في الرابع من تموز (يوليو)، ١٩١٨ بعد ستة أشهر فقط من صدور الوعد، أعلن قائلاً: «إن تسوية أية مسألة، كانت أرضاً، أم سيادة، أم اتفاقاً اقتصادياً أم علاقة سياسية، يجب أن تقوم على قاعدة قبول الشعب الحرّ، الشعب المعني مباشرة بتلك التسوية، ولا تقوم على



الرئيس
وودرو ولسون

قاعدة المصلحة المادية، أو المنفعة، لأية أمة اخرى، أو شعب يرغب تسوية مختلفة، من أجل نفوذه أو سيطرته. وإذا ساد هذا المبدأ، كانت رغبات سكان فلسطين من غير اليهود، وهم حوالي تسعة أعشار المجموع، ضد البرنامج الصهيوني كله، والأمور تشهد بأنه ما من شيء اتفق عليه سكان فلسطين، أكثر من اتفاقهم على هذا الأمر. إن إكراه شعب على قبول هجرة يهودية غير محدودة وإكراهه على تسليم أرضه بالضغط المادي والاجتماعي القاسي، هو خرق كبير للمبدأ الذي ذكرت، وخرق لحقوق الشعوب، ولو أن هذا الاكراه أخذ صفة القانون».

ألا يدين هذا البيان واضعي وعد بلفور؟

ألا يدين هذا البيان الذين ينفذون بالاكراه وعد بلفور؟

الا يدين هذا البيان الذين أدخلوا وعد بلفور في صك الانتداب على فلسطين، وسببوا سفك كثير من دم الأبرياء ولا يزالون؟؟

٨ ـ الإعلان الانكيزي الفرنسي

في السابع من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨:

زيادة في خداع العرب، نشر الانكليز والفرنسيون إعلاناً، في السابع من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨. أي بعد سنة من توقيع وعد بلفور وقبل أربعة أيام من الهدنة، جاء فيه.

«إن الهدف الذي تتوخاه، فرنسا وبريطانيا العظمى، من متابعة الحرب في الشرق الأوسط، وسببه الطموح الألماني، هو التحرير الكامل والنهائي للشعوب التي اضطهدها الأتراك طويلاً، واقامة حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطتها من مبادرة السكان الأصليين واختيارهم الحرّ.

«من أجل تحقيق هذا الهدف، توافق فرنسا وبريطانيا العظمى على إقامة حكومات وإدارات وطنية في سوريا وما بين النهرين (العراق)، بعد أن حررها الحلفاء، وكذلك شأن الأراضي التي تحاولان تحريرها. وأن تعترفا بتحررها حالما تحرر.

«وهما بعيدتان عن أن تفرضا نظاماً، أو آخر، على سكان تلك المناطق، فهما [فرنسا وبريطانيا العظمى] لا تهتمان إلاّ بتقديم الدعم والمساعدة الناجعة التي تكفل سيراً هادئاً للحكومات والادارات التي تكون أنتجتها تلك الشعوب، بملء إرادتها الحرة، لنمو البلاد الاقتصادي، ولتشجيع المبادرة المحلية، ونشر التعليم، ووضع نهاية للانشقاق والفتن التي استغلتها السياسة التركية طويلاً. تلك هي المهمة التي تريد أن تضطلع بها الدولتان الحليفتان في الأراضي المحررة».

وهل يمكن لعربي يقرأ هذا الاعلان أن يساوره الشك باستقامة بريطانيا العظمى وفرنسا وأمانتهما؟ ولكن كيف توفق بين هذا الاعلان واتفاق سايكس ـ بيكو الذي وقعه الحلفاء سنة ١٩١٦ . . . أو مع وعد بلفور الذي صدر سنة ١٩١٧. بل كيف توفق بين هذين الاتفاقين مع رسائل ماكماهون ـ الحسين، وهو الاتفاق الذي عقد قبل كل الاتفاقات؟ ثم كيف توفق بين هذا الإعلان، وبين قرارات مؤتمر سان ريمو التي جزأت سوريا ووضعت العراق وسوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن، ليس تحت حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطتها من مبادرة السكان الأصليين واختيارهم الحر، بل تحت الانتدابات الأجنبية، ووعد بلفور الجائر. وما علينا إلّا أن نتذكر موقعة ميسلون وخروج الملك فيصل من دمشق، وهربه من سوريا، لنعرف ما هي قيمة هذه الاعلانات والتصاريح والبيانات والاتفاقيات التي أعطاها الحلفاء، في أي زمان ومكان.

الخلاصة

الآن، وقد ناقشنا الاتفاقات والتصاريح والبيانات والاعلانات التي أعطاها الحلفاء خلال الحرب العالمية الأولى، وصار في مقدور القارىء أن يكوّن رأياً عن العقلية التي كان يفكر بها سياسيو الحلفاء على مائدة الصلح، في باريس وفي غيرها من المدن، كي ينظموا شؤون ما بعد الحرب. فهل كانت تلك عقلية من ينوي أن يعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله؟ لقد برهنت نتائج مؤتمرات الصلح على أن نياتهم لم تكن، أبداً، إقامة العدل ورفع مشعل التحرير. كان الحلفاء سنة ١٩١٩، على مفترق طرق مستقبل العالم، فاختاروا الطريق الخاطىء الصعب التي أدت، في النهاية، إلى الحرب العالمية الثانية وإلى مختلف الانتفاضات الوطنية، ومن بقاياها، القضية الفلسطينية الشائكة وأزمة الشرق الأوسط. وعند مناقشة تلك الاتفاقات والتصاريح والبيانات، كان الحلفاء، للأسف الشديد، يفكرون بمصالحهم الخاصة فقط، ولهذا كانت تسوياتهم للأمور كما يلي:

١ ـ «إننا لا ننوي منح العرب استقلالهم». وعلى ذلك يجب إخفاء مراسلات ماكماهون ـ الحسين في محفوظات وزارة الخارجية البريطانية، إلى ما شاء الله، وهكذا كان؛ فقد أخفيت المراسلات لمدة ٢٣ عاماً.

٢ ـ تجاهل نقاط الرئيس ولسون، الأربع عشرة.

٣ ـ تجاهل بيان الرئيس ولسون، عن فلسطين، الذي القاه، في ١٩١٨/٧/٤. وهو الذي الح فيه على أن تكون أماني عرب فلسطين (الطوائف غير اليهودية) هي الحاسمة، في ما يصنع في فلسطين.

٤ ـ ان تحرق الأوراق التي رمتها الطائرات البريطانية، سنة ١٩١٧، على الجنود العرب، في الجيش العثماني، حتى يثوروا على الأتراك ليصلوا إلى استقلالهم.

٥ ــ ان يهمل، تماماً، الاعلان الانكيزي ــ الفرنسي، في السابع من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨، والذي نشر قبل الهدنة بأربعة أيام فقط، والذي وعد «باقامة الحكومات والادارات الوطنية التي تكون انتخبتها تلك الشعوب بملء إرادتها الحرة».

أما ما ناقشه الحلفاء حقاً ونفذوه فقد كان:

١ ــ اتفاق سايكس ــ بيكو (مع بعض التعديلات)

٢ ــ وعد بلفور الذي وضع في صلب صك الانتداب على فلسطين. والحقيقة، أنه كان في مؤتمرات الصلح نسور جائعة، اجتمعت حول فريستها، يحاول كل منها انتزاع أكبر قطعة. انه لم يكن مؤتمراً لزعماء إنسانيين كافحوا من أجل حرية الشعوب، كما أعلنوا، بل مؤتمر مستعمرين طامحين جشعين، قاتلوا ليقتسموا الغنيمة. ولكم كان يختلف العالم اليوم، لو أنهم تصرفوا إنسانياً!

وقبل أن أنهي هذا الموضوع، أحب أن أثني على الجنرالات والقادة العسكريين البريطانيين، الذين كانت تصاريحهم وإداراتهم لأراضي العدو المحتلة، مثالية. إنهم يستحقون كل مديح.

ت. إ. لورنس وخيانة بريطانيا للعرب

لم تؤلم خيانة بريطانيا العظمى العرب وحدهم، بل آلمت عدداً كبيراً من الشعب البريطاني، امثال ت. إ. لورنس، الملقب بلورنس العرب، فقد حمله غدر دولته بالعرب على رفض الأوسمة والألقاب التي قدمتها له حكومته، وهو الذي قال: «دفعت الوزارة [البريطانية] العرب، للقتال من أجلنا بوعود محددة، بحكم أنفسهم بأنفسهم. والعربي يؤمن بالأشخاص لا بالمؤسسات ورأوا أنني ممثل حر للحكومة البريطانية، فطلبوا مني أنا أن انفذ وعودها المكتوبة، وهكذا ساهمت بالمؤامرة، وأكدت للرجال بالقدر الذي تنفع فيه كلمتي، أنهم سوف يحظون بجائزتهم. ولقد تعودوا، عبر السنين التي قضيناها معاً تحت النار، على أن يصدقوني وأن يظنوا أن حكومتي، مثلي، أمينة وبهذا الأمل، حققوا لنا أشياء جيدة، لكن طبعاً، بدلاً من أن نفخر بما صنعنا معاً، وجدتني في خجل مرّ دائم».

الفصل السادس

منطقة العدو المحتلة وضعت تحت إدارة عسكرية
مؤتمر السلام في باريس وتجزئة الأقطار العربية في مؤتمر سان ريمو
الحلفاء يحنثون بوعودهم للشريف حسين
فيصل يتوّج ملكاً على سوريا، وفرنسا الحليفة تطرده منها
ثورة في يافا، وتقرير لجنة تحقيق هايكرافت يزعج الحكومة
لجنة كنغ ـ كراين

ادارة أراضي العدو المحتلة

وجدت، لدى عودتي إلى القدس في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨، أنها باتت «أرض العدو المحتلة» وأنها وُضعت تحت الإدارة العسكرية البريطانية الجنوبية التي سميت «الإدارة الجنوبية» (O. E. T. A. South) لتمييزها عن «الإدارة الغربية» (O. E. T. A. West)، التي يحكمها الفرنسيون، وتشمل لبنان والجزء الساحلي من سوريا، شمالي لبنان. وعن «الإدارة الشرقية» (O. E. T. A. East) التي تعني سوريا، حتى العقبة جنوباً، وهي تحت إدارة حاكمها العسكري، الأمير فيصل، في دمشق. أما العراق، فكان وحدة خاصة، تحت الإدارة العسكرية البريطانية أيضاً.

ظننت، كما ظن كل العرب في ذلك الوقت، أن الاحتلال، أو الإدارة العسكرية، حكم مؤقت، أقامته قيادة الحلفاء العليا، لخدمة شعب الأراضي العربية المحتلة، ريثما تنتهي الحرب وتوقع معاهدات الصلح فتتحول، حينئذٍ، إلى إدارة عربية واحدة. وأن انتهاء أربعمئة سنة من الحكم التركي، قد أزال العائق من طريق الاستقلال العربي؛ ولا بد من أن تقوم، قريباً، إدارة عربية مستقلة، وعلى رأسها الأمير فيصل.

ولم يتزعزع، إلى ذلك الحين، إيمان العرب بشرف الإنكليز وبصدقهم، بالرغم من الشائعات التي كانت تنتشر عن اتفاق سايكس ـ بيكو ووعد بلفور. وكانوا لا يستطيعون أن يصدقوا أنه يمكن للحكومة البريطانية غدرهم. لقد كان اعتقادهم بأمانتها واستقامتها، لا حد له.

ولم يكن للعرب الثقة نفسها بفرنسا، ما عدا شعب المقاطعة اللبنانية المستقلة استقلالاً

ذاتياً. وكان المسيحيون العرب، تحت الحكم العثماني قبل الحرب، في خشية دائمة من الاضطهاد التركي. وقد كان الأتراك يعاملون العرب المسلمين بطريقة تختلف، نوعاً ما، عن الطريقة التي عاملوا بها العرب المسيحيين، كي يربحوا ولاء المسلمين للامبراطورية العثمانية، عن طريق «أخوة الإسلام». وكان الأتراك يزعمون قائلين: «ما دامت الأمتان مسلمتين فنحن إذاً أمة واحدة»، ويضيفون: «لكن نحن لسنا أمة واحدة مع العرب المسيحيين». وما كانوا يثقون بالشباب العرب المسيحيين، ولذلك، كانت الجندية إجبارية فقط للعرب المسلمين، وليس للعرب المسيحيين. وما صارت إجبارية للجميع، إلا بعد ثورة ١٩٠٨ وسقوط السلطان عبد الحميد.

وكان العرب المسيحيون، تحت الحكم التركي، يشعرون أنهم بحاجة إلى حماية مسيحية خارجية؛ فالكاثوليك التجأوا إلى فرنسا وإيطاليا لحمايتهم من سوء معاملة الأتراك لهم، والتجأ الروم الأرثوذوكس إلى روسيا؛ واعتبر الإنجيليون الإنكليز والأميركيين حماتهم. ولما انتهت الحرب، لم يتطلع العرب وحدهم، بل العالم كله، إلى زعماء الدول المنتصرة في مؤتمر الصلح في باريس، علّهم ينشئون عالماً جديداً للجنس البشري، عالماً مثالياً، لا مسلماً ولا مسيحياً ولا يهودياً؛ عالم أخوّة، ترعاه نقاط الرئيس ولسون الأربع عشرة.

فيصل يذهب إلى مؤتمر الصلح

اجتمع مؤتمر الصلح في فرساي في باريس، غير أن الأمير فيصل والوفد المرافق له ذهبوا إلى لندن أولاً، ووصلوها في العاشر من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٨. وبعد أن تشاوروا مع زعماء البريطانيين ومع الأصدقاء، غادروها إلى باريس في أواسط كانون الثاني (يناير) ١٩١٩. ولما وصلوا إلى باريس، لم تستقبل الحكومة الفرنسية الوفد العربي كحليف أو «شريك»، في مؤتمر الصلح، وما قبل الفرنسيون بجلوس أعضاء الوفد على مائدة مؤتمر الصلح، إلا بعد ضغط بريطاني شديد.



الأمير فيصل بن الحسين

قدّم الأمير فيصل، في التاسع والعشرين من كانون الثاني (يناير) «بياناً» إلى مجلس الحلفاء الأعلى لمناقشته، يطالب فيه بالاستقلال لكل الأراضي العربية، غير أن البيان لم يُناقَش، إلا في العشرين من أذار (مارس)، حين دعمه الرئيس ولسون، رئيس الولايات المتحدة، بكل قوته. وعندما أدّى الجدل إلى باب مسدود، اقترح الرئيس ولسون، تجاوزاً للمأزق، إرسال لجنة تشرف على استفتاء

في المناطق العربية، تتألف من عضوين من كل من البلدان التالية: الولايات المتحدة، بريطانيا العظمى، فرنسا وإيطاليا. وعين الرئيس ولسون مباشرة موفَديْه (هنري كنغ وشارل كراين). ثم انتقت بريطانيا السيرهنري ماكماهون والقائد هوغارت. أما الفرنسيون، فكانوا ضد إرسال اللجنة وقد صوتوا لها على مضض، دون أن يعينوا موفديهم. أما إيطاليا، فلم تكن معنية بالأمر، ولذلك لم تعين أحداً. والحق، أن الوحيد بين الحلفاء الذي اهتم باللجنة هو الرئيس ولسون الذي، حين أدرك تنصل الأعضاء الآخرين، طلب من موفَديْه الذهاب إلى الشرق الأدنى لينفذا مهمتها. فوصلا، مع مساعديها، إلى يافا، العاشر من تموز (يوليو) ١٩١٩، وبدآ استفتاءهما الذي عرف فيها بعد «باستفتاء لجنة كنغ ـ كراين».

انتخاب المجلس الوطني

رجع فيصل إلى دمشق في نيسان (أبريل) كي يستقبل اللجنة التي لم تصل. واستغرب، حين وجد الشعب السوري الذي ودعه بحماس شديد لدى سفره إلى مؤتمر الصلح، بارداً حزيناً، لدى عودته. ولقد هاج الشعب السوري لما حدث في باريس، ولم يستطع احتمال إهانة زعيمه. وفي وسط هذا الهياج والغضب، اقترح حزب الاستقلال العربي، وهو أقوى الأحزاب السورية، آنذاك، انتخاب مجلس وطني، فوافق فيصل، وجرت انتخابات سريعة، في سوريا ولبنان وفلسطين، لاختيار خمسة وثمانين عضواً. وأصدر المجلس الوطني، في اجتماعه الأول، عدة قرارات، أهمها ذاك الذي أكد استقلال سوريا الموحّدة، أي سوريا وفلسطين وشرق الأردن والعراق، وأن ينضم إليها لبنان المستقل داخلياً ضمن إطار الوحدة.

وفي تلك الأثناء، زار فلسطين السير مارك سايكس، وكيل وزارة الحرب البريطانية وأحد موظفي مؤتمر السلام في باريس، فصُدم حين اطلع على سياسة التمييز العنصري الشديد التي يمارسها الصهيونيون في فلسطين؛ تلك السياسة التي آزرها جهلاً منه حين الإعداد لوعد بلفور. وعندها فقط، أدرك سبب مقاومة العرب الشديدة لها. فانقلبت سياسته وعاد إلى باريس علّه يؤثّر على أعضاء مجلس الحلفاء الأعلى، ليغيروا سياستهم. فاتصل بالمستر لويد جورج، رئيس وزراء بريطانيا وبآخرين، لكنه، للأسف الشديد، مرض ومات؛ ويذكر بعض المؤرخين أنه لو عاش مارك سايكس لربما كانت نتائج مؤتمر الصلح أفضل بالنسبة للعرب!

لجنة كنغ ـ كراين

في الثاني من تموز (يوليو) ١٩١٩، غيرت فرنسا، عدوة استقلال العرب في تلك الأيام، رأيها بالنسبة للجنة الاستفتاء، وقررت إلغاءها. غير أن لجنة كنغ ـ كراين كانت قد وصلت إلى يافا، قبل هذا الميعاد بشهر. وبعد أن زارت كل أجزاء سوريا وفلسطين

ولبنان، قامت باستفتاء دام ستة أسابيع. وكان من أعمالها العظيمة أن عقدت أربعين اجتماعاً في مختلف المدن وتلقت ١٨٠٠ عريضة تطالب كلها بالاستقلال. وباختصار، كانت مطالب الشعب العربي كما يلي:

١ ــ الاستقلال.

٢ ــ إذا كان لا بد من وصاية فهم يرغبون في مساعدة الولايات المتحدة.

٣ ــ إذا لم تكن وصاية الولايات المتحدة ممكنة، فوصاية بريطانيا العظمى مقبولة (كانوا لا يزالون يجهلون أمر وعد بلفور).

٤ ــ وصاية فرنسا أو مساعدتها غير مرغوب فيها.

٥ ــ وحدة سوريا وفلسطين وشرق الأردن والعراق، بما فيها لبنان المستقل ذاتياً، في إطار الوحدة.

٦ ــ كل العرب دون استثناء ضد البرنامج الصهيوني.

مجلس الحلفاء الأعلى يرفض بيان الأمير فيصل

لم يتأخر نقاش بيان الأمير فيصل الذي قدمه لمجلس الحلفاء الأعلى، حتى عشرين أذار (مارس) فقط، وإنما رفضه المجلس كلياً أيضاً، وجاءت المعارضة الكبرى من فرنسا. ولسوء الحظ، كان الرئيس ولسون قد رجع إلى الولايات المتحدة، كي يؤيد اشتراكها في عضوية عصبة الأمم ضد معارضة مجلس الشيوخ الشديدة، وبقي فيصل دون سند في مجلس الحلفاء الأعلى؛ مما مكّن أعضاء المجلس الآخرين من أن يقرروا، دون معارضة، رفض البيان، وذلك الرفض سبب الاضطرابات في سوريا.

أيام سوريا السوداء

فشل بريطانيا العظمى في الوفاء بتعهداتها

رجع الأمير فيصل إلى لندن، في التاسع من أيلول (سبتمبر) ١٩١٩، فوجد أن الحكومة البريطانية عازمة على سحب قواتها من لبنان (الإدارة الغربية .O. E. T. A West) كي تحل محلها قوات فرنسية؛ الشيء الذي أزعج الأمير كثيراً؛ فاعترض غاضباً على قرار الحكومة البريطانية، مذكراً إياها بأن الجنرال اللنبي وعد بإبقاء تلك القوة البريطانية في لبنان، كما ذكّرها أيضاً بالثورة العربية والحرب الضروس التي خاضها جيشه ضد الأتراك، وبتعهداتها في «رسائل ماكماهون ــ الحسين»، وبتصريح الجنرال اللنبي في القدس، وبالإعلان الإنكليزي ــ الفرنسي، في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨. غير أن رئيس الوزراء، المستر لويد جورج، أعار دفاع فيصل المجيد أذناً



لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا

صماء، وتهرب من كل مسؤولية، ناصحاً الأمير بالذهاب إلى باريس كي يتفق مع الفرنسيين «بالتي هي أحسنُ...» يا للعار!!

حين تخلت الحكومة البريطانية عن كل تعهداتها، ورفضت مساعدة الأمير فيصل في الوصول إلى هدفه، غادر هذا إلى باريس، مخزيّاً محطم القلب. ولما تأكد فيصل من سوء نوايا فرنسا، وقّع معها، غير راضٍ، «الاتفاق الفرنسي ـ العربي» الذي تحتل فرنسا بموجبه لبنان حتى البقاع. أما سهل البقاع، فسيبقى منطقة محايدة، كما ستحتل فرنسا أيضاً الجزء الساحلي من سوريا حتى الإسكندرونة، وتبقى سوريا الداخلية مستقلة، شريطة أن تقبل بالمساعدة الفرنسية!

لا شك أن فيصلاً كان في غاية البؤس من هذا «الاتفاق»، لكنه، أي الاتفاق، كان أفضل ما يمكن الوصول إليه في تلك الظروف، ولم يذهب فيصل إلى سوريا، بل بقي في أوروبا، وترك أخاه زيداً مكانه، إلى أن تسربت أخبار «الاتفاق الفرنسي ـ العربي» إلى سوريا، فغضب الشعب السوري غضباً شديداً، واتهم فيصلاً ببيع قضية الشعب العربي. وحدثت اشتباكات على الحدود بين السوريين الثائرين والحاميات الفرنسية أجبرت فيصلاً، في النهاية، على العودة السريعة، حتى إذا وصل دمشق في الرابع عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩٢٠، وجد شعباً غاضباً ووطناً مضطرباً.

الثورة العربية ضد الحلفاء وإعلان فيصل ملكاً على سوريا

لم يكن لدى فيصل عند عودته من باريس ما يقدمه لشعبه، غير «الاتفاق الفرنسي ـ العربي» البغيض، ولم تكن فرنسا، بالحقيقة، راضية على هذا الاتفاق، لأنها كانت تريد احتلال سوريا كلها واستعمارها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، رفض الشعب السوري الاتفاق رفضاً باتاً، واقترح على فيصل أن يعلن استقلال سوريا، بما فيها لبنان وفلسطين وشرق الأردن؛ فقبل الأمير فيصل الاقتراح. وفي ٨ أذار (مارس) ١٩٢٠، قرر المؤتمر السوري العام استقلال سوريا، وأعلن الأمير فيصل ملكاً عليها.

عم الابتهاج العالم العربي. أما الابتهاج في القدس فقد كان شبيهاً بذاك

الذي عم العرب في الرابع والعشرين من تموز (يوليو) ١٩٠٨، عندما سقط السلطان عبد الحميد. وفي سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن، بل في كل شبه الجزيرة العربية، أيقن الشعب العربي أن الحلم الذي انتظره طويلاً، قد تحقق. وأنشد في مظاهراته الصاخبة بأعلى صوته:

«نحن لا نرضى الوصاية
لا ولا نرضى الحماية
فيصل أولى بالرعاية
لبني العرب الكرام»

ومن حسن حظي أنني كنت في القدس، في المناسبتين السعيدتين، ليس مشاهداً بل مساهماً في المظاهرات العارمة.

وكان للخطب الوطنية التي كان يلقيها الشيخ عبد القادر المظفر والأستاذ خليل السكاكيني والاستاذ خليل بيدس وأكرم زعيتر وعارف العارف وصليبا الجوزي أثر كبير في اثارة حماسنا جميعاً.

ودفع الحماس زعماء العراق للاجتماع وإعلان الأمير عبد الله، ثاني ابناء الشريف حسين، ملكاً عليهم، في احتفالات طاغية. ومع أن هذا العيد القومي لم يطل كثيراً، لكنه أظهر للعالم، ولا شك، ما كان يريده الشعب العربي حقاً.



الملك فيصل بن الحسين ملك سوريا

تقسيم العالم العربي وتمزيقه في مؤتمر سان ريمو

هزّ إعلان استقلال سوريا والعراق فرنسا وأزعج بريطانيا العظمى كثيراً، فأسرع الحلفاء، ودعوا المجلس الأعلى للحلفاء لعقد مؤتمر في سان ريمو، في ١٩ نيسان (أبريل) ١٩٢٠، لمعالجة الموقف. وفي ذاك اللقاء التاريخي، كشف الحلفاء مقاصدهم الحقيقية التي قاتلوا من أجلها؛ إذ قرر المجلس وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، وفلسطين

وشرق الأردن والعراق تحت الانتداب البريطاني. كما قرر إدخال وعد بلفور في صلب الانتداب على فلسطين.

كانت قرارات مؤتمر سان ريمو قرارات خادعة، وهي تعني بالفعل، إلغاء كل الاتفاقات والعهود والبلاغات والإعلانات السابقة التي أعطاها الحلفاء للعرب الذين قاتلوا وإياهم ضد العدو المشترك. وأكثر من ذلك، كانت تعني أن المكافأة التي كان العرب ينتظرونها من الحلفاء، لقاء الدور الصعب الذي لعبوه في الحرب، لم تكن علم الاستقلال، بل «رفسة في الظهر». وكانت النتيجة أن التغيير الوحيد الذي أصاب وضع العرب السياسي، هو تغيير الحاكم فقط. فبدلاً من الطاغية التركي، جاء طاغية بريطاني وآخر فرنسي.

رد فعل مؤتمر سان ريمو

نشرت القرارات التي اتخذها مجلس الحلفاء الأعلى في مؤتمر سان ريمو، في ٥ أيار (مايو) ١٩٢٠، وكان رد الفعل اضطرابات مباشرة في سوريا وفلسطين. أما في العراق، فأخذت الاضطرابات شكل مواقع حربية. والحقيقة، أن المنطقة كلها كانت في هياج.

كانت قرارات الحلفاء في مؤتمر سان ريمو أكثر من خبر سيء، كانت صدمة. وما كان العرب لينتظروا أن يخونهم الحلفاء إلى هذا الحد. وأنا لا أكتب هذه الوقائع كمؤرخ، وإنما كأحد الذين صدمتهم تلك الأحداث المشينة. كان شعوري، وما زال هو نفسه، أن الدرس الذي تعلمه العرب في ذلك اليوم، كلف الغرب، الغرب المسيحي، شيئاً لا يعوضه ثمن مادي مهما بلغ. كان العالم العربي، الإسلامي والمسيحي، قبل الحرب العالمية الأولى، ينظر إلى الغرب المسيحي على أنه العالم المتمدن، الديمقراطي، العالم الذي يشع منه نور الحرية والإنسانية. وكان يوم الخامس من أيار (مايو) ١٩٢٠، هو اليوم الذي أسقط هذا الوهم من تفكيره، وبدد الثقة، وأزال الإيمان بالشرف البريطاني. كانت «كلمة إنكليزية» شعاراً يعني «كلمة الصدق»، فغدت «كلمة الغش والنفاق». إن ما يدين به الحلفاء للعرب، ولم يفوا به، لم يكن مادياً يعوّض بالذهب والفضة؛ بل ديْناً، أدبياً وأخلاقياً، سبّب عدم الوفاء به، أضراراً فادحة، في روحيات أمة بكاملها. وأنا كمسيحي، خجلت، ليس من المسيحية النبيلة، بل من مسيحيي الغرب الذين كانت أعمالهم ضد المسيحية.

القوات الفرنسية تهاجم سوريا

معركة ميسلون

في الرابع عشر من تموز (يوليو) ١٩٢٠، أرسلت فرنسا إنذاراً لفيصل تملي عليه ما يجب أن يفعله. فهي تأمره بأن ينهي التجنيد الإجباري، وأن يسلم الحاميات العربية للقيادات الفرنسية العسكرية، وأن يقبل بالانتداب الفرنسي على سوريا. وبالرغم من رفض الشعب السوري، فقد وافق فيصل على الإنذار، لأنه كان يعرف نوايا فرنسا. فاحتد

الشعور الوطني في كل البلاد، ووقعت اصطدامات بين الطرفين. وفي الرابع والعشرين من تموز (يوليو)، هاجم الجيش الفرنسي سوريا وجرت في ميسلون بالقرب من دمشق، معركة دامية تغلب فيها الجيش النظامي الفرنسي على المتطوعين السوريين، وسقط فيمن سقط من الشهداء، وزير الحربية السوري، يوسف العظمة. ثم تقدم الجيش الفرنسي واحتل سوريا.

إخراج فيصل من دمشق

بعد ذلك بأيام قليلة، طلب الفرنسيون من فيصل أن يغادر البلاد ففعل؛ حيث غادرها في الثامن والعشرين من تموز (يوليو)، أي بعد أربعة أيام من الاحتلال. ووصل إلى إيطاليا، مع أقرب معاونيه، وحل في مكان على جزيرة ماجيوري، وبقي هناك، حتى كانون الأول (ديسمبر)، حيث رحل إلى إنكلترا، محطم القلب؛ وأقام عند صديقه اللورد ونترتون، أحد المقاتلين الأوائل الذين خاضوا معه المعركة ضد الأتراك. وقد كان لي الحظ أن ألقى اللورد ونترتون، سنة ١٩٣٧، في لندن، حينما أصبح رئيساً للجنة البرلمانية المناصرة للعرب، والتي كان أكثر أعضائها من الذين قاتلوا مع فيصل، وكرسوا أنفسهم، فيما بعد، لدعم قضية العرب في فلسطين. وقد تعاونت مع تلك اللجنة لما كنت أعمل في المركز العربي في لندن، حيث علمت أن الملك فيصل حل ضيفاً كريماً على اللورد ونترتون.

ألم يكن أفضل لو أن الأمير فيصل أعد جيشاً وقاده في حرب عصابات ضد الحكومة الفرنسية الجاحدة؟

تمزيق الأمة العربية

كان تمزيق العالم العربي، في مؤتمر سان ريمو، أشد ضرراً على الأمة العربية من استعمارها واستغلالها. كان شعار دول الحلفاء: «فرّق تسُد» وقد كان تقسيم الأرض العربية الواحدة إلى خمسة كيانات تحت انتدابات مختلفة، تجعل كلاً منها بلداً منفصلاً له حدود دائمة. هذه التجزئة كانت أكبر عائق في سبيل تقدم العرب ووحدتهم. إن عظمة الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفياتي تكمن في عدم وجود حدود بين ولاياتهما. والسوق الأوروبية المشتركة الحديثة، هي برهان آخر على ما أودّ تبيانه. كان مستحيلاً، خلال مدة الانتداب، اجتياز الحدود، التي اصطنعها الحلفاء بين تلك الدويلات العربية، دون سمة دخول فرنسية، أو إنكليزية، وما كان الحصول عليها بالأمر السهل. كان سكان تلك الدويلات، معزولين تماماً عن بعضهم البعض، وكان الهدف قطع صلات الأخوة القائمة فيما بينهم. وكان ذلك من أجل تمزيق الأمة العربية التي كانت لمئات السنين، أمة واحدة وبلداً واحداً. هذا التقسيم الذي فكك الوحدة العربية، وبعثر تماسكها، منع الأمة العربية من أن تصبح دولة كبرى. لقد قسمها الحلفاء، ما وسعهم، ليزيلوا المقاومة العربية الموحدة، فيتمكنوا من استغلال تلك الدويلات. وكانت نتيجة هذا التقسيم إنشاء خمس

دويلات هي : ١ ــ دولة العراق، تحت الانتداب البريطاني. ٢ ــ دولة سوريا، تحت الانتداب الفرنسي. ٣ ــ دولة لبنان، تحت الانتداب الفرنسي. ٤ ــ دولة فلسطين، تحت الانتداب البريطاني. ٥ ــ دولة شرق الأردن، تحت الانتداب البريطاني.



المناطق العربية المحتلة

ولم يكن يتجاوز عدد سكان تلك الدول الخمس، سنة ١٩١٨، عشرة ملايين نسمة، وهم يتكلمون جميعهم اللغة نفسها وهم من الأرومة نفسها. فكان تقسيمهم إلى خمس أمم منفصلة، في خمسة بلدان تفصل بينها حدود ــ ما عدا بين سوريا ولبنان ــ فتجعلهم غرباء بعضهم عن البعض الآخر، لغير مصلحتهم. وما طُبِّق هذا التقسيم إلا لتسهيل السيطرة عليهم واستغلالهم، وليس من سبب آخر طبيعي أو عرقي أو ديني، يفرق بينهم.

ليس من شأني في هذا الكتاب، مناقشة مختلف الانتدابات، وكيف نفذتها الدول المنتدبة، لأن اهتمامي منصب على الانتداب في فلسطين. وبوسعي أن أقول: إن مهمة بريطانيا العظمى وفرنسا، لم تكن سهلة لأنهما لم تعملا بروح المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم التي نصت على «الوصاية والمساعدة»، وليس على الاستعمار. وعلى ذلك، كان الاضطراب مستمراً في كل الأراضي المنتدب عليها، ما عدا شرق الاردن الذي أصبح

الأمير عبدالله، سنة ١٩٢٨، حاكمًا شبه مستقل له، تعاونه حكومة دستورية تدير شؤون الدولة الداخلية فقط. وقد اتخذت الاضطرابات طابعاً شبه حربي في العراق، مما جعله يتميز بكونه أول دولة عربية تمتعت بحكومة وطنية مستقلة (سنة ١٩٣٢) وأول دولة عربية صارت عضواً في عصبة الأمم.

أما في سوريا فكانت المقاومة شرسة منذ دخول الفرنسيين. فقد ثار السوريون ثورتهم الكبرى، سنة ١٩٢٦، ضد الفرنسيين، وأدى الصراع بالجنرال سراي، المندوب السامي، إلى ضرب مدينة دمشق بالقنابل، مما سبب كثيراً من الخراب وأدى إلى موت العديد من المدنيين الأبرياء.

أما في لبنان، فقد أعلنت الحكومة الوطنية غير المستقلة في المجلس النيابي، سنة ١٩٤٣، بشخص رئيس وزرائها، رياض الصلح، استقلال الجمهورية اللبنانية، وإلغاء الانتداب الفرنسي. وبسبب ملاحقة السلطات الفرنسية لها اضطرت الحكومة اللبنانية بقيادة رئيس الجمهورية، بشاره الخوري، إلى الفرار، حيث جعلت من بشامون، القرية الجبلية، قلعة دفاع. ووقف الشعب اللبناني، بانتفاضة عارمة، ثابتاً وراء حكومته الثائرة. وإزاء تلك الانتفاضات، اضطرت سلطة الانتداب الفرنسي للتسليم باستقلال لبنان وسوريا، سنة ١٩٤٣ وباستقلال شرق الاردن، سنة ١٩٤٦.

أما في فلسطين، الأرض المقدسة، فبسبب وعد بلفور، وقد عرفنا الآن ما هو هذا الوعد الجائر، الذي أُدخل ظلمًا في صلب الانتداب، اتخذ الاضطراب صورة أوسع بحيث شمل البلاد العربية كلها. ومنذ الاحتلال البريطاني سنة ١٩١٨، حكم فلسطين طغاة حرموا سكانها العرب الأصليين من تقرير المصير والاستقلال. والغريب جداً في الأمر، أن هؤلاء الطغاة يدّعون جميعاً أنهم أبطال الديمقراطية والحرية في العالم، وأنهم أيضاً، أبطال «مبدأ حقوق الإنسان».

فلسطين

تحت إدارة أراضي العدو المحتلة

جعلت إدارة أراضي العدو المحتلة في فلسطين قيادتها في القدس، واستخدمت مكاتب لها، بناء «أوغستا فكتوريا» الألماني، القائم على جبل سكوبس، وهو تتمة لجبل الزيتون. وبدأت الادارة بالعمل، منذ أن دخل القدس الجنرال اللنبي، القائد العام للقوات البريطانية المحتلة، في الحادي عشر من كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٧. وفي التاسع عشر من كانون الأول (ديسمبر) أذاع بيانه «التاريخي» على الشعب، في القدس، فاستقبل الشعب البيان بالرضا. إذ لم يذكر الجنرال شيئاً عن وعد بلفور، الذي كانت حكومته قد وقعته، قبل سبعة عشر يوماً.

اللجنة الصهيونية تصطدم بالادارة البريطانية

لم تتأخر المنظمة الصهيونية، وقد اطلعت على وعد بلفور في رسالة إلى اللورد روتشيلد في لندن، في إرسال لجنة صهيونية إلى القدس. ولم تتأخر الاصطدامات، بين هذه اللجنة والإدارة العسكرية أيضاً. فقد أرادت اللجنة الصهيونية أن تدير الحكم العسكري في فلسطين، بالطريقة التي تريدها هي، الشيء الذي رفضه الحاكم العسكري رفضاً باتاً. والحقيقة أن الإدارة العسكرية كانت تحاول جهدها تسيير أمور البلاد، حسب بلاغ الجنرال اللنبي إلى أهالي القدس، غير أن اللجنة الصهيونية لم تكن تهتم كثيراً بأوامر الحاكم العسكري، لأنها كانت تدرك مدى دعم اليهود في انكلترا والولايات المتحدة لها؛ وهو دعم مكّن الدكتور حاييم وايزمان والميجر اورمزبي غور، الداعية الصهيوني، من المجيء إلى القدس في آذار (مارس) ١٩١٨، قبل أن يكتمل احتلال فلسطين، اعداداً لهذه اللجنة الصهيونية. وقد بقي، الميجر اورمزبي غور، مع اللجنة الصهيونية، في القدس حتى تموز (يوليو) ١٩٢٠، حين حلت الادارة المدنية محل الادارة العسكرية.

الجنرال بولز يرسل كتاباً إلى اللنبي

ازدادت الاصطدامات، بين اللجنة الصهيونية والإدارة العسكرية، ووصلت أوجها، عند اندلاع أول شغب يهودي ـ عربي عام ١٩٢٠، مما حدا بالجنرال بولز، الحاكم العسكري العام في فلسطين، إلى الإسراع في إرسال تقرير قوي اللهجة، إلى القيادة العامة في القاهرة، يقترح فيه حل اللجنة الصهيونية. كان الجنرالات العسكريون مستقيمين، يودون أن يحكموا بأمانة وبعدل، ولكنهم كانوا يجهلون ما يُعدُّه السياسيون من وراء ظهورهم. إن هذا التقرير الذي وجدناه في كتاب: «نيزي دوميناس» لـ«نيفل باربر»، المستشرق المعروف، ذو أهمية خاصة لأنه أول تقرير يلقي ضوءاً على وقاحة الصهيونيين وتمردهم وتحيزهم، وعلى أهدافهم الأنانية. فقد جاء في هذا التقرير الهام:

«إنهم لا يطالبون القائد العسكري بالعدالة، ولكنهم يريدون منه، في كل مسألة تخص يهودياً، أن يتحيز له ويعطي الحكم لصالحه. إن التعامل معهم في غاية الصعوبة. في القدس، حيث هم الأكثرية لا يرضون بالحماية العسكرية ويطالبون بأن يكون الحكم في أيديهم، أما في الأمكنة الأخرى التي هم فيها أقلية، فإنهم يستغيثون الحماية العسكرية...

«ولا ضرورة من التأكيد على ما أجده من صعوبة... وأنا أعالج حالة يمكن أن تنشأ في المستقبل، وأحد الفرقاء، الطائفة اليهودية (ونائب رئيسها المستر اوسيشكين) التي تهددني دائماً بقانون الجمهور، وترفض الإذعان لشرعية القانون والنظام.

«ولا فائدة من قولنا للسكان المسلمين والمسيحيين ان ما وعدنا به عند دخولنا القدس، بإبقاء الحالة الراهنة (Status Quo) قد تمسكنا به. فالأحداث تشهد عكس

ذلك. إن إدخال اللغة العبرية، كلغة رسمية، وإقامة محكمة يهودية، وسيطرة اللجنة الصهيونية وامتيازات السفر لاعضائها، أقنع غير اليهود من السكان قناعة ثابتة ومطلقة بتحيزنا. ومن ناحية ثانية، تتهم اللجنة الصهيونية ضبّاطي وأنا بأننا ضد الصهيونية. إن الحالة لا تطاق ويجب أن نواجه في حزم ما يحيط بضباطي ويحيق بي أنا من ظلم.

«لقد نفّذت هذه الادارة، بأمانة، رغبات حكومة جلالته، ونجحت في ذلك بتمسكها الدقيق بالقوانين التي تقيد سلوك المحتل العسكري في أرض العدو المحتلة، غير أن هذا لا يرضي الصهيونيين الذين يبدو أنهم عاكفون على تحويل الادارة العسكرية المؤقتة إلى سياسة متحيزة، قبل بدء الانتداب. ومن الواضح انه يستحيل إرضاء متحيزين لا يطالبون رسمياً بأكثر من «وطن قومي» وهم في الحقيقة لا يرضون بأقل من دولة يهودية، بكل ما لهذه الكلمة من معنىً.

«ولذلك، أوصي، لمصلحة السلام ونمو الصهيونيين أنفسهم، بحلّ اللجنة الصهيونية في فلسطين».

أرسل الجنرال بولز هذا التقرير إلى قيادة الجنرال اللنبي في القاهرة سنة ١٩٢٠ بعد سنتين من التجربة الصعبة مع اللجنة الصهيونية، فكان وصفاً أميناً لأول احتكاك رسمي بين الادارة البريطانية في فلسطين والصهيونية الرسمية. كانت بداية الطريق فقط. كانت هذه اللجنة على تحيز ووقاحة وتمرد على القانون، لم يستطع معها الجنرال بولز، الحاكم العسكري العام، إلا أن يطلب حلها!!

غير أن الحكومة البريطانية في لندن، لم تكن، لسوء الحظ، مثل حكومة القدس العسكرية، بل كانت حكومة مدنية متحيزة خضعت لطلبات الصهيونيين المتحيزة. ولم تهمل الحكومة البريطانية تقرير الجنرال بولز فحسب، بل قامت باعتراف رسمي آخر بوعد بلفور وحلت في الوقت نفسه الإدارة العسكرية في فلسطين بدلاً من اللجنة الصهيونية. ذلك كان الجواب على تقرير الجنرال بولز.

نهاية الإدارة العسكرية في فلسطين

حلت الإدارة المدنية محل الادارة العسكرية في فلسطين، في أول تموز (يوليو) سنة ١٩٢٠، ودشنت رسمياً في السابع منه برسالة من الملك جورج الخامس، إلى الشعب الفلسطيني نعرض ملخصاً لها في ما بعد.

وقبل أن أنتهي من هذا الفصل، أريد أن أشير إلى رسالة وقعها الأمير فيصل (الملك فيصل فيما بعد)، في الرابع من كانون الثاني (يناير) ١٩١٩، إلى الدكتور حاييم وايزمان بحضور لورنس (T.E. Lawrence). لقد جربت اليهود لمدة طويلة، أن يجعلوا من رسالة

«فيصل ـ وايزمان» وثيقة مهمة، تدّعي قبول الأمير فيصل بوعد بلفور؛ غير أنها، لحسن الحظ، كانت مشروطة، وهذا الشرط لم ينفذ فأصبحت عقيمة وغير ملزمة.

رسالة فيصل ـ وايزمان

قيل عنها الكثير وكتب القليل. كتبت في ٤ كانون الثاني (يناير) ١٩١٩؛ ومع أنه كان يشار إليها أحياناً «بالاتفاقية»، لكنها لم تتجاوز كونها تفاهماً بين شخصيتين فقط، لا معاهدة تقدم إلى مؤتمر السلام للمناقشة.

تحوي الرسالة نوعاً من الاتفاق على الصداقة والتعاون بين العرب واليهود، لتنمية فلسطين وتقدمها، غير أنه كان مشروطاً ولا يصبح نافذاً إلا عندما يصبح العالم العربي بكامله مستقلاً، وتقوم دولة عربية موحدة من كل المناطق العربية، كما جاء في المذكرة المقدمة من الأمير فيصل إلى الحكومة البريطانية بتاريخ الرابع من كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٩. وقد كتب هذا الشرط بالعربية، ووافق عليه ثم وقعه وايزمان.

كان من الحكمة ألا يبرز الدكتور وايزمان هذه الوثيقة ويستعملها لتعزيز القضية الصهيونية، فالشرط الذي وصفه فيصل لم ينفذ أبداً. ولم تنشر الرسالة إلا سنة ١٩٣٦، أي بعد سبعة عشر عاماً من توقيعها. وقد نشر وايزمان هذه الرسالة في جريدة التايمز اللندنية، ولم يسعه أن يذكر الشرط الذي في الوثيقة، واكتفى بالقول: إن هذا الشرط كان «تنفيذ المذكرة التي قدمها الأمير فيصل إلى الحكومة البريطانية، في ٤ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٩ وبه يتعلق الاتفاق كله».

وقد جرب ممثلو اسرائيل في الولايات المتحدة وفي الأمم المتحدة، في مناسبات عديدة، الإشارة إلى «رسالة فيصل ـ وايزمان» بأنها موافقة من الأمير فيصل على سياسة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، ولكن كانت جهودهم، في كل مرة، تبوء بالفشل.

الملك حسين الأول وغدر الحلفاء به

توترت العلاقات، في سنتي ١٩٢١ و١٩٢٢، بين الحكومة البريطانية ومكة. فقد رفض الملك حسين، بحزم، الاعتراف بمعاهدة فرساي بسبب تفسيرها للمادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم، فقد أصر الملك حسين على أن العراق وسوريا التي تضم لبنان وفلسطين وشرق الاردن، هي مناطق مستقلة تابعة لمعاهدة ماكماهون ـ الحسين لسنة ١٩١٦. ولذلك يجب ألاّ توضع تحت الانتداب ، وقد غضب من ابنه فيصل لأنه وقع المعاهدة التي لم يصادق هو عليها.

قال الملك حسين لأمين الريحاني، المؤلف اللبناني المشهور: «لو أنهم أطاعوني لما تمت هذه التنازلات في مؤتمر السلام». ولهذا، لـمأ رجع فيصل إلى الحجاز بعد زيارته الثالثة

لأوروبا، لم يأتِ «أبوه الملك» من مكة إلى جدة لاستقباله، نظراً لسخطه، حتى ولم يرسل له سيارة، فذهب الأمير فيصل إلى مكة على جمل كأي عربي عادي.



الملك حسين الأول في المنفى

واجتهد المستر تشيرتشل أن يستميل الملك حسين، فأرسل إلى الحجاز سنة ١٩٢١، لورنس، صديق فيصل، علّه يقنعه بتوقيع معاهدة جديدة مع بريطانيا، وقبول معاهدة فرساي، ولكي يناقشه ويقنعه بالمساومة. ثم عرضوا عليه، لقاء توقيع المعاهدة، ميثاقاً بينه وبينهم يضمن حمايته ضد أي اعتداء، بما فيه ضد ابن سعود، الرجل القوي. غير أنه رفض أن يقايض سلامة مملكته بالاعتراف بوضع خاص لفلسطين، ووجود الفرنسيين في سوريا. ولم يوافق أبداً على استثناء سوريا وفلسطين من الأراضي المستقلة، وذهبت الحجج لإقناع الحسين ادراج الرياح. وقضى لورنس في جدة شهراً كاملاً لم يجن فيه شيئاً أبداً.



ن. إ. لورنس

نعم، لقد أظهر الحسين عزمه في هذا الموضوع، قبل نهاية الحرب. فقد هدد، قبل نهايتها بثلاثة أشهر بالتنازل عن العرش ما لم تفِ بريطانيا بتعهداتها كاملة. ولقد قال للريحاني: «ان أحقر بدوي لا ينكث بتعهده. أقول: نحن متشبثون بأهدافنا، لا نتغير في خدمتنا للأمة مهما تطورت الأمور وتفاقمت الصعوبات. نحن لا نريد إلّا خير العروبة، والسوريون قلب العروبة».

وبما أن الملك حسين، الزعيم الحازم الشريف، لم يساوم على استقلال العراق

وسوريا وفلسطين وشرق الاردن، فَقَدْ فَقَدَ، كما نعرف جميعاً، عرشه ومملكته وميراثه، وفَقَدَ كل شيء إلا شرفه وروحه النبيلة . ولقد توجّه إلى منفاه في قبرص بأرفع القيم والتقدير. ولم يعمل عربي في العصر الحديث، ما عمله الحسين من أجل استقلال الأمة العربية،ولم يضحّ أحد كما ضحّى لمستقبلها المجيد. كان الحسين بن علي، بعد أربعمئة سنة من الاستعباد تحت نير الأتراك، أول عربي وقف على شرفته في مكة المكرمة وأطلق الرصاصة الأولى معلناً استقلال وحرية كل العالم العربي، لا الحجاز وحده؛ استقلالاً وحرية لم يرض أن يقايض بهما كل أمجاد وكنوز هذا العالم.

نهاية الملك العظيم

في أواخر العشرينات، ساءت صحة الملك حسين وهو في قبرص. ولما أصبح وضعه خطيراً، سنة ١٩٣٢، أرسل له ابنه الأمير عبدالله (الملك عبدالله فيما بعد) طبيبه الخاص، الدكتور جميل توتنجي، إلى قبرص. وبعد الفحص والاستشارة تقرر نقل الملك إلى عمّان؛ حيث عولج بكل الاعتناء والدراية الممكنة. ثم دُعي من القدس أربعة أطباء للاستشارة في مداواته، وكان لي الشرف أن أكون أحدهم (الدكاترة توفيق كنعان، فاهان قلبيان وحسن أبو السعود) ولكننا وجدنا أن العمر فعل فعله، وأن الدواء لن يجدي كثيراً، وهذا ما جعلنا في خيبة آسفين.

ولم يطل الوقت بأبي العرب وأول من أعلن استقلالهم، فرحل عنا ودفن، بكل تكريم؛ حيث يدفن العظماء الأتقياء، في الحرم الشريف في القدس؛ حيث ترقد روحه بسلام بين الملائكة.

الفصل السابع

الحركة الصهيونية
الصهيونية غير اليهودية
اليهودية روح، الصهيونية مادة

في سنة ١٨٩٧، دعا الدكتور ثيودور هرتزل، وهو يهودي نمساوي، أحزنه اضطهاد اليهود في اوروبا، إلى مؤتمر يعقده زعماء يهود العالم في بال بسويسرا، كي يناقشوا مسألة اضطهاد اليهود. تلك كانت الشرارة التي وُلدت منها الحركة الصهيونية الحديثة.


تيودور هرترسل، مؤسس الصهيونية

بدأت الصهيونية حركة دينية وإنسانية، فإذا بها الآن حركة سياسية عدوانية، هدفها الأول، تحويل فلسطين، الأرض المقدسة، بصرف النظر عما تعنيه المسيحية والإسلام، وبصرف النظر أيضاً عن حق شعبها العربي فيها، إلى دولة صهيونية، وهذا يعني تشريد وطرد السكان العرب الأصليين، مسيحيين ومسلمين، وإحلال يهودٍ من كل أطراف العالم محلّهم.

وهدفها الثاني أن تتوسع لتقيم مملكة اسرائيل الممتدة من النيل إلى الفرات.

مزاعم الصهيونية في فلسطين

لا حق للصهيونيين في فلسطين، لأن الصهيونية ليست مفهوماً دينياً، والصهيونية ليست اليهودية. وهنالك أناس كثيرون يظنون أن الصهيونية هي اليهودية عينها، ولا شيء أبعد عن الحقيقة من ذلك. فاليهودية مفهوم روحي أساسه «الله»؛ والصهيونية مفهوم سياسي عدواني حجره الأساسي «المادة».

مطالب اليهود في فلسطين

تتألف مطالب اليهود في فلسطين من شقين:

١ ــ مطالب دينية.

٢ ــ مطالب أرضية.



اليهودية والصهيونية لا تتحدان

أما عن مطالب اليهود الدينية في فلسطين، فلا أحد يستطيع نكرانها وهي دعوى روحية يدعيها أيضاً ثمانمائة مليون مسيحي وستمائة مليون مسلم. إن اليهود يدعون العلاقة الروحية بفلسطين من «التوراة». والمسيحيون عبر الانجيل المقدس. والمسلمون من قرآنهم الكريم. والدعاوى الثلاث متساوية روحياً، والمؤمنون بالأديان الثلاثة يرون في فلسطين أرضاً مقدسة تمنح الإلهام وتنعش الروح.

أما عن دعوى اليهود في أرض فلسطين، فليست أكثر مما للمسيحيين والمسلمين. وحصتهم عددياً أقل بكثير (واحد في المئة). ولو قسمت أرض فلسطين بين يهود العالم ومسيحييه ومسلميه، لكانت حصة اليهود تافهة، ومع ذلك، فاليهود وحدهم الذين يحاولون الاستيلاء على كل أرض فلسطين. ونحن هنا نعرض حججهم ومزاعمهم الجغرافية، مع أننا ننبذها أساساً.

الاستعمار اليهودي من الفرات إلى النيل

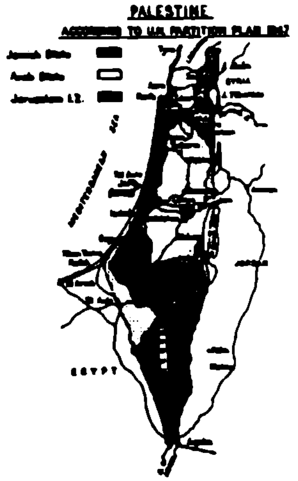
يذهب بعض اليهود إلى أن دعواهم في أرض فلسطين ناجمة عن علائق تاريخية، منذ ٤٠٠٠ سنة. وأساس هذه الدعوى يرجع إلى مقطع في العهد القديم من التوراة: «إلى نسلك أعطي هذه الأرض...». والصهيونيون متمسكون بأن الله وعد نسل إبراهيم بفلسطين، وأن اليهود هم نسله.

والذي لا شك فيه، أن عدداً كبيراً من الناس أضلّهم اعتقادهم أن هذه الدعوى لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، وأنهم حين يساعدون اليهود بالعودة إلى فلسطين، فإنما ينفذون إرادة الله.

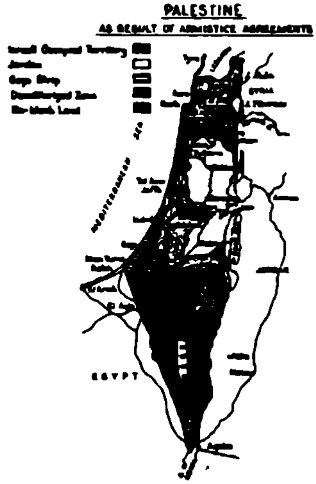
Zionist Colonialism & Expansionism



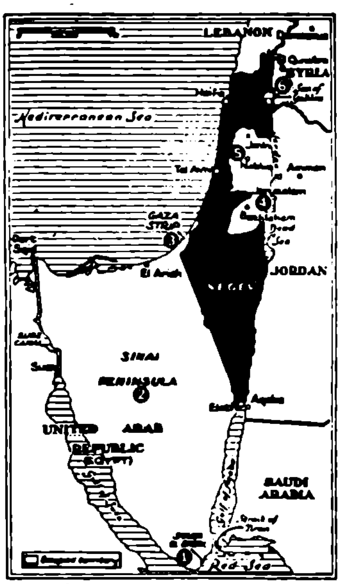
Palestine in 1918
A



Palestine in 1947 UN Partition
B



1948 Armistic Lines
C



OBJECTS OF ISRAELI DIPLOMACY: (1) Sharm el Sheikh, (2) Sinai Peninsula, (3) Gaza Strip, (4) Jerusalem, (5) part of Jordan's west bank and (6) the Syrian heights. Dark shading shows Israeli territory after 1949 armistice.
Palestine after June 5, 1967

D



ZIONIST EMPIRE FROM THE NILE
TO THE EUPHRATES ???

E

الاستعمار الصهيوني من الفرات إلى النيل

لقد انتقد «الفرد غيوم»، أستاذ دراسات العهد القديم في جامعة لندن، في كراسه: «الصهيونيون والتوراة»، The Zionists and the Bible هذه الدعوى وأبطلها:



الاستاذ الفرد غيوم، يبطل الوعود

العرب هم أيضاً نسل إبراهيم

أولاً: ان اليهود ليسوا وحدهم نسل ابراهيم، يقول الأستاذ غيوم: «المفهوم الآن، أن هذه الوعود أعطيت لليهود، ولليهود وحدهم. غير أن هذا ليس ما قالته التوراة: إن كلمة: «إلى نسلك» تتضمن حتماً العرب، من مسلمين ومسيحيين، الذين بوسعهم أن يدعوا أنهم من نسل ابراهيم عَبْر ابنه إسماعيل. ومعروف عن اسماعيل أنه أبو عدد عظيم من القبائل العربية...».

ثانياً: ان الوعود والنبوءات عن عودة اليهود إلى فلسطين، هي العودة من منفى بابل. وقد أنجزها الله، منذ زمن بعيد، وهي لا تنطبق على يهود الزمن الحاضر. يقول الأستاذ غيوم:

«مثل هذه الآراء، هي تحريف لنبوءات العهد القديم الذي تنبأ بعودة اليهود من بابل ومن كل الأراضي التي نفوا إليها. ولقد تحققت هذه النبوءات، ورجع اليهود إلى فلسطين، وأعادوا بناء أسوار القدس، وأعادوا بناء الهيكل. وبعد بعض التقلبات، أمنوا فترة قصيرة من الاستقلال السياسي والاتساع تحت حكم المكابيين. وهكذا تحققت نبوءة العودة؛ ولا يمكن أن تتحقق مرة أخرى. وفي أسفار العهد القديم لا توجد نبوءة عن عودة ثانية، غير العودة من منفى بابل».

ذلك هو تفسير علماء التوراة لعودة اليهود إلى فلسطين، وهو يبين للمؤمنين بالعهد القديم، ان عودة يهود هذا العصر إلى فلسطين هو تحريف لنبوءات العهد القديم.

المسيحيون والوعود

لا يستطيع المسيحيون أن يوافقوا على الدعوى الصهيونية في فلسطين، بسبب تعاليم العهد الجديد. لأن مجيء المسيح عند المسيحيين ينهي كل شيء: يهودي وغير يهودي، مختارين وغير مختارين، موعودين وغير موعودين، كما هو مكتوب في رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية (الاصحاح الثالث، والعدد ٢٥ ـ ٢٩):

«فبعد أن جاء الايمان، لسنا تحت مؤدب، لأنكم جميعكم أبناء الله بالإيمان بيسوع المسيح. لأنكم أنتم جملة من تعمدتم في المسيح، قد لبستم المسيح، ليس يهودياً ولا يونانياً، ليس عبداً ولا حراً، ليس ذكراً ولا أنثى، لأنكم جميعكم واحد في المسيح. فإذا كنتم للمسيح فأنتم إذاً نسل ابراهيم وورثته حسب الموعد».

وهكذا، صار المسيحيون، حسب العهد الجديد، نسل ابراهيم وورثته، لا اليهود. ولهذا، باتت وعود العهد القديم لليهود، بالنسبة لمئات الملايين من المسيحيين، لاغية ومرفوضة، ومن لا يرفضها من المسيحيين فهو يرفض المسيح سيده ومعلمه.

المسلمون والوعود

إن مئات الملايين من المسلمين ينكرون وجود هذه الوعود، لأنه لا ذكر لها في كتابهم المقدس (القرآن الكريم). أما بالنسبة لبقية ملايين العالم، فإن هذه الوعود خرافة. وعندما أفكر انني الآن مطرود من وطني وأرضي، محروم من أقدس ملكية، كي يأخذ مكاني صهيوني لأنه يهودي ولأنني مسيحي لا يهودي. يبدأ دمي بالغليان، وأدرك لماذا يبقى العالم في اضطراب مستمر.

المجمع اليهودي الأميركي والوعود

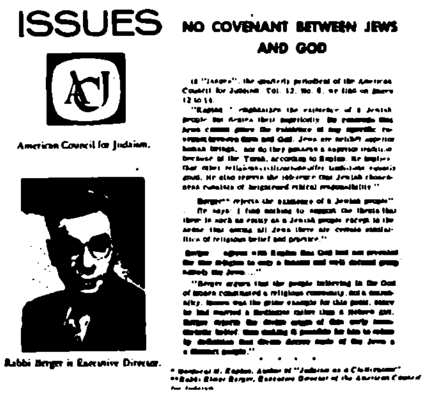
(The American Council For Judaism)

لا عهد بين الله واليهود

في «النشرة» الصادرة عن المجمع اليهودي الأميركي، تجد في مجلد ١٢، عدد ٨، صفحة ١٢ ــ ١٤ ما يلي:

«يؤكد كبلان على وجود شعب يهودي، وينكر تفوقهم. وهو يؤكد أن اليهود لا يستطيعون إثبات وجود عهد بينهم وبين الله. فاليهود ليسوا متفوقين على الكائنات البشرية الأخرى، ولا يملكون تقليداً متفوقاً بسبب التوراة. وهذا يعني أن الحضارات الدينية الأخرى لها تقاليد جيدة مثل تقليدهم. وهو يرفض الاستنتاج بأن اختيار اليهود يعني مسؤولية أخلاقية عليا».

أما الحاخام «المربيرجر»، فإنه يرفض وجود شعب يهودي ويقول: «أنا لا أجد شيئاً يدعم نظرية وجود هذا الكيان للشعب اليهودي إلا بمعنى وجود بعض التشابه بين اليهود في الايمان الديني وممارسته «. . .» ويتفق بيرجر مع كبلان في أن الله لم ينزل الدين الحق على جماعة محددة محدودة وحدها وهي اليهود. . . ويصرّ بيرجر على أن الشعب الذي آمن بإله موسى كان جماعة دينية ولم يكن قومية، وأول مثل على ذلك هو موسى الذي تزوج بمدْينيّة (مدين) لا من ابنة عبرية. ويرفُض بيرجر المنشأ الإلهي للاعتقاد الموحد. وهكذا أصبح سهلاً عليه نقض الأسطورة: إن الله جعل من اليهود شعباً متميزاً مختاراً.


ISSUES

NO COVENANT BETWEEN JEWS AND GOD

American Council for Judaism.

Rabbi Berger is Executive Director.

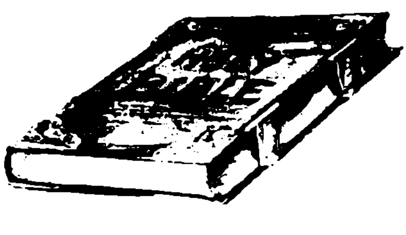
الحاخام المربيرجر

وبهـذا، فـإن المجمـع اليهـودي الأميركي في الولايات المتحدة يعـارض، بشـدة، الحـركـة الصهيـونيـة وربيبتهـا اسرائيل. وقد قال الحاخام بيرجر، وهو المدير التنفيذي للمجمع، في خطاب له: «المسؤوليـة»: «لكنني الآن أتكـلم إلى شعبي، ونحن مـدعـوون إلى أن ابـين لشعبي معاصيه، ولبيت يعقوب خطاياه».

سكان فلسطين الأصليون والوعود

إن سكـان فلسطين الأصليـين من مسلمين ومسيحيين، وقد كانوا يشكلون، حين أعطي وعد بلفور ٩٤ بالمئة من مجموع السكان؛ وقد عاشوا في فلسطين منذ زمن سحيق، هم أصحاب فلسطين، ولا يستطيع أحد أن يقاسمهم أرضها إلا من شاركهم فيها قبل الحرب العالمية الأولى. إنهم لا يؤمنون بصحة كل الوعود التي منحت لليهود في فلسطين، سواء كانت وعوداً من السماء أم من الأرض. فليس لأحد الحق بالوعد بوطننا لأي شعب آخر، ولأي سبب. أما عن خرافة الشعب المختار، فقد أضحت أكثر سخافة من أن تقبل.

ومهما كان من الأمـر، فإن شعب فلسطين الأصيل يعترف بالحقوق الدينيـة لشعـوب الأديـان الثـلاثـة في فلسـطين: اليهـودية والمسيحيـة والاسلام، ولسـوف تبقى الأرض المقدسة، كما كانت دائـماً، المملكة الروحية لهذه الشعـوب، تلهمهم الاستقامة والصلاح وحب الانسـان.



التوراة: يا إلهي! كم من الجرائم اقترفت باسمك

وأخيـراً، عـلى اليهـود أن يتقبلوا الواقع. لقد مضى أربعة آلاف سنة على تلك الـوعود والنبـوءات الخرافيـة، ومنذ ذلـك الحـين، أصبحت فلسـطين بـلاداً مقدسة لثمـانمئة مليـون مسيحي وستمئة مليون مسـلم أيضاً، تحيـطها، منـذ زمن سحيق، هـالة من القـداسة. إنها أرض

أنبيـاء العهد القـديم ، ومهد المسيحيـة ، وقبلة المسلمـين الأولى. ولا نـنسـى أن فلسطين كانت على مرّ الأجيال، وستبقى كذلك، مقدس ملايين الحجاج الأتقياء للأديان الثلاثة، وأن جعلها أرض ــ صهيون (للصهيونيين فقط)، وإقصاء الجميع عنها، خرافـة الدهر. إن ضم الصهيونيين لبيت المقدس وجعلها عاصمتهم، هي الوثنية بالذات التي يجب أن نقضي عليها ونحرر القدس منها.

إن أسطورة «يهودي وغير يهودي» هي طابع دولة اسرائيل والصنم الذي يعبـده الاسرائيليون اليوم، وستبقى الحروب، كما كانت زمن الصليبيين، قائمة، حتى تزول من فلسطين وإلى الأبد، ليس اليهودية، بل الصهيونية، رمز التحيّز الديني والتمييز العنصري.

الفصل الثامن

عصبة الأمم
ميثاق عصبة الأمم، مثالي
فساد أعضائها حوّلها إلى هيئة مزرية

قاسى الحلفاء في حربهم ضد المانيا وحلفائها كثيراً، فعزموا على إيجاد وسيلة لمنع حرب أخرى في اوروبا، ولكي تكون الحرب العالمية الأولى نهاية الحروب. وعلى هذا الأساس قامت عصبة الأمم.

كان أكبر حافز لتأسيس عصبة الأمم مبادرة الرئيس وودرو ولسون، رئيس الولايات المتحدة وإعلانه في تموز (يوليو) ١٩١٨، الأربع عشرة نقطة التي بُني عليها ميثاق عصبة الأمم المثالي. وقد نظمها الحلفاء سنة ١٩١٩، مباشرة بعد الحرب، وتكونت من جميع الأمم المستقلة ما عدا الدول المغلوبة. وأراد الرئيس ولسون بجدية أن تغدو الولايات المتحدة عضواً فيها، غير أن مجلس الشيوخ قاومه بشدة مفضلاً العزلة الأميركية أو ما يدعى «بمذهب مونرو»(The Monroe Doctrine).

احتلت عصبة الأمم أبنية جميلة ضخمة في جنيف، سويسرا، البلد المحايد، وقامت كما نوهنا أعلاه، على أن تكون منبراً حراً تُحَلّ فيه سلمياً نزاعات الأمم، دون حرب. ونُظِّم ميثاقها على أسس الديمقراطية والحرية وتقرير المصير للشعوب، وإلغاء الاستعمار، الذي ساد قبل الحرب والذي بواسطته تحكمت الأمم القوية بالأمم الضعيفة، ليحل محله «مبدأ الانتداب» وهو أن يولِّج مجلس عصبة الأمم إحدى الأمم المتمدنة بالقيام بمهمة تعليم الأمة النامية ومساعدتها حتى تستطيع الوقوف على قدميها. وهي وصاية يُدعى فيها الوصي «منتدباً» أو «مفوَّضاً» مسؤولاً أمام العصبة عن انتدابه، فيقدم لها تقريراً سنوياً يتناول تقدم البلد المنتدَب عليها وتقدم شعبها. وبهذا، جعل ميثاق عصبة الأمم، الأمم النامية: «وديعة الحضارة المقدسة».

المادتان ٢٠ و٢٢ من الميثاق تخصان العرب:

١ ــ تنص المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم على ما يلي: «أما تلك المستعمرات والأراضي التي انقطعت، نتيجة للحرب الأخيرة، عن أن تكون تحت سيادة الدول التي



عصبة الأمم

حكمتها من قبل، وتقطنها شعوب ما زالت غير قادرة على حكم نفسها في ظروف العالم الحديث الصعبة، يطبق عليها مبدأ الانتداب الذي بواسطته تقوم الدولة المنتدبة برفاه ونمو الشعب المنتدب عليه ويكون وديعة الحضارة المقدسة، مضمون الجانب من الميثاق». «وأفضل طريقة لإعطاء هذا المبدأ أثراً فعالاً، أن تكلف بالوصاية على هذه الشعوب، أمم متقدمة، تستطيع، نظراً لمواردها أو تجاربها أو موقعها الجغرافي وإرادتها، الاضطلاع بهذه المسؤولية وقبولها كمنتدبة من قبل عصبة الأمم.

«إن بعض الجاليات التي كانت تخص سابقاً الامبراطورية التركية، قد وصلت إلى درجة من الرقي يجب الاعتراف بها كأمم مستقلة باحتياج فقط إلى مساعدة فنية مؤقتة، من دولة منتدبة، لحين الاستغناء عنها، ويجب أن تؤخذ بعين الاعتبار رغبات هذه الجاليات في انتقاء المنتدَب».

تبين هذه المادة جلياً أن نهج الانتداب وهو «الوصاية» وضع ليحل محل النهج الاستعماري الاوتقراطي الذي كان سائداً قبل الحرب، على أن تكون الدول النامية «وديعة الحضارة المقدسة»، أي أن تعامل كأمم حرّة غير مستعبدة، وما المنتدب إلا معلم، يدير مصالح

الشعب المنتدب عليه، لا مصالح المنتدب.

لقد عُدّ الشعب العربي أنه وصل إلى درجة من النمو والرقي تجعل الاعتراف باستقلاله ممكناً، وهو بحاجة فقط للمشورة والنصيحة، من قبل دولة منتدبة ينتخبها، ولكن، للأسف، لم يستشِر مجلس العصبة الشعب العربي في انتخاب المنتدب ولو أنه أُستشير قبلاً، من قبل «لجنة كنغ ـ كراين» سنة ١٩١٩. ومع أن العرب لم يعتبروا أنفسهم آنذاك من الأمم النامية، فإنهم لم يمانعوا، إذا كان لابد من ذلك، في وصاية الولايات المتحدة، لمدة قصيرة، أو الوصاية الانكليزية، حين تكون الوصاية الأميركية غير ممكنة (وهذا كان قبل معرفتهم بوعد بلفور) لأنهم كانوا يقدرون، مؤمنين، أن بريطانيا العظمى كانت تقاتل من أجل «عالم حرّ»، وأنها سوف تفي بوعودها وتعهداتها لهم. وقد رفضت الولايات المتحدة أن تكون وصية، فأوكلت عصبة الأمم، التي كانت تسيطر عليها بريطانيا وفرنسا، الدولتين نفسيهما، بالانتداب، دون استشارة الشعب العربي، ضاربةً عرض الحائط بالمادة ٢٢ من الميثاق وغدت فرنسا الدولة المنتدبة على سوريا ولبنان؛ كما غدت بريطانيا العظمى منتدبة على العراق وفلسطين وشرق الاردن. والحقيقة، كانت وصاية ومساعدة بالإسم، أما في الواقع، فكانت استعماراً واستغلالاً؛ وفي فلسطين، كانت استعباداً وترحيلاً وطرداً.

٢ ـ تنص المادة ٢٠ من الميثاق على ما يلي: «يوافق أعضاء عصبة الأمم، كل على حدة، على أن هذا الميثاق يلغي كل الالتزامات والتعهدات التي تناقض نصوصه؛ ويتعهدون جدياً، بأنهم لا يدخلون في أي ارتباط يناقض هذه النصوص. أما إذا تعهد أي من أعضاء العصبة بأي التزام يناقض نصوص الميثاق، فمن واجب هؤلاء الأعضاء أن يقوموا مباشرة بالخطوات التي تؤول إلى إعفائهم من هكذا التزامات».

كانت الحكومة البريطانية، هي الحكومة الوحيدة التي أعطت، خلال الحرب، وعوداً، وعقدت اتفاقات. أعطت وعداً للعرب وآخر لليهود. أما الوعد للعرب في رسائل «ماكماهون ـ الحسين»، فهو لا يناقض نصوص ميثاق عصبة الأمم، كما جاء في المادة ٢٢ منه. تعهدت بريطانيا بوعد بلفور سنة ١٩١٧ (قبل إقامة العصبة بسنتين)، كي تساعد اليهود لإقامة وطن قومي لهم في فلسطين. وفلسطين ليست ملكاً لبريطانيا ولا لليهود وإنما هي ملك شعبها وحده، شعب فلسطين. وما كان وعد بلفور إلا تعهداً من سلطة أجنبية لشعب أجنبي تساعده في امتلاك أرض أجنبية. ولهذا، كان التعهد يناقض تماماً ميثاق عصبة الأمم، الذي نص على «تقرير المصير للشعب الفلسطيني»، والذي اعتبرته المادة ٢٢ من الميثاق أنه وصل إلى درجة من الرقي توجب الاعتراف باستقلاله، وهو بحاجة فقط إلى مساعدة فنية مؤقتة، من دولة منتدبة، إلى حين الاستغناء عنها.

وبما أن وعد بلفور يناقض نصوص الميثاق، فقد بات من واجب بريطانيا العظمى، كما نصت المادة ٢٠ من الميثاق، أن تقوم مباشرة بالخطوات التي تؤول إلى اعفائها من هكذا التزام. لقد كان على بريطانيا العظمى أن تحرر نفسها من وعد بلفور قبل أن تنضم إلى عضوية عصبة الأمم، الشيء الذي لم تفعله بريطانيا لأنها لم تكن أمينة للميثاق ولمبادئه السامية، بل بالعكس، فقد دعمته واستخدمت نفوذها وتأثيرها عند بقية أعضاء العصبة، بلا شرف وبلا أمانة، من أجل إدخاله في صلب صك الانتداب على فلسطين، ومن ثم صارت هي المنتدبة عليها لتنفيذه. وبهذا، غدت بريطانيا العظمى عضواً خائناً في عصبة الأمم، وغدت عصبة الأمم منظمة لا يوثق بها.

لقد سارت عصبة الأمم، منذ البدء، على طريق الغش والتحيز، وكان صك الانتداب على فلسطين أول الشهود على ذلك. وهكذا لم تعمر العصبة طويلاً، بالرغم من ميثاقها السامي. وقد أصبحت منظمة عصبة الأمم مريضة لمرض أعضائها الأخلاقي؛ فهي لم تستطع أن تفعل شيئاً لردع اليابان من الهجوم على الصين، أو لإيقاف موسوليني الايطالي من احتلال الحبشة، أو هتلر المانيا من ضم النمسا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا إلى الرايخ. وفي أواخر الثلاثينات، أثبتت عصبة الأمم أن لا فائدة من وجودها؛ وأعلنت الحرب العالمية الثانية في أواخر آب (أغسطس) ١٩٣٩، وعندها تلاشت عصبة الأمم وغرقت في عالم النسيان.

الفصل التاسع

صك الانتداب على فلسطين
دمج وعد بلفور بصك الانتداب جعل الصك غير شرعي
صك الانتداب الفاسد، خلق القضية الفلسطينية

أصدرت عصبة الأمم في الرابع والعشرين من تموز (يوليو) سنة ١٩٢٢، صك الانتداب على فلسطين، وكان الانتداب على فلسطين انتداباً خاصاً يختلف عن الانتدابات على العراق وسوريا ولبنان وشرق الاردن. فقد أدخل مجلس عصبة الأمم وعد بلفور في صك الانتداب دون التأكد من أنه لا يناقض ميثاق عصبة الأمم، الشرط الوحيد الذي يجعل إدخاله في صك الانتداب شرعيا، وهو الشرط الذي لم يتأكد منه مجلس العصبة، لأن بريطانيا العظمى وفرنسا الحليفتين المنتصرتين، كانتا العضوين المهيمنين على عصبة الأمم. ولذلك أدخل وعد بلفور في صك الانتداب بكل تناقضاته وعدم شرعيته مع الميثاق، كما بيّنا ذلك في الفصل الثامن، جاعلاً من صك الانتداب أيضاً وثيقة غير شرعيـة، وانتـدابـاً شرعياً غير قابل للتنفيذ.

ولهذه الأسباب كلها، كانت مهمة الحكومة المنتدبة على فلسطين في غاية الصعوبة، لأن مهمتها تقضي بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، دون الاضرار بحقوق سكان البلاد من غير اليهود– مهمة مزدوجة المسؤولية تبدو لنا مستحيلة التنفيذ، من قبل دولة منتدبة غير منحازة، إلا إذا عمدت إلى تنفيذ إحدى المسؤوليتين فقط؛ فإما أن تقيم الوطن القومي اليهودي، كما نص عليه صك الانتداب، وتترك الجاليات الأخرى من السكان وشأنها، واما أن تعنى بالجاليات غير اليهودية في فلسطين وتهمل مشروع الوطن القومي اليهودي وشأنه.

ولكي تؤمّن إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، وضعت عصبة الأمم المنحازة، توجيهات عدة، في غاية التحيز، في صك الانتداب لتسهّل إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، مهما كان الثمن، وتجاهلت مصير الجاليات غير اليهودية من السكان، وفي ما يلي بعض من هذه التوجيهات:

تنص المادة ٢ من صك الانتداب على ما يلي: «يكون المنتدب مسؤولاً عن وضع البلاد، في ظروف سياسية وإدارية واقتصادية تؤمن إقامة الوطن القومي اليهودي».

وتنص المادة ٤ منه على التالي: «وسوف يعترف بوكالة يهودية مناسبة، كهيئة عامة مهمتها النصح والتعاون مع الادارة في فلسطين، في المسائل الاقتصادية والاجتماعية وسواها، التي تساعد في إنماء الوطن القومي اليهودي ومصالح السكان اليهود في فلسطين. . . . وما دامت المنظمة الصهيونية بتنظيمها ودستورها مناسبة بنظر المندوب السامي لفلسطين، فستكون هي الوكالة. . . وستتخذ الخطوات، بالتشاور مع حكومة جلالته، لتأمين التعاون مع جميع اليهود الراغبين في إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين».

كما تنص المادة ٦ على أنه: على الادارة في فلسطين، دون أن تلحق ضرراً بحقوق الجاليات غير اليهودية «أن تسهّل الهجرة اليهودية، في ظروف ملائمة، وتشجع، بالتعاون مع الوكالة اليهودية المذكورة في المادة ٤، قيام مستعمرات يهودية على الأراضي بما فيها أملاك الدولة والأراضي البور غير اللازمة للأغراض العامة».

ترى! هل نجد كل هذه المواد في وعد بلفور؟

وفي المادة ١١: بوسع الادارة في فلسطين أن ترتب مع الوكالة اليهودية المنوه عنها في المادة ٤ (بناء أو تشغيل) بشروط قانونية وعادلة، أشغالاً عامة، أو خدمات أو منافع أو تنمية أي مورد من موارد البلاد الطبيعية، إذا لم تكن قد تعهدت الادارة مباشرة بهذه الأعمال.

التعليق

١ ــ لدى قراءة هذه التوجيهات والتعليمات في صك الانتداب على فلسطين، يظن المرء أن واضع صك الانتداب هو الوكالة اليهودية وليس عصبة الأمم. وماذا كان بوسع الوكالة اليهودية أن تطلب أكثر، لتؤمن إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين؟

٢ ــ كان على البلاد «أن توضع في ظروف سياسية وإدارية واقتصادية تؤمن إقامة الوطن القومي اليهودي»، وهذا يعني أن الحكومة المنتدبة بوسعها أن تخرب اقتصاد البلاد، إذا كان إنشاء الوطن القومي اليهودي يقتضي ذلك. كما أن بوسعها شل كل حركة سياسية في فلسطين، في سبيل إنشاء هذا الوطن.

٣ ــ يجب الاعتراف بالوكالة اليهودية، كهيئة رسمية تنصح حكومة الانتداب وتتعاون معها في المشاريع الاقتصادية والاجتماعية والأمور الأخرى التي تساعد على إقامة الوطن القومي اليهودي ومصلحة الشعب اليهودي، وهذا يعني أن الوكالة اليهودية تشارك في حكم

فلسطين.

٤ ـ تسهّل الحكومة المنتدبة الهجرة اليهودية في ظروف ملائمة وتشجع إقامة المستعمرات اليهودية على الأراضي، بما فيها أملاك الدولة؛ وهذا يعني أنه على الحكومة المنتدبة أن تعمل أي شيء وكل شيء، كي تهيء الظروف الملائمة.

٥ ـ على الحكومة المنتدبة أن تتعاون مع الوكالة اليهودية في الأشغال العامة والخدمات واستغلال الموارد الطبيعية، وقد أعطيت كل هذه الأفضليات لليهود، وهم ٦ بالمئة من السكان الأصليين ولمن يغزو فلسطين من اليهود. ولكن ما هي الأفضليات التي منحت لسكان فلسطين من غير اليهود، وهم ٩٤ بالمئة من مجموع سكان فلسطين الأصليين ـ لا شيء! وليس هذا فقط، بل سلبوهم كل حقوقهم أيضاً. وقد جرى كل ذلك بفلسطين وبأهلها الأصليين والنص على أن «حقوق السكان من غير اليهود يجب أن لا تمس بأذى»، موجود في صلب وعد بلفور، وفي صلب صك الانتداب. ولا نشك في أن الذين وضعوه كانوا يعرفون أنه لا يمكن تطبيقه، وأنه وضع للخداع وليس لحفظ الحقوق.

الخلاصة:

(أ) إن هدف الانتداب الرئيسي هو إقامة الوطن القومي اليهودي ورفاه الشعب اليهودي في فلسطين، بأي ثمن. وعلى الحكومة المنتدبة إزالة كل العوائق في سبيل هذا الهدف.

(ب) واضح أن الذين وضعوا صك الانتداب على فلسطين، أهملوا إهمالاً تاماً، مصالح السكان غير اليهود في فلسطين وهم يشكلون ٩٤ في المئة من المجموع، واعتبروا فلسطين أرضاً بلا سكان.

(ج) كان صك الانتداب على فلسطين خالياً من كل إشارة إلى تحسين حالة السكان من غير اليهود في فلسطين ـ أي العرب، وكل ما وضع عن مصالحها كان سلبياً وهو أن حقوقها يجب الاَّ تُمس، الشيء الذي كان تحقيقه مستحيلاً.

(د) كلمة «عرب» لم تذكر في صك الانتداب على فلسطين بل سموا «الجاليات الأخرى من السكان». وسموا في وعد بلفور «السكان من غير اليهود». وقد أعطوا العرب هذه التسميات للتقليل من شأنهم والتصغير من أهميتهم، كونهم الأكثرية الساحقة في فلسطين.

(هـ) لم يذكر وعد بلفور السبب الذي من أجله تعهدت بريطانيا العظمى بأن تساعد في إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، والسبب الوحيد الذي ذُكر في صك الانتداب هو: «علاقة اليهود التاريخية بفلسطين». واني لأعجب كيف أن هذه «العلاقة التاريخية» التي

ذكرت عَرَضاً في المقدمة، تبرر غزو بلد وطرد أهله.

(و) عندما ناقشنا وعد بلفور، في فصل سابق، قدمنا بيانين رسميين أثبتا أنه غير شرعي، متناقض وغير قابل للتنفيذ: أحدهما، «تقرير لجنة موم»، والثاني بيان المستر ايرنست بفين، والذي لا شك فيه أن اللورد موم، قاضي قضاة انكلترا، والمستر ايرنست بفين، وزير خارجية برطانيا العظمى، كانا مقتنعين بعدم شرعية وعد بلفور وبعدم تناسقه واستحالة تنفيذه. وبما أن هذا الوعد أُدخِل في صلب صك الانتداب على فلسطين، فقد غدا صك الانتداب أوتوماتيكياً، غير شرعي، وغير متناسق، ومتناقضاً، لا يمكن تنفيذه. ولقد حكم فلسطين وأهلها، مدة ثلاثين سنة، دستورٌ غير شرعي، عنوانه الظلم؛ لم يهمل مصالح الشعب العربي، فحسب، بل هدّم وجوده كشعب. ولا غرابة في أن تستمر الحرب الفلسطينية ستين عاماً دامية إلى الآن، فالزمن مهما طال، لا يقدر أن يجعل الباطل حقاً. وجهدَ الصهيونيون، خلال ستين عاماً لبناء دولة صهيونية آمنة في فلسطين بحد السيف، لكنهم فشلوا ويفشلون لأن السيف، لا يبني البيت: «إن لم يبنِ الرب البيت، فباطلاً يتعب البناؤون».

الفصل العاشر

إدارة مدنية لفلسطين يرأسها مندوب سامٍ يهودي
كتاب الملك جورج الخامس لأهالي فلسطين
موسى كاظم الحسيني، رئيس بلدية القدس، يستقيل ويعينّ مكانه، راغب النشاشيبي
المؤتمر العربي الفلسطيني الأول يعقد في القدس ويقرر إرسال وفد إلى لندن
الوفد العربي الفلسطيني الأول يذهب إلى لندن

انتهت إدارة فلسطين العسكرية الجنوبية (O. E. T. A. South)، في السابع من تموز (يوليو) ١٩٢٠، وفي اليوم نفسه دشّن السير هربرت صموئيل، المندوب السامي لفلسطين، الإدارة المدنية رسمياً، بأن قرأ رسالة من الملك جورج الخامس إلى أهل فلسطين. كانت الرسالة طويلة لكنها أكّدت النقاط التالية:

١ ـ أنا فخور جداً بقوات الجنرال اللنبي، لأنها حررت بلادكم «فلسطين».

٢ ـ ستقوم سلطة الانتداب بواجباتها، بحياد مطلق، فتحترم حقوق كل جنس ومعتقد، دون فرق.

٣ ـ سيؤسس، تدريجياً، الوطن القومي اليهودي، دون أن يضرّ بحقوق الشعب الفلسطيني، الدينية والمدنية، أو يقف في طريق ازدهاره.

٤ ـ سيحاول المندوب السامي الذي عينته، على تعزيز رفاه كل طبقات الشعب وجالياته وعلى تعزيز وحدته.

٥ ـ إدراكاً للمسؤولية العظيمة، في حكم بلد يقدسه المسيحي والمسلم واليهودي، سأراقب، باهتمام بالغ، تقدم هذا البلد التاريخي الهام للعالم كله، ونموه.

التعليق على رسالة الملك:

١ ـ بدأ الملك جورج الخامس رسالته لشعب فلسطين، بمديح قوات الجنرال اللنبي التي حررت بلادنا من «الاضطهاد التركي»، وهو أمر لا شك فيه. لكنها، وللأسف الشديد، لم تحرر شعب فلسطين من الاضطهاد البريطاني الذي كان أشد منه بكثير. لقد حرر الجنرال اللنبي شعب فلسطين من اضطهاد وسلمه إلى اضطهاد

آخر أشد استبداداً وضراوة.

٢ ـ لقد اضطهد الأتراك شعب فلسطين، لكنهم أبقوه في وطنه ورفضوا المال الصهيوني ثمناً لفلسطين. أما الحكومة البريطانية، فباعت، ظلماً وبلا إنسانية، فلسطين وشعبها إلى صهيوني العالم. أجل، باعت فلسطين التي لم تكن تملكها أبداً إلى أناس هي ليست لهم. والحقيقة، كان ذلك بيعاً للشرف البريطاني.


السير هربرت صموئيل

٣ ـ حاول الملك جورج، في رسالته، تخفيف وطأة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، بتعابير لطيفة، وجرب أن يهون من آثارها باستعمال العبارة المعتادة: ان تلك السياسة لن تضر بالحقوق الدينية والمدنية للطوائف الأخرى، وهو وعد كانت الحكومة البريطانية تعرف عدم استطاعتها تطبيقه. وما كان هذا خطأها الوحيد، إذ كان تعيين هربرت صموئيل، اليهودي، الصهيوني، أول مندوب سام لفلسطين، خطأ آخر. ورغم ما كان عليه من النزاهة وحسن الإدارة، فما كان السكان العرب ليثقوا به، خاصة، بعد الوصف الذي وصفه به نصير الصهيونية، اورمزبي غور، من أنه صهيوني متحمس وأحد الدعاة الرئيسيين للفكرة الصهيونية في وزارة الحرب البريطانية. أهذه هي الطريقة المثلى للتخفيف من الصدمة التي تلقاها الشعب العربي الفلسطيني بإهدائه «وعد بلفور» بدلاً من الاستقلال؟! وكم كان جهل بريطانيا عظيماً في تعيين يهودي، كأول رئيس للإدارة في فلسطين!

٤ ـ تتحدث الرسالة عن الحياد في ممارسة حكومة الانتداب ونزاهتها بالنسبة لمختلف الطوائف والجاليات، ولكن كيف يتفق هذا الوعد مع صك الانتداب على فلسطين الذي صدر بعد سنتين من تاريخ الرسالة. وهو التحيز بالذات، كما بينا ذلك في الفصل التاسع!

٥ ـ كانت بريطانيا أكبر وأقدم إمبراطورية ديمقراطية في العالم. وحسب مبادىء الديمقراطية، كانت رسالة الملك إلى الشعب الفلسطيني هي، في الواقع، رسالة الحكومة البريطانية بالذات، الحكومة التي عقدت اتفاق سايكس ـ بيكو سنة ١٩١٦، والتي منحت وعد بلفور سنة ١٩١٧. فهل بوسع رسالة الملك، والحالة هذه، أن تؤدي نتيجة أفضل من نتيجة الوعود والتصاريح والبيانات والإعلانات التي كانت أعطتها الحكومة البريطانية؟

٦ ـ وأخيراً، لم تنس الرسالة «المسؤولية العظيمة التي منحت لبريطانيا العظمى أن تحكم، بالحياد المطلق وعلى قدم المساواة، بلداً يقدسه المسلم والمسيحي واليهودي». ومع ذلك فقد أعطى الملك الحق، الذي لم يكن أبـداً لـه، إلى يهود العالم، كي يعيشوا في فلسطين، وهو ما أنكره على مسيحي ومسلمي العالم. فإذا كانت فلسطين أرضاً مقدسة للأديان الثلاثة على قدم المساواة، فلماذا إذاً تعطي الحق لأتباع دين واحد دون الآخرين؟ وماذا عن الشعب المالك لها وقد وعدته بصيانة حقوقه ابداً. ولماذا هذا «التحيز» لليهود، الشيء الذي جعل الأرض المقدسة غير مقدسة، بل بركة دم إلى يومنا هذا!

المجلس الاستشاري

حكم السير هربرت صموئيل فلسطين بواسطة مجلس تنفيذي من الموظفين (رؤساء الدوائر) وكلهم من البريطانيين. وعين، بعد ذلك مباشرة، مجلساً استشارياً يتألف من عشرة موظفين بريطانيين وعشرة أعضاء، غير موظفين، يعينهم المندوب السامي وهم: أربعة من المسلمين، وثلاثة من المسيحيين، وثلاثة من اليهود. وقد حُلّ هذا المجلس بعد سنتين، حين استقال الأعضاء العرب السبعة، وكان السبب في استقالتهم، سياسياً، لأنهم قبلوا التعيين من قبل المندوب السامي، دون موافقة السكان العرب الذين يمثلونهم. وما كان الاشتراك في «مجلس استشاري» معين وغير منتخب، بعد خوض حرب تحرير لعشرات السنين، غير خيانة للقضية العربية، التي كان هدفها المباشر «الاستقلال» لا غير. وقد كان العرب ينتظرون قيام حكومة عربية وطنية سنة ١٩٢٠، وإذا بهم الآن تحكمهم إدارة أجنبية بكاملها، هدفها الأساسي، إقامة وطن قومي يهودي ليهود العالم على أرض العرب. تلك سياسة يرفضونها وهي جوهر معارضتهم. ولقد رفضوا وعد بلفور، منذ البدء، ولم يعترفوا به حتى الآن.

حكمت «الإدارة المدنية» البريطانية فلسطين سنتين ونيفاً، دون انتداب من عصبة الأمم، وقد عينت بريطانيا نفسها الحكومة المنتدبة على فلسطين لتنفذ وعد بلفور اللاشرعي، بدون انتداب شرعي. ومع هذا، أصدر المندوب السامي في ٢٦ آب (أغسطس) ١٩٢٠ «قانون الهجرة»، فسمح بموجبه لستة عشر ألفاً وخمسمئة مهاجر يهودي بالدخول إلى فلسطين للسنة الأولى. وهذه بالذات، كانت الشرارة التي أضرمت نار أطول حرب في التاريخ الحديث، «حرب كن أو لا تكون» ضد عرب فلسطين، حرب، لا دليل على نهايتها حتى الآن.

لقد تأكد الشعب العربي الفلسطيني، منذ بداية الكفاح، فداحة قضيته، واستنتج أن تقسيم الحلفاء للأرض العربية إلى دويلات صغيرة، كان القصد منه، إضعاف معارضة العرب لخِطَطهم الاستعمارية. وأنه من الطبيعي أن إخضاع مليون ثائر عربي فلسطيني أسهل

من إخضاع عشرة ملايين ثائر عربي، وأن إقامة وطن قومي يهودي ضد إرادة عشرة ملايين متمرد، ستكون مستحيلة، وما كانت لتوجد اليوم دولة إسرائيل في الشرق الأوسط، لتعبث في الأرض تدميراً وفساداً.

تأسيس الجمعية الإسلامية ـ المسيحية

كانت الصداقة القائمة بين الطائفتين الإسلامية والمسيحية أيام الحكم التركي، تهدف إلى القضاء على السيطرة التركية، وقد شملت أيضاً مشاعر الود للطائفة اليهودية الصغيرة في فلسطين، وما كان أحد يضمر لها الأذى؛ غير أن سياسة الوطن القومي اليهودي، بعد الحرب العالمية الأولى، متنت أواصر الصداقة بين الطائفتين، لتؤلفا جبهة واحدة، ضد العدو المشترك، تأسست على أثرها الجمعية الإسلامية ـ المسيحية وقوامها أعضاء انتُقوا من كل أنحاء فلسطين، وسُمِح بكرم للمسيحيين أن يبلغ عددهم في الجمعية أكثر من نسبتهم إلى السكان التي كانت نحو ١٠ بالمئة، وانتخب بيت المقدس مركزاً للرئاسة.



الاتحاد الاسلامي المسيحي

موسى كاظم الحسيني يستقيل

استمرت حكومة الانتداب، وهي بدون انتداب، في تنفيذ سياسة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، وأصدرت قانوناً يرسم اللغة العبرية، لغة رسمية، مثل اللغتين العربية والإنكليزية. وبالرغم من أن العرب كانوا ينتظرون مثل هذه المخالفات من الحكومة البريطانية، إلا أن هذا التحدي، وهذا العمل بالذات، كان صفعة لهم، فرفض موسى كاظم الحسيني، رئيس بلدية القدس، الإذعان لهذا القانون اللاشرعي مما اضطره بالتالي إلى الاستقالة.

كان موسى كاظم كهلاً جليلاً وقوراً مهذباً، يحظى باحترام وتقدير جميع المواطنين على اختلاف نزعاتهم، زادته استقالته من أجل القضية الوطنية، احتراماً واعتباراً. فانتخب رئيساً للجمعية الإسلامية ـ المسيحية، ثم رئيساً للجنة التنفيذية العربية حيث استمر في الرئاسة إلى أن بكته الأمة، سنة ١٩٣٤.

التغييرات السياسية المفاجئة واضطرابات يافا

لم يأت تبديل حكومة فلسطين، من إدارة عسكرية إلى إدارة مدنية، بالسلام إلى فلسطين، بل بالعكس، فقد كان تعيين الملك جورج الخامس يهودياً صهيونياً لمنصب المندوب السامي لفلسطين، وإصدار قانون الهجرة وتحديد ١٦٥٠٠ مهاجر يهودي لدخول فلسطين، في السنة الأولى، وإصدار مرسوم يجعل اللغة العبرية لغة رسمية، ومنح امتيازات خاصة للجنة الصهيونية مما جعلها حكومة ضمن حكومة؛ تلك الأمور جميعها، أقلقت عرب فلسطين في جميع أنحاء البلاد وأغضبتهم. وكان أهالي يافا أول من عبّر عن هذا القلق والغضب، فقد اندلعت فيها وفي جوارها، يوم الأول من أيار (مايو) ١٩٢١، اضطرابات استمرت عدة أسابيع قتل فيها، كما جاء في تقرير الحكومة، ٤٧ يهودياً وجرح ١٤٦. كما قتل ٤٨ عربياً وجرح ٧٣ في الصدام مع البوليس والجنود البريطانيين. كان الشعب العربي الفلسطيني ناقماً على سياسة الحكومة المستبدة وما كان له من مخرج إلا «العنف» الذي ما استطاع كبحه. لقد قتل وجرح عدد من اليهود والعرب، فمن هو المسؤول؟ من هو المجرم في هذه الحالة؟ هل يصمت الشعب الذي أنكروا عليه حقوقه وسرقوا أرضه وغزوا وطنه، وأصمّوا الآذان عن سماعه؟ إن الشعب الذي لا يناضل لنيل حقوقه يُنعت بالجبن ويُرمق بالازدراء والسخرية، حتى إذا كافح في سبيل الحق، دُعي من قبل الاستعمار بالإرهابي والقاتل. والحقيقة، أن من يفرض القوانين الجائرة هو المجرم الحقيقي.

لجنة تحقيق هاكرافت

عين المندوب السامي لجنة تحقيق لتنظر في أسباب اضطرابات يافا ـ وهي برأينا واضحة ـ برئاسة السير توماس هاكرافت، قاضي القضاة في فلسطين، وعضوية المستر هاري لوك (السير هاري لوك فيما بعد)، نائب حاكم القدس، والمستر ستابس، مدير دائرة الأراضي. ورفعت اللجنة تقريرها إلى الحكومة في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢١، مبيّنة أن السبب كان وعد بلفور ورضيعه: الوطن القومي اليهودي. وقد رحّب العرب كثيراً بهذا التقرير المحايد؛ أما الحكومة فقد انزعجت منه كثيراً.

بعد أن هدأت الاضطرابات، قررت الجمعية الإسلامية ـ المسيحية أن تدعو إلى مؤتمر عُقد في القدس، في تموز (يوليو) ١٩٢١، برئاسة موسى كاظم الحسيني واتخذ عدة

قرارات منها: إرسال وفد إلى لندن كي يناقش الحكومة البريطانية، علّه يتوصل إلى إلغاء وعد بلفور؛ مصدر الاضطرابات في فلسطين.



المؤتمر الوطني الفلسطيني في القدس

المستر تشرتشل وزير المستعمرات يزور الشرق الأوسط

بسبب الإضطرابات التي وقعت في فلسطين، قرر المستر ونستون تشرتشل، وزير المستعمرات، أن يزور الشرق الأوسط في آذار (مارس) ١٩٢١، ليدرس الحالة في تلك المنطقة. وقد أقام في القاهرة «دائرة الشرق الأوسط»، المرتبطة بوزارة المستعمرات. وعقد مؤتمراً في العاصمة المصرية تداول فيه أمور الشرق الأوسط مع كبار موظفيه. وحضر المؤتمر أيضاً، لورنس العرب، وكان جالساً على يمين المستر تشرتشل، رئيس المؤتمر.

في الرابع والعشرين من آذار (مارس) وقع المستر تشرتشل اتفاقاً مع الأمير عبد الله بن الحسين منصباً إياه أميراً على شرق الأردن. ثم غادر إلى فلسطين، فزار المدن الرئيسية ومناطق أخرى، فاستقبلته المستعمرات اليهودية بالتصفيق بينما كانت النوافذ والأبواب في مدينة يافا جميعها مقفلة تماماً عند مروره فيها، احتجاجاً على سياسة وعد بلفور.

وفي القدس، زارته اللجنة التنفيذية العربية وطالبته بإلغاء وعد بلفور وإيقاف الهجرة اليهودية وإقامة حكومة وطنية عربية، فكان جوابه: «تطلبون مني إلغاء وعد بلفور وإيقاف الهجرة اليهودية. هذا ليس في استطاعتي ولا هو رغبتي!». أغضب هذا الجواب الوقح أعضاء اللجنة، فجرب بعدها أن يهدىء من غضبهم ولكن عبثاً، فقررت اللجنة أن تذهب إلى عصبة الأمم في جنيف وإلى لندن للوصول إلى نتائج أفضل.

الوفد العربي الفلسطيني يذهب إلى لندن

ذهب الوفد العربي الفلسطيني، تنفيذاً لقرار مؤتمر القدس الوطني، إلى لندن في آب (أغسطس) ١٩٢١ برئاسة موسى كاظم الحسيني، يرافقه: الحاج توفيق حماد (نابلس) والسيد معين الماضي (حيفا) والسيد أمين التميمي (نابلس) والسيد ابراهيم شماس (القدس) والسيد شبلي الجمل (القدس).



الوفد الفلسطيني الأول إلى لندن

أقام الوفد العربي الفلسطيني في فندق سيسل في لندن تسعة أشهر، وكانت له مفاوضات مثيرة مع الحكومة البريطانية، وخاصة مع ونستون تشرتشل، وزير المستعمرات. وقد تركزت المفاوضات على إلغاء وعد بلفور، والتمسك بأن بريطانيا لم يكن لها الحق بإعطاء ما لا تملك إلى آخرين، وبأن وعدها ليهود العالم، هو خرق للحقوق الطبيعية والإنسانية لسكان فلسطين الأصليين وهم العرب الذين يملكون فلسطين. كما طالب الوفد بأن يمنح العرب، وهم ٩٣ بالمئة من السكان، الاستقلال بناء على مبدأ تقرير المصير الذي نص عليه ميثاق عصبة الأمم، وحسب الوعود التي أعطتها بريطانيا العظمى في «رسائل ماكماهون ـ الحسين»، كما طالب الوفد بنشر هذه الرسائل التي كانت الحكومة البريطانية قد أخفتها لأنها لا تريد تنفيذها.

وقد قدم الوفد هذه المطالب إيماناً منه بأنه ما لم تُلغَ سياسة وعد بلفور والوطن القومي اليهودي، فأي تعهد آخر تقدمه الحكومة البريطانية أو عصبة الأمم، لا قيمة له في حفظ حقوق العرب وضمان مستقبلهم في فلسطين. ولقد أثبت الزمن أن تقديرهم كان صحيحاً وأن الضمان الذي جاء في الوعد «لا يُعمل شيء يضرّ بالحقوق الدينية والمدنية للسكان غير اليهود في فلسطين» ما وضع في وعد بلفور إلا للغدر فقط، وما هو إلا حقنة مورفين لمريض بالسرطان.

الوفد العربي الفلسطيني يذهب إلى جنيف

في هذه الأثناء، سافر الوفد العربي الفلسطيني إلى جنيف، لكي يحضر اجتماع عصبة

الأمم، وكانت فلسطين إلى ذلك الوقت، تُحكم بدون صك انتداب من عصبة الأمم، وتحكمها بريطانيا مباشرة معينة نفسها بنفسها، وقد بقيت تعمل بهذا الانحراف نحو خمس سنوات. وكان اللورد بلفور في جنيف، فطلب الوفد الفلسطيني مقابلته فرفض قائلاً: «إذا أراد الوفد الفلسطيني أن يراني لأجل فلسطين فليذهب ويقابل الدكتور حاييم وايزمان!» تصبّر الوفد على هذه الإهانة وثابر حتى اضطر اللورد لمقابلة الوفد. كانت المقابلة جافة جداً وقصيرة، ردد خلالها: «إنها مجرد تجربة أرادت الحكومة البريطانية تجربتها، وهل التجربة ممنوعة؟». ثم أنهى كلامه متبرماً: «إذهبوا وقابلوا الدكتور حاييم وايزمان بخصوص فلسطين!»(الله أكبر!!).

رجع الوفد الفلسطيني إلى لندن دون أن يستفيد شيئاً من جنيف، وفي ٢٢ شباط (فبراير) ١٩٢٢، قدم المستر تشرتشل، وزير المستعمرات، للوفد، مسودة دستور لفلسطين، لدرسه وإعطاء الرأي فيه. وكان في الدستور «مجلس تشريعي» وقد نص آخر بند من بنوده على «أن لا يتعرض المجلس لوعد بلفور كون هذا الموضوع غير وارد البحث». فكان هذا الشرط كافياً لأن يرفض الوفد المشروع.



ونستون تشرتشل، وزير المستعمرات

واشتد الحوار بين وزير المستعمرات والوفد العربي الفلسطيني، وتعددت الرسائل الجافة بينهما وكان جواب وزير المستعمرات على إحدى رسائل الوفد بهذه الوقاحة:

١ ــ يجب أن يُبحث دستور فلسطين مع وفد رسمي منتخب وأنتم ليست لكم هذه الصفة.

٢ ــ إن وزير المستعمرات لا يقدر أن يبحث دستور فلسطين مع وفد رسمي منتخب، إلا على أساس وعد بلفور.

٣ ــ إن وزير المستعمرات لا يقدر أن يبحث مع الوفد الرسمي المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم، لأن الوعد أعطي قبل الميثاق.

وكان جواب الوفد العربي الفلسطيني على هذه الرسالة قاسياً جداً؛ إذ ذكّر وزير

المستعمرات بأن الحكومة البريطانية هي غير المنتخبة وهي التي تحكم بدون دستور أو انتداب، وهي التي يجب أن تطرد من عصبة الأمم لمخالفتها المادتين ٢٠ و ٢٢ من الميثاق.

«كتاب تشرتشل الأبيض» أو «مذكرة تشرتشل لسنة ١٩٢٢» (بلاغ رسمي رقم ١٧٠٠)

رفضت الحكومة البريطانية، طبعاً، مطالب الوفد العربي الفلسطيني وأجاب عليها المستر تشرتشل بكتاب أبيض، نشر في الثالث من حزيران (يونيو) ١٩٢٢، وعرف فيما بعد «بمذكرة تشرتشل لسنة ١٩٢٢» بلاغ رسمي رقم ١٧٠٠، وهو لم يلغ وعد بلفور بل ثبته وأعطاه معنى أوسع، حين قال ان اليهود الذين يهاجرون إلى فلسطين من جميع أنحاء العالم: «هم في فلسطين كحق وليس كمِنَّة». ومن جهة أخرى، فقد وضّح المستر تشرتشل في كتابه الأبيض أن الوطن القومي اليهودي لا يعني أن تكون فلسطين يهودية أو دولة يهودية، يسيطر فيها اليهود على العرب، ولكنه يعني أن مثل هذا الوطن ينشأ في فلسطين. ثم يقول: «صدرت بيانات غير مسؤولة تذهب إلى أن الهدف المرتقب هو خلق فلسطين يهودية كما أن إنكلترا إنكليزية. إن حكومة جلالته ترى أن مثل هذه التوقعات غير عملية، وهي لا تحبذ شيئاً منها، ولم تفكر في أي وقت، وهو كما يبدو، الشيء الذي يخيف الوفد العربي، بزوال أو بإخضاع السكان العرب أو لغتهم أو ثقافتهم في فلسطين. ونلفت الانتباه إلى أن الوعد المشار إليه، لا ينص على أن فلسطين كلها تصبح وطناً قومياً لليهود، وإنما ينص على أن مثل هذا الوطن ينشأ في فلسطين».

إنني في الحقيقة، أجهل مدى صدقِ المستر تشرتشل وإخلاصه في تفسير ما يعنيه فعلاً بالوطن القومي اليهودي. إنه اصطلاح لم يستعمله أحدٌ من قبل في تاريخ بني البشر، وهو إصطلاح غامض يستطيع المرء أن يجد له مئة تعريف، كما إنني أجهل المعنى الذي كان في ذهن واضعيه حين وقعوه؟. ولماذا أحجموا عن إعطائه المعنى الواضح؟. ربما أرادوا أن يكون مبهمًا ومطاطاً. والحق أن أحداً لم يستطع تحديده حتى ولا واضعيه!! غير أن الصهيونيين أعطوه المعنى الذي يلائمهم. عرّفوا الوطن القومي اليهودي بأنه دولة يهودية في فلسطين ــ وأكثر من ذلك ــ وأحب في هذا المجال أن أكرر ما قاله الجنرال، السير لويس بولز، حاكم فلسطين العسكري، في رسالة بعث بها إلى الجنرال اللنبي لما كانت قيادته في القاهرة، وكانت فلسطين تحت إدارة أراضي العدو المحتلة:

«واضح أنه مستحيل إرضاء المتعصبين (اللجنة الصهيونية) التي تدعي رسمياً أنها لا تطالب بغير وطن قومي وهي في الحقيقة لا ترضى بأقل من دولة يهودية بكل ما تنطوي عليه هذه الكلمة من معنى».

ملخص «مذكرة تشرتشل»

باختصار، حوت مذكرة تشرتشل النقاط التالية: ١ ــ التأكيد مجدداً على تنفيذ وعد بلفور. ٢ ــ المهاجرون اليهود هم في فلسطين كحق وليس كمِنّة. ٣ ــ لا تفرض الجنسية اليهودية على سكان فلسطين من غير اليهود ولا يخضع السكان العرب لأحد. ٤ ــ كل سكان فلسطين هم «فلسطينيون». ٥ ــ تتخذ الحكومة البريطانية الإجراءات الكفيلة بقيام حكومة ذاتية في فلسطين وانتخاب مجلس تشريعي. ٦ ــ الهجرة اليهودية إلى البلاد، تقررها «قدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب». ٧ ــ ينتخب المجلس التشريعي لجنة لتنظيم الهجرة. ٨ ــ لا تشارك اللجنة الصهيونية في حكومة فلسطين. ٩ ــ إذا اشتكت طائفة دينية كبرى أو جالية من السكان من أن نصوص الانتداب لا تطبق، فلها الحق باللجوء إلى عصبة الأمم.

وقد أُخرجت «مذكرة تشرتشل» فلسطين من «رسائل ماكماهون ــ الحسين» وعلى ذلك، رفض الوزير مناقشتها مع الوفد العربي الفلسطيني. والواقع، أنه لم يكن باستطاعته مناقشتها لأن الحكومة أخفت الرسائل، ولأنها لم تكن، حسب بيانات الحكومة المتكررة، موضوع نقاش. وحين ذهب الوفد العربي، بناء على موعد، إلى وزارة المستعمرات ليناقش في «رسائل ماكماهون ــ الحسين»، تغيّب المستر تشرتشل عن الوزارة، فالتقى الوفد مع موظف من الوزارة ومعه السير هربرت صموئيل، المندوب السامي لفلسطين. وما استطاع الوفد الحصول إلا على بيان غامض وجواب لا نفع منه.

رجوع الوفد العربي الفلسطيني إلى فلسطين

رجع أعضاء الوفد العربي الفلسطيني إلى فلسطين في الخامس من أيار (مايو) ١٩٢٢. أما نتائج الرحلة، فكانت ضئيلة. فلا الحكومة البريطانية أرادت أن تهتم بمطالبهم العادلة، ولا الصحافة البريطانية، بسبب الضغط الصهيوني، أرادت أن تمنحهم المجال اللازم لعرض قضيتهم. وكانت جريدة التايمز اللندنية مقصرة في هذا المجال، وهي أكثر الصحف نفوذاً في الأوساط السياسية آنئذٍ، يقرؤها معظم السياسيين والموظفين، فقد نشرت للوفد العربي خلال، إقامته في الأشهر التسعة، عشر رسائل من عدة سطور لكل منها، وهذا قليل جداً. ومع هذا يجب أن نذكر أن عدداً من الأصدقاء البريطانيين كانوا قد استقبلوا الوفد العربي الفلسطيني بحرارة وساعدوه مساعدة كبيرة، منهم أصدقاء فيصل الذين حاربوا معه في حرب الصحراء ضد الأتراك، وان الكثيرين من هؤلاء، نصحوا الوفد بالتعاون مع الحكومة البريطانية لأنهم كانوا يعتقدون أن المادتين ٥ و ٨ من «مذكرة تشرتشل» يجب استغلالها، وكانوا يرون أن رفض العرب الكلي لتلك العروض ليس من مصلحة عرب فلسطين. هذا ما أنبأني به شبلي الجمل، سكرتير الوفد، بعد عودته من لندن. أما حجة الوفد العربي فكانت، «أن نفوذ المنظمة الصهيونية في المملكة المتحدة كان

كافياً لكبح أية خطة عربية تشجع عليها حكومة الانتداب إذا اعتقد الصهيونيون أن ذلك من صالحهم». ولقد ثبتت صحة وجهة النظر هذه سنة ١٩٣٥، لما عزمت الحكومة البريطانية على إقامة مجلس تشريعي في فلسطين، ولم تتمكن بسبب النفوذ الصهيوني. ومن يدري كيف كانت ستكون النتيجة سنة ١٩٢٢؟

مؤتمر عربي وطني آخر في نابلس

قام الوفد العربي الفلسطيني بعد عودته من لندن باستشارات وأبحاث عديدة في كل أنحاء فلسطين، نظمت على أثرها الجمعية الإسلامية ـ المسيحية مؤتمراً عربياً وطنياً آخر يعقد في نابلس في الثاني والعشرين من أيلول (سبتمبر) ١٩٢٢.

في هذا المؤتمر، شرح الوفد لممثلي الشعب العربي الفلسطيني موقف الحكومة البريطانية المتعنت في ما يختص بوعد بلفور، وممالأة الصحف البريطانية للصهيونية وعدم إهتمام الرأي العام البريطاني بما يجري في فلسطين. وبيّن الوفد للمؤتمر أن وعد بلفور وسياسة الوطن القومي اليهودي، برأيه، سوف يبقيان سياسة الحكومة البريطانية إلى أجل لا يمكن التنبؤ به.



المؤتمر الوطني الفلسطيني في مدينة نابلس

غطّت هذه النقطة الحساسة كل عروض «مذكرة تشرتشل» الأخرى الحسنة منها والسيئة، ثم طغت العاطفة على المؤتمرين فقرروا مقاطعة انتخابات المجلس التشريعي التي عرضها تشرتشل. وبعد المقاطعة، إرتأت حكومة الانتداب أن تعرض «مجلساً استشارياً» يكون التمثيل فيه كما في المجلس التشريعي؛ وقد عينت ثمانية مسلمين ومسيحيين، قبل سبعة منهم فقط عضوية المجلس الاستشاري. غير أن هؤلاء السبعة أجبروا على الاستقالة لعدم رضى الشعب الذين يمثلونه عنهم. بعدها، ألغت حكومة الانتداب خطة المجالس المختلطة وألّفت مجلساً استشارياً من الموظفين البريطانيين فقط وكان من بينهم، طبعاً، موظفون صهيونيون.

مؤتمر عربي وطني آخر

في حزيران (يونيو) سنة ١٩٢٣، عقد مؤتمرٌ عربي وطني آخر في يافا، انتخب وفداً عربياً فلسطينياً ليذهب إلى لندن. ذهب الوفد العربي إلى لندن وبدأت المفاوضات في وزارة المستعمرات. ولم يمض وقت طويل حتى عرضت الحكومة البريطانية على الوفد، مشروع «الوكالة العربية» (The Arab Agency) وهو يختلف عن مشروع المجلس التشريعي. هذه «الوكالة العربية» مماثلة «للوكالة اليهودية» المنصوص عليها في المادة الرابعة من صك الانتداب ولها الحقوق والواجبات ذاتها. ومن حقوق هذه الوكالة، الاعتراف بها كهيئة رسمية للشورى والعمل مع الحكومة المنتدبة في إنماء المشاريع الاقتصادية والاجتماعية العربية ولتساعد عملياً في نمو البلاد وتقدمها.

أما في ما يختص بالهجرة اليهودية إلى فلسطين، فسيكون «للوكالة العربية» الحق في أن تستشار في الطرق التي يجب اتباعها حتى لا تصاب حقوق الشعب، من غير اليهود، بأذى من الهجرة اليهودية.

درس الوفد العربي الفلسطيني المشروع درساً وافياً وعمل مقارنة بين فوائد «الوكالة العربية» وفوائد «المجلس التشريعي» الذي رفضه الشعب العربي الفلسطيني، فوجد أنه لا فرق بين المشروعين. ومع أن في المشروعين صلاحيات تقي من بعض أخطار الوطن القومي اليهودي، لكنها أقل بكثير من أن تمكن من إزالة هذا الخطر الذي كان يهدد كيان شعب فلسطين العربي. ولذلك، رفض الوفد مشروع «الوكالة العربية».

بعد أن صارح الوفد الحكومة البريطانية بهذا الرفض، أنهت الحكومة البريطانية المفاوضات معه في الحال وقطعت الاتصال به واتجهت نحو الشعب العربي الفلسطيني نفسه بواسطة المندوب السامي لفلسطين.

الوكالة العربية أيضاً

وفي ١١/١٠/١٩٢٣ عرض المندوب السامي، بالنيابة عن وزير المستعمرات، مشروع «الوكالة العربية». فرفض الزعماء العرب العرض كلياً، لأنه كان في نظرهم، لا يرضي طموحات الشعب. وكان هذا الرفض «مفترق الطرق» حين سار كل من عرب فلسطين وحكومة الانتداب في طريقه، وحين قررت اللجنة التنفيذية العربية سياسة اللاتعاون وعدم المشاركة التي استمرت حتى نهاية الانتداب. وهكذا، فقد أدارت حكومة الانتداب فلسطين إدارة مباشرة عن طريق المندوب السامي، يعاونه مجلسان: مجلس تنفيذي، وآخر استشاري، وموظفوهما جميعهم من الموظفين البريطانيين.

هل من مُبرر لهذه المقاطعة؟

نسأل الآن: هل كان العرب على صواب أم على خطأ في مقاطعة الحكومة المنتدبة في

الظروف الخاصة التي وصفناها سابقاً؟ وهل تبرر تلك الظروف الخاصة، المقاطعة؟

كان هنالك «مدرستان منهجيتان» (Two Schools of Thought) حول اختيار الطريق التي يجب إتباعها. أما أكثرية الشعب فكانت مع المقاطعة، وما اتخذت اللجنة التنفيذية قرارها الا استجابة لتلك الأكثرية التي لم تستطع، في اية حال، احتمال وعد بلفور وإقامة الوطن القومي اليهودي بقوة السلاح بين ظهرانيهم؛ وهم لا يعرفون إلى أي مدى تذهب أبعاده.

أما المدرسة الأخرى، فقد تجرأت قلة منها على معارضة الأكثرية والمناداة، بعد الاحتجاج الشديد على وعد بلفور، بالسير مع الأمر الواقع. ويمكن تلخيص هذه المدرسة بكلمات ثلاث: «خذ وطالب بالباقي». كان بولس شحادة، صاحب جريدة «مرآة الشرق» رائد هذا الرأي؛ ولقد اتهمت الجريدة بخيانة القضية الفلسطينية، غير أنها استمرت على خطتها حتى قضى صاحبها نحبه. وبوسعنا أن نقول: ان كثيرين من مؤيديه لم يتجرأوا على الظهور خوفاً من احتقار الجمهور لهم. واعتقد أنهم كانوا صادقين ومؤمنين بما يقولون من ان السير مع الأمر الواقع والتعاون مع الحكومة البريطانية يمكّن هذه الحكومة من أن تضع حداً لمطامع الصهيونيين وتقلل من أضرارهم وبذلك يصل الشعب العربي إلى نتائج أفضل. ولكن اللجنة التنفيذية تمسكت برأيها القائل: إن مجرد الرضوخ لسياسة الوطن القومي اليهودي في فلسطين هو خيانة، وأن أي إنسان أو جماعة تريد التعاون مع حكومة هدفها الرئيسي تنفيذ هذه السياسة، هو مشارك في تلك السياسة، وبالتالي، هو خائن.

تقدير عدد سكان فلسطين سنة ١٩١٨:

قُدر عدد سكان فلسطين سنة ١٩١٨، في نهاية الحرب العالمية الأولى بما يلي:

عرب: ٧٥٠٠٠٠ أو ٩٣٪

يهود: ٥٦٠٠٠ أو ٧٪

وفي سنة ١٩٢٢ كانت نتيجة إحصاء سكان فلسطين كما يلي:

مسلمون:	٧٥٧,١٨٢	٧٨ بالمئة
يهود:	١٠٦,٠٠٠	١١ بالمئة
مسيحيون:	٨٧,٩٥٠	٩,٦ بالمئة
آخرون:	١٣,٥٩٠	١,٤ بالمئة
المجموع	٩٦٤,٧٢٢	١٠٠ بالمئة

يبينّ هذا الإحصاء أن عدد السكان اليهود إرتفع في فلسطين، بواسطة الهجرة خلال

أربع سنوات من الانتداب، من ٧ بالمئة سنة ١٩١٨ إلى ١١ بالمئة سنة ١٩٢٢. وأصبحت طائفتهم الثانية، بعد المسلمين، فيما نزلت نسبة المسيحيين إلى الدرجة الثالثة، وظلوا كذلك حتى نهاية الانتداب.

الهزة الأرضية سنة ١٩٢٧

أصيبت فلسطين سنة ١٩٢٧ بهزة أرضية كبرى مات فيها ٢٧٢ شخصاً وجرح ٨٣٣، وكانت أضرار نابلس أضخمها، فقد انهارت أبنية قديمة كثيرة على الأهالي. وقامت دائرة الصحة بدعوة جميع الأطباء في فلسطين للمساعدة في الكارثة، فدعتني لأذهب إلى مدينة أريحا لأساعد طبياً. فما وصلت إلى أريحا إلا بعد جهد جهيد، نظراً للضرر الذي أصاب الطريق العام من الزلزال. ولما كانت أكثرية الأبنية في أريحا من لِبنٍ، فإن الضرر من سقوطها لم يكن كبيراً إذ سبب جروحاً لا وفاة. وما كان يوجد في أريحا إلا بناءٌ واحد من الإسمنت (فندق نزال)، وكان أحد أعمدته الرئيسية ضعيفاً، فسقط نصف الفندق عند سقوطه، فانطمرت تحت الأنقاض أربع نساء هنديات من السياح كن يتسامرن بعد تناول طعام الغداء معاً، وأزواجهن الأربعة، في الطرف الثاني من البناء القائم، لم يصابوا بأذى. ورأيت منظراً محزناً جداً لن أنساه طوال حياتي، حين وجدت الأزواج الأربعة يندبون زوجاتهم فوق الردم ممرغين بالتراب، لا يقدرون، حتى ولا غيرهم، أن يساعدوا بشيء زوجاتهم التعيسات.

الفصل الحادي عشر

في باريس ولندن للتخصص بأمراض الأطفال
تقدم الغرب أساسه حضارة الشرق
موسى أيوب من دمشق يصبح رسام العائلة المالكة البريطانية
إخلاص الشعب البريطاني لملكه غيَّر مجرى حياتي

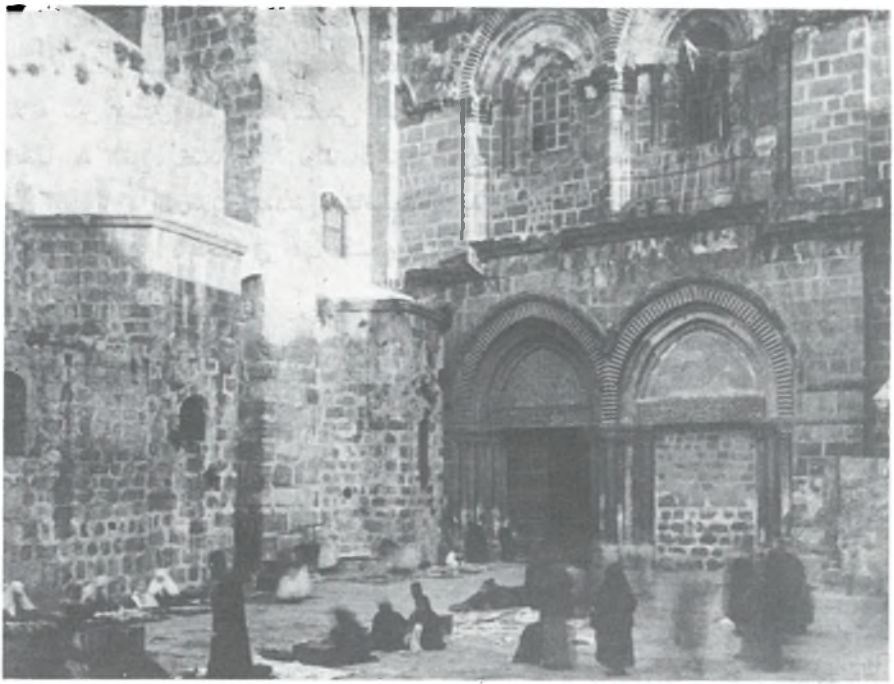
التأم شمل عائلتنا بعد تشتت سنوات خمس. لم تكن إقامتنا جد مريحة، لكنها كانت حميمة، تمتعنا فيها بصداقة آل عكرا الكرام. كان كبير هذه العائلة الطيبة، أرملة؛ أماً لثلاثة بنين وبنتين «أم نخلة» ـ هي أقرب للملائكة منها إلى الإنسان، ناعمة الصوت، منحها الله العلي، طبعاً كريماً. ولقد برهنت لنا السنتان اللتان قضيناهما مع تلك العائلة في حي المصرارة، أن مدينة القدس، بماضيها الفريد الطويل المقدس، وهب سكانها نوعاً من الثقافة والميراث، لا نجده في مدن فلسطين الأخرى.



عائلة طنوس بعد الحرب

افتتح أخي سليمان صيدلية داخل المدينة القديمة، وكانت القدس سنة ١٩١٩، كما هي اليوم، مقسومة إلى قسمين، مدينة داخل السور ــ سور المدينة ــ ومدينة خارج السور، متساوين في عدد السكان، ومجموعهم ستون ألفاً. أما داخل السور، فكان وما زال مكتظاً بالسكان، ولم يؤثر عليه اتساع المدينة المستمر خارج السور.

كانت صيدلية طنوس اخوان على بعد خمسين متراً فقط من الساحة، أمام باب كنيسة «القيامة» (القبر المقدس) الجميل، حيث تحج الآلاف من مختلف الشعوب سنوياً إلى أقدس كاتدرائية لدى المسيحية. وكانت عيادتي على بعد أمتار قليلة منها أيضاً. وقد كانت القدس وجوارها في تلك الأيام بحاجة ماسة للخدمات الطبية، فكنت وأخي نسد بعض هذه الحاجة.



باب كنيسة القيامة .

سور مدينة القدس

كان لا بد لي من الاعجاب بعظمة سور المدينة المقدسة وأنا في الطريق إلى عيادتي عبر أحد أبوابه ــ باب العمود (Damascus Gate). فالسور أجمل وأعظم بنيان في المدينة، وكل ما فيها من أبنية تعدّ هزيلة أمامه. والقدس من المدن القليلة في العالم التي ظل سورها عبر التاريخ في منجاة من الدمار. والثغرة الوحيدة فيه قرب باب الخليل (Jaffa Gate)،

هي التي أمر بفتحها السلطان عبد الحميد للقيصر الألماني «ولهلم الثاني»، حين زار القدس عام ١٨٩٨، فدخل منها بعربته الملكية (وعرضها ١٠ أمتار) وهي تؤدي إلى القلعة التي يطل برجها الجميل على المدينة وما حولها.

إن طراز سور القدس، من أجمل ما في العالم، وقد شيدت في القدس عبر التاريخ عدة أسوار، وأجملها، دون شك، أحدثها الذي بناه السلطان سليمان القانوني، خليفة السلطان سليم الأول التركي الذي اكتسح العالم العربي سنة ١٥١٧، من محيطه إلى خليجه، فبلغت الأمبراطورية التركية في عهده أبهى أيامها، وزادها سور القدس، مجداً وبهاءً.



باب العمود أجمل أبواب سور المدينة المقدسة

لسور القدس سبعة أبواب من طراز عربي جميل. كانت تغلق كلها ليلاً في وقت واحد فلا يدخل المدينة أحد ولا يخرج منها حتى الصباح. وكان من تأخر من المسافرين، يقضي ليله خارج السور عرضة لخطر الضباع حتى إذا أوقد النار، خاف الوحش وابتعد. وأجمل تلك الأبواب ــ «باب العمود». Damascus Gate

أما «باب الخليل» (Jaffa Gate) في جنوب السور فهو يواجه القسم الجنوبي من منطقة القدس، حيث المدن التاريخية مثل مدينة المهد، بيت لحم، ومدينة خليل الرحمن. ثم «باب سباط» (أو باب ستنا مريم) ويدعى أيضاً باب القديس استيفانوس (St. Stephen's Gate) في الجانب الشرقي من السور؛ وبقربه كنيسة مار استيفانوس تخليداً المنطقة التي يفترض أن القديس إستيفانوس، رجم فيها؛ وبقرب هذه الكنيسة، كنيسة للروم الأرثوذكس تدعى كنيسة العذراء مريم حيث يعتقد أنها دفنت هناك.


باب الخليل

قبالة باب الأسباط شرقاً، «جبل الزيتون» البهي وفي أسفله كنيستان رائعتان، واحدة روسية والأخرى كاثوليكية وعلى قمته نجد مزاراً إسلامياً أقيم كذكرى لصعود السيد المسيح، وكنيسة روسية أخرى صغيرة لها برج جدّ عال يرى من مسافة أميال عديدة.

ذكرنا ثلاثة أبواب من الأبواب السبعة في سور القدس، والأربعة الباقية هي: باب الساهرة، باب المغاربة. باب النبي داوود. والباب الجديد وهو أحدث الأبواب ولذلك سمي بهذا الاسم.

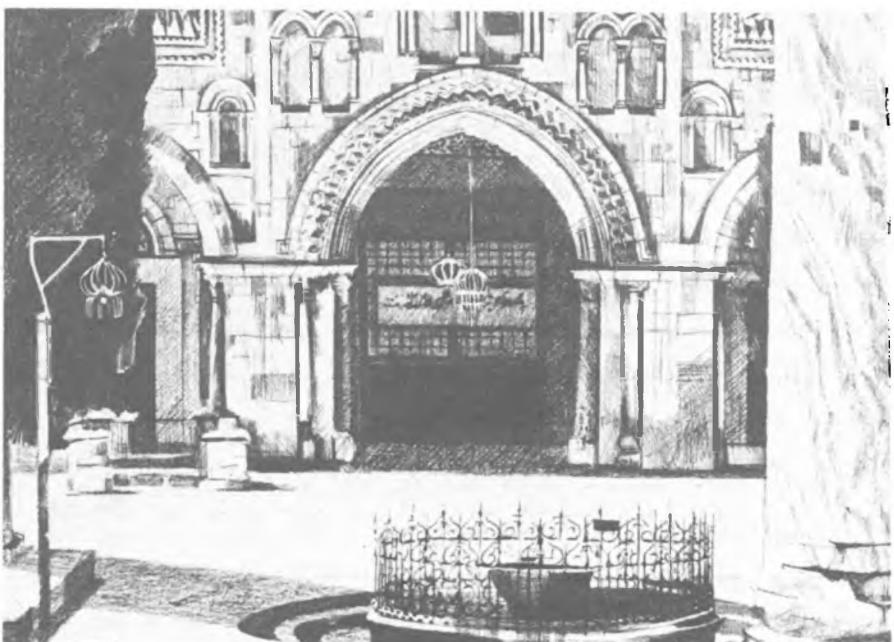
داخل المدينة توجد كنيسة القيامة أو القبر المقدس والجامع الأقصى المبارك، أو جامع عمر، وفي وسط باحة المسجد الواسعة، يوجد مسجد الصخرة التاريخي المبارك بجدرانه الجميلة وسقفه ونوافذه الخارقة الابداع وهو متوج بقبة ذهبية من أروع ما في المدينة المقدسة.

ولن أحاول كتابة شيء عن الأماكن المقدسة هذه، التي هي مركز الالهام لمئات الملايين من مسلمين ومسيحيين. ان تاريخ هذه المزارات المقدسة وملايين الحجاج الذين

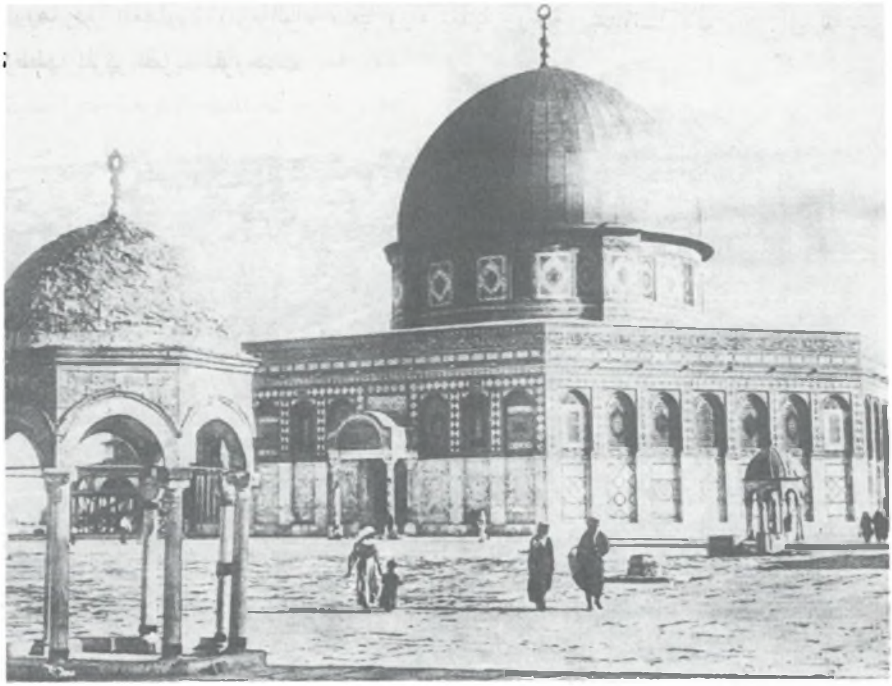
زاروها عبر العصور، وما زالوا، سعياً وراء تغذية روحية، يحدونـــا لأن ننظر إلى القدس بوصفها المركز الفريد للروحيات.



منظر للقدس وللسور ولقبر السيدة العذراء مريم



الجامع الأقصى المبارك



قبة الصخرة المباركة

طبيب العائلة

اتسع عملي الطبي كثيراً في القدس وجوارها، وكانت الكثرة من مرضاي من القرى النائية حيث لا أطباء فيها. وكان المرضى يفضلون أطباء المدن الكبيرة مثل القدس، بدلاً من أطباء المدن الصغيرة مثل رام الله وبيت لحم.

كان أكثر الناس في تلك الأيام بسطاء، مستقيمين ونصف متعلمين، وكان طبيب العائلة مستشار العائلة صحياً وروحياً، فهو المرشد والصديق في كل الشؤون يؤخذ برأيه قبل أي قرار ذي شأن. وقد جعل هذا الأمر المكافأة المعنوية لممارسة الطب، في العشرينات والثلاثينات تفوق المكافأة المادية. لم تكن العلاقة بين الطبيب والمريض آلية كما هي اليوم. كانت اللمسة الانسانية بيني وبين مرضاي تجعلني أشعر بأننا من عائلة واحدة. نتقاسم الآلام والأخطار والتحسن والإبدال. نتقاسم الأحزان والمسرات وكم بكينا معاً وضحكنا معاً. كان ذلك عهد طبيب العائلة الذي كان المريض فيه إنساناً وليس موتوراً!

مكنتني مهنتي من الالتقاء بعدد كبير من عائلات القدس، من مسلمين ومسيحيين، وبعدد لا بأس به من يهود المدينة القديمة. فالفلسطينيون، أياً كان معتقدهم، كانوا شعباً واحداً قبل وعد بلفور. جميع أهل القدس من أي لون أو معتقد، كانوا، وأستطيع القول،

أصدقاء دون تعصّب. وقفت ذات يوم من سنة ١٩٦٦ على «شباك التذاكر» في «مركز لنكولن» في نيويورك كي أشتري بطاقات «لأوبرا كارمن»، وكان الحصول عليها في غاية الصعوبة، فاستغربت حين خاطبني البائع وقال لي: ماذا تريد يا دكتور طنوس؟ أجفلت فعلاً من ذكره اسمي في ذلك المكان الغريب. كان الشاب الذي في الشباك احد مرضاي، وهو طفل تسكن عائلته في القدس القديمة، وعجبت لذاكرته. كان في غاية الكرم فقد أعطاني أربع بطاقات في أحسن الأمكنة ولو أحداً غيره كان في الشباك لما استطعت الحصول على بطاقتين!

والمهنة الأخرى التي كان يحترمها البسطاء ويثقون بها هي «مهنة المعلم». كان التلاميذ يقفون جميعاً للمعلم حين يدخل قاعة الدرس. أما الأطفال فكانوا يقفون وينشدون معاً، صباح الخير. كان الأهل يعطون المعلم «ورقة بيضاء» ليفعل ما يشاء، وكثيرون يمازحون قائلين: «يا معلم، اللحم لك والعظام فقط لنا».. اشارة إلى الثقة التامة.

التخصص بطب الأطفال

كنت طبيباً بدون تخصص أعالج كل المرضى الذين يأتون إلى عيادتي فلا أحوِّل إلاّ من كان بحاجة لعملية جراحية. غير أنه لم يطل بي الوقت فأدركت أني أحب معالجة الأطفال أكثر من معالجة الكبار. ففضلت أن أتخصص فيها. نعم؛ أحببت الأطفال وأشفقت على المريض منهم، وهذا أمر طبيعي إذ أن الطفل المريض يستدر العطف والشفقة أكثر من سواه. وكانت الأدوية المضادة للجراثيم (البنسيلين على أنواعه) غير موجودة، ومهنة الطب شاقة ومضنية، نحاول في هذه الأيام أن ننساها. وكانت كتابة «الوصفة» لطفل مصاب ـ مثلاً ـ بذات الرئة، همّاً علي، لأني كنت أعرف أن ما من دواء أكتبه في الوصفة يقتل الجرثومة ويشفي الطفل. كنت أتألم وأداوي الأمراض بأحسن الطرق لدي. كانت مراقبة القلب أكثر ما أهتم به. أقويه إذا ظهر عليه الضعف. وقد كان مريض ذات الرئة، قبل البنسيلين، من أخطر الأمراض وأكثرها انتشاراً في فصلي الخريف والشتاء، وكنت دائماً أنذر الأهل بخطره الداهم. وقد كان عجز الطب في أكثر الأمراض المعدية في تلك الأيام، يجعل الطبيب ذا الوجدان يعيش في بؤس وقلق حتى يجتاز المريض مرحلة الخطر (أسبوع في الحمى الراجعة، أسبوعين في التيفوس وثلاثة أسابيع في التيفوئيد) وهكذا..

ومداواة الطفل أصعب من مداواة الكبار لأن الطفل لا يستطيع التعبير عن ألمه. وعلى هذا، كان الطبيب يعتمد على فحص الطفل وعلى ما تقوله الأم أو من يسهر عليه من أهله. وبما أن تاريخ المرض كان مهمّاً جداً للتشخيص كان من الصعب في تلك الأيام الحصول على تاريخ صحيح من الأم التي كانت، في أكثر الأحيان، أمية لا تقدر أن تقدم صورة صحيحة عما حدث للطفل، قبل أن تأتي به للعلاج. وكم كانت الأم تعطي تاريخاً

مغلوطـاً، كي تخفي إهمالاً أو تـأخيراً، وخـطـأً ارتكبته دون قصـد. وقد جعلت هـذه الصعوبات من معالجة الأطفال أمراً محفوفاً بالمخاطر والتحدي. وربما كان هذا التحدي هو الدافع للعديد من الأطباء إلى انتخاب الاختصاص بهذه المهنة.

حمى الملاريا بليّة الشرق الأوسط

كانت حمى الملاريا قبل الحرب العالمية الأولى وحتى نهاية العشرينات أكثر الأمراض تفشياً في بلادنا، وكانت بلية الشرق الأوسط وربما العالم. ولم يكن في المنطقة، في تلك الأيام، من لا يعانيها مرة أو أكثر، وقد انتشر البعوض في كل مكان، والجهود التي تبذل للقضاء عليه كانت بدون جدوى. وكان علاج الملاريا، «الكينا» وحدها. وتألم الناس منها جيلاً بعد جيل فأضعفتهم، ولا أعني الأفراد بل الأمة كلها، فكنا أمة مريضة. في سن العاشرة، أغمي علي أربعاً وعشرين ساعة من حمى الملاريا، ولما وضعت أمي جهلاً، ميزان الحرارة في فمي، مضغته وسال الدم من فمي بغزارة، ولحسن الحظ، أني لم أبتلع الزئبق. وأذكر كيف كنت احـسُّ متعباً خلال السنتين الأوليين في مدرسة سان جورج بسبب حمى الملاريا التي كانت تأتيني يوماً بعد يوم. وما كنت قادراً على الدرس أو اللعب كما ينبغي. وكنت أكره النزهة مشياً على طريق جبل الزيتون لأني عديم القوة. . إني أروي هذا الفصل القصير من حياتي لأنه كان صورة عن الحياة التي عاشتها الأمة العربية كلها أجيالاً.

وأخيراً وليس آخـراً، كان الطبيب في تلك الأيام يفترض أن أية حمى هي ملاريا، حتى يثبت العكس. أما اليوم، فيفترض العكس.

التخصص لم يكن دارجاً في فلسطين

لم يكن التخصص في مختلف فروع الطب والجراحة معمولاً به في العشرينات في فلسـطين إلّا في أمراض العـين والأذن والأنف والحنجرة، وكـان أطبـاء العيـون أكـثر الاختصاصيين شهرة، لأن أطباء الأذن والأنف والحنجرة كانوا قلة وكان بـاقي الأطباء للأمراض الداخلية، أو مختصين بالجراحة العامة بما فيها التوليد والجراحة النسائية. وكان طبيب الأمراض الداخلية يعالج جميع الأمراض التي لا تحتاج إلى جراحة، وليس لسكين الجراح حد تقف عنده. ولكن هذا النقص في الاختصاص بدأت تظهر عيوبه حينما زاد عدد المرضى الذاهبين إلى مراكز الاختصاص في بيروت، أو في لندن أو باريس أو غيرها من العواصم الأوروبية. وقد دفعت هذه الحاجة المتزايدة كثيراً من الأطباء إلى التخصص في هذه المراكز. وأذكر أن الدكتور توفيق كنعان ذهب إلى برلين وأن الدكتور قلبيان ذهب إلى لندن كما ذهب الدكتور توفيق باز حداد إلى روما. وأذكر طبعاً أني ذهبت إلى باريس وإلى لندن.

مدينة باريس العظيمة

وصلت باريس، في خريف ١٩٢٨، لأحضر دورة ستة أشهر في «مستشفى مرضى الأطفال» يشرف عليها الأستاذ الدكتور نوبيكور (Nobicour). ولقد تبين لي أن الأساتذة الفرنسيين يهتمون كثيراً بالمشاهدة النظرية فيما يولي الانكليز اهتمامهم بالمشاهدة السريرية.

كانت تُلقى علينا محاضرات يومية في القاعة الكبرى، وكانت مدام كوري، لحسن حظي، إحدى المحاضرين وكان موضوعها الراديوم واستعماله في معالجة السرطان.

تلك كانت أولى رحلاتي إلى أوروبا، وأدهشني بنوع خاص جمال باريس: شوارعها، متاحفها، أوبراتها، برج إيفل، الانفليد، الشانزيليزيه الفريد وفرساي. إن زيارة هذه الأمكنة للمرة الأولى تعطي الزائر الشرقي صورة عن الغرب وعن حضارته وثقافته. أما أنا فقد أذهلتني كاتدرائية النوتردام ولوحات متحف اللوفر، وتمتعت بألحان الأوبرا التي كانت جديدة علي. في سنة ١٩٢٣، أهداني أحد مرضاي من الانكليز في القدس ٢٣ أسطوانة تحوي أوبرا كارمن بكاملها، فاستمعنا إليها ولم يستجب لتلك الألحان أحد من العائلة، فوضعتها أخيراً على رف المهملات، ويا لعجبي! فقد حولني الاستماع إلى أوبرا كارمن في باريس إلى أحد عشاق الأوبرا!

الحضارة الغربية سليلة الحضارة الشرقية

لا شك أن أي زائر من الشرق لباريس يحس أنه في قلب الحضارة الغربية وانجازاتها، كما يلاحظ، سيما في ذلك الوقت، أن الفجوة القائمة بين الشرق والغرب كبيرة وأن المسيرة طويلة. غير أن إنسان الغرب يجب ألّا ينسى أن الحضارة والثقافة الغربيتين هما سلالة حضارة الشرق الأوسط وثقافته. لقد أعددنا التربة للانجازات الغربية في عدة حقول هامة، فالمصريون والعرب هم الذين وضعوا أسس الرياضيات والفيزياء والطب. وحتى اليوم يستخدم الأوروبيون والأميركيون والعالم، الأرقام نفسها التي اخترعها العرب منذ أكثر من ألف سنة.. وأن «الصفر» الذي اكتشفه العرب جعل نمو ذلك العلم العظيم ممكناً وصرنا نسافر آلاف الأميال في الفضاء ونقيس مسافاته؛ وإني أجهل الدور العظيم الذي لعبه هذا «الصفر» في حسابات أول رحلة إلى القمر. ان أهرام مصر الهائلة وهياكل بعلبك المجيدة في لبنان، وقد بنيت قبل آلاف السنين، هي آثار حضارة تجعل إنسان اليوم، بالرغم من كل اختراعاته الآلية، ليس مدهوشاً فقط بل مذهولاً. لقد وصف الرازي، الطبيب العربي، قبل ألف سنة، مرض الحصبة وعدة أمراض معدية أخرى كما يصفها اليوم كتاب الطب الحديث للأمراض الباطنية. وأن ما وجد في قبر توت عنخ آمون في الأقصر، ليتكلم عن حضارة شرقية عريقة، في وقت كانت فيه أوروبا غارقة في المستنقعات. وكان العصر

الذهبي للخليفة هارون الرشيد من الفخامة والعظمة بحيث أصبح أسطورة. وعندما استعمل العرب أول تليسكوب، كانت القارتان الأميركيتان مجهولتين.

أنا لا أحاول التقليل من شأن حضارة الغرب وعظمتها. أنا لا أريد الانتقاص من عظمة الأمبير ستيت بلدنغ (The Empire State Building) في نيويورك، ولا من مجد فرساي ولا من سحر موسيقى فردي ولا من أعجوبة التلفزيون أو معجزة الطاقة النووية. بل كل ما أريد أن أقوله هو، أن الغرب كان تلميذاً ناجحاً للشرق.

في مستشفى شارع أورموند الكبير للأطفال في لندن
(The Hospital for Sick Children, Great Ormond Street London

كان مستشفى شارع أورموند الكبير لأمراض الأطفال ولا يزال، أكبر مستشفيات الأطفال في المملكة المتحدة، وبوسعنا أن نأخذ فكرة عن حجمه والعمل فيه، عندما نعلم أن عمليات قطع اللوزتين كانت تجرى فيه بمعدل ٢٣ عملية يومياً، ما عدا يوم الأحد.

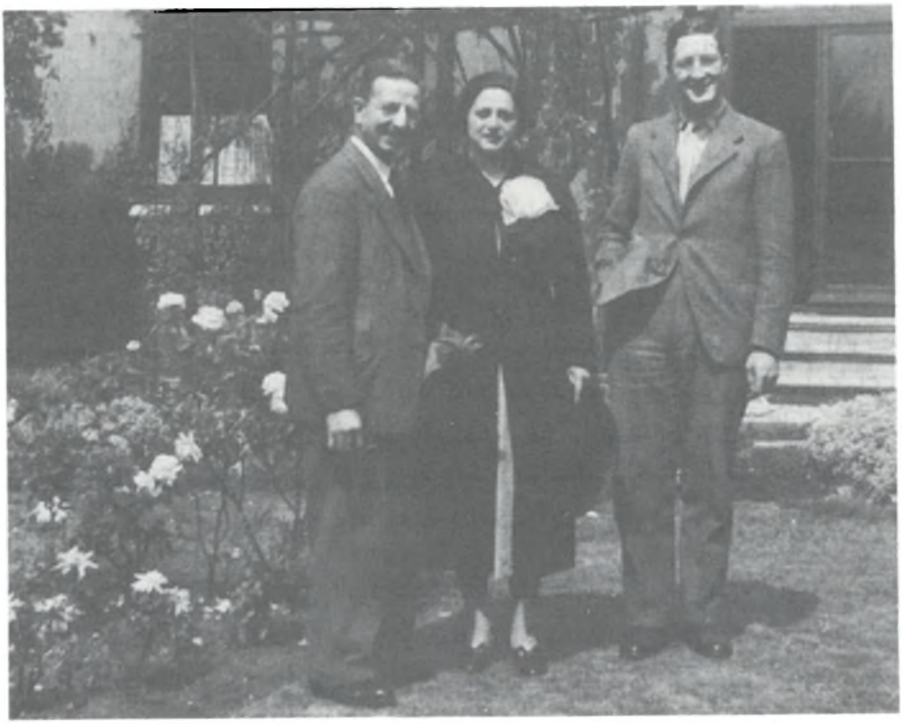
كانت مميزات الدراسة في هذا المستشفى عديدة. كان أطباؤه عالميين: هاتشيسون، ثيرزفيلد، ستل، مكتشف مرض ستل، وباترسون، وكانوا من ذوي الخبرة الواسعة ومن أصحاب المؤلفات في الطب. هذا أولاً. وثانياً: كان عدد المرضى في المستشفى الفي طفل، وكان عدد المرضى الذين يأتون من الخارج للمعالجة هائلاً. وقد مكننا هذا العدد الهائل من فرصة فحص حالات نادرة لا نشاهدها إلاّ في مراكز مشابهة. ولا أنسى أبداً اليوم الذي رأيت فيه ثلاثة مصابين بالمرض المنغولي واثنين بمرض البله (Cretins) في عيادة المستشفى.

وأكثر ما أعجبني هناك هو الدراسة السريرية كل صباح، وما يقوم به التلاميذ والأستاذ من بحوث وفحوص ودرس على المريض وهو في سريره. والمهم دقة العمل في كل الحقول، ابتداء من تاريخ المرض إلى الأشعة إلى الفحوص كلها. وقبل أن يصدر القرار النهائي بتشخيص المرض يعطي الأستاذ ملخصاً ويجاوب على كل سؤال.

لقد كانت أول زيارة أقوم بها إلى العاصمة البريطانية، مدينة لندن الضخمة، وكنت لسوء الحظ لا أعرف فيها أحداً. وألّم بي الشوق للوطن بعد فراق طويل لبيتي وعيادتي. كان نهاري مليئاً بالعمل، لكن ليلي كان حزيناً في نزل كارلتون الذي حللت فيه لقربه من المستشفى. . وقد كانت لندن سنة ١٩٢٩ مدينة مدهشة بشوارعها المضيئة وأبنيتها الجميلة ومسارحها المشهورة ومخازنها الكبيرة وحدائقها الواسعة التي يسمونها «رئات لندن»، وبمتاحفها العديدة؛ وأحدها «متحف لندن»، أشهر المتاحف في العالم. لكن كل هذا، لم يقلل من شوقي للرجوع إلى الوطن.

بقيت على هذا الشقاء حتى ناولني ذات صباح بواب المستشفى الذي تصادقت وإياه على طريقتنا الشرقية، رسالة، كانت من صديق غال علي في منشستر، هو إميل أبو فاضل. كان أبوه وعمه عرّابي عمادي. كان إميل يعمل مع حميه، فضلو الحوراني تاجر الأجواخ المعروف في منشستر. سرتني الرسالة كثيراً. لقد عرف أني أعاني الشوق للوطن في لندن، كما عانى هو التجربة المرة نفسها حينما جاء إلى المملكة المتحدة. قال: «حين تصلك رسالتي، اتصل حالاً بصديق لي هو، موسى أيوب. كتبت له عنك وهو سيهتم بك. رقم هاتفه.....». وما كان لشيء أن يبهجني أكثر من هذا. فخابرته في آخر النهار، وأعلمته أنني في نزل كارلتون، فأتى وأخذني إلى العشاء، وكانت بداية صداقة العمر، لا أستطيع وصف مداها.

حياة موسى أيوب لها أهمية خاصة، فقد ترك دمشق ـ الشام في السابعة عشرة من عمره بحثاً عن مستقبل أفضل، واشتغل في مكتب رسام، فنان لندني مشهور، كان لحسن الحظ، رسام العائلة المالكة. ولما كان موسى شاباً موهوباً، اكتسب الفن بسرعة وعمل مع أستاذه حتى أصبح فناناً وبقي معه إلى أن توفاه الله وأصبح موسى رسام العائلة المالكة.



موسى أيوب الفنان

موسى أيوب رسام العائلة المالكة

أنبأني صديقي إميل أن موسى كان من أصدقاء الملك جورج الخامس، شيء لم يحدثني هو به تواضعاً. كانا يتناقشان في بعض الرسوم في قصر بكنغهام وقصر وندسور. ولاحظت أن عمله مع العائلة المالكة كان يأخذ قسماً كبيراً من وقته فقد كانت الشرطة السرية كثيراً ما تمنعني من الدخول إلى مكتبه بالقول «أحد أعضاء العائلة المالكة جالس للرسم».

تزوج موسى أيوب من فتاة انكليزية ورزقهما الله بابن أسمياه جون. غير أن الزوجة لم تعمر كثيراً وتوفيت في عمر مبكر وحين عرفته سنة ١٩٢٩ كان أرملاً، وكان ابنه جون يدرس الطب في جامعة أوكسفورد.

كان موسى، وهو أكبر مني، يعاملني معاملة الابن أو الأخ الأصغر. وترعرعت بيننا صداقة ودّ متينة. كنت أصرف أغلب العطل الأسبوعية معه، وفي كل أسبوعين أو ثلاثة، كنا نذهب إلى أوكسفورد لزيارة جون، وكنا في بعض الأحيان نلتقي بالأستاذ المسؤول عنه. في ذلك الوقت كانت أوكسفورد وكيمبردج أشهر جامعتين في العالم، وما كانت جامعات هارفارد وبرنستون وييل الأميركية، معروفة في الشرق الأوسط. واردت أن أعرف لماذا تتمتع هاتان الجامعتان بهذه الشهرة العالمية، فالقيت هذا السؤال على الأستاذ في إحدى الزيارات، ولقد أثر فيَّ جوابه تأثيراً عظيماً، حدا بي إلى ترديده كثيراً. قال: «إننا لا نعلم في هذه الجامعة، إننا نهذب فقط».

كان جون رياضياً. طوله ستة أقدام وكان في فريق أوكسفورد للتجديف طوال مدة دراسته، وهذا امتياز وشرف. أما الآن فهو طبيب عيون شهير في «مستشفى مورفيلد» الشهير في لندن. ولما أصبت «بالكتراكت» سنة ١٩٧٠ أبى السماح لأي اختصاصي آخر بمعالجتي وأجرى لي عمليتين جراحيتين في عيني الاثنتين. وقد عاملني كأنني والده، واحسست أنا أيضاً الاحساس نفسه. وحين غادرت المستشفى أخذني في سيارته إلى بيته الجميل المطل على نهر التايمز وقضيت يوماً كاملاً مع عائلته، زوجته بوبي وابنته آن، ولكن مع الأسف الشديد، كان موسى، أعز أصدقائي غائباً، توفاه الله سنة ١٩٥٧، حين خسرت لندن فناناً عظيماً وفقدت أنا صديقاً غالياً.

تأثري بالطبع الانكليزي

أثر الطبع الانكليزي فيَّ تأثيراً عظيماً، فالأنكليز شعب رزين هادىء لا يثور بسهولة مثل الفرنسيين أو مثلنا نحن العرب. والطبقة العاملة منهم على قدر عظيم من الوقار. «شكراً سيدي» كان جوابهم على كل ما تقوله أو تقدمه لهم وهو أمر يختلف عما هو عليه الحال في فرنسا، غير أن الانكليز ليسوا بالاجتماعيين مثل الفرنسيين المرحين.

والذي استغربته كثيراً في إنكلترا، هو حب الشعب للرياضة، حباً جنونياً. كانوا يهتمون بالرياضة أكثر من اهتمامهم بالسياسة، بالرغم من أنهم كانوا يمتلكون في تلك الفترة، أعظم أمبراطورية عرفها التاريخ.

أذكر يوم حضرت المباراة النهائية في «ستاديوم ويمبلي» على الكأس الوطني، وكنت محظوظاً أني وجدت بطاقة أعلنت جريدة التايمز أنها بواحد وعشرين شلناً. فقد لبست لندن في ذلك النهار لباساً مختلفاً وكان يبدو وكأن كل من في لندن ذاهبون إلى ويمبلي وكانت مئات القطارات تتحرك في ذلك الاتجاه. وكان داخل الستاديوم مئة ألف متفرج وأكثر منها خارجه.

افتتح الحفلة «أمير ويلز»، وهو الذي أصبح فيما بعد الملك أدوارد الثامن، وأنشد الجمهور بحماس، النشيد الوطني. كان ذلك جميلاً ومثيراً جداً، وكل ما حدث في الملعب في ذلك النهار كان حديث عدة سهرات في القدس.

النار تلتهب في داخلي

في يوم عيد ميلاد الملك، ارتدت لندن كلها حلّة من الزينة والشعارات الوطنية. كان العلم الوطني يرفرف على السيارات دالاً على السيادة والحرية. كان شعباً مستقلاً حراً سعيداً يحكم نفسه بنفسه، دون أجنبي يملي عليه إراداته. وبدأت أفكر: لماذا نختلف عنهم نحن في فلسطين؟ لماذا يحكمنا غريب لا يتكلم لغتنا؟ لماذا فرض علينا أن نقبل في فلسطين آلاف المهاجرين اليهود ليخرجونا من وطننا ويجعلون منه وطناً لهم دون إرادتنا؟ لماذا هم أحرار ونحن مقيدون؟ ألأننا نحن حقاً متخلفون ولكن هنالك شعوباً مستقلة أكثر منا تخلفاً؛ وأخذت النار تلتهب في داخلي.

في ذلك اليوم، حصل تغيير في حياتي وتبدلت نظرتي للحياة. إن مهنتي الطبية هامة وأن المدينة المقدسة، القدس، هامة أيضاً وربما أكثر أهمية، وقد علمتني لندن كيف أكرس نفسي لا لمصلحتي فقط، بل وأيضاً لله والوطن.

ركوبي الطائرة للمرة الأولى

انتهت السنة المدرسية وابتدأت أستعد للرجوع إلى الوطن وأحسست وقتها أنني أكثر استعداداً في مهنتي، كما وأنني أكثر استعداداً لخدمة وطني أيضاً.

وفيما أنا أشتري بطاقة العودة من شركة «توماس كوك اندسَن» علمت بقيام رحلات طيران يومية من لندن إلى باريس وبالعكس، ولكن هل كانت لدي الشجاعة حتى أقدم على هذه المخاطرة؟ وقد كان الطيران عام ١٩٢٩ وسيلة نقل حديثة ومجهولة، فهل أقدم على هذه المجازفة؟

كان يشجعني على هذه المجازفة طلاب آخرون يدرسون في لندن، ويريدون العودة إلى الوطن. فعزمنا جميعاً أن نطير للمرة الأولى من مطار كرويدن في لندن إلى مطار بورجيه في باريس. وطلب منا الاجتماع في فندق دورشستر على أن ننطلق من هناك إلى المطار. التقى في صباح اليوم المحدد إثنا عشر واحداً منا في قاعة الدورشستر، ولا أذكر أني قمت بأية معاملة في الفندق قبل أخذنا إلى المطار. كانت في المطار طيارة واحدة. طيارتنا، صغيرة الحجم لها محركان وأربعة أجنحة، الواحد فوق الآخر، تنقل ستة عشر راكباً فقط. ومشينا جميعاً إلى الطيارة وكانت قريبة فوقفنا بالقرب منها. ثم سمعنا صوتاً قوياً جعلنا نجفل جميعاً، فعلمنا أنه صوت المحرك الذي دار بواسطة تحريك إحدى المروحتين باليد وهذا يعني أن الطائرة كانت بدون محرك كهربائي (Self-starter). فكيف ذلك وسيارتي في القدس لها محرك كهربائي؟ كانت سيارات الفورد التي جاء بها الجيش البريطاني سنة ١٩١٨ بدون محرك كهربائي وكان المحرك يدور بواسطة «منولا» التي كانت أحياناً ترتد وتكسر الذراع. وعلى كل حال سواء دارت طائرتنا بمحرك اليد أو بمحرك كهربائي، صعدنا درجات الطائرة ونحن نرتجف خوفاً من قوة الصوت ومن المجازفة.

لم يسمح لنا العريف أن نجلس في المقاعد التي نريدها بل أجلسنا على مقاعد من أجل أن يتم توازن الطائرة بعناية ودون خلل. وقد أخذت هذه العملية بعض الوقت لأنها تتطلب دقة في الحكم. حينئذ ركضت الطائرة على دواليبها مسافة قصيرة على أرض خشنة ثم توقفت فجأة، فخفنا. . هل هناك عطل؟ لماذا توقفت؟ ولما عرفنا أن القصد من وقوفها الوصول إلى المدرج الناعم لكي تطير، هدأ بالنا. وقبل أن تقلع، أحدثت صوتاً مخيفاً بقي يزعجنا إلى أن طارت بعيداً في الجو.

في النصف الأول من الساعة الأولى من الرحلة بقيت ممسكاً بمقعدي خوفاً، ولم أجرؤ على التطلع من النافذة أيضاً، غير أن أزيز المحركين الناعم المستمر، منحني الثقة وجلست مرتاح البال. ثم شغلت نفسي، قتلاً للوقت، بقراءة كتاب أتيت به لهذه الغاية وهو: «لما عشنا في القدس» من تأليف مس أستل بليث، بنت الأسقف بليث مؤسس مدرسة سان جورج. واستغرقت في حكايات مدرستي القديمة وأحسست أن رحلة الساعتين والنصف كانت قصيرة حتى وصلنا مطار بورجيه في باريس.

إستقلينا القطار من باريس إلى مارسيليا ومنها أبحرنا إلى بور سعيد، المرفأ المصري الكبير الذي كان في ذلك الزمان، على طريق الامبراطورية البريطانية إلى الهند، تاج الامبراطورية. ثم انتقلنا في القطار إلى القنطرة، المحطة المصرية الرئيسية على طريق القاهرة ــ اللد في فلسطين. أما اللد فتتفرع منها الخطوط: شمالاً إلى حيفا، غرباً إلى يافا، وشرقاً إلى القدس.

في الوطن الحبيب ثانية

كان فرحي عظيًما حين وجدت عدداً كبيراً من عائلتي ينتظرني في المحطة: أمي وأختي وأخي وزوجته سلمى وأبناؤهما الخمسة، وأقرباء آخرون. كانت لحظة سعيدة انتظرتها طويلاً؛ واتممنا الرحلة من اللد إلى القدس بالسيارة حتى إذا اقتربنا منها شعرت بالفرح الذي يشعر به الحجاج حين يقتربون من بيت المقدس. إنّ منظر المدينة المقدسة من الغرب، لا يظهر كما يظهر للآتي من الشمال، وأحسن منه رؤيتها للآتي من الشرق. فمن بقعة تدعى «رأس العمود» تبدو لك القدس داخل السور كما كان يراها سيدنا ومعلمنا، السيد المسيح، في طريقه إلى بيت عنيا.

كنت فرحاً جداً لعودتي إلى عائلتي وأصدقائي وعيادتي، وقد وجهوا لي أسئلة عديدة كثيرة عن رحلتي. وكانت أهم الأسئلة وأكثرها تخص رحلة الساعتين والنصف من لندن إلى باريس. والسبب، أن حكايتي أعادت اليهم حكايات «بساط الريح» التي شغلت خيال أجدادنا أجيالاً!

الفصل الثاني عشر

لا أحزاب في فلسطين... زعامات عائلية فقط
المنازعات العائلية السياسية أضرّت بفلسطين كثيراً
الحاج أمين الحسيني: المفتي الأكبر ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى

لم تكن في فلسطين أحزاب سياسية منظمة كما في المملكة المتحدة أو فرنسا، وفي سواهما من البلدان الديمقراطية، وإنما كانت فيها زعامات عائلية هي بقايا التقاليد العشائرية السائدة في الجزيرة العربية.

كان مدى زعامة كل عائلة يعتمد على مدى تأثيرها في الحكومة وفي الأوساط السياسية وعلى غنى أعضائها وعدد الرجال الذين تستطيع حشدهم عند الحاجة، وإلى حدٍ ما، كان يعتمد على سمعتها الوطنية. وكذلك كانت في القرى والمناطق النائية، أما في أقصى الجنوب أي في بئر السبع، فقد كان المجتمع لا يزال قبائلياً.

وأبرز العائلات المتزعمة في فلسطين، كانت: عائلة الحسيني، النشاشيبي، نسيبة، الخالدي، عبدالهادي، العلمي، الدجاني، الشقيري، هاشم، حماد، طوقان، التميمي، زعيتر، المصري، النابلسي، الشكعة، السعيد، الغصين، الجعبري، القواسمة، الشوّا، الصوراني، الريّس، عبد الشافي، العنبتاوي وسواها. أما لدى الطائفة المسيحية فهنالك عائلات ذات ماضٍ تليد يوازي قدمها قدم فلسطين، والبعض منها يرجع إلى عهد الحروب الصليبية. وهذه العائلات موزعة في كل أنحاء فلسطين وتكثر في القدس وبيت لحم ورام الله والناصره وفي قضاء عكا؛ غير أنها لم تحظَ، رغم المقام الرفيع الذي تتمتع به، بمثل زعامة العائلات الإسلامية.

رئيس بلدية القدس

عندما احتل الحلفاء القدس ١٩١٧، كان حسين سليم الحسيني رئيساً لبلدية القدس الشريف. وكان مفتي القدس، كامل أفندي الحسيني. والأول، هو الذي استقبل قوات الجنرال اللنبي لدى دخولها المدينة المقدسة. وكان استقباله لها كقوات حليفة للعرب وليس كقوات محتلة.

توفي حسين سليم الحسيني بعد الاحتلال بوقت قصير، فخلفه أخوه موسى كاظم باشا الحسيني. ولم يطل عهد موسى كاظم في بلدية القدس، فقد استقال من منصبه حينما أصدرت حكومة فلسطين مرسوماً جاعلة اللغة العبرية لغة رسمية. ولما رفض مبدئياً، أن يذعن له ويطبقه في بلدية القدس قال: «نحن لم نقبل بوعد بلفور ولن نقبل أيضاً باللغة العبرية لغة رسمية» فأجبر على الاستقالة.


موسى كاظم الحسيني

عين المندوب السامي خلفاً لموسى كاظم الحسيني، راغب النشاشيبي، وهو مهندس مدني، وعضو سابق في مجلس المبعوثان العثماني في الآستانة، وزعيم عائلة النشاشيبي. فكان من شأن هذا التعيين زيادة المنافسة بين آل الحسيني وآل النشاشيبي.

كان المركز المرموق الآخر ذو الأهمية خارج الوظائف الحكومية، مركز «الافتاء». وحين توفي كامل أفندي الحسيني سنة ١٩٢١، عين المندوب السامي أخاه الشاب، الحاج أمين الحسيني، في الثامن من أيار (مايو) ١٩٢١، مفتياً مكانه، حفظاً للتوازن بين العائلتين. وبالرغم من أن الحاج أمين كان قد حُكم عليه غيابياً بالسجن عشر سنوات لاشتراكه في قيادة اضطرابات القدس سنة ١٩٢٠، فقد عفا عنه المندوب السامي وعيّنه مفتياً ورئيساً للمجلس الإسلامي الأعلى.

المجلس الاسلامي الأعلى:

في العهد العثماني، كانت وزارة الأوقاف في الآستانة تشرف على الوقف في فلسطين. وعند انتهاء الحكم العثماني سنة ١٩١٨، كان لابد من إيجاد سلطة إسلامية لإدارته تبعاً للشريعة الاسلامية. وعلى ذلك، أصدر المندوب السامي مرسوماً في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢١، يقضي بإقامة «مجلس إسلامي أعلى» مستقل يدير الوقف الاسلامي في فلسطين ويأخذ على عاتقه المحاكم الشرعية وتعيين القضاة الشرعيين، وعلى أعضاء المجلس انتخاب رئيسهم. وفي سنة ١٩٢٢، انتخب الحاج


راغب النشاشيبي

أمين الحسيني أول رئيس للمجلس الاسلامي الأعلى ولقب بالمفتي الأكبر، أو مفتي فلسطين الأكبر.

المنازعات السياسية العائلية في فلسطين

خفت المنازعات السياسية العائلية في فلسطين في ظل الحكم العثماني، ثم استؤنفت بحدة خلال الانتداب البريطاني، وكانت أشدها تلك التي كانت بين عائلتي الحسيني والنشاشيبي، وكل منهما تريد القيادة في فلسطين، وأن تكون «الزعيم الأوحد». ونظراً لقوة كلٍ منهما فقد انضمت، بالتدريج، العائلات المتزعمة الأخرى لهذه العائلة أو تلك، فانقسمت البلاد إلى فئتين سياسيتين، فئة الحسيني وفئة النشاشيبي.



الحاج أمين الحسيني في الثورة

«فرق تسد» كانت سياسة حكومة الانتداب

كانت غاية الحكومة في انتقاء راغب النشاشيبي رئيساً لبلدية القدس تسعير العداء بين هاتين الفئتين. فقد وجدت الحكومة المنتدبة أن وحدة الفئتين سياسياً تجعل مهمتها في الانتداب المتضمن وعد بلفور في غاية الصعوبة. وعلى هذا، ظلت سياسة «فرق تسد» سياسة الحكومة حتى نهاية الانتداب سنة ١٩٤٨.

سياسات مختلفة للفئات المختلفة

كانت الفئتان كلتاهما تعارضان سياسة الوطن القومي اليهودي في فلسطين بقوة، ولو انهما اختلفتا في طريقة النضال ضده، إذ تبنت الفئة الحسينية سياسة التشدد وعدم التسوية، بينما وافقت فئة النشاشيبية على المهادنة والتعاون مع حكومة الانتداب تحت شعار «خذ وطالب بالباقي». أما الحسينيون فقد رفضوا التعاون واعتبروه اعترافاً بوعد بلفور ومشاركة في إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين. وعلى هذا المبدأ أبوا المساهمة في المجلس التشريعي الذي عرضته حكومة لندن وفي كل الاقتراحات الأخرى التي لا يتمثل فيها العرب وفقاً لنسبة عدد السكان، كما رفضوا كل جدل أو حوار يتضمن وعد بلفور.

حلف غير معلن


الأمير عبدالله، أمير شرق الاردن

كانت شرق الاردن خاضعة، مثل فلسطين، للانتداب البريطاني، غير أن انتدابها لم يتضمن وعد بلفور ولا سياسة الوطن القومي اليهودي، ومذا ما سمح لحكومة شرق الاردن بالتعاون، بحرية، مع حكومة الانتداب وحكومة لندن، وهو أمر جعل من الأمير عبدالله (الملك عبد الله فيما بعد) أمير شرق الاردن، حليفاً غير معلن لعائلة النشاشيبي، لوجود شيء هام مشترك بينهما. هذا الحلف، الذي دام طيلة مدة الانتداب وبعدها، كانت أكثرية الشعب العربي الفلسطيني ترى فيه، خطأ أو صواباً، انحرافاً للقضية الفلسطينية. أما الذي أساء حقاً إلى قضيتنا العادلة فهو المنازعات العائلية نفسها التي تسربت إلى البلاد العربية الأخرى ولعبت دوراً مدمراً لقضيتنا ولم نجن منها بالتالي غير النتائج المحزنة والمخزية في المعركة الحاسمة سنة ١٩٤٨.

الفصل الثالث عشر

ثورة حائط المبكى سنة ١٩٢٩، مؤامرة يهودية
لجنة التحقيق «شو» البرلمانية، نددت بحكومة الانتداب
تقرير الخبير «جون هوب سيمسون»، منع بيع الأرض العربية لليهود

حظيت فلسطين بهدوء نسبي بين سنتي ١٩٢٣ و١٩٢٩. وقد خلف هربرت صموئيل، الفيلد مارشال، اللورد بلومر، فعزا الانكليز هذا الهدوء المؤقت إلى حسن إدارة المندوب السامي الجديد، ظانين أن العرب تجنبوا الاصطدام مع الفيلد مارشال. لكن الأمر لم يكن كذلك. والحقيقة كان سبب ذلك النقص في عدد المهاجرين اليهود الذين دخلوا فلسطين لسنة ١٩٢٧ و١٩٢٨ وعدد المهاجرين الذين خرجوا منها. كان عدد الذين دخلوا سنة ١٩٢٤ عظيمًا وفي سنة ١٩٢٥ كان مخيفاً فقد وصل إلى حوالي ٣٤٠٠٠ صهيوني، ثم نقص العدد سنة ١٩٢٧ إلى ٢٧١٣ بينما كان عدد النازحين منها ٥٠٧١. كذلك بلغ القادمون سنة ١٩٢٨، فقط. وسرّ العرب بذلك وتأملوا أن يكون الوطن القومي اليهودي في طريقه إلى الاضمحلال.

أزعج هذا النقص الوكالة اليهودية كثيراً، لأن نجاح الوطن القومي اليهودي يعتمد على عدد اليهود الذين يجيئون للعيش في فلسطين. وكان هدف الوكالة اليهودية أن يصبح اليهود أكثرية في فلسطين، وهو ما لا يتوصل إليه إلا بكثافة الهجرة. وذهب ظنهم إلى أن بقاء فلسطين هادئة يقلل من اهتمام العالم اليهودي بالوطن القومي ويفشل تدريجياً هدفهم. وكانت هنالك دلائل ظاهرة ما بعد الحرب العالمية الأولى، وهي أن اليهود يتمتعون بالرفاه في البلدان التي يعيشون فيها، وصار من الواضح أن أكثرهم لا يرغب في الهجرة إلى فلسطين. فكان لابد إذاً للوكالة اليهودية من أن تكافح عدم الاهتمام هذا بمناورات تسبب انفعالات واضطرابات وهياج يوقظ اليهود في الخارج وهم أمهر الناس بهكذا مناورات.

المؤامرة

في الرابع والعشرين من أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٢٨، أدخل بعض الحاخامين اليهود حاجزاً إلى ساحة جدار المبكى ووضعوا طاولة عليها بعض الرموز الدينية، وبمعنى آخر



حائط المبكى

جربوا أن يقيموا ما يشبه الكنيس! وهل هنالك من تصرف يثير أكثر من ذلك عواطف العرب واليهود! اليهود تحمسوا لأن كنيساً جديداً سوف يقوم على جدار المبكى، ملاصقاً لأرض الهيكل التي يأملون أن يبنوا هيكلهم عليها، ذات يوم. أما المسلمون، فهاجوا لأن جدار المبكى هو ملك إسلامي منذ أكثر من ألف سنة. وهو ما أكده الجنرال اللنبي من الإبقاء على الحالة الراهنة في بلاغه إلى أهالي القدس لما دخل المدينة المقدسة في الحادي عشر من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٧.

وقد كانت الوكالة اليهودية تعلم أن ما فعله الحاخامون في المبكى هو خرق «للحالة الراهنة» (Status Quo) وأنه يثير كل العرب وبخاصة المسلمين؛ وهو ما كانت تريده الوكالة اليهودية بالضبط. فرد الفعل المباشر كان التوتر وثورة العواطف الدينية في كلتا الجهتين؛ قال العرب: «إذا سمح بخرق الحالة الراهنة في جدار المبكى، فأين يتوقف هذا الخرق إذاً؟».

لم ترض الوكالة اليهودية بالاضطراب الذي سبّبه هذا الخرق لأن صداه خارج فلسطين كان خفيفاً. وأرادت تلك الوكالة صداماً كبيراً بين العرب واليهود يحرك العالم الخارجي، وخاصة اليهود. لقد أرادت أن يتهم العالمُ العربَ بالوحشية وأن ينهض يهود العالم لنجدة إخوتهم في فلسطين بشرياً ومادياً.

متابعة المؤامرة

في الخامس عشر من آب (أغـ.طـ.س) ١٩٢٩، مرّت مئات من الشبان اليهود، ربما بتحريض الوكالة اليهودية، بمظاهرة في شوارع الأحياء الإسلامية المكتظّة بالسكان والتي تؤدي إلى جدار المبكى. وقد كانت تلك المظاهرة على درجة كبيرة من الاستفزاز حتى عجبنا

جميعاً، آنئذٍ، كيف وصلت إلى هدفها دون أن يعارضها أحد. وكان طبيعياً، أن يخرج الشباب المسلم، في اليوم التالي، في مظاهرة أكبر منها ردّاً عليها؛ غير أن القدس وجوارها شهدا في ٢٣ آب (أغسطس) أعنف مظاهرات واضطرابات منذ الاحتلال البريطاني، قتل فيها ١٣٣ يهودياً وجرح ٣٣٩، وقتل من العرب ١١٦ وجرح ٢٣٢ ـ جل ما قتل أو جرح كان بأيدي القوات البريطانية ـ وكانت أعنف الاضطرابات قد وقعت في القدس والخليل وصفد.

استغلت الوكالة اليهودية الاضطرابات التي دبرتها استغلالاً دقيقاً، فاتهم الرأي العام العالمي، وهو يجهل أسبابها الأساسية، العرب بالوحشية، وهو ما استهدفته الوكالة اليهودية. وكذلك كان ردّ فعل يهود العالم.

أثناء الاضطرابات، كان المندوب السامي، السير جون تشانسيلور، الذي خلف اللورد بلومر سنة ١٩٢٨، في انكلترا، يبحث مع الحكومة البريطانية في إقرار إقامة مجلس تشريعي في فلسطين كانت الوكالة اليهودية تعارضه بشدة، غير أن أصداء الاضطرابات المضخمة لم تجعله يلغي الخطة فحسب، بل دفعته إلى اتهام العرب بالوحشية، اتهاماً تفوّه به وهو ما زال في إنكلترا وقبل أن يسمح له الوقت بالتعمق في الأسباب.

معركة العرب ضد الاتهامات الكاذبة

احتج الشعب العربي الفلسطيني بشدّة ضد ما اتهمه به المندوب السامي المتسرع الظالم؛ ولما عاد إلى القدس قدمت اللجنة التنفيذية اعتراضها شخصياً في دار الحكومة، كما أن الصحافة العربية نقدته نقداً لاذعاً وطالبت بتحقيق شامل في أسباب الاضطرابات والحث على المحافظة الدقيقة على «الحالة الراهنة»، في ساحة جدار المبكى. غير أن السير جون تشانسيلور كان، للأسف، جديداً في فلسطين ولم تكن له خبرة الجنرال بولز، حاكم فلسطين العسكري سنة ١٩٢٠، مع الوكالة اليهودية وطرقها الدنيئة المجرمة التي تلجأ إليها للوصول إلى أهدافها.

استغل الصهيونيون بيان المندوب السامي، فأغرقوا عالم الصحافة عبر وسائل دعايتهم الواسعة، بأخبار المذابح اليهودية التي ارتكبتها أيدي عرب فلسطين «الظامئين للدم» على حد تعبيرهم. فعمدت اللجنة التنفيذية العربية لمكافحة التهم الصهيونية بتنظيم حملة دعاوية قوية تقدم لها فرقة من المتطوعين. أذكر أنني أغلقت عيادتي شهراً وأعددت مع قلة من المتحمسين، المعلومات والبيانات اللازمة للحملة. ولقد جاء إلى القدس مراسلون صحافيون من كل أنحاء العالم ليعرفوا الحقيقة فكنا نعْقد معهم يومياً مؤتمرات صحافية ونصدر بيانات يومية بالانكليزية وأحياناً بالفرنسية. وقد لعبت الصحافة العربية دوراً كبيراً في هذا الجهد وغطت الإعلام اللازم في العالم العربي. وقدم لنا المجلس الإسلامي الأعلى

كل التسهيلات اللازمة ومنحنا كل وسائل الراحة من أجل القيام بذلك.

لجنة «شو» البرلمانية

كانت حكومة الانتداب أول من تحقق من أن السبب المباشر للاضطرابات كان خرق «الحالة الراهنة» في ساحة جدار المبكى، فما كان يحدث شيء لولا التحديات الصهيونية.

وتبع الاضطرابات صمتٌ رهيبٌ يدل على أن عاصفة أخرى آتية. وهذا ما حدا بحكومة لندن إلى الإعلان عن أنها سوف ترسل لجنة تحقيق برلمانية في تشرين الأول (اكتوبر) للبحث «في الأسباب الأساسية للانفجار في فلسطين». وكان المحرك لهذه اللجنة وزير المستعمرات، اللورد باسفيلد، الذي أراد فعلاً تفهُّم الصراع العربي ـ اليهودي والذي لم يكن يريد دراسة الأسباب المباشرة للاضطرابات، بل جذورها. غير أن الصهيونيين ما كانوا ليسمحوا بعمل كهذا لأن ذلك ينسف سياسة الوطن القومي اليهودي، وعلى هذا، بذلوا كل جهودهم وضغوطاتهم حتى نجحوا في تبديل مهمة اللجنة فصارت: «للبحث في الأسباب المباشرة التي أدت إلى الانفجار الأخير في فلسطين ومن أجل إصدار التوصية بالخطوات اللازمة لتجنب تكرارها».

كان سرور الصهيونيين بتبديل التعبير من «الأسباب الأساسية» إلى «الأسباب المباشرة» عظيمًا. فما كانوا يريدون تقريراً آخر يؤكد ما جاء في تقرير لجنة هاكرافت لسنة ١٩٢٠ من أن وعد بلفور وسياسة الوطن القومي اليهودي هما المسؤولان عن الأحداث. وما كان الصهيونيون ليهتموا بالشجب أو بالإدانة لخرقهم «الحالة الراهنة» لجدار المبكى أو أي مكان آخر، فالذي كانوا لا يستطيعون تحمله هو إدانة ثانية لوعد بلفور.

أعضاء اللجنة البرلمانية

كانت اللجنة البرلمانية مؤلفة من السير والتر شو، وهو قاضي قضاة سابق، رئيساً، ومن السير هنري باترتون، والمستر سنيل (فيما بعد اللورد سنيل) والمستر. هـ. مرويس. والاعضاء الثلاثة الأخيرون أعضاء في مجلس العموم البريطاني.

بدأت اللجنة بالتحقيق في تشرين الأول (اكتوبر) وانتهت منه في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٩. ولقد دافع عن وجهة نظر العرب خلال التحقيق المحاميان عوني عبدالهادي ومغنّم مغنّم، وتعاونت اللجنة التنفيذية العربية مع المستر ستوكر، بصفته مستشاراً، وهو محام إنكليزي شهير. أما الصهيونيون فقد دافع عنهم، السير بويد مريمان، وهو محام إنكليزي آخر معروف، من غير اليهود، والمحاميان اليهوديان: هاري ساكر وسولومون هوروفيتس.

قد يشعر القارىء أنني أطلت الحديث عن لجنة شو، والسبب هو اهتمام الشعب العربي الفلسطيني الخاص بها. فقد أراد الشعب تقريراً صحيحاً يبينّ تزوير اتهامه بالأعمال الوحشية. ولقد كنّا، طيلة مدة التحقيق، في توتر ممزوج بالخوف، ليس عن ضعف إيمان منا بقضيتنا، بل لتحيز الحكومة البريطانية، رغم كل الحقائق، لمصلحة الصهيونيين.

نتائج تقرير لجنة شو

١ ــ اللجنة تنتقد الحكومة البريطانية

صدر تقرير لجنة شو في آذار (مارس) سنة ١٩٣٠. ودام التحقيق ثلاثة أشهر استمعت فيها اللجنة إلى ١٣٠ شاهداً. ولم تكتف بالبحث في الأسباب المباشرة للاضطرابات؛ وقد جاء في تقريرها: «إننا نعتقد، أن الحيف السياسي والاقتصادي اللاحق بالعرب، كما تبين لنا بوضوح، يجب أن ينظر إليه على أنه سبب مباشر لاضطرابات آب [أغسطس] الأخيرة» والعضو الوحيد في اللجنة الذي لم يوافق على هذا التصريح هو المستر سنيل، من حزب العمال البريطاني.

وانتقدت اللجنة في تقريرها سياسة الحكومة البريطانية حيال الهجرة بعدة نقاط:

١ ــ إن عدداً أكثر مما يجب من المهاجرين الصهيونيين دخل فلسطين.

٢ ــ هؤلاء المهاجرون اليهود يشردون العرب ويسببون البطالة عندهم.

٣ ــ إن معارضة العرب للهجرة اليهودية لها ما يبررها، وهذا الشعور، مع عوامل أخرى، ساهم في الانفجار.

ونوهت اللجنة في تقريرها إلى أن الهجرة إلى فلسطين مفروض فيها «الخضوع إلى تدقيق شديد تحت إشراف الدولة» كما جاء في كتاب تشرتشل الأبيض لسنة ١٩٢٢، فوجدت اللجنة أن الأمر لم يكن كذلك، بل كانت خاضعة للوكالة اليهودية التي لا تمثل غير نسبة قليلة من السكان، وهو نهج شجبته اللجنة. ونصحت بتشديد رقابة الحكومة على الهجرة اليهودية إلى أن تقوم في فلسطين حكومة تمثلها.

أما عن مسألة الأرض، فقد جاء في تقرير اللجنة أن سياسة الحكومة جردت كثيراً من العرب من أرضهم ودعت إلى وضع تشريع يحمي الفلاحين العرب، كما ألمحت إلى التناقض في واجبات الحكومة تجاه فئتي الشعب بسبب تناقض وعد بلفور، ولكنها، لم تذهب إلى حد إدانة وعد بلفور نفسه، وقد كان باستطاعتها ذلك لو لم يحصل ذلك التغيير في صلاحياتها.

٢ ــ شك اللجنة بصدق الشهادات الصهيونية

استمعت اللجنة إلى عدد كبير من الشهود اليهود الذين جرّبوا إقناعها بأن الهجرة

اليهودية أفادت السكان العرب، وأنها لم ترحّلهم وتجردهم من أراضيهم. غير أنه يبدو أن اللجنة لم تصدق تلك الشهادات اليهودية كثيراً لأنها استمرت في التعبير عن خوفها من «مواصلة نهج يمكن أن ينجم عنه خلق طبقة ناقمة لا تملك أرضاً».

وألمحت اللجنة أيضاً إلى مسؤولية الحكومة في ما يتعلق بتطور البلاد الدستوري وإلى رسائل ماكماهون ـ الحسين التي ذكرها العرب في شهادتهم، مؤكدين أن الاتفاق شمل استقلال فلسطين أيضاً.

٣ ـ اللجنة تطلب حفظ حقوق العرب

الذي لا شك فيه أن لجنة شو اقتنعت بأن سياسة الحكومة البريطانية في فلسطين كانت متحيزة، وانها (الحكومة البريطانية) لم تكن تهتم إلا بتعزيز نمو الوطن القومي اليهودي، وأنها أهملت تماماً مصالح السكان من غير اليهود. وكان هذا واضحاً في بيانها الذي قال: «وفي رأينا أنه كان من المصلحة لو أن حكومة جلالته نشرت تفسيراً أكثر وضوحاً للجزء الثاني من وعد بلفور وللتحفظات في صك الانتداب التي بنيت على ذلك الجزء من الوعد، وهي التي تكفل حفظ حقوق الطوائف غير اليهودية في فلسطين».

لقد كان هذا البيان لوماً للحكومة البريطانية على عدم صيانتها لحقوق العرب كما نص عليها وعد بلفور وصك الانتداب. ولم تكتفِ اللجنة باللوم فقط، بل وضّحته بطلب: «من أجل مصلحة كل الفئات من شعب فلسطين، بالتساوي، وكذلك الإدارة المحلية، ويجب أن تحدّد حكومة جلالته بوضوح، لا لبس فيه، المعنى الذي أعطته لوعد بلفور ككلّ، كما يجب أن تبسط بنفس الوضوح السياسة التي تنوي اتباعها في البلاد في المستقبل».

بعد قراءة هذه البيانات، يستطيع المرء أن يستنتج أن اللجنة، بعد أن مكثت ثلاثة أشهر في فلسطين واستمعت إلى ١٣٠ شاهداً، صُعقت فعلاً من الطريقة التي نفذت فيها بريطانيا العظمى الانتداب. لقد وجدت أن أساس المشكلة هو عدم شرعية وتناقض وعد بلفور الذي جرّبت الحكومة تنفيذ جزء منه فقط بقوة السلاح. وظهر للجنة أن المصالح الصهيونية كانت وحدها موضع اهتمام الحكومة، وأن مصالح العرب أُهمِلت. وعلى هذا الاساس، لامت اللجنة الحكومة على سوء فعلها وطلبت إليها أن تعامل سكان فلسطين العرب الأصليين معاملة أفضل.

لجنة حائط المبكى

عيّنت الحكومة البريطانية، من أجل الوصول إلى تحديد دقيق لوضع جدار المبكى، لجنة من ثلاثة أشخاص غير إنكليز كي تنظر في وضع جدار المبكى الراهن. فقررت هذه اللجنة أن الحائط والساحة ملكية إسلامية وأنه يجب الحفاظ بدقة على «الحالة الراهنة» (Status Quo) واقترحت اللجنة الاّ يُسمح بإقامة أي بناء على تلك الملكية وأنه بوسع

اليهود أن يضعوا طاولة وخزانة للرقاق إبان بعض المناسبات الخاصة على أن تسترد ولا تبقى هناك.

في أعقاب لجنة شو وفد فلسطيني إلى لندن

وعلى الرغم من أن الهدوء ساد في الفترة التي سبقت نشر تقرير اللجنة، فإن التوتر بين العرب واليهود ظل قائماً. وأذكر أن العرب امتنعوا آنئذٍ عن الذهاب إلى الأحياء اليهودية والعكس صحيح. وفيما كان يُعَدّ التقرير تضاربت التنبؤات عن فحواه من كلتا الجهتين. كانت الأوساط السياسية العربية تتكهن بأنه في مصلحة العرب. وهذا ما شجع اللجنة التنفيذية العربية على إرسال وفد، دون تأخير، إلى لندن كي يفاوض الحكومة البريطانية التي كانت ولا شك، حائرة، مرتبكة. وترأس موسى كاظم الحسيني الوفد الذي ضمّ، للمرّة الأولى والأخيرة، الحاج أمين الحسيني، رئيس المجلس الإسلامي الأعلى ومفتي فلسطين الأكبر، وراغب النشاشيبي، رئيس بلدية القدس، وجمال الحسيني، وعوني عبد الهادي، والفرد روك.

وصل الوفد الفلسطيني إلى لندن قبل نشر تقرير لجنة شو بيوم واحد. وقد سُرّ العرب به، كما كان منتظراً. فلقد أوضح الحقيقة، وانتقد الحكومة على سياستها المتحيزة.

أما الحكومة البريطانية فقد أزعجها أن أظهرها التقرير بمظهر المتحيز المتطرف للصهيونية. كما أثارها اللوم على إهمالها مصالح العرب وهم السكان الأصليون.

الصهيونيون يحاولون لغم اللجنة

كان الصهيونيون يتوقعون تقريراً غير ملائم لهم. ولقد حدا هذا التوقع بكلٍ من: اللورد بلفور، ولويد جورج، والجنرال سمطس، رئيس وزراء جنوب افريقيا، إلى إرسال كتاب إلى جريدة التايمز، قبل ثلاثة أشهر من نشر التقرير (نشر الكتاب في عدد التايمز في ٢٠ كانون الأول ــ ديسمبر ١٩٢٩) يطلبون فيه من الحكومة أن ترسل مباشرة إلى فلسطين، وأثناء وجود «لجنة شو» فيها، لجنة أخرى ذات صلاحيات أوسع لدراسة شاملة للمسألة الفلسطينية وذلك في مناورة مكشوفة، الغاية منها التجريح بلجنة شو وبتحقيقها العادل. ثم أُرسلت عدة كتب إلى جريدة التايمز من أصدقاء اليهود للغاية نفسها.

ما كان ممكناً أن يقبل الصهيونيون بتقرير لجنة شو، فاعترضوا عليه بشدة. ولقد وقّع كلٌّ من: السير ارتشيبولد سنكلير، والمستر مالكولم ماكدونالد (الذي أصبح وزيراً للمستعمرات سنة ١٩٣٨) والمستر جون بوكن واللورد سيسيل، رسالة احتجاج أرسلوها إلى «التايمز» يقولون فيها أن «لجنة شو» تعدّت حدود صلاحيتها وألحوا على الحكومة تأكيد سياسة الوطن القومي اليهودي.

تحقيق السير جون هوب سيمسون

استاءت الحكومة البريطانية وارتبكت من تقرير «لجنة شو» ووجدت أنه من المستحسن إرسال خبير إلى فلسطين، كما أشارت بذلك «لجنة شو»، كي يحقق في موضوعي الهجرة والأرض. فوقع الاختيار على خبير قدير هو السير جون هوب سيمسون. كما وجدت الحكومة مناسباً تعليق الهجرة اليهودية، خلال قيام السير جون بتحقيقه. ولم يثر هذا القرار اعتراض الصهيونيين الشديد فحسب، بل انتقدته بشدة أيضاً لجنة الانتدابات الدائمة في عصبة الأمم، بعد أن غدت، لسوء الحظ، أداة في أيدي الصهيونيين.

نتيجة تحقيقات السير جون هوب سيمسون

في العشرين من تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٣٠، نُشر تقرير السير جون هوب سيمسون (بلاغ رسمي رقم ٣٦٨٦)، وقد جاء فيه: أن الأرض غير كافية لإعاشة فلاحيها العرب ونصح بألّا يأتي مهاجر يهودي واحد إلى فلسطين، كما ارتأى أن يقوم العرب واليهود بالتكثيف الزراعي. ومنع إسكان اليهود على الأرض العربية، وأن لا تستأنف الهجرة، كما قال، إلا إذا تقدّمت الزراعة المكثفة.



جون سيمسون

الفصل الرابع عشر

رمزي ماكدونالد يخضع لتهديد اليهود
«الكتاب الأسود» يلغي «الكتاب الأبيض»
المظاهرات السلمية العربية ضد الهجرة اليهودية، تقابَل برصاص البوليس البريطاني
موسى كاظم الحسيني توفاه الله؛ الشعب العربي يبكيه
فضيحة المجلس التشريعي ــ الأحزاب في فلسطين، شبه احزاب

كان لتقرير سيمسون تأثير كبير على حكومة العمال، فأصدر رئيس الوزراء في تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٣٠ كتاباً أبيض سمي فيما بعد كتاب رمزي ماكدونالد الأبيض لسنة ١٩٣٠ (بلاغ رسمي رقم ٣٦٩٢). وقد نص على ما يلي:

١ ــ الهجرة: التمسّك بمبدأ القدرة على الاستيعاب.

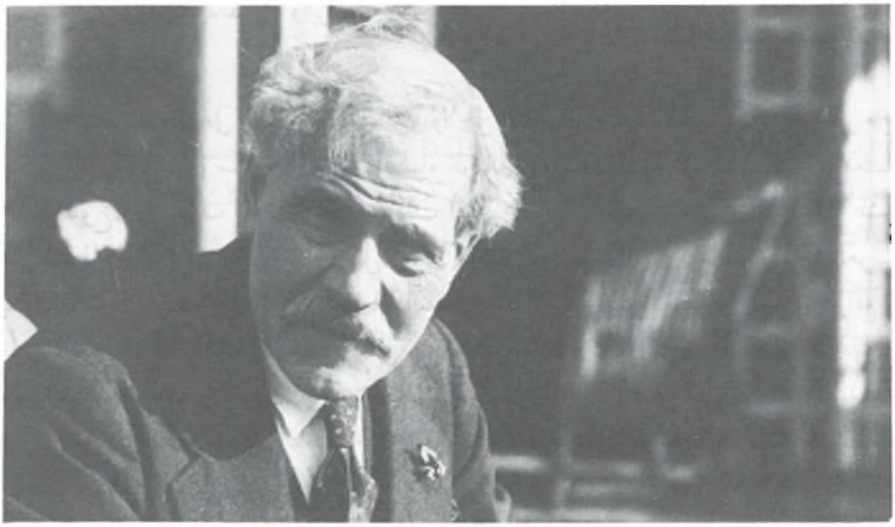
٢ ــ الأمن: تزاد القوة البريطانية في فلسطين.

٣ ــ حان الوقت لإقامة مجلس تشريعي في فلسطين.

٤ ــ البحث في المشاكل الاجتماعية والاقتصادية وتشغيل العرب واسكانهم، كما يجب على الحكومة أن تولي العرب اهتماما بهم وبتنميتهم.

وعلى الرغم من أن الكتاب الأبيض كان بعيداً عن إرضاء أماني العرب، وبعيداً عن تنفيذ توصيات لجنة شو وتقرير سيمسون، فإن المنظمات الصهيونية ومن يدعمها من البريطانيين، احتجت بشدة ضده، واتهمته بأنه إلغاء لوعد بلفور. والواقع أن الصهيونيين لا يطيقون سياسة الإنصاف ولا حتى القريب من الإنصاف. أرادوا من الحكومة أن تتجاهل كل حقوق العرب، وهو موقف يذكرني دائما بكتاب الجنرال بولز.

استقال الدكتور وايزمان مباشرة من منصبه كرئيس للمنظمة الصهيونية احتجاجاً على كتاب رمزي ماكدونالد الأبيض وكذلك فعل المستر وربورغ، رئيس المنظمة الصهيونية في الولايات المتحدة. واستقال اللورد ميلتشت (سير ألفرد موند) من المنظمة الصهيونية ومن الوكالة اليهودية. وفي الولايات المتحدة، اجتمع آلاف اليهود في ماديسون سكوير غاردن كما تظاهر الكثيرون خارجه، منددين بخيانة بريطانيا العظمى.



رمزي ماكدونالد رئيس الوزارة البريطانية

رسالة وايزمان إلى ماكدونالد

أرسل الدكتور وايزمان رسالة شديدة جداً الى رئيس الوزراء، رمزي ماكدونالد، كما ارسل الجنرال سمطس، رئيس وزراء جنوب أفريقيا، برقية احتجاج أيضاً.

وفي لندن أرسل المستر بلدوين، رئيس الوزراء السابق، والسير أوستين تشمبرلين والمستر اميري، وهما وزيران سابقان، رسالة إلى «التايمز» عبّروا فيها عن سخطهم الشديد، وقالوا أن كتاب المستر ماكدونالد الأبيض خلق شعور عدم الثقة بالاخلاص الإنكليزي في الولايات المتحدة.

واستمرت طويلاً الحملات القاسية والبشعة على رمزي ماكدونالد واللورد باسفيلد، وزير المستعمرات، بالرغم من بياناتهما في مجلس العموم وسواه التي تبين أن الاحتجاجات ضدهما ناتجة عن «عدم فهم» لسياستهما.

مرة أخرى وجدت الحكومة البريطانية نفسها محرجة في مواجهة التناقض في «وعد بلفور». وقد ذكرت «لجنة شو» في تقريرها أن إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين أضرّ بحقوق العرب فيها، وهي الحقوق التي يحافظ عليها بوضوح «وعد بلفور» وصك الانتداب على فلسطين: «لا يعمل شيء يمكن أن يضر بالحقوق الدينية والمدنية للطوائف غير اليهودية في فلسطين». لقد كان الالتزامان متناقضين كما شرحنا ذلك في الفصل السابق. وما كان بوسع الحكومة البريطانية أن تنشىء الوطن القومي اليهودي في فلسطين دون أن تمسّ بحقوق العرب في بلادهم.

رسالة رمزي ماكدونالد إلى وايزمان
«الكتاب الأسود»

اشتد الضغط على حكومة ماكدونالد، ولأجل التفاهم، طلب رئيسها في الرابع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٣٠ من أعضاء الوكالة اليهودية القدوم الى لندن للبحث معهم في الموضوع. ولم يعرف ما اتفق عليه في ذلك المؤتمر الا بعد أشهر ثلاثة، أي في الثالث عشر من شباط (فبراير) ١٩٣١، حين أرسل رمزي ماكدونالد رسالة الى وايزمان، سماها العرب بـ«الكتاب الأسود»، وقد شرح له فيها، النقاط الهامة في الكتاب الأبيض، وانها في الواقع، تبين ضآلة نفعه للعرب. وهكذا داس ماكدونالد بقدميه كل حقوق العرب ومصالحهم. ولم يدهش «الكتاب الأسود» العرب وحدهم في فلسطين، وانما أدهش كل العرب والمسلمين في كل مكان وخاصة، مسلمي الهند الذين خرجوا في مظاهرات غاضبة ضد خضوع بريطانيا العظمى للنفوذ الصهيوني وتهديده.

أدّى هذا «الكتاب الأسود» الى عدم ثقة العرب بالحكومة البريطانية وبالرأي العام البريطاني كما عبّرت عنه الاحتجاجات التي ذكرناها. ولقد جعل «الكتاب الأسود» الشعب العربي كله ينظر الى بريطانيا العظمى باحتقار وازدراء. فقد تبين مرة أخرى ضعف الحكومة البريطانية الشديد تجاه النفوذ الصهيوني وتأثيره. واقتنع سكان فلسطين العرب، نتيجة لذلك، بأن بريطانيا العظمى هي عدوهم الأول وأن الصهيونيين هم عدوهم الثاني. وعليه، أصبح القول: «بريطانيا، أساس المشكلة»، شعار عرب فلسطين.

الخبير لويس فرنش في فلسطين

في آب (أغسطس) ١٩٣١ أرسِل، لويس فرنش، وهو خبير قدير بالأراضي، الى فلسطين وعينّ مديراً للتنمية. فوضع سجلاً «لغير الملاكين من الفلاحين» وخطة لاسكانهم. غير أنه استُدعي، للأسف، الى لندن قبل أن يُنهي مهمته. وكان مصير تقريره الذي نشر في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣١، مثل غيره من التقارير التي في مصلحة العرب. وقد قدّم تقريراً آخر عن «العرب غير الملاّكين» في نيسان (ابريل) ١٩٣٢.

هتلر سيد ألمانيا وتأثيره على فلسطين

في سنة ١٩٣٣، صار هتلر حاكمًا على ألمانيا فقفزت الهجرة اليهودية من ٩٥٥٣ مهاجراً سنة ١٩٣٢ الى ٣٠٣٢٧ سنة ١٩٣٣. صُدم العرب بهذا الرقم فأصدرت اللجنة التنفيذية في السنة نفسها بياناً عبّرت فيه عن خوفها منه، ومن استيلاء المنظمات اليهودية على أراضي الفلاحين العرب. وانتهى البيان الى القول: «وعلى ذلك أصبح من واجب الشعب العربي في فلسطين مقاطعة كل الاحتفالات الحكومية والبضاعة اليهودية».

المظاهرات العربية سنة ١٩٣٣ ضد الهجرة اليهودية

وصل خطر الانفجار أشده في تشرين الأول (أكتوبر ١٩٣٣)، مما دفع اللجنة التنفيذية العربية الى الدعوة لاضراب عام، تلته سلسلة مظاهرات قادها أعضاء اللجنة التنفيذية في مختلف مدن فلسطين. قامت أول تلك المظاهرات في القدس في الثالث عشر من تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٣٣، إذ خرجت من المسجد الأقصى بعد صلاة الجمعة، مظاهرة منعتها الحكومة، استبداداً من التقدم، وفرقت آلاف المتظاهرين، بوابل من الرصاص أطلقه البوليس استبداداً، دون تمييز على المتظاهرين، فقتل وجرح أعداداً من العرب الأبرياء.

وبعد أسبوعين من ذلك، أي في السابع والعشرين من تشرين الأول (اكتوبر)، قامت مظاهرة في يافا، حيث قادها أيضاً أعضاء اللجنة التنفيذية وفي الصف الأول، كان موسى كاظم الحسيني. كان المتظاهرون، كما هي العادة، جمهوراً مسالماً دون سلاح، خرج بعد صلاة الجمعة، من مسجد يافا فاستقبلهم ـ كما في القدس ـ وابل من رصاص البوليس الانكليزي، فكان عدد القتلى والجرحى في مظاهرة يافا أكثر من الذين سقطوا في مظاهرة القدس. وحسب المصادر الحكومية، كان عدد القتلى ٢٤ وعدد الجرحى ٢٠٤ من العرب الأبرياء.

لقد كنت أحد الذين خرجوا في مظاهرة القدس واشهد أنه لو سُمح لهابالسير دون كبح، لما قتل أو جرح فيها أي بوليس أو أي عربي أو أي يهودي. واثباتاً لهذا القول، فإن أحداً من اليهود لم يُقتل أو يجُرح في كل تلك المظاهرات.

وفد عربي يقابل المندوب السامي

لقد ملأ تفريق المظاهرات بالنار، صدور أبناء شعب فلسطين العربي بالحقد والغضب. فذهب وفد عربي برئاسة موسى كاظم باشا وقابل المندوب السامي البريطاني، السير ارثر واكوب، في مكتبه في العمارة الألمانية الكائنة قرب باب العمود. فكان مثيراً أن ترى موسى كاظم، ذاك الشيخ الجليل، يحتج بمرارة معترضاً على وحشية ولاإنسانية الحكومة. وأذكر أني قلت للمندوب السامي، وكنت من الوفد: إنه «لا توجد حكومة متمدنة تفرّق المتظاهرين المسالمين بالرصاص. فقد كانت المظاهرات تعبيراً عن شعور الشعب العربي ضدّ القوانين الاستبدادية التي صدرت في فلسطين وهدفها تشريده واخضاعه لشعب أجنبي. واستخدام الرصاص بدلاً من الماء أو الغاز المسيل للدموع ضد الناس المسالمين، هو جريمة قتل».

قيام الأحزاب العربية في فلسطين

في سنة ١٩٣٤، جرت انتخابات لرئاسة بلدية القدس ودُهش الناس لما خسرها راغب النشاشيبي ضد الدكتور حسين الخالدي، وهو الذي ما كان له أن ينجح لولا دعم الحاج أمين الحسيني القوي له. نتيجة لذلك، أسس راغب النشاشيبي حزباً أسماه «حزب الدفاع» وصار رئيساً له. وبعدها بوقت قصير تأسست الأحزاب التالية:

الحزب العربي الفلسطيني، برئاسة جمال الحسيني؛ حزب الاستقلال، برئاسة عوني عبد الهادي؛ حزب الاصلاح العربي، برئاسة الدكتور حسين الخالدي؛ حزب الكتلة الوطنية، برئاسة عبد اللطيف صلاح؛ وحزب الشباب، برئاسة يعقوب الغصين.

وفاة موسى كاظم الحسيني

كانت سنة ١٩٣٤ سنة الفواجع. ارتفعت فيها أرقام الهجرة من ٣٤٠٠٠ مهاجر سنة ١٩٣٣ الى ٤٢٠٠٠ سنة ١٩٣٤، فوصل الدم العربي الى درجة الغليان ــ فما العمل؟ ووجدنا أن الاحتجاج لدى المندوب السامي أو لدى وزارة المستعمرات لا يجدي نفعاً، وكنا في يأس. وزاد في يأسنا تلك الفاجعة الوطنية الأخرى برحيل موسى كاظم باشا الحسيني، زعيمنا المحبوب الوقور، الذي رأيناه فيه، أباً للعائلة الفلسطينية، إذ قضى بعد مرض قصير. فأعلنت الأمة كلها الحداد طويلاً. ان عربياً وطنياً عظيماً غاب عنا غير أن ذكراه سوف تبقى معنا أبداً.

سنة ذهبية للهجرة اليهودية سببها هتلر

بلغت الهجرة اليهودية ذروتها سنة ١٩٣٥، فقد دخل واحد وستون ألفاً من المهاجرين الصهيونيين الى فلسطين رسمياً ودخل خلسة ثمانية عشر ألفاً حسب تصريح المندوب السامي في نابلس. ولقد كان جلب تسعة وسبعين ألفاً في سنة واحدة، الى بلد صغير مثل فلسطين، جريمة قتل في رأي العرب، شرعياً كان ذلك أو غير شرعي. والمجرم هو وزير المستعمرات، اللورد باسفيلد، أما الجلاد فهو المندوب السامي في فلسطين، السير أرثر واكوب؛ أما المجني عليه فهو الشعب العربي الفلسطيني البريء، «وديعة الحضارة الغربية»!!

ولقد الحت المنظمة الصهيونية على أن فلسطين هي البلد الوحيد الذي يستطيع أن يؤوي اليهود من اضطهاد هتلر. وتبنى المؤتمر الصهيوني الذي عقد في لوسيرن، في سويسرا، في تلك السنة، القرار الظالم نفسه، فهي فرصة حانت لإغراق فلسطين بالمهاجرين اليهود، وما كان الصهيونيون ليدعوها تفلت من أيديهم. غير أن هذا الأمر ما كان ليمر دون ردة

فعل. لقد أشعل تدفق هذا العدد من المهاجرين اليهود الذي كنا نرقبه بألم دون أن نستطيع إيقافه، فتيل الانفجار، والذي أخمدته معجزة حقيقية فقط. وكان ذلك في كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩٣٥، حين دعا المندوب السامي رؤساء الأحزاب العربية الستة إلى دار الحكومة وأنبأهم، بالنيابة عن وزير المستعمرات، أن الحكومة البريطانية قررت إقامة مجلس تشريعي في فلسطين، وهي عازمة، اذا رفضته احدى الفئات من السكان، أن تقيمه بالتعيين. وقد قدم العرض بلهجة تهديدية.

المجلس التشريعي لسنة ١٩٣٥.

تألف المجلس من ٢٨ عضوا: خمسة منهم من موظفي الحكومة، وثمانية أعضاء مسلمون، وسبعة يهود وثلاثة من المسيحيين. وسوف يكون فيه عضوان يمثلان الوسط التجاري في البلاد، أما رئيس المجلس فيكون «شخصاً غير متحيز لا صلة له بفلسطين» ولا يسمح لهذا المجلس، كما في المجالس السابقة، ان يبدي رأيه في الانتداب، وهذا يعني أنه لا يسمح له بمناقشة وعد بلفور الداخل في صلب الانتداب.

قبول العرب بالمجلس

كان المجلس المقترح بعيداً عن إرضاء طموحات العرب بالاستقلال؛ وبالرغم من ذلك، فقد وافقت الأوساط العربية السياسية، على المشروع. وللبحث في هذا الأمر، اجتمع خمسون وجيهاً سياسيّاً واجتماعياً في بيتي في الطالبية لمناقشة قبول أو رفض هذا المجلس. فكانت أكثرية الأصوات الى جانب قبوله. رجل واحد اعترض، هو عضو محكمة الاستئناف العليا، القاضي فرنسيس خياط، الذي جادل ضد الموافقة، غير أن الحماس «للمجلس» تغلب على كل معارضة.

وافق العرب على المجلس التشريعي لأن أعضاءه كانوا أحراراً في مناقشة الموضوعين الخطرين اللذين أقلقا العرب: موضوع الهجرة اليهودية؛ وموضوع بيع الأراضي. وكان إيقاف الهجرة أو التقليل، بنسبة كبيرة، من سيل المهاجرين اليهود الى فلسطين أهم أهدافنا وأكثرها إلحاحاً.

المنظمة الصهيونية ترفض المجلس

رفضت المنظمة الصهيونية، والوكالة اليهودية وكل الجاليات السياسية اليهودية في العالم أجمع المجلس التشريعي. فالصهيونيون لا يريدون المساهمة في أية «هيئة تشريعية» لها الحق في انتقاد الهجرة اليهودية أو الاستعمار اليهودي في فلسطين. والحقيقة، أن الصهيونيين الذين غزوا فلسطين، لم يعترفوا أبداً بحقوق العرب الفلسطينيين فيها، بل كان شعارهم دائمًا: «كل ما هو حسن لنا وجهنم للآخرين!». ان الأنانية واللاانسانية في المبدأ الصهيوني هما اللتان جعلتا القضية الفلسطينية دون حل حتى هذا اليوم.

المجلس التشريعي الموعود

بعد أن وافق العرب على المجلس التشريعي، انتظروا من الحكومة تنفيذ الوعد. وانقضت فترة ما بين كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٣٥ وآذار (مارس) ١٩٣٦، دون أن يحصل شيء. والشخص الذي كان أكثر قلقاً من العرب، هو المندوب السامي، السير آرثر واكوب، الذي أعطى الوعد بتأليف المجلس. فقد أخذ يتوقع الفشل لما قُدّم المشروع في السادس والعشرين من شباط (فبراير) ١٩٣٦ إلى مجلس العموم للمناقشة. وفي الرابع والعشرين من آذار (مارس)، ناقشه مجلس اللوردات ومن ثم مجلس العموم وقد سقط، وياللعار، في المجلسين معاً بسبب ضغط الصهيونيين. وما كان ذلك فشلاً للحكومة البريطانية وحدها وإنما للعدالة، وللشرف البريطاني، وفشلاً للمصالح البريطانية نفسها في العالم العربي.


السير آرثر واكوب المندوب السامي

فرح اليهود فرحاً عظيماً لفشل الحكومة في مجلس العموم. أما العرب فكان حزنهم عميقاً. لقد هدم هذا الفشل ما تبقى من الثقة عند العرب ببريطانيا العظمى. فقد كانت نتيجة المناقشة دليلاً قوياً على أن بريطانيا العظمى لم تكن إلاّ أداة في الأيدي الصهيونية، وأنها كانت عدو العرب الحقيقي. ومع ذلك، لم يحزن العرب، نتيجة لقرار مجلس العموم، وكأنهم فقدوا «معاهدة استقلال مع بريطانيا العظمى»، كلا، فالحكومة لم تقدم لهم شيئاً من هذا القبيل؛ إنما أحزنهم ما رأوه من «امبراطورية»، هي أعظم ما عرفه التاريخ، كيف يُهزأ بها، وتُحتقر، وتُخزى من قبل قلة من المرائين الصهيونيين الذين لا يهتمون أبداً بمصالح بريطانيا العظمى أو بمصلحة سواهم كائناً من كان. والآن، سنة ١٩٨٢، تُمثل الكارثة على المسرح، مع دولة عظمى أخرى، هي الولايات المتحدة الأميركية التي وقعت في الفخ كما وقع في السابق شعب بريطانيا العظمى. وهل يعرف الصهيونيون أن الولايات المتحدة، بدعمها للجرائم الصهيونية في فلسطين وبقية المناطق العربية المحتلة، تجعل من الشعب العربي أشد أعدائها، وهو الشعب الذي يملك أكثر من نصف نفط العالم؟ نعم، يعرف الصهيونيون ذلك جيداً! لكن، ما أشد غباوة الشعب الأميركي الذي يجهل أن الصهيونيين يضحون بكل الشعب الأميركي من أجل الاحتفاظ بقطاع غزة الصغير، تحت احتلالهم!!



التظاهرة السلمية في مدينة يافا؛ حيث قتل ٢٦ وجرح ٦٠، من نار البوليس الانكليزي، سنة ١٩٣٣.



بعد تفريق المظاهرة

الفصل الخامس عشر

الهجرة اليهودية تسبب الاضراب العام في فلسطين
وفد عربي فلسطيني إلى لندن لإيقاف الهجرة
وزير المستعمرات، أورمزبي غور، الصهيوني الميول، يتحدى العرب
الثورة العربية الفلسطينية على الأبواب
المحكمة العليا في فلسطين تندد بالمندوب السامي

إن فشل الحكومة البريطانية في إقامة المجلس التشريعي في فلسطين، واكتشاف أسلحة وذخائر في مرفأ يافا هرّبها الصهيونيون في براميل الاسمنت، والهجرة اليهودية المفرطة خلال سنتي ١٩٣٤ و١٩٣٥، كانت أسباب اضطراب وغضب الشعب العربي في فلسطين الذي لم يستطع احتمال حكومة صهيونية ترفع العلم البريطاني على دار الحكومة. وقد أدرك الشعب الخطر الداهم والثورة الوشيكة. وبدأ الخلل بالأمن وأكدته أخبار في الخامس عشر من نيسان (أبريل) ١٩٣٦، عن قتل ثلاثة من اليهود قرب طولكرم وقتل عربيين عند كفر سابا؛ تلك الأخبار التي نجم عنها هياج ثم إضراب أعلنته اللجنة الوطنية في نابلس، وامتد كالبرق إلى كل مدن البلاد وقراها. وما كاد الحادي والعشرون من نيسان (أبريل) سنة ١٩٣٦ يأتي حتى عم الاضراب العام كل فلسطين. ففاجأ هذا الاضراب العام اللجنة التنفيذية العربية الغافية منذ وفاة رئيسها، كما فاجأ الأحزاب الحديثة، واصابهم بالذهول، مما اضطر الزعماء العرب ورؤساء الأحزاب، إلى الاجتماع من أجل إنشاء تنظيم جديد؛ فتنظمت في ذلك اللقاء التاريخي، لجنة تنفيذية جديدة انتخبت الحاج أمين الحسيني؛ المفتي الأكبر، رئيساً، وسميت «اللجنة العربية العليا». أما الأعضاء فكانوا: جمال الحسيني سكرتيراً، وراغب النشاشيبي، عوني عبد الهادي، الدكتور حسين الخالدي، عبد اللطيف صلاح، يعقوب الغصين، أحمد حلمي عبد الباقي، يعقوب فراج، والفرد روك، أعضاء.

سُر العرب في فلسطين بقيام قيادة جديدة تتحمل المسؤولية في تلك الفترة الحاسمة، كما أن ثقتهم فيها ازدادت عند اشتراك الحاج أمين وراغب النشاشيبي الزعيمين الندَّين في اللجنة وإدخال رؤساء الأحزاب الستة أيضاً.

أذاعت اللجنة العربية العليا، لدى اضطلاعها بمسؤولياتها، بياناً شددت فيه على ثلاثة مطالب رئيسية:

١ ـ وقف الهجرة اليهودية.

٢ ـ إيقاف انتقال الأرض العربية إلى أيدي اليهود.

٣ ـ إقامة حكومة دستورية مسؤولة أمام مجلس تشريعي.

وقد نوهت اللجنة في بيانها أيضاً بأن الاضراب العام سيستمر دون تحديد حتى تتوقف الهجرة اليهودية كاستجابة أولى للمطالب العربية.

ولقد شلّ الاضراب كل الأعمال العربية براً وبحراً: المخازن، الدكاكين، المكاتب، وسائل النقل، المرافىء، إلخ... فتوقفت جميعها عن العمل. وكان إضراباً اختيارياً، ولم يكن استجابة لزعيم أو للجنة، بل كان استجابة لشعب ثائر.

الفوضى تعمّ فلسطين

كان طبيعياً أن تنمو الفوضى عندما يستمر الاضراب وتتوقف الحياة الطبيعية للأمة. وما كان غريباً أبداً أن يبدأ الشعب في فلسطين بمهاجمة المؤسسات الحكومية. وقد بدأت تظهر جماعات من العرب المسلحين على الجبال مستعدة لمجابهة القوات الحكومية التي تعززت بإمدادات عسكرية كبيرة كي تسحق الثورة وتعيد النظام. غير أن حفظ النظام والقانون في فلسطين ما كان ليتم عن طرق الجنود البريطانيين في البلاد، مهما كان عددهم، وإنما بتطبيق العدالة فقط.

أُعلنت الأحكام العرفية في فلسطين وعمدت الحكومة إلى تطبيق أساليب القمع القاسية. وأقامت بسرعة معسكر اعتقال في صرفند قريباً من يافا وملأته بالزعماء والوطنيين العرب، ومن بينهم كان عوني عبد الهادي، عضو اللجنة العربية العليا، ورئيس حزب الاستقلال.

لجنة ملكية تأتي إلى فلسطين

سعت الحكومة بكل وسائلها لإنهاء الاضراب ففشلت: فالتجأت إلى طريقة أخرى: فقد أعلن وزير المستعمرات، المستر توماس، في مجلس العموم أن لجنة ملكية للتحقيق في الاضطرابات سوف ترسل إلى فلسطين حالما يعود النظام ويسود القانون. وكانت الغاية من هذا الإعلان أن ينهي العرب الاضراب من أجل التعجيل بوصول اللجنة الملكية. غير أن النتيجة كانت على العكس فقد تعب العرب من اللجان والخبراء الذين كانت الحكومة تلقي بتقاريرهم الملائمة للعرب في سلة المهملات. وما كان العرب يبغون لجاناً وتقارير جديدة. لقد اكتفوا بلجنة هاكرافت ولجنة شو وببعثة جون هوب سيمسون، ولويس فرنش، الخ... والذي كانوا يريدونه، حكومة تتمتع بالشجاعة والضمير لتنفيذ توصيات تلك

اللجان التي دفعها ضميرها وشجاعتها إلى نقد حكومتها لتجاهلها حقوق العرب وتعزيزها للمصالح الصهيونية فقط. . . أجل. كان العرب يريدون حكومة إنكليزية يجعلها عزمها تقف ضد النفوذ والتأثير والضغط الصهيوني في وطن الشعب الانكليزي. كان العرب يريدون حكومة تقف مع العدل، عدل «القاضي البريطاني» الذي منح انكلترا عظمتها وشهرتها.

أورمزبي غور، نصير الصهيونية، يصبح وزيراً للمستعمرات

لسوء حظ العرب، عينّ المستر أورمزبي غور، نصير الصهيونية المعروف الذي سخر نفسه لمطامع الصهيونية منذ سنة ١٩١٧، وزيراً للمستعمرات في مكان المستر ج. هـ. توماس الذي اضطر لترك الوزارة نتيجة لمؤامرة صهيونية دبرت ضدّه، فأفزع هذا التعيين العرب وأزعجهم لمعرفتهم بغور، ولأنهم أيقنوا أن تعيينه كان تلبية لرغبات الزعماء الصهيونيين. وما كان يعرف أحد إلى أي حدّ يعمل هذا الصهيوني لصالح الصهيونية إلاّ من احتك به من العرب. وأستطيع أن أشهد، وأنا منهم، أني لم أر أحداً من غير اليهود أجهد نفسه في خدمة الصهيونية مثل أورمزبي غور واني أجهل تماماً إن كان هذا الجهد لايمانه بالصهيونية أم كان واسطة للوصول إلى المركز الذي حل فيه. وتقديري أن تحيز أورمزبي غور المفرط للصهيونية لا يمكن أن يكون للمبدأ فقط. !

ظهر الاضراب العام، بعد عدة أسابيع، وكأنه روتين: الحكومة البريطانية، وأورمزبي غور على رأس وزارة المستعمرات، يعارضان إيقاف الهجرة؛ والعرب، دون ايقاف الهجرة لا يستطيعون وقف الاضراب، وهذه هي الكارثة. أصبح اذاً استمرار الاضراب أمراً مؤكداً، بالرغم من الصعوبات والعذاب؛ وبما انه من فعل الشعب وليس من فعل زعيم أو لجنة، فلا أحد يستطيع إنهاءه الاّ الشعب الذي كان في ثورة ضد الحكومة.

وفي آخر أيار (مايو)، كانت فلسطين في حالة حرب باردة. ولم تكن حرباً ضد اليهود، بل ضد الحكومة البريطانية وضد كل ما هو بريطاني. وظهر للعرب وكأن كل الشعب البريطاني هو عدّوهم. لقد استهجن العرب حين هاجم الزعماء والسياسيون الانكليز، الذين كان العرب ينظرون إليهم على أنهم أحسن البشر، كتاب رمزي ماكدونالد الأبيض. وكانوا حتى ذلك الوقت يعتبرون الشعب الانكليزي أعدل الشعوب في العالم لأن محاكمه كانت مثاليه. وعلى كل حال، ظل الكثير منا يعتقد أن الشعب الانكليزي ليس كله بلفور ولا أورمزبي غور ولا بولدوين.

كان بعضنا يرى أنه ليس من الحكمة أن نترك الأمور تجري على هواها دون أن نفعل شيئاً للخروج من الطريق المسدود، وكان كلّ ما يريده العرب، هو إيقاف الهجرة ولو مؤقتاً، وهذا ما فعلته الحكومة البريطانية في مناسبتين سابقتين مشابهتين في لجنة هاكرافت، وبعثة سيمسون. غير أن الحال اختلفت الآن، وتغيير الوضع هو الآن بيد وزير

المستعمرات الجديد، المستر أورمزبي غور، الذي لا يريد تهدئة شعب خائف على كيانه، بل يريد إرهابه حتى «الاستسلام».

بلغ اضطرابي من استبداد الحكومة حدّاً دفعني إلى التفكير بأنه لا يجوز لنا أن ندع هذا الوزير المنحاز دون تحدٍ. وتحدثت في الموضوع مع الحاج أمين الحسيني، رئيس اللجنة العربية العليا ومع جمال الحسيني سكرتيرها؛ ووافق كلاهما على أنه من المفيد إرسال وفد صغير إلى إنكلترا للدفاع عن قضيتنا الحقة أمام الحكومة البريطانية، وأمام الشعب الانكليزي الذي لم يسمع بها من قبل، سيما من الشعب صاحب الحق. وكان علي أن أرى شخصاً آخر، هو شبلي الجمل، الوطني الكبير وعضو أول وفد إلى لندن سنة ١٩٢١. واقترحت عليه أن نسافر على حسابنا، فوافق بكل فرح. وبعد مناقشات مع اللجنة العربية العليا، ذهب وفد من ثلاثة أشخاص هم جمال الحسيني، وشبلي الجمل، وأنا، إلى لندن في العاشر من حزيران (يونيو) ١٩٣٦، أي في اليوم الأربعين من الاضراب الكبير.


الوفد العربي الفلسطيني إلى لندن

الوفد العربي الفلسطيني الرابع في طريقه إلى لندن:

استقلينا القطار إلى يافا ومنها إلى مرسيليا على الباخرة شامبليون ومن ثم في القطار إلى باريس. وهناك التقينا باخواننا أعضاء الوفد السوري في فندق الكونتيننتال، حيث كانوا يفاوضون الحكومة الفرنسية من أجل معاهدة استقلال سوريا. كان رئيس الوفد، هاشم الأتاسي (رئيس الجمهورية فيما بعد) وكان الأعضاء: فارس الخوري (رئيس المجلس النيابي ورئيس الوزارة فيما بعد) وسعد الله الجابري وجميل مردم بك (كلاهما رئيس وزارة فيما بعد) وإدمون حمصي. وكان نعيم أنطاكي سكرتيراً. وقد رافق الوفد، رياض الصلح، وهو زعيم وطني لبناني، بصفته متحمساً للقضية، لا عضواً في الوفد؛ وهذا يدل على أن العرب ما زالوا أمة واحدة.

قضينا يومين في باريس نتبادل الآراء مع اخوتنا السوريين، وشرحنا لهم جدّية الوضع في فلسطين. انبأنا هم أيضاً عن الصعوبات العظيمة التي يواجهونها مع الحكومة

الفرنسية. وبعد الاعتراف بأن لا مجال للمقارنة بين قضيتنا وقضيتهم، قالوا: «إننا لا نعتقد أن الفرنسيين سيتركون سوريا في الحال، لكنهم لن يبقوا فيها إلى الأبد».

استقبلنا في محطة فيكتوريا في لندن كثيرون من العرب ومن أصدقائنا الانكليز الذين كانوا جميعاً بانتظارنا. كما التقينا بعدد من الصحافيين الذين شرحنا لهم الهدف من مجيئنا إلى لندن، وفي اليوم التالي، نشرت عدة صحف في لندن وعلى صفحاتها الأولى بالخط العريض: «جاء العرب» (The Arabs Have Come) مما لفت نظر الكولونيل كليفتون بروان، وهو عضو قديم في مجلس العموم، ورئيس له فيما بعد؛ فدعا هؤلاء «العرب» إلى تناول الشاي معه في يوم لاحق في مجلس العموم، فسررنا جداً لهذه الدعوة التي شجعتنا ورفعت من معنوياتنا كثيراً.

جعلنا إقامتنا في فندق مايلستون في كنزنغتون، وهو فندق صغير خاص محترم أمام حديقة كنزنغتون. واتماماً للتاريخ كانت الاقامة الكاملة في غرفة مفردة فيه سنة ١٩٣٦ تكلف ليرة استرلينية واحدة في اليوم فقط مع الأكل.

كان اليوم التالي لوصولنا يوماً مليئاً بالزيارات ومن بين أصدقائنا العديدين الذين جاؤوا لتحيتنا، علي جودة الأيوبي، الوزير المفوض في البعثة العراقية، والشيخ حافظ وهبة، الوزير المفوض في البعثة العربية السعودية في لندن. ولم تكن، آنئذ، للدول العربية سفارات في لندن، وأولها كانت سفارة مصر سنة ١٩٣٧ حين استقلت مصر وعقدت معاهدة صداقة مع بريطانيا العظمى.

كان لاجتماعاتنا بالوزراء العرب فوائد كثيرة، فقد أبدوا اهتماماً شديداً بمهمتنا. ولدى تبادل الآراء استطعنا أن نضع برنامجاً لحركتنا وجعلونا نحس أننا شعب واحد وأن بعثاتهم هي بعثاتنا.

التقاؤنا بأصدقائنا البريطانيين

أول صديق بريطاني أردنا رؤيته هو اللورد ازلنغتون، الذي قاد، سنة ١٩٢٣، نقاشاً في مجلس اللوردات حث فيه الحكومة على نشر رسائل ماكماهون ـ الحسين، وذهب إلى أن مجلس اللوردات لا يمكنه القبول بالانتداب على فلسطين لأنه يخرق التعهدات التي أعطتها بريطانيا العظمى للعرب سنة ١٩١٦، والتي تضمنتها تلك الرسائل. وربح التصويت ضد الحكومة (٥٠ ضد ٢٩).

أما الأصدقاء الآخرون الذين أردنا الالتقاء بهم فهم الكولونيل نيوكومب الذي حارب مع فيصل بن الحسين ضد الأتراك، والمسز ستيوارت أرسكين التي دافعت عن قضية العرب في كتابها «فلسطين عربية» والمستر هـ. ف. مورتون مؤلف «على خطا السيّد»،

والسيدة مورتون والآنسة فرنسيس نيوتن، التي عاشت أكثر عمرها بيننا في حيفا، والآنسة فاركهارسن سكرتيرة عصبة النساء البريطانيات أو «العصبة الوطنية»، والمستر ج. م. ن. جيفريز، مراسل «الديلي ميل» السابق في الشرق الأوسط، وقد أظهرته مقالاته عن القضية الفلسطينية مثالاً للمحرر الأمين الحرّ. وقد كتب فيما بعد أكثر الكتب تفصيلاً عن القضية الفلسطينية «فلسطين: الحقيقة» سنة ١٩٣٩. وأيضاً اللورد لمنغتون، الذي استجوب الحكومة البريطانية سنة ١٩٢٠ في مجلس اللوردات عمّ إذا كانت استفتت عرب فلسطين في انتدابها عليهم، فإن لم تفعل، وجب تصحيح خطئها قبل أن يصدر صك الانتداب على فلسطين من قبل عصبة الأمم.

لقد أدى هؤلاء الأصدقاء الذين ذكرت اسماءهم خدمة كبيرة لوفدنا: فالصحافة الممالئة للصهيونية لم تنشر أخبارنا، ونادراً ما نشرت لنا رسالة قصيرة تجيب على مقال صهيوني طويل. ولقد ساهم هؤلاء الأصدقاء بنشر بعض المقالات، لأن الصحافة ما كانت تستطيع رفض نشر رسائل البعض منهم. وأكثر من أفادنا منهم كان اللورد لمنغتون، و. هـ. ف. مورتون والكولونيل نيوكومب.

أول زيارة لمجلس العموم

كان اليوم، يوم اللقاء مع عضو البرلمان الكولونيل كليفتون براون على شرفة مجلس العموم. وفي الرابعة بعد الظهر كنا في ردهة مجلس العموم الواسعة أمام مكتب الاستعلامات حيث قدمت لنا بطاقة خضراء ملأناها باسم العضو الذي نرغب برؤيته. وأخذ ضابط بوليس بطاقتنا كي ينبىء مضيفنا بوصولنا. وبعد دقائق قليلة رجع الرسول لينبئنا أن المستر كليفتون براون ليس في المجلس. وألقينا نظرة على بطاقة الدعوة فوجدنا أننا وصلنا في الوقت المحدد. واستغربنا، لكننا لم نستسلم. وانتظرنا خمس عشرة دقيقة، ثم جربنا مرة أخرى ولكن، لدهشتنا رجعت الرسالة بالنتيجة نفسها. وبعد نصف ساعة من الانتظار، مشى إلينا سيد وسألنا بلطف من نكون، فأجبنا: «الوفد العربي من فلسطين». فقال معتذرا: «آسف جداً لجعلكم تنتظرون» ثم قال: «أنا واقف هناك [وأشار باصبعه] منذ خمس وأربعين دقيقة، أنتظر دخول أعضاء الوفد العربي بثيابهم الجميلة الملونة، إلى البناء لأرحب بهم في المدخل... أرجوكم تفضلوا...»، وكرر اعتذاره.

كان اجتماعنا مع الكولونيل كليفتون براون ناجحاً، اجتماعياً وسياسياً، فقد عرّفنا على مجموعة من النواب أسست، فيما بعد، اللجنة البرلمانية المناصرة للعرب التي سوف أتحدث طويلاً عن إنجازاتها في الفصل القادم.

أول إجتماع لنا مع وزير المستعمرات

لم ننس بالطبع الرجل الذي جئنا خصيصاً لنراه ــ وزير المستعمرات، المستر أورمزبي

غور. لم نجد أية صعوبة في تحديد موعد معه، ولم يكن اجتماعنا الأول معه وديـاً. فقد أحسسنا أنه عزم على أن لا يتأثر بحججنا، قال: «إن الحكومة البريطانية لا تخضع للتهديد. ولن تستسلم الأمبراطورية البريطانية للقوة». فاجتهدنا أن نقنعه بأن الاضراب العام لم يكن تهديداً للأمبراطورية البريطانية بل تعبيراً عن خوف وقلق من حالة نحس أنها تشكل خطراً علينا. إن أعداد المهاجرين اليهود الخيالية (٤٢٠٠٠) دخلوا فلسطين سنة ١٩٣٤ وبعدها (٦١٠٠٠) عدا عن الذين دخلوا بصورة غير شرعية سنة ١٩٣٥، تكفي لإرعاب شعب المملكة المتحدة، فكيف بأقل من مليون من العرب الفلسطينيين. وقلنا: «إلى ماذا يحتاج الشعب الخائف؟ إنه بحاجة لتهدئة وأنتم ترسلون آلافاً من الجنود كي يطلقوا علينا النار. والبندقية لا تهدىء روع الخائف»!!

بدا لنا أن لا شيء يحرك قلب أورمزبي غور الذي ألح علينا أن ننهي الاضراب أولاً وبعد ذ لك ــ بعد ذلك فقط ــ تذهب اللجنة الملكية إلى فلسطين. وقال: «أما موضوع إيقاف الهجرة اليهودية فلا مجال للبحث فيه».

كان النقاش معه حول أي موضوع من مواضيع القضية الفلسطينية عبثاً لأن عقل أورمزبي غور كان مغلقاً في وجه كل ما هو عربي. كان لا يريد أي حوار عن رسائل مكماهون ــ الحسين، وقال أنه لم يطلع عليها أبداً. واتخذ الموقف نفسه الذي اتخذه ونستون تشرتشل قبل أربعة عشر عاماً مع أول وفد لنا إلى لندن، وكان كلما أردنا البحث في موضوع، يقول: «سوف تنظر في هذا الأمر اللجنة الملكية، عندما تذهب إلى فلسطين»؛ طريقة جيدة للتخلص منا!

وفي نهاية الاجتماع، اصطنع وزير المستعمرات لهجة أكثر وداً، وسألنا إن كنا مسرورين بوجودنا في لندن، وكم من الوقت سوف نبقى فيها. وقال أنه يسرّه أن يرانا ثانية.

بيان الوفد العربي الفلسطيني

كانت رحلتنا إلى المملكة المتحدة مفاجأة فرضها الإضراب العام في فلسطين، فكان وفدنا خلواً من أية نشرات يوزعها على الشعب البريطاني. وكنا نعقد اجتماعاتنا في مكتب عصبة النساء البريطانيات في بارك لين لأن سكرتيرته، المس فاركهارسن كانت واهبة نفسها لقضية فلسطين العربية جاعلة من مكتب العصبة، مكتباً لنا هناك؛ فكتبنا ذات يوم بياناً على شكل كتيب من إحدى عشرة صفحة تحت عنوان: «قضية فلسطين ــ بيان من الوفد العربي الفلسطيني». صدر في الأول من تموز (يوليو) ١٩٣٦.

كان هذا الكتيّب، حسب ما نعلم، أول وثيقة تنشر عن قضية فلسطين في المملكة المتحدة؛ وهذا اعتراف صريح بتخلفنا في حقل الإعلام والدعاية الهام. وأقرّ أيضاً بأنه كان خطأ من الشعب العربي الفلسطيني الاعتماد فقط على حقه الطبيعي في وطنه الذي لا جدال فيه، وعلى ميثاق عصبة الأمم الذي نص على حقه في تقرير مصيره، وأنه آمن أكثر مما ينبغي بوعود الحكومة البريطانية كما هي في رسائل مكماهون ـ الحسين وبالبيان الفرنسي ـ الإنكليزي في السابع من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٨ وهو البيان الذي أذيع قبل الهدنة بأربعة أيام فقط. لقد كان إيمانه كاملاً بالحلفاء وبالولايات المتحدة الأميركية وقدسية كلمتهم، وقد آمن بوعودهم لأنه طيب القلب، صدوق.

قضيتنا العادلة في إحدى عشرة صفحة

ما كان من الضروري كتابة أكثر من إحدى عشرة صفحة في كتيّبنا كي نشرح قضيتنا العادلة للرأي العام البريطاني، فهي قضية حق واضحة ولا ضرورة لنا بالعودة إلى ألفي سنة اتصال بفلسطين، فنحن في فلسطين وجذورنا ممتدة فيها منذ أربعة آلاف سنة. ولم نكن بحاجة لوعد من بلفور أو من أي «طاغية» آخر. لكننا، وللأسف، لم نكن شعباً تُرك وشأنه، ليعيش بسلام. فجاءت دولة كبرى تنتزع كياننا وتشرّدنا. ومن أجل شرح قضيتنا، بحث الكتيب النقاط التالية: ١ ـ حقوقنا الطبيعية. ٢ ـ الوعد بالاستقلال في رسائل مكماهون ـ الحسين. ٣ ـ الوعد بالاستقلال في البيان الإنكليزي ـ الفرنسي في السابع من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٨. ٤ ـ حق تقرير المصير في ميثاق عصبة الأمم. ٥ ـ اللاشرعية والتناقض الموجودان في وعد بلفور. ٦ ـ سياسة الحكومة الظالمة للعرب فيما يتعلق بالهجرة اليهودية وبيع الأراضي، كما جاء في تقرير لجنة شو، وفي تقريري السير جون هوب سيمسون ولويس فرنش. ٧ ـ العرب الذين أصبحوا بلا أرض. ٨ ـ مطالب العرب.

لقد ربحنا بنشر هذا الكتيب عدداً من الأنصار الذين أصبحوا يهتمون بقضيتنا. وقد وضح هذا الاهتمام في طلبهم إلينا الكلام في المؤسسات المختلفة، والمدارس والكليات. وجاءتنا دعوات من أعضاء مجلس العموم لنخطب في جماعات منهم يريدون مزيداً من المعرفة عن القضية الفلسطينية. وكان أكثر الأعضاء اهتماماً بالقضية الفلسطينية اللورد دونترتون، اللورد لامنغتون، الكولونيل كليفتون براون، السير أرنست بنيت، أنتوني كروسلي، المستر بكثورن والكولونيل نيوكمب.

كانت جريدة «المانشستر غارديان» أكثر الصحف الرائجة في المملكة المتحدة ممالأة لليهود. وكنا كلما قرأناها يفور دمنا، فعزمنا على الذهاب إلى مانشستر، حيث تصدر تلك الصحيفة لمقابلة محرّرها المستر سكوت. وهناك اجتمعنا به اجتماعاً طويلاً وأبدينا له أسفنا

وتذمرنا من صحيفته. كان المستر سكوت زميلاً للدكتور وايزمان في جامعة مانشستر ومن هنا جاءت مناصرته للصهيونية.

محاولة صهيونية رخيصة

تلقى وفدنا ذات صباح هاتفاً، فأجبت عليه. كانت سيدة ادعت أنها مديرة مدرسة بنات كبيرة، تطلب من الوفد كله أن يتحدث إلى بنات المدرسة عن قضية فلسطين. وشدّدت على ذهاب الأعضاء الأربعة (لحق بنا، في ذلك الوقت، زميلنا إميل الغوري) إلى المدرسة فاعترضت واقترحت ذهاب أحدنا، فألحت قائلة: «لا، أرجوك. نريدكم جميعاً والأمر هام» فوافقت. وبعد أن حددنا الزمان والمكان، أخذت العنوان، وعجبت حين اكتشفت، أن تلك المدرسة تقع في ارقى نواحي لندن، ملاصقة للغروفنر هاوس مقابل هايد بارك.

جئنا في الموعد المحدد، حتى إذا دخلنا البناء الفخم الذي ما كان يدل على أنه مدرسة. دخلنا عبر درج إلى غرفة استقبال كبيرة جميلة التقينا فيها بفتاة جميلة استقبلتنا بحرارة ثم قادتنا إلى أختها الكبرى التي كانت مثلها في الجمال. وبعد برهة، جعلنا الأثاث الفخم والصالون الفني الصامت واللوحات الثمينة المعلقة على الجدران، نشك في أننا في غرفة استقبال مدرسة. وقبل أن نعرف أين نحن، التقينا برجل رحب بنا بالعربية مما أدهشنا، وتأكدنا حالاً أننا وقعنا في فخ، وأن هنالك مؤامرة من نوع ما أعدت لتلغم مهمتنا في إنكلترا.

قدم الرجل نفسه بأنه يهودي عراقي عرف فيصلاً، ونوري السعيد، وتوفيق السويدي، وأخاه ناجي وكثيراً منَ وجوه العراق وأنه كان صديقاً كبيراً لفيصل وللعرب. وبعد أن أرانا بعض صور للملك فيصل ولزعماء عراقيين آخرين، قال لنا إنه نظراً لصداقته مع العرب، يريد أن يحلّ السلام بين العرب واليهود في فلسطين. وأراد منا أن نلتقي بالدكتور حاييم وايزمان، الذي كان قريباً منه، كي نتباحث معه في الخلافات بين الشعبين، لعلنا نصل إلى تفاهم.

فوجئنا جميعاً لما سمعنا أن الدكتور وايزمان قريب منا وأنه ربما كان ينتظرنا في الغرفة الملاصقة مستعداً للدخول علينا والتحدث معنا. والذي لا شك فيه أن صورة لوفدنا مع الدكتور وايزمان في اليوم التالي تظهر في «التايمز» لتنهينا سياسياً، وتنتهي مهمة وفدنا. فامتعضنا في غضب من الأسلوب الرخيص الذي اختاروه للقاء بنا. ورفضنا بخشونة الاجتماع بالدكتور وايزمن، وهددنا، بأنه إذا ظهر بيننا، سيكون ما لا يمكن حسبانه، ولا ندري ماذا يمكن أن نفعل. حُمل تهديدنا على محمل الجد، فبدأ يعتذر، مؤكداً لنا أنه لن يدعو الدكتور وايزمن إلا إذا أردنا الاجتماع به. وأخذت الفتاتان تعتذران أيضاً،

وتجربان إقناعنا بقصدهم الطيب. وترجواننا أن ننسى ما حصل، لكننا لم ننس أبداً ذلك الحادث الغريب.

مهمة ناجحة

بلغ مؤيدونا عدداً هاماً الآن، وكان عدد منهم نشيطاً جداً فاستغلوا وجودنا وصاروا يوجهون لنا الدعوات للكلام في الاجتماعات التي كانوا يرتبونها. وذات يوم من آب (أغسطس)، استأجر أصدقاؤنا البريطانيون قاعة كبرى في فندق هايد بارك ودعوا أكثر من خمسمئة من الشخصيات السياسية والاجتماعية لحضور اجتماع تكلم فيه كل منا عن وجه معين من القضية. ولقد تبيّنّا مما طرح علينا من أسئلة، أن القضية الفلسطينية قد أرست جذوراً لأول مرة في لندن وأصبح من واجبنا المقدس تغذية تلك الجذور.

لقد استطعنا خلال الأشهر الأربعة التي أقمناها في المملكة المتحدة أن ننجز:

١ ــ تأليف لجنة برلمانية هدفها دعم قضية فلسطين العربية داخل البرلمان وخارجه.

٢ ــ فتح مكتب عربي في لندن: «المركز العربي».

اللجنة البرلمانية المناصرة للعرب

تألفت اللجنة البرلمانية من أعضاء البرلمان المهتمين بقضية فلسطين العربية. فقد كان فشل من فشل الحكومة سنة **١٩٣٥** في موافقة المجلسين، العموم واللوردات، لتأسيس المجلس التشريعي الذي وعدت به الحكومة، للشعب الفلسطيني، أن دفع عددا من الأعضاء المحافظين في البرلمان إلى تكوين لجنة مناصرة للعرب لمجابهة الضغط الصهيوني. وانتخب اللورد ونترتون، صديق الملك فيصل، رئيساً لها وأنتوني كروسلي، سكرتيراً؛ وكان من أعضائها الكولونيل كليفتون براون، والسير أرنست بينيت وكنيث بكثورن، ودوغلاس ريد، وهم من كبار أعضاء مجلس العموم. وقد بلغ عدد أعضائها الستين عضواً.


اللورد ونترتون

المركز العربي

كان الرأي العام الإنكليزي بحاجة قصوى إلى معلومات عن القضية الفلسطينية، ولهذا، اعتمدنا تأسيس مكتب في لندن للمعلومات ليتابع ما بدأنا به من أعمال في هذا الحقل؛ ولإتمام هذا العمل، عقدنا اجتماعاً في بيت السيد والسيدة مورتون حيث اشترك معنا حوالي عشرة من أصدقائنا البريطانيين، واتخذنا القرار بإنشاء المركز.

ووضعنا مخططاً موجزاً للمكتب الذي نريد تأسيسه، وتركنا التفاصيل، بسبب قرب موعد عودتنا إلى الوطن، للجنة مؤلفة من السيد والسيدة مورتون، والكولونيل نيوكومب والمس نيوتون، والمسز أرسكين وموسى الحسيني. ومن أجل التأكيد لأصدقائنا على جدّيتنا في الموضوع، وعدتهم أن أعود إلى لندن كي آخذ على عاتقي مسؤولية المكتب.


هـ. ف. مورتون

ولم يكن نجاحنا في المملكة المتحدة كاملاً. فنحن لم نتوصل إلى هدفنا الأساسي، وهو إيقاف الهجرة اليهودية، ولو مؤقتاً؛ ولكن هذا لا يعني أننا لم نحاول. وما السبب في عدم نجاحنا، إلا عدم عدالة الحكومة البريطانية وتحيز وزير المستعمرات، أورمزبي غور، الذي بقي في اجتماعينا الثاني والثالث معه في مكتبه بوزارة المستعمرات على عناده، وما من حق أو حجة أو منطق استطاع التخفيف من عدائه للعرب؛ وكيف النجاح وهو الخصم والحكم في آن واحد.

سقوط أورمزبي غور

لم يكن العرب وحدهم منتقدي أورمزبي غور، فبعد نقله إلى مجلس اللوردات، كتبت جريدة «الأيفننغ ستاندرد» افتتاحية يوم السابع عشر من أيار (مايو) سنة ١٩٣٨، تقول فيها: «إن ذهاب اللورد هارلخ (أورمزبي غور سابقاً) كان مفيداً لوزارة المستعمرات وربحاً لإدارة المستر تشمبرلين، لأن أورمزبي غور لا يملك القدرة التي كانت تحتاجها القضايا التي كانت تواجهه؛ والمستر ماكدونلد هو أفضل منه بكثير لهذا المنصب».

«لقد كان أورمزبي غور يواجه قضيتين: قضية فلسطين وقضية المستعمرات الألمانية السابقة التي كانت تحت إشرافنا. وما كان ينبغي أن تكون هاتان القضيتان من قضايانا فلنتخلص منها بأسرع ما نستطيع».

زيارة قصر البلدية ومرصد غرينتش

يطيب لي أن أروي حكاية زيارتين من الزيارات الرسمية العديدة التي دُعينا إليها في

إنكلترا. الأولى جاءتنا من اللورد ماير (Lord Mayor) كي نشاهد قصر البلدية هناك قادنا أحد الموظفين في دورة فأرانا البناء الجميل الذي هو أثر بارز في قلب مدينة لندن القديمة. وبعدها قدمت إلينا المرطبات، ثم سررنا بالتعرف إلى اللورد ماير.

أما الثانية، فكانت زيارة مرصد غرينتش (توقيت غرينتش). درنسا أيضاً حوله برفقة موظف، أخذنا بعد ذلك إلى «قبة التليسكوب» حيث تلطف الفلكي المداوم فألقى علينا محاضرة قصيرة بدأها بقوله: «العرب هم أول شعب استخدم التليسكوب». وما كاد يُنهي الجملة حتى صحنا معاً: «نحن عرب؛ إنهم أجدادنا».

عدنا على الباخرة كوثر

دعانا في مطلع أيلول (سبتمبر) إلى الغداء، طلعت حرب باشا، في فندق هايد بارك، وهو صناعي واقتصادي مصري كبير، عمل أكثر من أي مصري آخر من أجل صناعة مصر واقتصادها وتجارتها ونقلها البحري. وتخللت دعوته محادثة بيننا عن شعور الأخوة الذي بدأ يقوى بين شعب فلسطين والشعب المصري وكانا معاً تحت السيادة الإنكليزية. وتقديراً منه لجهدنا، تلطف فقدّم لنا بطاقات سفر على الباخرة المصرية كوثر (حمولتها ١٢٠٠٠ طن) من مرسيليا إلى الإسكندرية. فتقبلناها بالشكر العميق لكياسته وكرمه.

صار لنا عدد من الصداقات العديدة في إنكلترا حتى أصبح وداع جميعها أمراً صعباً جداً. كنا في منتصف أيلول (سبتمبر) وقد خاب أملنا حين فشلنا مع وزارة المستعمرات، ولكن كان عزاؤنا النتائج الطيبة الأخرى التي حققناها وهي أكثر مما ذكرنا على هذه الصفحات القليلة. أما أنا، فقد عزمت على العودة إلى لندن لأعمل في المركز العربي ولأسد الفراغ في حقل الإعلام والدعاية العربية.

أعطينا في «كوثر» قمرات خاصة وعوملنا معاملة الملوك لأننا كنا ضيوف «الريّس» طلعت حرب باشا. وكانت رحلتنا ممتعة لأننا سافرنا للمرة الأولى على باخرة عربية، كانت اللغة العربية فيها لغة البحارة. وكانت صلاة الجمعة تؤدى على ظهر الباخرة فيؤمها القبطان نفسه.

وعند وصولنا إلى محطة القطار في القدس، جاء آلاف الناس لاستقبالنا والترحيب بعودتنا. وكان الإضراب لا يزال مستمراً لأن الهجرة اليهودية لم تتوقف. ولقد سمحت الحكومة، كي تغيظ العرب، بدخول ٤٥٠٠ مهاجر يهودي إلى فلسطين في الثامن من آيار (مايو) وهو الشهر الثاني للإضراب. فكان هذا السماح تحدياً غير حكيم. وكان الشعب في لهفة لمعرفة مدى نجاحنا في مهمتنا. كان الشعب يريد نجاحاً فورياً ينهي الإضراب مباشرة ــ وهو الشيء الذي لم ننجح في الحصول عليه. أما نجاحاتنا الأخرى، فما كان

الشعب ليهتم بها في تلك الفترة الحاسمة؛ لقد كان أمراً محرجاً. . ترى هل يهزأ بنا الشعب لأننا فشلنا مع أورمزبي غور؟ وكانت فترة انتظار. غير أن إدراك شعبنا وطبعه النبيل كانا عظيمين، لأن الترحاب الذي تلقيناه في الاستقبال الذي أقيم على شرفنا في المجلس الإسلامي الأعلى، لم يكن عزاء لنا فحسب، وإنما لكل شعبنا المجاهد.

أحداث هامة خلال الإضراب

١ ـ جماعات مسلحة بقيادة القاوقجي

خلال أربعة أشهر من غيابنا في المملكة المتحدة، حدثت أحداث هامة، فقد قامت جماعات عربية من عدة آلاف نظمها وقادها ضابط سابق في الجيش السوري من طرابلس (لبنان)، هو فوزي القاوقجي، تهدد القوات البريطانية، التي ازدادت عدداً. كانت الثورة العربية وشيكة والصدام لا شك في وقوعه. وارتفع التوتر إلى درجة جدّ عالية، وما منع الاصطدام إلا ـ لحسن الحظ ـ انتهاء الإضراب وإعلان العفو عن جميع المسلحين، شرط أن يتفرّقوا.



القائد فوزي القاوقجي يراقب جيشاً من المتطوعين العرب

٢ ـ مذكرة من الموظفين العرب الكبار (Senior Officials) إلى المندوب السامي

في الثلاثين من حزيران (يونيو) سنة ١٩٣٦، تقدّم الموظفون العرب الكبار في

الحكومة بمذكرة إلى المندوب السامي، يدينون فيها سياسة الحكومة في فلسطين، ويؤكدون فيها أن عدم ثقة العرب بالحكومة له ما يبرره وأنه لا بد من التغيير في سياسة الحكومة حتى يسود العدل والسلام في فلسطين.

وتقدم الموظفون العرب الأحداث (Juniors) أيضاً بمذكرة مماثلة للمندوب السامي وثالثة تقدّم بها قضاة المحاكم الشرعية. كانت المذكرات جميعاً تحوي النقد نفسه وتطالب أيضاً بتغيير السياسة.

ولما كانت هذه المذكرات من الموظفين هي الأولى من نوعها، فإن مثل هذا الاحتجاج يُعدّ بنظر الحكومة، عصياناً مدنياً يعاقب عليه الموظف بالطرد من الخدمة. وعلى هذا، اهتزت حكومة الانتداب جديّاً وعجبت من الشجاعة النادرة التي أبداها الموظفون العرب الوطنيون من كل المراتب.

٣ ـ التهديم في يافا ـ محاكمة ضد المندوب السامي

وحدث أمر آخر في غاية الأهمية في مدينة يافا خلال الإضراب العام، إذ لما ازدادت الاضطرابات، أخذ المناضلون العرب يلتجئون إلى الأحياء المكتظة بالسكان في المدن حيث يصعب وصول الجنود إليهم. فكان من الضروري إذاً هدم تلك المخابىء لتسهيل التحركات العسكرية. وبحسب مرسوم سنة ١٩٣١ الذي يعطي للمندوب السامي صلاحيات خاصة بالدفاع، أصدر أمراً لسلاح المهندسين الملكي في فلسطين، بهدم مدينة يافا القديمة، وعليه أذاعت الحكومة إنذاراً للسكان، وكلهم من العرب، لإخلاء الحي، قبل بدء الهدم. وهدم المهندسون ٢٢٠ بيتاً فغدا ستة آلاف عربي بلا مأوى، كما هدموا ٨٢٥ كوخاً خشبياً كان يسكنها أكثر من أربعة آلاف عربي. تجاه هذا العمل، قدمت وزارة المستعمرات، بياناً إلى مجلس العموم قالت فيه أن الهدم جرى لتنمية المدينة، ولتجميلها، وأن الحكومة استغلت وجود سلاح المهندسين الملكي في فلسطين لفتح شوارع تحسّن وتجمل مدينة يافا.

استغرب الفلسطينيون هذا البيان المزيف، فالبلاد كلها كانت تعرف أن القصد من الهدم كان عسكرياً لا مدنياً وأذهلهم كذب الوزير.

إن شقاء الذين أصبحوا بلا مأوى، ولم يمنحوا ما يكفيهم من وقت لإنقاذ ما يملكون، أغاظ وأهاج السكان العرب مما دفع بأحد المتضررين إلى رفع دعوى ضد المندوب السامي في المحكمة العليا. واستمع قاضي القضاة، السير مايكل ماكدونل والقضاة المساعدون، إلى القضية وأصدر حكمًا جاء فيه: «لقد قدم المستدعي خدمة عامة حين عرض ما أنا ملزم بتسميته نقصاً بالشجاعة الأخلاقية التي أظهرته الإدارة في كل هذه المسألة...» وأضاف: «إنه كان أفضل للحكومة لو قالت بصراحة وصدق إن القصد من الهدم هو عسكري من

أجل وصول قوات الجيش إلى حي المدينة المكتظ بالسكان!»

هذا الحكم الشجاع النزيه رفع سمعة القاضي الإنكليزي إلى النجوم ووصم بالعار الإدارة البريطانية السيئة السمعة.

٤ – وفود فلسطينية عند الأمير عبد الله لحل الأزمة

كاد ينتهي أيلول (سبتمبر) دون أن تحل أزمة الإضراب. وقد كان الأمير عبد الله دعا الزعماء العرب إلى عمان كي يناقشهم في طريقة للخروج من تلك الأزمة. وقد أنبأني عيسى العيسى، صاحب جريدة فلسطين، الصادرة في يافا، أن خمسين سيارة محملة بالزعماء اجتمعت في القصر. صارح الأمير ضيوفه بقوله أن وساطته مع الحكومة البريطانية فشلت ثم قال، على ما رواه عيسى العيسى: «ماذا أستطيع أن أصنع من أجلكم، فعلت ما استطعت وفشلت، وأنا لا سلطة لي حتى ولا على الكرسي الذي أجلس عليه».

ثم أتى نوري باشا السعيد، وزير خارجية العراق، إلى فلسطين في أواخر آب (أغسطس) كوسيط. فلم تقبل أيضاً الحكومة البريطانية بعرضه الذي لم يعلنه، فرجع إلى بغداد غير أنه أخذت له صورة مع أعضاء اللجنة العربية العليا ذكرى لزيارته.



اللجنة العربية العليا مع نوري السعيد

٥ ـ نداء الملوك العرب إلى شعب فلسطين العربي

اللجنة العربية العليا توقف الإضراب

دخل الإضراب، شهره السادس في تشرين الأول (أكتوبر)، فكان أطول إضراب في تاريخ الأمم. كان العذاب الذي احتمله شعب فلسطين العربي أليمًا، وما زال العشرات من زعمائنا يقاسون في معسكرات الاعتقال. وسقط العديد من شبابنا شهداء دون ذنب سوى حمل السلاح لإنقاذ الوطن. وأصيبت الأعمال بضرر بالغ، غير أن الشعب تجلّد لهذه النكبات وعزم على الصمود حتى النهاية؛ وحانت تلك النهاية، لا على يد البريطانيين، وإنما على يد ملوك العرب الذين كانوا على اتصال دائم مع اللجنة العربية العليا. وقد أذاع الملوك والأمير عبد الله «نداء» إلى شعب فلسطين العربي هذا نصه:

عن طريق رئيس اللجنة العربية العليا، إلى ابنائنا عرب فلسطين.

«لقد آلمتنا الحالة الراهنة في فلسطين. ولهذا السبب، اتفقنا مع إخواننا الملوك والأمير لأن ندعوكم إلى إقرار السلم من أجل إيقاف إراقة الدماء. وبهذا العمل نعتمد على حسن نوايا صديقتنا بريطانيا العظمى التي أعلنت أنها سوف تحقق العدالة. ويجب أن تثقوا بأننا سوف نتابع جهودنا لمساعدتكم».

وفي الحادي عشر من تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٣٦ أذاعت الهيئة العربية العليا نداء الملوك والأمير إلى شعب فلسطين، ثم أذاعت، بعد التنسيق، بياناً تعلن فيه أنها عزمت على التجاوب مع الدعوة الكريمة لصاحبي الجلالة، الملك عبد العزيز ابن سعود ملك العربية السعودية والملك غازي، ملك العراق، وسمو الأمير عبد الله، أمير شرق الأردن. ودعت اللجنة أيضاً الشعب الكريم إلى إيقاف الشغب، والعودة إلى العمل في الثاني عشر من تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٣٦، وأن يجتمعوا في الصباح الباكر، قبل استئناف العمل في الجوامع والكنائس شاكرين الله العلي القدير على نعمه. وانتهى البيان بامتداح اللجنة لشعب فلسطين العربي الكريم، مثنياً عليه، لصبره واحتماله ووطنيته.

في أعقاب الإضراب الشامل

كان ابتهاج الشعب العربي الفلسطيني عظيمًا حين استأنف العمل بعد ستة أشهر من الإضراب الشامل. وكان الإضراب في جوهره، ثورة ضد الظلم والاستبداد والإرهاب البريطاني، وكان بالرغم من أضراره الطبيعية والمادية، ذا قيمة روحية عظيمة. فقد كان امتحاناً، للاحتمال العربي، والتعاون والوطنية.

كان عدد القتلى والجرحى كبيراً خلال الاضطرابات. كان حسب ما جاء في «مسح فلسطين لسنة ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦» (Survey of Palestine 1945 — 1946)، كما يلي:

	قتلى	جرحى
قوات الدفاع (قوات الحدود الأردنية)	٢١	١٠٤
المناضلون العرب	١٩٥	٨٠٤
يهود	٨٠	٣٠٨
مسيحيون من غير العرب	٢	١٩

غير أن التقديرات كانت تشير إلى أبعد من هذه الأرقام، فقد جاء في «مسح فلسطين سنة ١٩٤٥ ــ ١٩٤٦» أن عدد القتلى من المناضلين العرب كان يفوق الألف.

الفصل السادس عشر

لجنة (بيل) الملكية للتحقيق في فلسطين
الحاج أمين الحسيني يقدم شهادة الهيئة العربية العليا أمام اللجنة
انحياز لجنة التحقيق الملكية لليهود

أعلن المستر توماس، وزير المستعمرات، في مجلس العموم، من أجل تهدئة العرب أثناء إضرابهم الشامل، أن الحكومة قررت إرسال لجنة ملكية إلى فلسطين لتحقق في أسباب الاضطراب حالما يسود الأمن. غير أن هذا الإعلان لم يؤد إلى أية نتيجة. فعمد الوزير في التاسع والعشرين من تموز (يوليو) ١٩٣٦، إلى نشر أسماء أعضاء اللجنة وصلاحياتها للغاية نفسها:

اللورد بيل: رئيساً؛ السير هوراس رامبولد، نائباً للرئيس؛ السير لوريس هاموند؛ السير هارولد موريس؛ الأستاذ ريجينالد كوبلاند، أعضاء؛ والمستر ج. م. مارتن: سكرتيراً.

توقف الاضراب في ١١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٦ وغادرت اللجنة الملكية إلى فلسطين في الخامس من تشرين الثاني (نوفمبر). وفي اليوم نفسه أعلن وزير المستعمرات الجديد، المستر اورمزبي غور، في مجلس العموم قائلاً إن تعليق الهجرة اليهودية خلال تحقيق اللجنة لا يمكن تنفيذه اقتصادياً أو لأي سبب آخر. فكان لهذا الاعلان المقصود وقع سيء على العرب، لأنه أفسد الغاية التي قام اضرابهم الطويل لأجلها. وعليه، قررت اللجنة العربية العليا مقاطعة اللجنة الملكية.

وعلى الرغم من مقاطعة العرب لها، قامت اللجنة بتحقيقها وبدأت مهمتها بالاستماع إلى شهادات اليهود والانكليز. وبعد انقضاء شهرين ـ أي في أوائل كانون الثاني (يناير) ١٩٣٧، تلقت اللجنة العربية العليا نداءات من الملك عبد العزيز بن سعود، ملك العربية السعودية، ومن الملك غازي، ملك العراق، ومن الأمير عبد الله، أمير شرق الأردن، يهيبون فيها باللجنة أن تدلي بشهادتها، وما كان منها إلاّ أن وافقت على النصيحة الملكية.

دامت الشهادة أمام اللجنة الملكية أسبوعاً واحداً فقط وأول عربي أدلى بشهادته أمامها كان الحاج أمين الحسيني، المفتي الأكبر ورئيس الهيئة العربية العليا. ولقد تضمنت شهادته، باختصار، المطالب التي طالما كررها العرب منذ ١٩١٨ حيث قال: «إن هدف حركتنا الوطنية

هو الاستقلال، ونحن نرفض الاعتراف بوعد بلفور، ونرفض الاعتراف بصحة الوطن القومي اليهودي في بلادنا». واحتج بشدة على الهجرة اليهودية التي وصلت إلى أرقام خيالية في سنتي ١٩٣٤ و١٩٣٥، وضد بيع الأراضي العربية إلى المستعمرين اليهود وما نجم عنه من خلق المشكلة الجديدة: مشكلة «العرب بلا أرض». وانتهى من بيانه بطلب استقلال شعب فلسطين، فذلك حقه الطبيعي الذي لا يمس، الحق الذي اعترفت به الحكومة البريطانية في رسائل مكماهون ــ الحسين سنة ١٩١٥ ــ ١٩١٦.

حضرت شهادة الحاج أمين الحسيني أمام اللجنة الملكية، فأعطتني اللجنة الملكية انطباعاً بأن جوّ التحقيق كان يختلف تماماً عن الجو الذي كان عليه في لجنة شو ١٩٢٩. ظهر لي اللورد بيل وكأنه جالس على كرسي القضاء، وقد عزم على محاكمة العرب لجرأتهم على تحدّي سياسة الأمبراطوريةالبريطانية الامبريالية. كان وكأنه يقول، لقد وعدت أكبر أمبراطورية عرفها التاريخ بوطن قومي لليهود في فلسطين ــ فمن أنتم، يا حفنة العرب من فلسطين، حتى تعارضونها؟ وبما أننا أعطينا هذا الوعد، فقد غدا أوتوماتيكياً من حق الشعب اليهودي أن يذهب إلى فلسطين ويعيش فيها، وبالتالي، أصبح الخلاف في فلسطين، بنظر اللورد بيل وبنظر اللجنة، حقاً ضد حق. ومن هذا المنطلق قامت اللجنة الملكية بتحقيقها وهو منطلق خاطىء وباطل.

وأكثر من ذلك، فقد أعطاني اللورد بيل انطباعاً، بأنه يرى، أن الحاج أمين الحسيني هو المحرض الأساسي للثورة. و أظن أنه كان يعتقد أيضاً، أن الشعب الفلسطيني ما كان ليثور لولا الحاج أمين. غير أنه كان على خطأ في ذلك لأن الشعب العربي الفلسطيني ابتدأ ثورته قبل أن يصبح الحاج أمين رئيساً اللجنة العربية العليا. ثم لأن الطريقة التي كان يسأل فيها اللود بيل محاوراً المفتي الأكبر، دلت على أن اللجنة كانت متخمة بالمعلومات الصهيونية الخاطئة عن القائد العربي وعن كل العرب في فلسطين؛ وكان التأثير الصهيوني ظاهراً عليها. وجدير بالقول أنه في سنة ١٩٢٣، يوم النقاش حول رسائل ماكماهون ــ الحسين وإعلانها في مجلس اللوردات، كان اللورد بيل، من التسعة والعشرين الذين صوتوا مع الحكومة، ولم يكن مع الخمسين الذين صوتوا مع نشر الرسائل. ولا شك أن المستر أورمزبي غور كان يعرف هذه الحقيقة حين أرسله رئيساً للجنة الملكية.

وعندما أدلى المطران حجار، مطران الروم الكاثوليك لجنوب لبنان وفلسطين، بشهادته، ذهل اللورد بيل لما سمع زعيمًا دينياً مسيحياً ينتقد ويذم الحكومة البريطانية بمثل هذه القسوة. قال المطران: «إن الظلم الذي لحق بالمسيحين في الأرض المقدسة هو أكثر جدّية. لقد تردّى وضع الطائفة المسيحية، بسبب الهجرة اليهودية المتدفقة إلى فلسطين، إلى الدرجة الثالثة من حيث الأهمية، فقد فقدت عدداً كبيراً من المراكز العليا للموظفين



المطران حجار، مطران الجليل

المسيحيين في الحكومة والمراكز العليا في البلديات لمصلحة المهاجرين اليهود». وأعطى مثلاً على ذلك: «كان نائب رئيس بلدية حيفا دائماً مسيحياً، فصار يهودياً، وإذا استمرت الهجرة اليهودية على هذا المعدل، سينزل مستوى الطائفة العربية المسيحية إلى منزلة الاضمحلال».

أغضبت شهادة المطران حجار اللجنة الملكية. ويظهر أن أعضاءها لم يكونوا عارفين بالتعاون الاسلامي المسيحي في فلسطين وبأن الطائفة المسيحية ربما كانت أشد من الطائفة الاسلامية غضباً على الحكومة المسيحية المستبدة في فلسطين. والحق، أنه يؤلمني أن أقول، اننا معشر المسيحيين الفلسطينيين، كنا خلال فترة الثلاثين سنة من الانتداب البريطاني، نخجل، لا من المسيحية النبيلة، بل من الأمم المسيحية المحتلة التي جاءت لتخلص العرب من حكم الأتراك فعاملتهم، وبخاصة أهل فلسطين، معاملة أسوأ بكثير من معاملة الأتراك لهم.

اللجنة الملكية تعود إلى لندن

بعد أن استمعت اللجنة إلى عدد قليل آخر من الشهود العرب، رجعت إلى لندن في أوائل كانون الثاني (يناير) ١٩٣٧، لكتابة تقريرها، غير أن العرب الفلسطينيين لم يتوقعوا ولم يستطيعوا أن يتوقعوا تقريراً ملائماً لهم؛ نظراً للطريقة التي سلكتها اللجنة في تحقيقها. وعلى ذلك، ظل الجو في فلسطين متوتراً بانتظار عاصفة أخرى.

الفصل السابع عشر

المكتب العربي في لندن ــ مركز شبه رسمي
«اللجنة البرلمانية لمساعدة العرب» تدعم المكتب
رسالة إلى الجالية العربية (الرابطة الوطنية) في الولايات المتحدة
أمين الريحاني، المجاهد العربي

بعد أن انتهت الشهادات العربية أمام اللجنة الملكية، سافرت إلى لندن كي أدير المركز العربي، ولما وصلت، وجدت أن مكتباً قد استؤجر وأن سكرتيرة قد وظفت له، والذين أنجزوا هذا العمل هم «مجموعة» الأصدقاء البريطانيين الذين تطوعوا للمساعدة في هذا المشروع حين كان الوفد في لندن. وأنبأني موسى الحسيني، العربي الوحيد من المجموعة، عما قام به ذاك العدد القليل من المتحمسين البريطانيين وعن الجو الملائم الذي تهيأ لعمل المركز.

لجنة أصدقاء العرب البرلمانية

بعد أن مضى وقت قليل من الزمن، أصبح المركز العربي يُعرف بأنه لسان حال الشعب العربي في فلسطين. وما كان هذا ليتم لولا الدعم المطلق من اللجنة العربية العليا في القدس ولولا اهتمام اللجنة البرلمانية البريطانية المناصرة للعرب، ومساعدتها القيمة، وما كرسته من الوقت والجهد لمساعدتي في إدارة دفة سفينة صغيرة في وسط بحر هائج. ومن الجدير ذكره، أن بعضاً من أعضاء هذه اللجنة، كانوا، قبل عشرين سنة خلت، يقاتلون مع العرب في ثورتهم ضد الأتراك في الحرب العالمية الأولى. وكانوا أصدقاء الأمير فيصل (فيما بعد، الملك فيصل)، الذي قاد المعركة ضد الأتراك وعاونه فيها لورنس العرب. وفي سنة ١٩٢١، استضاف اللورد ونترتون، رئيس اللجنة البرلمانية، الملك فيصل، في لندن عندما طرده الحلفاء الفرنسيون من سوريا.

أما الأعضاء الآخرون الذين أسدوا، إلى جانب اللورد ونترتون، مساعدات قيمة لنا، فقد تكلمنا عنهم في الفصل الخامس عشر. وكان منهم الكولونيل كليفتون بروان الذي أصبح فيما بعد «رئيساً» لمجلس العموم، والكولونيل أرنولد ويلسون، الذي قاتل أيضاً ضد الأتراك مع فيصل، والسير أرنست بنيت، وأنتوني كروسلي وكنيث بكثورن. وانتخب اللورد ونترتون رئيساً وبقي في الرئاسة إلى أن صار وزيراً حين انتخب محله الكولونيل كليفتون بروان. وانتخب أنتوني كروسلي سكرتيراً.

كان أعضاء اللجنة حوالي ستين نائباً، كلهم من حزب المحافظين في البرلمان (حزب العمال كان موالياً جداً للصهيونية). كانت هذه اللجنة تعقد اجتماعات دورية، وكنت عادة أحضرها؛ وكانوا يعملون وكأن القضية الفلسطينية قضيتهم، في جهد شريف استمر ثلاثة أعوام متصلة، لم تنقطع إلّا بسبب الحرب العالمية الثانية، الكارثة الثانية في هذا القرن.



ارنولد ولسون

نشرة المركز العربي الأسبوعية

كان اجتماعي الأول باللجنة هاماً جداً إذ قررنا فيه أن يصدر المركز العربي نشرة أسبوعية باسم «نشرة المركز العربي» (The Arab Centre Bulletin)، توزع على أعضاء مجلس العموم، ومجلس اللوردات، والحكومة والصحافة، والجمعيات، والمنظمات السياسية، إلخ... وكنا نوزع منها في بادىء الأمر خمسة آلاف نشرة فقط. وكان يخصص نصف النشرة للقضية الفلسطينية والنصف الآخر لأخبار الثورة العاصفة في فلسطين، والتي قفزت فغدت حرباً نظامية.

وتم القرار على أن تنظم اللجنة البرلمانية اجتماعات في ردهات مجلس العموم والقاعات العامة حيث تكون لي فرصة التحدث إلى عدد أكبر من أعضاء المجلس وعدد أكبر من المستمعين، وأرادوا مني أن أبقى على صلة بوزارة المستعمرات وخاصة بوكيل الوزارة، السير كوزمو باركينسون، لما كان له من تأثير كبير في تلك الوزارة.

كانت تلك الاجتماعات مع اللجنة البرلمانية لنصرة العرب، تزيدني اطمئناناً. ومما يبهج حقاً أننا، للمرة الأولى، صرنا ندافع عن قضيتنا على جبهتين: الأولى في فلسطين والثانية في لندن. وأنا أعلم أن لا شيء يتم دون الجبهة الفلسطينية، غير أن ثورتنا كانت

بحاجة للدعم والتشجيع ممن لهم «التأثير في بريطانيا». كنا نقاتل في حرب يائسة في فلسطين ولا مناصر لنا ضد القوة البريطانية الهائلة والتأثير الصهيوني الطاغي. ولقد أحيت أخبار المركز العربي المشجعة في لندن، الآمال في فلسطين، ورفعت من معنويات العرب في كل مكان.

أخبار عن تقسيم فلسطين

في أواخر شباط (فبراير) ١٩٣٧، ترددت أخبار تفيد أن اللجنة الملكية نصحت بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود لحل النزاع الفلسطيني. ومع أن الخبر لم يكن سوى إشاعة، فقد كان صدمة لعرب فلسطين في الصميم، وهو أسوأ الحلول لقضيتهم على الاطلاق. فالتقسيم كان يعني في أية حال منح نصف بلادهم إلى اليهود الذين لا يملكون فيها أكثر من ٨ بالمئة من الأرض.

وعلى هذا، كان من واجبي أن أعدّ مقدماً خط دفاع قوي ضدّ أي مشروع تقسيم. وفي الحال، طلبت من رئيس اللجنة البرلمانية أن يدعو إلى اجتماع، فقد باتت الإشاعة منتشرة في أكثر الأوساط السياسية والجدل يتصاعد بين الذين معها والذين ضدها. وعندما ناقشت الموضوع مع اللجنة، فوجئت، إذ وجدت أن عدداً من الأعضاء كانوا مع التقسيم، وكان لديهم الانطباع بأن التقسيم هو أحسن الحلول وأكثرها نفعاً لعرب فلسطين. فحرت في أمري وصرت مكرهاً على بذل كل الجهد والحجج لاقناع اللجنة، قبل فوات الأوان، بأن التقسيم، مهما كان نوعه، هو الأشدّ أذى بمصالح العرب. وما كان بوسعي ترك القاعة قبل الوصول إلى هذه النتيجة. واستمررت أقدم الدليل تلو الدليل، وما كان هذا صعباً علي، إلى أن اطمأننت أن حججي أصابت هدفها. وانفض الاجتماع وشعاره: «كافح التقسيم».

الزعماء العرب في لندن للاحتفال بتتويج الملك جورج السادس

في تلك الفترة، حان موعد تتويج الملك جورج السادس ودعي الملوك والأمراء العرب رسمياً لحضور الاحتفال، ومن بينهم الأمير عبد الله بن الحسين، أمير شرق الأردن، الذي أقام في بناء فخم، ضيف شرف على الحكومة البريطانية. وتصورت أن هذه الزيارة فرصة مناسبة أقابل فيها الأمير فأعرف وجهة نظره عن تقسيم فلسطين بين العرب واليهود، وهو أمر يهمه، ولا شك، فالحدود مشتركة، والعلاقات متينة بين شرق الأردن وفلسطين بالإضافة إلى الأخوة العربية بين شعبيهما. وطلبت من صديقي، جمال الحسيني، سكرتير اللجنة العربية العليا، القدوم إلى لندن لمشاركتي في هذه المهمة، فتكرم وأتى.

كان تقرير اللجنة الملكية لا يزال بدون نشر، وكان علينا قبل أن نناقشه مع الأمير، أن نتأكد من أن التقسيم هو الحل الذي نصحت به اللجنة الملكية. وكانت وزارة

المستعمرات، أفضل مرجع لهذا الغرض. فاجتمعنا على غداء مع المستر جون مارتين، وكيل الوزارة، وقد تعرفنا عليه في القدس عندما كان سكرتيراً للجنة التحقيق الملكية (لجنة بيل). فأكد لنا الخبر المحزن وقال إنه لم يعد سراً، فدفعنا هذا إلى الإسراع إلى حيث يقيم الأمير عبد الله وحاشيته.

كان اجتماعنا الأول بالأمير عبد الله جدّ عاطفياً وكان الاستقبال حاراً، بدأ بالقبل الأخوية وكلمات الترحيب القلبية (يا هلا يا هلا). والحق أن الأمير، كان دوماً يستقبلنا بحرارة واحترام في عمان، غير أن اللقاء الآن، ونحن على أرض غريبة، كان له حنين خاص... وألح الأمير علينا أن نتناول معه العشاء كل مساء: «أريدكم أن تأتوا كل مساء فتتعشون معي، طعاماً عربياً، ونتحدث» كان الأمير الكريم مخلصاً في دعوته، وما كان بوسعنا إلاّ أن نطيع. وكنا دائمًا نتحدث معه بعد العشاء ساعة أو أكثر وكانت تشارك حاشيته، ومن بينهم جميل تُـتنجي، وهو طبيبه الخاص، وزميل دراستي في الجامعة الأميركية في بيروت، مما جعلنا نحس بالقرب أكثر.

لم نستطع مناقشة مشروع التقسيم بتفاصيله مع الأمير لأننا كنا نجهله، لكننا ناقشناه بصورة عامة وجربنا أن نثبت للأمير كم كان مضرّاً لنا نحن الفلسطينيين وكم هو مفيد لأعدائنا، الصهيونيين، الذين لا يملكون، كما قلت آنفاً، أكثر من ٨ بالمئة من أرض فلسطين.

كان الأمير عبد الله رجلاً جدّ ذكياً. فوافق بسرعة على حججنا ووعدنا، كل مرة كنا معه، برفض التقسيم. كان قانعاً بأنه يسيء إلى عرب فلسطين، لكن سؤالنا كان: هل يستطيع المحافظة على وعده؟ كنا نشك من هذه الناحية، لا لأننا كنا لا نصدق الأمير، بل لأننا كنا نعرف أنه ليس حاكمًا مستقلاً في شرق الأردن، وما كان بوسعه أن يتخذ قراراً دون موافقة بريطانيا العظمى. كان الأردن ما يزال تحت الانتداب البريطاني، ويقود جيشه ضابط بريطاني، وتموله الخزينة البريطانية؛ وما كان الجيش العربي عربياً إلاّ بالاسم فقط. وما كان للأمير عبد الله، في مثل هذه الظروف، أن يقاوم السياسة العامة للحكومة البريطانية التي تريد تنفيذها في فلسطين إلاّ إذا أراد أن يتخلى عن إمارته، وأظن، أنه يتردد في ذلك. وإنه لعسير عليه أن يتبع خطوات أبيه القوي فينهي حياته في قبرص أو «محمياً» في أحد قصور بغداد. ولذلك يبدو، أن الأمير عبد الله عندما زار وزارة المستعمرات قبل أن يغادر لندن، كان موضوعه الرئيسي مع أورمزبي غور، كيف يجعل العرب يقبلون بمشروع التقسيم، وليس ما هي مضاره للشعب العربي الفلسطيني!

استقالة حزب الدفاع من اللجنة العربية العليا

في الثالث من تموز (يوليو) سنة ١٩٣٧، استقال من عضوية اللجن العربي العليا عضوا حزب الدفاع، راغب النشاشيبي ويعقوب فراج، فانتشرت في الحال،

شائعة: إنه نظراً لكراهية حزب الدفاع للحاج أمين الحسيني وتأييده للأمير عبد الله، فقد استقال عضواه من عضوية اللجنة حتى يكونا حرّين في تأييد مشروع التقسيم. والحقيقة، أكانت هذه التهمة صحيحة أم كاذبة، فإن استقالتهما في تلك المرحلة الحرجة لم تكن حكيمة، فقد أدت سريعاً إلى انقسام في الجبهة العربية الفلسطينية وأحيت النزاعات العائلية التي طالما عانت منها كثيراً حركتنا التحررية المجاهدة.

في مهمة إلى الولايات المتحدة

في آخر أيار (مايو) ١٩٣٧، تلقيت رسالة من الحاج أمين الحسيني، رئيس الهيئة العربية العليا، يصر علي فيها بالسفر إلى الولايات المتحدة الأميركية في مهمة دعاوية. وطلب إليّ أن أجمع تبرعات من الجالية العربية لمساعدة أيتام أبطالنا الذين قضوا في المعركة. وبعد ترتيبات الرحلة مع «الجمعية العربية الوطنية» في نيويورك، غادرت لندن إلى الولايات المتحدة على الباخرة الجديدة الجميلة، كوين ماري، أكبر باخرة في العالم في ذلك الوقت، (حمولتها ٨٠,٠٠٠ طن). أما أختها الكوين اليزابيت (٨٤,٠٠٠ طناً) فقد كانت في مرفأ ليفربول على أهبة القيام برحلتها البكر. وبعد سفر أربعة أيام على بحر هادىء، رست الكوين ماري في ميناء نيويورك، حيث استقبلني الدكتور فؤاد شطارة وأعضاء آخرون من الجمعية، وأخذوني فأنزلوني في فندق أستور في تايم سكوير.

كانت «الجمعية العربية الوطنية» ومقرها في ١٠ وست، الشارع ٣٣ في نيويورك، جمعية سياسية اجتماعية، تأسست في أوائل الثلاثينات، هدفها الأول الدفاع عن حقوق العرب في فلسطين وكانت غالبية أعضائها من فلسطين ولبنان وسوريا، مع أن بقية الأقطار العربية كانت ممثلة فيها أيضاً. وكان رئيسها، الجراح المشهور في نيويورك، فؤاد شطارة، فلسطينياً من رام الله، والسكرتير، حبيب كاتبة، من يبرود في سوريا.

ليس سهلاً علي وصف الترحاب الذي استقبلتني به الجمعية العربية الوطنية. ولقد جعلت معرفتي لهم في الوطن الأم الزيارة مثيرة وعاطفية، ذلك أني عرفت فؤاد شطارة قبل أن يهاجر إلى الولايات المتحدة. كان تلميذاً لامعاً في مدرسة صهيون في القدس، وأتم بعدها دراسة سنتين في كلية الطب في الجامعة الأميركية في بيروت. ثم هاجر إلى الولايات المتحدة سنة ١٩١٤، في بدء الحرب العالمية الأولى، هرباً من الخدمة العسكرية في الجيش التركي، وليتم دراسته هناك. كان السفر للولايات المتحدة في تلك الأيام لا يحتاج لسمة دخول (Visa) أو المرور، من الجمارك. كان العالم كله مفتوحاً وليس مقفلاً أو سجناً كما هو اليوم.

خمس عشرة دقيقة في الاذاعة الأميركية

أعطيت، يوم وصولي إلى نيويورك، خمس عشرة دقيقة، مساءً في الاذاعة الأميركية،

كي أحيي الجاليات العربية في الولايات المتحدة وأنقل لهم «التحيات القلبية» من اخوتهم المعذبين في فلسطين. ويبدو أن الرسالة أثارت عواطفهم لدرجة أن مئات من الذين سمعوها بكوا حنيناً. وكلمني هاتفياً أحد رفاقي في مدرسة نابلس، سليم العبد، من فلادلفيا، في الساعة الثالثة صباحاً في فندق استور كي يرحب بي، بعد أن خابر أكثر من خمسين فندقاً، وهو يبحث عن محل إقامتي.

عقدت الجمعية العربية الوطنية اجتماعاً عاماً، شرحت فيه الوضع الدقيق الخطير، الذي يتعرض له عرب فلسطين، وكيف تُغرق الحكومة البريطانية المستبدة، البلاد بمئات ألوف المهاجرين اليهود، وكيف تحاول طرد السكان العرب، ومنح نصف البلاد إلى اليهود الذين لا يملكون أكثر من ٨ بالمئة من أرض فلسطين. وتحدّثت في الاجتماع الكبير عن المعركة التي نخوضها وكيف عزم شعب فلسطين العربي على النضال حتى النهاية.

تأثر أعضاء الجمعية كثيراً واضطربوا اضطراباً عظيمًا حين سمعوا الوقائع. وما جاء اليوم الثاني إلاّ وقد أعدت «مذكرة» للطباعة، وزعنا منها خمسين ألف نسخة لعدد من المقامات السياسية العالية ولكل الجاليات العربية في الولايات المتحدة. وهذا بعض ما جاء في تلك المذكرة، التي ما زلت أحتفظ بها:

«أوقفوا إراقة الدماء في الأرض المقدسة»

«لقد وصلت الأحداث في الأرض المقدسة إلى مأزق لا نستطيع معه أن ننظر إليها على أنها بضعة أخبار من بلاد بعيدة. إن فلسطين تخوض ثورة عنيفة سيتردد صداها في بلدان أخرى كثيرة».

«لقد نقل لنا شاهدا عيان، وصلا تواً من فلسطين. أن الجنود البريطانيين، على ما يبدو، تلقوا الأمر باستعمال القسوة في التعامل مع العرب، وهم ينفذون ذلك. وترتكب فظاعات تجعل حتى الجندي التركي، المتهم بالشراسة، يخجل!

«وللمرة الأولى في التاريخ، تجد الأكثرية نفسها مضطرة لطلب حماية حقوقها الطبيعية المشروعة، ضد أقلية وقحة مسيطرة مالياً ومنظمة...

«إن محاولة دعم سياسة ما بالقوة المسلحة هو رجعة إلى العصور المظلمة، ودعوة لمقاومة القوّة بالقوّة. ولقد أظهر التاريخ بوضوح أن أي مشروع يتطلب دعم القوة المسلحة، محكوم عليه بالفشل النهائي...

«هذا النداء موجه إلى كل محبي السلام كي يرفعوا أصواتهم لإنقاذ الأرض التي ولد عليها أمير السلام، لانقاذ هذا المقام المقدس الذي يتجه إليه باحترام المسيحيون والمسلمون

واليهود. . .»

١٠وست، الشارع ٣٣ — الجمعية العربية الوطنية
مدينة نيويورك

لقد أتيت على ذكر بعض هذه المذكرة لتلخيصها القضية، وذكرى لأولئك الرجال العظام الذين كتبوها، وهم جميعاً اليوم في ذمة الله.

تضمن البرنامج الذي أعدته لي الجمعية زيارة عِدد من المدن في مختلف الولايات كي أتمكن من الاتصال بأكبر عدد من الجاليات العربية. ودعاني الدكتور شطارة إلى بيته للعشاء وليحدثني عن ذاك البرنامج، فسررت بلقاء زوجته للمرّة الأولى. وكان معنا ضيف آخر فقط هو الأديب اللبناني الكبير، أمين الريحاني، الذي سمعت عنه كثيراً، وقرأت عدداً من كتبه دون أن ألتقي به. وكانت تلك عندي، والحق يقال، مفاجأة سعيدة.

كان فؤاد شطارة وأمين الريحاني صديقين عزيزين، يقضيان معاً أوقات فراغهما، حين يجيء أمين إلى نيويورك. ولقد توافق، لحسن حظي، وصولي إلى تلك المدينة مع وصول الريحاني، الشخصية المعروفة لدى الجالية العربية في الولايات المتحدة. وكان الدكتور شطارة يعرف من هو صديقه الريحاني، فانتهز المناسبة وسأله إن كان يستطيع مساعدتي في المهمة التي انتدبت لها، فلم يتردد الأستاذ الكبير. وفي اليوم التالي حضّر لنا برنامجاً مشتركاً لنزور معاً فلادلفيا، وواشنطن، وشيكاغو، وديترويت وبوسطن. كانت جولة خطابية عظيمة من أجل القضية الفلسطينية ولمساعدة أيتام شهدائنا.

بدأت الجمعية العربية الوطنية الحملة في مدينة نيويورك باجتماع كبير في قاعة فندق أستور الكلاسيكية المشهورة حضره أكثر من خمسمائة شخصية. وخطب فيه الدكتور شطارة وأمين الريحاني وأنا. وفي اليوم التالي، ظهرت القضية الفلسطينية وللمرة الأولى، على الصفحات الأولى «للنيويورك تايمز» و«الهيرالد تربيون» و«الدايلي نيوز»، إلخ. . . فقد ذكرت تلك الصحف بأحرف كبيرة أن «الدكتور شطارة، الجراح النيويوركي، يرأس جمعية سياسية، الجمعية العربية الوطنية، للدفاع عن حقوق عرب فلسطين». ووصفت أمين الريحاني بالعالم العربي ذي الثقافة الأميركية الذي خطب دعمًا لعرب فلسطين. وقالت عني «طنوس لا يثق ببريطانيا العظمى».



امين الريحاني

استقبلنا في كل زياراتنا لمختلف المدن بحماس عظيم. وكانت اجتماعاتنا حاشدة، تنتهي في غالب الأحيان، بمظاهرات عاطفية. ولقد غمرنا كرم الجالية العربية في الولايات المتحدة، وأحدثت زياراتنا هياجاً عظيماً. وقد أظهرت الجالية العربية في الولايات المتحدة ان ولاءها للولايات المتحدة لا يقلل من ولائها للوطن الأم، ويرجع هذا إلى التأثير العظيم الذي تأثرت به الجالية من مفكرين عظماء عاشوا في الولايات المتحدة في تلك الفترة الفريدة، من أمثال جبران خليل جبران الشهير وإيليا أبي ماضي، الشاعر البليغ، وجورج خيرالله الموهوب، والمطران بشير، مطران العرب الأرثوذوكسي، وامين الريحاني الفيلسوف، والدكتور فؤاد شطارة، الجراح العظيم الشعبي. وقد أدهشني الحب والتقدير اللذان أبدتهما الجالية العربية لأولئك الرجال العظام المثقفين وخاصة لأمين الريحاني. كلهم يريدون أن يسمعوا الريحاني يخطب ولم ألمهم على ذلك، لأني لم أسمع من قبل رجلاً ملك العربية والانكليزية مثله. كانت خطابته رفيعة، وطريقته بالنفوذ إلى قلوب مستمعيه رائعة. ولقد تأثرت، وأنا المبتدىء بفن الإعلام والدعاية، تأثراً كبيراً بهذا الخطيب البليغ.

كان يصطحبنا دائماً في جولتنا على مختلف المدن، أحد أعضاء الجمعية العربية الوطنية لينظم الاجتماعات ويسهر على أن يكون كل شيء حسناً. وإني ليصعب علي أن أصف حماس الذين كانوا يديرون هذه الجمعية. كان الدكتور شطارة، بسبب مهنته، أكثر العرب شعبية لدى الجالية العربية، ولتفانيه في سبيل القضية الفلسطينية، جعل المنظمة الصهيونية الأميركية تبذل جهدها لتدمّر مهنته الطبية فتطرده من الساحة. جربوا إثارة فضائح مزيفة عنه مرات عديدة فلم ينجحوا.. ولقد شكا إليّ كثيراً تآمر الصهيونية الدنيء الذي كان يقلقه جدّاً، على ما أعتقد.. أما عماد الجمعية العربية الوطنية الثاني فقد كان حبيب

كاتبة، الذي ألغى كل علاقاته، وكرّس وقته، كل وقته، إلى سكرتارية الجمعية. كما أن بيتر جورج، أخ بولس شحادة، صاحب جريدة مرآة الشرق في القدس، كان ظلّنا في كل نشاطاتنا. والدكتور جورج خير الله، الطبيب الأديب، الذي ترجم عمر الخيام إلى الانكليزية، وكان يلقب نفسه بـ «أبي علي»، رمزاً للأخوة الاسلامية المسيحية. وكلهم قضوا الآن، لكننا يجب ألاّ ننساهم أبداً بل نسجل أسماءهم بأحرف من ذهب.

قوة الدعاوة اليهودية في الولايات المتحدة

على أن كل الجهود المبذولة وحماس أعضاء الجمعية العربية الوطنية لا وزن لها قياساً إلى الدعاية الصهيونية في الولايات المتحدة. فقد كان اليهود سنة ١٩٣٧ متغلغلين جيداً في كل حقول الحياة في الولايات المتحدة. كان تأثيرهم كبيراً في القضاء حيث يمثلهم القاضي القدير لويس برانديس. وكذلك في المحاكم حيث يهيمن القضاة والمحامون اليهود. والأمر نفسه في مجلس الشيوخ والنواب. وأيضاً في الوول ستريت، (شارع المال والبنوك). وكان من اختصاصهم تجارة الماس والفرو وصناعة الثياب. ونادراً ما يلبس الأميركي معطفاً أو سترة رياضية إلاّ من تاجر يهودي. ثم إنهم كانوا مسيطرين على هوليوود وعلى مهنة الطب، أما سيطرتهم الكبرى فكانت على الصحافة.

إن التأثير اليهودي القوي في الولايات المتحدة جعل بريطانيا العظمى، تستنجد به حتى يدخل الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى. وقد دفعت بريطانيا للشعب اليهودي ثمن هذا «التأثير» شكاً مزوراً، مقدماً، قيمته: «أنا مدينة لكم في فلسطين». كان وعد بلفور شكاً مؤجل التاريخ دون رصيد.

في سنة ١٩٢٢، اعترف مجلس النواب بوعد بلفور وتلاه مجلس الشيوخ. وفي انتخابات سنة ١٩٣٢، و١٩٣٦، وعد الرئيس روزفلت الشعب اليهودي بكل الدعم في فلسطين. وفي كل مرّة اجتمع فيها الكونغرس الصهيوني في الولايات المتحدة، أبدى الرئيس، أياً كان، ترحيبه به.

وماذا تستطيع جمعية صغيرة من الأعضاء الناطقين بالضاد، أن تفعل أمام تلك القبضة اليهودية المحكمة، لتعزيز القضية العربية أو لتبديل موقف الشعب الأميركي؟ ومع ذلك، كم كان امتناننا عظيماً لأولئك الرجال الأوفياء الذين كانوا يجاهدون في ظروف قاسية جداً ومحرجة، وما يئسوا يوماً، بل تابعوا عملهم دون كلل أو ملل، سنة بعد سنة. وحينما ذهبت الوفود العربية إلى نيويورك سنة ١٩٤٦، أي بعد تسع سنوات، لحضور دورة الأمم المتحدة في لايك سكسيس في نيويورك، كانت الجمعية العربية الوطنية، تحت اسم آخر هو «معهد الشؤون العربية الأميركية» حاضرة لخدمتها واستضافتها، كما في السابق. وكان بين ضيوفها الأمير فيصل بن عبدالعزيز، ملك العربية السعودية فيما بعد، وفارس الخوري، وقسطنطين زريق من سوريا، ومحمود فوزي، وزير خارجية مصر فيما بعد، وفيليب حتي،

من جامعة برنستون، وجميعهم أشادوا بالمعهد لاعماله المجيدة وثباته وإيمانه بالحق العربي.

وداعاً يا نيويورك

أظهرت الجالية العربية في الولايات المتحدة حبّها العظيم لفلسطين في حفلة الوداع التي أقاموها لي قبل أن أغادر نيويورك. استطعت أن أرى فلسطين في قلب كل منهم. تحلّقوا حولي جماعات كي يعرفوا أكثر عن الوضع. لقد أدركوا، من الطريقة التي يعالج فيها الصهيونيون القضية في الولايات المتحدة، الخطر المحدق بفلسطين من كل ناحية وربما تنبهوا إلى الخطر أكثر منا نحن الذين على أرضه. وكان الخوف هذا، يلهب الحماس في قلوبهم علّهم يصنعون شيئاً، وكل شيء، لإنقاذ فلسطين.

ولم أعرف ماذا أقول لهم حين ودّعتهم. قلت: «أرسلت إلى هنا لأستنفر الجالية العربية في الولايات المتحدة من أجل فلسطين؛ ولسعادتي، حدث العكس. إني أعود وقد ملأني حماسكم قوة وإيماناً، وأعدكم بأننا سوف نكافح كفاحاً مجيداً حتى النهاية».

وفي اليوم التالي سافرت إلى لندن على الباخرة نورماندي، الند الفرنسي، للباخرة البريطانية، الكوين ماري. كنت حزيناً حين فارقت أولئك الأصدقاء والمعارف القدماء والجدد ويسرني أن أسجل الآن أن الاندفاع والروح الوطنية اللذين تمتعت بهما تلك الجالية، لم أر مثيلاً لهما إلى الآن.

أمين الريحاني

لا أستطيع أن أنهي هذا الفصل قبل أن أقول كلمة عن أمين الريحاني، الملقب «بفيلسوف الفريكة»، القرية التي ولد فيها. لقد كان ربع القامة كثيف الشعر أسوده، بأنف روماني، أسمر البشرة، يضع دائمًا ذراعه الايمن على وركه الأيمن إذا وقف. كان من ألمع أدباء العرب في القرن العشرين، وبوسعنا أن نقارنه بالأدباء الذين سبقوه مثل ناصيف اليازجي، وبطرس البستاني، وإبراهيم اليازجي، وجرجي زيدان. ومع بعض معاصريه، مثل جبران خليل جبران وفيليب حتي، وميخائيل نعيمة، وطه حسين وعباس محمود العقاد، وآخرين. كان مؤلفاً ومفكراً والجلوس إليه يعني مناقشة أدبية. وكان رحالة، جعلت رحلاته المبكرة في الجزيرة العربية، وكتبه عن الشعب العربي وملوك العرب، فريدة من نوعها. وكان يحب الولايات المتحدة لأنها ــ كما يرى هو ــ ديمقراطية حرة.

لقد حدا بي إعجابي به إلى زيارته سنتي ١٩٣٨ و١٩٣٩ في قريته الفريكة عدة مرات، وزارني مرّة واحدة ولمدة أسبوع في بحمدون بلبنان، حيث كان يتجمع حوله نزلاء الفندق كالنحل، يريدون أن يسمعوه يتكلم. ومن الكنوز الأدبية، التي استمتعت بها في صحبته، بيتان عربيان رواهما لي، فباتا أفضل ما أحب وهما:



الملك عبدالعزيز آل سعود وأمين الريحاني في رحلاته

دواؤك منك ولا تبصر وداؤك فيك ولا تشعر
أتحسب أنك جرمٌ صغير وفيك انطوى العالم الأكبرُ

وقد ترجم الريحاني هذين البيتين إلى الانكليزية ترجمة تدل على عبقريته:

The ill within thee will not long endure, Of Thou knowest that within thee is the cure. Consider not Thyself a worthless Thing, The Universe is folded neath thy wing..

الفصل الثامن عشر

وفد عربي فلسطيني إلى عصبة الأمم
لجنة الانتدابات الدائمة، لجنة فاشلة
عصبة الأمم على طريق الانحلال

رجعت من نيويورك إلى لندن في مطلع آب (أغسطس) ١٩٣٧، فكنت جدّ سعيداً حين وجدت المركز العربي، في ٧٢ فيكتوريا ستريت، ما زال على نشاطه، والطلب على نشرته الاسبوعية بازدياد مطّرد. وقد سرّت المسز ستيوارت أرسكين، وكنا نسميها أم المركز، لعودتي إلى لندن. كانتَ تحسّ دائمًا بالحزن حين أغادر لندن خشية الاّ أعـود، مع أني أكدت لها، كما فعلت في مناسبات مختلفة، أن المركز بات جزءاً من حياتي، وحل محل عيادتي في القدس.

كان موسى الحسيني، وهو يتابع دراسته في جامعة لندن، أكثر زوّارنا تردداً، وهو الشخص الذي كان يهتم اهتماما عميقاً بعمل المركز. وقد تعودنا أن نلقبه بمفتي القدس المقبل. كما كان عبدالرحمن البزاز، من البعثة العراقية (أصبـح فيها بعـد رئيساً للوزارة) وعبدالغني دلي، يقدمان مساعدة كبرى. والبعض الآخر، ومنهم نقولا زيادة، أستاذ التاريخ العربي في جامعة بيروت الاميركية، وعـوني داوودي، الذي كـان مستشاراً لملك ليبيـا السنوسي، وعيسى نخلة، المكلف الآن بإدارة المكتب العربي الفلسطيني في نيـويورك، وداوود أبو غزالة وفريد برتقش، وكلهم يستحقون الثناء لمساعدتهم الكريمة للمركز. غير أنهم لم يكونوا زوّارنا الوحيدين. ولا أستطيع نسيان زيارات المستر ريتشموند، الذي كان لأمدٍ طويلٍ، المهندس المسؤول، مع المهندس جورج شبر، عن «الحـرم الشريف» في القدس، والمستر أشبي، وهو موظف قديم في حكومة فلسطين. والزيارات العديدة لأعضاء اللجنة البرلمانية المناصرة للعرب: الكولونيل نيوكومب، والمستر والمسز مورتون، والمس نيوتن التي كانت تجيء يومياً تقريباً، والمسز بروكس التي كانت تضع شارة على صدرها تدل على حبها للعرب. وفي تلك الفترة تعرفت على اتيل مانين (Ethel Mannin)، التي كتبت وما زالت تكتب منذئذ كتباً عديدة عن القضية الفلسطينية. لقد كانت هي والمرحوم زوجها، فيتز جرالد، الذي لم يعمر طويلاً، من أول المدافعين عن عرب فلسطين.

وفيما أنا أطالع البريد، وجدت رسالة من جمال الحسيني، الذي سافر إلى سويسرا، يطلب فيها مني موافاته في جنيف، في اليوم العشرين من آب (أغ..ط..س). فعزمت على السفر بالطائرة، وهي ثاني رحلة لي بعد عام ١٩٢٩. التقيت في فندق فيكتوريا في جنيف، بجمال الحسيني وبالفرد روك، وموسى العلمي، وعوني عبد الهادي. والأمير عادل أرسلان، فألفنا وفد فلسطين العربي،



اثيل مانين

الذي أرسلته اللجنة العربية العليا ليناقش قضية فلسطين في عصبة الأمم، وبخاصة، مع لجنة الانتدابات الدائمة.

كان وفدنا أول بعثة عربية تزور عصبة الأمم. وبما أننا نجهل إجراءات وبروتوكول العصبة، فقد طلبنا مساعدة ممثل العراق الدائم في عصبة الأمم، السفير نجيب الراوي، الذي كان في غاية اللطف والكرم. وكان ممثل العراق، الممثل العربي الأول والوحيد في عصبة الأمم.

كان هدفنا الرئيسي أن نناقش قضيتنا مع لجنة الانتدابات الدائمة، ووظيفتها أن تنظر في تطبيق العدالة على الشعب المنتدب عليه، الشعب الذي وصفه ميثاق العصبة: بأنه «وديعة الحضارة الغربية»، وأن ترى ما إذا كانت هذه الشعوب تُساعد وتُدرّب حتى تصبح قادرة على حكم نفسها بنفسها.

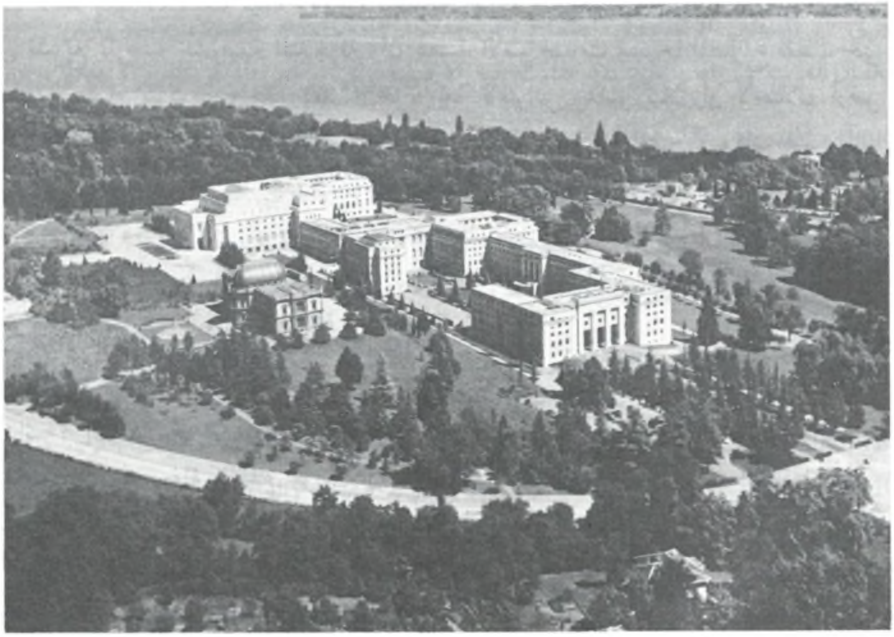
كان عدد أعضاء لجنة الانتدابات الدائمة سبعة ينتمون إلى بلدان مختلفة وهم: المسيو اورتس، رئيساً، (M. Orts) المسيو راباد (M. Rappard) المسيو دانيفيج (M. Dennevig) المسيو فان اسباك (M. Van Asback) واللورد هانكي (Lord Hankey) والمسيو جيرود (M. Giraud) والكونت دي بنها غارسيا (Count de Penha Garcia) أعضاء.

كانت لجنة الانتدابات الدائمة جهازاً دائماً يعينه مجلس العصبة كي يتتبع تقدم الشعوب المنتدب عليها من سنة إلى أخرى. أما معلوماتها فتحصل عليها من التقارير السنوية التي تقدمها الحكومات المنتدبة إلى مجلس العصبة. وواجب اللجنة هو دراسة هذه التقارير وإبداء الرأي فيها إلى المجلس. وكان لتوصياتها وزناً، بالرغم من أنها لجنة استشارية فقط.

في أول لقاء لنا مع اللجنة، جرى التعارف فيما بيننا. كانوا جميعاً يتكلمون الفرنسية أو

الانكليزية أو اللغتين معاً،وهو وجه الشبه الوحيد بيننا. وكانوا في غاية اللطف والتهذيب وأبدوا استعداداً لمناقشة أي شيء وكل شيء يتعلق بالانتداب على فلسطين.

دام نقاشنا مع اللجنة نحو عشرين يوماً بحثنا القضية شفهياً وكتابياً، وتحاورنا في كل نقطة، ولم ندع مسألة إلا ودرسناها. وقدّمنا مذكرة دعمناها بالأرقام، وباتت كل شكاوينا معروفة لدى اللجنة. وحين انتهت المناقشات،لخصها المسيو رابارد-سكرتير اللجنة والناطق باسمها بهذه الخاتمة: «ماذا نستطيع أن نفعل لكم أيها السادة، إن بريطانيا العظمى دولة كبرى، وقوية»،وكرر بالفرنسية (Grande Puissance,Grande Puissance)



عصبة الأمم على وشك الانهيار

وهكذا ألقى، بالنيابة عن اللجنة، اللوم كله على الدولة المنتدبة، بريطانيا العظمى، في ما يجري في فلسطين. وأعفى لجنة الانتدابات الدائمة ومجلس عصبة الأمم من كل الذنوب التي ارتكبت وما زالت ترتكب في فلسطين. غير أن هذا لم يكن كله صحيحاً. فقد علمنا فيما بعد أن الرئيس المسيو اورتس، والأعضاء: رابارد ودانيفيج وفان أسبك كانوا من أنصار الصهيونية، وبالأخص المسيو رابارد، العضو السويسري، فقد كان يؤمن، بإخلاص أو بغير إخلاص، بالصهيونية ويريد لها اضطراد التقدم في فلسطين.

غير أني أعتقد، أن إقامتنا نحو عشرين يوماً في جنيف لم تكن كلها خسارة، وأعتقد أن حججنا تركت، ولابد، أثرها الحسن حتى على الأعضاء الممالئين للصهيونية، وانها

حرّكت ضمائرهم المتحجرة. ولم يكن هذا كل شيء. فقد استنتجنا شيئاً آخر من زيارتنا لجنيف. عرفنا كيف تؤدي العصبة عملها، وماذا بوسع لجنة الانتدابات الدائمة أن تنجزه. وبدا لوفدنا، أن العصبة نُظمت، ليس للعمل حسب ميثاق عصبة الأمم، بل لمنح الشرعية لما يرتكبه أعضاؤها من مخالفات للميثاق، والمثل على ذلك «صك الانتداب على فلسطين».

عصبة الامم يمزقها اعضاؤها

أحس وأنا أكتب هذه الصفحات عن قضيتنا في عصبة الأمم، أني أكاد أبكي كما فعلت في جنيف سنة ١٩٣٧. لقد اعتبرت الأمم، ميثاق عصبة الأمم، ثورة القرن العشرين، وقد ذهبنا إليها لنكتشف كيف «تطبق» تلك الثورة. فرأينا لخيبتنا الكبرى، أن الميثاق تحوّل إلى تشريع للوطنية الشوفينية المتعجرفة وأن عصبة الأمم صارت مسرحاً للصراع فقط، حتى صار الأعضاء يتركونها واحداً بعد الآخر، إما لافتراس عضو ثان أو لاحتلال أرض جديدة، كاحتلال ايطاليا للحبشة، واحتلال اليابان لأجزاء من الصين، وكان هتلر المانيا يستعد لمغامراته في اوروبا بعد أن احتل النمسا. وتحولت الأراضي المنتدب عليها إلى مستعمرات، وحشود من المهاجرين اليهود تغزو فلسطين بلا قيد ولا شرط. كان يحدث كل هذا وأعضاء العصبة المتخمون يناقشون في المجلس سخائف الأمور التي لا صلة لها بالمواضيع ذات الشأن والتي كانت تمزق العصبة بالتدريج.

بعد كل هذا، هل تريدون أن تعرفوا المزيد عن عصبة الأمم ولجنة الانتدابات الدائمة؟ إن أكثر ما خيب أملنا في زيارتنا لعصبة الأمم ما حصل في آخر اجتماع لنا مع اللجنة، أي في حفلة الوداع. وبعد أن شربنا المرطبات وصرنا على وشك الفراق، سألني المسيو اورتس، رئيس اللجنة، في صوت منخفض، إلى أية أمة أنتسب. فأجبت مستغرباً جداً وأنا أحاول إخفاء الصدمة: «أنا عربي من فلسطين». عندئذٍ سألني عن كلٍ من أعضاء الوفد، فأخبرته أنهم جميعاً فلسطينيون عرب ما عدا واحد، وأشرت إلى الأمير عادل أرسلان، وأضفت، أنه عربي من سوريا. قال متعجباً: «أوه! ظننّاكم محامين من أمم مختلفة، مثلنا نحن، استأجركم العرب الفلسطينيون لتدافعوا عن قضيتهم بدلاً عنهم»!!

لن ألومكم إذا لم تصدقوا حكايتي لأنه يصعب التصديق بها لغرابتها، ولكن صدقوها فإن عصبة الأمم ولجنة الانتدابات الدائمة زالتا من الوجود بعد مرور سنتين فقط على هذا الحادث الذي يبدو من الصعب التصديق به، كما قلت.

العودة إلى لندن

غادر وفدنا جنيف وقد أصيب بخيبة أمل كبرى. وقد جعلتنا هذه التجربة المؤلمة نفقد كل أمل في عدالة عصبة الأمم، أو قدرتها على العمل، وعلمتنا، في الوقت نفسه، ألّا نعتمد إلّا على جُهدنا لإنقاذ وطننا من الاحتلال الانكليزي ــ الصهيوني.

توسع عملنا في المركز العربي وأضفنا إلى برنامجه اجتماعاً أسبوعياً كنا نعقده في البدء عند أصدقائنا في «الجمعية الوطنية»، ثم في مكتبنا الجديد الذي استأجرناه، في ٥٥٤ غراند بيلدنغز ترافالغر سكوير وكنا نعين لكل اجتماع خطيباً يُحدِّث الحضور عن القضية الفلسطينية وكان يتراوح عددهم بين ٦٠ و٨٠ شخصاً. وكنا ننتقي الخطباء من كل الفئات: لجنة أنصار العرب البرلمانية، الأصدقاء الانكليز، الديبلوماسيين العرب، الطلاب الجامعيين العرب، ومن موظفي المركز. وكان يرأس الاجتماع دائماً أحد أصدقائنا من الانكليز. وما كنا ندع مناسبة إلا ونستغلها حتى اننا استخدمنا الزوار العرب إلى لندن. فقد خطب في أحد الاجتماعات، رشيد الريحاني، وهو تاجر برتقال من يافا، فتحدث عما يجري في فلسطين الآن. وفي اجتماع آخر تحدث وأجاد، جورج منصور، نائب رئيس اتحاد العمال العرب في يافا، حتى لقد طلبت إليه الانضمام إلى موظفي المركز العربي، ففعل.

في تلك الفترة، جاء إلى المركز زائر من نوع خاص، هو المستر ج. م. ن جيفريز، وهو مراسل لندن «ديلي ميل» السابق في الشرق الأدنى خلال الحرب العالمية الأولى. وقد كتب في السنوات الأخيرة كتاباً عن فلسطين لم يستطع طبعه فأراد أن يتعرف علينا. فطلبت منه أن يلتحق بنا، فكان يأتي كل يوم ويقوم بجزء كبير من العمل، بالرغم من أنه لم يكن موظفاً رسمياً.

لقد كان للمقالات العديدة التي كان يرسلها إلى جريدة «الديلي ميل» عن فلسطين أهمية خاصة، إذ شجعت وحمّست صاحب الجريدة وأصحاب عدة صحف أخرى أمثال اللورد نورثكليف الشهير الذي زار فلسطين في نهاية الحرب (العالمية الأولى) واستمع خلال إقامته في فلسطين إلى مائتي زائر وتلقى عشرات العرائض. فكان من أول البريطانيين ذوي النفوذ الذين أدركوا أخطار وعد بلفور. ومما قاله: «هذه البلاد [فلسطين] تواجه خطر التحول إلى «إيرلندا ثانية»، وكان تنبؤه جدّ صحيحاً. وقد أفسح المجال، في صحفه كلها للشكاوى العربية؛ لكنه للأسف توفي بعد قليل من عودته من فلسطين، فتابع الرسالة بالاندفاع نفسه خلفه، أخوه اللورد روذرمير الذي مكّن المستر جيفريز من الرجوع إلى فلسطين في خريف ١٩٢٢ كي يدرس القضية الفلسطينية دراسة شاملة، وكان المستر جيفريز قد استطاع في رحلته هذه الحصول على نسخة من رسائل «مكماهون ــ الحسين» ونشرها لأول مرّة، في جريدة «الديلي ميل» اللندنية.

أحدث نشر هذه الرسائل اضطراباً شديداً في الأوساط السياسية البريطانية وما كان من الهينّ أن نفسر لماذا كُتب وقيل الكثير عن وعد بلفور بينما لم يكتب أو يُقل عن رسائل ماكماهون ــ الحسين شيء. لذلك كان لنشر رسائل ماكماهون ــ الحسين في جريدة «الديلي ميل» ضجة عظيمة في الدوائر السياسية مما حرك اللورد ازلنغتون وآخرون لمناقشتها في مجلس

اللوردات في آذار (مارس) ١٩٢٣، إذ طلب اللورد النبيل من الحكومة الكشف عن تلك الرسائل بعد ان بقيت طيّ الكتمان في ملفات وزارة الخارجية منذ سنة ١٩١٦. وبعد مناقشة طويلة، جرى التصويت على نشرها فخسرت الحكومة، إذ صوت خمسون لورداً من أجل نشر الرسائل رسمياً وكان ٢٩ ضد الكشف عنها. غير أن الحكومة لم تكشف عنها حتى سنة ١٩٣٩ أي بعد ستة عشر عاماً.

كان التحاق المستر جيفريز بالمركز العربي عظيم الفائدة لنا جميعاً، إذ أفشى لنا أسراراً كثيرة عن قضية فلسطين كادت لولاه تظل طي الكتمان، وسأدلي بقصص هامة عن زميلنا ج.م.ن جيفريز في الفصول اللاحقة.

الفصل التاسع عشر

تقرير لجنة التحقيق (بيل) الملكية، منحاز جداً لليهود
اتفاق سري بين اورمزبي غور ووايزمان
يكتشفه مجلس العموم
اللجنة تقترح تقسيم فلسطين بين العرب واليهود
الحكومة البريطانية تتبنى مشروع التقسيم

نشر أخيراً تقرير لجنة بيل الملكية الذي انتظرناه طويلاً. وقدم أولاً الى البرلمان في الثاني والعشرين من حزيران (يونيو) ١٩٣٧ كبلاغ رسمي رقم ٥٤٧٩ ثم عُمِّم في السابع من تموز (يوليو) من السنة نفسها.

الحكومة البريطانية تتبنى مشروع التقسيم

في اليوم نفسه، أذاعت الحكومة البريطانية سياستها الخاصة بمشروع تقسيم فلسطين في بلاغ رسمي رقم ٥٥١٣ معبرة عن موافقتها العامة على بيانات اللجنة الملكية وحججها واستنتاجاتها حول النزاع غير القابل للتسوية القائم بين طموحات العرب وطموحات اليهود. وذكر البيان أن الحكومة مضطرة، طبعاً، لتقديم المشروع إلى عصبة الأمم من أجل الموافقة عليه. وفي فترة الانتظار، يتوقف انتقال الأراضي في فلسطين وتحدد الهجرة اليهودية بثمانية آلاف مهاجر للأشهر الثمانية المقبلة.

وفي آب (أغسطس)، قدم المشروع الى عصبة الأمم المستر أنتوني ايدن، وزير الخارجية، وليس أورمزبي غور، وزير المستعمرات، فوافقت لجنة الانتدابات الدائمة على مبدأ التقسيم ولكنها طلبت دراسة أوسع، لأنها كانت تعارض خلق دولتين مباشرة، واقترحت في بادىء الأمر، انتدابين مستقلين أو كانتونين. والذي أجل التنفيذ هو الثورة في فلسطين، وبمعنى أدق، الحرب التي بدأت في فلسطين.

نَقْد تقرير اللجنة الملكية

كان تقرير اللجنة الملكية مخيباً لآمال الشعب العربي الفلسطيني، ولو أنه لم يفاجئهم، فقد كان أسبوع الشهادة أمام اللجنة الملكية كافياً لاكتشاف الفرق العظيم في الروح بين لجنتي التحقيق الرئيسيتين اللتين زارتا فلسطين. كان هدف لجنة شو سنة ١٩٢٩ التحقيق في

مظالم الانتداب على فلسطين، والتوصية بعلاج تلك المظالم، فيما كانت غاية اللجنة الملكية منح الشرعية لهذه المظالم فقط. وقد كان وعد بلفور الداخل في صلب الانتداب، برأي اللجنة، هو الوصية الحادية عشرة، الواجبة إطاعتها، أكانت صواباً أم خطأً، وقابلة للتطبيق والعمل بها أم غير قابلة!

أما من وجهة نظر العرب فقد كان تقرير اللجنة متحيّزاً وأعضاؤها متحيزين ضد الشعب العربي الفلسطيني. وليس لنا للتدليل على ذلك إلاّ التأمل في نقاط التقرير التالية:

١ ـ عمدت اللجنة، من أجل أن تعطي حقوقاً تاريخية لليهود في فلسطين، إلى الرجوع الى ألفي سنة ق.م، أو أربعة آلاف سنة مضت. ولكنها عندما ناقشت حقوق العرب والوعود البريطانية للعرب في رسائل مكماهون ـ الحسين، قالت فعلاً:

«إننا لا نتصور أن مهمتنا تتطلب منا الشروع في بحث مفصّل وطويل في وثائق مضى عليها عشرون عاماً، نحن بحاجة اليها في درس شامل لهذا الموضوع».

أمر غريب حقّاً. في رأي اللجنة، عندما يتعلق الأمر بحقوق اليهود، يصبح البحث الذي يرجع إلى ٢٠٠٠ق.م، أو ٤٠٠٠ عام انقضت صحيحاً ومبرّراً؛ أما عند البحث في الحقوق العربية فإن اللجنة لا ترى في مهمتها ما يبرر الشروع بالبحث في مستندات مضى على عمرها عشرون سنة فقط!

٢ ـ عندما تتحدث، اللجنة الملكية، عن شكاوى العرب، تضع العرض التالي:

«يمكن أن نلخص الشكاوى العربية، كمجموعة (Enbloc)، بأنها رفض للانتداب وكل ما نجم عنه، وعليه برزت الشكاوى الرئيسية التالية:

١) الفشل في تنمية مؤسسات تدار ذاتياً. ٢) امتلاك الأراضي من اليهود. ٣) الهجرة اليهودية. ٤) استعمال العبرية والانكليزية لغتين رسميتين. ٥) استخدام موظفين بريطانيين ويهود، وإقصاء العرب عن المراكز العالية. ٦) خلق طبقة واسعة من العرب دون أرض، ورفض اليهود استخدام العمال العرب. ٧) ضآلة ميزانية التعليم للعرب. «ومع أننا نعتقد، أن الشعور بهذه الشكاوى صادق، نرى أن أكثرها لا يمكن أن ينظر إليها من خلال الانتداب على أنها مطالب شرعية، ولهذا ليّس من اختصاصنا وضع التوصية بها. إن الشكوى الأخيرة وحدها تعنينا ويمكننا أن نقترح معالجتها».

يا للقسوة والظلم! كيف يمكن للشكاوى العربية أن تكون رفضاً للانتداب على فلسطين، حين ينصّ هذا الانتداب، على: «إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ويجب أن يكون مفهوماً بوضوح، ان شيئاً لا يعمل يمكن أن يضرّ بالحقوق المدنية والدينية

للطوائف غير اليهودية في فلسطين.» ألا تقع شكاوى العرب تحت هذا الاجراء الوقائي الموجود في وعد بلفور وفي صك الانتداب أيضاً؟ ومن وضعه ولماذا وضع؟

٣ ـ تنصّ المادة ٢ من صك الانتداب على فلسطين على أن مهمته:

«أن يؤمن إقامة وطن قومي يهودي، كما بينت المقدمة، وتنمية الإدارة الذاتية للمؤسسات، وأيضاً وقاية الحقوق المدنية والدينية لكل سكان فلسطين بصرف النظر عن الجنس والدين».

فهل قرأت اللجنة الملكية هذه المادة من صك الانتداب على فلسطين؟ وهل صحيح أن أية شكوى عربية لا تجد لها ملجأً تحت جناحي هذه المادة؟

وتنص المادة ٣ من صك الانتداب المذكور على أنه:

«سوف يشجع المنتَدِبُ، بقدر ما تسمح الظروف، الاستقلال الذاتي». فلماذا أغمضت اللجنة الملكية عينيها عن هذه المادة؟ الاستقلال الذاتي لا يريده اليهود ما دام العرب هم الأكثرية كما هو الآن؟ فلا شك أنها كانت نصحت بالاستقلال الذاتي لو كان اليهود أكثرية في ذلك الوقت!

وعلى العكس من ذلك، قامت «لجنة بيل» بدراسة شاملة للشكاوي العشر التي قدمها اليهود، وأوصت بمعالجة كل منها. وقد أوصت اللجنة الملكية بمعالجة شكوى اليهود في موضوع الأراضي، باثنتي عشرة توصية. ووضعت توصيات لشكواهم في موضوع الهجرة. ومع ذلك، فإن «لجنة بيل» ترى أن كل الشكاوى العربية غير شرعية وأنها رفض للانتداب على فلسطين، ما عدا واحدة وهي التي تناولت التعليم: فهل هذا عدل؟

مشروع التقسيم

في هذا الإطار العقلي، وضعت اللجنة تقريرها، وصاغت توصياتها بهدف أن تعطي اليهود في سنة ما لا يتم لهم شراؤه في أربعمائة سنة. ولكي تمكنهم مما لا يمكنهم الحصول عليه، أوصت اللجنة، في خبث وبراعة، بمشروع التقسيم، الذي يجعل من فلسطين دولة عربية على التلال والجبال، ودولة يهودية في السهول التي لا يملك اليهود إلاّ القليل، القليل منها، وبينهما يظل تحت الانتداب البريطاني الدائم ممر للمحافظة على الأماكن المقدسة. ولقد وضعت هذه التوصية الماكرة بحجة: «نصف رغيف خير من لا رغيف»، وكأنها تقول للعرب: أعطوا اليهود أفضل نصف بلادكم كي يبقى لكم الجزء الآخر!

أشد الحلول ظلمًا

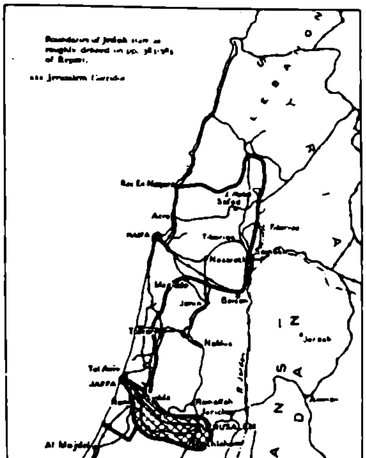
كانت اعتراضات العرب على مشروع التقسيم كثيرة جداً إذ لا مجال لذكرها كلّها.

وأهم هذه الاعتراضات كان ــ الاعتراض السياسي والجغرافي والاقتصادي.

الاعتراض السياسي

فلسطين بلد عربي؛ سياسياً، تخص شعبها وحده وهو الذي عاش فيها آلاف السنين. وقد أعطت بريطانيا حقوقاً لليهود في فلسطين ولكن، من أعطى بريطانيا العظمى الحق في أن تعطيهم هذه الحقوق؟. أهو لأن بريطانيا دولة عظمى تمتلك جيشاً قوياً وبحرية وطيراناً؟ هل هو «حق الفتح»؟ هذا الحق كان لاغياً يوم أعطي وعد بلفور. كان الشعب البريطاني يقاتل، حسبما أعلن، من أجل حرية العالم لا من أجل غزو العالم. حتى ولو كان حق الفتح قائماً، لما كان طُبِّق على العرب لأنهم كانوا حلفاء بريطانيا تربط بينهم «معاهدة»، هي «رسائل مكماهون ــ الحسين».

نحن، عرب فلسطين، لم ننكر أبداً حقيقة أن فلسطين كانت وما زالت وطناً روحياً لليهودية والمسيحية والإسلام. أرض الأنبياء، ومهد المسيحية والمقام الثالث في الإسلام. واليهود والمسيحيون والمسلمون ينعمون بحقوق دينية متساوية في فلسطين، فإذا أعطينا الستة عشر أو العشرين مليوناً من يهود العالم حقوقاً سياسية وأرضية في فلسطين، فإننا مجبرون، عن عدل، على اعطاء الـ ٨٠٠ مليون مسيحي والـ ٦٠٠ مليون مسلم الحقوق السياسية والأرضية نفسها التي نمنحها لليهود. إن اليهود كيهود، والمسيحيين كمسيحيين، والمسلمين كمسلمين ليس لهم حقوق سياسية أو أرضية في فلسطين هذه الحقوق لأهلها فقط.


مشروع التقسيم للجنة الملكية

الاعتراض الجغرافي

جغرافيا، «التقسيم» غير معقول، (أنظر الخريطة). الدولة اليهودية تحوي ١٢ مليوناً من الدونمات (٣ ملايين فدان)، ولا يملك اليهود منها إلّا ٩٠٠,٠٠٠ دونماً أي أقل من عشرة بالمئة، والباقي هو ملكية عربية. والحقيقة، فقد اقترحت اللجنة الملكية إقامة الدولة اليهودية على أرض عربية. وهذا ليس كل شيء؛ فإن عدد سكان الدولة اليهودية حسب التقسيم المقترح هو ٩٥٠ ألفاً من السكّان بينهم حوالي ٤٥٠ ألفاً من العرب. وهذا يعني أن هؤلاء العرب سوف يخضعون لحكم الـ ٥٠٠ ألف يهودي.

وأكثر من ذلك فإن سبعة أثمان (٧/٨) بيارات البرتقال العربية هي في الدولة اليهودية؛ وعشرات القرى العربية الواقعة على تلال الدولة العربية، توجد اراضيها الزراعية في السهول، حيث الدولة اليهودية المقترحة. باختصار، ان مشروع التقسيم كما خططته اللجنة، يحوي حوالي اثنتي عشرة دانزغ وممرات مختلفة، كانت السبب المباشر للحرب العالمية الثانية؛ فالقدس واقعة في الممر تحت الانتداب البريطاني؛ ويافا تخص الدولة العربية لكن الممر يفصلها عن الدولة العربية، وأرضها الزراعية في الدولة اليهودية؛ والناصرة العربية واقعة في الدولة اليهودية، وهكذا دواليك. هذه العوامل، وهي كثيرة، تثبت ببساطة أن مشروعاً كهذا لا يمكن تطبيقه أو العمل به.

الاعتراض الاقتصادي

قالت اللجنة: «والدولة العربية المقترحة، غير قادرة على القيام بأعبائها اقتصادياً». فهي تتلقى بالتالي مساعدة سنوية من الدولة اليهودية! فأي عضو عاقل في لجنة يمكن له أن يقدم مثل هذا الاقتراح؟ هذا يعني أن شعب الدولة العربية سيبقى، طبعاً، تحت رحمة اليهود، أعدائه، الى ما لا نهاية. وماذا سيحدث لهذا الشعب إذا توقف اليهود بعد عدة سنوات عن منحهم هذه الصدقة؟ وأي شعب في الدنيا كلّها يقبل مثل هذه الاهانة ويعيش هذه العيشة الحقيرة.؟ وهل يمكن لبلد أن يكون مستقلاً ما دام خبزه يأتيه من الآخرين؟ لقد وعدت اللجنة العرب في مشروع تقسيم فلسطين بنصف، رغيف؛ ولكن بدا أن عليهم أن يستغنوا عن شرَفِهم وكرامتهم ليصبحوا متسولين محترفين قبل أن يستطيعوا تأمين هذه الكسرة من الرغيف!

ولم يقف تحيز اللجنة الملكية عند هذا الحدّ بل تعدّاه بعيداً، فاقترحت اللجنة الملكية توصية وحشية في ما يخص الـ ٤٥٠٠٠٠ عربي، في الدولة اليهودية المقترحة وهي: أن يصار الى «تبادل السكان بين الدولتين، واللجوء الى القوة إذا اقتضى الأمر، وإذا رفض الناس المشار إليهم ترك منازلهم، فإنهم يرحّلون عنها بالقوة».

هذه التوصية كانت من الظلم والوحشية بحيث رفضها أعضاء لجنة الانتدابات الدائمة أنفسهم وهم المُمالئون للصهيونية. والحق اني لأعجب كيف استطاع أعضاء اللجنة الملكية أن يفكروا بمثل هذا الظلم؟

التعاون السري، بين وزير المستعمرات والدكتور وايزمان

قُدِّم تقرير اللجنة الملكية في الثاني والعشرين من حزيران (يونيو) ١٩٣٧، الى مجلس العموم، وقبل عرضه عليه بمدة طويلة، أعطى المستر أورمزبي غور، وزير المستعمرات، سرّاً، نسخة عنه الى الدكتور وايزمان، رئيس المنظمة الصهيونية، لدراسته. فقد كان الوزير

يريد أن يعرف سلفاً اذا كان أصدقاؤه الصهيونيون سيقبلون بمشروع التقسيم. وبعد أن فحص الدكتور وايزمان التقرير، ذهب يوم التاسع عشر من حزيران (يونيو) ١٩٣٧، أي قبل عرضه على مجلس العموم بثلاثة أيام، الى وزارة المستعمرات وناقش فيه المستر أورمزبي غور، وتم ذلك كلّه في سرية مطلقة.

كتب الدكتور وايزمان تقريرا موجزاً لتلك المقابلة مع أورمزبي غور يروي فيه أن الوزارة أوضحت له كل النقاط التي أثارها. ويقول الموجز: «في نهاية الاجتماع، سأل المستر أورمزبي غور الدكتور وايزمان عن رأيه الشخصي بمشروع التقسيم فأجاب: إذا سوّيت النقاط التي أثرتها في المقابلة بما يرضينا، فإني سوف أكون، شخصيّاً، راضياً عن المشروع».

أرسل الدكتور وايزمان هذا الموجز، الذي يحمل الحرفين الأولين ح. و. ، الى المستر ماير غروسمان، وهوعضو هام في «لجنة العمل» التابعة للمنظمة الصهيونية، فقرأه هذا، دون تحفظ في جلسة سرية للمؤتمر الصهيوني الذي انعقد، في آب (أغسطس) في سويسرا ثم ظهرت صورة لهذا التقرير في «اللندن جويش كرونيكل» في الثالث عشر من آب (أغسطس) موقعة من الدكتور وايزمان بتاريخ التاسع عشر من حزيران (يونيو). واسترعى التاريخ انتباه مجلس العموم، فثارت ثائرته. وبات جلياً أن الدكتور وايزمان كان قد حصل على التقرير قبل البرلمان. واستجوبت الحكومة عن هذا التصرف الخائن ووقع أورمزبي غور في مأزق، لكن المجلس ما لبث أن أجل الموضوع نظراً للعطلة الصيفية وبعدها طويت المسألة. لكن هذه الفضيحة هزّت الصهيونية وأجرت تحقيقاً مع ماير غروسمان فأجبر فيما بعد للمثول أمام «محكمة شرف» في القدس عينها المؤتمر الصهيوني، وكان عقابه، إعفاءه مدة عامين من كل مناصبه في الحركة الصهيونية.

ردّ الفعل العربي تجاه تقرير اللجنة الملكية

كان من نشر تقرير اللجنة الملكية وتبنيه المباشر من قبل الحكومة البريطانية، أن زاد الثورة العربية اشتعالاً في فلسطين. وكانت الثورة قبل توصيات اللجنة الملكية ضد الاستبداد والظلم والاضطهاد البريطاني، أما الآن فقد أصبحت ضدّ سرقة نصف البلاد، بالإضافة الى استعباد حوالي ٤٥٠ ألف مواطن عربي تحت الحكم اليهودي أو طردهم بقوة السلاح إلى مكان آخر. ولعدم استطاعة الشعب العربي الفلسطيني احتمال مظالم التقسيم، ولاقتناعه بنيات الحكومة البريطانية الشرّيرة، عزم على إعلان الحرب وحشد كل قواه ضدّ المشروع. وأقسم أنه لن يلقي السلاح أرضاً حتى يُلغى التقسيم.

مؤتمر بلودان: أول ردود الفعل على مشروع التقسيم

دعت «لجنة الدفاع عن فلسطين» في سوريا الى مؤتمر يعقد في «بلودان»، وهي مصيف

قرب دمشق، في أيلول (سبتمبر) ١٩٣٧، لبحث موضوع تقسيم فلسطين الذي جاء في تقرير اللجنة الملكية للتحقيق (لجنة بيل) والذي تبنته في النهار ذاته، الحكومة البريطانية.

كان لمشروع التقسيم الذي أوردته اللجنة الملكية في تقريرها وقع سيء جداً على الشعب العربي قاطبة وما كان «مؤتمر بلودان» إلا فرصة لاظهار غضبه الشديد وتصميمه على رفضه المشروع.

حضر المؤتمر أهم السياسيين من جميع البلاد العربية، فأتى عدد من سياسيي مصر والعراق وسوريا ولبنان وشرق الأردن وعدد كبير من الفلسطينيين. فكان هذا المؤتمر مظاهرة أكثر منه مؤتمراً؛ ولما ذهبت مع صديقي شبلي الجمل، لنحضره، لم نستطع أن نجد مكانا في أي فندق في بلودان أو في الزبداني، فلجأنا الى الدكتور خليل مشاقة، الساكن في بلودان ورفيق شبلي في الجامعة الأميركية في بيروت، فاستضافنا طوال مدة المؤتمر.

وقرر المؤتمر رفض التقسيم بجميع أشكاله رفضاً قاطعاً. كما قرر المطالبة باستقلال فلسطين بعد أن رفض وعد بلفور والانتداب البريطاني.

المقاومة الوطنية

عز الدين القسام،
أول من بدأ حركة المقاومة الوطنية

ويجدر بنا، عند هذا الحد، أن نذكر أن حركة المقاومة الفلسطينية بدأت في شمال فلسطين منذ سنة ١٩٣٥، وأن أول من بدأ الثورة ضد الانتداب والاستبداد البريطانيين، هو عز الدين القسام، إمام أحد جوامع حيفا. كان من تأثير عظاته في صلاة الجمعة أن كثر



الشيخ عزالدين القسام

أتباعه؛ وفي آخر الأمر، حملوا السلاح بقيادته، وكان تاريخ بداية شهادتهم هو الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٣٥، أي يوم وعد بلفور. وقد استشهد الشيخ عز الدين القسام في السنة نفسها على أرض المعركة، في صدام وقع قرب قرية يعبد في منطقة حيفا، فواصل أتباعه «القساميون» جهادهم.

ثورة فلسطين العربية سنة ١٩٣٧

قامت جماعات نظمت نفسها وتسلحت بمختلف الأسلحة التي كان أفرادها يأتون بها من كل مكان، ونهدت الى التلال وراحت تكمن على جوانب الطرق كي تتصيّد القوات البريطانية التي ما فتئت تزداد وتزداد كي تسحق الثورة. وحل الجنرال ويفيل محل الجنرال ديل، قائداً عامّاً، غير أن التبديل في القيادة كان دون فائدة. فالاصطدامات ظلت تحدث يومياً. ولم تتأخر مدينة أو قرية في فلسطين عن المساهمة، بطريقة أو بأخرى، في الثورة العربية التي استمرت حتى نهاية عام ١٩٣٩، حين أوقفتها الحرب العالمية الثانية.



الجنرال ويفل

ليس باستطاعتي ولا هو في نيتي تدوين أو وصف ما حصل في فلسطين من معارك بالتفصيل، خلال سنوات النزاع. كان العرب لسوء الحظ، قليلي التنظيم والتسليح، ولكنهم كانوا مؤمنين بعدالة قضيتهم، فقاتلوا دون خوف، وبحماس ووطنية. وقد كانت خسائرنا كبيرة أمام تفوق القوات البريطانية، فهي لم توفرنا أبداً. وكانت وسائل القمع شديدة القسوة، لا تليق بأمة متمدنة ــ لُقِّبت خطأً «بأم الديموقراطية». ولقد اوقفت القانون المدني، وأقامت المحاكم العسكرية وأخذت تحكم حسب قانون الطوارىء على النحو التالي:

١ ــ إن اطلاق النار على أي شخص، عقوبته الاعدام.

٢ ــ إن حمل السلاح، أو القنابل الخ. . . أو حتى طلقة واحدة، عقوبته الاعدام.

٣ ــ التخريب والارهاب، عقوبتهما الاعدام.

لم تكن الثورة العربية موجهة ضد اليهود وانما أولاً ضد الحكومة البريطانية، أساس



المحكمة العسكرية

الاضطراب في فلسطين؛ ومع ذلك، فإن الحكومة البريطانية عينت في الخدمة الفعلية ٩٧٨ شرطياً يهودياً لحماية المستعمرات اليهودية و٣٨٨١ شرطياً احتياطياً في بوليس المستعمرات اليهودية نفسها. ولقد فضح هذا التجنيد اليهودي غير الشرعي بوضوح سوء نية السلطات، وزاد في عدم ثقة العرب بالحكومة البريطانية.



الاستاذ حنا عصفور. يدافع عن المناضلين في المحكمة العسكرية

الفصل العشرون

اشتداد الثورة العربية الفلسطينية
الحكومة البريطانية تأمر بحلّ اللجنة العربية العليا
وتنفي أعضاءها إلى جزر سيشل
تعيين لجنة فنية لتنظر في صلاحية التقسيم
«مطالب العرب» – «The Arab Charter»
«اورمزبي غور»، يستقيل من وزارة المستعمرات

فيما كانت الثورة في أوج حركتها، اغتيل في مدينة الناصرة في السادس والعشرين من أيلول (سبتمبر) ١٩٣٧، المستر أندروز، مساعد حاكم الجليل، ومرافقه. وفي اليوم التالي، أعلن المندوب السامي، وقد افترض أن القتلة من المتمردين العرب، أن اللجنة العربية العليا وكل اللجان العربية الوطنية هي «جمعيات غير قانونية» وأمر بتوقيف أعضاء اللجنة العربية العليا ونفيهم إلى جزر سيشيل. وبالإضافة إلى ذلك، أُقيل الحاج أمين الحسيني، رئيس اللجنة العربية العليا من منصب رئاسة المجلس الاسلامي الأعلى.

لقد اعتبرت الحكومة خطأً، بتصرفها هذا، أن اللجنة العربية العليا هي المسؤولة عن الثورة في فلسطين. ولكن الثورة في فلسطين لم تكن ثورة اللجنة العربية العليا ولا اللجان الوطنية مجتمعة، بل ثورة شعب فلسطين العربي من أجل بقائه. والحق أن الثورة بدأت قبل تأليف اللجنة العربية العليا.



أعضاء من الهيئة العربية العليا منفيين في جزر سيشل

أوقفت الحكومة، نتيجة لهذا «الإعلان»، الأعضاء التالية أسماؤهم: أحمد حلمي عبد الباقي، الدكتور حسين الخالدي، رئيس بلدية القدس، رشيد الحاج إبراهيم، يعقوب الغصين، رئيس بلدية الرملة. وفؤاد سابا، سكرتير اللجنة العربية العليا. ومن ثم نفتهم إلى جزر سيشل. أما الحاج أمين الحسيني فلم يوقف، لأن منزله كان في «الحرم الشريف» حيث كان دخول القوات العسكرية إليه ممنوعاً، فظل يقوم فيه بعمله اليومي المعتاد. غير أنه بعد أسابيع، ترك القدس متنكراً على قارب صيد سمك رسا به في صيدا، بلبنان. ولما كان لبنان تحت الانتداب الفرنسي، رافقه إلى بيروت ضابط فرنسي، هو الرائد كولومباني، رئيس البوليس، وبعد معاملة بسيطة، نزل ضيفاً على الدكتور فاخوري حمي السيد رجائي الحسيني..

أما بقية أعضاء اللجنة العربية العليا الذين كانوا آنئذ خارج فلسطين فقد صاروا لاجئين سياسيين في الدول العربية المجاورة. وهم: جمال الحسيني، عبد اللطيف صلاح، الفرد روك وعوني عبد الهادي. ولم يوقف راغب النشاشيبي ويعقوب فرّاج لأنهما استقالا من اللجنة، في تموز (يوليو).



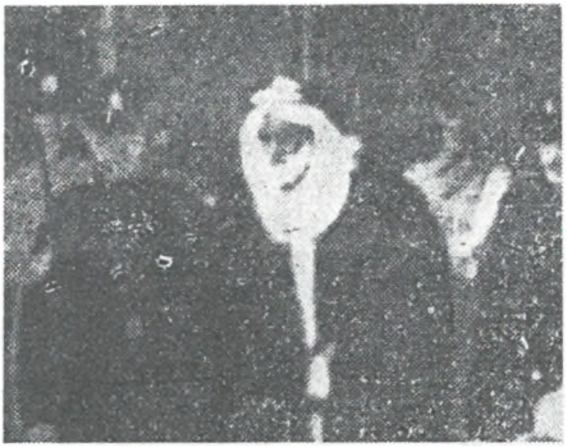
الحاج أمين الحسيني مع كولومباني في مدينة صيدا آتياً من القدس

الغرض من توقيف اللجنة العربية العليا

كان غرض الحكومة من تمزيق اللجنة العربية العليا هو، أولاً، تمزيق الثورة؛ كما

أرادت أن توجه صدمة للثوار العرب في فلسطين، تضعف بها معنوياتهم تدريجياً، حتى التسليم. غير أن النتيجة كانت العكس تماماً. ففي غياب القيادة، تكثفت الاصطدامات، وازداد التخريب، وسادت الفوضى جميع أنحاء فلسطين.

ومن أجل إخضاع شعب فلسطين العربي وإذلاله، قبضت السلطات البريطانية في الثاني والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٧، على الشيخ فرحان السعدي وهو الذي دفعته وطنيته وحماسه الديني إلى القتال من أجل الحق العربي؛ فكان أول من حوكم أمام المحاكم العسكرية التي أقيمت حديثاً، وشنق، مع أنه تجاوز الثمانين عاماً من عمره. وسار الآف المشيعين في جنازته في حيفا وهم يحملون جسد الشهيد على الأكف إلى مرقده الأخير.



الشهيد الشيخ فرحان السعدي وهو يقاد إلى المشنقة

وفي سنة ١٩٣٧، سُجل ٤٣٨ هجوماً بالقنابل، قتل فيها ٩٧ قتيلاً وجرح ١٤٩ جريحاً. واعتقل ٨١٦ عربياً و٨٧ يهودياً.

لقد صدمنا جميعاً في لندن لما سمعنا بنفي اللجنة العربية العليا إلى جزر سيشل. وأيقنا أيضاً أن هذه الخطوة اليائسة التي اتخذتها الحكومة، لن تأتي بالسلام لفلسطين بل العكس. وعلى ذلك سافرت إلى بيروت، حيث لجأ الحاج أمين ومن بقي حراً من أعضاء اللجنة.

لم أعتقد أبداً أن من مصلحة عرب فلسطين أن يغادر الحاج أمين القدس بقرار منه وحده، لكنني وجدت أنه اتخذ من بيروت مركزاً جديداً لقيادة اللجنة العربية العليا. على كل حال، كان الاستماع إليه مشوقاً وهو يروي حكاية فراره وكيف وصل أخيراً إلى بيروت، حتى إذا سألته لماذا قرر ترك الحرم الشريف، قال: «شعاري: لا تقع أبداً بين يدي عدّوك إذا استطعت».

مقابلة مع المندوب السامي:

عزمت، قبل العودة إلى لندن، على الذهاب إلى القدس كي أرى كيف كانت تجري الأمور. واستغربت حين علمت أني ممنوع من دخول فلسطين. ثم سمح لي بعد مفاوضات أجريت مع المندوب السامي.

حين وصلت إلى القدس، دعاني السير أرثر واكوب، المندوب السامي، إلى الغداء، وبعده أخذني إلى مكتبه من أجل حديث خاص. وكان أول سؤال له: لماذا العرب ثائرون؟ أذهلني السؤال فأجبت: «هنالك أسباب عديدة للانتفاضة الجديدة. أولها رفض مجلس العموم إقرار المجلس التشريعي الذي وعدت به العرب واليهود. لقد استنفد هذا الرفض كل أمل بالعدل البريطاني.

«وثانيهما انك سمحت سنة ١٩٣٤ لـ ٤٣٠٠٠ مهاجر يهودي بالدخول إلى فلسطين وفي سنة ١٩٣٥ سمحت لـ ٦١٠٠٠ مهاجر يهودي بالدخول إلى فلسطين كما انك لم تضع شيئاً تمنع به ١٨٠٠٠ مهاجر يهودي آخرين من دخول البلاد بصورة غير شرعية. كيف تسمح لـ ٧٩٠٠٠ مهاجر يهودي بالدخول إلى بلد صغير كفلسطين في سنة واحدة»؟

غدا صعباً علي أن أحترم السير أرثر وأكوب بعد هذا الاجتماع، فقد كان هذا السؤال، بعد أن ظل مندوباً سامياً على فلسطين ست سنوات كاملة، رياءً وخبثاً. غير أن السير أرثر كان يستمتع بكل ما في مركزه العالي من مجد، وهو يعلم أنه قادر على البقاء مندوباً سامياً على فلسطين فقط، إذا أطاع، دون أية ملاحظة، أوامر رئيسه المنحاز، المستر أورمزبي غور، ولهذا كانت ولايته مليئة بالاضطرابات والكوارث.

قسوة الجيش البريطاني

كانت فلسطين في حالة محزنة، تبدو وكأنها ساحة قتال، لا شيئاً آخر. لقد هجرت الحرب مئات العائلات من البلاد. كل الذين استطاعوا تركها، غادروها إلى البلدان العربية المجاورة: لبنان وسوريا ومصر. ولقد كانت القوات البريطانية في غاية القسوة تجاه السكان العرب. كانوا إذا انطلقت رصاصة من قرية ما، ضرب الجيش البريطاني كل مؤونتها وجاؤوا برجالها فأجلسوهم القرفصاء ساعات تحت الشمس في ساحة القرية. وكانت تفرض الغرامات الجماعية وتهدم البيوت بفعل قانون «العقاب الجماعي»، وفي بعض القرى كانت تطلق النار على الشبان دون محاكمة.

كانت أمي وأخي وعائلته وزوجتي وطفلاي ما زالوا في القدس لا يستطيعون التجول فيها دون مواجهة الخطر. والسفر كان جد خطيراً في فلسطين، وما كان ليستطيع أحد السفر دون إذن من السلطات العسكرية التي حلت محلّ الادارة المدنية. لقد أوقفني الجند البريطاني في إحدى رحلاتي من حيفا إلى القدس، ١٤ مرة كي أريهم إذن السفر.

لقائي مع يودا ماغنس في القدس

قبل سفري بيوم واحد إلى لندن تلقيت هاتفاً من صديقي، جورج فرنسيس غراهام براون، أسقف القدس الانجليكاني، وطلب رؤيتي حالاً. وجدت في مكتبه سيداً في منتصف العمر، طويلاً جميلاً، يتكلم باللهجة الأميركية ـ هو العالم اليهودي الأميركي المشهور، الدكتور يودا ماغنس، رئيس الجامعة العبرية في القدس. قال الأسقف، بعد مراسيم التعرف أن الدكتور ماغنس يحمل «صيغة» اتفاق أعطته إياه الوكالة اليهودية كي يقدمه إلى الزعماء العرب في بيروت. وقدر الأسقف والدكتور ماغنس، أني مادمت في القدس، فإني أفضل من يقوم بالاتصال. وكانت الوكالة اليهودية، باختصار، تريد أن تعرف ما إذا كان ممكناً لتلك «الصيغة» أن تؤلف قاعدة تفاهم عربي ـ يهودي، وهذا ما أكده لي وللأسقف الدكتور ماغنس.

كانت «الصيغة» في كنهها وحسب رأيي، مقبولة من العرب، وكان الدكتور ماغنس، واسطة السلام، شديد الحماس من أجل عرضها على الزعماء العرب في بيروت. لكنني كنت، لسوء الحظ، مسافراً إلى لندن في اليوم التالي وبطاقتي على الباخرة إسبيريا جاهزة، فرجوته المعذرة، لكنه ألح قائلاً، أنه مستعد لفعل أي شيء كي ألغي رحلتي. وما كنت، في تلك الظروف، لأرفض طلب أمرىء يريد السلام.



الدكتور يودا ماغنس

سافرت إلى بيروت في اليوم التالي، وقمت بعدة رحلات. سافر معي في إحداها الدكتور ماغنس والأسقف غراهام براون وبعد أن قضيت ستة أسابيع في المناقشات الجادة، جاء الدكتور ماغنس إلى بيت الأسقف وهو منهار وقال: «أرجوك ياسيدي، قل للدكتور طنوس أن يرجع إلى لندن. لقد أنكرت الوكالة اليهودية إطلاقاً أنها أعطتني الصيغة فجعلت مني كذاباً كبيراً». كان حزيناً حقاً.

وفي المرة التالية التي قابلته فيها، بادرني الدكتور ماغنس بالقول: «أنا خجل من أفعال شعبي».

لقد أظهر لنا هذا المدعى «عظمة» الدكتور ماغنس وإنسانيته، وحبه للسلام. كان، مثل يهودا مينوحين، مؤلف «سقوط اليهودية في زماننا»، نموذجاً لليهودي المملوء بروح

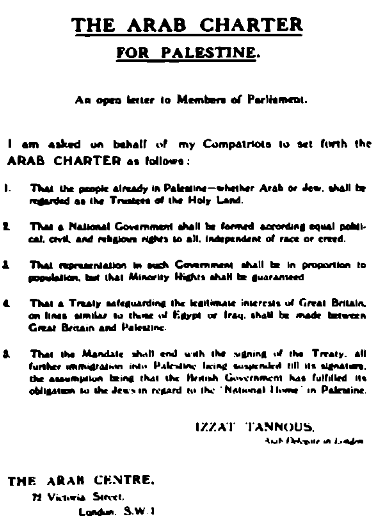
اليهودية، مجرداً من روح الصهيونية السياسية المعتدية.

مطالب العرب (The Arab Charter)

كان للطريقة التي عالجت فيها «نشرة المركز العربي» موضوع تقسيم فلسطين الذي اقترحته اللجنة الملكية، مظهرة عيوبه ومظالمه بكل وضوح، نتائج حسنة جداً. ففي اجتماع عقدته اللجنة البرلمانية المناصرة للعرب، وكنت حاضراً، القى رئيسها الكولونيل كليفتون براون كلمة امتدح فيها المركز وقال: «أؤمن، أن مشروع التقسيم محكوم عليه بالفشل وأن اللجنة التقنية الذاهبة إلى فلسطين سوف تقرر، ولا شك إلغاءه» وأضاف: «لكنني أريد أن ألفت انتباهكم إلى نقطة هامة: سوف يخلق، دون ريب، تخلي الحكومة عن مشروع التقسيم؛ فراغاً في سياستها. لقد رفض العرب مشروع التقسيم، فإذا ألغي، فماذا يحل محله، وماذا يريد العرب بديلا عنه؟ أرى من الضروري إذاً، في هذه اللحظة الحاسمة، أن يبين عرب فلسطين سياستهم وأن يذيعوها على العالم كله».

شكرت الرئيس، في جوابي، على رأيه الرزين المنطقي ووعدت بإعداد بيان أقدمه إليه حالما يصبح جاهزاً.

وفي الحادي والعشرين من آب (أغسطس) ١٩٣٨ كان البيان الذي وضعته وأسميته «مطالب العرب» (The Arab Charter) بين يدي الكولونيل كليفتون براون.



THE ARAB CHARTER

FOR PALESTINE.

An open letter to Members of Parliament.

I am asked on behalf of my Compatriots to set forth the ARAB CHARTER as follows:

1. That the people already in Palestine—whether Arab or Jew, shall be regarded as the Trustees of the Holy Land.

2. That a National Government shall be formed according equal political, civil, and religious rights to all, independent of race or creed.

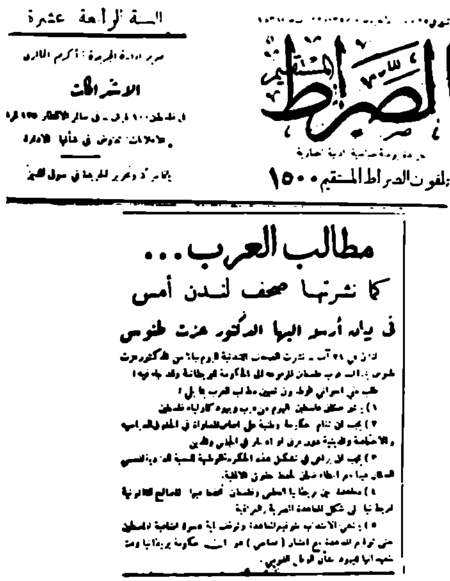
3. That representation in such Government shall be in proportion to population, but that Minority Rights shall be guaranteed.

4. That a Treaty safeguarding the legitimate interests of Great Britain, on lines similar to those of Egypt or Iraq, shall be made between Great Britain and Palestine.

5. That the Mandate shall end with the signing of the Treaty, all further immigration into Palestine being suspended till its signature, the assumption being that the British Government has fulfilled its obligation to the Jews in regard to the "National Home" in Palestine.

IZZAT TANNOUS,
Arab Delegate in London

THE ARAB CENTRE,
72 Victoria Street,
London, S.W.1



الصراط المستقيم

السنة الرابعة عشرة

الاشتراكات

تلفون الصراط المستقيم ١٥٠٠

مطالب العرب...

كما نشرتها صحف لندن أمس

في بيان أصدره الدكتور عزت طنوس

مطالب العرب (بالعربية والانكليزية)

كتاب مفتوح إلى أعضاء البرلمان

طُلب إلي أن أحدّد بالنيابة عن مواطنيّ مطالب العرب بما يلي:

١ ـ يعتبر سكان فلسطين اليوم، عرباً كانوا أم يهوداً، أولياء على فلسطين.

٢ ـ تقام حكومة وطنية، تمنح حقوقاً متساوية، سياسياً ومدنياً ودينياً، للجميع، بصرف النظر عن العرق والمعتقد.

٣ ـ التمثيل في هذه الحكومة تراعى فيه نسبة السكان، مع تأمين حقوق الأقلية.

٤ ـ توضع معاهدة بين بريطانيا العظمى وفلسطين تحفظ مصالح بريطانيا العظمى المشروعة على شكل معاهدتي مصر والعراق.

٥ ـ ينتهي الانتداب مع توقيع المعاهدة، وتوقف أية هجرة إضافية حتى توقيعها، وتعتبر الحكومة البريطانية أنها وفت بتعهداتها لليهود بشأن «الوطن القومي» في فلسطين.

عزت طنوس

مندوب العرب في لندن

المركز العربي

٧٢ فكتوريا ستريت

لندن S. W. 1.

اللجنة التقنية لدرس مشروع التقسيم

بعد ستة أشهر من إذاعة تقرير اللجنة الملكية، أخبر وزير المستعمرات، أورمزي غور، في الرابع من كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٣٨، المندوب السامي في فلسطين، بأنه سيرسل لجنة تقنية يرأسها السير جون وودهد كي تتحقق من إمكانية تنفيذ مشروع التقسيم (البلاغ الرسمي رقم ٥٦٣٤) وأن اللجنة مكلفة بأن ترى ما إذا كان ممكناً تطبيق المشروع كما أوصت به اللجنة الملكية أو أن تضع مشاريع تقسيم اخرى إذا لزم الأمر.

وصلت لجنة وودهد التقنية إلى فلسطين في السابع والعشرين من نيسان (أبريل) ١٩٣٨، أي بعد أربعة أشهر من تعيينها (وعشرة أشهر من إذاعة تقرير اللجنة الملكية). هذا التأخير الذي لا مبرر له، سببه موقف أورمزبي غور الممالىء للصهيونية، فقد ألح، مرضاة للصهيونية، على إعطاء اليهود أحسن نصفي فلسطين. ولقد كلف اللجنة التقنية بمهمة: «تقديم مقترحات للحكومة بمشروع مفصل للتقسيم أي إذا تبين أن مشروع اللجنة الملكية غير قابل للتطبيق، فعليها أن تقدم مشروعاً ممكن التطبيق.

نهاية حكم أرثر واكوب (الحكم الارهابي)

في الثالث من آذار (مارس) ١٩٣٨، غادر المندوب السامي، السير أرثر واكوب، فلسطين، بعد خدمة دامت ست سنوات كان حكمه فيها إرهابياً فاشلاً. وكان من سيئاته أنه أغرق البلاد بالمهاجرين اليهود مما استدعى الاضراب الشامل والثورة العربية في فلسطين، وهو الذي أمر البوليس البريطاني بإطلاق النار على المتظاهرين المسالمين سنة ١٩٣٣. وفي

عهده جرى التهديم في يافا وأدينت حكومته من رئيس قضاة المحكمة العليا؛ وهو الذي وعد العرب سنة ١٩٣٥ بمجلس تشريعي ولم يستطع الوفاء بوعده؛ وهو الذي أوقف اللجنة العربية العليا ونفى أعضاءها إلى جزر سيشل، وأعلن أن اللجنة العربية العليا وجميع اللجان العربية الوطنية، هي جمعيات غير شرعية، وترك البلاد في فوضى، إذ حرم العرب من قيادتهم.

ومع أن الحكم الارهابي الذي حكم به البلاد كان سياسة السلطة العليا، أي سياسة وزارة المستعمرات، إلّا أنه كان أكثر خضوعاً مما يجب لوزير متحيز مثل أورمزبي غور.

كان السير أرثر واكوب جنرالاً متقاعداً، عازباً وغنياً، يبحث عن مجد في وظيفة، ورأى أن ليس بوسعه البقاء فيها مدة طويلة إلّا إذا أطاع وزير المستعمرات وأصبح عبداً له.

أورمزبي غور يترك وزارة المستعمرات

في أيار (مايو) سنة ١٩٣٨ أخذ المستر أورمزبي غور، بعد وفاة أبيه، محل أبيه في مجلس اللوردات وحمل لقبه. كان الخبر مفرحاً للانكليز بقدر ماكان مفرحاً للعرب. وإلى القارىء بعضاً من افتتاحية «الايفيننغ ستاندرد» (١٧ أيار (مايو) ١٩٣٨).

Evening Standard

The Changes

As for the Prime Minister's other changes, in so far as they clear Ministries out of the House of Lords and transfer them to the House of Commons, there should be nothing but praise.

The disappearance of Lord Harlech (lately Mr. Ormsby-Gore) is an advantage to the Colonial Office and a real benefit to Mr. Chamberlain's administration. Lord Harlech did not possess the grasp needed for the problems which confronted him; Mr. MacDonald is much better suited to the post.

He has two big issues to deal with— Palestine, and the former German colonies, which we now hold in trust. Neither of these liabilities should ever have been foisted on this country, and they should be disposed of as swiftly as may be.

الايفننغ ستاندارد تذم في اورمزبي غور، عدو العرب

«التبدلات: إن غياب اللورد هارليخ (مستر أورمزبي غور سابقاً) هو في صالح وزارة المستعمرات وربح حقيقي لإدارة المستر تشيمبرلين، لأن اللورد هارليخ ماكان يملك القوة اللازمة للمشاكل التي واجهته، والمستر ماكدونالد يليق بهذا المركز».

مع السير كوزمو باركينسون وكيل وزارة المستعمرات

السير كوزمو باركينسون، سموح الوجه وشعره يخطه الشيب، حلوالحديث، ظل خمسة وعشرين عاماً وكيلاً لوزارة المستعمرات. كانت لي معه سنة ١٩٣٦ عدة مناقشات، جهد خلالها في الدفاع عن سياسة حكومته، وهو شعار الموظف الانكليزي: حكومتي دائمًا على حق. ولم يختلف أمره بعد سنتين، لما جئته في أمر التقسيم، قال؛ ان حكومته تبنت المشروع، حين

أقتنعت بأنه الحل الوحيد الذي يرضى به العرب واليهود، فعزمت ـ وشدّد على عزمت ـ على تنفيذه إلّا إذا ثبت لها خطأه، وقال: «إن مستقبل فلسطين، في هذه الظروف، يتوقف على تقرير لجنة وودهــد». وأضاف انه يأسف لمقاطعة العرب لها نظراً لأهمية تقريرها. ثم قال: «ألا تعلم يا مستر طنوس أن الحكومة لا تريد ولا تقدر على تنفيذ التقسيم إذا ارتأت اللجنة التقنية عدم تنفيذه والعكس بالعكس؟ وهكذا ترى أن مقابلتها كانت ضرورية».

أبديت أنا أيضاً له أسفي ثم قلت: «ومن يقابل اللجنة التقنية في فلسطين واللجنة العربية العليا، منفية؟» وأضفت: «أوافقك على أن إنجازات اللجنة التقنية سوف تكون هامة جداً، ولكننا ـ مهما كانت إنجازاتها ـ فسوف نرفض تقسيم وطننا»، وانتهت إلى القول: «إذا كنت تظن يا سير كوزمو، أن الكلمة الأخيرة هي للجنة التقنية، فأنا أقول لك: إن الكلمة الأخيرة هي لشعب فلسطين العربي، وللعدالة».

لم يوافقني السير كوزمو باركنسون لأنه كان مقتنعاً بالتقسيم، قال: «دعنا ننتظر تقرير اللجنة التقنية، وأرجو أن تأتي لتراني عندما ينشر التقرير».

نشاط انصار العرب من النواب والنبلاء

مقابلة خاصة مع نائب وزير المستعمرات وحديث عن التقسيم الفاشل

محاولات تبوء بالخذلان لانصار الصهيونية وجريدة التايمس ـ الاهتمام الزائد بقضية العرب

قضية فلسطين

تلقينا امس من الدكتور عزت طنوس مدير المكتب العربي في لندن الرسالة الجوية التالية:

كان موضوع قضية فلسطين مهملا من الجرائد اليومية في الثلاثة الاشهر الاخيرة واقتصرت الصحف على سرد اخبار الاضطرابات المحلية واظهرت عدم الاكتراث بها ويرجع السبب في ذلك الى انشغال الرأي العام البريطاني في حوادث اوربا الوسطى التي تطورت تطوراً أخطر هدد السلام في العالم والى اهتمامه العظيم بتسلح بريطانيا الجوي وهو ما نتج عنه استقالة وزير الطيران اللورد سونتون ومساعده اللورد ونترتون صديق العرب

المذكرة والاقتراح

غير ان بعض الجرائد اليومية اشار الى المذكرة التي قدمها حزب الدفاع الوطني للجنة الفنية. وقد كان لهذه المذكرة الوقع الحسن والصدى المطلوب وذكرت الجرائد ايضاً اقتراح سمو الامير عبدالله لحل مشكلة فلسطين بالتفصيل. ولكنها لم تعلق عليه

لا فائدة

والواقع ان دوائر لندن السياسية لا ترى فائدة من البحث في مشروع التقسيم او اي حل اخر قبل انتهاء اللجنة الفنية من المهمة التي انتدبت اليها

مع نائب الوزير

وفي مقابلتي الطويلة مع السر كوزمو باركنسون نائب وزير المستعمرات ذكر لي جنابه ان الحكومة ستظل تتبع سياستها الا اذا ظهر لها ان مشروع التقسيم ليس عادلاً وعملياً وبما ان هذا يتوقف على قرار اللجنة الفنية وابحاثها فليس من الممكن ان تقرر الحكومة سياستها النهائية قبل انتهاء اللجنتين اعمالها والمنتظر ان يكون ذلك في اخر تموز

مقاطعة العرب

ونظراً لما تعلقه الحكومة من اهمية كبرى على قرار اللجنة الفنية فقد ابدى لي جنابه اسفه الشديد لمقاطعة العرب اللجنة وزاد على ذلك قوله ان الحكومة البريطانية ليست هي الهيئة الحاكمة في انكلترا بل هو البرلمان الذي يحكم ولذلك يتعذر على الحكومة وهي المرتبطة بسياسة التقسيم تجاه البرلمان ان تستعيض عنه بأي مشروع اخر الا اذا ثبت لها ان مشروع التقسيم لا يمكن تطبيقه والفصل في ذلك في اعتقاده يرجع الى اللجنة الفنية

البقية على الصفحة ٥

نشـاط انصار العرب

الفصل الحادي والعشرون

مالكولم ماكدونالد، وزيراً جديداً للمستعمرات
المفاوضات مع المستر ماكدونالد انتهت بنجاح
إلغاء سياسة التقسيم
عقد «مؤتمر فلسطين» في لندن لبحث مستقبل فلسطين
وفد عربي إسلامي في لندن

تكدرت جداً بتعيين المستر مالكولم مكدونالد وزيراً للمستعمرات، لأني ما كنت نسيت بعد اعتراضه على كتاب أبيه الأبيض (١٩٣٠) وموقفه الممالىء للصهيونية مع بعض السياسيين البارزين، أمثال بلدوين وسينكلر ولورد سيسيل وسواهم. وهو الذي قال: «لو لم يُعطَ وعد بلفور سنة ١٩١٧، لوجب أن نعطيه الآن». وعلى هذا، وجد العرب في تعيينه استمراراً لسياسة سلفه المتعصب للصهيونية. فكتبت له بروح متشائمة، أطلب موعداً لمقابلته، وقد كانت لقاءاتي مع سلفه أمراً سهلاً وما جعلني أهملها إلا عدم فائدتها، وقد رجوت من الله أن يكون البحث مع المستر ماكدونالد، الوزير الجديد للمستعمرات، أكثر فائدة.

حضرت بعد أسبوعين اجتماعاً للجنة البرلمانية في إحدى قاعات مجلس العموم، بحثنا فيه ما يثيره تعيين وزير مستعمرات جديد من تطورات. وانتهزت المناسبة فأنبأت المجتمعين بأمر الرسالة إلى المستر ماكدونالد، وبأنها ظلت منذ خمسة عشر يوماً دون جواب. فاتخذنا قراراً بتأليف لجنة فرعية تقابل وزير المستعمرات الجديد وتبحث معه القضية الفلسطينية ومشروع التقسيم. وقررنا أن يناقش معه الرئيس وضع «المركز العربي» الرسمي، وأن يسأله عن طلبي لمقابلته.

قابلت اللجنة الفرعية، برئاسة الكولونيل كليفتون براون، المستر ماكدونالد، في العاشر من حزيران (يونيو) سنة ١٩٣٨، وكان الاجتماع طويلاً والمناقشة شاملة. وفي اليوم التالي تلقيت رسالة طويلة مشجعة من الكولونيل كليفتون براون يفصّل لي فيها وقائع اللقاء، ويقول أن الانطباع عن المستر ماكدونالد كان عظيمًا لدى الأعضاء ومشجعاً، وأنهم وجدوه منفتح العقل حريصاً على حل عادل للمعضلة الفلسطينية. ويقول أيضاً انه أرسل مذكرة بالاجتماع إلى جريدة «لندن تايمز» للنشر (لم تنشر أبداً). أما عن رسالتي للوزير، فقال انه قادم إلى المركز في اليوم التالي كي يراني بشأنها.



الكولونيل كلفتون براون

ولما جاء في اليوم التالي، زادني معرفة عن حسن انطباعه عن الوزير. أما بشأن رسالتي فقد قال إن وزارة المستعمرات غاضبة على المركز العربي لأنه ينشر، ما أسماه، «بالأنباء الكاذبة» عن وسائل القمع التي تتخذها القوات البريطانية ضد الشعب العربي في فلسطين. وأن الوزارة لا تصدق بأن الجيش البريطاني يمارس تلك القسوة. وقد قال الوزير: «على كل حال، سوف أقابل الدكتور طنوس إذا كتب لي من فندقه لا من المركز العربي». استغربت الفكرة وتخيلت، أن وزارة المستعمرات قد اتخذت قراراً بعدم الاعتراف بالمركز العربي. ولم يزعجني ذلك، لأنني كنت متأكداً من صدق كل ما جاءت به نشرات المركز. وهذا الصدق، هو الذي دفع المستر ماكدونالد إلى الذهاب، بعد أسابيع قليلة، متنكراً إلى فلسطين كي يري بنفسه وضع البلاد المؤسف.

لم أتأخر في إرسال كتاب آخر (من فندق مايلستون). وفي أقل من أسبوع جاء الجواب من السكرتير الخاص، يقول فيه أنه يسر المستر ماكدونالد أن يراني في العشرين من حزيران (يونيو) في الساعة الثانية عشرة والنصف، ولمدة نصف ساعة.

أول لقاء مع المستر ماكدونالد

وصلت الوزارة قبل الموعد المحدد بخمس دقائق، أدخلني بعدها السكرتير إلى الغرفة الواسعة التي أعرفها جيّداً. كنت أنتظر أن ألقى رجلاً عبوساً، فوجدت العكس. رأيتني مع سيد على وجهه ابتسامة حلوة، جميل، أبيض الوجه، أسود الشعر، لبقاً مهذباً.

وبعد «التحيات» التقليدية التي لم تنقصها اللياقة، بدأ الحديث قائلاً: «أنت، يا دكتور طنوس، أول من أقابل من العرب». قلت: «آسف يا سيدي، أنا لست نموذجاً حسناً لأولئك العرب الذين لم تقابلهم». وسألني أين تعلمت الإنكليزية، فقلت في مدرسة سان جورج في القدس، وفي جامعة بيروت الأميركية. وحدثته عن أني من نابلس، وكيف كنت في طفولتي، أسافر من نابلس إلى القدس على ظهر الحمار. وسألته، حين اطمأننت، ما إذا كان بوسعي أن أكون صريحاً معه. قال: «نعم، تستطيع أن تكون صريحاً وتقول ما شئت، لأني سوف أكون صريحاً معك». عندها قلت: «يا مستر ماكدونالد، بصراحة أقول لك، اني كنت شديد الحزن لما سمعت من الإذاعة أنك عينت وزيراً للمستعمرات. تذكرت رسالتك مع آخرين، إلى «التايمز»، تلك التي تعترض فيها على كتاب أبيك الأبيض لسنة ١٩٣٠. وتذكرت قولك: «لو لم يُعطَ وعد بلفور سنة ١٩١٧، لوجب أن نعطيه الآن». ثم أضفت: «أما كنت تشعر بالخيبة لو كنت مكاني؟». قال: «بلى يا دكتور طنوس، كنت أصاب بها مثلك؛ لكني أعد بأنك إذا استطعت إقناعي بغير ذلك، فسأكون مفتوح العقل، لأني أريد أن أكون محقاً وأن تتحقق العدالة». سرّتني تلك الكلمات؛ وهل كنت أنتظر جواباً أفضل؟


المستر مالكولم ماكدونالد

تحدثنا حوالى ثلاثين دقيقة ببساطة عن وضع فلسطين اليائس. ونما بيننا نوع من حسّ الصداقة والتفاهم. وحين دخل سكرتيره ليدل على انتهاء الوقت. طلب إليه أن يقترب من مكتبه. ثم قال: «أريد أن أراك ثانية يا دكتور طنوس، وأود أن ترسل لي مذكرة تشرح فيها قضيتكم كاملة وبأسرع ما يمكن». وطلب إلى سكرتيره أن يحدد لي موعداً ثانياً يوم التاسع عشر من تموز (يوليو). ثم قال: «وهكذا يكون لدي الوقت الكافي لدراسة مذكرتك». ورافقني إلى الباب، فشكرته بقلب فرح، ثم ودعته. وبهذا انتهى أول اجتماع من سلسلة اجتماعات تلته بنجاح تام.

في اليوم التالي، أبرقت للجنة العربية العليا في بيروت بملخص عن المقابلة وأبرزت الصحافة في فلسطين ولبنان وسوريا ومصر رسالتي، وقامت بدعاية واسعة لها علّها تشجع عرب فلسطين المضطهدين الواقعين تحت ظلم الأحكام العرفية.

٢١ - ٦ - ١٩٣٨

آخر ساعة

مشكلة فلسطين في لندن

اجتماع الدكتور طنوس بوزير المستعمرات

ماذا يقول مكتب « الاهرام » عن تاثير هذا الاجتماع

لندن فى ٢٠ يونيو — لمراسل الاهرام الخاص — قابل الدكتور عزت طنوس فى الساعة الثانية عشرة والدقيقة ٣٠ بعد ظهر اليوم المستر ملكولم مكدونالد وزير المستعمرات البريطانية وباحث معه ٣٥ دقيقة .

وقد علم مكتب « الاهرام » ان هذه هى المرة الاولى التى يجتمع فيها المستر مكدونالد بمندوب عربى ، وان المباحثات التى دارت كانت على جانب كبير من الصراحة والصداقة .

رغبة وزير المستعمرات فى حل المشكلة حلا سلميا

ويظهر ان الدكتور طنوس قد اثر تاثيرا حسنا بما بدا له من سعة ادراك المستر مكدونالد وشدة رغبته فى حل مشكلة فلسطين حلا سلميا .

وقد اعرب المستر مكدونالد عن رغبته فى مباحثات اخرى طويلة مع الدكتور طنوس وحدد لها يوم ١٩ يوليو القادم وفى خلال هذه المدة سيقدم الدكتور طنوس الى وزير المستعمرات مذكرة تتضمن النقط الرئيسية موضحة النظر العربية فيما يتعلق بقضية فلسطين .

اجتماع الدكتور طنوس بوزير المستعمرات

بدّلت رأيي بمالكولم ماكدونالد

ملأني اجتماعي بوزير المستعمرات، أملاً بقدوم فترة تفاهم أفضل بين الحكومة البريطانية والشعب العربي الفلسطيني. لقد كانت الدقائق الثلاثين كافية لتبديل رأيي في المستر ماكدونالد. إن صراحته وانفتاحه، والطريقة التي ينوي معالجة القضية الفلسطينية بها، أثرت بي كثيراً وبددت شكي وظني بأمانته، وأحسست بأني سوف أناقش موضوعنا المعقّد مع إنسان مستقيم، عكس سلفه، أورمزبي غور. إنه يريد أن يستقصي الحق ويجري العدل.

لم يتردد المستر ماكدونالد في القول أنه لم يدرس القضية الفلسطينية دراسة شاملة؛ وقد دفعه شعوره بعظم المسؤولية، إلى الإحساس بأنه بحاجة إلى تفهّم أفضل عن «المعضلة». وعلى هذا، طلب مني أن أرسل له «مذكرة» تعكس وجهة النظر العربية. ثم بوعيٍ، أعطى نفسه الوقت الكافي لدراسة المذكرة فأخر الموعد التالي إلى ١٩ تموز (يوليو)، أي أربعة أسابيع. فبات واجبي الملّح إذاً أن أسرع في إرسال «المذكرة» التي سوف تكون ولا شك، موضوع البحث في اجتماعاتنا المقبلة.

كانت المذكرة التي أرسلتها لوزارة المستعمرات مختصرة وكاملة، وحرصت على أن تكون على مكتبه في أقل من أسبوع. وما أن تلقاها، حتى تلطف فأرسل لي رسالة شخصية تشعرني بوصولها وبأنه سيدرسها جيداً.

إن رغبة وزير المستعمرات الجديد، الشديدة، في زيادة معرفته عن المسألة الفلسطينية، شجعتني على أن أبحث مع صديقي وزير مفوض العربية السعودية، الشيخ حافظ وهبة، ومع السفير المصري، حسن نشأت باشا، فكرة إرسال مذكرة من الحكومات

العربية إلى الحكومة البريطانية، تعبر فيها عن آرائها بمشروع التقسيم ورفض إنشاء دولة يهودية في فلسطين. وقُبلت الفكرة.. وفي خلال خمسة عشر يوماً، رفعت مذكرة إلى وزارة الخارجية البريطانية وقعها ممثلو العربية السعودية ومصر واليمن والعراق، وتضمنت النقاط التالية:

١ ـ إن الحكومات العربية تعلن، أكان مشروع التقسيم الذي نصحت به اللجنة الملكية، عادلاً أم غير عادل، قابلاً للتنفيذ أم لا، ممكناً اقتصادياً أم غير ممكن، أنها تعتبر إنشاء دولة يهودية في فلسطين ضارّ جداً بمصالح شعب فلسطين العربي اقتصادياً، وسياسياً، وجغرافياً وأنها قررت مقاومة المشروع بكل الوسائل التي تمتلكها.

٢ ـ تؤمن الحكومات العربية أن أفضل حلّ للقضية الفلسطينية هو إنشاء دولة فلسطينية يتمتع كل سكانها، بصرف النظر عن العنصر والدين، بحقوق ديمقراطية متساوية، دولة ترتبط ببريطانيا بمعاهدة صداقة شبيهة بالمعاهدة مع العراق ومع مصر.

٣ ـ إن سياسة القوة التي تتبعها بريطانيا العظمى في فلسطين ضد السكان العرب، مخالفة لكل قواعد العدل، ومحكوم عليها بالفشل، لأن الحق أقوى من السلاح.

٤ ـ إن المعاملة القاسية التي يعامل بها عرب فلسطين، حلفاؤنا، الذين ارتبطنا معهم بمعاهدات صداقة، تضع الحكومات العربية في موقع صعب مرتبك لا تستطيع تحمّله.

زادت مذكرة الحكومات العربية إلى وزارة الخارجية البريطانية في وزن نضال عرب فلسطين فغدا موضوع جدل في كل الأوساط السياسية اللندنية، وبات يحظى بعناية جدّية في وزارة المستعمرات، وناقشه بحماس مجلسا اللوردات والعموم أكثر من أي وقت مضى. وفي الرابع من تموز (يوليو) سيناقش اللورد لامنغتون مشروع التقسيم في مجلس اللوردات وفي السادس منه سيتخذ اللورد لويد الموقف نفسه. وفي الثالث والعشرين من حزيران (يونيو) سأتكلم في أحد أروقة المجلس أمام مجموعة كبرى من أعضاء مجلس النواب. وفي الثالث من تموز (يوليو) ستناقش المسألة الفلسطينية مع الوكالة اليهودية عند «الكويكرز». كما أن المجلة الشهرية «كويري» نشرت في هذا الشهر عددها الثاني الخاص عن «اليهود»، وكتب فيه إثنان وعشرون كاتباً وسياسياً أجنبياً منهم هـ. ج. ويلز، عالجوا فيه القضية الفلسطينية، ولي فيه مقالٌ ضد التقسيم. وقد نشرنا بعض تلك المقالات في «نشرة المركز العربي». وكان ما كتبه هـ.ج. ويلز والماركيز أوف لوندندري، وآخرون، دعمًا لقضيتنا.

الاجتماع في مجلس العموم

دعت «جمعية الشرق الأدنى والأوسط» إلى اجتماع كبير يعقد في الثالث والعشرين من حزيران (يونيو) ١٩٣٨، في إحدى قاعات مجلس العموم، لأتكلم أنا فيه، عن القضية

الفلسطينية، وأناقش خاصة، مشروع التقسيم الذي نصحت به اللجنة الملكية وتبنته الحكومة البريطانية. رأس الاجتماع السير أرنست بينيت، عضو لجنة أنصار العرب، وأحد أعضاء مجلس العموم البارزين. وكان عدد الحضور يفوق الثمانين نائباً.

افتتح الرئيس الاجتماع فقال: «إن فقر الدعاية العربية في المملكة المتحدة جعلنا نجهل الجانب العربي من قضية فلسطين». وأضاف: «غير أن مركزاً عربياً تأسس حديثاً، غرضه إعلام الرأي العام البريطاني عن هذه القضية، والدكتور طنوس الذي يدير المركز، هو معنا، اليوم، كي يحدثنا عن اضطرابات بلده وينوّرنا عن مشروع التقسيم الذي اقترحته اللجنة الملكية حلاً للمعضلة الفلسطينية. وهأنذا أعطيه الكلام».

تكلمت ساعة كاملة بينت فيها أساس المشكلة ولماذا حمل السكان العرب السلاح. كانت الحجج التي قدمتها عن عدم صلاح مشروع التقسيم مقنعة. «إن إنشاء دولة عربية تعتمد ببقائها على معونة الدولة اليهودية» هو وحده سبب كاف لإلغاء المشروع. ومن العبث أن نفرض مشروعاً ظالماً على شعب، عنوة وبقوة السلاح.


البرلمان البريطاني

وما كدت انتهي من كلمتي حتى أخذ أحد القاعدين في الصف الأمامي، يصرخ ويولول، منتقداً «جمعية الشرق الأدنى والأوسط» ورئيس الاجتماع لسماحهما لعربي بالكلام في مثل هذا الاجتماع الهام دون أن يمكنوا المنظمة الصهيونية من فرصة مثلها. واتهم الحضور جميعاً بالانحياز واللاسامية وطلب معاملة أعدل لليهود.

صدمني هذا التدخل الفظ، لكن غالبية الحضور لم تتأثر به لأنهم تعودوا هذا الاحتيال الصهيوني الذي لا يقصد منه غير تعطيل الاجتماع وتخريب نتائجه الحسنة. غير أن الرئيس، السير أرنست بينيت، استطاع، نظراً لخبرته البرلمانية الطويلة، إسكات ذلك الوقح وشرح للحضور أني أول سياسي عربي تكلم في تلك القاعة، بينما تكلم فيها عدة خطباء صهيونيين.

وكان من شأن التدخل أن زاد الحماس، فكثرت الأسئلة دليلاً على الاهتمام. ثم نهض عربيان فعبرا عن رأيهما، مما سرّ له البرلمانيون لأن أكثر الحضور لم يسمع من قبل عربياً يخطب. كان العربيان هما: نجيب علم الدين، رئيس شركة طيران الشرق الأوسط ومهران قلبيان، تاجر السجاد في القدس. وبينما كنت أنتظر سماع صراخ العميل الصهيوني ثانية، ألقيت نظرة لأبحث عنه، لكنه للأسف، اختفى!

اللورد لامنغتون ــ الصديق الدائم

اللورد لامنغتون هو أحد أقدم أصدقائنا في لندن. كان من أولئك الإنكليز النبلاء، الذين تحسّسوا منذ البدء، بظلامة العرب، وأن وعد بلفور غير عادل، وأن تطبيقه في فلسطين يجلب في النهاية لبريطانيا وللعرب ولليهود أيضاً، الاضطراب والأذى. وهذا ما حدا باللورد لامنغتون، سنة ١٩٢٠، أي قبل فرض الانتداب على فلسطين، أن يسجل سؤالاً في مجلس اللوردات، يستوضح فيه، هل طلبت عصبة الأمم من شعب فلسطين، ونسبة العرب منه ٩٣ بالمئة، أن يختار المنتدب عليه؟ ثم قال: «الذي أعرفه أن عصبة الأمم لم تعط عرب فلسطين فرصة اختيار المنتدب، ومع أنهم اختاروا قبلاً، حين زارتهم لجنة كنغ ــ كراين سنة ١٩١٩». واستمر يقول: «لماذا إذاً لا تطلب الحكومة من الحكومة الأميركية تقرير لجنة كنغ ــ كراين، وتستجيب بموجبه إلى رغبات شعب فلسطين قبل أن يسري الانتداب على فلسطين؟» فأجاب المركيز أوف لوندندري، بالنيابة عن الحكومة، بأنها لا تستطيع ذلك.

لم ينقص اهتمام اللورد لامنغتون بالقضية الفلسطينية منذ ذلك الحين. وكلما جاء وفد عربي إلى لندن، قدم له جمّ الخدمات. ولقد ساعدنا كثيراً سنة ١٩٣٦، وجعلنا من بيته في وست كنزنغتون، ملتقى اجتماعاتنا. أما أنا، فلم أنقطع أبداً عن الاتصال به طيلة إقامتي في لندن، وكنت أذهب إليه كلما دعتني الحاجة إلى رأيه.

وفي الرابع من تموز (يوليو) ١٩٣٨، استجوب اللورد لامنغتون الحكومة في ما إذا كانت، قبل ذهاب اللجنة الملكية إلى فلسطين، قد وعدت المنظمة الصهيونية بدولة صهيونية في فلسطين، وقد شك اللورد لامنغتون بحياد أورمزبي غور، لأنه كان يعرف التعاون الذي بينه وبين المنظمة الصهيونية. وهذا الشك، تعدى اللورد لامنغتون إلى اللورد لويد، الذي استجوب الحكومة أيضاً، عما إذا كانت قد اقترحت التقسيم على اللجنة الملكية نفسها قبل أن تذهب إلى فلسطين، وما إذا كان في نية الحكومة أن تعطي اليهود أكثر مما نصّ عليه وعد بلفور؟

المناقشة عند «الكويكرز»

دعا «الكويكرز» لمناقشة تقام في «بيت الأصدقاء» (Friends House) في الثالث من

تموز (يوليو)، تكلم فيها كل من: الأستاذ برودوتسكي، سكرتير الوكالة اليهودية، وأنا، بصفتي المندوب العربي في لندن، والكابتن فيليب، والدكتور مود، وموسى الحسيني. وقد حضر المناقشة أكثر من خمسمائة سياسي وعدد كبير من الصحافيين.

طالت المناقشة دون أن يفتر الحوار. وقد دام الاجتماع أكثر من خمس ساعات وكان ناجحاً، قرئت في نهايته المقررات التالية:

١ ــ وعد بلفور هو سبب الاضطراب في فلسطين.

٢ ــ العرب يقاتلون من أجل حقوقهم.

٣ ــ اليهود يطلبون كثيراً وفلسطين لا تستطيع أن تكون ملجأهم الوحيد.

٤ ــ عناد بريطانيا في القضية الفلسطينية يضر بكل الأطراف المعنية.

وكنا في غاية الرضى لهذه النتيجة نظراً لقوة التأثير الإعلامي والدعاية اليهودية في إنكلترا.

وفد عربي إسلامي في لندن

أتمت الثورة العربية في فلسطين عامها الثاني دون أن تفتر، فترددت أصداؤها في كل البلاد الإسلامية والعربية. ولقد احتج العرب والمسلمون بشدة، حيث كانوا، وخاصة مسلمي الهند، ضد تدابير الكبح التي لجأت إليها الحكومة البريطانية كي تُخضع الشعب العربي في فلسطين. وكان الوقع شديداً في مصر أيضاً، فاتصل محمد علي علوية باشا، وهو عضو في البرلمان المصري، بالبرلمانات العربية والإسلامية، داعياً إلى مؤتمر برلماني، يعقد في القاهرة، لمناقشة المسألة الفلسطينية الملحة.

التأم المؤتمر في أوائل تموز (يوليو) ١٩٣٨، برئاسة فارس الخوري، رئيس المجلس النيابي في سوريا، واتخذ القرارات التالية:

١ ــ توجيه احتجاج إلى بريطانيا العظمى على سوء إدارتها وأعمالها في فلسطين، ترسل نسخ منه إلى كل برلمانات العالم.

٢ ــ حضّ حكومات العالم على التدخل لإيقاف حمام الدم في فلسطين.

٣ ــ إنذار بريطانيا العظمى بسوء العواقب التي يمكن أن تنجم عن معاملتها القاسية لشعب بريء يكافح دفاعاً عن وجوده.

٤ ــ إرسال وفد إلى لندن لمقابلة الحكومة البريطانية وأعضاء البرلمان؛ والتعبير للرأي العام البريطاني عن غضب العرب والمسلمين لما يحدث في فلسطين.



محمد علي علوبه باشا

كان الوفد الذي قَدِم إلى لندن مؤلفاً من محمد علي علوبة باشا من مصر، وعبد الرحمن الصدّيقي ومحمد خليق الزمان من الهند. وقد استقبلهم عدد من الأصدقاء استقبالاً حاراً في محطة فيكتوريا في لندن، كما استضافهم «المركز العربي» الذي صار مكتباً لهم.

عقد الوفد، بعد وصوله، مؤتمراً صحافياً في «المركز العربي» حضره عدد كبير من الصحافيين. غير أن سيطرة اليهود على الصحافة في لندن، مكنتهم من عدم نشر أي خبر عن الوفد. ولكن تلك الخيبة، لم تثبط من همتهم، أو تقلل من اندفاعهم، وعمدوا إلى سلسلة من المقابلات، بدأوها بوزارة الخارجية، ووزارة المستعمرات، وقائمة طويلة من النوّاب الذين استقبلوهم بصفتهم زملاء لهم. وقد رتب هذه المقابلات المندوب السامي للهند، فيروز خان نون، والمركز العربي الذي عرّف الوفد على اللجنة البرلمانية لنصرة العرب التي استضافتهم بحرارة، عدة مرات، على «التراس» في مجلس العموم.

وبما أن عبد الرحمن الصديقي وخليق الزمان كانا يتقنان الإنكليزية، فقد تحدثا في اجتماعاتنا الأسبوعية وأثارا الرأي العام البريطاني، لا عن قضية فلسطين فحسب وإنما عن قضية الهند أيضاً، التي كانت حتى ذلك الوقت دون حلّ. وأذكر أني رافقتهما ذات مرة لمقابلة اللورد لويد في مكتبه. كان في تلك السنة جدّ مشغولاً في خطة ما يسمى الآن بالمجلس الثقافي البريطاني (British Council). كانت المناقشة جدّ حامية لأن اللورد لويد كان يحبذ استقلال فلسطين دون استقلال الهند.

وحينما وجد الوفد أنه لا يستطيع الدعاية بواسطة الصحافة، عزم على توزيع بيان أعده بعناية، ذكر فيه قصة المؤتمر البرلماني الذي عُقد في القاهرة، وقراراته، ومهمة الوفد في المملكة المتحدة. واستطاع الوفد عن طريق الإعلان المدفوع، أن ينشر الكثير عن البيان في الصحف قبل توزيعه. وكم كان استغرابهم عظيماً، وصدمتهم شديدة، حين علموا أنه

لا يوجد في كل لندن مطبعة واحدة تقبل بأن تطبع بيانهم. فأزعجهم الأمر، فجربوا ثانية وثالثة، ولكن عبثاً. وأخيراً وجدوا شركة وافقت على طبعه، ولكنها أرجعت إليهم بيانهم كما هو قبل موعد التسليم المرتقب بيوم واحد، مع أسف الشركة العميق!!!

ليست هذه هي الحالة الوحيدة التي وقفت فيها السلطة والضغط والنفوذ اليهودي ضد النشر. فقد عانى الشيء نفسه كتاب ج. م جيفريز، الذي قضى في كتابته عشر سنوات وبات جاهزاً للطبع دون جدوى. والسبب أنه لم يمتدح الصهيونيين ونادى بالعدل للعرب. وأي ناشر في إنكلترا يتجرأ على نشر كتاب لا يمتدح الحركة الصهيونية، فكيف به إذا انتقدها؟ وانقضت الأيام ثم الشهور ثم السنون دون نتيجة حتى لقد كاد يصل المسكين إلى درجة الانهيار غضباً. وأخيراً، ذات يوم، جاءني وعلى وجهه ابتسامة. دخل مكتبي في «المركز العربي» ومعه سيد آخر. قدمه لي على أنه أحد مديري مؤسسة لونغمان غرين وشركاه، وهي دار نشر شهيرة لها فروع في نيويورك وتورنتو. قال لي إنهم يريدون نشر الكتاب «فلسطين: الحقيقة» (Palestine: The Reality) إذا وافقت على شرطين:

١ ــ أن أقرأ المخطوطة وأقدم للناشر بياناً خطياً بأن الكتاب صحيح، برأيي.

٢ ــ أن أشتري مسبقاً خمسمائة نسخة، سعر الواحدة عشرين شلناً.

سألته إن كانت لديه شروط أخرى فأجاب المدير «لا». فوعدته عندئذ بقراءة المخطوطة وطلبت منه العودة من أجل البيان والمبلغ بعد انقضاء خمسة أيام. ومن أجل ألا أضيع الوقت، ذهبت تواً إلى فندق مايلستون وأغلقت علي الغرفة أياماً ثلاثة قرأت خلالها الكتاب. وحين عاد المدير بعد خمسة أيام، ناولته البيان والشيك. وقبل أن أعطيه المخطوطة، أخذها مني «جيفريز» وكتب عليها والدموع تملأ عينيه: إلى زملائي في «المركز العربي» حتى إذا صدر الكتاب بعد بضعة شهور، أهداني نسخة خطّ عليها. «إلى صديقي العزيز طنوس الذي ساعدني في كل مراحل طريق هذا الكتاب الطويل».

«جيفريز» الانكليزي الشريف

لقد تخيل «جيفريز» يومئذٍ أنه مدين لي لمساعدته في إصدار كتابه، لكن، واأسفاه! فالحقيقة هي عكس ذلك. إن العالم العربي كله، ولست وحدي، مدين ل ج. م. ن جيفريز، بدَين لم يدفعه قط. كانت السنوات العشر التي قضاها في صياغة كتابه الفريد عن تاريخ فلسطين، سنوات ضيق. كان فقير الحال والذي آلمه أكثر من كل شيء والذي لم يستطع تحمله، كان سلوك حكومته البشع في حكم فلسطين. لقد تألم طيلة عشر سنوات وهو ينتقد وزارة الخارجية ويفضح أخطاءها. كان أول من كشف عن رسائل مكماهون ــ الحسين في «الديلي ميل» وأول من كتب عن التعاون بين أورمزبي غور، ووايزمان

في مشروع التقسيم. لم يكن كتاب «فلسطين: الحقيقة» كتاب الحقيقة وحسب؛ بل كان كتاب «الوحي» أيضاً.

رأيته آخر مرة سنة ١٩٣٩، في «المركز العربي». وحين عدت إلى لندن سنة ١٩٤٥ كي أفتتح مركز جامعة الدول العربية لم يكن جيفريز في لندن. وعلمت أنه يعمل في السفارة البريطانية في مدريد. كنت أريد أن أراه، لا لأشكره ثانية وثالثة، بل لأقبل يده النبيلة التي سطرت ذلك «النتاج».

زيارة إلى ادنبره

في السادس من آب (أغسطس) ١٩٣٨، أي في اليوم نفسه الذي طار فيه المستر ماكدونالد إلى فلسطين كي ينظر في وضع بلادنا المضطرب، دعتني وزوجتي «مجموعة أوكسفورد» (The Oxford Group) لرحلة إلى سكوتلندة، بلد وزير المستعمرات. زرنا في غلاسكو المعرض الامبراطوري وقضينا أياماً أربعة في ادنبره، في قصر البلدية حيث استقبلنا نائب الرئيس، بيلي كولتارت (Bailie Coltart) لأن اللورد، رئيس البلدية، كان غائباً. كانت ــ والحق يقال ــ جولة لا تنسى. وفوق ذلك غطّت الصحافة السكوتلاندية زيارتنا جيداً مما كان له تأثير حسنٌ على قضيتنا.



العرب ضيوف ادنبره

الاجتماع الثاني مع وزير المستعمرات

كانت اللقاءات في وزارة المستعمرات أهم ما يقوم به المركز العربي من نشاطات، ففيها تصنع السياسة. وعلى ذلك كان طبيعياً أن أتطلع بأمل إلى الاجتماع الثاني مع الوزير وموعده في التاسع عشر من تموز (يوليو).

دام هذا الاجتماع ساعة مع المستر ماكدونالد. اتفقنا على أن يتكلم كل منا ربع ساعة، تتلوها ربع ساعة أخرى. كما اتفقنا على اللقاء أسبوعياً وتمديد مناقشة الساعة إذا لزم الأمر.

وتتبعت الصحف الفلسطينية وصحف البلدان العربية المجاورة باهتمام المفاوضات الجارية بيني وبين وزير المستعمرات. كما أن الصحف اللندنية لم تهملها أيضاً فقد كتبت معظمها عن هذا اللقاء. فكتبت «الايفننغ ستاندارد ــ Evening Standard» مساء ذلك اليوم ما يلي: (الصورة)

attention." But Hansard has missed Mr. Baxter entirely. Evening Standard

July 19/ 1938

Arab Envoy

DR. IZZAT TANNOUS. the representative in London of the Palestine Arabs, was received to-day by the Colonial Secretary. This is the second interview which he has had with Mr. MacDonald on the subject of Palestine.

Dr. Tannous came over here with the Arab delegation in 1936 and has now established a kind of unofficial Palestinian-Arab legation in London.

He is small, dark and active, the son of an Arab merchant. He went to an English school in Jerusalem, and was offered a scholarship at Durham University. But he decided instead, on a medical career.

He had established a considerable medical reputation in Palestine, principally as a children's specialist, when the call of the Arab cause diverted all his energies into politics.

الايفننغ ستاندارد

واستمرت اللقاءات حتى العشرين من آب (أغسطس). فكانت صريحة وشاملة تبدأ من سنة ١٩١٥ حتى يومئذ؛ ولو أني أردت كتابة ما تبادلنا فيها من حجج، لاقتضاني الأمر مجلداً كبيراً.

بدأت ــ باختصار ــ وجهة نظري عن القضية الفلسطينية بهذه الطريقة:

١ ــ الاستقلال هو حق طبيعي لشعب فلسطين العربي ولا يجوز التصرف فيه.

٢ ــ لم يكن عرب فلسطين بحاجة لوعد بالاستقلال من بريطانيا أو أية أمة أخرى. وما رسائل مكماهون ــ الحسين إلا تأكيد لهذا الحق. لم تكن «أنا مُدينة لكم بالاستقلال» بل «أعترف بحقكم الطبيعي بالاستقلال».

٣ ــ لم تكن بريطانيا تملك أي حق في فلسطين، وبالتالي، لم يكن لها الحق في وعد اليهود أو أي أحد آخر بحقوق فيها. وعلى ذلك كان الوعد الذي جاء في تصريح بلفور لا شرعياً وكان تصريح بلفور نفسه، «وثيقة غير شرعية».

٤ ــ وبما أن وعد بلفور أدخل في صك انتداب عصبة الأمم على فلسطين، وهو «دستور» حكومة الانتداب في فلسطين، أصبح الانتداب على فلسطين دستورياً غير

شرعي. وعلى ذلك، كانت كل القوانين والمراسيم التي أصدرتها الحكومة المنتدبة خلال فترة الانتداب،لا شرعية.

تلك كانت وجهة نظر العرب، يومئذ، والآن وإلى الأبد. وهذا لا يعني، بالطبع، أن المستر ماكدونالد وافق على كل آرائنا، لكنني على يقين، أن الفرق بيننا، بسبب طهارة وجدانه، لم يكن واسعاً.

المستر ماكدونالد رجل مستقيم

كان من أذكى من تعرفت عليهم في حياتي. سريع الفهم يلتقط الفكرة في لمحة البصر؛ ممتلئاً بحس العدالة وهذا ما منحه الشجاعة لأن يقول ما يؤمن بصحته؛ كان شجاعاً عندما صرح في مجلس العموم عن الهجرة اليهودية فقال: «لو كنت عربياً لخفت». قال هذا وهو يعرف أن غضب اليهود سوف ينصب على رأسه. كان مستقيًما حين تحديته بسؤال مباشر: «ماذا تفعل لو كنت مكاني؟» فأجابني قائلًا: «أفعل الذي أنت تفعله». إن حبي واحترامي للمستر مالكولم ماكدونالد لعميقان.

حادثة أخرى زادت في احترامي له، وهي قضية رئيس بلدية القدس. كان الدكتور حسين الخالدي، رئيس البلدية المنتخب، وبما أنه عضو في اللجنة العربية العليا، نفي إلى جزر سيشل في سنة ١٩٣٧. ومنذئذٍ حلّ محله نائب الرئيس اليهودي بالرغم من وجود نائب رئيس مسيحي عربي، هو يعقوب فرّاج. وانقضت عدة شهور بات فيها سكان القدس العرب يمقتون وجود رئيس بلدية يهودي، فاحتجوا لدى الحكومة طالبين تعيين رئيس بلدية عربي لأن ذلك من حقهم، ما دام الانتخاب غير ممكن بسبب الاضطرابات. وبعد المداولة مع المستر ماكدونالد حول هذا الموضوع، اقتنع بأن هذا المركز يحتله العرب منذ قرون، وعندها، لم يتردد في الطلب إلى المندوب السامي بتعيين رئيس بلدية عربي، بعد أن يقوم بالاستشارات اللازمة. ومن ثم، عُينّ القاضي مصطفى الخالدي رئيساً لبلدية القدس.

في نهاية محادثاتنا، اطمأننت إلى أن وزارة المستعمرات وافقت على أكثر النقاط التي ناقشناها. واقتنع الوزير بأن الهجرة اليهودية زادت عن الحد وأنها كانت المحرض الرئيسي لثورة العرب. وبأن بيع الأراضي زاد أيضاً عن حدّه وأنه نجمت عنه معضلة «العرب بلا أرض». كما اقتنع أيضاً وقبل أن ينشر تقرير وودهيد، بأن التقسيم غير عادل، وغير ممكن تنفيذه. وبأن اليهود وصلوا إلى كل ما يريدون وأن كل مطالب العرب رفضت. قلت له ذات مرة: «ألا تعتقد يا مستر ماكدونالد بأن الوقت حان كي تلتفت الحكومة البريطانية إلى الجهة الأخرى؟».

لقد وضح لي منذ بداية لقاءاتنا، أن الحكومة البريطانية تبحث عن حلّ غير التقسيم. وكنا، من جهتنا، أعلنّا عن حلّنا في «المطالب العربية» التي عممناها قبل أشهر؛

«كتاباً مفتوحاً لكل أعضاء البرلمان». وأرسلنا صورة عنها لوزارة المستعمرات، كما أن مذكرتنا إلى وزير المستعمرات تضمنت أيضاً مطالب العرب. وقد جربنا في هذه المطالب أن نسهل على بريطانيا التخلي عن التزاماتها غير الشرعية وغير الممكن تطبيقها. ولقد أعطت «المطالب العربية» في صلبها، كل اليهود، الذين دخلوا فلسطين خلال الانتداب، حقوقاً مدنية وسياسية، مساوية لحقوق السكان العرب الأصليين ومنحتهم تمثيلاً متناسباً مع عددهم في «حكومة فلسطين المستقلة» وضماناً لحقوق الأقليات.

مشروع التقسيم قضي عليه

لقد أقنعت أحاديثنا المستر ماكدونالد بعدم إمكانية تنفيذ مشروع التقسيم، غير أن الحكومة كانت مضطرة لانتظار تقرير لجنة التقسيم التقنية، التي أرسلتها من أجل التأكد من صلاح أو عدم صلاح المشروع، شريطة ألا يطول بها الانتظار نظراً للحرب المضطرمة في فلسطين. وقد أوضح لي هذا الأمر في اجتماعنا الأخير، إذ قال لي: «قررت الحكومة أن تتخلّ عن مشروع التقسيم، واتخذنا قراراً بعقد مؤتمر في لندن، «مؤتمر فلسطين» نناقش فيه المسألة الفلسطينية مع العرب الفلسطينين واليهود، كلٍ على حدة. وسوف تمثل العرب، اللجنة العربية العليا، وتمثل اليهود، الوكالة اليهودية. أما أعضاء اللجنة الذين في جزر سيشل، فسوف نأتي بهم إلى عاصمة عربية مجاورة، لا إلى فلسطين، كي يشاركوا في المؤتمر. وسوف تلغي الحكومة سياسة التقسيم عندما ينشر تقرير لجنة التقسيم التقنية. ولسوف تتبنى الحكومة، في مؤتمر فلسطين، سياسة ترضي الطرفين، فإذا فشلت، تبنت سياستها الخاصة بها».

اشراك البلدان العربية في «مؤتمر فلسطين»

أبهجني الحديث ولو أني كنت أنتظره. لقد انتهى رسمياً التقسيم الذي كان كابوساً علينا، وما استطعت أن أخفي فرحي. قلت له: «سرني أن اتخذت الحكومة هذا القرار، وأؤكد لك يا مستر ماكدونالد، أنها كانت أحكم خطوة... وأود أن أقدم لك ملاحظة واحدة».. وبدا لي متعطشاً لتلك الملاحظة، فأتممت: «ما رأيك في دعوة البلدان العربية للمشاركة في هذا المؤتمر؟». قال دون تردد: «لا...، لا... نريد أن تظل القضية ضمن حدود فلسطين. لا نود أن نجعل منها قضية عربية، فلنبقها فلسطينية». قلت: «لكن القضية الفلسطينية تجاوزت الحدود الفلسطينية وما عادت قضية فلسطينية تماماً. ألم يتدخل الملوك والأمراء العرب في الإضراب الكبير وهم الذين أنهوه؟ ألم تكن دعوة الملوك والأمراء هي التي دفعت اللجنة العربية العليا لتعديل رأيها فتشهد أمام اللجنة الملكية بعد أن قاطعتها؟ وربما كان تأثير الحكومات العربية حسناً في هذه المغامرة الجديدة؟».

تردد المستر ماكدونالد وبدا لي أني قدمت له شيئاً للدراسة. قال: «يجب أن أرى في هذه المسألة، رئيس الوزراء، وآمل أن أعطيك جواباً في الاجتماع القادم».



نفيل تشيمبرلين

العشرون من آب (أغسطس)، كان موعد الاجتماع الأخير. وجدته باسمًا، حين بدأ الحديث بأن رئيس الوزراء، المستر نيفيل تشيمبرلين. وافق على الاقتراح وسوف يرسل دعوات إلى حكومات، العربية السعودية، ومصر، والعراق واليمن وشرق الأردن. ومع أن سوريا ولبنان لا يزالان تحت الانتداب الفرنسي، فسترسل الدعوتان إلى حكومتيهما الوطنيتين.

بعد ذلك، طلب إلي المستر ماكدونالد أن أسافر إلى بيروت كي أتصل باللجنة العربية العليا، تحضيراً للمؤتمر. وكان مفروضاً ألا يعلم بالأمر غير أعضاء اللجنة العربية العليا؛ لأن تبدّل سياسة الحكومة يجب أن يظل سراً حتى تعلنه الحكومة ببلاغ رسمي في الوقت المناسب. وكان في تقدير المستر ماكدونالد أن يبدأ المؤتمر في كانون الأول (ديسمبر)، وهي فرصة أشهر ثلاثة لتحضير الترتيبات المعقدة التي لا بد من إنجازها قبل انعقاد المؤتمر.

كان هذا أسعد يوم في حياتي، وكان أسفي الوحيد أني لا أستطيع إذاعة الخبر المبهج إلى كل إنسان، إلى كل فلسطيني، إلى كل عربي، فأسعدهم به مثلي. وعدت بالكتمان وفعلت ذلك.

لما غادرت الوزارة ذهبت رأساً إلى «المركز العربي» وكتبت رسالة إلى المستر ماكدونالد أنبأته فيها عن مدى سروري بلقائه، وبالأحاديث الصريحة التي تداولناها معاً والتي ساهمت، حبّاً منه بالعدل، في الوصول إلى تفاهم أفضل بين الشعب العربي الفلسطيني والحكومة البريطانية. وفي اليوم التالي تلقيت منه الرسالة التالية:

22nd August, 1938.

Dear Dr. Tannous,

It was kind of you before you left London to send me a note. I also felt pleasure in meeting you, and hope that our talks will be helpful in the present distressing Palestine situation.

I will certainly write to the High Commissioner about you.

I hope that you will have an enjoyable holiday and find your family well. I shall look forward to seeing you again when you return to London which I understand will be early in October.

With kind regards,

Yours sincerely,

Malcolm MacDonald

وزارة المستعمرات

٢٢ آب (اغسطس) ١٩٣٨

عزيزي الدكتور طنوس

كان لطفاً منك ان ترسل لي كتاباً قبل سفرك من لندن. أنا أيضاً سررت للقائك، وارجو ان تكون ابحاثنا هذه مفيدة لفلسطين في الحالة المحزنة التي هي عليها.

سأكتب إلى المندوب السامي في فلسطين بخصوصك دون شك.

ارجو ان تقضي وقتاً سعيداً، وان تجد عائلتك بصحة جيدة، وسأتطلع إلى لقائك ثانية، حين رجوعك إلى لندن وهو كما فهمت في اوائل تشرين الأول (اكتوبر).

مع تحياتي ــ

المخلص مالكولم ماكدونالد

كتاب من وزير المستعمرات إلى الدكتور طنوس

الفصل الثاني والعشرون

العدول عن سياسة التقسيم يرضي العرب
رجوع الأعضاء المنفيين في سيشل
استمرار المفاوضات مع وزير المستعمرات
مقابلة مع المستر أتلي رئيس حزب العمال المعارض
(الحزب الموالي لليهود ككل)

غادرت لندن إلى بيروت عن طريق الاسكندرية، أكبر وأجمل مرفأ في مصر. في الاسكندرية، زارني على ظهر الباخرة، سيدان، أحدهما عوني عبد الهادي، عضو اللجنة العربية العليا فأخبرته بالسر، أما الثاني فهو الوطني السوري المعروف، الأمير عادل ارسلان الذي كان عضواً في وفدنا لدى عصبة الأمم والذي كان يحلّ محليّ أحياناً في «المركز العربي» عندما أغادر لندن. وأخبرني عوني، وهو في غاية السعادة، عن عزمه على السفر إلى بيروت كي يلتقي ببقية أعضاء اللجنة.

وقبل أن تغادر الباخرة الاسكندرية، صعد إلى ظهرها السيد، داوود العيسى، قاصداً مدينة حيفا المحطة التالية في الرحلة، وهو مدير جريدة «فلسطين» التي تصدر في يافا. أرسلته جريدته كي يقابلني فيكتب تقريراً عن إنجازات «المركز العربي» في لندن، وعن محادثاتي مع وزير المستعمرات، والهدف من رحلتي إلى بيروت. قال لي داوود: ان الشعب العربي في فلسطين يحس بأن شيئاً ما قد تم، وهم يتطلعون إلى معرفته. فحدثته مطولاً عن عمل «المركز العربي» في لندن وعن المحادثات مع المستر ماكدونالد، لكن لم أبح له بالسر. وتعشينا معاً وكان لنا حديث طويل بعد العشاء دام ساعات عدة. وفي اليوم التالي، أي التاسع والعشرين من آب (أغسطس) سنة ١٩٣٨، ظهر مقال من صفحتين كاملتين من جريدة فلسطين، ما زلت أحتفظ بنسخة منه ورجعت إليها وأنا أكتب هذا الجزء من الكتاب.

مع اللجنة العربية العليا

ذهبت بعد وصولي إلى بيروت، مباشرة، لرؤية الحاج أمين الحسيني الذي



عيسى داوود العيسى. صاحب جريدة فلسطين

كان يقضي الصيف، في قرنايل، أحد مصايف الجبال اللبنانية. كان هناك الفرد روك وجمال الحسيني، عضوا اللجنة العربية العليا. فقدمت لهما ملخصاً لأحاديثي مع المستر ماكدونالد وعن السياسة الجديدة التي قررت الحكومة البريطانية تبنيها. فباتوا في غاية السعادة وكادوا لا يصدقون كيف أن مالكولم ماكدونالد استطاع أن يحدث مثل هذا التغيير في أشهر ثلاثة. والواقع أنه جاء وزارة المستعمرات في أيار (مايو) وبدأنا المفاوضات في حزيران (يونيو) وانتهى مشروع التقسيم قبل أن ينتهي شهر آب (أغسطس). حقيقة إنها معجزة.

كان التخلي عن مشروع التقسيم، والحق يقال، أمراً أساسياً في حلّ المعضلة الفلسطينية، ولكنه ليس كل شيء نطالب به، فما زالت أمامنا طريق طويلة. والذي كنا بحاجة ماسة إليه، هو أن نعدّ وبسرعة، دراسة جيدة للمؤتمر دفاعاً دقيقاً عن حقوقنا. صحيح أن الحق إلى جانبنا، لكن المهم أن نثبت أن صراعنا هو صراع حق ضد باطل، لا صراع حق ضدّ حق، كما قررته اللجنة الملكية المتحيزة.

مع المندوب السامي في القدس

كانت عائلتي تقيم في مصيف بحمدون في لبنان. وكانت مئات العائلات الفلسطينية منتشرة فيه فراراً من الأحكام العرفية في فلسطين. كانت التدابير العقابية التأديبية العسكرية هي النظام المعمول به في فلسطين وكانت قاسية وخطرة حتى على الملتزمين بيوتهم، لكنني أردت الذهاب إلى فلسطين لأرى المندوب السامي بخصوص هذه العقوبات العسكرية التي كان يفرضها الجيش البريطاني على الشعب، بالرغم من عدم انتظاري لفائدة ترجى.

وبينما كانت الدلائل تشير إلى أن قضيتنا تتقدم سياسياً، كانت الثورة تزداد اضطراماً في فلسطين. فقد تعطلت الحياة الاقتصادية والاجتماعية في البلاد، وكان الأمن مفقوداً. وامتدت الأسلاك الشائكة كي تغلق الحدود على البلدان العربية المجاورة، وأقيمت قلاع بوليسية في كل البلاد، سميت أبنية تيغارت*، كجزء من خطة الدفاع. يضاف إلى ذلك

* تشارلز تيغارت (Sir Charles Teggart)، هو خبير أتت به الحكومة من أجل أغراض «الدفاع» فاقترح تلك الابنية التي سميت باسمه.

أن اليهود بدأوا بالردّ، فقد وضعوا في الخامس والعشرين من تموز (يوليو) ١٩٣٨، قنبلة كبيرة في سوق الخضار في حيفا قتلت ٧٤ شخصاً وجرحت ١٢٩. كما وضعت قنابل يهودية أخرى في سوقي خضار القدس ويافا، أدت إلى خسائر فادحة في الأرواح.

في الرابع والعشرين من آب (أغسطس) اغتيل المستر مافيت، معاون حاكم منطقة جنين، ففرض قانون منع التجول على كل فلسطين. ومنع السفر بالسيارة أو القطار في كل المناطق إلاّ بإذن عسكري.

كان علي، لدى وصولي إلى حيفا، أن أحصل على إذن للسفر إلى القدس. وفي القدس اكتشفت أنه يجب علي أن أرتدي الكوفية والعقال لأن المناضلين فرضوهما على كل العرب الذكور. والسبب بسيط إذ لما كان لباس رأس المناضلين الكوفية والعقال، أخذت السلطات العسكرية توقف وتتهم كل من يرتديها على أنه مناضل ولما اتخذهما الناس جميعاً لباس رأس، لم تستطع تلك السلطة العسكرية اتهام كل الناس.

دامت المقابلة ساعة مع المندوب السامي السير هارولد مكمايكل. كان حزيناً مثلي. قال لي ان السلطات العسكرية تتحمل مسؤولية القانون والنظام وأن دور الإدارة المدنية لا يتعدى دور النصح والاستشارة. جربت أن أشرح سخف القمع العسكري، وأنه كلما إزداد الشنق، كلما إزداد الهياج والانتقام. قلت: «ليس هدف الثوار العرب القتل. هدفهم: أنصفونا، ولا يمكن للعمل العسكري، مهما قسا أن يحل محلّ العدالة».



حدود فلسطين مقفله بالأسلاك الشائكة

ناقشت المندوب السامي حول شكاوى بعض مخاتير القرى، وهي تنتقد بمرارة تدابير القمع البالغة القسوة وفي بعض الأحيان، الفظاعات التي يرتكبها الجند ضد سكان القرى. قلت له: «تلك الفظاعات خلقت حقداً كبيراً بين السكان والجندي البريطاني وسادت بينهما روح الانتقام البغيض. وهنا يكمن الدور الذي تستطيع الادارة المدنية أن تلعبه».

عرجت على نابلس، مسقط رأسي

أثناء عودتي إلى بيروت، عرجت على نابلس مسقط رأسي. فمكثت فيها أياماً قليلة مع أختي ليديا. التي تزوجت، لسنة خلت، من القس نجيب قبعين*. كان هو وزوجته متعبين، يائسين: النسف التعذيب والقتل والشنق، يوماً بعد يوم، شهراً بعد شهر وسنة بعد سنة حتى انهارت اعصابهما. لم يكن العذاب جسدياً بل كان عذاباً روحياً.

كلما أزور نابلس، تنتعش فيّ ذكريات الطفولة. ومدرستي القديمة ما زالت قائمة. واحسّ بالرعشة نفسها التي أحسست بها أمام أول شجرة ميلاد رأيتها. اتذكر موسى ناصر وكيف كنا نذهب معاً إلى المدرسة والصداقة التي أنقذت حياته يوم جريمة فندق الملك داوود. واتذكر بئر السامرية، غير البعيد عن المدينة. وفي وسط هذا القتال والقلق، أحسست بالعزاء والراحة عندما تخيلت السيد، يحدث المرأة السامرية عن «الحياة الأبدية».



سيادة المطران نجيب قبعين

ولد نجيب قبعين في السلط من أعمال شرق الأردن، من أرومة عربية. وما كان يستطيع السكوت ولو أنه قس، وكان ينتقد، بمرارة، الحكومة البريطانية لسوء ما صنعت في فلسطين. قال: «تخيل كيف رحبنا بالجيوش الانكليزية في السلط سنة ١٩١٧، وكيف فرحنا لما دخلت المدينة. قضى عرب المنطقة كلها أسبوع فرح ومسرات، حتى إذا انسحبت الجيوش الانكليزية نتيجة لضغط الأتراك؛ ما كان يستطيع أحد منا البقاء خوفاً من انتقام الأتراك المتخلفين. وما كان لنا إلاّ اختيار الانسحاب، على الأقدام، مع الجنود البريطانيين مسافة منه ميل ومعنا ما نملك

* هو الآن الأسقف المتقاعد نجيب قبعين. كرس أسقفاً للكنيسة الانجيلية الأسقفية العربية في الأردن وسوريا ولبنان سنة ١٩٥٨، وهو أول عربي يجري تكريسه أسقفاً للكنيسة الانجيلية الأسقفية العربية.

من متاع زهيد وأطفالنا على ظهورنا. وبقيت عدة آلاف منا لاجئة حتى استعيدت البلاط. لكن يا للأسف، إن الجيوش التي رحبنا بها عام ١٩١٧، هي نفسها التي تطاق علينا النار اليوم».

زيارة إلى الطائفة السامرية

وقبل أن أغادر نابلس، قمت مع القس نجيب بزيارة إلى كاهن السامريين الأعلى، الكاهن عمران، صديقي ورفيق أخي سليمان في مدرسة نابلس. إن الطائفة السامرية وهي الوحيدة في العالم، تعد مائتين وخمسين شخصاً فقط. وهم يعتقدون بأن «جبل القربان» ليس في القدس وإنما هو جبل جرزيم قرب نابلس، ويدّعون امتلاك أقدم توراة في العالم، وهي الأسفار الخمسة الأولى المكتوبة على الرق. واختلافهم مع اليهود أنهم لا يؤمنون إلاّ بالأسفار الخمسة الأولى فقط من العهد القديم. ويأتي مئات السواح إلى الحي السامري كل عام لرؤية التوراة القديمة. ونحن الذين رأيناها مرات عديدة لم ننهِ زيارتنا قبل إلقاء نظرة على الأثر القديم الثمين.



الكاهن عمران، رئيس كهنة السامريين

الحاج أمين الحسيني زعيم الثورة العربية

عدت إلى بحمدون لأكون مع عائلتي بضعة أيام. وكان الحاج أمين الحسيني ما يزال في قرنايل. استأجر فيها بيتاً كبيراً له بستان واسع جداً كي يتسع للجماهير التي تزوره يومياً. كان في أوج شهرته، فما من وطني عربي إلاّ ويريد أن يراه، فهو الزعيم الديني السياسي لحركة المقاومة الفلسطينية. كان بين زواره رؤساء وزارات عرب ووزراء وأعضاء مجالس نيابية، وفلسطينيون من جميع طبقات الشعب يؤمنون إيماناً عجيباً بالقائد العربي. كان زعيم الثورة العربية في فلسطين بلا منازع، كلمته هي العليا. هو الحاكم، والوسيط، والحكم. وبما أنه وصل إلى هذا المركز الفريد، فقد اعتبره الناس مسؤولاً مباشراً، أو غير مباشر، عن كل ما كان يجري في فلسطين من خير أو شر، والذي لا شك فيه أن النزاعات العائلية الحادة التي استمرت بين العرب في فلسطين قد أساءت كثيراً إلى سمعتنا كشعب وإلى ثورتنا المقدسة. وقد استغل العدو هذا الخلاف بين أبناء البلد الواحد وأظهرنا بمظهر شعب يحب سفك الدماء بينما نحن نقيض ذلك.

شعرت بالسعادة في «المركز العربي» حين رأيت لدى عودتي، المسز أرسكين، وجيفريز، وجورج منصور وموسى الحسيني، وقد انشغلوا بتحويل مكتبنا الجديد في ٥٥٤ ترافلغار سكوير إلى ما يشبه المفوضية، أكثر منه مكتباً ذا غرفتين على «٧٢ فيكتوريا ستريت». كان المكتب الجديد واسعاً كأنه سفارة حتى لقد استطعنا أن نستقبل فيه كل الوفود العربية (أي حوالي ٥٠ شخصاً) التي جاءت لحضور «مؤتمر فلسطين».

وبما أن «مؤتمر فلسطين» في لندن سيبدأ في كانون الأول (ديسمبر) أو في مطلع كانون الثاني (يناير) لم يبق أمامنا سوى ثلاثة أشهر للتحضير له، فبدأنا بجمع المعلومات عن المواضيع التي سوف تناقش حتماً، مثل: الهجرة اليهودية، الهجرة غير الشرعية، بيع الأراضي، العرب بلا أرض، العرب العاطلون عن العمل، مقتطفات من تقريري لجنة شو ولجنة بيل، تقرير سيمسون ولويس فرنش، رسائل مكماهون ــ الحسين، وإلخ... وصنفنا كل موضوع على حدة، وطبعنا على «استانسيل»، نسخاً عديدة لتوزع على الوفود. ثم بدأت المحادثات مرة أخرى مع وزير المستعمرات. وتعددت اللقاءات حتى سألني البواب يوماً إن كنت أصبحت موظفاً في الوزارة. وحافظت المفاوضات على الصراحة والصدق، فانطلقت من النقطة التي انتهينا عندها وهي «التخلي عن التقسيم».

نشأت بيني وبين المستر ماكدونالد صداقة حقيقية من خلال الصراحة والصدق في العمل. وثق بي ووثقت به، وزالت بيننا الرسميات، فتناقشنا في موضوع «حكومة فلسطين» المقبلة كصديقين مستقيمين يرغبان بإيجاد مخرج للمعضلة الصعبة، لأنها إذا لم تحل الآن، فسيكون قد سبق السيف العذل.

لا حل بدون انهاء «وعد بلفور»

إن أية دراسة للمسألة الفلسطينية، في أي زمن، تُظهر بوضوح أن وعد بلفور هو أساس النزاع. وما كانت لتنشأ القضية الفلسطينية لولا «وعد بلفور». وعلى ذلك، كان علاجها الجذري استئصال السبب، كما هو شأن المرض. وكل دواء آخر، ليس سوى مهدىء، يريح مؤقتاً.

قلت: «يا مستر ماكدونالد، لا حل لقضية فلسطين إلاّ باستئصال سبب النزاع، وعد بلفور، أنا طبيب وأعرف أن أية كمية من الأسبرين مهما بلغت لا تشفي من ألم السرطان شفاء دائماً. علاجه الوحيد أن نستأصله. يجب أن نوقف نمو وعد بلفور حالاً على أمل أن نبقيه ورماً بسيطاً وإلاّ نما وصار، لا شك، سرطاناً قاتلاً، لا شفاء منه، لقد وعدتم ــ برأينا ــ

وعداً غير شرعي بوطن قومي لليهود في فلسطين شريطة ألّا يضر بحقوق السكان العرب، أفلم تتضرر حقوقنا؟ وحتى متى تريدون الاستمرار في هذا الدرب الخطأ؟»

كان المستر ماكدونالد مقتنعاً بأن ما أقوله هو الحق، ولكن، من وجهة نظره، كان الوقوف بجانب الحق، صعباً جداً بسبب الحرب التي يشنها عليه، لو فعل، الصهيونيون وحزب العمال، نصير الصهيونية، ومناصرو الصهيونيين العديدون من حزب المحافظين نفسه. ثم إن قناعة المستر مالكولم ماكدونالد وحدها غير كافية، لأنه هو لا «يصنع السياسة» وعليه أن يقنع رئيس الوزراء المستر تشيمبرلين وبقية أعضاء الوزارة. وهذا أيضاً لا يكفي، لأن مع القناعة بالحق، تجب الشجاعة والحزم في التنفيذ. كنت خلال المفاوضات أرى هذه العقبات كلها ولكنها لم تيئسني، بل كنت على يقين بأن المستر ماكدونالد عازم على ربح المعركة.

كانت الأحوال في هذه الأثناء، مضطربة جداً في فلسطين واستمرت التقارير تأتيني من بعض مخاتير القرى يشكون من قسوة معاملة الجيش للقرويين. وأكثرها إثارة، شكوى من مختار حلحول وفيها أن أحد الضباط أمر أن يموت اثنا عشر شاباً ظمأً. فربطهم حتى نفذ حكمه. وعندما أخبرت المستر ماكدونالد عن هذا الجرم الفظيع، لم يصدقني، ثم قال لي مشككاً: «قصتك لا يمكن أن تكون صحيحة؛ سأكتب حالاً للمندوب السامي عن الأمر وأنقل لك جوابه». ودعاني بعد أسابيع إلى مكتبه وقال لي: «أنا حزين جداً لأن قصتك صحيحة والعذر الوحيد: أنه ضابط شاب قليل الخبرة»... كانت مثل هذه الفظائع تجعل المستر ماكدونالد يستنكر قوة السلاح ويتحفز للبحث عن سلام عادل.



الجيش البريطاني يطارد الفدائيين

ومرّة أخرى كتبت للمستر ماكدونالد عن حادثة أليمة في نابلس. . فلقد نمي إليّ، أن القوات البريطانية أطلقت النار على طفلين فقتلتهما. عندها أرسل حالاً رسالة إلى المندوب السامي يطلب فيها تقريراً عن الحادثة. وبعد أسابيع قليلة تلقيت الرسالة التالية:

عزيزي الدكتور طنوس،

تذكر أنك كتبت لي في الثامن والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر)، عن حادث وقع في نابلس، اتهمت فيه القوات البريطانية بإطلاق النار على طفلين. ولقد وصلني تقرير من المندوب السامي على فلسطين عن الحادث:

الوقائع هي أنه في التاسع من تشرين الأول (أكتوبر)، عند الغسق، أطلقت النار دورية عسكرية في جوار نابلس طلقة وحيدة، على متهم عربي، فار من السجن، كي يقف. واصطدمت القذيفة بدرابزين حديدي وتناثرت قطعاً أصابت لسوء الحظ طفلين في الجوار وقتلتهما.

والتأمت في الحال محكمة للتحقيق، ومن جملة من شهد، أهل الطفلين القتيلين. وشهد طبيب فلسطيني بسبب الوفاة.

وقد أكدت المحكمة أنه لم تطلق غير طلقة بندقية وحيدة، ولم يقم الجنود بأي شيء آخر. كما أوردت المحكمة الرأي القائل بأن الموت نجم عن شظايا معدنية ظهر لدى الفحص أنها قطع من القذيفة.

ولقد شكر أب الطفلين رئيس المحكمة على المشقة التي عانى منها في التحقيق بالحادث المؤلم وأنا موقن أنك سوف توافق على أن هذا التقرير يلقي على المسألة ضوءاً مختلفاً تماماً.

صديقك
مالكولم ماكدونالد

لقد أثبتت هذه الحوادث أن الوضع المضطرب في فلسطين لم يتحسن. كانت قوة البوليس، ما تزال بإمرة القائد العام، وقادة المناطق لا يزالون يحلون محل القائمقامين المدنيين، الذين تقلص دورهم إلى إبداء الرأي فقط.

وفي التاسع عشر من تشرين الأول (أكتوبر)، أعاد الجيش البريطاني احتلال القدس القديمة، بعد أن كانت قلعة للمناضلين العرب. وكان منع التجول لا يزال مفروضاً على كل مناطق فلسطين وكان السفر ممنوعاً إلاّ بإذن من السلطة العسكرية.



الجيش البريطاني يفتك بالشعب الفلسطيني

سنة ١٩٣٨: سجلت السلطات العسكرية ٥٧٠٨ حادثة عنف وكان عدد القتلى والجرحى كما يلي:

الجنسية	عدد القتلى	عدد الجرحى
إنكليز	٧٧	٢١٦
يهود	٢٥٥	٣٩٠
عرب	٥٠٣	٥٩٨

وفوق ذلك، قررت السلطات العسكرية أن أكثر من ألف ثائر عربي قتلوا سنة ١٩٣٨. وحاكمت المحاكم العسكرية ٣٨٢ شخصاً وأصدرت ٥٤ حكمًا بالإعدام كما بلغ عدد المسجونين ٢٤٦٣ عربياً.

مع الميجر كليمانت أتلي، زعيم حزب العمال (حزب المعارضة)

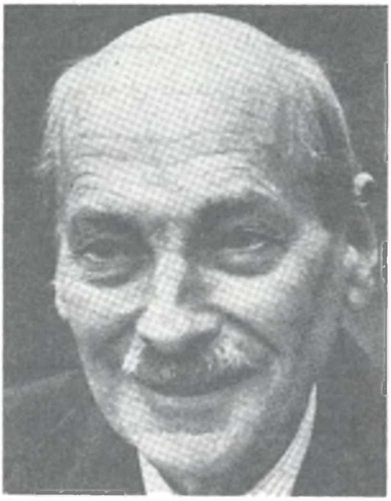
خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ــ ١٩١٨)، كان حزب الأحرار في السلطة، فأدارت حكومة لويد جورج دفة الحرب حتى النصر. وكان الحزب الثاني من ناحية الأهمية هو الحزب المحافظ، أما حزب العمال فلم يكن غير أقلية صغيرة. ولما جرت الانتخابات العامة بعد الحرب، ربحها حزب المحافظين، أما حزب العمال، فزادت مقاعده، ورسخت جذوره. واستمر في هذا التقدم السريع حتى انتخابات سنة ١٩٢٩ حين فاز بها للمرة الأولى وصار زعيم الحزب، رمزي ماكدونالد، رئيساً للوزراء.

وقد تحدثت في فصل سابق عن قصة كتاب رمزي ماكدونالد الأبيض لسنة ١٩٣٠ وكيف أجبره الضغط الصهيوني على تغيير سياسته، وكتابة «الرسالة» للدكتور وايزمان التي سماها العرب، وبحق، «الكتاب الأسود». ومنذ ذلك الحين، أصبح حزب العمال كله

كتلة واحدة بدون انقسام، مناصراً للصهيونيين. أما حزب المحافظين فكان منقسماً فالبعض منه مناصر للعرب والبعض الآخر، وفيه الأكثرية، كان مناصراً للصهيونيين، ولهذا، نشأت «اللجنة البرلمانية المناصرة للعرب»، وهذا لا يتفق مع سياسة حزب العمال الذي كان، ما عدا استثناءات قليلة، كتلة واحدة، يناصر الصهيونيين بتعصب.

وما انفك حزب العمال وهو في «المعارضة» يزعج حكومة المحافظين بأسئلة عن أحوال العمال الصهيونيين في فلسطين. كانوا «يقصرون» استجواباتهم على العمال اليهود دون العمال العرب، وكأن سكان فلسطين العرب الأصليين لا وجود لهم عندهم. وكان يزعجني سماع خطابات أعضاء حزب العمال المنحازين كل يوم في البرلمان دون أن يتصدى لهم أحد حتى المدّة الأخيرة.

ذات يوم، كتبت رسالة إلى الميجر أتلي، زعيم حزب العمال، أطلب فيها مقابلته. والتقيت به في مكتبه في مجلس العموم. وتحدثت حديثاً صريحاً لم أخف فيه شعوري وشعور الشعب العربي كله تجاه حزبه. وبوسعي أن أقول، صادقاً، انه أثناء المقابلة التي دامت خمساً وأربعين دقيقة، لم يكن الميجر أتلي مرتاح الضمير. وقد لاحظت ارتعاش ركبتيه، خاصة، عندما تحديته، بأن يذكرني بسؤال واحد دوّنه أحد نواب العمال، يتعلق بمصالح العمال أو النساء أو الأطفال العرب. قلت: «ميجر أتلي، ماذا عن مئات الأسئلة التي يوجهها أعضاء حزبكم عن الهجرة اليهودية، والبطالة اليهودية، وعن شراء اليهود للأراضي، وعن المستعمرات اليهودية؛ بل وحتى عن نوع الطعام الذي يقدّم للسجناء اليهود، وعن نوع اللباس الذي يرتدونه. ولماذا تتجاهلون إطلاقاً وجود السكان العرب الأصليين الذين هم أيضاً كائنات بشرية، عاشت في فلسطين منذ قرون».


الميجر كليمانت اتـلي

طبعاً، لم يكن بوسع الميجر أتلي أن يعطيني أجوبة مستقيمة، لأن حزب العمال لم يكن مستقيماً مع العرب، وكنت أعرف سلفاً أن مقابلتي مع زعيم المعارضة، لن تثمر، مثلها مثل مقابلاتي مع أورمزبي غور، وكلاهما كان بينه وبين الصهيونيين عهد غير مكتوب. وكل ما كنت أرغب فيه، هو أن أقول لزعيم الحزب عن تحيز حزبه، وأن أحرك ضميره من أجل حقوق العرب. وأتصور أني ربما توصلت لهذا الهدف، لأنه طلب إليّ أن أراه ثانية، لكن الظروف لم تسمح لي، لسوء الحظ.

الفصل الثالث والعشرون

تقرير اللجنة التقنية يقدح في مشروع التقسيم
الحكومة البريطانية تبطل المشروع ببلاغ رسمي رقم ٥٨٩٣
فرح العرب وغضب اليهود

عزمت الحكومة البريطانية على التخلي عن مشروع التقسيم قبل أن تنشر اللجنة التقنية تقريرها. وقد علمت بهذا القرار في شهر آب (أغسطس) كما سبق وذكرت. ولهذا، أصبح تفنيد تقرير اللجنة التقنية لا يعود بفائدة على دراستنا. ومع ذلك، وللتاريخ فقط، نسجل هنا أن التقرير التقني أظهر أن التقسيم لا يمكن تطبيقه لاسباب اقتصادية وسياسية وإدارية، ولذلك، قدمت اللجنة بديلاً عنه، ثلاثة مشاريع كي تدرسها الحكومة وتنتقي واحداً منها، غير أن أفضلها كان أسوأ من أن تقترحه اللجنة.

تقرير اللجنة التقنية أمام البرلمان «Technical (wood head) Commission»

قُدم تقرير اللجنة التقنية (وودهد) ببلاغ رسمي رقم ٥٨٥٤ إلى مجلس العموم بتاريخ التاسع من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٣٨. وفي اليوم نفسه نشرت الحكومة البريطانية بياناً سياسياً ببلاغ رسمي رقم ٥٨٩٣ أعلنت فيه أن لجنة «وودهد» التقنيه «أظهرت أن الصعوبات السياسية والإدارية والمالية التي ينطوي عليها الاقتراح لإنشاء دولتين مستقلتين: عربية ويهودية في فلسطين، هي ضخمة جداً تجعل حل القضية بهذه الطريقة غير عملي. . . إن الحكومة سوف تجرب في سياستها الجديدة، أن تشجع التفاهم بين العرب واليهود كما ستدعو مباشرة ممثلين عن عرب فلسطين والدول العربية من جهة وعن الوكالة اليهودية من جهة أخرى فتتشاور معهم في لندن بشأن السياسة المقبلة، ومنها مسألة الهجرة، . . . إذا لم تؤد مناقشات لندن إلى اتفاق مقبول خلال مدة معقولة من الزمن، فإن الحكومة ستتخذ قرارها على ضوء دراستها للمشكلة وعلى ضوء مناقشات لندن. أما الحاج أمين الحسيني فلن يُقبل عضواً».

فرح عرب فلسطين فرحاً عظيمًا. ولو أنهم حزّ في نفوسهم أن يُستثنى المفتي الأكبر من المؤتمر، غير أن التخلي عن مشروع التقسيم واقتراح المؤتمر في لندن، طغيا، على عرب فلسطين، وعلى كل بنود البيان. غير أن هذا البيان نفسه وقع كالقنبلة على رؤوس اليهود.

وعلى الرغم من أن بعضهم رفض التقسيم لأسباب مختلفة، فقد كانت الوكالة اليهودية تحبذه كثيراً، وكانت تريده موطأ قدم تنطلق منه لتحتل بقية فلسطين وأكثر. أما الآن فقد ضعفت ووهنت وتبعثرت آمالها بإقامة دولة صهيونية في فلسطين.

ولم تتأخر الوكالة اليهودية في إعلان حربها ضد سياسة الحكومة الجديدة ودعت إلى اجتماع كبير يعقد في بيت «الكويكرز»؛ تكلم فيه الدكتور وايزمان، وهربرت موريسون، وزير الخارجية السابق في حكومة رمزي ماكدونالد. وقد حضرت هذا الاجتماع التاريخي وأستطيع القول اني ما رأيت في حياتي جمهوراً أشد غضباً وغيظاً منه في ذلك الاجتماع. وقد غصت القائمة بحشد من اليهود، وبقلة من سواهم، على الرغم من أن الضباب كان من أكثف ما عرفته لندن. ضباباً تحسس فيه المجتمعون طريقهم إلى بيت «الكويكرز» بأقدامهم، تجنباً للخطر. ولقد دام الاجتماع أربع ساعات لم يكن شعوري فيها على ما يرام.

لقد أكد نشر بيان الحكومة، في التاسع من تشرين الثاني (نوفمبر)، لعرب فلسطين، التغير الهائل الذي حصل في سياسة الحكومة بعد رحيل المستر اورمزبي غور ووصول المستر مالكولم ماكدونالد إلى وزارة المستعمرات. والحق، إنني لأعجب، كيف استطاع إنسان مستقيم أن يتفادى كارثة أمة بكاملها بمجرد استقامته. ولو أن الأمم المتحدة كانت سنة ١٩٤٧ على استقامة مالكولم ماكدونالد سنة ١٩٣٨، لكانت فلسطين اليوم بلداً هادئاً، طبيعياً مثل البلدان المجاورة ولا قضية للشرق الأوسط تزعج أحداً.

التحضير لمؤتمر فلسطين

تَواصل التحضير لمؤتمر فلسطين بسرعة فائقة. فوُجِّهت الدعوات إلى الدول العربية وكان أعضاء اللجنة العربية العليا في طريقهم من منفى سيشل إلى بيروت. وحينما أردت وموسى العلمي السفر إليها، قررنا أن نأتيها معاً «بقطار الشرق السريع»، وهو الذي يقطع أوروبا ويصل حتى طرابلس (لبنان) عبر آسيا الصغرى. كانت رحلة مرهقة دامت خمسة أيام بلياليها في عربة أكل وعربة نوم؛ وكم ندمنا معاً لسلوكنا تلك الطريق.

استقبلنا في طرابلس كمال حداد، سكرتير الحاج أمين الحسيني الخاص، وقال لنا في الطريق إلى بيروت أن السلطات الفرنسية منعت، بضغط من السلطات البريطانية، أي اتصال بالحاج أمين، حتى على أعضاء اللجنة الموجودين في بيروت، وأضاف: «لكننا سنُدخلكم من الباب الخلفي». وهذا ما تم.

وآلمنا جداً أن نرى منزل رئيس اللجنة العربية العليا محاطاً بالشرطة. وبدا لنا الحاج أمين وكأنه لا يحفل بالأمر ما دام بوسعه أن يرى من يريد من الباب الخلفي. وقضينا (موسى وأنا) ساعتين مع الزعيم العربي دون أن يزعجنا أحد. غير أن اليوم التالي لم يكن بذاك الهدوء. فمقابلتنا مع الحاج أمين ظهرت في اليوم التالي بالخط العريض في أكثر

صحف بيروت، مما أزعج سلطات الأمن الفرنسية كثيراً. وفي الساعة التاسعة صباحاً، طرق باب شقتنا في رأس بيروت، ضابط يرافقه شرطيان على دراجتين ناريتين، وطلب مني أن أرافقه إلى قيادة الشرطة كي أقابل الرائد كولومباني، آمر الشرطة. وعندما وصلت، لّمح لي الرائد بأن أقول انني لم أرَ الحاج أمين الحسيني فالتقطت الإشارة بسرعة وقلت: «لكني أريد أن أرى الحاج أمين وقد جئت من لندن خصيصاً كي أراه، هو، وأعضاء اللجنة العربية العليا. أرجو أن تعطيني إذناً لرؤيته». قال: «نعم. أرجو أن تقول هذا للمندوب السامي فهو يريد أن يراك».

رافقني الرائد كولومباني إلى السراي. فوجدت المسيو بيو ينتظر المخالف في غرفة واسعة، يحتلها اليوم رئيس الوزراء. كان المندوب السامي غبريال بيو، الانجيلي الوحيد الذي حكم سوريا ولبنان، وهو معروف بكياسته. سألني لماذا أريد مقابلة الحاج أمين الحسيني، فانتهزت الفرصة وأبلغته جلية الأمر. فأبلغني، بغاية اللطف، ودون تردد، أن الحكومة الفرنسية ما كانت لتتخذ تلك الإجراءات لولا ضغط وزارة الخارجية البريطانية السياسي الشديد. ثم أمر الرائد كولومباني أن يعطي أذونات لكل أعضاء اللجنة.



المسيو بيو، المندوب السامي الفرنسي

اجتماع اللجنة العربية العليا ثانية

اجتمعنا اجتماعاً لطيفاً في دار الحاج أمين الحسيني قرب جونية. وكان الأعضاء المنفيون قد وصلوا إلى بيروت، بعد استراحة أيام قليلة في القاهرة. فهنأناهم من قلوبنا على تحملهم عقاب النفي وصبرهم وعودتهم سالمين.

لم يستغرق انتقاء أعضاء الوفد الفلسطيني إلى مؤتمر فلسطين وقتاً طويلاً. فاتفقنا على أن يكون الوفد من أعضاء اللجنة العربية العليا. وبما أن ممثلي حزب الدفاع، راغب النشاشيبي ويعقوب فرّاج، استقالا من اللجنة سنة ١٩٣٧، فلم يكونا في عداده. أما الحاج أمين الحسيني وأحمد حلمي عبد الباقي فبقيان في بيروت. وأضيف موسى العلمي بصفته خبيراً قانونياً ودعي جورج انطونيوس كي يكون سكرتيراً عاماً لكل الوفود العربية، وهو مؤلف «يقظة العرب» الكتاب المشهور الذي نشره في تلك الآونة، كما طلب مني بعدئذٍ في لندن أن ألتحق أيضاً بالوفد.

اجتمعت الوفود العربية الخمسة، في القاهرة أولاً، ثم سافرت إلى لندن في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٩. كان الوفد المصري برئاسة الأمير عبدالمنعم، ابن عم الملك فاروق. وعضوية، رئيس الديوان، علي ماهر، وعبدالرحمن عزام، الذي صار أول أمين عام لجامعة الدول العربية سنة ١٩٤٥ وحسن نشأت، سفير مصر في لندن. ورأس الوفد العراقي رئيس الوزراء، نوري السعيد، وينوب عنه وزير الخارجية، توفيق السويدي. والوفد السعودي يرأسه الأمير فيصل بن عبدالعزيز آل السعود (الملك فيصل فيما بعد)، وعضوية الأمير خالد بن عبدالعزيز (الملك خالد الآن) والشيخ حافظ وهبه، وزير السعودية المفوض في لندن، وفؤاد حمزة، وكيل وزارة الخارجية. ويتألف الوفد اليمني من القاضي حسين الشامي، والقاضي علي حسين العمري. فيما يرأس الوفد الاردني رئيس الوزراء توفيق أبو الهدى وعضوية، نجيب علم الدين.

وصلت كل الوفود العربية، في الأسبوع الأول من كانون الثاني (يناير) إلى لندن وحلت فيها ضيوفاً على الحكومة البريطانية. واستقبلهم في محطة فيكتوريا ممثلون عن وزارة الخارجية، ووزارة المستعمرات وعدد من الأصدقاء الانكليز والعرب والديبلوماسيين. وجاء عشرات الصحافيين من جميع أنحاء العالم كي يتابعوا الحدث الهام. وظهرت الصحف في اليوم التالي وفي كل منها شيء عن الوفود العربية ومؤتمر فلسطين. وألطف ما نشر، صور الوفدين السعودي واليماني بثيابهم العربية الجميلة.

قام وزير المستعمرات، المستر مالكولم ماكدونالد، في اليوم التالي، بزيارات مجاملة للوفود. وأثار في تلك الزيارات قضية تمثيل حزب الدفاع في الوفد الفلسطيني. فقد كانت الحكومة البريطانية تريد مساهمة كل الأحزاب الفلسطينية، وقد كانت جميعاً في الوفد ما عدا حزب الدفاع. فقام جدل، ساهمت فيه كل الوفود العربية، دام أسبوعين، آل في النهاية إلى الموافقة على تمثيل حزب الدفاع فانضم إلى الوفد راغب النشاشيبي ويعقوب فرّاج وقد كانا موجودين في لندن.

الوفد الفلسطيني

وبما أن العرب لا يعترفون بوعد بلفور، فقد رفضوا الجلوس إلى المائدة نفسها مع اليهود، وعلى ذلك كانت الحكومة البريطانية تدير مؤتمرين منفصلين أحدهما مع العرب والآخر مع اليهود. وقد تألف الوفد الفلسطيني أخيراً من جمال الحسيني، رئيساً، وجورج انطونيوس، سكرتيراً، وكل من: عوني عبد الهادي، راغب النشاشيبي، يعقوب فراج، موسى العلمي، أمين التميمي، يعقوب الغصين، ألفرد روك، فؤاد سابا وعزت طنوس أعضاء.

الفصل الرابع والعشرون

«مؤتمر فلسطين» في لندن ينعقد في قصر سان جيمس
الحكومات العربية تشترك في المؤتمر
رسائل «ماكماهون ــ الحسين» تبحث لأول مرة و «لجنة موم» تحكم بها
حكومة ديمقراطية مستقلة بأكثرية عربية وفترة انتقالية مدتها عشر سنوات
هو هدف الحكومة البريطانية في فلسطين

افتتح المستر نيفيل تشيمبرلين، رئيس الوزراء البريطاني، «مؤتمر فلسطين» في قصر سانت جيمس في السابع من شباط (فبراير) ١٩٣٩. وترى في الصورة التذكارية لحفلة الافتتاح، المستر تشيمبرلين واللورد هاليفاكس، وزير الخارجية، والمستر مالكولم ماكدونالد، وزير المستعمرات، جالسين من جهة، وفي الجهة المقابلة، الوفود العربية. وترى في صورة أخرى، الوفد العربي السعودي بثيابه الجميلة، والوفد المصري بالثياب الرسمية، على أهبة الدخول لقصر سانت جيمس.



افتتاح المؤتمر (مؤتمر فلسطين)

ابتدأ المؤتمر اعماله في التاسع من شباط (فبراير) وبدأت المفاوضات. كان المستر ماكدونالد يرأس الوفد البريطاني؛ وقد جلس على يمينه اللورد هاليفاكس وزير الخارجية، ثم حل محله وكيل وزارة الخارجية، المستر بَطار، وفي الناحية المقابلة، الوفود العربية. وقد اختير جمال الحسيني متكلمًا عنها، وكان يقوم بالترجمة المستر جيمس سمرفيل من حكومة الانتداب على فلسطين.

قرأ المستر ماكدونالد، بعد كلمة الترحيب «البيان السياسي» الذي حضرته الحكومة من أجل المؤتمر. وقد كان بياناً عاماً نوقشت تفاصيله في المفاوضات وخلاصته: «إن ما تتطلع إليه حكومة جلالته هو إقامة حكومة ديموقراطية مستقلة تمثل كل شعب فلسطين حين تسمح الظروف».



الوفد السعودي والوفد المصري يستعدان لدخول المؤتمر

وأجاب على هذا البيان، باسم الوفود العربية، السيد جمال الحسيني، رئيس الوفد الفلسطيني، ببيان. فصّل فيه تاريخ فلسطين الطويل المحزن تحت الانتداب البريطاني وذكر في إسهاب كيف أن الانتداب جلب الفوضى والاضطراب، بسبب وعد بلفور. وانتقد في بيانه بقوة مختلف وجوه الانتداب البريطاني وكيف أنكرت الحكومة المنتدبة على شعب فلسطين العربي، حق تقرير المصير، من أجل تنشيط سياسة الوطن القومي اليهودي. وخلص إلى الطلب بإنهاء الانتداب وإقامة حكومة ديموقراطية، مباشرة، في فلسطين.

وانقضى الأسبوعان الأولان بإلقاء البيانات والبيانات الجوابية. ونوقشت القضية الفلسطينية من جميع وجوهها: الهجرة اليهودية وآثارها الضارة، بيع الأراضي ومشكلة العرب بلا أرض المتصاعدة، والخ...

أثناء تلك المحادثات، قام المركز العربي بمساعدة كبيرة للوفود، «اذ قدم لأعضائها المعلومات التي حضّرها خصيصاً للمؤتمر حول المناقشة عن الهجرة، والأراضي والبطالة. الخ. فقدر أعضاء الوفود، سيما الوفود من غير الفلسطينيين، هذا الجهد، لأنهم لم يكونوا من قبل على تمام المعرفة بها مثل اخوانهم الفلسطينيين.



جمال الحسيني المتكلم عن كل الوفود

بدء «مؤتمر فلسطين» مع اليهود

عقد الوفد البريطاني جلسته الأولى مع الوفد اليهودي في العاشر من شباط (فبراير) وقرأ المستر ماكدونالد «البيان السياسي»، الذي أعده للمؤتمر. فذكر أن الحكومة البريطانية لا يسعها الاستمرار في سياسة يتطلب التمسك بها جيشاً كبيراً لحفظ القانون والنظام. وبينّ أنه حتى لو أمكن تثبيت النظام بقوة السلاح، فإن تثبيت السلام في فلسطين بقوة السلاح غير مستطاع. وعلى ذلك، فإن حكومة جلالته تتطلع، متى سمحت الظروف، إلى إقامة حكومة مستقلة ديموقراطية تمثل كل شعب فلسطين.

لم يخيب «البيان السياسي» أمل الوفد اليهودي فحسب، بل أذهلهم أيضاً، وهدّم أملهم بتحقيق الدولة اليهودية، هدفهم الأول. وتبين لهم أن بريطانيا، واضعة وعد بلفور، أخذت تفسّر أخيراً الوطن القومي اليهودي بأنه يعني وطناً قومياً لا دولة يهودية. ولم يدم الاجتماع طويلاً وفضت الجلسة في جو متوتر.

وصلت أخبار الجلسة الأولى مع الوفد اليهودي إلى فلسطين فسرّ العرب سروراً عظيّما وراحوا يرقصون ويغنون في الشوارع، فدفعت مظاهرات الفرح هذه بالمتطرفين الصهيونيين إلى مهاجمة السكان العرب، فقتل ٣٨ شخصاً وجرح ٤٤ آخرون.

تبديل في السياسة البريطانية

الذي لا شك فيه أن حكومة تشمبرلين كانت جادة في البحث عن حلّ أعدل للمشكلة الفلسطينية. وكانت الأسباب التي عجلت بهذا التبدل عديدة، منها:

١ ــ الحرب كانت واقعة مع المانيا لا محالة، وكانت بريطانيا بحاجة إلى نقل القوات التي تقاتل في فلسطين إلى مكان آخر.

٢ ـ ان خطر الحرب جعل الحكومة البريطانية بحاجة ماسة لصداقة العرب من أجل سلامة أنابيب البترول التي تمتد من العراق إلى حيفا ومصفاتها الكبرى.

٣ ـ ان بريطانيا كانت بحاجة لتأييد العالم الإسلامي، وخاصة، مسلمي الهند، الذين كانوا تحت استعمارها؛ وقد قاتلوا مع الجيوش البريطانية في الحرب العالمية الأولى، وتريد أن يقاتلوا معها في الحرب العالمية الثانية.

٤ ـ لأجل إخماد الثورة الفلسطينية التي ستتفاقم حتماً إذا استمرت سياسة الوطن القومي اليهودي.

٥ ـ الدعم القوي لهذا التبدل من قبل اللجنة البرلمانية المناصره للعرب.

٦ ـ الأحاديث الطويلة الصريحة بيني وبين المستر ماكدونالد، والتي جعلت «المطالب العربية» قاسماً مشتركاً.

يضاف إلى هذه الأسباب، أن جاء، لحسن حظ العرب، في تلك الفترة الحاسمة من النزاع الفلسطيني ـ الصهيوني، شخص حيادي هو المستر نيفيل تشيمبرلين، إلى رئاسة الوزارة البريطانية، الذي يختلف عن سلفه المناصر للصهيونية، المستر ستانلي بولدوين. وكذلك أمْرُ المستر ماكدونالد، الذي خلف المستر اورمزبي غور، أشدّ من حلّ في وزارة المستعمرات حماساً للصهيونية. وأنا على يقين، تبعاً لتجربتي الشخصية مع الوزيرين، أني ما كنت أنجح مع اورمزبي غور نجاحي مع مالكولم ماكدونالد.

كان موضوع «رسائل مكماهون ـ الحسين» من أهم ما عالجه المؤتمر، فقد ظلت هذه الرسائل منذ سنة ١٩١٦ محفوظة مع الوثائق السرية. ويجب أن نذكّر أن هذا «الاتفاق» الذي وقعه الشريف حسين سنة ١٩١٦ خلال الحرب العالمية الأولى بالنيابة عن العرب، ووقعه السير هنري مكماهون، الممثل البريطاني في القاهرة، نيابة عن الحكومة البريطانية، ينص على أن يثور العرب ضد الأتراك، على أن تعترف بريطانيا العظمى باستقلال الأراضي العربية فور انتهاء الحرب. وقد وفى العرب بما التزموا به في المعاهدة بقيادة الأمير فيصل يساعده ت. اي. لورنس. حتى إذا انتهت الحرب، أخفت الحكومة البريطانية الرسائل وتجاهلت «تعهداتها» للعرب، وكلما طُلب منها في البرلمان إبراز تلك الرسائل يكون الجواب: «ليس ذلك من مصلحة الامبراطورية البريطانية».

لجنة موم The Mangham Commission

طلبت الوفود العربية الإفراج مباشرة عن رسائل «مكماهون ـ الحسين» وقد طال بها الوقت. وما كان باستطاعة الوفد البريطاني رفض الطلب هذه المرة، بعد أن تم نشر تلك

الرسائل لشهور خلت، في كتاب «يقظة العرب» لجورج انطونيوس، سكرتير الوفود العربية إلى المؤتمر. وللمرة الأولى، يفرج عن تلك الرسائل وتناقش رسمياً. غير أن الوفد البريطاني كان يلح على أن الرسائل تستثني فلسطين من الأراضي العربية التي وُعدت بالاستقلال، فيما تمسكت الوفود العربية بعكس ذلك. واقترحت الوفود العربية وصولاً للحقيقة أن توضع الرسائل بين يدي قاضٍ انكليزي ليحكم بالأمر. فرفض الوفد الانكليزي الاقتراح. وتم بعدئذ الاتفاق على تعيين لجنة انكليزية ـ عربية، عرفت فيما بعد بـ «لجنة موم»، تدرس الرسائل وتقدم تقريرها إلى المؤتمر. وتألفت اللجنة في الخامس عشر من شباط (فبراير) من الأعضاء التالية أسماؤهم:

الممثلون العرب

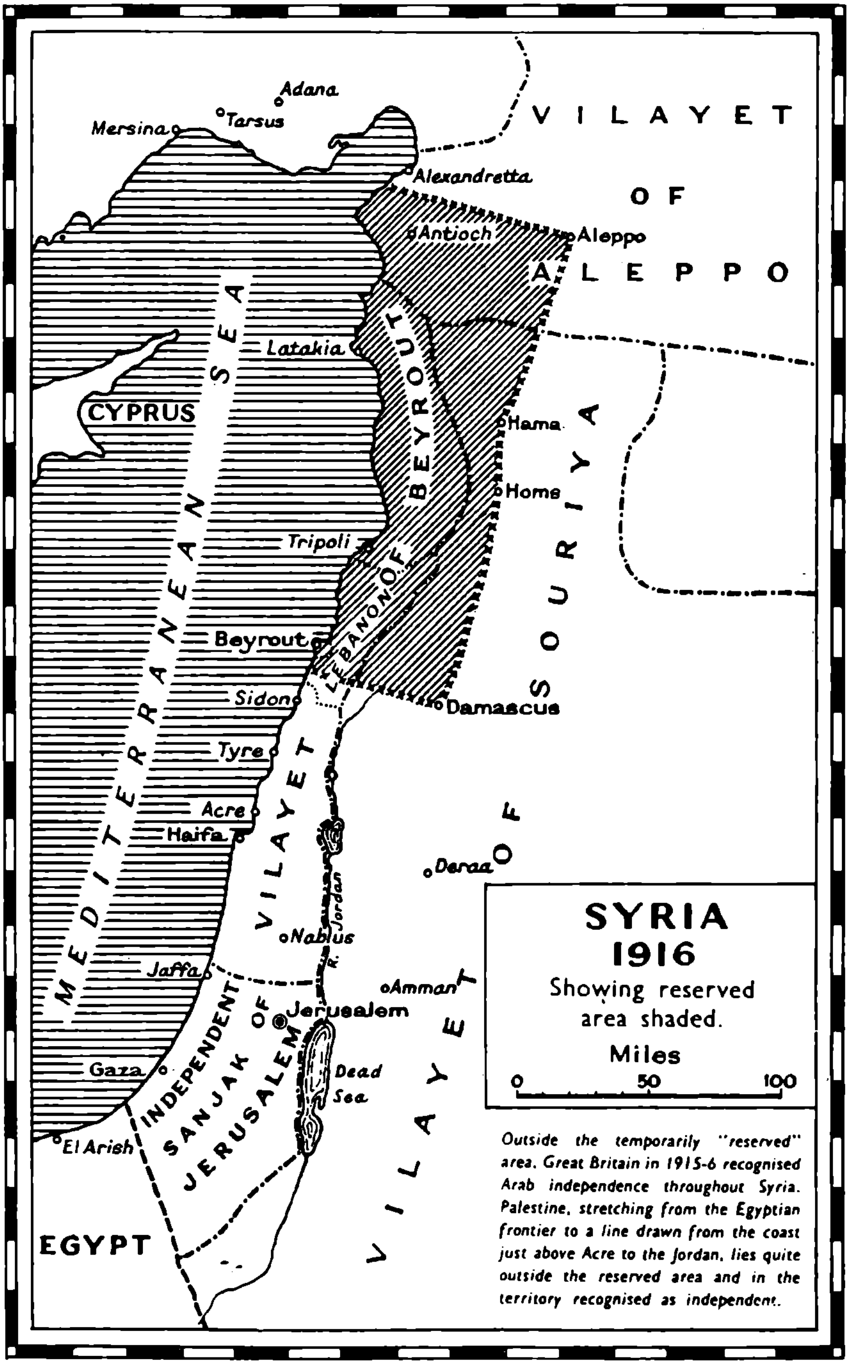
الجنرال نوري السعيد (العراق)	وحل محله السيد توفيق السويدي.
عبد الرحمن عزام (مصر)	عوني عبد الهادي (فلسطين)،
موسى العلمي (فلسطين)	جورج انطونيوس (فلسطين).

المستشار ـ السير مايكل ماكدونيل (رئيس المحكمة العليا السابق (فلسطين).

الممثلون الانكليز

اللورد موم	(Lord Maugham P.C)
قاضي قضاة إنكلترا	(Sir Grattam Bushe)
السير غراتم بوش	Sin Grattan Bushe K.C.M.G.
	Legal Adviser, Colonial Office
السيد هـ. ل. بغالي	Mr. H.L. Bagally
	First Secretary, Foreign Office
المستشار	Adviser
السيد ج. هيوارت ـ دان	Mr G. Heyworth — Dunne
	Senior Lecturer in Valic, London University
السيد ج. ر. كولفيل	Secrtary
السكرتير	Third Secretary, Foreign Office

والتأمت اللجنة في مجلس اللوردات أربع مرّات. في اللقاء الأول، اتفقت على إجراء تصحيحات في النص الانكليزي الذي يختلف عن النصّ العربي. ولما انتهى ذلك قدّم الممثلون العرب مذكرة تشرح التفسير العربي للرسائل، وتمسك العرب بتضمنها فلسطين في الوعد بالاستقلال وبأن الجزء الوحيد المستثنى هو الأرض الواقعة غرب دمشق وحمص وحماه وحلب، أي لبنان، نظراً للمصالح الفرنسية التي كانت تدعيها فرنسا. وقد كانت فرنسا تهتم بصورة خاصة بلبنان بعد أن أصبح مستقلاً داخلياً سنة ١٨٦٤. وفلسطين ليست واقعة



خارطة تظهر فلسطين داخله الوعود التي أعطتها بريطانيا

غرب المدن المشار إليها وليست ضمن ما تهتم به فرنسا. ولو أنهم أرادوا ضم فلسطين إلى لبنان، لقالوا «باستثناء ولاية بيروت وسنجق القدس» كما تظهر الخارطة التالية:

وتبادلت الفئتان عدة بيانات ومذكرات ومع ذلك لم تتوصلا إلى اتفاق كامل؛ غير أن اللجنة اتفقت على نقطة جدّ هامة عندما وضعت تقريرها، وهي: أن الحكومة البريطانية لم تكن حرّة التصرف بفلسطين، دون الرجوع إلى رغبة أهلها ومصالحهم، ونسبة العرب منهم ٩٣ بالمئة؛ تقول الخلاصة ما يلي: «ورأي اللجنة، على كل حال، واضح في هذه البيانات وهو أن حكومة جلالته لم تكن حرّة التصرّف بفلسطين دون النظر في رغبات ومصالح كل سكان فلسطين».

هذا البيان لم يكن سوى حكم يدين الحكومة البريطانية لوعدها الشعب اليهودي بوطن في فلسطين، دون النظر في رغبات ومصالح سكان فلسطين الأصليين. هذا البيان الذي وقعه اللورد موم، قاضي قضاة إنكلترا، وثمانية مندوبين بريطانيين وعرب، لم يحكم على وعد بلفور وحده باللاشرعية، بل حكم أيضاً على صك الانتداب، الذي تضمن وعد بلفور، باللاشرعي. وبذلك، حكم المنتدب على فلسطين عشرين عاماً بانتداب لا شرعي. وبكلمات أخرى، بموجب دستورٍ لا شرعي؛ وبالتالي، كانت كل الأحكام والمشانق التي علقتها الحكومة البريطانية في فلسطين، لا شرعية ولا دستورية.

دامت المناقشات في سانت جيمس ستة أسابيع. لم يكن الخلاف، خلالها، بين الحكومة البريطانية والعرب، كبيراً بالنسبة للسياسة الجديدة، بل كان الخلاف على النقاط الثانوية وتوقيت التنفيذ. كان العرب يريدون تغييراً سريعاً لإنهاء الهجرة وبيع الأراضي، كابوس العرب، كما أنهم رأوا أن اقتراح فترة انتقال مدتها عشر سنوات لتنفيذ الاستقلال، مدة طويلة. هذه الفروق والخلافات البسيطة التي لم يتفق عليها الوفدان، دفعت بالحكومة البريطانية لإقفال المناقشات. وفي السابع والعشرين من آذار (مارس) ١٩٣٩، أبلغ المستر ماكدونالد المؤتمر، أن الحكومة البريطانية قررت، ما دام الوفدان لم يستطيعا الوصول الى اتفاق، أن تضع هي سياستها الخاصة بمستقبل حكومة فلسطين، وهي تأمل بنشرها سريعا.

فاجأ قرار وزير المستعمرات الوفود العربية، ولكنه لم يفزعها، بل على العكس، جعلها، لأسباب لا تجهلها، متفائلة.

تكريم الوفود العربية في لندن

كان أعضاء الوفود العربية لمؤتمر فلسطين ضيوفاً مكرمين على الحكومة البريطانية، حلّوا في أفخم الفنادق ونعموا بأحسن الوفادة، وأقيمت على شرفهم الاستقبالات، وحفلات الغداء والعشاء، ودعوا إلى زيارة العديد من الأمكنة الهامة؛ كما انهم تلقوا عشرات الدعوات من مختلف الأوساط السياسية والديبلوماسية والاجتماعية، وخاصة من أعضاء



الأمير فيصل والأمير خالد آل سعود آتيان إلى الحفلة

البرلمان، والسفارات والجامعات ومختلف الجمعيات لكنهم، لسوء الحظ لم يستطيعوا تلبية جميعها، نظراً لبرنامجهم الحاشد، ولأنهم مضطرون، تبعا للبروتوكول، إلى إقامة حفلات استقبال تكريمية لمن يدعونهم من رسميين وغير رسميين.

أقام المركز العربي خلال المؤتمر حفلتي استقبال للوفود العربية. احداهما يوم الثامن من شباط (فبراير) في فندق هايدبارج، أخذنا أثناءها عدة صور، بينها صورة المستر مالكولم



مالكولم ماكدونالد في حفلة المركز العربي

ماكدونالد، وزير المستعمرات، الذي تلطف ولبى الدعوة إلى المركز العربي، وهو الذي رفض منذ سنة أن يجيب على رسالتي، لأنها كانت تحمل عنوان المركز العربي.

وأقمنا الحفلة الثانية في مكاتب المركز العربي، كرَّم فيها موظفو المركز، الوفود العربية. ولكم سرّت مسز ستيوارت أرسكين، وج.م.ن. جيفريز وجورج منصور والسكرتيرات، باستضافة الوفود العربية والكثيرين من أصدقائنا البريطانيين. وزاد حفلة الاستقبال معنى، وجود الكولونيل كليفتون براون، والسير إرنست بينيت، وأنتوني كروسلي، والمستر بيكتورن، والكولونيل نيكومب، وعديدين غيرهم من اللجنة البرلمانية المناصرة للعرب.

تنويه خاص بأميرين عربيين

حظي المركز العربي باهتمام عضوين من أعضاء الوفود العربية التي حضرت «مؤتمر فلسطين» وهما الأمير محمد عبدالمنعم، ابن عم ملك مصر، فاروق، والأمير فيصل بن عبدالعزيز آل السعود، ملك العربية السعودية فيما بعد.

طلب الأمير عبد المنعم مني ذات يوم، أن أزوره في جناحه الخاص في فندق دورشستر. بدأ الحديث بقوله: «أرجو أن تتخذني، يا دكتور طنوس، زميلاً، لا أميراً، دون حواجز بيننا. أريد منك أن تعطيني كل المعلومات عن «قضية فلسطين». واستمر يقول: «أعترف لك بأني لا أعرف الكثير عن تفاصيل القضية وأريد منك أن تنورني عنها. وأرجو أن تأتي فتحدثني عن قضية فلسطين بالقدر الذي تستطيع. أنا في غاية السرور من عمل المركز العربي، وأريد منك، أن تتلطف فترسل لي على عنواني في القاهرة، نسخة عن كل ما تصدرون حول القضية». ثم قال: «أود أن أحصل على قائمة بكل أعضاء اللجنة البرلمانية المناصرة للعرب، وكل أصدقائنا من الانكليز، كما أريد قائمة أخرى بأسماء أعضاء البرلمان المناصرين للصهيونية».

لم أُضع الوقت، وقدمت للأمير كل ما طلب. وكنت أذهب كثيراً إلى فندق الدورشستر، فنتحدث طويلاً عن المشكلة الفلسطينية ووجوهها المتعددة، وأنا أجهد في ألا أجعل اهتمامه الشديد بها ينتهي بانتهاء المؤتمر، وألا ينسى وعده لي بالتأثير على الحكومة المصرية كي تساهم شهرياً في نفقات المركز العربي. ولقد تأثر الأمير، حقاً، بعمق من أثر النفوذ الصهيوني الكبير في تكوين الرأي العام البريطاني، وآمن، مخلصاً، بأنه لا يجوز ترك هذا الانحياز للصهيونية دون تحدٍ.

وفي أثناء المؤتمر تلقيت من الأمير الرسالة التالية:

وزارة الخارجية

سفارة مصر

لندره

بشأن : ______

______

نمرة ______ سنة ١٢٠ (______ سنة ١٩٢)

نمرة

رقم القيد ______

رقم الملف ______

عدد المرفقات ______

حضرة المحترم الدكتور عزت طنوس مدير المركز العربي بلندن

بعد التحية . يسرني ان ارسل لحضرتكم مع هذا شيكا بمبلغ مائة جنيه اعانة للمركز العربي بلندن على مايقوم به من دعاية طيبة لقضية العرب . وارجو التكرم بقبوله .

وتفضلوا بقبول وافر التحية

تحريراً في ١٩٣٩ سنة

وقبل أن يترك لندن ببضعة أيام، أرسل لي الرسالة التالية:

Telephone: Mayfair 8888
Telegrams: Dorchotel, Audley London

The Dorchester Hotel
Park Lane
London, W1.

٢٠ مارس سنة ١٩٣٩

حضرة المحترم الدكتور عزت طنوس

تحياتي وسلامي ، وبعد فأود قبل سفري ان ابعث اليكم بخالص شكري على الكتب والمطبوعات وكشف اعضاء اللجنة البرلمانية العربية التي تفضلتم بارسالها الي ، كما اود ان توافوني باستمرار بما قد يستجد من المطبوعات في هذا الخصوص على عنواني بمصر الجديدة .

وختاما تقبلوا جزيل شكري مع خالص تحياتي .

الامير محمد عبد المنعم

بقيت أراسل الأمير عبدالمنعم وبقيت أرسل له كل ما يصدره المركز العربي من نشرات وكتيبات عن القضية الفلسطينية، وفي احدى هذه الرسائل، ذكّرت الأمير بوعده بما يختص بمساعدة الحكومة المصرية للمركز العربي: فجاءتني منه الرسالة التالية:

استانبول في ٨ [illegible] ١٩٣[illegible]

عزيزي الدكتور طنوس

اطلعنا على خطابكم المؤرخ في ٢٠ مايو سنة ١٩٣٩ ونشكر لكم البيانات التي وصلتنا معه . واهنيكم لما تبذلونه من جهد في خدمة بلادكم العزيزة واتمنى لكم النجاح التام القريب [illegible]

وفيما يختص بالمساعدة التي تنتظرونها من الحكومة المصرية فأن هذه المسألة مني على بال وقد جددت مساعي بشأنها وآمل ان اوافيكم باخبار سارة عنها .

وتقبلوا خالص تحياتنا ،،

الامير عبد المنعم

بعد شهرين تلقيت مائة وخمسين جنيهاً مساهمة شهرية من الحكومة المصرية.

أما العضو الآخر الذي أظهر اهتماماً خاصاً «بالمركز العربي» في لندن، فهو الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود (الملك فيصل فيما بعد) فقد زار المركز عدة زيارات رافقه فيها أخوه الأمير خالد (الملك خالد اليوم) ووزيره المفوض في لندن، الشيخ الجليل، حافظ وهبه. ودلل الأمير على اهتمامه بالمركز بمساهمة قدرها مئة إسترلينية في الزيارة الأولى. وأقام قبل أن يغادر لندن، حفلة غداء، في فندق دورشستر، على شرف أعضاء المركز العربي، تقديراً لجهودهم في سبيل القضية الفلسطينية. وفي آخر الحفلة، تلطف وأهداني صورته بعد أن وقعها.

أثر مؤتمر فلسطين

بعد انتهاء المؤتمر ، رحلت الوفود العربية ، ما عدا الوفد الفلسطيني، لأن بعض أعضائه كانوا ممنوعين من دخول فلسطين ، ولم تلغ حكومة الانتداب مرسوم نفي أعضاء اللجنة العربية العليا الذي أصدرته سنة ١٩٣٧ ، ولذلك كانوا

مضطرين للذهاب إلى بيروت كي يلتقوا بالحاج أمين الحسيني، رئيس اللجنة. ولكن، وبعد قليل، سافر بعضهم إلى القاهرة. فقد توسط رئيس وزراء مصر فتوصل إلى استئناف المفاوضات بين الحكومة البريطانية والدول العربية؛ وفي هذه المفاوضات، اقترحت الحكومة البريطانية أن يصار إلى الإسراع بتنفيذ مواد الدستور المقترح التي نوقشت في المؤتمر وبموجبه يستطيع العرب أن يضطلعوا بمراكز رئاسة الدوائر الحكومية حالما يعود السلام إلى فلسطين. ووافقت الوفود العربية على الاقتراح. ثم قدمت الوفود العربية اقتراحا اخر يقضي بعرض الخلاف، إذا نشأ بعد سنوات الانتقال العشر السابقة للاستقلال، على الدول العربية، لا على عصبة الأمم، كما نص الدستور. ولقد أدى، للأسف، عدم الاتفاق على هذه النقطة التي لا يأتي موعدها إلا بعد عقد من السنين، إلى انهيار كلي للمفاوضات. وتُركت بريطانيا العظمى تصوغ وحدها سياستها تجاه مستقبل حكومة فلسطين!!



الأمير فيصل آل سعود

لم يتوصل مؤتمر فلسطين في قصر سانت جيمس إلى تخفيف الوضع المتوتر في فلسطين كثيراً بل كان له أثر مهدىء على العرب ولكنه لم يتوصل إلى إنهاء الثورة العربية. أما أثره على اليهود فكان مثيراً، إذ قامت جماعات يهودية منظمة، وعمد قادتها إلى مخططات صارمة، غايتها، شلّ السياسة البريطانية الجديدة في فلسطين، إن لم يكن إلغاؤها.

الفصل الخامس والعشرون

«كتاب مالكولم ماكدونالد الأبيض»
دستور جديد لفلسطين

في السابع عشر من أيار (مايو) ١٩٣٩، أي بعد حوالي شهرين من توقّف المفاوضات في قصر سانت جيمس، أصدرت الحكومة البريطانية «بيانها السياسي» ببلاغ رسمي رقم ٦٠١٩، عن فلسطين، المعروف بكتاب مالكولم ماكدونالد الأبيض لسنة ١٩٣٩.

ارى مـن الضـروري، قبل إعطاء ملخصٍ للسياسة الجديـدة التي كانت منعطفاً في القضية الفلسطينية، أن أقدم الملاحظات التالية:

١ ــ قنعت الحكومة البريطانية متأخرة، بأن قيام دولة صهيُونية في فلسطين لا يتم إلا بإبقاء جيش كبير، قد يستطيع تثبيت النظام والقانون، لكنه لا يستطيع تثبيت السلام على أرض السلام.

٢ ــ تأكدت الحكومة البريطانية من أن الدولة الصهيونية في فلسطين تضّـر فعلاً بحقوق السكان العرب، ووضعهم، وهو أمر يجب ألا يحدث.

٣ ــ ان تقرير لجنة موم (بلاغ رسمي رقم ٥٩٧٤) الذي قال: «لم تكن حكومة جلالته حرة التصرف بفلسطين دون النظر إلى رغبات ومصالح كل سكان فلسطين»، جعل إنشاء دولة صهيونية في فلسطين غير شرعي، بل جعل أيضاً، وعد بلفور، سبب المشكلة، غير شرعي.

٤ ــ ذهب تقرير لجنة وودهيد التقنية، إلى أبعد من هذا، فأثبت أن إنشاء دولة صهيونية في فلسطين، غير عملي، حتى ولو كان شرعياً.

وبناء عليه، جاءت السياسة الجديدة المقبلة لحكومة فلسطين مبنيـة على المبـادىء الأربعة المذكورة أعلاه.

البيان السياسي

يحتوي «البيان السياسي» على: المقدمة، والدستور، والهجرة، والأرض، وعلى الخاتمة.

المقدمـة :

١ ــ أعلنت حكومة جلالته في البلاغ الرسمي الصادر في التاسع من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٨ (بلاغ رسمي رقم ٥٨٩٣)، عن نيتها في دعوة ممثلين عن عرب فلسطين وبعض البلدان العربية الأخرى، وعن الوكالة اليهودية، للتفاوض معهم في شأن مستقبل فلسطين. وقد انعقد المؤتمر في قصر سانت جيمس لتبادل وجهات النظر بين الـوزراء البريطانيين وممثلي العرب واليهود مدة ستة أسابيع. وعلى ضوء المنـاقشات والـوضع في فلسطين وتقارير لجنـة (بيل) الملكية (البلاغ الرسمي رقم ٥٤٧٩) ولجنة «وودهيد» التقنية (البلاغ الرسمي رقم ٥٨٥٤)، عبرت حكومة جلالته عن مقترحات أمام الوفدين، العربي واليهودي، كي تكون أساساً للوصول إلى اتفاق. لكن أحداً من الوفدين، العربي واليهودي، لم يحس بأنه قادر على قبول تلك المقترحات، فلم يتوصل المؤتمر إلى اتفاق. وبناء عليه فإن حكومة جلالته ستصوغ سياستها الخاصة، وبعد الدراسة والبحث، قررت الحكومة أن تلتزم بالمقترحات التي قدمتها وناقشتها مع الوفدين، العربي واليهودي.

٢ ــ إن الانتداب على فلسطين، الذي صدقته عصبة الأمم سنة ١٩٢٢، هو الذي وجه سياسة الحكومة البريطانية في فلسطين. وهذه السياسة التي احتضنت وعد بلفور، أمْلَت على المنتدب أربعة التزامات رئيسية. هنالك واحد منها لا خلاف عليه وهو: حماية الأماكن المقدسة والوصول إليها. أما عن الثلاثة الأخرى، فهنالك خلاف على تفسيرها وهي:

(أ) وضع البلاد في حالات سياسية، وإدارية، واقتصادية، تمكن من إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين؛ وتسهّل تحت ظروف ملائمة، الهجرة اليهودية، وتشجع، بالتعاون مع الوكالة اليهودية، بناء المستعمرات اليهودية على الأرض الفلسطينية.

(ب) السهر على حقوق كل سكان فلسطين الدينية والمدنية، دون النظر إلى العنصر أوالدين، والتأكد من أن تسهيل الهجرة اليهودية، وإقامة المستعمرات، لا يضران بوضع بقية فئات السكان وحقوقهم.

(ج) أن تصل الحكومة بالبلاد إلى ظروف سياسية وإدارية واقتصادية، تمكِّن من تنمية مؤسسات الحكم الذاتي.

٣ ــ لقد لفتت انتباه الحكومة، مختلف لجان التحقيق البريطانية التي أُرسلت إلى فلسطين في أوقات مختلفة، مثل لجنة «شو» البرلمانية ولجنة «بيل» الملكية، إلى غموض بعض التعابير في الانتداب، والحاجة إلى إيضاحها. وأن غموض تعبير «وطن قومي للشعب اليهودي» كان سبباً رئيسياً في الاضطراب والعداء بين العرب واليهود. وهكذا، بـات أساسياً، وضع تعريف واضح للسياسة وأهدافها، من أجل مصلحة كل شعب فلسطين وسلامه ورفاهه. ولقد ظهر أن إقامة دولتين: عربية ويهودية في فلسطين، مستقلتين، كما

اقترحته اللجنة الملكية، هو غير عملي. وعلى ذلك وجب على حكومة جلالته أن تضع سياسة بديلة تتلاءم مع التزاماتها للعرب ولليهود. وتلك هي آراؤها واقتراحاتها تحت عناوين ثلاثة: ١ ــ الدستور ٢ ــ الهجرة ٣ ــ الأرض.

١ ــ الدستور:

١ ــ لا يمكن لواضعي وعد بلفور أن يكون في نيتهم تحويل فلسطين إلى دولة يهودية ضد إرادة سكان البلاد العرب.

٢ ــ ولقد وضّحت ذلك حكومة جلالته في كتاب تشرتشل الأبيض لسنة ١٩٢٢ (بلاغ رسمي رقم ١٧٠٠)، حين وصفت الوطن القومي بأنه «حيث تستطيع الجالية اليهودية المجتمعة في فلسطين، بمساعدة اليهودية العالمية، أن تبرز كفاءاتها وتنمو، حتى تغدو هذه الجالية مركزاً، يهتم ويفخر به الشعب اليهودي برمته في مجالي الدين والعنصر».

٣ ــ هذا الوطن القومي كما هو موصوف أعلاه، قد تكوّن الآن. فقد ارتفع عدد اليهود في فلسطين من ٥٠,٠٠٠ إلى ٤٥٠,٠٠٠ أو ⅓ (ثلث) مجموع السكان تقريباً. وأنّ نمو الوطن القومي اليهودي وانجازاته في مختلف الحقول، هو جهد بناء ملحوظ.

٤ ــ إن حكومة جلالته لا توافق على أن مراسلات مكماهون ــ الحسين، تتضمن فلسطين.

ملاحظة

[وبهذا، تجاهلت الحكومة البريطانية، عن قصد، الرجوع إلى خلاصة تقرير لجنة موم (البلاغ الرسمي رقم ٥٩٧٤) الهامة جداً. والتي تقول: «ترى اللجنة من هذه البيانات، بوضوح، أن حكومة جلالته لم تكن حرّة في التصرف بفلسطين دون النظر في رغبات ومصالح كل سكان فلسطين». ولو أن الحكومة رجعت إلى هذا البيان، وكان من واجبها أن تفعل ذلك، لأيقنت عدم شرعية وعد بلفور وعدم شرعية الانتداب الذي تضمنه، وأظهر إجرام الحكومة البريطانية بإعطائها هذا الوعد وبتنفيذه].

٥ ــ من واجب حكومة جلالته أن تنمي مؤسسات الادارة الذاتية في فلسطين كما نص الانتداب. وهي تجد، بصرف النظر عن هذا الالتزام النوعي، أن إبقاء شعب فلسطين تحت وصاية الانتداب، هو مخالف لروح نهج الانتداب. ومن الصواب أن يتمتع أهل البلاد، وبأسرع ما يمكن، بحقوق الحكم الذاتي التي يمارسها شعب البلدان المجاورة. إن هدف حكومة جلالته هو الحكم الذاتي وفي المجال البعيد، الدولة الفلسطينية المستقلة التي يتقاسم فيها الشعبان: العربي واليهودي، سلطة الحكم بطريقة تضمن مصالح كليهما الأساسية.

٦ ــ إن التخلي الكامل عن إدارة فلسطين من قبل الانتداب، يتطلب علاقات بين

العرب واليهود، تجعل قيام حكومة صالحة للحكم ممكناً. كما لا بد من فترة انتقالية قبل أن يتم الاستقلال، ومسيرة متطورة يشارك فيهـا الشعب مشاركة متزايدة في الحكم.

٧ ــ وعلى ضوء هذه التقديرات ، تعلن حكومة جلالته عن نياتها المتعلقة بمستقبل حكومة فلسطين على الشكل التالي:

١ ــ إن هدف حكومة جلالته هو إقامة دولة فلسطينية مستقلة، خلال عشر سنوات، تُعقد بعدها معاهدة بينها وبين المملكة المتحدة.

٢ ــ والدولة المستقلة هي التي يشارك فيها العرب واليهود في الحكومة وتصان فيها المصالح الأساسية لكلتا الطائفتين.

٣ ــ تسبق قيام الدولة المستقلة فترة انتقالية، يعطى خلالها شعب فلسطين حصة متزايدة في حكم بلاده. وتعطى كل واحدة من فئتي السكان فرصة المشاركة، غير أن المسيرة تمضي قدماً، حتى ولو لم تستفد منها إحداهما أو كلتاهما.

٤ ــ وإلى أن يعود السلام والنظام بما فيه الكفاية، سوف تبدأ الحكومة مباشرة بإجراء الترتيبات لتسلم الفلسطينيين زمام بعض الادارات مع مستشارين بريطانيين. وسوف يكون رؤساء الادارات الفلسطينيـون في المجلس التنفيذي الـذي يستشيره المنـدوب السامي، ويدعى الممثلون العرب واليهود كي يكونوا رؤساء للادارات، تبعاً لنسبة كليهما من السكان تقريباً. وسوف يحلّون بالتدريج، بقدر ما تسمـح به الـظروف، محل رؤسـاء الادارات البريطانيين. وعند الوصول إلى هذه الدرجة، ينقلب المجلس التنفيذي إلى مجلس وزراء، مع التبديل الملائم بوضع رؤساء الادارات الفلسطينيين القانوني ومهماتهم.

٥ ــ تستعد حكومة جلالته، حين تسمح الأحوال، لإقـامـة مجلس تمثيلي منتخب إذا رغب شعب فلسطين بذلك.

٦ ــ يؤلف، بعد خمس سنوات، جهاز خاص من ممثلي شعب فلسطين وحَكومة جلالته ليراجع الترتيبات الدستورية خلال السنوات الخمس من المرحلة الانتقالية وليقوم بتحضير التوصيات المتعلقة بدستور دولة فلسطين المستقلة.

٧ ــ المتطلبات التالية ضرورية في الدستور:

(أ) أمن وحرية الوصول إلى الأماكن المقدسة وملكية مختلف الفئات الدينية.

(ب) حماية مختلف الطوائف في فلسطين والوضع الخاص في فلسطين للوطن القومي اليهودي.

(ج) يطلب، في ضوء الظروف الراهنة آنئذٍ، التنسيق مع الوضع الاستراتيجي الذي تراه حكومة جلالته ضرورياً. وكذلك أمر صون مصالح بعض البلدان الأجنبية المسؤولة عنها الآن حكومة جلالته.

٨ ــ تعمل حكومة جلالته ما بوسعها لخلق الظروف التي تمكّن دولة فلسطين المستقلة من أن تولد خلال عشر سنوات. فإذا ظهر، في نهاية السنوات العشر، أن الظروف تتطلب تأخير إقامة الدولة المستقلة، استشارت حكومة جلالته ممثلي شعب فلسطين، ومجلس عصبة الأمم والدول العربية المجاورة قبل إقرار التأجيل. فإذا أصبح التأجيل لا مناص منه، طلبت حكومة جلالته مساعدة كل الأطراف في وضع الخطط من أجل المستقبل، على أن يتم استقلال فلسطين في أقرب وقت ممكن.

٢ ــ الهجرة:

تنص المادة السادسة من الانتداب على أن إدارة فلسطين «بينما هي تضمن عدم الاضرار بحقوق فئات السكان الأخرى ووضعها»، مطلوب منها «تسهيل الهجرة اليهودية في ظروف ملائمة». أما المدة التي ستسمح لهذه الهجرة اليهودية إلى فلسطين، فلم تحدّد في الانتداب. غير أن كتاب تشرتشل الأبيض لسنة ١٩٢٢ (بلاغ رسمي رقم ١٧٠٠) يربط حدود الهجرة اليهودية بطاقة البلاد الاقتصادية على استيعاب المهاجرين، على ألاّ يكون المهاجرون اليهود عبئاً على شعب فلسطين ككل ودون أن يحرموا أية فئة من السكان من عملها.

تلك كانت سياسة حكومة جلالته منذ ١٩٢٢. والحكومة، على كل حال «لا ترى، في بيان سياسة الحكومة لسنة ١٩٢٢ أو في رسالة المستر رمزي ماكدونالد، رئيس الوزراء، للدكتور وايزمن (١٩٣١) ما يعني أن الانتداب «يلزم»، في كل زمان وفي كل الظروف، بتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين، وأن هذه الهجرة تخضع فقط لقدرة البلاد على الاستيعاب. كما أنها لا تجد في الانتداب، أو في البيانات السياسية اللاحقة، ما يدعم الرأي بأن إقامة وطن قومي يهودي في فلسطين لا تتحقق إلا إذا سمح باستمرار الهجرة دون تحديد. فإذا كان للهجرة أثر عكسي على وضع البلاد الاقتصادي، وجب تحديدها بالتأكيد؛ كما وأنها إذا كانت ذات تأثير ضارّ في وضع البلاد السياسي، فهذا أيضاً عامل لا يجوز تجاهله... إن خوف العرب من أن يؤدي هذا التدفق دون تحديد، إذا استمر إلى أن يغدو السكان اليهود في وضع يسيطرون فيه عليهم، قد خلق نتائج جدّ خطرة على اليهود والعرب على السواء، وعلى سلام وازدهار فلسطين أيضاً. والاضطرابات المؤسفة في السنوات الثلاث الأخيرة، ليست إلا من مظاهر التخوف العربي الشديد. فإذا استمر ذلك، استدام عداء محتّم بين الشعبين ونما الانقسام بين كل شعوب الشرق الأدنى والأوسط».

لقد أمِلت، حكومة جلالته، منذ نشر وعد بلفور، أن يتقبل السكان العرب، مع الزمن، وجود الوطن القومي اليهودي في فلسطين. هذا الأمل لم يتحقق، وهنالك بديلان أمام حكومة جلالته هما: ١) أن يمتد الوطن القومي اليهودي بالهجرة دون تحديد ضد إرادة الشعب العربي في البلاد التي عبّر عنها بقوة؛ أو، ٢) ألّا يمتد الوطن القومي اليهودي إلا إذا كان العرب مستعدون للموافقة عليه. فالبديل الأول يعني حكمًا بالقوة، وهذا مخالف كلياً لروح المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم ولتعهداتها الخاصة للعرب في انتدابها على فلسطين. وأكثر من ذلك، يجب أن تقوم العلاقات بين العرب واليهود في فلسطين على التسامح وحسن المعاملة المتبادلين؛ فسلام الوطن القومي اليهودي وأمنه وتقدمه يتطلب ذلك. ولهذا، فقد قررت حكومة جلالته، بعد دراسة كل هذه العوامل، أنه حان الوقت كي تتبنى، مبدئياً، البديل الثاني المذكور أعلاه.

وجرى الالحاح على أن تتوقف، حالاً، كل هجرة يهودية إلى فلسطين؛ ولكن هذا يضر بالوضع المالي والاقتصادي لفلسطين، ويؤذي، فعلاً، مصالح العرب واليهود على السواء؛ كما أنه ليس عدلاً تجاه الوطن القومي اليهودي. ولذلك، سوف تتبنى حكومة جلالته الاقتراحات التالية بالنسبة للهجرة:

(أ) يدخل إلى فلسطين ١٠,٠٠٠ مهاجر يهودي كل سنة ولمدة خمسة أعوام، شرط أن تسمح قدرة البلاد على الاستيعاب. وهذا يوصل السكان اليهود إلى حوالي ⅓ (ثلث) سكان فلسطين.

(ب) إضافة إلى ذلك، ومساهمة بحل مشكلة اللاجئين اليهود، يسمح بدخول ٢٥٠٠٠ يهودي إذا قنع المندوب السامي بوجود مُؤن كافية لاعاشتهم.

(ج) ستبقى ترتيبات قدرة البلاد الاقتصادية على الاستيعاب قائمة، ولكن للمندوب السامي الكلمة الأخيرة في كل المواضيع، ويستشار الممثلون العرب واليهود، قبل اتخاذ أي قرار.

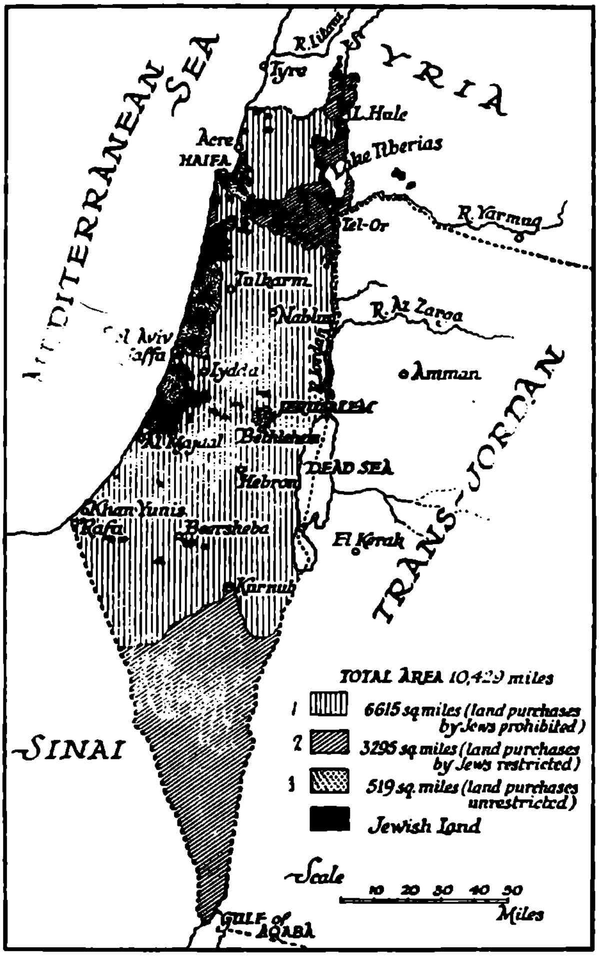
(د) بعد فترة السنوات الخمس، لا يسمح بأية هجرة يهودية ما لم يقبل بها العرب.

(هـ) ان حكومة جلالته عازمة على مراقبة الهجرة اللاشرعية بتبني التدابير الرادعة، فإذا نجح مهاجرون يهود بالدخول خلسة، فإن عددهم سيطرح من المخصص السنوي.

(و) بعد فترة السنوات الخمس وقبول الـ ٧٥٠٠٠ مهاجر المتوقعين، فإن حكومة جلالته، لا يحق لها تسهيل، ولا تكون مُلزمةً بتسهيل نموّ الوطن القومي اليهودي بواسطة الهجرة اليهودية، دون رغبات السكان العرب.

٣ ــ الأرض:

تقضي المادة السادسة من الانتداب بأن تشجع الادارة الفلسطينية إقامة «مستعمرات يهودية على الأرض»، دون فرض أي قيد حتى الآن على انتقال الأرض من العرب إلى اليهود. غير أن تقارير لجان الخبراء العديدة دلت على أنه، نظراً لنمو السكان العرب الطبيعي، واستمرار بيع أراضي العرب لليهود في السنين الأخيرة، فقد أصبحت الآن بعض المناطق، لا مجال فيها لانتقال الأرض؛ وفي مناطق أخرى يجب وضع القيود، حتى لا يزداد عدد «العرب بلا أرض»، ومن أجل حفظ مستوى المعيشة الحالي للفلاحين العرب. بناء على ذلك، يعطى المندوب السامي الصلاحيات العمومية لمنع أو تنظيم انتقال الأرض،



خارطة تحديد بيع الأراضي في فلسطين

وتبتدىء هذه الصلاحيات عند نشر هذا البيان السياسي، ويحتفظ بها المندوب السامي إلى آخر الفترة الانتقالية.

سوف تسرع الحكومة بتحسين وسائل الزراعة. وفي ضوء مثل هذا التطور، يجب أن يكون المندوب السامي راضياً عنه. وقبل أن يصير أي تغيير أو تبديل في القرارات التي مرّ ذكرها، وهي تنصّ على منع أو تحديد انتقال الأرض، يجب التأكد من أن هذا العمل لا يضر بحقوق السكان العرب الفلسطينيين ووضعهم.

الخاتمة:

لقد جهدت حكومة جلالته في أن تعمل، بانسجام دقيق مع التزاماتها، تحت الانتداب؛ لكن إرضاء الجهتين بموجب الانتداب كان مستحيلاً بسبب الجدل الذي أثاره الانتداب. إن سياسة الحكومة تقضي «بالعدل» بين الشعبين اللذين عليهما أن يعيشا معاً ويتعلما على أن يتسامح كل منهما مع الآخر وأن يتعاون كل منهما مع الآخر. وهذا أمر صعب، مع أن العرب واليهود قد عاشوا معاً في صداقة، أكثر من مرة. وعلى كل طائفة أن تساهم برفاه وسلام الأرض المشتركة. إن مسؤوليتها تجعل ذلك واقعاً، ليس أقل من مسؤولية حكومة جلالته، بل أكثر قدسية، لأن أرضهما تقدسها ملايين المسلمين والمسيحيين واليهود في العالم، وهم الذين يصلون من أجل سلام الأرض المقدسة وسعادة شعبها».

انتهى

التصويت على الكتاب الأبيض في المجلسين

ناقش مجلس العموم البريطاني الكتاب الأبيض بين الثاني والعشرين والتاسع والعشرين من أيار (مايو) ١٩٣٩. وانتقده الأعضاء من أنصار الصهيونية بقسوة، وبخاصة، المستر ونستون تشرتشل والمستر لويد جورج، الذي كان رئيساً للوزراء عندما صدر وعد بلفور. فلجأت، الحكومة إلى التصويت السري، حتى لا تفشل، كما في سنة ١٩٣٥. فصوت مع الكتاب الأبيض ٢٦٨ عضواً وصوت ضده ١٧٩. ثم صوت عليه مجلس اللوردات في الثالث والعشرين من أيار (مايو) فأيده بالاجماع. وسوف نقدم في الفصول التالية تفصيلاً عن ردود الفعل على كتاب ماكدونالد الأبيض.

الفصل السادس والعشرون

ردود الفعل على كتاب ماكدونالد الأبيض عند العرب واليهود
مدح عند العرب وذم عند اليهود
اللجنة العربية العليا تدرس الكتاب الأبيض
الحاج أمين الحسيني، رئيس اللجنة العربية العليا، يرفض الكتاب الأبيض

رد الفعل اليهودي على الكتاب الأبيض

كان رد الفعل اليهودي معادياً بعنف للكتاب الأبيض. فلم يكتفِ اليهود بإدانته، بل أعلنوها عليه حرباً شعواء وأقسموا على إلغائه. وقام الارهابيون اليهود في فلسطين بعدة هجمات على مكاتب الحكومة في القدس وحيفا، وتل ـ أبيب وعلى محطات الاذاعة. وكذلك على السكان العرب كما نهبوا عدة مخازن عربية. وقذفوا بالحجارة رجال الشرطة البريطانيين (غير المسلحين) الذين يحفظون النظام، فقتل أحدهم. ثم اعلنوا الاضراب العام.

التفسير الصهيوني لوعد بلفور

عندما صدر وعد بلفور سنة ١٩١٧، زعم الصهيونيون أنه يعني «صك بيع» بينهم وبين بريطانيا العظمى يخولهم، ليس إقامة دولة صهيونية في فلسطين فحسب، وإنما تحويل فلسطين إلى دولة صهيونية. فقد قال وايزمان، رئيس المنظمة الصهيونية: «يجب أن تصبح فلسطين يهودية مثلما إنكلترا إنكليزية». وكان شعاره: «أعطوا أرضاً بلا سكان لشعب بلا أرض». ولما سئل: لماذا قبلت بمشروع التقسيم، أي بنصف فلسطين؟ فقال: «لأن النصف الآخر لا يستطيع الهرب».. وبما أن الصهيونيين هم بهذه العقلية وبهذا الفكر الخاطىء، فمن الطبيعي أن يكون كتاب مالكولم ماكدونالد الأبيض بالنسبة إليهم، قنبلة قضت على «صك البيع» الذي في مخيلتهم.

رد الفعل العربي

أما رد الفعل العربي فكان ملائمًا. ومع أن الكتاب الأبيض لم يعطهم كل مطالبهم، وبالسرعة التي يريدونها، فقد أرضى قسمًا كبيراً من طموحاتهم السياسية، وهدّأ مخاوفهم بالنسبة للهجرة اليهودية وبيع الأراضي لليهود؛ كما أوقف الوطن القومي اليهودي عن النمو وأزال تهديد إقامة دولة يهودية في فلسطين.

اللجنة العربية العليا والكتاب الأبيض

اجتمع أعضاء اللجنة العربية العليا والفلسطينيون الذين حضروا «مؤتمر فلسطين» في لندن، في دار الحاج أمين الحسيني، قرب جونية في لبنان، ولم يتغيب إلاّ عضوا حزب الدفاع، راغب النشاشيبي ويعقوب فرّاج.

كانت اللجنة تجتمع كل يوم. فمحصنا الكتاب الأبيض بتفاصيله. كنا خمسة عشر لا يزال أربعة منهم أحياء وهم: جمال الحسيني، موسى العلمي، فؤاد سابا وأنا. دامت اجتماعاتنا حوالي أسبوعين، كنا نلتقي فيها اليوم بطوله، لا يقطعه غير غداء كريم على مائدة الحاج أمين الحسيني.

بدأت المناقشات عائلية، نجلس في دائرة، فنتكلم جميعاً معاً. كانت معنوياتنا عالية وأعلى منها توقعاتنا بمستقبل أفضل. حلمنا، بعض الوقت، بعربي فلسطيني على رأس دائرة، أو وزير أو رئيس وزراء أو في دار الحكومة، ولم لا؟ غير أن هذا الحلم لم يدم طويلاً. ثم احتدت المناقشة، لما تنبه بعضنا إلى أن الحاج أمين الحسيني، لم يكن راضياً عن الكتاب الأبيض وغدا موقفه السلبي، بالتدريج، واضحاً؛ فتوتر الجوّ، وأصبح تبادل الحجج بين الحاج أمين وبقية الأعضاء، حاداً. وتبينا بعد مناقشة خمسة عشر يوماً أن الشخص الوحيد الذي يرفض الكتاب الأبيض هو الحاج أمين الحسيني، بينما كان الأربعة عشر عضواً الباقون مع الكتاب بقوة، وقد عقدوا العزم على إنهاء السياسة السلبية التي تبنتها القيادة العربية من قبل، وصار شعارنا الآن: «خذ وطالب بالباقي». لقد كان لموقفنا السلبي في الماضي، ما يبرّره فعلاً، أما الآن، وبعد انتهاء وعد بلفور، فلم يعد لنا من مبرر.

عند هذا الحد من المناقشات، هيمن جوّ من الامتعاض والفزع. فقد كان يعرف الأعضاء الأربعة عشر، تأثير الحاج أمين السحري على الجماهير الفلسطينية، وأن شيئاً لا يتم دون موافقته، وأن الكتاب الأبيض لا ينفذ إلاّ إذا باركه القائد الأعلى، ولهذا ركزت اللجنة جهدها على إقناع الحاج أمين بأن موقفه السلبي ضار جدّاً بالقضية العربية، وأنه يخدم، عن غير قصد، القضية الصهيونية، وأنه يفعل تماماً ما تريد منه المنظمة الصهيونية أن يفعل.

والحق، أن أحداً منا لم يزعم أن الكتاب الأبيض، مثالي لا شبهة فيه، ولكن أحداً منا أيضاً لا ينكر أنه تبدل هائل، في السياسة الاستبدادية، التي حكمت فلسطين وأنه نقطة تحول حاسمة في تاريخها؛ وأحس الأعضاء، أنهم لا يستطيعون إهمال سياسة أنهت سياسة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، أو أن يرفضوا سياسة ألغت إقامة «دولة صهيونية» كما أوصت اللجنة الملكية وتبنتها الحكومة البريطانية. وكيف نهمل سياسة تنصّ على ما يلي:

«وبعد فترة السنوات الخمس وقبول الـ ٧٥٠٠٠ مهاجرٍ المتوقعين، فإن حكومة

جلالته، لا يحق لها تسهيل، أو انها ملزمة بتسهيل توسع أكثر في الوطن القومي اليهودي بالهجرة، دون اعتبار رغبات السكان العرب».

أولاً: ينهي هذا البيان نمو الوطن القومي اليهودي ووعد بلفور؟ وأي ربح نجنيه نحن عرب فلسطين، من رفض هذه السياسة الجديدة؟!

واستمر الجدل الحاد في اللجنة، أسبوعاً ثالثاً، دون نتيجة ملموسة. وظل الحاج أمين خلاله يكرر حجته بأن الكتاب الأبيض يحوي فجوات كثيرة، وغموضاً، يجعله دون فائدة: «الفترة الانتقالية من عشر سنوات طويلة». و«الوضع الخاص للوطن القومي اليهودي» غامض ولا يجوز معه قبوله. وأثار اعتراضات أخرى لا يمكنني المجال من تسجيلها؛ غير أنها، ليست من الأهمية التي تسمح لنا برفض سياسة تعطينا مطالبنا الأساسية، وتنهي مخاوفنا بالنسبة لمستقبلنا، ويجهد أعداؤنا لإلغائها!

سيطر الذهول والقلق على اللجنة، وبتنا في ورطة وجب الخلاص منها؛ ولكن كيف؟ ارتأى أحدنا، ولا أذكر أيّنا، أن أذهب إلى لندن لأقابل وزير المستعمرات، المستر ماكدونالد، فأسأله تفسيراً وتوضيحاً لهذا الغموض وتلك الفجوات. وفي الحال وافقنا جميعاً على الاقتراح، مما خفف قلقنا وهدّأ بالنا، وأمل كل منا أن تؤدي هذه «الاستراحة» إلى حلّ، وهي كما يبدو لا حلّ لها.

مهمة أخرى في لندن

كان عندي محفظة ثياب جاهزة لهذه الرحلات المفاجئة. ركبت الطيارة إلى لندن، وفي اليوم التالي كنت على مكتبي في «المركز العربي»، أسعد برفقة زملائي. وقبل أن أطلب مقابلة وزير المستعمرات، اجتمعت مع اللجنة البرلمانية المناصرة للعرب لأخذ رأيهم، فوجدت معنوياتهم مرتفعة لاعتقادهم بأن الكتاب الأبيض أعطى شعب فلسطين العربي حقوقه الأساسية، وأنهى وعد بلفور. ولم أستغرب اهتمامهم بالكتاب الأبيض، واطلاعهم عليه، لأنهم ساهموا في إنجازه. ولقد استغربوا ودهشوا حين عرفوا أن الحاج أمين لم يقبل به.

وفي اليوم التالي، اجتمعت بأصدقائنا البريطانيين، مثل مايكل ماكدونيل، قاضي قضاة فلسطين السابق والمستشار الحقوقي للوفود العربية في «مؤتمر فلسطين»، والكولونيل نيوكومب، وهـ. ف. مورتون، وسواهم، وكلهم استغرب، دون استثناء، رغبة الحاج أمين في رفض الكتاب الأبيض بحجة انه لا نفع منه سياسياً. أما عن رأيهم، فقد كانوا يعتقدون جميعاً، ان الكتاب الأبيض، بالرغم من بعض الهنات، ونظراً لقوة النفوذ الصهيوني في المملكة المتحدة والولايات المتحدة، هو إنجاز حكومي عظيم لصالح العرب. وقالوا لي: «إن موقف الحكومة البريطانية، له معناه، فقد كانت لها الشجاعة لأن تتجاهل الضغوط الصهيونية،

داخلياً من البرلمان، وخارجياً من عصبة الأمم، وأن تنهي ارتباطها بسياسة الوطن القومي اليهودي. وأن تتبع سياسة جديدة». ولإخلاصهم للقضية العربية الحوا عليّ جميعاً أن أرجو الحاج أمين قبول الكتاب الأبيض وأن نغتنم الفرصة التي لن تسنح لنا مرة أخرى.

مع المستر مالكولم ماكدونالد

بعد ذلك، كتبت إلى المستر ماكدونالد أطلب مقابلته فوافق حالاً. وما زلت أذكر جيداً ذلك الاجتماع التاريخي الذي دام أكثر من ساعة؛ وأذكر جلوسي أمام ذلك الصديق في مكتب وزارة المستعمرات الواسع، كما كنت أفعل قبل وأنا أناقش معه مستقبل حكومة فلسطين.

كان المستر ماكدونالد مسروراً لرؤيتي، غير أنه كان قلقاً، يريد أن يعرف موقف العرب عامة، وخاصة، موقف اللجنة العربية العليا من الكتاب الأبيض، فنجاحه متعلق بتقبلهم له. أما عن موقف الصهيونيين فما كان يجهل كيف كانوا يحاربونه.

قلت: «بصراحة، هنالك تأييد عام للكتاب الأبيض بالرغم من وجود بعض الفجوات والغموض. وقد أرسلتني اللجنة العربية العليا كي أراك وأسألك توضيحاً لبعض هذه الفجوات».

من النقاط التي أثرتها مع الوزير، تلك التي تشترط نهاية الانتداب بالعلاقات الحسنة التي يجب أن تنشأ بين العرب واليهود، وقلت: «في هذه الحال، يتوقف قيام الحكومة المقبلة في فلسطين على اليهود الذين لن يحاولوا إيجاد علاقات حسنة مع العرب». لذلك لن تقوم الحكومة.

وأضفت: «النص التالي هو فجوة أخرى»:

«حالما يعود السلم والنظام، بما فيه الكفاية، تتخذ الخطوات لتنفيذ سياسة إعطاء شعب فلسطين دوراً متزايداً في حكمه بلاده».

قلت: «حالما يعود السلم والنظام، بما يكفي» هو شرط كان ينبغي ألّا يوضع لإعطاء شعب فلسطين دوراً متزايداً في حكم بلاده؛ لأنه واضح أن اليهود سوف يمنعون استتباب السلام كي يمنعوا الشعب العربي الفلسطيني من أخذ دور في حكم بلاده. إن هذا الشرط هو دعوة لليهود ليستمروا في قتالهم.

النقطة الثالثة التي ناقشناها هي: «الوضع الخاص للوطن القومي اليهودي»، الذي يجب أن يعترف به العرب في فلسطين المستقلة. قلت: «الوضع الخاص يتضارب مع الاستقلال».

كان وزير المستعمرات عارفاً بكل تلك الفجوات والغموض لأنه هو الذي خطط الكتاب؛ وعلى ذلك، كان مستعداً للجواب على كل غموض، ويذكر سبب وجوده وتعليله وأخيراً قال: «لا توجد وثيقة سياسية، بصورة عامة، دون فجوات... إن الكتاب الأبيض يلغي الدولة الصهيونية، وينهي سياسة الوطن القومي اليهودي ويبدأ سياسة جديدة، تؤدي، بعد فترة انتقالية، إلى فلسطين مستقلة، أنتم فيها دائمًا أكثرية. إن الخوف من أكثرية يهودية ومن فقدان الأرض العربية قد زال، وليس للعرب الآن ما يخافون منه».

وذكرني المستر ماكدونالد بالصعوبات التي لاقاها الكتاب الأبيض في المرور من مجلس العموم وكيف أن عدداً من أبرز أعضاء حزب المحافظين وحزب العمال بكامله صوتوا ضده. كما أن الوكالة اليهودية وكل المنظمات الصهيونية رفضته؛ «وإذا أخذنا بعين الاعتبار العطف المتزايد على اليهود بسبب اضطهاد هتلر لهم، نجد أن الكتاب الأبيض هو إنجاز حكومي كبير» وكأنه أراد أن يقول لي: إن الحكومة البريطانية غير قادرة على أن تزيل كل الأذى الذي لحق بالعرب من وعد بلفور المتناقض. وأن كل ما نستطيع فعله الآن هو إيقاف سياسة الوطن القومي اليهودي التي تحكم فلسطين حالياً.

ثم قال المستر ماكدونالد في لهجة نصح صادقة: «سيكون شيئاً مؤسفاً إن رفضت اللجنة العربية العليا، سياسة، جهدت الحكومة في إقامتها ضد صعوبات كبرى، وإذا أضعتم هذه الفرصة الذهبية، فلن تعود أبداً».

والح عليّ حضّ اللجنة على قبول الكتاب الأبيض. فلقد كان قانعاً، ولو أنه لم يقل، أن السياسة الجديدة هي في صالح العرب، وانها في صالح الأمبراطورية البريطانية أيضاً. إن المنفعة المتبادلة، جعلت صداقة بريطانيا والعرب ضرورة لدى الشعبين.

رجعت إلى بيروت، فوجدت، كما قدرت، اللجنة العربية العليا تنتظر نتيجة مهمتي بقلق بالغ. فقدمت بياناً مفصلاً عن مقابلاتي مع وزير المستعمرات، ومع اللجنة البرلمانية لنصرة العرب، ومع كثيرين من أصدقاء العرب. وقلت انهم الحوا عليّ جميعاً، دون استثناء، أن أحثكم على قبول الكتاب الأبيض، مباشرة، وأن نبدأ بالتعاون مع الحكومة البريطانية لتنفيذه. إنها فرصة ذهبية يجب ألاّ نضيعها.

واستمرت اجتماعات اللجنة العربية العليا دون نتيجة. إذ لم يرض الحاج أمين الحسيني عن نتيجة مهمتي واستمر في استخدام، الفجوات والغموض في الكتاب الأبيض، على انهما سببان كافيان لرفضه. ولم يؤثر فيه نصح أصدقائنا البريطانيين بأية طريقة، وأصبح واضحاً لنا أنه كان لديه مخطط آخر لمستقبل فلسطين. ولم يعرف أحد في ذلك الوقت، إن كان يبني مخططه على نصر الألمان النهائي، أو على أي شيء آخر.

اللقاء مع اللورد هاليفاكس في جنيف

بينما كانت مناقشة الكتاب الأبيض مستمرة، طلب من جمال الحسيني وموسى العلمي ومني، السفر إلى جنيف، للقاء اللورد هاليفاكس، وزير الخارجية البريطاني. فطرنا إلى جنيف حيث وجدنا أن رسالة وزير الخارجية الملحة علينا في قبول الكتاب الأبيض مباشرة ومضاعفة جهود «المركز العربي» في لندن لمحاربة الدعاية العنيفة التي بدأها الصهيونيون وأصدقاؤهم الأنكليز ضده. قال: «إن الصهيونيين يمارسون الآن ضغطاً كبيراً على كل الجهات. وهم يجربون بمختلف الطرق والوسائل تعطيله».



الوفد العربي الفلسطيني الذي ذهب إلى جنيف لمقابلة اللورد هاليفاكس، وزير الخارجية البريطانية

استجبت لنصحه، فسافرت في اليوم التالي إلى لندن. وطلبت من الكولونيل كليفتون بروان أن يدعو اللجنة البرلمانية إلى الاجتماع. وأخبرت الأعضاء، عما اقترحه اللورد هاليفاكس في جنيف. فتجاوبوا معي مباشرة وبدأوا العمل وهم في دهشة لا يستطيعون تفسير تردد اللجنة العربية العليا في قبول الكتاب الأبيض. قالوا: «إن رفض العرب للكتاب الأبيض، هو أقوى دعم للمعركة الصهيونية ضده».

الفصل السابع والعشرون

كتاب ماكدونالد الأبيض أمام عصبة الأمم
لجنة الانتدابات الدائمة ترفض تطبيقه في الحال
وفد عربي فلسطيني يقابل ماكدونالد في جنيف
وزير المستعمرات يؤكّد للوفد تنفيذ الكتاب الأبيض

في أوائل حزيران (يونيو) ١٩٣٩، وبينما كنت منشغلاً بالمعركة الصهيونية ضد الكتاب الأبيض، تلقّيت رسالة من اللجنة العربية العليا تطلب مني فيها أن أسافر إلى جنيف فالحق بجمال الحسيني وموسى العلمي كي نرى المستر ماكدونالد وقد ذهب إليها من أجل تقديم الكتاب الأبيض إلى مجلس عصبة الأمم.

زرنا الوزير، نحن الثلاثة، في الفندق، وكان في غاية اللطف. قال لنا انه يتوقّع صعوبات جمة مع لجنة الانتدابات الدائمة لأنه يعرف ـ كما كنا نعرف نحن ـ أن أكثريتها ذات ميل قوي للصهيونية.

وفي الخامس عشر من حزيران (يونيو) ١٩٣٩، قدّم المستر ماكدونالد مشروع الكتاب الأبيض إلى المجلس، فدرسته لجنة الانتدابات الدائمة، فجابهه ـ كما كان ينتظر ـ أربعة من أعضائها السبعة بمعارضة شديدة ضد تنفيذه المباشر. وهم المسيو رابارد، المعروف بولائه للصهيونية، المسيو أورتس، رئيس اللجنة، المسيو دانيفيج وفان اسباك. وكلهم أعلنوا، أن تلك السياسة الجديدة لا تتلاءم مع صك الانتداب على فلسطين. أما الثلاثة الآخرون: لورد هانكي؛ المسيو جيرو والكونت بينها غارسيا، فلم يعارضوه. وفي السابع عشر من آب (أغسطس) أصدرت اللجنة تقريراً عن الكتاب الأبيض تتساءل فيه عن مدى انسجامه مع نصوص الانتداب، وألحقت بالتقرير مذكرة أصدرتها الحكومة البريطانية، جواباً عليه.

ثم قمنا بزيارة أخرى للمستر ماكدونالد، قبل أن يغادر جنيف. فأكّد لنا خلال الحديث أن تقرير لجنة الانتدابات الدائمة لن يكون ذا أثر على الخطوات التي ستتخذها الحكومة البريطانية من أجل تنفيذ الكتاب الأبيض. وذهب إلى أبعد من ذلك فقال أن الحكومة البريطانية سوف تمضي في سياستها الجديدة دون الاهتمام بتلك اللجنة، وهي لجنة

استشارية لدى عصبة الأمم فقط. وهذا يعني أن الحكومة البريطانية انقطعت عن الاعتراف بالمادة المتعلّقة بوعد بلفور في صك الانتداب على فلسطين.

انتهت اجتماعاتنا في جنيف بعشاء لطيف في بستان لمطعم جميل، وأذكر جيداً أننا تناولنا العشاء في الهواء الطلق. وكان معنا المستر إيستوود من وزارة المستعمرات الذي جاء إلى جنيف برفقة الوزير. وقد عرفنا المستر إيستوود في فلسطين مساعداً للسكرتير العام في حكومة الانتداب. كان الجوّ لطيفاً تبادلنا فيه مختلف الأحاديث بروح الصداقة، ولقد التفت المستر إيستوود، دون مزاح، إلى جمال الحسيني وقال: «يا جمال، سوف تكون أول رئيس للوزراء في فلسطين». وابتسمنا جميعاً.

بادرة حزب العمال والكتاب الأبيض

عند عودتي إلى لندن اكتشفت أن حزب العمّال اتخذ قراراً في ألا يعتبر نفسه مرتبطاً بالكتاب الأبيض إذا نجح في انتخابات الخريف المقبل. وكان بطل القرار، المستر هربرت موريسون، وزير الخارجية في حكومة المعارضة. غير أن بادرة حزب العمّال لم تزعجنا جدّيّاً، لأن حزب المحافظين كان يتمتع في مجلس العموم بأكثرية تزيد على الثلثين، وما كان يبدو لنا أنه سيخسر المعركة. وقد كان أبرز عضو من المحافظين ضد الكتاب الأبيض، هو المستر ونستون تشرتشل، الذي أدان الكتاب الأبيض مسمياً إياه بـ«خيانة ميونيخ الثانية».

في تلك الفترة الحرجة من حياة الكتاب الأبيض، كانت «اللجنة البرلمانية المناصرة للعرب» تبذل جهوداً جبّارة تستحق الثناء. ولم يستهينوا بتحدي حزب العمّال، حتى لقد قرّروا إرسال ثلاثة من أعضائهم في وفد إلى بيروت للضغط على الحاج أمين الحسيني من أجل قبول الكتاب الأبيض وإعلان ذلك دون إبطاء، على أن يعرجوا على فلسطين من أجل مقابلة بعض الزعماء العرب هناك، وكان حزب الدفاع في فلسطين، برئاسة راغب النشاشيبي، قد أعلن قبوله بالكتاب الأبيض. وكانت وزارة المستعمرات قد أعلمت بمشروع زيارة الوفد البرلماني لبيروت وفلسطين، وبما أنه كان مفروضاً فيّ أن أرافق الوفد إلى بيروت، طلبت مني اللجنة البرلمانية أن اتحدّث مع وزير المستعمرات بخصوص هذه الزيارة سيما وأن الوزير كان يدرس الموضوع مع شيء من التردّد. ولسوء الحظ، غدت الحرب بين المانيا والحلفاء واقعة ولا شك، فقرّرت اللجنة تأجيل الزيارة ريثما ينجلي الجوّ: فأرسل لي المستر أنتوني كروسلي سكرتير اللجنة، الرسالة التالية:

عزيزي الدكتور طنوس،

أرى من الأنسب أن لا تذكر شيئاً لوزير المستعمرات عن موضوع زيارة الوفد إلى فلسطين والسبب أن وزارة المستعمرات لم تعبّر إلى الآن عن موافقتها على هذه الزيارة، مع أني أعرف أنها تفكر في أمرها. ويبدو لي شبه مؤكد أن انتخابات عامة ستجري في مطلع

الخريف، وتلك تقتل المشروع تماماً. وسوف أكون، إلاّ إذا حصل مانع، خارج لندن حتى آخر أيلول (سبتمبر).

29th July, 1939.

26 Mallord Street,
S.W.3.

Dear Dr. Tannous.

I would much rather you did not mention the subject of our possible visit to Palestine. For one thing the Colonial Office has never expressed approval of this idea, although I know they are thinking about it.

As a matter of fact it looks very much as though there is going to be a General Election in the early Autumn, and that would knock it on the head.

I shall be, barring trouble, out of London nearly until the end of September.

Yours sincerely,

Anthony Crossley.

Dr. I.Tannous,
The Arab Centre,
Trafalgar Square,
W.C.2.

صديقك المخلص

أنتوني كروسلي

وبعد أسبوعين، بدأت التعبئة العسكرية في بريطانيا العظمى، وفي الثالث من أيلول (سبتمبر) ١٩٣٩، اندلعت الحرب العالمية الثانية. وأُجّل الموعد المخصص لدراسة الكتاب الأبيض في عصبة الأمم.. ثم أُلغيت عصبة الأمم وأُلغي معها الكتاب الأبيض وإلى الآن.

الفصل الثامن والعشرون

إعلان الحرب العالمية الثانية يجمّد كل شيء
انحلال اللجنة العربية العليا
الإرهابيون اليهود يغرقون سفن المهاجرين اليهود ليبقى الناجون في فلسطين
أغرق الإرهابيون اليهود السفينة باتريا، وغرق ٢٥٢ يهودياً
الكولونيل نيوكمب، مبعوث وزير المستعمرات، يأتي إلى القدس. ثم يذهب إلى بغداد

لم أشأ أن أغلق المركز العربي بالرغم من إعلان الحرب. فقد كان عزيزاً على قلبي. وطلبت من المسز أرسكين ومن ج. م. ن جيفريز وجورج منصور أن يستمروا في العمل كالمعتاد ريثما أرجع من بيروت بعد أن أقوم بالترتيبات اللازمة للوضع الجديد.

عند وصولي إلى تلك المدينة وجدت الشرق الأوسط كله في توتر شديد، أما الذين عايشوا الحرب العالمية الأولى وفظائعها، فقد كانوا في ذهول. وما كان مستغرباً أن أرى اللجنة العربية العليا تكابد البؤس والحيرة. فأعضاؤها لم يرفع عنهم حظر الدخول إلى فلسطين، بسبب عدم قبول الكتاب الأبيض. وما من دليل، على أن هذا الارتباك والحيرة، جعلا الحاج أمين يعيد النظر في موقفه من الكتاب الأبيض. فقد كان واضحاً أن عقله اتجه إلى خطة أخرى لا تتأثر، حتى بإعلان حرب عالمية ثانية.

وحين فشل أعضاء اللجنة العربية العليا، في إقناع الحاج أمين بتغيير موقفه، والبدء بحياة جديدة في فلسطين، لم يجدوا مخرجاً غير حل اللجنة وأن يتفرّقوا. والبديل الآخر كان في مواجهة الحاج أمين وإعلان قبولهم للكتاب الأبيض، لكنهم، وللأسف، لم تكن لديهم الشجاعة، والسبب: عقلية الجماهير الفلسطينية المتعلّقة بالحاج أمين. ورأوا أن مجال العمل سُدّ أمامهم فما بقي لهم غير أن يمضي كل في طريقه، بحثاً عن ملجأ أمين يقيه من أذى الأيام السوداء المقبلة. وترك كل منا الآخر، على مضض، حزيناً... مرغمًا. وبقي البعض منّا مع الحاج أمين مثل جمال الحسيني وأمين التميمي. أما البقية، أي: ألفرد روك، يعقوب الغصين، أحمد حلمي عبد الباقي، عبد اللطيف صلاح، الدكتور حسين الخالدي، فؤاد سابا، رشيد الحاج إبراهيم وعوني عبد الهادي، فقد سمحت لهم حكومة الانتداب بالعودة

إلى فلسطين. وعزم موسى العلمي وجورج أنطونيوس على العودة إلى القدس وكذلك أنا. وهذا الانحلال في اللجنة العربية العليا دفعني إلى إغلاق «المركز العربي» في لندن لأنني لا أستطيع تحمّل مسؤوليته وحدي. فأبرقت، والدمع يترقرق في عيني، إلى المسز ستيوارت أرسكين وإلى جورج منصور، بتصفية الحسابات، والتصرّف بالأثاث، ووضع الوثائق في المفوضية السعودية، كما أخطرت بالأمر صديقي، الشيخ حافظ وهبه، الوزير المفوّض للمملكة السعودية في لندن.

اجتماع آخر مع الحاج أمين الحسيني

وقبل رجوعي إلى القدس، زرت الحاج أمين الحسيني واقترحت عليه، ما دام لا يريد قبول الكتاب الأبيض، أن يصدر بياناً بالنيابة عن اللجنة العربية العليا، وقبل أن تنحلّ، يعلن فيه أن الشعب العربي الفلسطيني سيبقى على الحياد طيلة مدة الحرب تجاه كل المتقاتلين، وأنه سيستأنف النضال من أجل حقه واستقلال وطنه فلسطين بعد انتهاء الحرب.

كانت فرنسا، حليفة بريطانيا في حربها ضد ألمانيا، وكان لبنان تحت انتدابها؛ ولكي يستطيع الحاج أمين البقاء في لبنان، يجب عليه إعلان حياده في الحرب القائمة. وما دام هو مكرهاً على هذا، فقد رجوته أن يعلن حياد عرب فلسطين بالنسبة لكل المتحاربين، لا لفرنسا وحدها، وهي أسلم خطة حسب اعتقادي.

بعد أسبوع واحد فقط، أصدر الحاج أمين «بياناً» يقول فيه أن عرب فلسطين لن يسيئوا إلى فرنسا طيلة الحرب. حدّد فرنسا وأغفل بريطانيا حليفتها. فاستغلّت حكومة الانتداب الفرنسي البيان فألصقت مئات النسخ على جدران شوارع مختلف المدن السورية واللبنانية وقد رأيتها بعيني في بيروت وصيدا. وكانت النتيجة، أن اعتبرت بريطانيا العظمى عرب فلسطين في عداء معها.

كان ذلك مؤسفاً ولم أدرك لماذا كان الحاج أمين يحقد على بريطانيا بعد ان بدّلت سياستها تبديلاً جذرياً؛ ولم أفهم لماذا تجاهل رأي أعضاء لجنته، ونُصح اللجنة البرلمانية المناصرة للعرب، وإلحاح أصدقائنا البريطانيين، ونصيحة مستشارنا القانوني، الشخصية، السير مايكل ماكدونيل، الذي فقد مركزه كقاضي قضاة في حكومة الانتداب على فلسطين لأنه أدان المندوب السامي وأعطى الحق لعرب فلسطين.

الحاج أمين الحسيني يسافر إلى بغداد

لم يطل الأمر بالحاج أمين الحسيني وحاشيته، حتى رأوا أنهم لا يستطيعون البقاء في لبنان المتاخم لفلسطين. فقرّروا أن يغادروا إلى العراق وهو بلد عربي مستقل. فاستقبلتهم الحكومة العراقية بحرارة كما رحّب بهم الشعب العراقي ترحيباً حاراً.

المعركة الصهيونية ضد الكتاب الأبيض تستمر

رجعت إلى القدس متشائمًا وقد أخذ الهدوء يعود إلى فلسطين، منذ إعلان الحرب؛ غير أن اليهود أرادوا استمرار الاضطرابات جواباً على الكتاب الأبيض. ولهذا، وفي الخامس من تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٣٩، أوقفت الحكومة ثلاثة وأربعين يهودياً يرتدون البزة العسكرية ويحملون البنادق ويقومون بالتدريب؛ ثم حكمت عليهم بالسجن مدداً طويلة. وفي الثامن عشر من تشرين الثاني (نوفمبر)، قبض على ثمانية وثلاثين يهودياً «رجعيًا» وهم يتدرّبون على السلاح، فسجنوا. وفي الثالث والعشرين من كانون الثاني (يناير) ١٩٤٠، كشف التفتيش في مستعمرة بن شيمين على مخازن أسلحة وذخائر، وحكم على ثمانية أشخاص من المستعمرة بالسجن من ٣ إلى ٧ سنوات. وفي الثامن والعشرين من شباط (فبراير) أعلن قانون بيع الأراضي الجديد، كما نصّ عليه الكتاب الأبيض فأدّى ذلك إلى قيام اضطرابات يهودية في مناطق عديدة من فلسطين.

الإرهابيون اليهود يغرقون البواخر

في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٠، وصلت الباخرتان: الباسيفيك والنايلوس إلى حيفا وعليهما ١٧٧ مهاجراً يهودياً غير شرعيين فأوقفتا من أجل نقل المهاجرين إلى الباخرة باتريا في حيفا لترحيلهم إلى إحدى المستعمرات البريطانية. ومن ثم، وصلت باخرة ثالثة هي الأتلانتيك وعليها ١٧٨٣ مهاجراً غير شرعيين. وقرّرت الحكومة نقلهم أيضاً، في الرابع والعشرين من شباط (فبراير)،إلى الباخرة باتريا، غير أن هذه الباخرة فجّرتها قنبلة، فأغرقتها في أقل من ربع ساعة وغرق معها ٢٥٢ مهاجراً غير شرعي وبعض الشرطة الإنكليز. ثم أظهر التحقيق أن الإرهابيين اليهود هم الذين قاموا بإغراق السفينة من أجل إبقاء اليهود الذين ظلّوا أحياء، على أرض فلسطين.

وفي آذار (مارس) ١٩٤١ وصل على الباخرة دارين ٧٩٣ مهاجراً يهودياً غير شرعيين أيضاً فسمحت لهم سلطة الانتداب بالبقاء في فلسطين. ولم يعترض العرب على كل هذه الأعمال لدى المندوب السامي، لأنه لم يكن لديهم هيئة رسمية لمثل هذه الغاية. ومنذ نفي اللجنة العربية العليا إلى جزر سيشل،ظل العرب في فلسطين بدون تمثيل رسمي. وعندما أعطانا الكتاب الأبيض هذا الحق بشكل أوسع، رفضه الحاج أمين، فبقيت اللجنة بدون عمل، والشعب العربي الفلسطيني بدون قيادة.

في السادس من آذار (مارس)، ناقش مجلس العموم قانون انتقال الأرض في فلسطين. فوقّع الصهيونيون عريضة تشير إلى أن هذا القانون لا يتفق ونصوص الانتداب كما عبّرت عنها لجنة الانتدابات الدائمة في عصبة الأمم؛ غير أن دفاع المستر ماكدونالد اللامع،

هزم الموقّعين بـ٢٩٢ صوتاً ضد ١٢٩. وقد دفعتني هذه النتيجة الحسنة إلى الكتابة للمستر ماكدونالد تقديراً لجهده.. فأرسل لي في الخامس عشر من نيسان (أبريل) الجواب التالي:

وزارة المستعمرات ١٥ نيسان (ابريل) ١٩٤٠ وسواهم له.

عزيزي الدكتور طنوس،

أنا شاكر جداً لرسالتك، المؤرّخة في ١١ آذار (مارس)، حول قانون انتقال الأرض. كما سرني أيضاً ما قلته لي عن تقبّل عرب فلسطين وسواهم له.

صديقك المخلص
مالكولم ماكدونالد

كانت هذه آخر رسالة تلقيّتها من المستر ماكدونالد بصفته وزيراً للمستعمرات، لأن حكومة المستر تشيمبرلين لم تعش طويلاً بعد ذلك؛ إذ كانت الحرب تسير ضد مصلحة الحلفاء، وكانت إيطاليا تهدّد بدخول الحرب مع المانيا وبات الهجوم على يوغوسلافيا واليونان وشيكاً. ولما احتل الالمان النروج، ذهل الحلفاء وبدأوا يقدّرون خطر القوة العسكرية الألمانية الكاسحة. ومع أن المستر تشيمبرلين لم يكن المسؤول عما يجري في أوروبا، غير أن الصهيونيين ومن معهم، استغلوا الفرصة وطالبوا باستقالته حالاً، ونجحوا. فقد قدّم تشيمبرلين استقالته في الحادي عشر من أيار (مايو) سنة ١٩٤٠، وأصبح المستر ونستون تشرتشل رئيساً لوزراء بريطانيا. وفي الحال، نقل المستر ماكدونالد من وزارة المستعمرات إلى وزارة الصحة. وبعد أشهر قليلة كانت له سلسلة تعيينات فيها وراء البحار خارج بريطانيا ولعدة سنوات.

اللورد لويد، وزير المستعمرات الجديد

حلّ اللورد جورج لويد، وهو عضو في مجلس اللوردات، محل مالكوم ماكدونالد. وقد كان في أواخر العشرينات مندوباً سامياً على مصر التي كانت تحت الحماية البريطانية. في أوائل الثلاثينات، كان اللورد لويد يؤسس مشروع (المجلس البريطاني) (The British Council)، المؤسسة البريطانية التي انتشرت الآن في العالم كله. أما في الحرب العالمية الأولى فقد قاتل مع الأمير فيصل بن الحسين عبر الصحراء العربية ضد الأتراك. ومنذ ذلك الوقت وهو يهتم اهتماماً خاصاً بالشؤون العربية.

في سنة ١٩٣٦ قدّمني إليه في مكتبه صديقي وصديقه، الكولونيل نيوكومب الذي كان آمره في حرب الصحراء العربية. ولم يكن اللقاء الأخير، فقد كنت والكولونيل نقوم بزيارته للمشورة كلما واجهتنا صعوبة، وكان يفضّل دائمًا أن يستقبلنا في بيته على الفطور، حيث يخدم الإنسان نفسه.

تخوّف العرب من حكومة تشرتشل

عدّت الدوائر السياسية العربية التبدّل في قيادة الحكومة البريطانية، تراجعاً للقضية العربية، وبالرغم من بقاء المحافظين في السلطة، ما كان أحد يعرف ما سيفعل نصير الصهيونية؛ المستر تشرتشل، بالكتاب الأبيض الذي سمّاه ذات مرّة «خيانة ميونيخ الثانية». غير أن تعيينه اللورد لويد، في منصب وزير المستعمرات، خفّف قليلاً من تخوّفهم.

ظل العرب في فلسطين في السنوات الثلاث الأولى من الحرب في حالة نوم سياسي. تشتتت القيادة وتضاءلت الثورة العربية. وفي السابع عشر من حزيران (يونيو) ١٩٤٠ رُفعت الأحكام العرفية وبدا كل شيء هادئاً على الجبهة العربية. ومن الطبيعي، بعد إضراب سنة ١٩٣٦، وحرب استمرت حوالى أربع سنوات ضد القمع البريطاني، فقدنا خلالها عدداً كبيراً من خيرة شبابنا، أن يخلد العرب إلى الراحة. وبدأوا يتبيّنون في بطء، أن رفض الكتاب الأبيض لم يكن قراراً حكيّماً. وكان هدوء كالذي يسبق العاصفة.

عاد الناس بالتدريج إلى أعمالهم العادية وكانوا بذلك سعداء. واستأنف أعضاء اللجنة العربية العليا، الذين كانوا في المنفى منذ سنة ١٩٣٧، عملهم في مهنهم. رجع عوني عبد الهادي محامياً إلى مكتبه، وأحمد حلمي عبد الباقي، إلى بنك الأمة، وفؤاد سابا، إلى تدقيق الحسابات، ويعقوب الغصين إلى رئاسة بلدية الرملة، والفرد روك إلى يافا، وعدت أنا إلى عيادتي على طريق مأمن الله في القدس.

فرصة أخرى أمام الكتاب الأبيض:

الكولونيل نيو كومب في القدس

ذات يوم من تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٤٠، تلقيت هاتفاً من دار الحكومة. كان سكرتير المندوب السامي على الهاتف. قال: «أحد أصدقائك، يا مستر طنوس، يريد أن يكلّمك» أصغيت. كان صوته، لدهشتي العظيمة، صوت صديقي الكولونيل، نيوكمب. قال لي، وأنا في غاية الفرح: «أريد أن أراك سريعاً». وبعد نصف ساعة، كنا نشرب القهوة معاً في عيادتي في شارع مأمن الله.

قال لي: «عزيزي عزّت، أرسلني اللورد لويد، وزير المستعمرات لاقابل الحاج أمين الحسيني كي أجرّب إقناعه بقبول الكتاب الأبيض، والحاج أمين الآن في بغداد، أريدك أن تذهب معي إذا استطعت لتقديمي إليه، فأنا لا أعرفه جيّداً؛ قابلته سنة ١٩٣٠ لما جاء مع الوفد إلى لندن».

فرحت جداً برؤية صديقي نيوكمب في القدس كما فرحت حين علمت بأن اللورد لويد ما زال على عهدنا به من قضيتنا. غير أن معرفتي بموقف الحاج أمين المعاند من الكتاب الأبيض كانت تمكّنني من التنبّؤ، دون الحاجة إلى كثير من الخيال، بنتيجة مهمة صديقي.



الكولونيل نيوكمب

قضينا معاً ساعة لطيفة بعد الظهر بتناول الشاي في بيتي. كانت زوجتي قد تعرّفت على الكولونيل نيوكمب وعدد من أصدقائنا البريطانيين حين كانت معي سنة ١٩٣٨ في لندن. ولقد طلبت منه أن ينقل شكرنا وامتناننا للورد لويد لمساعدته القيّمة لنا. وعبّرت له أيضاً عن امتنان الشعب العربي الفلسطيني لمساعدة أصدقائنا البريطانيين، وعلى رأسهم الكولونيل نيوكمب.

وما كانت هنالك حاجة لمرافقتي له إلى بغداد، التي غادر إليها في اليوم التالي، ما دام صديقه جمال الحسيني هناك وهو سيهتم به ولا شك. وعرفت أنه أقام أسبوعاً في العاصمة العراقية، أجرى فيها مفاوضات مع جمال الحسيني وليس مع الحاج أمين. ولم يمر بالقدس في طريق عودته، كما لم أسمع عنه أي شيء فيما بعد.

الكتاب الأبيض ثانية

أريد أن أدوّن حادثة أخرى تتعلّق بالكتاب الأبيض ولها أثرها على مستقبل فلسطين. كان ذلك بعد زيارة الكولونيل نيوكمب إلى القدس، فقد رتب لي ذات يوم زيارة المستر مودي، مساعد السكرتير العام في حكومة الانتداب، في مكتبه، وكان ذلك حسب رغبته. لم أقابله من قبل، وما كنت أتصوّر لماذا هو راغب في رؤيتي.



اللورد جورج لويد وزير المستعمرات

بدأ الحديث معي بالسؤال: «أين الحاج أمين الحسيني؟» كان جوابي أنه على الغالب لا يزال في بغداد. عندها قال: «لماذا رفض الكتاب الأبيض ولماذا لم يبدأ بالسياسة الجديدة في فلسطين؟» ثم وصل إلى النقطة

التي أراد الإلحاح عليها فقال: «أريد أن أخبرك عن شيء. لو أن الحاج أمين وافق على الكتاب الأبيض، كانت الحكومة مقررة إرجاعه إلى فلسطين للبدء مباشرة في تنفيذ الكتاب الأبيض. آسف إنه لم يستغلّ الفرصة».

دفعني هذا الاجتماع مع المستر مودي لأسأل عنه أكثر وأعرف لماذا أراد أن ينقل لي قرار الحكومة الهام هذا. فقيل لي انه كان، لمدة طويلة، حاكم منطقة الجليل وأكثريتها عربية، واحتكاكه بأهلها الطيّبين جعله يحب العرب وهم يحبونه أيضاً.

كتبت حكاية الكتاب الأبيض كاملة لأني أعتقد، مخلصاً، ان رفض الحاج أمين الحسيني له، لعب دوراً حاسمًا في تاريخ فلسطين ومستقبل شعبها العربي. ولا أستبعد أنه لو أن الحاج أمين الحسيني وافق عليه وتعاون مع الحكومة البريطانية على تنفيذه، لربما كنا توصلنا إلى نتائج أفضل.

COLONIAL OFFICE,

DOWNING STREET, S.W.1.

15th April, 1940.

Dear Dr Tannous,

I am much obliged for your letter of the 11th March about the Land Transfers Regulations. I am glad to hear what you say about their reception by the Arabs of Palestine and elsewhere.

Yours sincerely

Malcolm MacDonald

آخر كتاب من المستر مالكولم ماكدونالد وزير المستعمرات، للدكتور طنوس

الفصل التاسع والعشرون

الإرهاب اليهودي في الحرب العالمية الثانية
«مؤتمر بلتمور» في نيويورك وقراراته المتحيزة لليهود
ارهابيو «الشتيرن» يغتالون اللورد موين في القاهرة
«إرهاب العصابات اليهودية في فلسطين
في نشرة رسمية، رقم ٦٨٧٣»

كان انقلاب رشيد عالي الكيلاني في العراق في شهر أيار (مايو) ١٩٤١، الانتفاضة العربية الوحيدة التي واجهت الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية. يقابل هذا الحياد العربي الدقيق، إرهاب يهودي مخجل، استمر ضد بريطانيا العظمى المحسنة إليهم، حتى في أشد أيام الحرب سواداً. إن ما فعله الإرهابيون الصهيونيون بالباخرة باتريا في حيفا التي مرّ ذكرها آنفاً، وبالباخرة شتروما التي سنروي قصتها فيما بعد، يفوق التصور. إن إغراقهم مئات الناس من شعبهم بين رجال ونساء وأطفال، كانوا يبحثون عن مأوى، لتشويه سمعة بريطانيا فقط، لهو عين الجريمة. فما من شعب آخر في العالم يقدم على مثل هذه الجرائم. ومع ذلك، فهو الشعب الذي يريد دعاة الصهيونية مثل اللورد بلفور، وونستون تشرتشل، ولويد جورج، وهيربرت موريسون والميجر أتلي ومئات آخرين، إرساله إلى عرب فلسطين «المتأخرين» و«المتخلفين» لكي يمدّنوهم. كنت أود لو أن واضعي وعد بلفور عاشوا حتى اليوم ليروا أي نوع من «الحضارة» أتى به الصهيونيون إلى الشرق الأوسط، وأي نوع من «السلام» جاؤوا به إلى «أرض السلام».

لقد قرّر الصهيونيون، حين لم تقدّم بريطانيا العظمى لهم فلسطين على طبق من فضّة، أن يصلوا إلى هدفهم بإرعاب بريطانيا، بالرغم من أنها كانت تخوض معركة حياة أو موت، ضد هتلر، أقسى أعداء اليهود. واعتمد الصهيونيون، في هذا التحدّي الدنيء على دعم الولايات المتحدة؛ وقد كان الكونغرس، منذ الثلاثين من حزيران (يونيو) ١٩٢٢ متبنياً قراراً شبيهاً «بوعد بلفور»، قرر فيه المجلسان، إعطاء الشعب اليهودي الحق في إقامة وطن قومي له في فلسطين.

الإرهاب اليهودي في فلسطين

يمكن تقسيم فترة الإرهاب اليهودي في فلسطين إلى:

١ ــ إرهاب من سنة ١٩٤٢ إلى سنة ١٩٤٥.

٢ ــ إرهاب من سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٤٨.

قامت بالإرهاب في فلسطين ثلاث منظمات إرهابية وسوف نعطي في ما بعد بياناً مفصلاً عن تكوينها. وهي عصابات الهاغاناه، أرغون تسفائي ليؤمّي والشتيرن، وقد أنكرت الوكالة اليهودية كل علاقة لها مع تلك العصابات الإرهابية.

الإرهاب اليهودي من سنة ١٩٤٢ إلى سنة ١٩٤٥

إن تقديم كشفٍ دقيقٍ عن أعمال العنف التي قام بها الإرهابيون اليهود ضد بريطانيا العظمى وضد شعب فلسطين العربي، أمر مستحيل، ولم ندون هنا إلّا قليلاً من أعمالهم الإرهابية أخذناه عن «مسح فلسطين ١٩٤٥ ــ ١٩٤٦» (Survey of Palestine 1945-1946)

تفجير الباخرة شتروما

في الحادي والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤١، أعلمت السلطات البريطانية في تركيا حكومة فلسطين أن الباخرة شتروما وصلت إلى اسطمبول من رومانيا وعلى ظهرها ٧٦٩ لاجئاً يهودياً؛ وسألت السلطات التركية عن إمكانية قبولهم في فلسطين، وكان الجواب ــ «لا». لأن مجيء اللاجئين من دول المحور إلى الشرق الأوسط كان محظوراً، ورومانيا من بلدان المحور. وفي التاسع عشر من كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٤٢، طلبت الوكالة اليهودية من إدارة فلسطين رفع الحظر عن «شتروما» وأعلمت حكومة فلسطين الوكالة اليهودية، في الخامس عشر من شباط (فبراير)، أن الحظر لا يمكن رفعه، بل شدّد عليه كوسيلة ضد تسلّل العدو؛ ولكن، بصفة خاصة، يسمح لأطفال اليهود على الشتروما من سن ١١ إلى ١٦ سنة بالدخول إلى فلسطين.

وفيما كانت تتخذ هذه الإجراءات، أعادت السلطات التركية السفينة إلى البحر الأسود، فتكررت مأساة السفينة باتريا على بعد ميل واحد من الشاطىء التركي. غير أنه لم ينج في الأخيرة غير شخص واحد وأغرق الإرهابيون بقية اللاجئين اليهود.

شباط (فبراير) ١٩٤٢،

أخذت عصابة شتيرن، المنشقة عن الارغون زفاي ليومي، بارتكاب السرقات في منطقة تل ــ أبيب.

٢٢ نيسان (أبريل) ١٩٤٢،

حاولت عصابة شتيرن قتل مفتش الشرطة العام وأحد مساعديه.

أيار (مايو) ١٩٤٢،

مؤتمر بيلتمور The Biltmore Conference

في تلك المرحلة الدقيقة من الحرب، عقد الصهيونيون الأميركيون مؤتمراً في فندق بيلتمور في نيويورك عرف فيما بعد بـ «مؤتمر بيلتمور» وتبنوا القرارات التالية:

١ ــ إقامة «كومنويلث يهودي» في فلسطين.

٢ ــ رفض كتاب مالكولم ماكدونالد الأبيض لسنة ١٩٣٩.

٣ ــ عدم تحديد الهجرة اليهودية وتحديد عدد المستعمرات.

٤ ــ تشرف الوكالة اليهودية على الهجرة وعلى المستعمرات اليهودية.

٥ ــ إنشاء قوة عسكرية يهودية تقاتل تحت العلم اليهودي والاعتراف بها.

وقد شجعت الدعاية الكبرى لمؤتمر بيلتمور، الارهابيين اليهود على القيام بمزيد من الإرهاب.

٢٠ آذار (مارس) ١٩٤٣،

بن غوريون يهدد بريطانيا ويقول: «إن نهاية الحرب لا تعني عند اليهود نهاية كفاحهم بل بدءه فقط».

آذار (مارس) ١٩٤٣،

«محاكمة سرقة الأسلحة»

اكتشف الجيش البريطاني أن اليهود، وبخاصة عصابة الهاغاناه، يسرقون أسلحته. فحاكمت محكمة عسكرية بريطانية عرفت (بمحاكمة الأسلحة) يهوديين امتدت محاكمتهما من ١١ آب (أغسطس) ــ ٢٧ أيلول (سبتمبر)، وحكمت عليهما بالسجن عشر وسبع سنوات.

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣،

فرّ من معسكر الاعتقال في اللطرون عشرون سجيناً من عصابة شتيرن، وأقاموا إذاعة غير شرعية باسم «محطة الشعب المقاتل» كي تحرض الشعب اليهودي على قتال بريطانيا العظمى..

١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣،

أعلنت الحكومة البريطانية أن الهجرة اليهودية لن تتوقف بعد السنوات الخمس حسب نص كتاب ماكدونالد الأبيض لسنة ١٩٣٩، وكان هذا أوّل انحراف عن الكتاب الأبيض، وأول جائزة بريطانية للإرهاب الصهيوني.

الإرهاب الصهيوني سنة ١٩٤٤

شهدت سنة ١٩٤٤ توتراً عظيماً، فقد شجعت العوامل الخارجية اليهود على الثورة وهي :



الرئيس فرنكلين روزفلت

١ ــ قرر الكونغرس في الولايات المتحدة عدم تحديد الهجرة اليهودية إلى فلسطين. وقابل الحاخام سلفر والحاخام وايز الرئيس روزفلت كي يدعم هذا القرار.

٢ ــ دعم قوي حماسي من الجنرال سمطس، رئيس وزراء جنوب أفريقيا.

٣ ــ قرار حزب العمال البريطاني الذي نصح، ضد كل المفاهيم الإنسانية، بإخلاء فلسطين من سكانها الأصليين وإسكان اليهود مكانهم.

٤ ــ كانت سنة ١٩٤٤، سنة انتخابات في الولايات المتحدة. فأعلن روزفلت في معركته الانتخابية أنه سوف يدعم هجرة يهودية غير محدودة إلى فلسطين وإنشاء كومنويلث يهودي فيها.

كانون الثاني (يناير) ١٩٤٤،

نسف الصهيونيون سيارات نقل حكومية بريطانية.

٣ شباط (فبراير) ١٩٤٤،

وضع الإرهابيون اليهود قنبلة في كاتدرائية القديس جورج في القدس كي تنسف المندوب السامي عندما يجيء ليصلي.

١٥ شباط (فبراير) ١٩٤٤،

إحداث انفجارات في دوائر الهجرة في القدس وتل ــ أبيب وحيفا غايتها إتلاف سجلات الهجرة، وخسائر مادية جسيمة.

٢٤ شباط (فبراير) ١٩٤٤،

وضعوا متفجرات في قيادة الشرطة في حيفا سببت وفاة بعض أفراد البوليس.

٢٦ شباط (فبراير) ١٩٤٤،

نجحوا في تفجير وتهديم مكاتب ضريبة الدخل في القدس وتل ــ أبيب وحيفا.

في ٢٣ آذار (مارس) ١٩٤٤،

قتلوا ثمانية من الشرطة وهدموا مباني الشرطة في أربع مدن هامة.

وفي ١٧ أيار (مايو) ١٩٤٤،

قاموا بهجوم على محطة الإذاعة في رام الله.

١٤ تموز (يوليو) ١٩٤٤،

هاجموا إدارة البوليس ودائرة سجلات الأراضي في القدس بالمتفجرات فكانت الأضرار جسيمة وتسببت بعدة ضحايا من الشرطة، وبإتلاف سجلات الأراضي.

١٨ آب (أغسطس) ١٩٤٤،

أطلقوا النار على المندوب السامي، السير هارولد مكمايكل وزوجته، وهما في طريقهما إلى يافا. وقد نجا المندوب السامي وزوجته، لكن جرح مساعد المندوب السامي والشرطي البريطاني السائق، جراحاً بليغة.

اغتيال اللورد موين في القاهرة
٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٤

اغتالت عصابة شتيرن الصهيونية وزير الدولة البريطاني، اللورد موين في القاهرة، لسببين:

١ ــ لأنه أراد تطبيق العدل في فلسطين.

٢ ــ لكي يخلقوا التوتر بين الحكومتين البريطانية والمصرية؛ ولو أن مجرمي شتيرن الصهيونيين استطاعوا الفرار، لذهب الظن بأن القتلة مصريون؛ غير أن القتلة، قبض عليهم، لحسن الحظ، وحاكمتهم السلطات المصرية، وأعدمتهم.



اللورد موين تغتاله عصابة شتيرن



قتلة اللورد موين

وكان من جراء هذا الاغتيال أن غضب رئيس الوزراء البريطاني، نصير الصهيونية المستر ونستون تشرتشل، فألقى في مجلس العموم في السابع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر)، خطاباً جاء فيه:

«إذا كانت أحلام الصهيونية تؤول إلى دخان مسدسات قتلة، وينجم عن جهدنا من أجل مستقبلها تنظيم جديد من قطّاع الطرق شبيه بالنازيين الألمان، فإن كثيرين مثلي سوف يعيدون النظر في الموقف الذي تمسكوا به طويلاً في الماضي. ولا بد، من أجل أن نعقد الأمل على مستقبل مسالم ناجح للصهيونية، من أن تتوقف هذه الأعمال الشريرة وأن يستأصل المسؤولون عنها من جذورهم».

كان ذلك انتقاداً شديداً ضدّ الصهيونية من سياسي عالمي ادَّعى غالباً بأنه صهيوني. فقد عرف أن مثل تلك الطرق تجرّ، على المدى الطويل، الخراب على فاعليها. غير أن الصهيونيين لم يأبهوا بهذه النصيحة بل زادوا من نشاطهم الإرهابي.

الإرهاب اليهودي من سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٤٨

انتهت انتخابات ١٩٤٥ النيابية في المملكة المتحدة، ولسوء حظ عرب فلسطين، رجع إلى السلطة حزب العمال الممالىء للصهيونية. وأعطى هذا التغيير في الحكومة، أملاً أكبر للصهيونيين في إلغاء الكتاب الأبيض، فازداد الإرهاب اليهودي في سنوات ١٩٤٥ ــ ١٩٤٨، وازداد معه الضغط الأميركي على الحكومة البريطانية لمصلحة الصهيونية. واتخذ الكونغرس الأميركي في السابع والعشرين من كانون الثاني (يناير)، ثم في الثاني من شباط (فبراير) ١٩٤٥، قراراً ببذل الجهود واستخدام الوسائل التي تُبقي أبواب فلسطين مفتوحة أمام اليهود لإقامة دولة يهودية ديموقراطية في فلسطين.

وفي العاشر من آذار (مارس) ١٩٤٥، قابل الحاخام سلفر والحاخام وايز، باسم المنظمة الصهيونية، الرئيس روزفلت، فقال لهما أن سياسته في فلسطين لم تتغير.



الضغط الصهيوني على البيت الأبيض

وفي السابع عشر من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٤٥، صوّت مجلس الشيوخ بالإجماع تقريباً، على مسودّة قرار قدّمه السناتور واغنر (Wagner) (أصبح فيما بعد رئيساً لبلدية نيويورك) والسناتور تافت (Taft)، يدعوان فيه الولايات المتحدة لبذل الجهود مع الدولة المنتدبة من أجل إباحة الهجرة اليهودية وإنشاء كومنويلث يهودي في فلسطين، كما تبنىّ مجلس النواب أيضاً هذا القرار.

اشتداد الإرهاب اليهودي

عزم الإرهابيون اليهود في أواخر سنة ١٩٤٥، وبرعاية الوكالة اليهودية، على زيادة العنف، وضرب منشآت الدولة، كخطوط سكة الحديد ومراكز الشرطة، الخ... ولقد سببت أعمال العنف التي نفذت بين ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٥، و١٨ حزيران (يونيو) ١٩٤٦ من التدمير والتخريب ما حمل الحكومة البريطانية على تدوينه في بلاغ رسمي رقم ٦٨٧٣ في الرابع والعشرين من تموز (يوليو) ١٩٤٦.

«البيان الإعلامي عن أعمال العنف» (بلاغ رسمي، رقم ٦٨٧٣)

(ما نوردُهُ، هنا، هو مختصر البلاغ الرسمي):

البلاغ الرسمي يحتوي على النقاط التالية:

١ ــ ملاحظات تفسيرية.

٢ ــ الهجمات الثلاث الرئيسية.

٣ ــ خاتمة.

١ ــ الملاحظات التفسيرية

توجد ثلاث منظمات يهودية شبه عسكرية غير شرعية، في فلسطين:

١ ــ عصابة الهاغاناه والبالماخ (Hagana and Palmach).

٢ ــ عصابة الأرغون زفاي ليومي (Irgun Zvai Leumi).

٣ ــ جماعة شتيرن (Stern Group).

الهاغاناه والبالماخ

إن عصابة الهاغاناه والبالماخ هي منظمة عسكرية لا شرعية، حسنة التسليح ولها قيادة مركزية بثلاثة فروع:

(أ) قوة مستقرة من سكان المستعمرات وسكان المدن تقدر قوتها بـ ٤٠٠٠٠.

(ب) جيش نظامي تقدر قوته بـ ١٦٠٠٠.

(ج) قوة تحت السلاح (البالماخ) بصورة دائمة لها وسائل نقل، تقدر قوتها من ٢٠٠٠ إلى ٦٠٠٠.

وهنالك ما يشبه الخدمة الإجبارية للفتيان والفتيات، بعمر ١٧ ــ ١٨ سنة [وكل فروع الهاغاناه كان فيها نساء] كل «حركة» يجب أن تقدم لإدارة التجنيد في الوكالة اليهودية في

تل ـ أبيب، كشفاً بأعضائها الذين يجب تجنيدهم، نساء ورجالاً.

ـ أرغون تسفائي ليؤمّي (التنظيم الوطني العسكري)

تألفت سنة ١٩٣٥ من المنشقين عن الهاغاناه وكانت تعمل تحت قيادة سرية، تقدر قوتها بـ ٣٠٠٠ إلى ٥٠٠٠.

ـ جماعة شتيرن

انشقوا عن الارغون سنة ١٩٣٩، وتقدر قوتهم بـ ٢٠٠ إلى ٣٠٠ من المتعصبين المتطرفين الخطرين الذين يمارسون سياسة العنف، بلا حدود.

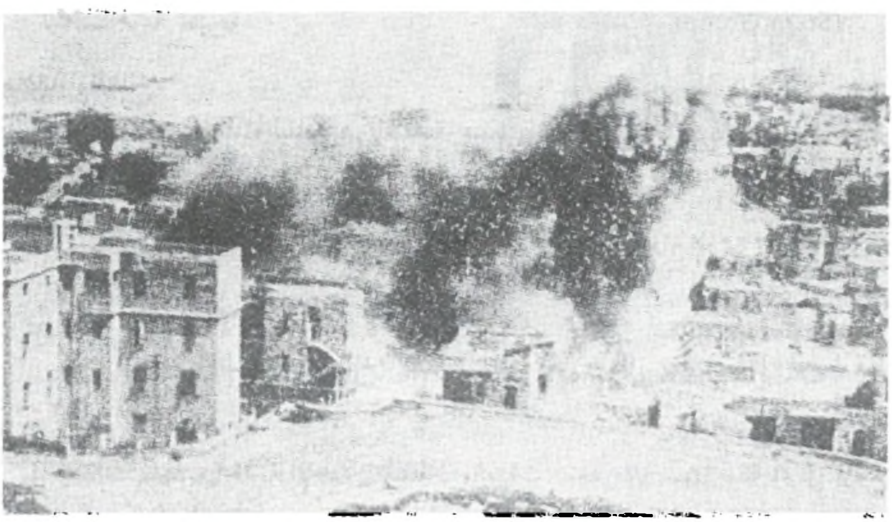
تعمل العصابات الثلاث بإدارة الوكالة اليهودية التي كانت لها إذاعة دعتها «كول اسرائيل» أو «صوت حركة المقاومة» (Kol Israel).

٢ ـ الهجمات الثلاث الرئيسية

الهجمة الأولى: ٣١ تشرين الأول (أكتوبر) ـ ١ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٥.

الهجوم على القطارات، وزوارق البوليس، ومصفاة حيفا.

قامت بالهجوم البالماخ؛ فنسفت خطوط سكة الحديد في ١٥٠ مكاناً، وثلاثة زوارق للبوليس في حيفا ويافا. كما أن الارغون خرّبت في الليلة نفسها ثلاث قاطرات وأحرقت مستودع قاطرات في محطة اللد. وكانت الإصابات كثيرة، وقتل جندي بريطاني وحاولت عصابة شتيرن في الليلة نفسها أيضاً، تخريب مصفاة البترول في حيفا.



إنفجارات في حيفا كما ترى من جبل الكرمل

وقد نظمت هذه الأحداث ونفذتها إنذاراً للحكومة البريطانية التي كانت على أهبة البدء بسياستها الجديدة.

وتم الوصول إلى معرفة هذه الوقائع من البرقيات التي تبادلتها الوكالة اليهودية في القدس مع مكتب فرعها في لندن ومن النشرات اليهودية.

الهجمة الثانية: من ٢٠ ــ ٢٥ شباط (فبراير) ١٩٤٦.

الهجوم على محطة الرادار في حيفا، وعلى معسكرات القوات السيارة وعلى المطارات.

ففي العشرين من شباط (فبراير) ١٩٤٦، هاجمت البالماخ محطة رادار الطيران على جبل الكرمل في حيفا ونسفتها. فجرح إثنان من صف الضباط جروحاً بليغة، وستة آخرون كانت جراحهم بسيطة.

وبعد يومين، هاجمت البالماخ معسكرات القوة الفلسطينية السيارة في شفاعمر، وكفار فيتكين وسارونا وكانت الأضرار جسيمة. وجرح ضابط بوليس جروحاً بليغة في رأسه.

وفي الخامس والعشرين من شباط (فبراير)، هاجمت الارغون زفاي ليومي وشتيرن المطارات في اللد، وملبس وقسطينة (Quastina)،فحطمتا سبع طائرات وأعطبتا ثماني أخرى. هذه الأحداث كانت بمثابة إنذار ثانٍ للحكومة البريطانية، ومعركة ضد الكتاب الأبيض لسنة ١٩٣٩. كانت الأضرار ضخمة جداً دفعت الإرهابيين لأن يكتبوا تحت عنوان «أسبوع ضخم» إن انتصارات هذا الأسبوع المجيد حققناها بدعم الشباب اليهودي المتحد... وهذا إنجاز سياسي».

الهجمة الثالثة: بين ١٦ و١٨ حزيران (يونيو) ١٩٤٦.

الهجوم على الطرق وجسور الخطوط الحديدية، وورش القطارات، وخطف ضباط بريطانيين.

قامت الهاغاناه في ليل السادس عشر من حزيران (يونيو) ١٩٤٦، بمهاجمة الطرق والجسور على حدود فلسطين فسببت أضراراً قدّرت قيمتها بـ ٢٥٠٠٠٠ ليرة استرلينية. ولحق التخريب بأربعة طرق وأربعة جسور وخامس على نهر الأردن. كما قتل ضابط بريطاني من سلاح الهندسة وهو ينتزع فتيل قنبلة.

وفي المساء التالي هاجمت شتيرن ورشات الخطوط الحديدية في حيفا.

وفي الثامن عشر من حزيران (يونيو) ١٩٤٦، خطفوا خمسة ضباط بريطانيين في تل أبيب وضابط سادس في القدس.

وأذاعت «كول اسرائيل» يوم الثامن عشر من حزيران (يونيو) ١٩٤٦ مايلي: «لقد عبّر نسف الجسور عن المعنويات العالية وشجاعة المقاتلين اليهود الذين قاموا به».

وفي الثالث والعشرين من حزيران (يونيو) ١٩٤٦، أذاعت محطة «كول اسرائيل» مايلي: «هنا صوت إسرائيل؛ هنا صوت المقاومة اليهودية. في الأسبوع الماضي هدّمنا الجسور، وهي لازمة لنا، مثل لزومها للآخرين، لكننا هدمناها لنظهر مشاعرنا».

٣ ــ الخاتمة:

ليست البيانات التي قدمناها في هذه الصفحات، هي كل البيانات التي في حوزة حكومة جلالته ولا هي قائمة كاملة بأعمال العنف التي قام بها الإرهابيون اليهود في الأشهر القليلة الماضية. والواقع أن الأشهر الستة الأُوَل من سنة ١٩٤٦ شهدت حوالي خمسين حادثة عنف متفرقة، نجم عنها في كثير من الحالات، الموت، وخسائر مادية جسيمة في انشاءات الخطوط الحديدية، ومراكز البوليس، والطيران، وخفر السواحل. ولُغمت الطرق ونُسفت السيارات.

لقد اتسعت هذه العمليات؛ ولما تلاها خطف الضباط البريطانيين، بات من غير الممكن على حكومة جلالته أن تلتزم موقف اللامبالاة، وإذا أرادت أن لا تستسلم للتهديد بالعنف وأن لا تتخلى عن كل أمل بإحلال القانون والنظام، فقد بات مفروضاً عليها القيام



دائرة البوليس في حيفا ينسفها اليهود الارهابيون

بعمل ما ضد الشخص أو المنظمة المسؤولة عن تخطيط الإساءات الواردة في هذا لبلاغ، وتنفيذها.

انتهى

غير أن حكومة جلالته قد استسلمت، لسوء الحظ، أمام تهديدات الصهيونية وعنفها، وتخلت عن كل أمل بإحلال القانون والنظام في فلسطين، كما سنرى. لقد ثبت فشل الحكومة البريطانية في وضع حدّ للإرهاب الصهيوني، فقد تعددت الحوادث بعد هذا البلاغ حتى صارت بالمئات، ومنها: نسف سكرتارية الحكومة في فندق الملك داوود في القدس، في الثاني والعشرين من تموز (يوليو) ١٩٤٦، وخطف الضباط البريطانيين والقضاة البريطانيين من المحاكم؛ وخطف الارغون للرقيب مارتن كليفورد والرقيب ميرفين بايس في الثاني عشر من تموز (يوليو) سنة ١٩٤٧ وشنقهما على شجرتي حور (اليوكليبتوس) قرب ناثانيا، وهجوم الارغون على قرية دير ياسين في التاسع من نيسان (أبريل) ١٩٤٧، وقتل ٢٥٠ ما بين رجل وامرأة وطفل وكأن شيئاً لم يحدث. ولم يكن سبب الفشل عدم قدرة الحكومة البريطانية على حفظ النظام والقانون، وإنما، ــ وهذا مهم جداً ــ لأن حزب العمال لم يرد ذلك، وهذا هو رأي العسكري الشهير، الفيلد مارشال، الفيكونت مونتغومري، رئيس أركان الإمبراطورية، فقد أراد أن يعيد النظام والقانون إلى فلسطين فمَنعه وزير المستعمرات، نصير الصهيونية، (كريتس) جونز وحكومة حزب العمال. وسنقتطف في الفصل التالي من مذكرات الفيلد مارشال ما نشرته «الصانداي تايمز» اللندنية في الحادي والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٨، ما يُظهر عدم رغبة حكومة العمال بالسماح للسلطات العسكرية بإنهاء الإرهاب اليهودي في فلسطين.

الفصل الثلاثون

مذكرات المارشال مونتغومري، القائد الأعلى للجيوش البريطانية، عن فلسطين
المارشال ينتقد بشدة سياسة حكومته بما يختص
بالارهاب اليهودي في فلسطين

يعود اللورد مونتغومري، في الفصل الثاني عشر من مذكراته (كولينز) فيناقش المشكلة الفلسطينية من وجهة النظر العسكرية فقط، فيقول:

«لا تتم رواية فترة رئاستي للأركان الأمبراطورية العامة، دون ذكر الاضطرابات التي جعلتني أتورط في المشكلة الفلسطينية.

«لقد زرت تلك البلاد في حزيران [يونيو] ١٩٤٦، قبل أن أبدأ مهماتي في الحكومة، في وايت هول، فأزعجني ما رأيت وما سمعت... وفيما أروي القصة، ابتداءً من ذلك الوقت حتى انسحاب القوات البريطانية النهائي في صيف ١٩٤٨، لن أتطرق إلا إلى الناحية العسكرية من المشكلة وكيف استخدم الجيش في مساعدة السلطة المدنية.


المارشال اللورد مونتغومري

« كنا بحاجة إلى قرار سياسي في فلسطين. أما ما يجب أن يكون عليه هذا القرار، فلم يكن من شأني. غير أن العجز في تصميم الحكومة، وفقدان السياسة الواضحة، نجم عنهما موت كثير من البريطانيين الشبان، وهذا ما كنت أكافح ضده.

«تعلمنا كثيراً من دراسة الكيفية التي عالجت بها حكومة حزب العمال المشكلة الفلسطينية في تلك الأيام، وتعلمنا أيضاً أن الأمور لا يجب أن تعالج هكذا».

«تردّى الوضع العام في فلسطين.

وبعد عدة اعتداءات مختلفة أُرتكبت، انقضّ الجيش على الهاغاناه والوكالة اليهودية في آخر حزيران (يونيو) ١٩٤٦، وأوقف عدداً من زعماء المنظمتين وسجنهم. ثم، بعد حادث فندق الملك داود في القدس، في تموز (يوليو) ١٩٤٦، قام الجيش بحملة أخرى في تل أبيب على الارغون وأوقف عدداً آخر من المتهمين. فأدى ذلك إلى وضع متوتر، مما جعل الجنود يخرجون بسلاحهم احتياطا، كما اتخذت احتياطات مشددة للمحافظة على الناس والأبنية ضد هجمات الارهابيين الصهيونيين.

«وفي آخر تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٦، ارتأى وزير المستعمرات، كريتش جونز، أننا إذا أطلقنا سراح زعماء الحركات الارهابية الذين أوقفناهم «وأقلعنا» عن التفتيش عن الأسلحة، فإننا نخلق جواً أفضل؛ ولقد قيل أيضاً، اننا إذا تصرفنا بهذه الطريقة، فإن الوكالة اليهودية ستدين الارهاب وستدعو كل اليهود لمكافحته. وبناء على نصيحة وزير المستعمرات، أطلقنا سراح كل الزعماء الارهابيين الموقوفين في مطلع تشرين الثاني (نوفمبر)، وعلقنا التفتيش عن الأسلحة إلا إذا وقعت حوادث إرهابية.

«ونتيجة لهذا التنازل الذي قدمته حكومة العمال، ازدادت القيود على الجيش في فلسطين في ما يخص نشاطاته لحفظ القانون والنظام. وفي هذه الأثناء، ظل الجنود، وأعضاء الشرطة البريطانيون في فلسطين، يُقتلون ويجُرحون.

«وأغضبتني الأحوال، فرتبت رحلة أطير فيها إلى فلسطين في الثاني والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٦، وقابلت رئيس الوزراء قبل سفري لهذا الشأن. قلت: ان ٧٦ جندياً و٢٣ شرطياً قتلوا أو جرحوا منذ تشرين الأول (أكتوبر) وان القتل والتخريب في ازدياد؛ وتوقفت الخطوط الحديدية، وأن قوة الشرطة الفلسطينية هي نصف ما يجب أن تكون عليه وهي بحاجة سريعة إلى ٣٠٠٠ شرطي آخرين، كما أن حوادث النشاط الارهابي ازدادت بعد إطلاق سراح الزعماء الارهابيين، على عكس ما توقع وزير المستعمرات.

«تحدّيت السياسة القائمة في فلسطين من وجهة نظر استخدام الجيش استخداماً صحيحاً: فقد كان هنالك ١٠٠,٠٠٠ جندي، يحتملون الأذى بمعدل حادثتين في اليوم، دون أن يكون لهم الحق باتخاذ العمل المناسب ضدّ مهاجميهم. كان استخدام الجيش خطأ؛ اذ كان جزء كبير منه يُستخدم في مهمات دفاعية بحتة والطريقة الوحيدة التي نستطيع بها إخماد الارهاب هي الهجوم ضد الارهابيين، وهو أمر غير مسموح به. والحق أننا سلمناهم زمام المبادرة.

«وبدا لي أن وزير المستعمرات كان يفكّر أن لا أهمية للأمر. وظلّ يقول ان الوكالة اليهودية راغبة رغبة حقيقية في قمع الارهاب!

«فقلت في النهاية: اننا اذا لم نكن مستعدين لتثبيت القانون والنظام في فلسطين فالأفضل لنا الخروج منها.

«سَبَّبَ تهديدي هزة عنيفة، فطلب رئيس الوزراء تقريراً سريعاً عن الموضوع. وذهبت أنا بعد ذلك إلى فلسطين».

شرطة فلسطين

«كان المندوب السامي في فلسطين آنئذٍ الجنرال السير آلَن كونينغهام، (وقد كان في فترة ما، قائد الجيش الثامن في حرب الصحراء وأقاله من منصبه الجنرال أوكنلك سنة ١٩٤١). واجتمعنا في التاسع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر)، كونينغهام وديمبسي وأنا في القدس لبحث الحالة العامة. لم نناقش العوامل السياسية العديدة المعنية في استخدام الجيش. لكننا اتفقنا، وكونينغهام نفسه وافق، من الزاوية العسكرية، على أن الجيش لم يقم بالأعمال العسكرية التي كان يجب أن يقوم بها في فلسطين، ولا كان قادراً على مساعدة الشرطة لحفظ القانون والنظام بسبب القيود التي كبلوه بها.

وكنت كلما ازددت تمعناً بالوضع، ازددت كرهاً له. كانت تحت تصرف المندوب السامي قوات لحفظ الأمن والنظام: الشرطة والجيش. غير أن أيّاً منهما لم يستخدم كما ينبغي، والنتيجة أن الجهد برمته كان غير ناجع.

«أما الشرطة، فما كانت تشبه أبداً مفهومي عن قوة الشرطة. فبينما كان البوليس الانكليزي متسامحاً، لطيفاً، يثق به المجتمع ثقة كاملة، ويقوم بواجبه دون سلاح، وجدت شرطةً مدججة بالسلاح، منظمة في طوابير آلية في سيارات مدرّعة.

«وبمعنى آخر، كان تقليداً سيئاً للجيش، لأن أفراده حين يقومون بهذا الدور، لا يستطيعون أن يكونوا أفضل من عساكر من الصنف الثالث. وما كانوا أهلاً للاضطلاع بمهمات قوة الشرطة العادية أو الجيش العادي. والنتيجة أنهم لم يحظو باحترام السكان ولا بثقتهم، كما كان بعضهم ضد أي شرطة، كائنة ما كانت، كما هي الحال في أوروبا الوسطى.

«ثم ظهر لي أن المندوب السامي يفكر أننا إذا نحن أوقفنا الاجراءات ضد الاخلال بالقانون والنظام فإن الوكالة اليهودية والهاغاناه ستقضيان عليهما. واعترف بأننا لا نستطيع إيقاف الاخلال بالقانون والنظام بالهجوم، وأننا إذا حاولنا، فهذا يزعج اليهود ونجعل الوضع أسوأ. وبكلمات أخرى، أننا لا نستطيع منذ الآن فصاعداً حكم فلسطين إلا بإذن من اليهود. قلت ما دامت الحال كذلك، فلنخرج».

«وقعت حادثة خلال وجودي هناك تعتبر مثلاً على ما كان يجري في فلسطين. ذات مساء، في الساعة السادسة والنصف، هاجم الارهابيون مركزاً للشرطة، بعد أن وضعوا ألغاماً في بعض الشوارع لضرب نطاق حول المكان. وصُدّ الهجوم؛ ووصل الجنود، فانتزعوا الألغام واستؤنفت الحياة الطبيعية، وانعقد اجتماع في الصباح التالي ليقرروا ما إذا كان من المفيد تفتيش المناطق التي حصلت فيها الجريمة.

«ولو أن الأمر عولج كما ينبغي بإرسال فرقة آلية في الحال إلى محل الجريمة خلال عشر دقائق، لما فرّ إلا القليل من الارهابيين. غير أن القرار الحازم السريع الوحيد الذي اتخذ في القدس في تلك الليلة هو، إلغاء حفلة عشاء في دار الحكومة لأن الألغام في الشارع منعت الضيوف من الوصول!

«نقلت رأيي عن الوضع برقياً إلى الحكومة، قائلاً:

«إن التعامل مع المنظمات المسلحة غير الشرعية، يجري بطريقة جبانة وخاطئة، ولن ينجم عنه أية نتيجة حسنة».



كريتس جونز، وزير المستعمرات

«آنئذ، رمت كل من وزارة الحرب ووزارة المستعمرات قفازها بوجه الأخرى وباتت كل واحدة منهما مستعدة للصراع. فقرر رئيس الوزراء أن يكون حكماً في الجدل وأمر (بلغة الحكومة دعا) كلا الوزيرين لإعداد تقرير مشترك يشرحان فيه رأيهما عن الوضع، على أن يوليا اهتماماً خاصاً لطريقة استخدام القوات المسلحة.

«غير أن التقرير المشترك كان مستحيلاً لأن الوزارتين لا تتفقان على أي شيء. وأخيراً جاء التقرير وكان في قسمه الأول يعبّر عن آراء وزارة المستعمرات، ويعبّر في القسم الثاني عن آراء وزارة الحرب. وكانت وجهتا النظر في صراع بيّن.

«كان مفروضاً أن يُناقش التقرير في اجتماع يعقد في الأول من كانون الثاني (يناير)

١٩٤٧؛ غير أن ضابطاً بريطانياً وثلاثة من صف الضباط، خطفوا وجلدوا، انتقاماً لجلدنا شاباً إرهابياً يوم التاسع والعشرين من كانون الأول (ديسمبر).

«وقد أغضبت الحادثة الرأي العام البريطاني، وانعكس سخطه على اجتماع الأول من كانون الثاني (يناير) حين انضم إلى رأيي رئيس الوزراء بكل ثقله، وانهزم وزير المستعمرات. كانت نتيجة الاجتماع ـ الطلب من وزارة المستعمرات بالتشاور مع وزارة الحرب، لارسال توجيهات جديدة للمندوب السامي في فلسطين.

«ولدهشتي الكبرى، طلب إلي وزير المستعمرات، ونحن نغادر الاجتماع، ان أكتب التوجيه الجديد بنفسي؛ ففعلت، وكان كما يلي:

«١ ـ قررت حكومة جلالته مضاعفة الجهود لايقاف الاخلال بالقانون والارهاب.

«٢ ـ قررت أيضاً أن تتخذوا كل الخطوات الممكنة حالاً لاعادة القانون والنظام وتثبيتهما في فلسطين باستخدام الشرطة والقوات العسكرية التي تحت تصرفكم وحيث تقضي الضرورة.

«٣ ـ على ألاّ يكون هنالك انتقامات طبعاً، كونها تؤذي الناس الأبرياء. والمطلوب أن تنصب جهود الشرطة والجند بالهجوم ضد الذين يخرقون القانون وأن تبقى المبادرة في أيدي قوات التاج.

«٤ ـ إن العمل على تنفيذ السياسة المنصوص عنها أعلاه في البندين الثاني والثالث، سوف يحظى بدعم حكومة جلالته الكامل.

«وجرت الموافقة على التوجيه، فأُرسل إلى المندوب السامي».

أتلي يرى البرقية

«والحادثة التالية التي يجدر ذكرها هي خطف ضابط سابق في الجيش وقاض بريطاني في ٢٦ كانون الثاني (يناير). عندها، أعلن المندوب السامي مباشرة أن إدارة عسكرية سوف تقام في بعض المناطق إن لم يعد هذين المواطنين البريطانيين خلال ثمانٍ وأربعين ساعة.

«أخرجني هذا الاعلان عن صوابي، فكتبت إلى وزير المستعمرات أشير إلى أن إعطاء مثل هذه الفرصة للعدو، يمكّنه من وضع خططه. وكررت بأن أعمالاً مثل هذه هي التي أدت إلى الاضطراب الحالي.

«وفي الثلاثين من كانون الثاني (يناير)، أرسلت برقية قاسية إلى ديمبسي، القائد الأعلى في الشرق الأوسط. أُلحّ فيها خاصة على أن التوجيه الجديد بحد ذاته لا نفع منه؛ فالنجاح يتعلق بطريقة تنفيذه. وأضفت أن ما نحتاجه في فلسطين هو سياسة قوية، ولو أني

لم أر شيئاً منها منذ أن أصبحت رئيساً للأركان. وانتهيت إلى القول أنه يجب علينا أن نغرس قوة الارادة في حكومة فلسطين وفي الحكومة في وايت هول. فسأقوم أنا بما أستطيع في لندن، وعليه أن يفعل كل ما يستطيع حيث هو».

رئيس الوزارة يرى البرقية

«لكنني ارتكبت خطأ تكتيكياً فادحاً، إذ أرسلت صورة عن البرقية إلى وزير المستعمرات، فوصلت بسرعة فائقة إلى رئيس الوزارة، وما كان استقبالها حسناً، فانتظرت سوء العاقبة. غير أن المستر أتلي كان في غاية اللياقة. دعاني إلى زيارته في الصباح التالي وقال لي أن آرائي إذا عرفها الآخرون سببت ارتباكاً للحكومة؛ ومن الممكن أن تؤدي إلى موقف خطير في النقاش القريب، حول فلسطين، في مجلس العموم.

«وقال لي رئيس الوزراء انه يكون ممتناً لي إذا كان بوسعي سحب البرقية في الحال إذا كان رآها أحد غير الجنرال ديمبسي. فاستجبت حالاً، طبعاً، وطلبت إلى ديمبسي أن يلغيها ويتلف كل نسخها. أما الذي، لا شك فيه، هو أن عيوناً كثيرة رأتها!».



افراد من عصابة أرغون تسفائي ليؤمّي

«الليلة، قنبلة»

«عندما بلغ الصراع أوجه في فلسطين، أخذت التنظيمات اللاشرعية تهاجم الأشخاص والمباني، حتى أن إحداها، المسماة بعصابة شتيرن، أرسلت مجموعة إلى أوروبا ونجحت في نسف السفارة البريطانية في روما.

وبما أني صرت أُعَدُّ هدفاً ممكناً للاغتيال، فقد وُضع شرطي أمام بيتي في ٧ وستمنستير غاردنز. وكلما ذهبت إلى هايندهد لقضاء عطلة الأسبوع مع عائلة رينولدز، أرسل شرطي من هاسلمييز لحراسة البيت. أما أنا فكنت أعتقد أن لا ضرورة للشرطي.

«ذات يوم، كان مساعدي يجيب على الهاتف في مكتبي، فسمع صوتاً من الطرف الآخر يقول: هـل هنا وزارة الحربية؟ عصابة شتيرن تتكلم.

أجاب: حسنـاً. ماذا تريد أن أفعل لأجلك؟

قال الصوت: الليلـة، قنبلة، للفيلد مارشال.

قال مساعدي: شكـراً. سوف أعمله.

الصوت: هل تمزح.

مساعدي: ظننت انك انت الذي تمزح.

الصوت: ظنـنت؟ إذن قنبلة لك أنت أيضـاً. وبعد ذلك دوت طلقة.

«ولم توضع قنبلة تلك الليلة ولا فيما بعد وربما لأن الشرطي كان موجوداً».

ستة أشهر مصيرية

«في شباط (فبراير) ١٩٤٧، قررت الحكومة أن تضع قضية فلسطين أمام الأمم المتحدة، دون أية توصية بريطانية في كيفية التصرف. فعيّنت المنظمة لجنة «للبحث عن الحقائق» وتقديم تقرير للجمعية العامة في حوالى الأول من أيلول (سبتمبر) على ألاّ تقتصر على جمع الوقائع المتعلقة بالمشكلة الفلسطينية، بل أن تقدم اقتراحات للحل أيضاً».

الفصل الحادي والثلاثون

الإرهاب اليهودي يستمر
عصابة الارغون تنسف السكرتيرية العامة في فندق الملك داود
٢٥١ إرهابياً يهودياً يفرون من السجن
الإرهابيون اليهود يشنقون، انتقاماً قرب ناتانيا، كلاً من الرقيب مارتن كليفورد، والرقيب ميرفن بايس

لا شك أن الإرهابيين اليهود، وخاصة عصابة الارغون زفاي ليومي التي يقودها مناحيم بيغن، وعصابة شتيرن التي يقودها إسحق شامير، قرروا أذية بريطانيا وإهانتها وإذلالها، تلك الدولة التي أتت بهم إلى فلسطين وقاتلت قتال موت أو حياة، ضد هتلر، ألد أعدائهم؛ والسبب في هذا هو أنها لم تقدم لهم فلسطين على صحن من فضة، خالية من سكانها العرب. وعليه، فقد قرر الإرهابيون اليهود، بدعم من الوكالة اليهودية، والمنظمة الصهيونية العالمية، أن يحتلوا فلسطين بأنفسهم بقوة السلاح. والحق أني مهما دونت أو سوف أدون، من وقائع الإرهاب اليهودي، فلن يكون ذلك إلا القليل من الكثير مما قام به الإرهابيون اليهود الأشرار من إرهاب.

في ١٩٤٦/٦/٢٩،

هاجمت قوات الأمن البريطانية بناية الوكالة اليهودية في القدس وصادرت كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر. وسجنت أربعة أعضاء من الوكالة في معسكر اللطرون. وفتشت أيضاً عدة مستعمرات يهودية، وأوقفت عدة مئات من المتهمين اليهود.

كارثة تفجير سكرتاريا الحكومة في فندق الملك داوود

كان تفجير سكرتارية الحكومة المنتدبة في فندق الملك داوود في القدس من أشد أعمال الإرهاب وحشية، وقد قامت به أفراد عصابة الارغون زفاي ليومي، الذين أدخلوا القنابل ببراميل الحليب إلى قبو الفندق، فسقط جناح البناية الضخمة بكامله وقتل مائة موظف من كل الطوائف ومنهم بعض اليهود من الصهاينة المتعصبين الذين عملوا الكثير لنمو الوطن القومي اليهودي. وهذه ليست المرة الأولى التي يقتل فيها الإرهابيون اليهود ابناء شعبهم، زاعمين أنهم بفعلتهم هذه، يخدمون القضية الصهيونية. ومأساتي الباخرتين

باتريا وشتروما اللتين ذكرناهما آنفاً، هما من الامثال على تلك الجرائم.

كان ذلك اليوم، يوم حداد في القدس لأن أكثرية القتلى كانت من العرب. وكان ردّ الفعل العربي شديداً.



نسف السكرتيرية في فندق الملك داوود

وفي ١٩٤٦/٧/٣٠، فتشت قوات الأمن البريطانية بعض البيوت في تل - أبيب وأوقفت ٧٠٠ إرهابي في معسكر اعتقال اللطرون.

وفي ١٩٤٦/٩/٨، نسف الإرهابيون اليهود بيت ضابط بريطاني في يافا، فقضى تحت الأنقاض.

وفي ١٩٤٦/٩/١٣، هاجم الإرهابيون اليهود البنك العثماني في تل أبيب ويافا فقتلوا شرطياً عربياً، ومدنيين، وجرحوا ١٨ شخصاً. وفرّوا بعد أن سرقوا ٤٠٠٠ ليرة فلسطينية.

وفي ١٩٤٦/٩/٢٩، قتلوا ضابطاً ورقيباً بريطانيين وهما في طريقهما إلى بتاح تكفا.

وفي ١٩٤٦/١٠/١، فجر الإرهابيون اليهود قنابل في السفارة البريطانية في روما، سببت أضراراً جمة، وكانت عصابة شتيرن هي التي وضعت القنابل.

وفي ١٩٤٦/١٠/٦، كمن إرهابيون يهود لضابطين في سلاح الجو البريطاني وقتلوهما في القدس ليلاً.

وفي ١٩٤٦/١٠/١٧، أطلق إرهابيون يهود النار على مفتش بريطاني في البوليس وأردوه قتيلاً.

وفي ١٩٤٦/١٠/٣٠، هاجم إرهابيون يهود من الارغون محطة القطار في القدس وقتلوا جنديين بريطانيين وشرطياً بريطانياً وجرحوا ١٣ شرطياً بريطانياً وعربياً.

ومن ١ إلى ١٩٤٦/١١/١٣، نسفوا تسع عربات قطار في محطة القدس وقتلوا ١٩ شخصاً.

ومن ١٩٤٦/١١/١٣ إلى ١٩٤٦/١٢/٥

فجروا سيارتي نقل للبوليس البريطاني خارج القدس، وست عربات قطار في محطة القدس، وقتلوا بالنتيجة إثنين وجرحوا إثني عشر شخصاً.

كما قتلوا أربعة جنود بريطانيين في طريقهم إلى يافا؛ وخامساً على طريق الخضيرة وسادساً في سبيله إلى حيفا.

كذلك فقد نسف الإرهابيون اليهود مركز القيادة البريطانية في الصرفند، فقتلوا جنديين وجرحوا ثمانية وعشرين آخرين.

١٩٤٦/١٢/١٩

خطف الإرهابيون اليهود ضابطاً بريطانياً في ناتانيا وجلدوه انتقاماً. كما جلدوا ثلاثة آخرين للغاية نفسها. فكان لهذه الحوادث رد فعل عميق في إنكلترا.

وفي ١٩٤٦/١٢/٣١، أذاعت الحكومة البريطانية بلاغاً رسمياً جاء فيه أن:

٢٨ شرطياً بريطانياً قتلوا؛

و ٣٥ شرطياً بريطانياً جرحوا؛

و ٤٥ جندياً بريطانياً قتلوا؛

و ٩٣ جندياً بريطانياً جرحوا؛

و ٣٠٠ مدني قتلوا أو جرحوا.

١٩٤٧/١/٢٦

اختطف إرهابيو عصابة الارغون تاجراً بريطانياً، وفي اليوم التالي إختطفوا القاضي البريطاني، رالف ويندهام، من محكمة تل أبيب وأطلقوا سراحه في اليوم التالي.

١٩٤٧/٢/١٢

رفضت الوكالة اليهودية، حسب عادتها، التعاون مع حكومة الانتداب ضد أعمال العنف.

١٩٤٧/٢/٢٨،

ألقى الإرهابيون اليهود قنبلة على نادي الضباط البريطانيين في القدس فقتلوا ٢٠ ضابطاً.

١٩٤٧/٣/١٣،

أحرقت عصابة شتيرن شركة شل للبترول، واستمر الحريق أربعة أيام وقدرت الخسارة بمليون ليرة إسترلينية.

١٩٤٧/٤/١٦،

شنق في سجن عكا أربعة إرهابيين يهود محكومين بالإعدام.

١٩٤٧/٤/٢٢،

ألقى إرهابيو عصابة الارغون قنبلة على قطار قرب حيفا، فقتلوا ٥ أشخاص وجرحوا ٢١ آخرين.

١٩٤٧/٤/٢٥،

قتل إرهابيو عصابة شتيرن خمسة ضباط بريطانيين في سارونا قرب يافا.

۱۹٤٧/٥/٤،

هاجم إرهابيو عصابة الارغون سجن عكا وأطلقوا سراح ۲٥۱ سجيناً من الإرهابيين اليهود. قتل منهم تسعة بينما كانوا يحاولون الفرار؛ وألقي القبض على ۱٧.

۱۹٤٧/٥/۱٤،

ألقى إرهابيون يهود قنابل على القطارات بين حيفا واللد فقتلوا ضابطين بريطانيين وجرحوا سبعة آخرين.

ومنذ أول كانون الثاني (يناير) وحتى ۱٦ أيار (مايو) ۱۹٤٧،

قتل الإرهابيون اليهود ٧٥ شخصاً وجرحوا ۱۹٦ آخرين.

۱۹٤٧/٦/۱٦،

قضت المحاكم العسكرية بالإعدام على ثلاثة إرهابيين يهود من الذين هاجموا سجن عكا وعلى إثنين آخرين بالسجن ۱٥ سنة.

۱۹٤٧/٦/۲٨،

أطلق إرهابيون يهود، عند الخروج من إحدى دور السينما في تل أبيب، النار على ضابطين إنكليزيين فقتلوهما وجرحوا جنديين آخرين.

شنق الرقيبين كليفورد مارتن وميرفين بايس
(Sergeants, Martin Clifford and Mervin Pace, hanged)

اختطف إرهابيو عصابة الارغون رقيبين بريطانيين هما كليفورد مارتن وميرفين بايس بالقرب من ناتانيا واعتبروهما رهينتين مقابل الإرهابيين اللذين حكم عليهما بالإعدام في ۱۹٤٧/٤/۱٦. وعندما أعدم الإرهابيان، شنق أفراد عصابة الارغون الرقيبين على شجرتي حور قرب ناتانيا ونشرت «الديلي إكسبرس» اللندنية في الأول من آب (أغسطس) صورة الرقيبين المشنوقين.


شنق الارهابيون اليهود الرقيب مارتن، والرقيب بايس

۱۹٤٧/٧/۱٤،

حوصرت مستعمرة ناتانيا مع أربع مستعمرات أُخَر وجرى تفتيشها بموجب الأحكام العرفية بحثاً عن الرقيبين، دون طائل

١٩٤٧/٧/٣٠،

أعلنت قيادة عصابة الارغون مسؤوليتها عن قتل ١٦ شخصاً وجرح ٩٢ أخرين في الخمسة عشر يوماً الأخيرة.

١٩٤٧/٧/٣١،

وجدت جثتا الرقيبين اللذين شنقا بالقرب من ناتانيا، فكان للخبر وقع مذهلٌ على الجنود البريطانيين في تل أبيب مما دفعهم إلى إطلاق النار دون تمييز في الشوارع، فقتلوا خمسة مدنيين وجرحوا ١٥ آخرين.

١٩٤٧/٨/٥،

أوقف ٣٥ زعيًما صهيونياً في معسكر اللطرون لتشجيعهم الإرهاب. ومن بينهم رؤساء بلديات تل أبيب وناتانيا ورامات غان.

من ٨/٥ إلى ١٩٤٧/٩/٣،

قتل ثلاثة شرطيين في القدس.

إخراج القطار عن خطه بين حيفا والقاهرة.

هجوم على قيادة الشرطة في القدس.

اضطرابات في تل أبيب ويافا نتج عنها ٩ قتلى و ٦٠ جريحاً.

١٩٤٧/٩/٢٦،

هاجم إرهابيو عصابة الارغون عربة شرطة مصفحة، وسرقوا ١٨٠٠٠٠ ليرة فلسطينية وقتلوا أربعة حراس.

١٩٤٧/٩/٢٩،

ألقى إرهابيو عصابة الارغون قنبلة على محطة الشرطة في حيفا فقتلوا عشرة شرطيين وجرحوا ٥٤،جرى انتشالهم من تحت الأنقاض.

وفي ١٩٤٧/١٠/٢٤،

ألقى الإرهابيون اليهود ثلاث قنابل في القدس فجرحوا ٨ جنود بريطانيين.

وفي ١٩٤٧/١١/١٣، قتلوا أربعة جنود بريطانيين وشرطياً واحداً كما جرحوا ٢٦ جندياً بعد عدة هجمات قاموا بها في حيفا وفي القدس.

الفصل الثاني والثلاثون

المستر ايدن، وزير خارجية بريطانيا، يعد بالوحدة العربية
ثورة رشيد عالي الكيلاني في بغداد
الملك عبد العزيز آل سعود والرئيس روزفلت يتقابلان
إنشاء جامعة الدول العربية

في السنتين الأوليين من الحرب،أحرزت ألمانيا انتصارات مذهلة، جعلت عرب فلسطين ينسون مؤقتاً ثورتهم ضد بريطانيا العظمى ويركزون على الحرب وتطوراتها، وذلك لأن نتيجتها هي التي تقرر، ليس مستقبل فلسطين وحدها، بل مستقبل العالم كله. كان احتمال انتصار المانيا يرعب اليهود. فهم يعرفون أن هتلر إذا انتصر، سوف يقضي عليهم في أوروبا، بل في أي مكان تصل فيه يده إليهم. أما العرب، فإن الحكومات المستقلة، أي مصر والعربية السعودية والعراق واليمن وشرق الأردن شبه المستقل، فقد كانت تعتقد أن النازية والفاشية هما أشد إضطهاداً من الأمبريالية، ولذلك كانوا يفضلون انتصار الحلفاء. غير أن الشعوب العربية، لم تشارك جميعها، حكوماتها رأيها، فلقد دفع إعجاب الشعوب الطبيعي بالبطولة، في كل العالم، إلى تمجيد الألمان. وحين عرف الألمان بهذه الواقعة، استغلوا انتصاراتهم العسكرية، وبدأوا معركة دعاوية وعدوا فيها الشعوب العربية بحق تقرير المصير، والتحرر من الأمبريالية الفرنسية والانكليزية. وأهم من ذلك، أنهم وعدوا العرب بالتحرر من الاستعمار الصهيوني. وقد كان ذلك نداء إذاعة دولتي المحور اليومي (ألمانياً وإيطالياً) إلى الشعوب العربية.

وقد كانت مصالح الحلفاء في العالم العربي أكبر من أن تسمح لدعاية المحور بالمرور دون جواب. وفي الحال، أذاع أنتوني أيدن، وزير الخارجية البريطانية، التعهد الهام التالي:

«هذه البلاد [بريطانيا العظمى] لها تقليد صداقة بعيد المدى مع العرب، صداقة أثبتتها الأفعال، لا الكلام وحده.. إن المفكرين العرب، يريدون للشعوب العربية درجة أعلى من الوحدة التي يتمتعون بها الآن، وهم يأملون بدعمنا في اتجاههم إلى هذه الوحدة. ونحن لن ندع نداء أصدقائنا دون جواب. ويبدو أنه طبيعي وحق أن تتمتن أيضاً العلاقات الاقتصادية والثقافية بيننا. ولسوف تمنح حكومة جلالته من ناحيتها دعمها الكامل لأي مشروع يحظى بتأييدهم.



ونستون تشيرتشل، رئيس الوزارة وأنتوني أيدن، وزير الخارجية

ولم تصدر أية ردود فعل تجاه الضمانات التي قدمها كلا المتحاربين حتى أيار (مايو) ١٩٤١، حين ثار في بغداد، رشيد عالي الكيلاني، ومجموعة من الثوريين الكارهين لبريطانيا، ضد الحكومة العراقية، حليفة بريطانيا.

قيام نظام رشيد عالي الكيلاني وسقوطه

في أيار (مايو) ١٩٤١، ثار في بغداد، رشيد عالي الكيلاني، وقد أضلته دعاية المحور، ضد الحكومة العراقية المرتبطة بمعاهدة صداقة مع بريطانيا العظمى. عندها، فر أعضاء الحكم العراقي مباشرة من البلاد، ومنهم الأمير عبد الإله الوصيّ على العرش ونوري السعيد، وعلي جودة الأيوبي وبقية أعضاء الوزارة، ولجأوا إلى القدس، حيث حلوا ضيوفاً على حكومة الانتداب البريطانية.

ولقد دعم المفتي، الحاج أمين الحسيني، اللاجيء يومئذ في بغداد، رشيد عالي الكيلاني، دعمًا قوياً، مما منح الانتفاضة زخماً شديداً. غير أن المساعدة الألمانية المنتظرة لم تصل، واحتل الجيش البريطاني ومعه الفيلق الأردني بقيادة غلوب باشا، العراق، مما أدى إلى انهيار نظام الكيلاني خلال شهر واحد فقط.

أما الحاج أمين الحسيني، فقد فرّ من بغداد في الثلاثين من أيار (مايو)، أي قبل أيام من الاحتلال البريطاني لها، ولجأ إلى طهران في إيران. كما لجأ إليها جمال الحسيني، وأمين التميمي، وثلاثة آخرون كانوا معه. وفي خريف تلك السنة، احتلت الجيوش الانكليزية والروسية إيران. فخاف الشاه، رضا بهلوي، والد محمد بهلوي (الشاه المخلوع الذي توفي

مؤخراً) من القوات الروسية، وقد باتت على بعد أميال من طهران، فتنازل عن العرش، وأقلته بارجة بريطانية إلى المنفى. ومن ثم، فرّ الحاج أمين إلى روما فوصلها في الثامن والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر). وبعد أيام قليلة رحل إلى برلين. أما جمال الحسيني وأمين التميمي فقد ألقت القبض عليهما القوات البريطانية في الأحواز ونفوا إلى روديسيا. وقد استشهد أمين التميمي، رحمه الله في منفاه ورجع جمال الحسيني والثلاثة الآخرون إلى فلسطين في التاسع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٥*.

أثر الحرب على الثورة العربية في فلسطين

كان لحرب أوروبا أثر مسكّن على الشعب العربي الفلسطيني. فقد جعلت انتصارات الألمان الباهرة، العرب ينسون، كما ذكرنا آنفاً، مشاكلهم ويركزون على تطورات الحرب التي غدوا معنيين بها. وعلى ذلك نقصت الحوادث سنة ١٩٣٩ بالمقارنة مع عددها سنة ١٩٣٨ أي من ٥٧٠٨ حوادث (عام ١٩٣٨) إلى ٣٣١٥ (عام ١٩٣٩). ولقد حكمت حكومة الانتداب على خمسين عربياً بالموت سنة ١٩٣٨، كما أن عدد الموقوفين بلغ ٥٧٥٩.

في سنة ١٩٤٠، تناقص عدد الحوادث حتى غدا لا شيء تقريباً وأفرج عن أكثر الموقوفين العرب. وفي السابع عشر من تموز (يوليو) ١٩٤٠، رفعت الأحكام العرفية، وعم هدوء نسبي فلسطين. غير أن هذا الهدوء، للأسف، ما كان لينهي ثورة وطنية عمرها عشرون عاماً ضد الاستبداد البريطاني، شنق فيها أو قتل، أو بات عاجزاً، الآلاف من خيرة شبابنا، دون الوصول إلى نتيجة ملموسة. وهنا لا بد لي من القول بأمانة ان الحاج أمين الحسيني حال، إلى حد بعيد، دون جني ثمار هذا الكفاح الذي كلفنا غالياً، وذلك لأنه رفض الكتاب الأبيض لسنة ١٩٣٩، واختار حلّ اللجنة العربية العليا والذهاب إلى ألمانيا بدلاً من ذلك. وكانت النتيجة أن بقيت فلسطين دون هيئة رسمية تسهر على مصالح السكان العرب. وقد كان هذا الشعب المخلص المتعب، خلال الحرب، قطيعاً من غنم دون راع. وكان طبيعياً أن يدع في غياب القيادة العربية، الباب مفتوحاً، أمام المتآمرين الصهيونيين والأميركيين والبريطانيين مما شجع الوكالة اليهودية والمنظمات الصهيونية الأخرى للضغط على الحكومة البريطانية من أجل إلغاء الكتاب الأبيض أو، على الأقل، تأجيله، وهو ما فعلته بسرور، بعد أن أصبح رئيسها المستر ونستون تشرتشل. وقد علق العمل بالكتاب الأبيض ما عدا بندين: تنظيم انتقال الأرض، أو بالأحرى انتقال الأرض العربية

---

* خلال مرض أمين التميمي الطويل في روديسيا، أرسلت عائلته وكثير من الشخصيات الفلسطينية نداءات إلى الحكومة البريطانية من أجل الافراج عنه وإعادته إلى فلسطين، أو أية دولة عربية، لكن النداءات رفضت. ولقد أدان الشعب العربي هذه المعاملة اللاإنسانية لرجل منفي مريض من قبل الحكومة البريطانية.

لأيد غير عربية، وبند الهجرة اليهودية، وهو الذي علق أيضاً سنة ١٩٤٣ بسبب الضغط اليهودي.

لقاء الملك عبد العزيز بالرئيس روزفلت

سنة ١٩٤٣، بدأ قلق العرب يزداد. فقد ظهر أن ازدياد تأثير الضغط الصهيوني ـ الأميركي والإرهاب اليهودي، آلا إلى تبديل جدّي في موقف الحكومة البريطانية. وأول دليل على هذا التبديل، إعلان الحكومة البريطانية يوم الحادي عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣، أن الهجرة اليهودية إلى فلسطين سوف تستمر، وقد كان مفروضاً فيها أن تتوقف تماماً بعد خمس سنوات كما نص عليه الكتاب الأبيض. أزعج هذا القرار الحكومات العربية كثيراً. وكان من رد الفعل أن طلب الملك عبد العزيز آل السعود، ملك العربية السعودية، مقابلة الرئيس روزفلت، كي يناقش معه المسألة الفلسطينية. وتمّ اللقاء على ظهر بارجة أميركية بين ١٤ و١٧ شباط (فبراير)، سنة ١٩٤٤ حيث تباحثا ملياً بقضية فلسطين. وكان الترجمان لهذا اللقاء، الكولونيل أدي (رئيس شركة أرامكو).



الملك عبدالعزيز آل سعود مع الرئيس روزفلت

نتائج الاجتماع

سرّ الملك عبد العزيز كثيراً من نتائج المقابلة. فقد وعده الرئيس روزفلت بأن الحكومة الأميركية سوف لا تتخذ أي قرار في المسألة الفلسطينية إلاّ بعد استشارة العرب

واليهود. وأكد للملك أيضاً، أن الحكومة الأميركية لن تقوم بأي عمل يمكن أن يدل على عداء للعرب.

تبادل الرسائل

بعد سنة، أراد الملك عبد العزيز أن يتأكد، من أن الرئيس روزفلت لم يغير رأيه حول المسألة الفلسطينية بعد اجتماعهما في شباط (فبراير) ١٩٤٤. فقد كانت المناورات الانكليزية الأميركية الممالئة للصهيونية، تدعو للقلق. وعلى ذلك، أرسل الملك، في العاشر من آذار (مارس) سنة ١٩٤٥، إلى الرئيس روزفلت رسالة طويلة، وهامّة، عن فلسطين، يستحق جزء منها التسجيل. ولقد جرب الملك ابن سعود، في رسالته، أن يثبت تاريخياً، أن عرب فلسطين هم سلالة الكنعانيين، سكان البلاد الأصليين والذين أصبحوا، منذ احتلال العرب لفلسطين سنة ٦٣٧م، مالكيها دون انقطاع. قال الملك: «إن تاريخ فلسطين، البلد العربي، يظهر أن العرب كانوا أول من سكنها وأنهم لبثوا فيها منذ ٣٥٠٠ سنة قبل المسيح، وبقيت على ما هي عليه حتى يومنا هذا... غزا اليهود، بقيادة يشوع بن نون فلسطين سنة ١٢٢٥ ق. م. فإذا قبلنا بنص التوراة، وجدنا أن هذا الغازي يشوع، جاء بجيشه،واستولى على أريحا من الكنعانيين وارتكب الفظاعة والبربرية: والشاهد على ذلك قوله لجيشه:

أحرقوا كل ما في المدينة واقتلوا بحد السيف كل رجل وامرأة، وطفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير. أحرقوا المدينة بالنار مع كل من فيها: يشوع: أصحاح ٦، عدد ٢١ ــ ٢٤».

وقال الملك ان اليهود يطمحون إلى احتلال أراضٍ عربية أكثر من فلسطين... ولم يمض وقت طويل حتى أرسل الرئيس روزفلت جوابه. في الخامس من نيسان (أبريل) ١٩٤٥، في كتاب قصير، لكنه دقيق. وفيما يلي مقتطفات منه:

٥ نيسان (أبريل) ١٩٤٥

صديقي

«.. أنا أيضاً ما زلت أذكر حديثنا التذكاري الذي لم يمض عليه زمن طويل، والذي منحني انطباعاً حياً بأحاسيس جلالتكم تجاه هذه المسألة.

وتذكرون جلالتكم أني بيّنت لكم، في فرصة سالفة، موقف الحكومة الأميركية من فلسطين ووضحت لكم رغبتنا في ألّا نتخذ أي قرار يتعلق بوضع تلك البلاد الأساسي دون استشارة كلٍ من العرب واليهود.

كما تذكر جلالتكم ولا شك، أنني خلال حديثنا الأخير، أكدت لكم أنني لا أقوم بصفتي

رئيس الفرع التنفيذي في هذه الحكومة، بأي عمل يدل على عداء للشعب العربي..

صديقك المخلص

فرانكلين روزفلت

جلالة الملك

عبد العزيز بن عبد الرحمن

آل فيصل آل سعود

ملك العربية السعودية. الرياض.

لم يُعرف إلى أي حد كان إخلاص الرئيس رورفلت وهو يعطي هذه الوعود للعرب، لأنه توفي بعد شهور قليلة من إعطائها. لكن العرب شعروا في ذلك الوقت، أن الصهيونيين لم يحزنوا لموته، لأن خلفه، نائب الرئيس، هاري ترومن، بعد أن صار رئيساً للولايات المتحدة، عمل كل ما بوسعه ليبرهن عن عدائه للعرب!

المعركة الحاسمة ضد ألمانيا

في السادس من حزيران (يونيو) ١٩٤٤، قام الحلفاء، بقيادة الجنرال دوايت أيزنهاور، القائد الأعلى لجيوش الحلفاء، بهجوم هائل على اوروبا، ونزلوا على شواطىء النورماندي في فرنسا، واخذوا يحررون ببطء، ولكن بشكل أكيد، المناطق التي يحتلها الالمان، واحدة بعد الاخرى، إلى ان وصلوا إلى المانيا، هدفهم الأخير. فجعلت هذه المعركة الخطرة الدامية نصر الحلفاء أكيداً على ألمانيا.

وبدأ العرب مثل غيرهم من الشعوب، يدرسون ما هم فاعلون بعد الحرب. وما كان غريباً أن يتوخوا أول ما يتوخون «وحدتهم»، الأمل الذي ارتجوه طويلاً.

تأسيس جامعة الدول العربية
بروتوكول الاسكندرية

اجتمعت في اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربي العام، خمس دول عربية مستقلة في الاسكندرية في مصر، في السابع من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٤، وأعلنوا ما سمي فيما بعد «بروتوكول الاسكندرية. وكان هدفه تأسيس جامعة الدول العربية.

وكان قوام اللجنة التحضيرية رؤساء الحكومات:

رئيس اللجنة: مصطفى النحاس، رئيس وزراء مصر.

الوفد المصري برئاسة مصطفى النحاس، رئيس الوزراء.

الوفد السوري	برئاسة سعد الله الجابري	رئيس الوزراء
وفد شرق الأردن	برئاسة توفيق ابو الهدى	رئيس الوزراء
الوفد اللبناني	برئاسة رياض الصلح	رئيس الوزراء
الوفد العراقي	برئاسة حمدي الباجرجي	رئيس الوزراء

اجتمع هؤلاء في الاسكندرية، من أجل تمتين العلاقات التي تربط كل البلدان العربية وتوجيهها إلى رفاه العالم العربي وتحسين حالته وتأمين مستقبله وتحقيق آماله وطموحاته؛ واستجابة للرأي العام العربي في كل البلدان العربية، تألفت في السابع من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٤، لجنة تحضيرية للمؤتمر العربي العام واتفقوا على: «إنشاء جامعة الدول العربية من الدول العربية المستقلة التي توافق على الانضمام إليها. وسيكون لها مجلس يعرف بمجلس جامعة الدول العربية تشارك فيه كل الدول العربية على قدم المساواة».

وبعد شرح أهداف الجامعة وكيفية اتخاذ القرارات، شكلت لجنة فرعية لإعداد مسودة دستور مجلس الجامعة. وقد استمر العمل في تحضيره خمسة أشهر ونصف الشهر. وفي الثاني والعشرين من آذار (مارس) سنة ١٩٤٥، كان ميثاق جامعة الدول العربية جاهزاً للتوقيع.

ولادة جامعة الدول العربية
في ٢٢ آذار (مارس) ١٩٤٥

كان العرب قبل الحرب العالمية الأولى، جزءاً من الأمبراطورية العثمانية، متحدين تحت العلم العثماني. وما كانت توجد بينهم حدود. كل شيء كان عندهم مشتركاً. وفي سنة ١٩١٨، احتل الحلفاء أكثرية البلدان العربية وقسموها إلى دويلات لإضعافها وتفريق شعبها. غير أن الحرب العالمية الثانية، أعطت العرب فرصة الاتحاد من جديد ليس لوحدة اندماجية بل لفدرالية في جامعة عربية.

توقيع ميثاق جامعة الدول العربية
في القاهرة

وقّعت وفود الدول العربية في الثاني والعشرين من آذار (مارس) ١٩٤٥ ميثاق جامعة الدول العربية كما يلي:

عن سوريا، فارس الخوري، رئيس الوزراء؛
عن شرق الأردن، سمير الرفاعي، وزير الخارجية؛
عن العراق، أرشد العمري، وزير الخارجية؛
عن العربية السعودية، الشيخ يوسف ياسين، نائب وزير الخارجية؛
عن لبنان، عبد الحميد كرامي، رئيس الوزراء؛
وعن مصر، محمود فهمي النقراشي، رئيس الوزراء؛

وقد احتوى الميثاق عشرين مادة وثلاثة ملاحق:

١ ــ ملحق خاص يتعلق بفلسطين وينص على أن مجلس الجامعة يأخذ على مسؤوليته، إلى أن تصبح فلسطين دولة مستقلة، اختيار وفد عربي من فلسطين يشارك في أعماله.

٢ ــ ملحق خاص يتعلق بالتعاون مع الدول العربية غير المشاركة في مجلس الجامعة.

٣ ــ ملحق خاص يتعلق بتعيين أمين عام الجامعة. وانتخب المجلس، عبد الرحمن عزام، أميناً عاماً لجامعة الدول العربية، وموسى العلمي، ممثلاً لشعب فلسطين العربي في مجلس الجامعة. كما قرر أن يفتح مكاتب إعلام للجامعة في مختلف العواصم للتعريف بالقضية العربية وخصوصاً بالقضية الفلسطينية.

مكاتب جامعة الدول العربية في القدس ولندن وواشنطن

أول قرار اتخذه مجلس الجامعة كان افتتاح مكاتب إعلام في القدس ولندن وواشنطن، نظراً لحالة قضية فلسطين الملحة. وأوكل المسؤولية، لموسى العلمي، ممثل الفلسطينيين في المجلس.

مكتب لندن

في أوائل أيار (مايو) ١٩٤٥، سألني موسى العلمي إن كنت أستطيع افتتاح المكتب العربي في لندن. فترددت في قبول المهمة لأن زوجتي كانت تعاني اضطرابات قلبية جدّية. ووافقت، في النهاية على الذهاب، لوقت قصير، فقط.

واتخذت الترتيبات لأرسالي على طائرة أميركية حربية إلى لندن، لأن الحرب كانت مازالت قائمة مع اليابان. هذه التسهيلات، ماكانت تعطى إلاّ لأعضاء جامعة الدول العربية.


موسى العلمي

كانت لندن سنة ١٩٤٥، تختلف كثيراً عن عهدي بها سنة ١٩٣٩ في كل شيء. فقصف المدينة بالصواريخ الالمانية، غيّرها كثيراً وتبدل الشعب، بل الحياة كلها. وما كنت أجد فندقاً يؤويني أكثر

من أربعة أيام أغادره بعدها، ولكن كان عسيراً إيجاد فندق آخر. كان أغلب وقتي يذهب في البحث عن مكان أنام فيه. أما إيجاد مكان لمكتب الجامعة فكان مستحيلاً. لم أجد مكاناً، للأسف، في البناية الكبرى، في ساحة «ترافلغار»، حيث كان «المركز العربي» سنة ١٩٣٩! كان التدمير في لندن من الصواريخ الالمانية كبيراً حتى ليبعث على الشفقة. مساحات كبرى في وسط لندن كانت مهدمة. وما كانت الحال أفضل في المدن الأخرى؛ أما مدينة كوفنتري، فتهدمت كلها وكان الألمان يفتخرون بتهديمها.

ثم حلت مشكلة المكتب أخيراً بفضل كياسة وكرم الميجر جنرال سبيرس، الذي كان في لبنان مع الجيش البريطاني وأصبح صديقاً للعرب. عرض أن يقرضنا غرفتين من مكتبه الواسع في منطقة وستمنستر وتلطّف فسمح لنا باستخدام صالونه لاستقبال ضيوفنا. كان الطعام أيضاً قليلاً في لندن، توزع الحكومة بطاقات للحصول على بعض أنواعه وللثياب. وكان عدد البطاقات محدوداً يكاد لا يكفي. ولقد اضطر الشعب البريطاني أن يعيش خلال الحرب ولمدة سنوات بعدها بالتقتير. وكان شأن الزوار شأن السكان.

عين موسى العلمي ادوارد عطية من لبنان وأنور النشاشيبي من القدس للعمل في المكتب. والتحق بالمكتب بعد ذلك سمير شماً من حيفا وأنور نسيبة من القدس، ووصفي التل من شرق الأردن. كانوا جميعاً جامعيين يعرفون القضية الفلسطينية، أهلاً لها، مخلصين.

لم يكن المكتب العربي خلفاً للمركز العربي. فقد كان المركز العربي منصرفاً للمسألة الفلسطينية وحدها، ينطق باسم اللجنة العربية العليا لفلسطين، والفلسطينيين العرب. أما المكتب العربي، فكان مكتب جامعة الدول العربية يهتم بكل المسائل العربية وكانت القضية الفلسطينية، أشدّها إلحاحاً.

وحين بدأت العمل في «المكتب العربي» صعقت لما لمست الفرق في الوضع حين قارنته بسنة ١٩٣٩.

ففي سنة ١٩٣٩ كانت في بريطانيا حكومة محافظة تميل إلى العرب وكان نيفيل تشمبرلين، ومالكولم مكدونالد جد صديقين وعادلين في تعاملهما مع القضية وكان حزب المحافظين الذي وضع الكتاب الأبيض لسنة ١٩٣٩، في السلطة، وكانت بريطانيا تريد صداقة العرب من أجل البترول العربي والحرب؛ ثم انه كانت هنالك اللجنة البرلمانية المناصرة للعرب، وكان الضغط الأميركي على الحكومة البريطانية قليل الأثر قبل الحرب.

أما في سنة ١٩٤٥، فقد كانت تحكم بريطانيا حكومة عمالية موالية للصهيونية (حزب العمال)، معادية للعرب. فكان كليمنت اتلي، وكريتش جونز معاديين للعرب جدّاً

ومنحازين. كما كان حزب العمال الذي ادان الكتاب الأبيض لسنة ١٩٣٩. ثم أن بريطانيا لم تكن بحاجة لصداقة العرب، بعد ان انتهت الحرب، ولم تكن هنالك لجنة برلمانية مناصرة للعرب. وكان الضغط الأميركي على الحكومة البريطانية قبل الحرب قليل الأثر، وكان الضغط الأميركي على الحكومة البريطانية بعد الحرب كبير الأثر.

وهذا يعني أن حصيلة الثورة العربية الفلسطينية، التي توقفت سنة ١٩٤٠، بسبب الحرب، ذهبت هباءً كما يعني أيضاً أن الآلاف من شبابنا الذين شنقوا أو قضوا على أرض المعركة لانقاذ وطنهم من الاحتلال اليهودي، ماتوا عبثاً وأن الآلام والاضطهاد اللذين عاناهما شعب فلسطين العربي منذ ١٩١٨ تحت الاستبداد البريطاني والإرهاب اليهودي، قد عاناهما عبثاً! ومع ذلك، لم توهن هذه النكسة عزائم عرب فلسطين ولم تيئسهم. فقد كان الشعب البطل مصمماً على أن يبدأ المعركة من جديد وبقوة ضد الغزو الصهيوني ـ البريطاني ـ الأميركي المخيف.

برنامج مكتب جامعة الدول العربية في لندن

كان أول ما اهتممنا به هو أن نعرف السياسة التي سوف يتبناها حزب العمال بالنسبة لقضية فلسطين، وخاصة لأن هذا الحزب، قبل مجيئه للسلطة، رفض كتاب مالكولم ماكدونالد الأبيض ووعد الصهيونيين بإلغائه حين وصوله إلى الحكم. وعلى ذلك رتبنا اجتماعاً مع وزير المستعمرات، المستر كريتش جونز.

اجتمعنا إدوارد عطية وأنور النشاشيبي وأنا، مع وزير المستعمرات في النصف الأول من تموز (يوليو) في الوزارة للمرّة الأولى. كان الوزير المستر كريتش جونز، جافاً، ولم يكن متعاطفاً مع قضيتنا ولم يستطع إخفاء ميوله للصهيونية. قال إن الحكومة لم تبت بسياستها المتعلقة بمستقبل فلسطين، وما كان يريد أن يضيف على قوله شيئاً. وهكذا، خرجنا وانطباعنا أن حكومة العمال، سوف تلغي دون شك، «الكتاب الأبيض» وتتبنى سياسة أقرب إلى رغبات الولايات المتحدة والوكالة اليهودية. وقد أثبتت الأحداث فيما بعد أنه «كان عميلاً صهيونياً أكثر منه وزيراً بريطانياً نزيهاً»... هكذا وصفه الفيلد مارشال مونتغومري في مذكراته عن فلسطين، لما كان رئيساً للأركان العامة.

ولم نضع الوقت فأعددنا للتوزيع نشرات عن مختلف وجوه القضية الفلسطينية وعقدنا مؤتمرات صحافية في المناسبات الخاصة وجرّبنا أن نعقد ما استطعنا من صلات مع أعضاء البرلمان.

وأسعدني أن التقي، خلال زيارتي لوزارة المستعمرات، بجون مارتن الذي أصبح وكيلاً دائماً لتلك الوزارة بدلاً من السير كوزمو باريكسون، وقد تعرفت إليه سنة ١٩٣٧ لما جاء إلى فلسطين سكرتيراً للجنة (بيل) الملكية. وقد عمل خلال الحرب «سكرتيراً خاصاً للمستر

نشرتشل، ونظراً لنجاحه، رقي إلى هذا المركز الجديد الهام. وأهميته دوام المركز الذي لا يتغير مع تغيّر الوزارة ولقد بقي في هذا المنصب، قبله، السير كوزمو باركينسون مدة ٢٥ سنة، على ما روي لي سنة ١٩٣٩.

دعوت جون مارتن للغداء، كي أظلّ على اتصال به، وأناقش معه الوضع الجديد الذي برز بعد تبدل الحكومة وتغيرّ الظروف العالمية. وفيما نحن نتحدث، علت الهتافات، فقد خرج الناس يهتفون لاستسلام اليابان الذي يعني نهاية الحرب الدموية المضنية، التي، في الحقيقة، لم يخرج منها أحد منتصراً.

مع الكولونيل كليفتون بروان، رئيس مجلس العموم

الصديق الثاني الذي أردت رؤيته هو الكولونيل كليفتون براون، رئيس اللجنة البرلمانية المناصرة للعرب، سنة ١٩٣٩. وقد غدا الآن رئيساً «لمجلس العموم»، فكان لا بد من اتخاذ الترتيب اللازم لزيارته. كان لقاء عظيًما بعد ست سنوات من الفراق، ولكم فرحنا أن رأى بعضنا بعضاً، غير أننا حزنا، لأن أنتوني كروسلي، سكرتير اللجنة المخلص، لم يكن معنا، فقد مات في حادث تحطم طائرة عسكرية في أول سنة من الحرب.

إن الأعضاء القليلين الذين كان بوسعهم أن يعيدوا اللجنة البرلمانية المناصرة للعرب، إما تغيرت أوضاعهم مثل كليفتون براون أوقضوا نحبهم مثل أنتوني كروسلي، والسير أيرنست بنيت، إلخ.. وكان لا بد من اللجوء إلى وسائل أخرى. فلم نتردد في استخدام السفارات والبعثات العربية لإعلامنا. صديقنا المخلص، حافظ وهبة، كان لا يزال وزير



الشيخ حافظ وهبة، وزير مفوض المملكة السعودية في لندن والدكتور طنوس

السعودية المفوض في لندن، وقد وضع كل وسائل السفارة تحت تصرفنا. ولا بد من تسجيل وتبجيل مساعدة الوزير المفوض كميل شمعون (رئيس الجمهورية اللبنانية فيما بعد) وحماسه لنا وكذلك تعاون مستشاريه، فيكتور خوري ونديم دمشقية معنا. كانوا يدعوننا كل يوم تقريباً لتناول الشاي في البعثة، تشجيعاً لنا. وكان قرب مكتبينا أحدهما من الآخر يمكننا من ساعة حديث لطيف مفيد في الرابعة بعد الظهر من كل يوم. أما البعثة السورية فقد أجبرها عدم وجود مكتب لها إلى الاستئجار في فندق ريتز في البيكاديلي. وكان الوزير المفوض نجيب الأرمنازي ومستشاره جورج طعمة، لطيفين، مفيدين.

كان صعباً عقد لقاء مع السفير الأميركي، المستر جوزيف كنيدي، والد جون كنيدي، رئيس الولايات المتحدة الأسبق، ولذلك قابلنا السكرتير الأول، المستر رايموند هير، الذي صار فيما بعد سفيراً للولايات المتحدة في لبنان، وتعددت بيني وبينه المقابلات في لندن حتى صار ليس صديقي وحسب، بل صديق العرب، وسنتكلم عنه في حينه.

ما كدت أتم الشهر الرابع في لندن حتى جاءتني برقية تقول أن مرض زوجتي تفاقم وأنه يجب أن أرجع حالاً إلى بيروت. وساعد رايموند هير في إرسالي في اليوم التالي على طائرة عسكرية أميركية إلى القاهرة. وفي الصباح، استقليت الطائرة من القاهرة إلى حيفا، ثم بالسيارة إلى بيروت. ولقد وجدت، لجزعي الشديد، أن زوجتي قد قضت في الليلة الفائتة. تركتنا، وهي في التاسعة والثلاثين من عمرها، وخلفت ثلاثة أيتام: إبنتنا ليلى، وكانت في الرابعة عشرة من عمرها. وإبننا رجا في الحادية عشرة والنصف وفريداً وكان في الخامسة من عمره. أما أنا فما صحوت من صدمتي إلّا بعد زمن طويل.

رجعت إلى القدس محطم القلب مع أولادي الثلاثة. وأحسست أني لن أعود للسياسة أبداً. لكن الذي حطم قلبي أكثر، رؤيتي فلسطين تضيع إهمالاً وتتلقفها أيادي الصهيونيين. ست سنوات مضت وشعب فلسطين العربي، يرقب، دون أن تكون له المقدرة على رد تدفق المهاجرين اليهود الذين مزقوا وطننا ضد إرادته. كان غياب القيادة العربية في فلسطين في ذلك الوقت الدقيق ضاراً جداً بالقضية العربية. كان بوسع الزعماء العرب الذين كانوا في المنفى، أو بدون عمل سياسي، أن يفيدوا بلادهم كثيراً خلال الحرب. كان بوسعهم أن يساعدوا في تنفيذ كتاب ماكدونالد الأبيض، وقد كانت بريطانيا وقتئذ ترجوهم تنفيذه.

أول لجنة عربية وطنية بعد الحرب

على كل حال كانت كل الأحزاب، بل بالأحرى كل الناس، ترغب في العودة إلى النشاط السياسي. وفي الثاني والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٥ تأسست لجنة من

إثني عشر عضواً، يمثلون أكثر الأحزاب. وهذه أسماؤهم:

عبد الحميد شومان وفارس سرحان وأميل غوري وهنري كتن وكامل الدجاني وعزت طنوس ويوسف هيكل وأحمد الشقيري وكامل عبد الرحمن وسامي طه ومحمد عبد الباقي.

وتبرع عبد الحميد شومان، رئيس البنك العربي، من أجل بدء العمل بأربعة آلاف ليرة فلسطينية للجنة، وحولت أنا عيادتي، في طريق مأمن الله، إلى مكتب تلتئم فيه اللجنة.

قررنا أن تكون رئاسة اللجنة دورية وانتخبت أنا سكرتيراً خازناً؛ على أن يتم العمل المكتبي في عيادتي مؤقتاً.

وأول شيء فعلته اللجنة هو إرسال كتاب إلى المندوب السامي تنبؤه بتأليف لجنة عربية وطنية تحل محل اللجنة العربية العليا في كل وظائفها. وطلبت اللجنة مني ومن أحمد الشقيري أن نأخذ الكتاب شخصياً إلى دار الحكومة. وتم ذلك في السابع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٥. وفي الثامن من كانون الأول (ديسمبر)، تلقت اللجنة اعترافاً بها من مكتب المندوب السامي البريطاني.

وكانت أول وأهم مادة وضعتها اللجنة في برنامجها دراسة خطاب المستر أرنست بفين (Ernest Beven) وزير الخارجية، الذي ألقاه في الثالث عشر من تشرين الثاني(نوفمبر)في مجلس العموم. كان غامضاً جداً لانه كان «مقدمة» لإلغاء كتاب ماكدونالد الأبيض. كان شهر تشرين الثاني (نوفمبر) دائماً شهراً سيء الطالع على فلسطين. ففي الثاني منه سنة ١٩١٧ أعلن وعد بلفور، وفي التاسع والعشرين منه سنة ١٩٤٧، أوصت الجمعية العامة للأمم المتحدة بتقسيم فلسطين.

وفيما نحن ندرس بيان بفين، رجع جمال الحسيني من روديسيا التي نفي إليها طيلة فترة الحرب. فكان فرحنا عظيماً بعودته ورحبنا به وانتخبناه رئيساً للجنة.

الفصل الثالث والثلاثون

تصريح المستر بفين، وزير الخارجية البريطانية، في مجلس العموم ، يهمل كتاب ماكدونالد الأبيض
اللجنة الانكليزية ـ الأميركية تذهب الى القدس لتحقق في القضية الفلسطينية
العرب واليهود يرفضون توصيات اللجنة

أظهرت حكومة العمال، منذ أن تسلمت مقاليد الحكم، إهمالها التام لكتاب ماكدونالد الأبيض لسنة ١٩٣٩. ولم يكتف حزب العمال في تلك السنة بشجب الكتاب الأبيض فحسب، بل أخذ على عاتقه مسؤولية إلغائه عندما يصل الى السلطة. وحين أزف الوقت في الثالث والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٥، أعلن المستر بفين ، وزير الخارجية، في بيان له أمام مجلس العموم عن سياسة الحكومة الجديدة في فلسطين. كان البيان طويلاً ولكنه لم يتطرق الى ذكر كتاب ماكدونالد الأبيض حتى ولا بالاشارة مع أنه كان لا يزال معمولاً به رسمياً(٣٨).

تحدث المستر بفين في بيانه عن اضطهاد اليهود البشع وما تستطيعه فلسطين من مساهمة في التخفيف عنهم، ولو أنه بيّن بوضوح، أن فلسطين لا تستطيع وحدها حلّ المشكلة اليهودية. وتكلم عن واجب المنتدب في تسهيل الهجرة إلى فلسطين، وفي الوقت نفسه، عن واجبه في ضمان صيانة حقوق العرب ووضعهم فلا تضر بهما، وبمعنى أدق، عن مهمته المزدوجة. لكنه لم يقل شيئاً عن تناقض الواجبين، ولو أنه بينّ هذا التناقض جلياً فيما بعد، لما القى بيانه أمام المجلس في ٢٥ شباط (فبراير) سنة ١٩٤٧. وأخيراً خلص المستر بفين في بيانه الى القول: بما أن الطرفين يطالبان بفلسطين؛ وبما أنه لا يوجد تفاهم مشترك بين العرب واليهود؛ وبما أن كل الجهود التي بذلت للوصول الى هذا التفاهم فشلت وانجلت عن اضطرابات جدّية؛ وبما أن المشكلة الفلسطينية لها انعكاسات عالمية واسعة دفعت الولايات المتحدة ودولاً أوروبية عديدة لدعم اليهود، وحدبت بالعالم الإسلامي لشدّ أزر العرب؛ ونظراً لتعهدات الحكومة المنتدبة في بياناتها السياسية؛ ولأن الولايات المتحدة

أخذت على نفسها ألاّ تقرر أمراً قبل الدراسة الكاملة واستشارة العرب واليهود؛ وتبعاً لما توليه حكومة جلالته، من اعتبار للوضع الصعب الذي خلق اهتماماً عالمياً، فقد قررت دعوة حكومة الولايات المتحدة للتعاون معها في تكوين «لجنة تحقيق انكليزية ـ أميركية» مشتركة، تراجع المشكلة الفلسطينية على ضوء دراستها. وقد قبلت حكومة الولايات المتحدة دعوة حكومة جلالته، كما وافقت الحكومتان على صيغة مهمة هذه اللجنة المشتركة.



السير أرنست بفين، وزير الخارجية

لجنة التحقيق الانكليزية الأميركية

لم تكن صيغة مهمة اللجنة الانكليزية ـ الأميركية تختلف عن سالفاتها من اللجان الحكومية التي أرسلت الى فلسطين خلال العشرين سنة الماضية (كلجنة شو ولجنة بيل)، لولا معضلة وحيدة أضيفت إليها: هي معضلة اليهود المضطهدين في شرق أوروبا. هذه الاضافة، لم تعقد المسألة الفلسطينية على جديتها ودقتها، فحسب، بل جعلت كل إمكانية لحلها حلاً عادلاً بالنسبة، للعرب، مستحيلة.

إن بيان بفين الذي الغى عملياً كتاب ماكدونالد الأبيض لسنة ١٩٣٩، كان الطامة الكبرى التي أحاقت بعرب فلسطين، وأعادت قضيتهم الى وضع عام ١٩٣٦ المؤسف، والذي أدى الى إضراب أشهر ستة. وكان على العرب إذاً أن يخوضوا المعركة الدامية المرّة نفسها التي خاضوها في الماضي. وذلك يعني أن سبعة وعشرين عاماً، من العرق والدم والعذاب، ذهبت هباء، وأن عليهم أن يعاودوها مرة أخرى.

اللجنة الانكليزية ـ الأميركية تبدأ تحقيقها

تألفت اللجنة الانكليزية ـ الأميركية من اثني عشر عضواً، ستة من الانكليز، وستة من الاميركيين. وعقدت أول دورة لها في نيويورك في الثالث من كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٤٦؛ وفي الرابع والعشرين منه، عقدت دورة ثانية في واشنطن.

وصل أعضاء اللجنة في شهر شباط (فبراير) الى القدس وعقدوا اجتماعاتهم الأولى في جمعية الشبان المسيحية المشهورة. وقررت اللجنة العربية العليا أن تتقدم الى اللجنة بشهادتها، وقرأها أمامها جمال الحسيني. كما تقدّم بالشهادة أيضاً عدد من الفلسطينين، منهم، عوني

عبد الهادي. أما عن اليهود فقد تقدم أيضاً شهود عديدون، منهم الدكتور وايزمان ودافيد بن غوريون.



جمعية الشبان المسيحية

وبعد أن عقدت اللجنة اجتماعات أخرى في القاهرة، غادرت في التاسع والعشرين من آذار (مارس) سنة ١٩٤٦، الى لوزان في سويسرا كي تكتب تقريرها. وفي العشرين من نيسان (أبريل) سنة ١٩٤٦، نشر بيانها، ببلاغ رسمي تحت رقم ٦٨٠٨.

توصيات اللجنة الانكليزية ـ الأميركية

قدمت اللجنة الانكليزية ـ الأميركية، في تقريرها الذي رفعته في العشرين من نيسان (أبريل) ١٩٤٦ الى الحكومتين البريطانية والأميركية، عشر توصيات. قدرت أنها أفضل الوسائل لحل المشكلة الفلسطينية. ولقد علقت اللجنة على كل توصية على حدة وبينت الوقائع التي تدعمها. وها نحن نعطي هنا ملخصاً عن التوصيات، دون التعليق:

المشكلة الاوروبية

التوصية رقم ١: «إن العالم الخارجي لا يريد قبول اليهود المضطهدين، ولا يودّ أي بلد أن يأخذهم إليه. إن بلداً وحده يمكن أن يقبلهم هو فلسطين، وبما أنها لا تستطيع أن تستوعبهم جميعاً. نوصي الحكومتين، البريطانية والأميركية، بأن تعملا ما تستطيعان لدفع العالم الى القيام بمسؤولياته في ايوائهم.

هجرة اللاجئين اليهود إلى فلسطين

التوصية رقم ٢: نصح بأن يذهب الى فلسطين ١٠٠٠٠٠ من ضحايا النازية والفاشية. ويجب أن يؤخذوا من «المعتقلات». ونحن لا نعرف بلداً غير فلسطين يمكن أن يذهبوا اليه في المستقبل القريب».

(ملاحظة) ما اقسى هذا العالم! حتى الذين ادعوا انهم أكثر الناس عطفاً على اليهود. مثل الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، كانوا يرفضون عدداً صغير منهم.

مبادىء الحكومة: لا دولة عربية ولا دولة يهودية

«التوصية رقم ٣: «يجب الاّ يسيطر العرب على اليهود ولا ان يسيطر اليهود على العرب. ولذلك، لا تقوم دولة عربية أو دولة يهودية في فلسطين. ويجب أن تغدو فلسطين، في النهاية، دولة تحفظ مصالح المسلمين واليهود والمسيحيين. فلسطين بلد مقدس للاديان الثلاثة وق أُهمل المسيحيون حتى الآن في فلسطين»*.

الانتداب البريطاني ووصاية الأمم المتحدة

توصية رقم ٤: «نظراً للعداء بين العرب واليهود، يجب أن تبقى فلسطين تحت الانتداب البريطاني الى أن يخف هذا العداء وحينئذ يتم «اتفاق الوصاية» في الأمم المتحدة».

التساوي بين الشعبين

توصية رقم ٥: «توصي اللجنة بأن تتخذ الخطوات اللازمة لتقدم العرب في شتى الميادين حتى يساووا اليهود في المستوى لأن مصالحها مشتركة ومستقبلها مشترك.

سياسة الهجرة للمستقبل

توصية رقم ٦: «يجب تنظيم الهجرة حتى قيام «اتفاق الوصاية» كما نص عليه الانتداب على فلسطين: أي «في ما يضمن عدم الاضرار بحقوق الفئات الاخرى من السكان ووضعها، ويسهل الهجرة اليهودية في أحوال ملائمة».

سياسة الأرض

التوصية رقم ٧: «أبطلت اللجنة «تنظيم (قانون) انتقال الأرض» الذي نص عليه كتاب ماكدونالد الأبيض لسنة ١٩٣٩ ونصحت بإطلاق بيع الأرض لأي كان، دون النظر الى عنصره أو لونه أو معتقده**.

---

* اعتبرت اللجنة أن العرب هم فقط المسلمون وأن النزاع الفلسطيني هو نزاع إسلامي – يهودي. كانت على خطأ. أراد العرب في فلسطين من مسلمين ومسيحيين أن تكون فلسطين للفلسطينيين سواء كانوا مسلمين أم يهوداً أم مسيحيين. أما الصهيونيون والوكالة اليهودية فارادوا فلسطين ليهود العالم وحدهم. وما كان تجاهل المسيحيين إلاّ لانهم عرب وليس لانهم مسيحيون. لقد أهمل العرب جميعاً.

** أن التوصية ببيع الأراضي العربية، لمن شاء الشراء، بصرف النظر عن عرقه ودينه ولونه، كانت معقولة لو أن الانتداب على فلسطين، كان مثل غيره من الانتدابات، لا يتضمن وعد بلفور. غير أن وعد بلفور نصّ على أن بيع الأراضي العربية لليهود يجب أن يوقف، إذا أضر بحقوق العرب. كما أنه نص، على منع أي عمل يمكن أن يضر بحقوق سكان فلسطين من غير اليهود.

التنمية الاقتصادية

التوصية رقم ٨: «لا تنجح المشاريع الاقتصادية إلّا إذا ساد السلام في فلسطين. ومهما كان من أمر، فإن التعاون بين العرب واليهود ضروري، في كل المشاريع الاقتصادية».

التعليم مستقل

التوصية رقم ٩: «لمصلحة التفاهم بين العرب واليهود يجب اصلاح نظام التعليم للعرب واليهود لأجل أن تصل فئتا السكان الى مستوى متساوٍ، وتجب إقامة التعليم الالزامي، كما يجب أن تزداد التسهيلات التربوية للعرب وأن تفتح الجامعات».

الحاجة للسلام في فلسطين

التوصية رقم ١٠: «إذا وافقت حكومتانا على توصياتنا، وجب سحق كل عنف من قبل أي من الطرفين. ويجب أن تتعاون الوكالة اليهودية مع الحكومة المنتدبة حتى يقضى على الارهاب اليهودي، كما يجب، بالاضافة الى ذلك، أن تتوقف، الهجرة غير الشرعية لمصلحة الجميع».

ردود الفعل العربية واليهودية على تقرير اللجنة الإنكليزية ـ الأميركية

رفض كل من العرب واليهود توصيات اللجنة الإنكليزية ـ الأميركية. فقد كان مستحيلاً على العرب قبول سياسة تخضعهم للوصاية الى أن يصبح اليهود مساوين لهم؛ مما يقوي حجة اليهود في تقسيم فلسطين، هدف الصهيونية، كخطوة أولى، وهو شيء يرفضه العرب كلياً.

رفض اليهود بدورهم التوصيات، لأنها بعيدة عما يتوخّون من دولة يهودية، ولا يرضون بأقل من ذلك. وبرهاناً على هذا الرفض، ضاعفوا نشاطهم الإرهابي بدلاً من تقليصه. ففي الخامس والعشرين من نيسان (أبريل) أي بعد خمسة أيام من اعلان التقرير، قتلت عصابة شتيرن سبعة جنود بريطانيين في تل أبيب، وفي أول حزيران (يونيو)، أحرقوا ثلاث عربات قطار فيها. وفي السادس عشر من حزيران (يونيو)، نسفوا ثمانية جسور في فلسطين، وهدموا كل الجسور التي تصل فلسطين بسوريا، كما اختطفوا خمسة ضباط بريطانيين في تل أبيب وضابطاً واحداً في القدس، واحتفظوا بثلاثة منهم رهائن مقابل اطلاق سراح ارهابيين يهوديين حكما بالاعدام. واثر تهديدهم هذا، أجّل المندوب السامي التنفيذ. ثم انهم واصلوا تصعيد ارهابهم ففجروا سكرتارية الحكومة في فندق الملك داوود في القدس في الثاني والعشرين من تموز (يوليو) سنة ١٩٤٦، وهو التفجير الذي قامت به عصابة الارغون زفاي ليومي. وقتل فيه مائة وموظف حكومي من مختلف الديانات وبينهم يهود، دفنوا تحت الأنقاض. وتلك جريمة ليس أشد وحشية منها سوى مذبحة دير ياسين التي فاقت كل الجرائم وسوف نتحدث عنها في حينها.

أما البيت الأبيض، فقد رضي عن تقرير اللجنة الإنكليزية ــ الأميركية. ولقد أعلن الرئيس ترومان في الثلاثين من نيسان (أبريل) سنة ١٩٤٦، أنه سعيد بإجماع اللجنة على الموافقة على طلبه بإرسال مئة ألف مهاجر يهودي في الحال الى فلسطين.

مشروع موريسون (تموز ــ يوليو ــ ١٩٤٦)

أصيبت الحكومة البريطانية بخيبة أمل كبرى حين رفض العرب واليهود تقرير اللجنة الإنكليزية ــ الأميركية. كما خاب أمل الرئيس ترومان، الذي كان عازماً على فعل أي شيء يرضي الصهيونيين، من أجل ربح أصوات اليهود في انتخابات الرئاسة المقبلة. وعلى ذلك، أرسل في السادس والعشرين من تموز (يوليو) سنة ١٩٤٦، وفدا أميركياً الى لندن برئاسة السفير هنري غرايدي (Henry Grady) كي يناقش الحكومة البريطانية في المسألة الفلسطينية، ومعه مشروع يقسم فلسطين بين العرب واليهود، قدمه الى الحكومة البريطانية وهي بدورها احالته الى لجنة خبراء من بريطانيين وأميركيين كي تدرسه وتقدم تقريرها عنه الى الحكومة.

وفي الحادي والثلاثين من تموز (يوليو)، قدم المستر هربرت موريسون (الذي سمي المشروع باسمه)، الى مجلس العموم، بدلاً عن المستر بفين الذي تغيب عن الجلسة لمرضه، «تقرير لجنة الخبراء» لمناقشته.

وباختصار، اقترح المشروع تقسيم فلسطين إلى أربعة كانتونات: مقاطعة عربية، وأخرى يهودية، ومنطقة القدس ومنطقة النقب. تحظى المقاطعتان، العربية واليهودية، باستقلال ذاتي إداري واسع، فيما تحكم منطقتي القدس والنقب حكومة مركزية هي «السلطة العليا».

ولم يكن حظ «المشروع» بأفضل من حظ تقرير اللجنة الانكليزية ــ الأميركية، فقد رفضه العرب واليهود معاً.

الفصل الرابع والثلاثون

ملوك ورؤساء العرب يجتمعون في «أنشاص» القاهرة
ويقررون رفض توصيات اللجنة الانكليزية ـ الأميركية
إنشاء بيت المال العربي

طلبت الحكومة البريطانية، بعد حيرتها، أخذ رأي العرب واليهود بتقرير اللجنة الانكليزية ـ الأميركية؛ فأدى هذا الطلب إلى عقد «مؤتمر أنشاص» في القاهرة حيث اجتمع في الثلاثين من أيار (مايو) ١٩٤٦ الملوك والرؤساء العرب في أنشاص، مزرعة الملك فاروق الشهيرة، لمناقشة التقرير. وانجلى اجتماعهم عن رفض توصيات اللجنة وإذاعة البيان التالي:

١ ـ ليست القضية الفلسطينية، قضية العرب الفلسطينيين وحدهم، بل قضية العرب أجمعين.

٢ ـ إن رؤساء الدول العربية لا يقبلون بهجرة يهودية إلى فلسطين تزيد عما نص عليه كتاب ماكدونالد الأبيض لعام ١٩٣٩.

٣ ـ يأمل الرؤساء العرب ألا يحدث مايسيء إلى العلاقات الطيبة القائمة بين العرب و«الحكومات الديمقراطية» الصديقة.

اجتماع مجلس جامعة الدول العربية في بلودان

أرسل «بيان» رؤساء الدول العربية إلى مجلس الجامعة العربية ليتخذ الخطوات اللازمة لتنفيذه، فالتأم المجلس في بلودان في سوريا في الثامن من حزيران (يونيو) ١٩٤٦. وقد دعي زعماء الأحزاب الفلسطينية لحضوره، نظراً لأهميته. ومثل لجنتنا فيه، جمال الحسيني وأميل الغوري.

رفض هذا المؤتمر، بعد مناقشة طويلة، تقرير اللجنة الانكليزية ـ الأميركية، وهدد في الوقت نفسه، بتعليق «الامتيازات البترولية» التي أعطتها الحكومات العربية للولايات المتحدة وبريطانيا العظمى، كما هدد بمقاطعتها اقتصادياً، إذا ألحتا على تنفيذ التقرير.

الهيئة العربية العليا الجديدة

أوصى مجلس الجامعة العربية قبل انتهاء المؤتمر بإنشاء هيئة عربية عليا لفلسطين من كل الأحزاب على أن تظل رئاستها مفتوحة حتى عودة الحاج أمين الحسيني من أوروبا. ولم يعترض أحد، على هذا الاقتراح، حتى ولا جمال الحسيني الذي كان يرأس اللجنة العربية الوطنية التي قامت منذ ثمانية أشهر. وتشكلت الهيئة على النحو التالي:

الحاج أمين الحسيني رئيساً؛ وجمال الحسيني نائباً للرئيس؛ والدكتور حسين الخالدي سكرتيراً عاماً؛ أحمد حلمي عبدالباقي عضواً؛ أميل الغوري عضواً.

وخصص لها المجلس قبل انتهاء المؤتمر مبلغ عشرة آلاف ليرة استرلينية كدفعة أولى لتبدأ عملها.

غضب أعضاء لجنتنا، حين سمعوا الاذاعة السورية تذيع خبر إنشاء الهيئة العربية العليا الجديدة. لم نتألم، لأسباب شخصية، وإنما لأن الأمر تم من وراء ظهورنا. وحين رجع موفدانا من بلودان، عقدت لجنتنا اجتماعاً، ووجهنا فيه اللوم الشديد للرئيس جمال الحسيني لأنه لم يستشرنا قبل الموافقة على الهيئة الجديدة. لقد أحسّ الأعضاء، وكلهم من الشخصيات المرموقة، بالاهانة، حين علموا من الاذاعة السورية، وليس من وفدهم بإقالتهم. ولكنهم من أجل فلسطين، تبنوا قراراً بحل اللجنة العربية الوطنية، متمنين الخير كله للهيئة العربية العليا الجديدة.

استأجرت الهيئة العربية العليا مكاتب لها في البقعة التحتا من القدس، وقام جمال بمهام الرئاسة حتى وصولِ الحاج أمين الحسيني.

الحاج أمين الحسيني يصل إلى القاهرة

استطاع الحاج أمين الحسيني ترك ألمانيا بأعجوبة والوصول إلى القاهرة حيث استقبلته الحكومة المصرية بالترحاب. ورحب به أيضاً الشعب العربي الفلسطيني، إذ سافر عدد كبيّر منه إلى القاهرة لتهنئته. وحين زار، بعد شهر، لبنان، اندفع آلاف الفلسطينيين إلى عاليه للسلام عليه في فندق طانيوس. لقد أنعشت عودته، ولا شك، الشعور الوطني.

جعل الحاج أمين القاهرة مركزاً لقيادة الهيئة العربية العليا. فقد رفضت الحكومة البريطانية الاذن له بدخولِ بلاده بالرغم من وساطة الحكومات العربية. واستمر مكتب القدس في عمله كالمعتاد.

وأول ما قام به الحاج أمين هو توسيع الهيئة بأن ضمّ إليها كل من: معين الماضي، رفيق التميمي، عزّت دروزة، اسحق درويش، والشيخ حسن أبو السعود.

وظل جمال الحسيني في كرسي نيابة الرئاسة، كما احتفظ الدكتور حسين الخالدي بمنصب السكرتير العام.

المعركة الوطنية الكبرى

كان استئناف معركة فلسطين يتطلب جهداً خارقاً وتضحيات من الأمة كلها، نظراً لأن ظروف العرب العسكرية والسياسية والدولية كانت أسوأ بكثير مما كانت عليه سنة ١٩٣٩، كما كان بحاجة ماسّة جداً أيضاً لميزانية ضخمة. والغريب المؤسف، أن برنامج اللجنة العربية العليا في الأيام السابقة للحرب، لم يتضمن أبداً هذه المادة (مادة الميزانية)، وأن الاعتماد الآن على دعم جامعة الدول العربية المالي وحده، غير معقول، وعلى هذا، اتخذت الهيئة العربية العليا قراراً بتأسيس «بيت المال العربي»، (اسم جميل، كان يعني في الماضي خزينة الدولة)، لأول مرة في تاريخ المقاومة العربية في فلسطين (إلا إذا استثنينا قرار اللجنة العربية الوطنية التي لم تعش إلا ثمانية أشهر). كان غياب مثل هذا الصندوق الوطني في الماضي يعيق حركة المقاومة الوطنية فتعثرت نشاطاتنا الوطنية سنين عديدة. كانت اللجنة العربية العليا، بقيادة موسى كاظم الحسيني (١٩٢٢ ــ ١٩٣٤) في فقر لا تستطيع معه استئجار مكتب أو استخدام موظفين. وما كان جمال الحسيني، الذي عمل سنوات عديدة سكرتيراً عاماً للجنة التنفيذية، يتناول راتباً، وما كان يتقاضى أي عضو من أعضاء اللجنة التنفيذية، بمن فيهم الرئيس، موسى كاظم، أي أجر. كانت تنعقد اجتماعات اللجنة غالباً في المجلس الاسلامي الأعلى، وحين يقتضي أمر إرسال وفد إلى انكلترا أو الخارج، كانت تجبى المصاريف من مختلف المدن الفلسطينية وقد كانت أكثرية نفقات المركز العربي في لندن خلال سنوات (١٩٣٧ ــ ١٩٤٠) تُغطى بجهدي الشخصي، تدعمه جهود الحاج أمين الشخصية أيضاً.

ولقد نجح بيت المال العربي نجاحاً مالياً عظيماً ولعب دوراً هاماً في الدفاع عن فلسطين وبخاصة عن القدس في حرب سنة ١٩٤٨ مما أبقى الجزء الثمين التاريخي من القدس في الأيدي العربية، فسمي الآن «القدس العربية». وعلى هذا، أرى من واجبي أن أقدّم صورة واضحة عن هذه المؤسسة الوطنية التي صنعت الكثير لفلسطين في فترة جدّ وجيزة.

لبيت المال العربي ستة مكاتب

طلبت مني الهيئة العربية العليا في آب (اغسطس) ١٩٤٦ أن أقبل بمنصب «الأمين العام لبيت المال العربي» الفخري. وافقت على العرض الكريم، بتردد، لأني شعرت بالمسؤولية وبعدم استطاعتي القيام بتلك المهمة الضخمة. والحق أن إنشاء منظمة عملها جمع المساهمات من أكثر من مليون عربي لتحقيق أهداف وطنية كثيرة الأبعاد، كان يتطلب تجربة لم نتعودها في فلسطين؛ ولم تكن لدينا أية مؤسسة نتخذها نموذجاً لمشروعنا. فكان

علينا إذاً أن نبتدع خطتنا.

كان هدفي الأول إيجاد جهاز مستقيم، كفؤ. فاخترت يوسف صايغ، خريج الجامعة الأميركية في بيروت، والأستاذ فيها حالياً، كي يكون مديراً عاماً لبيت المال. والثاني جورج فؤاد جورج (خريج الجامعة الأميركية أيضاً) كي يكون محاسب بيت المال العام. وعينت مساعداً موثوقاً به للمدير العام هو نايف شبلاق.

السجلّ

أول عمل قمنا به هو إعداد سجلّ لكل عربي فلسطيني، مستهدفين دفعهم جميعاً للمساهمة بشيء ما، أفلسطين، مهما يكن قليلاً. كانت مهمة صعبة غير أننا نفذناها. خلال ستة أشهر فقط، وجاءت على ما نتوخى فكان سجلنا يضاهي سجلات الحكومة.

مجلس المديرين

وبينما كان السجل قيد الاعداد، عمدت مع الهيئة العربية العليا إلى اختيار رجال ثقة من ذوي الصيت الحسن كي يمثلوا «مجلس المديرين» لبيت المال العربي. فانتقينا ستة وثلاثين رجلاً من ذوي السمعة الطيبة والوضع المالي الجيد من كل أنحاء فلسطين، لهذا المجلس. وانتخبنا اثني عشر منهم كي يكونوا مجلس المديرين التنفيذي. وهم: جمال الحسيني، أسعد حلبي، كامل عبدالرحمن، الحاج طاهر قرمان، الحاج مصطفى ستيتية، عزت طنوس، عبدالحميد شومان، كامل القاضي، أنيس نصر، محمد عبدالباقي، كامل الدجاني، والشيخ شاكر أبو كشك. ثم انتخب مجلس المديرين لجنة مالية مؤلفة من: جمال الحسيني، عبدالحميد شومان وأنا بصفتي أميناً عاماً. وقد دفع السيد عبدالحميد شومان مبلغ ٤٠٠٠ ل. ف. تبرعاً لتشجيع المشروع.


عبدالحميد شومان

ومع أن بيت المال العربي، كان جهازاً مستقلاً يديره مجلس المديرين، غير أن الصندوق في الواقع، كان خزينة الهيئة العربية العليا، وكان مجلس المديرين أداتها الاستشارية المالية. وعلى ذلك، فهو الذي كان يهتم بميزانيتها وتفاصيلها.

نظام بيت المال العربي الداخلي

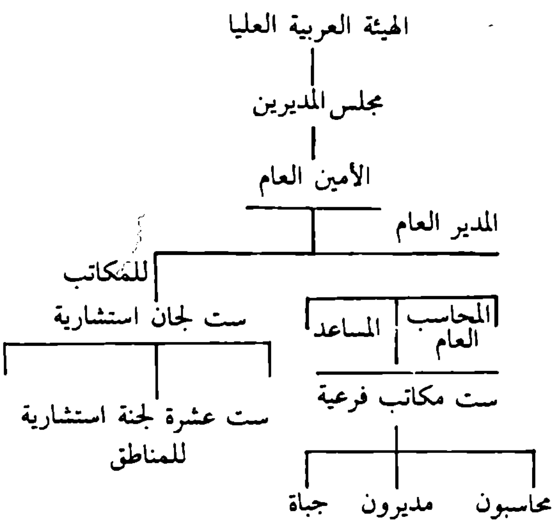
اجتمعت لجنة فرعية منبثقة عن مجلس المديرين فوضعت مسودة نظام لبيت المال من ٣١ مادة. وبعد أن صادق عليها المجلس، عقدت المنظمتان اجتماعات

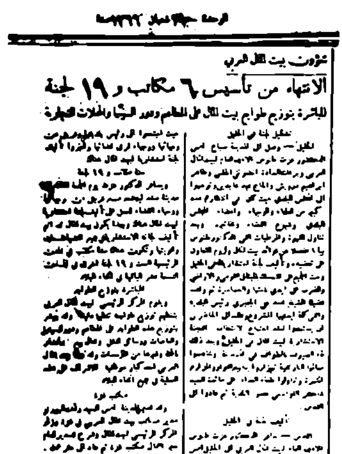
تـواصلت أياماً ثلاثـة في مكاتب الهيئة العربية العليا في القاهرة (٢٧ آذار ــ مارس ١٩٤٧) ووافقت عليه موافقة نهائية.

افتتح مكتب بيت المال العربي الرئيسي في القدس في «البقعة الفوقا» يوم أول نيسان (أبريل) ١٩٤٧. كما افتتحت في اليوم نفسه خمسة مكاتب أخرى في مدن فلسطين الهامة: يافا، حيفا، نابلس، الناصرة وغزة. وكان لكل مكتب مدير ومحاسب وجاب أو أكثر تبعاً لحجم المدينة. تضاف إلى ذلك لجنة استشارية قوامها أعضاء منتخبون من مختلف مهن المدينة ونقاباتها وتجارها، الخ... وعلى ذلك، تـألفت اللجان الاستشـارية من: طبيب ومهندس وتاجر وصيدلي، ومزارع، ونجار وسواهم. وتتألف تلك اللجان من ١٢ إلى ٢٤ عضواً حسب كبر المدينة. وهي مسؤولة عن المكاتب وتحديد المساهمات. وكان مدير المكتب سكرتيراً للجنة، أما رئيسها فينتخب انتخاباً.

تأسست أيضاً ست عشرة لجنة في المناطق التالية: الخليل، أريحا، رام الله، بيت لحم، اللد، الرملة، بير السبع، خان يونس، الفالوجة، المجدل، جنين، طول كرم، عكا، طبرية، صفد، بيسان. ولقد انتخبت انتخاباً كما جرى في الـ .. الأولى. وكانت أيضاً مسؤولة عن المساهمة في المنطقة ولدى كل منها محاسب وجاب ووسيلة نقل.

كانت هذه الاثنتان والعشرون لجنة، ثمرة الاجتماعات العديدة التي عقدتها ومساعديّ في كل تلك البلدان. وسهل عملنا روح شعب عرب فلسطين الوطنية العظيمة المستعدة دائماً للتضحية بكل شيء في سبيل إنقاذ وطنه من الهجمة الصهيونية. ولقد كان تجاوب الشعب مع نداء بيت المال العربي تعبيراً عن تلك الروح.




شؤون بيت المال العربي
الانتهاء من تأسيس ٦ مكاتب و ١٩ لجنة

مقال عن بيت المال العربي

ميزانية بيت المال العربي الأولى منذ أول نيسان (أبريل) ١٩٤٧ وحتى ٣١ آذار (مارس) ١٩٤٨:

أعدّ ميزانية بيت المال العربي، الهيئة العربية العليا ومجلس مديري بيت المال.

الواردات

المساهمات المباشرة	ل. ف*
١ ـ التبرع الشعبي	
(بنسبة ١٠٠ مليم لكل عربي فلسطيني)	٩٠,٠٠٠
٢ ـ تبرع المهن الحرة	
(١٠ ل. ف. على الأقل، تبعاً لتقدير اللجنة الاستشارية)	٧,٠٠٠
التجار والشركات والمعامل، الخ.	
(تبعاً لتقدير اللجنة الاستشارية)	
مساهمات الحرفيين (بنسبة ١,٥ ل. ف. لكل فرد	
(تبعاً لتقدير اللجنة الاستشارية)	٧٠,٠٠٠
الموظفون ١,٢٥ ل. ف. لكل منهم	
(تبعاً لتقدير اللجنة الاستشارية)	١٣,٠٠٠
مجموع المساهمات المباشرة	١٨٠,٠٠٠
المساهمات غير المباشرة	ل. ف.
منقول	١٨٠,٠٠٠
نقل	٢٥,٠٠٠
سينمات، الخ.	٤,٠٠٠
معامل السجائر	٥,٠٠٠
الصحافة والمطبوعات	٦,٠٠٠
مجموع المساهمات غير المباشرة	٤٠,٠٠٠
مجموع الواردات	٢٢٠,٠٠٠

طابع بيت المال العربي



ونشير إلى أننا استخدمنا طابع بيت المال العربي في كل المساهمات غير المباشرة. فقد كان يجبى عن كل بطاقات دور السينما، والنقل، والمطاعم الخ...

* كانت الليرة الفلسطينية مساوية لليرة الاسترلينية.

المساهمات الاضافية

أعطت الهيئة العربية العليا ومجلس المديرين، الأمين العام، الصلاحية بدعوة التجار «من فصيلة معينة» والشركات، والمؤسسات الصناعية، الخ... للمساهمة بألف ليرة فلسطينية أو أكثر حين تقتضي الأزمات الوطنية وفي الطوارىء. ولقد جاء هذا الطارىء حين قررت الحكومة البريطانية، الانسحاب من فلسطين فجأة ووضع أمرها بين يدي الأمم المتحدة في الخامس عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨؛ وتركت الباب مفتوحاً للعرب واليهود كي يقطع كل منهما عنق الآخر.

المدفوعات	ل. ف.
بيع الأراضي (لمساعدة الفلاح)	١١٠,٠٠٠
للتنظيم الوطني والرياضي	٢٥,٠٠٠
للتنظيم الاقتصادي	١٥,٠٠٠
للمسجونين والمعتقلين	١٠,٠٠٠
الإعلام والدعاية	٩,٠٠٠
نفقات الهيئة العربية العليا	١٥,٠٠٠
نفقات بيت المال	٢٢,٠٠٠
متفرقات	١٤,٠٠٠
مجموع المدفوعات	٢٢٠,٠٠٠

عندما نقارن الميزانية الوطنية مع مستوى الحياة الحالي نجدها ضئيلة. أما في تلك الأيام فقد كانت القوة الشرائية لـ ٢٢٠,٠٠٠ تزيد عن مليوني ليرة فلسطينية؛ يدفعها شعب فلسطين العربي عن طيب خاطر، في أشهر قليلة.

استمر بيت المال العربي في عمله بكل هدوء، ودون توقف حتى التاسع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٧، أي اليوم الذي تبنت فيه الأمم المتحدة قرار تقسيم فلسطين الظالم المنحاز، إلى دولتين عربية ويهودية. لقد أذهل هذا القرار الغريب، الأول والأخير من نوعه، عرب فلسطين وأغضب العالمين، العربي والاسلامي، فأقسم العرب على ألا يعترفوا أبداً بالدولة اليهودية. ومنذ ذلك اليوم، كرّس دخل بيت المال لـ«الجهاد المقدس» أو للمقاتلين الأحرار الذين ساعدوا في إنقاذ جزء من فلسطين من الاحتلال اليهودي وخاصة «القدس العربية» التي تحوي المدينة القديمة، يحيط بها سورها الجميل وفي داخله، معابد الاسلام والمسيحية المقدسة. وسنأتي فيما بعد على قصة إنقاذ المدينة المقدسة من هجمات الارهابيين اليهود.

الفصل الخامس والثلاثون

المفاوضات البريطانية العربية الفلسطينية
اقتراحات بريطانية وعربية لتشكيل الحكومة الفلسطينية
تموز (يوليو) ١٩٤٦ ـ شباط (فبراير) ١٩٤٧

انقضت سنة كاملة، واللجنة الانكليزية ـ الاميركية منهمكة بالمسألة الفلسطينية دون أن تفعل شيئاً لحلها. ولقد توخى حزب العمال البريطاني الممالىء للصهيونية، متعاوناً مع الولايات المتحدة الممالئة أيضاً للصهيونية، من تشكيل هذه اللجنة تحقيق الأهداف التالية:

١ ـ الاستفادة من الوقت.

٢ ـ إلغاء كتاب ماكدونالد الأبيض لسنة ١٩٣٩، الذي كان لا يزال معمولاً به رسمياً.

٣ ـ إدخال حكومة الولايات المتحدة كطرف في حلّ المشكلة الفلسطينية وهو أمر في غاية الأهمية عند الحكومة البريطانية.

لكنّ هذه المحاولات فشلت جميعاً، فلم يبق أمام الحكومة البريطانية من اختيار غير العودة إلى التفاوض مع العرب.

المؤتمر البريطاني العربي الفلسطيني الأول

التأم المؤتمر البريطـاني العربي الفلسطيني الأول في التاسع من أيلول (سبتمبر) ١٩٤٦ في لندن. فافتتحه رئيس الوزراء البريطاني المستر اتلي. حضرت المؤتمر وفود تمثل كل الدول العربية؛ ومع أن الهيئة العربية العليا قاطعت المؤتمر، كان وفدها موجوداً في لندن.

الإقتراحات العربية

في الثلاثين من أيلول (سبتمبر) ١٩٤٦، تقدمت الوفود العربية إلى المؤتمر «باقتراحات دستورية لحكومة فلسطين المقبلة»؛ ولقد كانت، في أكثريتها، مطابقة لما جاء في كتاب ماكدونالد الأبيض لسنة ١٩٣٩ (بلاغ رسمي رقم ٦٠١٩). ومنها أن تتألف حكومة مؤقتة في فلسطين قوامها سبعة من العرب وثلاثة من اليهود، على أن تتمتع بسلطات تشريعية وتنفيذية. ثم يصار إلى إعداد «سجل» من أجل انتخاب «مجلس تشريعي من ٦٠ عضواً» مباشرة بعد التصديق على قانون الانتخاب. أما عن الهجرة اليهودية وتنظيم بيع

الأراضي فيطبق ما نصّ عليه كتاب ماكدونالد الأبيض.

رفضت الحكومة البريطانية المقترحات العربية.



الوفد العربي الفلسطيني إلى لندن، مع سفير سوريا في لندن (في الوسط)

المقترحات البريطانية

قدم الوفد البريطاني إلى المؤتمر في السابع من كانون الثاني (يناير) ١٩٤٧ اقتراحاته (بلاغ رسمي رقم ٧٠٤٤) وفي الوقت نفسه تقدم بالمقترحات ذاتها إلى الوكالة اليهودية أيضاً، وهي تتلخص بأنها «اتفاق وصاية»، تخضع بموجبه فلسطين، خمس سنوات للحكم البريطاني، تحت إشراف الأمم المتحدة ووصاية مجلس الوصاية؛ وبعد ذلك تقوم دولة فلسطينية مستقلة، إذا استمر كل شيء على ما يرام.

رفض الوفد العربي المقترحات البريطانية. واستؤنفت المفاوضات في السابع والعشرين من كانون الثاني (يناير)؛ فلم يحدث أي تغيير في موقف كلا الطرفين. تشبثت الوفود العربية بما قدمته من مقترحات في الثلاثين من أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٤٦ وكذلك فعل الانكليز بالنسبة لما قدموه من مقترحات في السابع من كانون الثاني (يناير) ١٩٤٧. وشارفت المفاوضات على الإخفاق، وعلى ذلك، أنذر المستر بفين، وزير الخارجية، في الثاني عشر من شباط (فبراير) ١٩٤٧ المؤتمر بأن الحكومة البريطانية، إذا لم يقبل العرب واليهود بمقترحاتها أو يتفقان على حل، لا تجد أمامها من اختيار إلا رفع المسألة الفلسطينية إلى الأمم المتحدة.

كانت مدة الإنذار جد قصيرة لأن المستر بفين أنهى المناقشات والمؤتمر في ١٤ شباط (فبراير) وأعلن أن الحكومة البريطانية قررت رفع القضية الفلسطينية إلى الأمم المتحدة. وهكذا انتهت المفاوضات الانكليزية العربية وفضّ المؤتمر.

ثم أعلن المستر بفين في الثامن عشر من شباط (فبراير) أمام مجلس العموم، أن الحكومة البريطانية قررت نقل القضية الفلسطينية إلى الأمم المتحدة. كما أنبأ المجلس بأنه سوف يصدر «كتاباً أبيض» يتضمن المفاوضات التي جرت بين الحكومة البريطانية من جهة، والوفدين العربي واليهودي كلٍ على حدة من الجهة الأخرى.

وحين استعرض المفاوضات التي أدارها المستر بفين مع الوفد العربي لحل المشكلة الفلسطينية، لا أستطيع إلا القول عنه أنه كان بين أعضاء حزب العمال المعادين لقضيتنا اقلّهم عداءً، ولا شك أنه كان صادقاً حين أقرّ بخطأ وعد بلفور، وهأنذا أعيد ما قال:

«لا ننكر أن صك الانتداب [الذي تضمن وعد بلفور] حوى وعوداً متناقضة. فلقد وعد اليهود، في المقام الأول، بوطن قومي، وأعلن في المقام الثاني أنه يجب أن تصان حقوق العرب ووضعهم، وبذلك سمح بغزو البلاد بآلاف المهاجرين اليهود. ثم قال في الوقت نفسه، إن هذا الغزو يجب ألاّ يزعج شعبها المالك لها».


المستر بفين

قال المستر بفين هذا في البيان الذي ألقاه في الخامس والعشرين من شباط (فبراير) سنة ١٩٤٧ أمام مجلس العموم، حين حاول أن يثبت أن الانتداب على فلسطين، لم يكن متناقضاً فحسب، وإنما لا يمكن تطبيقه. وهذا ليس كل شيء. فقد تجرأ في المناقشة نفسها وانتقد الرئيس ترومان لأنه ــ كما قال: «بطلبه إدخال مئة ألف مهاجر يهودي إلى فلسطين، في وقت كانت المفاوضات بيننا وبين العرب جارية بنجاح للوصول إلى اتفاق، أفسد علينا المفاوضات وهدم كل أمل في حل القضية بواسطة المفاوضات».

أزعج هذا الخطاب البيت الأبيض، فأذاع في اليوم التالي (٢٦ شباط ــ فبراير) بياناً طويلاً من خمس نقاط ينكر فيه أن البيان الأميركي أثر تأثيرا سيئا على المفاوضات. والحق أن إنكار الرئيس ترومان، لم ينفِ الحقيقة وهي أنّ دعم الولايات المتحدة الهائل للصهيونية منذ بداية العشرينات، كان ولا يزال حتى يومنا هذا حجر عثرة في طريق

حل عادل للقضية الفلسطينية.

تقييم ثلاثين سنة من الانتداب البريطاني على فلسطين

جاء الوقت الذي نتوقف فيه من أجل تقييم ثلاثين عاماً من التورط البريطاني في القضية الفلسطينية.

أعطت بريطانيا العظمى، بسبب متطلبات الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٧، وعد بلفور الذي حوى، كما رأينا، تعهداً ذا شقين: ١ ــ إنشاء وطن قومي ليهود العالم في فلسطين. ٢ ــ على ألاّ يضر ذلك بحقوق السكان المحليين المدنية والدينية.

ولقد أخذت بريطانيا العظمى على عاتقها، في هذا التعهد، مهمة مستحيلة، لأنه لا يمكن إنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين دون الإضرار بحقوق سكانها العرب.

وما كان لبريطانيا العظمى، في المقام الثاني، الحق في إعطاء وعد لليهود بوطن لهم في فلسطين، ما دامت فلسطين أرضاً غير بريطانية. وما عملت ذلك إلا لأنها كانت بحاجة للعون اليهودي خلال الحرب. ولأنها كانت دولة استعمارية قوية، أعطت نفسها الحق في إعطاء الحقوق في أرض شعب آخر إلى آخرين. وكان هذا بالطبع غير شرعي وغير أخلاقي.

لقد وصفت، في فصول سابقة، لا شرعية وعد بلفور وتناقضه. وبيّنت عدم إمكانية تطبيقه وظلمه. كما بينت أيضاً أن إدخال وعد بلفور في صك الانتداب كان خرقاً للمادتين ٢٠ و٢٢ من ميثاق عصبة الأمم، كما خَرَق مجلس عصبة الأمم نفسه، بعمله هذا، ميثاقه. وسجلت أيضاً إدانة «لجنة موم» الرسمية لوعد بلفور وكيف ندد به المستر بفين، وزير الخارجية البريطانية. والنتيجة أن وعد بلفور غير الشرعي أبطل شرعية الانتداب البريطاني على فلسطين، كما أبطل شرعية الإدارة البريطانية المنتدبة على فلسطين، وهي التي مكنت الغزو غير الشرعي لمئات الألوف من المهاجرين اليهود، الذين استهدفوا احتلال فلسطين وطرد سكانها، والامتداد إلى الأراضي العربية المجاورة حتى تصبح حدود أرض إسرائيل ممتدة من الفرات إلى النيل (انظر خارطة الفصل السابع).

استمرت بريطانيا العظمى عشرين سنة في تطبيق سياستها الخاطئة اللاشرعية في فلسطين والتي يجب ألاّ تؤذي حقوق العرب حسب صك الانتداب ووعد بلفور، دون أن تبالي بالعدل أو بحق السكان العرب أو حتى بصراخهم واحتجاجاتهم التي لم تنقطع.

وظلت كذلك إلى أن واجهتها ثورة عربية عارمة (١٩٣٧ ــ ١٩٣٩)، وحاق بها شبح الحرب العالمية الثانية. وبعد عشرين سنة من التجاهل والظلم رجعت حكومتها المحافظة، برئاسة نيفيل تشيمبرلين إلى العقل فنشرت كتاب ماكدونالد الأبيض لسنة ١٩٣٩، معلنة

بنشرهاله، إنهاء سياستها التي كانت قائمة على وعد بلفور، وانتهجت سياسة جديدة، أقرب إلى مبدأ تقرير المصير وإقامة حكومة ديموقراطية مستقلة حسب ميثاق عصبة الأمم. غير أن الحرب العالمية الثانية عطّلت الكتاب الأبيض؛ كما أن نجاح حزب العمال في انتخابات سنة ١٩٤٥ البرلمانية، جاء به إلى السلطة، وهو الذي رفض الكتاب الأبيض وتعهد بإلغائه إذا ما وصل إلى الحكم. فكان منه أن أوقف كتاب حزب المحافظين الأبيض، ولم يشأ أن يقمع الارهاب الصهيوني، كما ذكر رئيس أركان القوات الامبراطورية، المارشال مونتغومري، في مذكراته، بل عمد بدلاً عن ذلك، وبلا خجل، إلى رفع القضية الفلسطينية إلى الأمم المتحدة. لقد تنصّلت الحكومة البريطانية من مسؤوليتها تجاه المشكلة الفلسطينية التي خلقتها، وارتكبت جريمة بشعة وهي تشاهد شعب فلسطين يطرد من أرضه، بمساعدة القوات البريطانية المؤلفة من ١٠٠٠٠٠ جندي، دون أن تحرك ساكناً لنصرة ذلك الشعب. فكانت كمن يشاهد أوبرا كارمن! أو مباراة في كرة القدم، بل أحقر إحساساً.

الفصل السادس والثلاثون

القضية الفلسطينية في الأمم المتحدة لمعالجتها
دورة خاصة للجمعية العمومية للبحث في القضية
«اللجنة الأولى» في الأمم المتحدة تتولى بحث قضية فلسطين
تأليف «لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين»
أكثرية أعضاء اللجنة الخاصة يقررون تقسيم فلسطين بين العرب واليهود
أقلية أعضاء اللجنة الخاصة يقررون دولتين اتحاديتين

في السادس والعشرين من شباط (فبراير) سنة ١٩٤٧، أعلم السير الكسندر كادوجان، مندوب المملكة المتحدة الدائم في الأمم المتحدة، أمينها العام، المستر ترغفي لي (Trigvie Lie)، أن بريطانيا العظمى تقترح تحويل القضية الفلسطينية إلى الأمم المتحدة. وفي الثاني من آذار (مارس) طالبت بعثة المملكة المتحدة لدى الأمم المتحدة، رسمياً بعقد جلسة استثنائية للجمعية العمومية تناقش فيها المسألة الفلسطينية، كما طالبت بأن ترسل الأمم المتحدة لجنة خاصة من قبلها للتحقيق في القضية. وأعلنت البعثة، أن حكومة جلالته، حين فشلت في إيجاد حلّ مقبول من العرب واليهود، لم تجد من خيار غير إحالة القضية الفلسطينية إلى الأمم المتحدة.

وفي الرابع والعشرين من آذار (مارس)، أحاط أمين عام الأمم المتحدة، كل الدول الأعضاء علماً بأن جلسة الجمعية العمومية الأولى للدورة الاستثنائية، سوف تنعقد في الثامن والعشرين من نيسان (أبريل) سنة ١٩٤٧، كي تناقش القضية الفلسطينية.

القضية الفلسطينية في الأمم المتحدة

دورة الجمعية العمومية الاستثنائية الأولى
٢٨ نيسان (أبريل) ١٩٤٧

انعقدت الجلسة الأولى للجمعية العمومية في الثامن والعشرين من نيسان (أبريل) سنة ١٩٤٧ في فلوشينغ ميدوز (Flushing Meadows) في نيويورك. ونوقشت المسألة الفلسطينية في «اللجنة الأولى».

وبما أن فلسطين كانت بلداً منتدباً عليه غير ممثل في الأمم المتحدة، قررت اللجنة



الأمم المتحدة

الأولى أن تستمع إلى الهيئة العربية العليا التي تمثل عرب فلسطين، وإلى الوكالة اليهودية، التي تمثل يهود فلسطين. وصادقت الجمعية العمومية على القرار.

قرار ١٠٥ (س ــ ١، S-1) ٧ أيار (مايو) سنة ١٩٤٧.

تصادق الجمعية على:

قــرار اللجنــة الأولى بمنح الاستماع للهيئة العربية العليا، هو تفسير صحيح لإرادة الجمعية العمومية.

ثم تبنت الجمعية العمومية قراراً مماثلاً بالنسبة للوكالة اليهودية.

مناقشة القضية الفلسطينية في الأمم المتحدة

لا يجيز ميثاق الأمم المتحدة الكلام أمام لجانها أو أمام الجمعية العمومية إلاَّ للأعضاء فيها. وبما أن الهيئة العربية العليا والوكالة اليهودية لم تكونا عضوين في الأمم المتحدة، فقد سمح لهما بالكلام أمام «اللجنة الأولى» كحالة خاصة، واتخذت الجمعية العمومية قراراً خاصاً بذلك. ولقد تبنت هذا الإجراء غير القانوني لأن مناقشة مسألة فلسطين لم تكن قضية بين دولتين عضوين في الأمم المتحدة. وتصرَّفت الأمم المتحدة في القضية الفلسطينية وكأنها محكمة

تحكم بين شعبين غير عضوين فيها. لكن الأمم المتحدة ليست محكمة، وتستند قراراتها وتوصياتها إلى مبادىء ميثاقها لا إلى وجهة النظر القانونية. وكان يجب أن تعرض القضية الفلسطينية على «محكمة العدل الدولية» في لاهاي، وهي أداة الأمم المتحدة القانونية، كي تعطي حكمها، الشيء الذي طالبت به الوفود العربية؛ غير أن الولايات المتحدة المنحازة، وبعض الدول الأوروبية والأميركية الجنوبية عارضته لأن حكومة الولايات المتحدة تريد تقسيم فلسطين،وهي تعلم أنها لا تستطيع الوصول إليه عن طريق محكمة العدل في لاهاي.

مناقشة قضية فلسطين تبدأ في ٨ أيار (مايو) ١٩٤٧

بدأت مناقشة القضية الفلسطينية أمام «اللجنة الأولى» يوم الثامن من أيار (مايو) ١٩٤٧، ولغياب دافيد بن غوريون، رئيس الوكالة اليهودية، تكلم الحاخام هيليل سيلفر، وهو يهودي أميركي، أمام اللجنة باسم الوكالة اليهودية.

انتقد الحاخام سيلفر بريطانيا العظمى، الدولة المنتدبة، في عدة نقاط منها أنها لم تساعد اليهود في بناء وطن قومي لهم في فلسطين؛ وإنها رفضت قبول اليهود اللاجئين من أوروبا الوسطى وأنها لم تسهل توطين اليهود. وطالب، بعد خطاب طويل، بإقامة دولة يهودية في فلسطين تصير فيمابعد،عضواً في الأمم المتحدة.

وفي التاسع من أيار (مايو)، تكلم هنري كتن، بالنيابة عن الهيئة العربية العليا، أمام اللجنة الأولى، فبدأ خطابه الطويل المدروس بإعطاء لمحة عن تاريخ فلسطين. فوصف وضع البلد قبل الحرب العالمية الأولى عندما كان، جزءاً من الإمبراطورية العثمانية. وكانت نسبة اليهود فيه ستة بالمئة من السكان، فقال: «لم تكن لليهود آنئذٍ أهداف سياسية وعاشوا مع العرب المسلمين والمسيحيين في انسجام تام».

وتحدث هنري كتن عن ثورة ١٩١٦ العربية، بقيادة الشريف حسين وعن وعود بريطانيا العظمى للعرب باستقلال الأراضي العربية حالما تنتهي الحرب. وقال السيد كتن: «لم يكن العرب بحاجة للضمانات من أجل استقلالهم؛ لأن حقوقهم الطبيعية في بلادهم لامرية فيها». ثم تعرض إلى لا شرعية وعد بلفور والانتداب. فقال: «كيف يمكن لصلة اليهود بفلسطين منذ ألفي عام أن تعطيهم الحق بالعودة إليها؟ وماذا يحدث لسكان العالم لو أن كل الأمم طبقت هذه النظرية؟» وانتهى إلى القول بأن عرب فلسطين لا شك وصلوا إلى درجة من النمو تمكنهم من «الوقوف وحدهم» وإقامة حكومتهم المستقلة(*).

* كان وفد الهيئة العربية العليا مؤلفاً من رجائي الحسيني رئيساً، وهنري كتن، وأميل غوري وعيسى نخلة وواصف كما أعضاء.

وقررت اللجنة الأولى لدى اختتام المناقشة إرسال «لجنة خاصة» إلى فلسطين للتحقيق كما طالب الوفد البريطاني في الثاني من آذار (مارس) سنة ١٩٤٧.



هنري كتن

«لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين»

قرار، رقم ١٠٦ (س ـ ١) ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٧.

بعد مناقشة طويلة، تألفت «اللجنة الخاصة» من ممثلي البلدان الاحدى عشرة التالية: أوستراليا، كندا، تشيكوسلوفاكيا، غواتيمالا، الهند، إيران، هولندا، بيرو، السويد، أوروغواي، ويوغوسلافيا.

وجّه العرب نقداً شديداً إلى تلك اللجنة وبخاصة فارس الخوري (سوريا) وفاضل الجمالي (العراق) ومحمود فوزي باشا (مصر). وعندما عرض القرار على التصويت، كانت النتيجة ٢٥ مع القرار و٨ ضده، مما دلّ، منذ البداية، على أن اللجنة منحازة للصهيونية.

كما أن الوفود العربية لم توافق على «نطاق صلاحية» اللجنة، لأن ميل أكثرية أعضائها، صهيوني.

ويلخص نطاق صلاحيتها بما يلي:

«تتمتع «اللجنة الخاصة» بأوسع السلطات في التحقيق بكل المسائل والقضايا المتعلقة بالمشكلة الفلسطينية في فلسطين أو أي مكان آخر؛ وبوسعها أن تستجوب الأشخاص والحكومات والتنظيمات، الخ... وأن تتلقى وتفحص الشهادات المكتوبة والشفهية.

«وسوف تعدّ «اللجنة الخاصة» تقريراً للجمعية العمومية وتقدم لها الاقتراحات التي ترى أنها أهل لحل المشكلة الفلسطينية».

لم يكن هذا كل شيء، فقد اقترح أحد الوفود الممالئة الصهيونية تعديل صلاحية اللجنة، بحيث تقوم بزيارة اللاجئين اليهود في أوروبا. فاعترض الممثلون العرب بقوة وكانت حجتهم أن المشكلة الفلسطينية لا علاقة لها باللاجئين اليهود في أوروبا. ولدى التصويت، نجح التعديل بأكثرية ٣٦ صوتاً ضد ٨ وامتناع أربعة أعضاء عن التصويت، مما دفع العرب إلى الشك في حياد «اللجنة الخاصة».

وتبنت «اللجنة الأولى»، من أجل تسهيل عمل «اللجنة الخاصة»، قراراً تدعو فيه كل

الحكومات والشعوب، وبخاصة في فلسطين، للتوقف، خلال مهمتها، عن أي عمل يمكن أن يقف في طريق حل المشكلة الفلسطينية، وكان أول من تجاهل هذا النداء العصابات الإرهابية اليهودية: الهاغاناه، أرغون تسفائي ليؤمّي (اتسل) والشتيرن.

الهيئة العربية العليا تقاطع «لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين»

قررت الهيئة العربية العليا. وقد ارهقها ما يناهز عشرين لجنة تحقيق، زارت فلسطين مدة الانتداب البريطاني، وخامرها الشك بحياد الأمم المتحدة ولجنتها الأولى تجاه المسألة، «مقاطعة» «اللجنة الخاصة». ولقد كان من سير النقاش الذي جرى في «اللجنة الأولى»، قبل انتخاب «اللجنة الخاصة» وبعده، أن انفضحت ميول أكثرية الأعضاء الممالئة للصهيونيين وأدى إلى انتخاب لجنة خاصة تخدم أغراضهم. غير أن بعض منتقدي مقاطعة اللجنة ذهب إلى القول ان هـــذا الانحياز كان يجب أن لا يحدو بالهيئة العربية العليا إلى مقاطعة اللجنة بل إلى زيادة مفاوضاتها معها علّها تقنع أعضاءها بعدالة قضيتها أو أن تفضح موقفها الممالىء للصهيونية.

وفي الثالث عشر من حزيران (يونيو) أنذرت الهيئة العربية العليا أمين عام الأمم المتحدة بقرارها؛ فحوّله بدوره إلى «اللجنة الخاصة» التي كانت وصلت القدس. أزعـج الأمر رئيسها، فعمد في السادس عشر من حزيران (يونيو) إلى إذاعة نداء للهيئة العربية العليا، يدعوها فيه للعودة عن قرارها، ويذكر بأن «اللجنة الخاصة» جاءت للتحقيق في المشكلة الفلسطينية بعقل مفتوح وبأن أعضاءها غير منحازين وينوون وضع تقرير غير منحاز.

لم يثمر النداء، لأن أعضاء الهيئة العربية العليـا كانـوا يعـارضون مجيء «اللجنة الخاصة» إلى فلسطين للتحقيق، مبدئياً، ولم يدركوا لماذا لا يسمح للعرب، وهم سكان البلاد وأكثريتها الساحقة ومالكو أكثرية الأرض، بممارسة حق تقرير المصير حسب نص ميثاق الأمم المتحدة؟ كما لم يفهموا لماذا يجب على فلسطين أن تقبل باستيعاب اللاجئين اليهود من أوروبا الوسطى، مع أن عرب فلسطين ليسوا مسؤولين عن أزمتهم؟

عقدت «اللجنة الخاصة» اجتماعها الأول في واشنطن في السادس والعشرين من أيار (مايو) وكان اجتماعها الثاني في ليك ساكسيس (نيويورك) حيث انتخب رئيساً لها، المستر أميل سـاندستروم، من السويد وهو قاض سابق وعضو في محكمة العدل الدولية، ثم سافرت اللجنة إلى فلسطين.

اللجنة الخاصة تعقد أول اجتماع لها في بناية جمعيـة الشبان المسيحية في القدس)

عقد الاجتماع الأول في بناية جمعية الشبان المسيحية في القدس في السادس عشر من حزيران (يونيو) ١٩٤٧، وكان أول المتكلمين فيه هو السير هنري غارنيو (Sir Henry Garnew)، السكرتير العام في حكومة الانتداب، فجرّب أن يعطي صورة عن إدارة فلسطين

وأن يشرح لهم تقرير الحكومة: «مسح فلسطين» .«Survey of Palestine 1945-1946» الذي كان قد قدّمه من قبل إلى اللجنة.

وفي السابع عشر من حزيران (يونيو) قدم مستر موشي شرتوك شهادته نيابة عن الوكالة اليهودية؛ فألقى خطاباً طويلاً غطى تقريباً كل وجوه القضية الفلسطينية. غير أن الأخطاء العديدة التي ارتكبها أجبرت ممثل الحكومة المنتدبة على التدخل لتبيان تلك الأخطاء. وأهمها مسألة «العرب بلا أرض» و«اختفاء القرى العربية». فقد أنكر صحة هذه الشكوى العربية، ثم اعترف في آخر المطاف بها وبأن أربع عشرة قرية عربية زالت من الوجود.

واستمر الإرهابيون اليهود في إرهابهم، بينما كانت «اللجنة الخاصة» تقوم باستقصائها، مما أكره رئيسها في التاسع والعشرين من حزيران (يونيو) على توجيه اللوم إلى عصابات الإرهابيين اليهود لعدم تجاوبهم مع دعوة الجمعية العمومية.

في الرابع عشر من تموز (يوليو) قدّم المستر دافيد بن غوريون، رئيس الوكالة اليهودية شهادته أمام اللجنة. وكان خطابه سلسلة شكاوى ونقداً لاذعاً للحكومة البريطانية، لأنها فشلت في تقديم فلسطين للشعب اليهودي على طبق من فضة وبدون سكانها العرب. كما انتقد سكان فلسطين العرب لأنهم لم يتخلوا عن حقوقهم في بلادهم. فكانت شهادته مجموعة اتهامات ضد الحكومة البريطانية والعرب ولم يعطِ أدنى قيمة أو اعتبار لحكومة الانتداب في تنميتها للوطن القومي اليهودي في فلسطين. واتهم بصراحة الحكومة البريطانية بالانحياز للعرب.



دافيد بن ــ غوريون

لقد كان للعداء ولنكران الجميل اللذين أظهرهما بن ـ غوريون للحكومة البريطانية، أثر سيء جداً أكره حكومة الانتداب أن تنتقد الشهادة، دفاعاً عن النفس، في رسالة وجهتها إلى «اللجنة الخاصة» تذكر بن غوريون فيها، بأن هتلر وليست بريطانيا، هو الذي خلق مشكلة اللاجئين اليهود، وأنه لولا الجيش البريطاني، لما استطاع بن ـ غوريون وشركاؤه الجلوس في القدس في جمعية الشبان المسيحية والإدلاء بشهاداتهم أمامها، وأن الجيش البريطاني هو الذي قاتل هتلر من أجل الوطن القومي اليهودي في فلسطين.

ذكّرت حكومة الانتداب بن غوريون أيضاً، بأن الانتداب فرض على المنتدب واجبات محددة تجاه سكان البلاد العرب الأصليين وهم الأكثرية. فحقوقهم يجب أن تصان، وأن المنتدب ملزم، تبعاً لميثاق الأمم المتحدة، بمساعدتهم في النمو والوصول إلى الاستقلال.

والحق أن رسالة حكومة الانتداب إلى «اللجنة الخاصة» عن بيان بن غوريون يستحق التعليق. لأن عنف البيان والروح العدائية والانتقادية التي فيه، دلاّ على أن موقف بن ـ غوريون المتعجرف، أزعج حكومة حزب العمال وسبب لها ألماً عظيمًا. فقد أذهلها أن تتلقى الإدانة بدل العرفان بالجميل لما قام به حزب العمال من أجل القضية الصهيونية.

وفي السابع عشر من تموز (يوليو)، عقدت «اللجنة الخاصة» آخر اجتماع لها في القدس، وقد استطاعت، عبر مساعي السكرتير العام للأمم المتحدة، القيام ببعض الترتيبات للاجتماع مع بعض وفود الدول العربية في لبنان. ولقد عقدت في الثاني والعشرين من تموز (يوليو) اجتماعاً في فندق صوفر، استمعت فيه إلى بيان قرأه بالنيابة عن ست دول عربية، السيد حميد فرنجية، وزير خارجية لبنان. وبما أن شرق الأردن رفض أن يدلي بشهادته مع البلدان العربية الأخرى، فقد ذهب بعض أعضاء اللجنة إلى عمان وأصغوا إلى شهادة رئيس الوزراء الأردني، سمير الرفاعي.

وفي الخامس والعشرين من تموز (يوليو)، سافرت «اللجنة الخاصة» إلى جنيف لتكتب تقريرها، الذي قدمته في الحادي والثلاثين من آب (أغسطس) ١٩٤٧، إلى الجمعية العمومية في الأمم المتحدة.

تقرير «لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين»

كان تقرير «لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين» طويلاً لا يمكن بحثه مفصلاً. وباختصار فإن التقرير يحتوي على أربع توصيات رئيسية:

التوصية الأولى:

(أ) **توصيات ووفق عليها بالإجماع**. إن أهم تلك التوصيات هي:

١ ـ إنهاء الانتداب ومنح الاستقلال.

٢ ــ إن فلسطين لا تستطيع وحدها حل المشكلة اليهودية.

٣ ــ الوصول إلى الأمكنة المقدسة وصيانتها.

٤ ــ مبادىء ديموقراطية وحماية الأقليات.

٥ ــ وحدة اقتصادية.

(ب) توصية وافقت عليها أكثرية كبرى:

المشكلة اليهودية بصفة عامة

توصي اللجنة: عند تقييم المسألة الفلسطينية، تجب الموافقة، على أن حل مشكلة فلسطين لا يُنْظَر إليه على أنه حلٌّ للمشكلة اليهودية.

التوصية الثانية: مخطط تقسيم بوحدة اقتصادية قدمته الأكثرية.

التوصية الثالثة: مخطط دولة فيديرالية قدّمته الأقلية.

التوصية الرابعة: نظام خاص لمدينة القدس: يقام نظام خاص بمدينة القدس على أنها «كيان خاص» تحكمه وصاية دولية بموجب اتفاقية الوصاية، بتعيين الأمم المتحدة كسلطة إدارية للكيان الخاص حسب المادة ٨١ من دستور الأمم المتحدة.

ردود الفعل العربية تجاه
تقرير «لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين»

لما نشر تقرير «اللجنة الخاصة»، وعُرف أن أكثرية أعضائها أوصت بتقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين تشملهما وحدة اقتصادية؛ هاج الشعب العربي الفلسطيني هياجاً شديداً. والحق أن العرب جميعاً ثاروا، وليس عرب فلسطين وحدهم. وهم الذين رفضوا مشروع التقسيم الذي أوصت به «لجنة بيل الملكية» سنة ١٩٣٧، وشنوا عليه حرباً لمدة ثلاث سنوات إلى أن ألغي. وعلى الرغم من أن تقرير «اللجنة الخاصة» ليس بالكلمة الأخيرة فإنه كان إنذاراً للعرب بأن الحرب تلوح في الأفق وأنه لا بد من بذل كل الجهود لمجابهة الخطر الداهم. إن الحرب هي التي ألغت تقسيم سنة ١٩٣٧، ولا شيء يلغيه الآن سوى الحرب.

أقلق تقرير «اللجنة الخاصة» جامعة الدول العربية، فدعي مجلسها للاجتماع ليدرس التقرير.

اجتماع مجلس جامعة الدول العربية في عاليه، لبنان

عقد مجلس جامعة الدول العربية اجتماعاً في عاليه (لبنان) في السابع من تشرين

الأول (أكتوبر) ١٩٤٧ وكان على مستوى رؤساء الوزارات نظراً لاهميته. فحضر ستة منهم ومعهم مستشاروهم العسكريون. وبعد دراسة شاملة لتقرير «اللجنة الخاصة» تبنى المجلس القرار التالي:

«بما أن الحكومة البريطانية قررت إنهاء انتدابها وسحب جيوشها من فلسطين في المستقبل القريب، ويقيناً بأن المنظمة الصهيونية جيدة التسليح في فلسطين تشكل خطراً حقيقياً على شعب فلسطين العربي فقد وجد مجلس جامعة الدول العربية ضرورياً اتخاذ كل الاحتياطات العسكرية وحشد الجيوش العربية على طول حدودها مع فلسطين. ولن تعبر، على كل حال، هذه الجيوش الحدود إلاّ إذا دعا يهود فلسطين قوات خارجية للمشاركة في المعركة.

«ولقد نصح خبراؤنا العسكريون بأن فلسطين يجب أن يدافع عنها شعب فلسطين الذي يعرف أرضه أفضل من سواه، وهو أيضاً متعطش للدفاع عنها. وعلى كل حال، ومن أجل مساعدة هذا الشعب في مهمته الشاقة، يستحسن حشد جيش من المتطوعين من البلدان العربية تدربه وتجهزه وتشرف عليه جامعة الدول العربية».

كانت الغاية من هذا القرار الدفاع عن فلسطين وإنقاذ شعبها العربي، ولكن ويا للأسف، كان تنفيذ هذا القرار يتطلب تدريب شعب فلسطين العربي، وهو ما لم تكن لتسمح به السلطة المنتدبة طيلة انتدابها على فلسطين. فقد كان امتلاك مناضل لأي سلاح خلال اضطرابات ١٩٣٦ ـ ١٩٤٠ يعني إرساله إلى المشنقة حيث قضى أكثر من ٢٠٠ منهم. ولهذا لم يكن من المستطاع تنفيذ هذا القرار.

لم تُدعَ، لسوء الحظ، الهيئة العربية العليا لحضور اجتماع المجلس في عاليه. غير أن الحاج أمين الحسيني، أدهش المؤتمرين، إذ ظهر فجأة بينهم. فاعترض على وجوده، سرّاً، ممثلا العراق وشرق الأردن، وقد كانت علاقته بالبلدين سيئة منذ انقلاب رشيد عالي الكيلاني، غير أن أحداً من الحضور لم يتجرأ على إعلان اعتراضه على وجود الزعيم الفلسطيني.

شارك الحاج أمين في المناقشة فاقترح تشكيل «حكومة فلسطين في المنفى»، لتحلّ محل الهيئة العربية العليا. وطلب أن يتخذ هذا القرار مجلس جامعة الدول العربية، لكن الوفدين، العراقي والأردني اعترضا على اقتراحه، فسحب.

تشكيل قيادة عسكرية

خرج المجلس في عاليه بنتيجة هامة هي تشكيل «اللجنة العسكرية» لجامعة الدول العربية. وقد تألفت من الضباط التالية أسماؤهم: اللواء اسماعيل صفوت (العراق)

رئيساً، العقيد محمود الهندي (سوريا)، العقيد شوكت شقير (لبنان)، عزت دروزة (فلسطين)، صبحي الخضرا (فلسطين).

واجتمعت اللجنة العسكرية مباشرة في عاليه في العاشر من تشرين الأول (أكتوبر) وقدمت إلى المجلس التقرير التالي:

وضع الصهيونيين في فلسطين

تمركز الصهيونيون جيداً في فلسطين وبوسعهم إقامة دولة لهم في الحال. وعندهم جيش حسن التجهيز وبوسعهم دعوة الاحتياطي للعمل مباشرة. ووضعهم المالي جيد.

وضع العرب في فلسطين

أما عن العرب، فإننا نعتقد بأنهم أقل استعداداً، بما لا يقاس، بالنسبة لأعدائهم الصهيونيين. وبالتالي، فإن ما لا يقل عن ٣٥٠ ألفاً من العرب الذين يعيشون قريباً من المستعمرات اليهودية، سيتعرّضون لخطر الهجوم عليهم وإبادتهم من قبل الصهيونيين، ونعتقد، بأنه يجب اتخاذ الخطوات التالية درءاً للخطر:

١ ـ حشد جيش من المتطوعين مباشرة «جيش الإنقاذ»، على أن يزوّد بأحسن الأسلحة.

٢ ـ يجب على الدول العربية أن تحشد جيوشها وتضعها على حدود فلسطين.

٣ ـ تشكل قيادة عربية موحدة.

٤ ـ تسليم عشرة آلاف بندقية حالاً، إلى الميليشيات العربية في فلسطين.

٥ ـ تضع جامعة الدول العربية مبلغ مليون دينار تحت تصرف اللجنة العسكرية.

٦ ـ تبدأ الحكومات العربية مباشرة بشراء الأسلحة لجيوشها وللمناضلين الفلسطينيين.

٧ ـ يتدخل الطيران العربي المقاتل لمنع شحن الأسلحة إلى العدو.

ووعدت جامعة الدول العربية، بأن تهتم بمسألة السلاح، وأن تضع مليون دينار تحت تصرّف اللجنة العسكرية.

وقد تقرر أن يكون مقر اللجنة العسكرية في دمشق. وانتخب اللواء طه الهاشمي مسؤولاً عن تنظيم «جيش الإنقاذ» وتدريبه.

الفصل السابع والثلاثون

«اللجنة السياسية الخاصة» تبحث تقرير «اللجنة الخاصة بفلسطين»
العرب يُقدّمون تقريراً خاصاً بهم
المستر ترومان رئيس الولايات المتحدة يتدخّل
ويهدّد رؤساء الحكومات
«اللجنة السياسية الخاصة» تصوّت بالأكثرية للتقسيم

حينما عقدت الجمعية العمومية للأمم المتحدة دورتها الاستثنائية الأولى في نيسان (أبريل) ١٩٤٧، نوقشت المسألة الفلسطينية في «اللجنة الأولى»، وفي دورتها العادية التالية، وحتى لا تشغل اللجنة الأولى بالنقاش الطويل في القضية الفلسطينية، أقامت الجمعية العمومية لجنة خاصة من كل أعضائها «اللجنة السياسية الخاصة»، كي تناقش المسألة الفلسطينية وتقرير «لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين». وما زالت تلك «اللجنة السياسية الخاصة» تعمل حتى الآن مع اللجنة الأولى في القضايا السياسية.

القضية الفلسطينية أمام اللجنة السياسية الخاصة

كان أمام «اللجنة السياسية الخاصة» تقريران:

١ ـ تقرير «لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين»، (وثيقة رقم أ/٣٦٤).

٢ ـ تقرير للأمم المتحدة، (وثيقة رقم أ/٢٨٧) قدّمته مصر والعراق وسوريا، ولبنان والعربية السعودية، تطلب فيه «إنهاء الانتداب، واستقلال فلسطين، على أنها دولة واحدة، وعرض المسألة الفلسطينية على محكمة العدل الدولية في لاهاي».

بدأت «اللجنة السياسية الخاصة» مناقشة هذين التقريرين في الخامس والعشرين من أيلول (سبتمبر) ١٩٤٧.

وجهة النظر الإنكليزية

كان أول المتكلّمين المستر كريتش جونز، وزير المستعمرات، عن وفد المملكة المتحدة، فأبدى موافقته على إنهاء الانتداب واستقلال فلسطين. أما عن مسألة اللاجئين اليهود والمهجّرين من أوروبا الوسطى، فقال إنها قضية دولية.

وألحّ المستر كريتش جونز على الأمور التالية:

١ ـ إن بريطانيا تريد أن تتعاون مع الأمم المتحدة، ولكنها لا تريد أن تتعهّد بتنفيذ أي قرار تتبنّاه الجمعية العمومية، ما لم يقبل به العرب واليهود.

٢ ـ إن بريطانيا تريد حلاً سريعاً، على قدر الإمكان، المسألة الفلسطينية لأنها تريد أن تستعجل في إنهاء انتدابها على فلسطين.

وجهة نظر العرب

قدّم وجهة نظر الهيئة العربية العليا السيد رجائي الحسيني، رئيس الوفد الفلسطيني؛ فقرأ بياناً طويلاً شبيهاً بخطاب هنري كتن الذي مثّل اللجنة العربية العليا أمام الدورة الاستثنائية الأولى. وخلص إلى القول أن شعب فلسطين العربي، وصل إلى حال من النمو يؤهله للاستقلال التام. وبما أنه يؤلف أكثرية السكان الساحقة، فليس من حق الأمم المتحدة أن تملي عليه حلاً يتضارب مع رغبات الأكثرية؛ وقال: إن حلّ القضية الفلسطينية يتطلّب مراعاة المبادىء التالية:

١ ـ أن تقوم دولة عربية ديمقراطية على كل فلسطين، قائمة على مبادىء الحرية الأساسية والمساواة بين كل الأشخاص تجاه القانون.

٢ ـ تجب المحافظة على حقوق ومصالح الأقليات المشروعة.

٣ ـ تُضمن حرية العبادة والوصول إلى الأماكن المقدسة.



رجائي الحسيني، رئيس الوفد

وانتهى الممثّل العربي الفلسطيني من خطابه بأن قال انه يعلّق على تقرير «لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين»، لأن تقرير الأكثرية بالتقسيم والأقلية بدولة فيديرالية، يناقضان كلاهما ميثاق الأمم المتحدة وميثاق عصبة الأمم، ولذلك، عزم الشعب العربي الفلسطيني على مقاومة تفتيت بلاده بكل الوسائل التي في استطاعته.

وجهة نظر الوكالة اليهودية

عرض وجهة نظر الوكالة اليهودية الحاخام هيليل سيلفر، وهو يهودي أميركي. فخطب خطاباً طويلاً انتقد فيه الهيئة العربية العليا لعدم تعاونها مع الأمم المتحدة ورفضها الخضوع لقراراتها. وانتقد الحكومة البريطانية لأنها رفضت الأخذ بتوصيات الأكثرية أو الأقلية. وقال: ان الوكالة اليهودية ترفض مشروع الأقلية لأنه لا يعطي الاستقلال الكامل للدولة الواحدة. وقال أيضاً: ان مشروع الأكثرية نفسه لا يرضي شعب اليهود، لأنه استثنى نصف فلسطين الثاني واستثنى شرق الأردن كله من الدولة اليهودية! وأضاف إن العرب يملكون كل هذه الأرض، ومع ذلك ينكرون فلسطين الصغيرة على اليهود. وخلص الحاخام سيلفر إلى القول: ان الوكالة اليهودية توافق على مشروع الأكثرية شريطة أن يخضع لمزيد من النقاش الدستوري حول الأرض.

وتلا ذلك نقاش طويل حول المسألة الفلسطينية، شاركت فيه كل الوفود تقريباً.

دام النقاش ستة وعشرين يوماً ــ من الخامس والعشرين من أيلول (سبتمبر) إلى الحادي والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر). كان بعض البيانات طويلاً وبعضها كان قصيراً. وتكلّم بعض الممثلين للمرة الثانية وقليل منهم للمرة الثالثة. وكانت أكثرية المتكلّمين مع مشروع التقسيم، لكن العدد لم يصل إلى أكثرية الثلثين التي يتطلّبها قرار الجمعية العمومية.

في الحادي والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٧، اقترح الرئيس، المستر ايفات، إنشاء ثلاث لجان فرعية:

١ ــ لجنة فرعية للتوفيق: تجرّب جمع الطرفين معاً كما اقترحت السلفادور وهولاندا.

٢ ــ لجنة فرعية (أ) تضع مخططاً مفصّلاً مبنياً على مشروع الأكثرية التابع للجنة الخاصة بفلسطين، المشروع الذي قدّمه وفد الولايات المتحدة مع مشروع قرار معدل من الوفد الكندي.

٣ ــ لجنة فرعية (ب) تضع مخطّطاً مفصّلاً مبنياً على التقرير الذي قدّمته الدول العربية يعترف بفلسطين كدولة واحدة.

اللجان الفرعية

١ ــ لم تتشكّل لجنة المصالحة أو لجنة الوفاق.

٢ ــ اللجنة الفرعية الأولى. تألّفت من ممثلي الدول التالية: كندا، تشيكوسلوفاكيا، غواتيمالا، جنوب أفريقيا، الولايات المتحدة، الأورغواي وفينزويلا.

٣ ــ اللجنة الفرعية الثانية، تألّفت من ممثلي الدول التالية: أفغانستان، كولومبيا، مصر، العراق، لبنان، الباكستان، العربية السعودية، سوريا واليمن.

ويجب أن نلاحظ، أن الدول التي تألّفت منها اللجنة الأولى أيدت جميعها التقسيم؛ يضاف إلى ذلك أن ثلاثاً منها وهي كندا وغواتيمالا والأورغواي، كانت أعضاء في «اللجنة الخاصة بفلسطين» التي وقّعت مشروع الأكثرية للتقسيم، بينما كان أعضاء اللجنة الفرعية الثانية دولاً ضد التقسيم، فما كان في اللجنة الأولى أي عضو يناقش ضد قرار التقسيم. وكان واضحاً تحيّز اللجنة تجاه هدف الصهيونيين، حتى أن ممثّل كولومبيا في اللجنة الفرعية الثانية، استقال احتجاجاً.

تقرير اللجنة الفرعية الأولى

ناقشت اللجنة الفرعية الأولى مشروع الأكثرية مناقشة شاملة وأدخلت عليه بعض التعديلات كي يصبح التقسيم عملياً. فقلّلت من عدد الأكثرية العربية في الدولة اليهودية بأن أخرجت مدينة يافا منها وضمتها إلى الدولة العربية، فأنقصت بذلك عدد السكان العرب في الدولة اليهودية حوالي ٨٠٠٠٠. وألّفت فريق عمل أعدّ مشروع قرار تقسيم يشمل الوحدة الاقتصادية، ونظاماً دولياً لمدينة القدس، وقدمته جاهزاً إلى «اللجنة السياسية الخاصة» كي تصادق عليه.

تقرير اللجنة الفرعية الثانية

حاول بعض أعضاء اللجنة الفرعية الثانية قبل صياغة تقريرها، مع رئيس «اللجنة السياسية الخاصة» ان يستبدلوا بعضاً من أعضائها بأعضاء محايدين آخرين، ولكنهم فشلوا.

أقامت اللجنة الفرعية الثانية، ثلاث لجان عاملة، فاستطاعت أن تقدّم تقريرها «للجنة السياسية الخاصة»، ويتضمّن ثلاث توصيات في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: ينصح بأخذ رأي محكمة العدل الدولية في لاهاي في المسألة الفلسطينية.

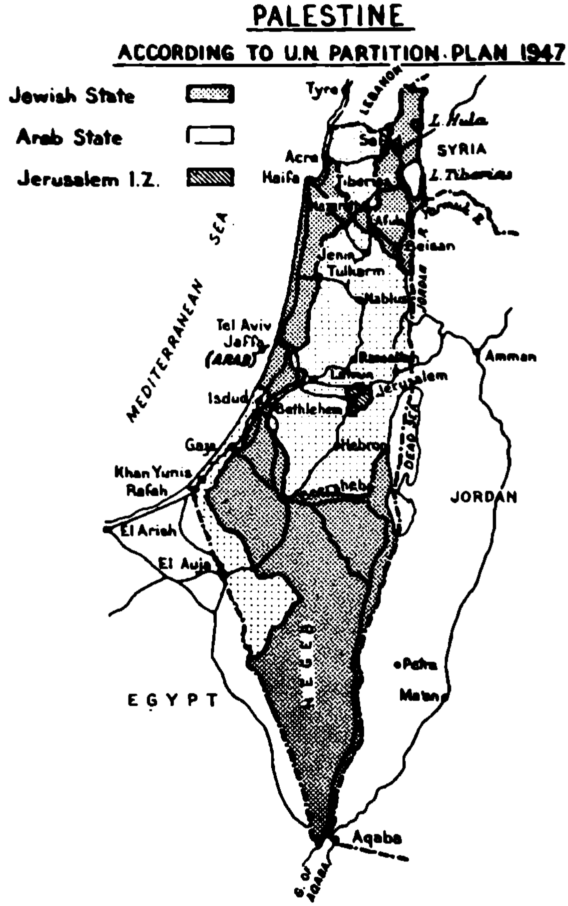
الفصل الثاني: نظر في مسألة اللاجئين اليهود والأشخاص المهجّرين.

الفصل الثالث: قدّم تحليلاً كاملاً لمشروع الأكثرية في التقسيم وأثبت أنه لا مبرّر له

ولا يمكن تنفيذه. وخلص التقرير إلى أن «الدولة الفلسطينية المستقلة» هي الحل الوحيد العادل العملي.

تقريرا اللجنتين الفرعيتين الأولى والثانية أمام «اللجنة السياسية الخاصة»

بدأت «اللجنة السياسية الخاصة» في العشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ مناقشة تقريري اللجنتين الفرعيتين. وكان تقرير اللجنة الفرعية الأولى هو مشروع التقسيم المعدّل مع التوصية بوحدة اقتصادية والمقدّم من قبل أكثرية أعضاء لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين، وقد ربطت به خارطة فلسطين الجديدة، أي «خارطة التقسيم المقترحة» التي بيّنت حدود الدولة العربية وحدود الدولة اليهودية وحدود منطقة القدس الدولية (أنظر الخريطة).



مشروع التقسيم الذي قدمته «لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين»

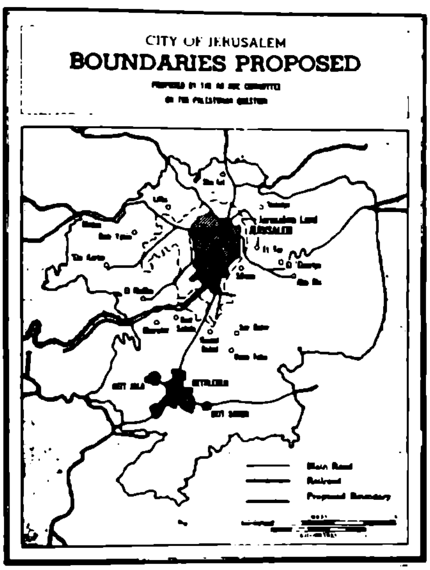
تقييم رفض شعب فلسطين العربي للتقسيم

عند هذا الحد من النقاش نرى من الضروري أن نشرح لماذا رفض عرب فلسطين تقسيم بلادهم بينهم وبين اليهود الذين دخلوا فلسطين بعد ١٩١٨، بحماية وعد بلفور، وهو الوعد الذي أدخل في صك الانتداب على فلسطين. والشرح ضروري لأن الكثيرين لاموهم على رفضهم له. والحقيقة، ماكان لأي عربي شريف يحترم نفسه ويحب وطنه في ذلك الوقت أن يوافق، على انتهاك أقدس ما يملك وأقدس حقوقه.

لقد رفض شعب فلسطين العربي تقسيم بلاده لأن التقسيم: ١ ــ غير عادل! ٢ ــ غير شرعي! ٣ ــ لا يمكن تنفيذه! ولقد أثبت الزمن صحة ذلك.

كان التقسيم غير عادل لأن شعب فلسطين العربي هو الأكثرية الساحقة ولأن العرب هم سكان البلاد الأصليون، والبلاد تحكمها الأكثرية تبعاً لقواعد الديموقراطية مع المحافظة على مصالح الأقلية. ولو أعطيت كل أقلية في كل بلد جزءاً منه لتحكمه، لأصبحت بلاد العالم نتفاً.

٢ ــ والتقسيم غير شرعي لأن وعد بلفور غير شرعي، فقد أعلنت لا شرعيته لجنة موم. وبما أن وعد بلفور غير شرعي، فإن صك الانتداب الذي تضمّن وعد بلفور يصبح لا شرعياً أيضاً، ولهذا السبب كان الوطن القومي اليهودي في فلسطين غير شرعي؛ وإذا كان الوطن القومي اليهودي غير شرعي، فإن الدولة اليهودية في فلسطين غير شرعية أيضاً.



خارطة المشروع الخاص بالقدس ونواحيها

٣ ـ والتقسيم غير قابل للتنفيذ لأن الحدود بين الدولتين كانت وهمية؛ فلا يمكن فصل الدولتين جغرافياً، وعلى ذلك كانت الوحدة الاقتصادية بين الدولتين إجبارية كي تجعل المخطط ممكن التنفيذ. وهكذا جعل رفض العرب مشروع التقسيم، غير قابل للتنفيذ.

وتوضيحاً للنقاط التي أبديناها، نذكر ما يلي:

١ ـ رفض التقسيم جغرافياً

إن دراسة خارطة التقسيم التي قدّمتها اللجنة الفرعية الأولى إلى اللجنة السياسية الخاصة للموافقة عليها، ترينا أن واضعي المشروع، حين قسّموا فلسطين إلى دولتين، قد صرفوا النظر عن عدل مشروعهم أو ظلمه، وعن شرعيته أو عدم شرعيته، وعن إمكانية أو عدم إمكانية تنفيذه، وبالتالي فإنهم لم يهتموا بكل الاعتبارات السياسية والجغرافية والاقتصادية، وإنما اهتموا بهدفهم وحده أي:

«إدخال أخصب أجزاء فلسطين في الدولة اليهودية ومنح الدولة اليهودية طريقاً إلى البحر الأحمر».

كان هيكل الدولة اليهودية الغريب الخطوط يتألّف من ثلاثة أقسام تتصل فيما بينها بممرات جدّ ضيقة، وتفصلها عن الدولة العربية ومنطقة القدس الدولية، خطوط وهمية تقسم عشرات القرى العربية إلى نصفين وتفصل العديد من المدن والقرى عن أراضيها الزراعية. فكان سهل الحولة الخصب الواقع حول طبريا، والسهل الساحلي على شاطىء البحر الأبيض المتوسط، ضمن الدولة اليهودية، فيما تركت التلال والمناطق المجدبة للدولة العربية العجيبة الشكل. وزادوا في تعقيدات مشروع التقسيم فجعلوا النقب ضمن الدولة اليهودية، وكل ساكنيه من العرب الرّحل فقط، حتى يوصلوا الدولة اليهودية بالبحر الأحمر.

٢ ـ رفض مشروع التقسيم بسبب الملكية

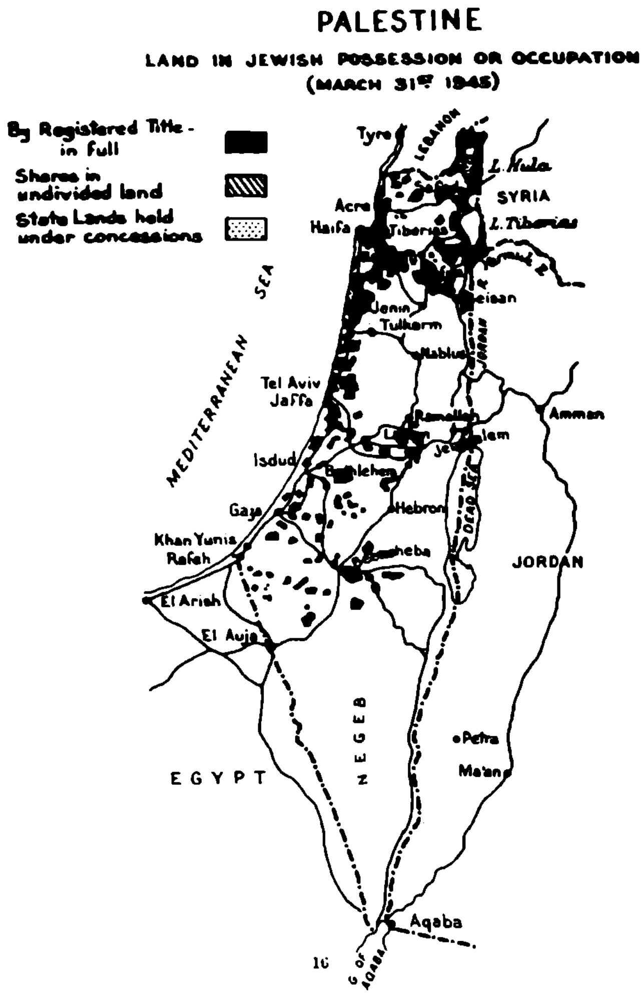
مساحة فلسطين	٦,٧٥٦,٧٥٥	١٠٠ بالمئة
المساحة المقترحة للدولة اليهودية	٣,٨١٥,٤١٢	٥٦ بالمئة
مساحة الأرض التي يملكها اليهود	٣٤٥,٩٤٦	٧,٠١ بالمئة

وبما أن اليهود يملكون ٧,٠١ بالمئة من مساحة فلسطين فهم يملكون ٩,٣٨ بالمئة من مساحة الدولة اليهودية.

ولذلك فإن: ٩٠,٦٢ بالمئة من الدولة اليهودية لم يكن يهودياً وإنما يملكه السكان العرب الأصليون.

٣ ــ رفض التقسيم بسبب السكان

أظهرت الإحصاءات أن سكان الدولة اليهودية المقترحة هم ٤٩٨ ألفاً من السكان اليهود، و ٤٩٧ ألفاً من السكان العرب. والفرق إذاً هو ألف نسمة فقط. ولقد وصلت الدولة اليهودية المقترحة هذه النسبة، فقط عندما أخرجت مدينة يافا من الدولة اليهودية المقترحة وعدد سكانها يناهز الـ ٨٠ ألفاً. ولولا هذا الأمر لكان اليهود أقلية في دولتهم المرتقبة. فكيف إذاً يرضى العرب بأن يكونوا أقلية ــ والفرق لا يعدو ألف نسمة ــ في وطنهم وعلى أرضهم، تحكمهم فيه جماعة من الغزاة ليست الأرض أرضهم!!



خارطة تظهر أملاك اليهود بفلسطين بالأسود

٤ ـ رفض التقسيم لأسباب اقتصادية

كان مشروع التقسيم ظالماً اقتصادياً لأن ٩٠ بالمئة من أرض الدولة اليهودية المقترحة يملكه العرب؛ بالإضافة إلى الخلل الاقتصادي الذي تسبب بجعل عشرات المدن الصغيرة والقرى العربية خارج منطقتهم. أكثر من ذلك، فإن السهل الساحلي الذي ينتج برتقال يافا الشهير، يملك أكثر من نصفه عرب لا يعيشون في الدولة اليهودية المقترحة. ومدينة يافا هي خير مثل. أخرجت المدينة من الدولة اليهودية، لكن بيارات البرتقال الواسعة بقيت ضمنها. ولهذا كان ٨٠ ألف يافاوي سيعيشون، في الدولة العربية، وأكثر بياراتهم في الدولة اليهودية المقترحة. أليس هذا وضعاً غريباً؟

وبما أنه لا وجود لحواجز طبيعية بين الدولتين المقترحتين فإن الحدود كانت خطوطاً وهمية، فقد وجب أن تلي التقسيم وحدة اقتصادية؛ وبما أن العرب رفضوا تلك الوحدة فقد أصبح التقسيم تلقائياً غير قابل للتنفيذ. وهذا هو ما دفع واضعي مشروع الدولة الفيديرالية (مشروع الأقلية)، إلى رفض مشروع الأكثرية. لقد كانوا مقتنعين بأن مشروع التقسيم لا ينفذ دون وحدة اقتصادية والنتيجة حرب لا سلم.

لقد رفض سكان فلسطين العرب الأصليون مشروع التقسيم لأنه أعطى ٥٦ بالمئة من مجموع مساحة فلسطين للدولة اليهودية المقترحة مع أن ملكية اليهود لم تكن تتجاوز ٧,٠١ بالمئة منها، كما أنها لا تتجاوز ٩,٣٨ بالمئة من مساحة الدولة اليهودية المقترحة.

لقد رفض سكان فلسطين العرب الأصليون مشروع التقسيم لأن الدولة اليهودية المقترحة تضمنت السهل الساحلي الخصيب على شاطىء البحر الأبيض المتوسط والأراضي المروية في سهلي طبرية والحولة، فيما حوت الدولة العربية، المناطق الجرداء الجبلية والمساحات التي يصعب زرعها نظراً لضعف إمكانات الري فيها. إن منح ٦٥٠ ألفاً من اليهود أحسن نصفي أرض فلسطين تاركين للعرب الأصليين، وهم ضعف الغزاة عدداً، النصف الثاني القاحل، هـو بحد ذاته خرق لميثاق الأمم المتحدة.

لقد رفض سكان فلسطين العرب الأصليون التقسيم، لأن الدولة اليهودية المقترحة كانت «بأكثرية يهودية» (٤٩٨٠٠٠)، و «أقلية عربية» (٤٩٧٠٠٠) بين مسلم ومسيحي ــ أي بفارق ألف نسمة فقط. فكيف يمكن أن يحكم خمسون بالمائة من السكان اليهود، خمسين بالمائة من السكان العرب ضدّ إرادتهم؟

لقد رفض سكان فلسطين العرب الأصليون مشروع التقسيم، لأنهم لم يعترفوا أبداً بوعد بلفور، ولم يعترفوا أبداً بحق بريطانيا بإعطاء هذا الوعد. وطبقاً لذلك، اعتبر الشعب العربي الفلسطيني أن اليهود الذين كانوا يعيشون في فلسطين قبل الانتداب، هم وحدهم مواطنون فلسطينيون شرعيون.

لقد رفض سكان فلسطين العرب الأصليون مشروع التقسيم لأنهم كانوا مقتنعين بأن الأمم المتحدة لم تكن صاحبة الاختصاص في تقسيم بلادهم بينهم وبين شعب آخر، جيء به بقوة السلاح، ضد إرادتهم. والأمم المتحدة لا تملك الحق في تقسيم البلدان. وعملها كان غير شرعي، غير ديموقراطي، ومخالفاً لمبدأ تقرير المصير الذي نصّ عليه ميثاقها.

رفض التقسيم لأنه غير قابل للتنفيذ

لقد رفض سكان فلسطين العرب الأصليون مشروع التقسيم، لأنه غير قابل للتنفيذ. وهذا كان السبب الرئيسي الذي حدا بأعضاء الأقلية في «اللجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين» إلى رفض مشروع الأكثرية وتقديم مشروع دولة فيديرالية بدلاً عنه، لأنهم اعتقدوا بعدم إمكانية تطبيقه. ومن المناسب أن نذكّر بأن بريطانيا العظمى، أرسلت سنة ١٩٣٧ لجنة «بيل» الملكية إلى فلسطين، في محاولة لحلّ المعضلة الفلسطينية؛ فأوصت اللجنة بتقسيم فلسطين، تقسيمًا لا يختلف كثيراً عما نحن في شأنه. وما فتئت، بعد عام، أن أعلنت اللجنة التقنية «وودهيد»، التي عينت للتحقق من إمكانات تنفيذ التوصية، أن مشروع التقسيم غير قابل للتطبيق، فما كان لبريطانيا إلا أن ألغته.

وأخيراً، فإن سكان فلسطين العرب الأصليين رفضوا التقسيم لأنه خرق لصك الانتداب نفسه، وهو اللاشرعي، ومع ذلك فقد أخذ صك الانتداب على نفسه المحافظة على حقوق العرب. ولقد نص على أن لا شيء ـ نعم لا شيء ـ يعمل، مما يمكن أن يضر بحقوق السكان الأصليين أو ـ لا يضر مشروع التقسيم الذي يعطي اليهود أكثر من نصف البلاد وأجودها، بحقوق السكان من غير اليهود الموجودين في فلسطين؟

بالرغم من تلك الحجج المقنعة ضد مشروع التقسيم فقد صادقت عليه «اللجنة الخاصة الأولى» ورفعته إلى «اللجنة السياسية الخاصة» من أجل أن تتبناه. وما عارضه إلا أصحاب الضمير وحدهم من الأعضاء الذين تنبأوا بأن التقسيم لا يجيء بالسلم إلى الأرض المقدسة. وكان واضحاً أن الأعضاء بأكثريتهم كانوا، إما خاضعين لتأثير الإعلام المضلل والدعاية الصهيونية، أو مستأجرين منها. لقد كان حماس مندوب غواتيمالا (غارسيا غراندوس) الشديد، وتعصب بعض الآخرين للتقسيم، مثار شك عالمي.

في «اللجنة السياسية الخاصة»

من الذين شكّوا بأن مشروع التقسيم سيأتي بالسلم إلى فلسطين، المستر بالزا (Palza) من بوليفيا، فقد ذهب إلى أن الطريقة المثلى لإحلال السلام في الأرض المقدسة، هي التقيّد بميثاق الأمم المتحدة وإعطاء شعب فلسطين حقّ تقرير المصير. واعتبر المستر مينفي (Mr. Menvie) مندوب يوغوسلافيا أن تنفيذ مشروع الدولة الفيديرالية الذي أوصت به الأقلية، هو الطريقة الوحيدة العادلة والديموقراطية والواقعية للحل. أما المستر لوريدان

(Loridan)، مندوب بلجيكا، فقد اقترح أن تعرض القضية على محكمة العدل الدولية في لاهاي كي تتخذ القرار بشأنها. أما المسيو هنريك (Henrique)، مندوب جمهورية الدومينيكان، فقد أدلى بأن الحلّين غير مرضيين. ومع كل هذه التصريحات، لم يصوت أي وفدٍ من هؤلاء المنتقدين، المعارضين، ضد التقسيم.

أما المندوبون العرب فقد عارضوا، طبعاً، مشروع التقسيم، وخطبوا ضده خطباً طويلة تندد به وتنذر بسوء مصيره.

الولايات المتحدة والتقسيم

تحمس الرئيس الأميركي هاري ترومان كثيراً كي يحصل مشروع التقسيم على أكثرية الثلثين في الجمعية العمومية، علّه يرضي الصهيونيين فيحصل هو على أصوات اليهود في انتخابات الرئاسة الأميركية. وقد وقف المستر جيمس فورستول، وزير الدفاع، ضد هذا التحرك في البيت الأبيض منذراً، بأن العالمين العربي والإسلامي واقفان ضد التقسيم، وأن دعمه من البيت الأبيض يقف ضد مصالح الولايات المتحدة. وقال فورستول: إن مصلحة الولايات المتحدة هي في العالم العربي، فهنالك دلائل على وجود كميات كبيرة جداً من النفط في الأراضي العربية، وعلى الولايات المتحدة، ألا تفعل شيئاً يغضب العرب.


جيمس فورستول، وزير دفاع الولايات المتحدة

لكن البيت الأبيض، لم يهتم، للأسف، بإنذار فورستول، بل فعل العكس. وسوف نصف في ما بعد كل ما ارتكبه الرئيس ترومان من خِسّة كي يفوز مشروع التقسيم في الجمعية العمومية.

وقبل اختتام المناقشة جربت الوفود العربية ومن معها من الوفود المناصرة لها، وأخص بالذكر، محمد ظفر الله خان، مندوب الباكستان، أن يثبتوا أمام «للجنة السياسية الخاصة»، أن تقسيم فلسطين ظالم بحق شعب فلسطين العربي وأنه غير قابل للتطبيق. لكن مناصري الصهيونية كانوا يجدون جواباً سخيفاً وغير معقول لكل حجة. مثلاً على ذلك: يُسمح لقرويي الدولة العربية، الذين يمتلكون أراضي في الدولة اليهودية، أن يزرعوا أراضيهم في الدولة اليهودية على أن يعودوا كل ليلة إلى قراهم ليناموا فيها...!! أما حجة ظفر الله خان بأن ٥٤ قرية عربية تقع أراضيها الزراعية في

الدولة اليهودية، فأجيب عليها بأن هذا الرقم ضئيل جداً بمقياس أن ٤٥٠ قرية عربية واقعة أراضيها في مناطقها. غير أن أنصار الصهيونية اضطروا إلى السكوت، حين أخرسهم ظفر الله خان بالقول: إن ٢٧٢ قرية عربية تقع في الدولة اليهودية، وأنها سوف تتحول، بالإكراه، من حالة الاستقلال إلى حالة الخضوع والاستعمار.

دام النقاش أمام «اللجنة السياسية الخاصة» خمسة أيام عانت خلالها الوفود العربية والقلة الشرقية التي دعمتها كثيراً، من تحيز الوفود الغربية الواضح في الأمم المتحدة، الهيئة التي من المفترض أن تجري العدل والمساواة وتقرير المصير للأمم النامية سيما وهي في أول حياتها. وليس ممكناً في هذا الكتاب إعادة ما حذر منه فارس الخوري (سوريا)، وفاضل الجمالي (العراق)، وكميل شمعون (لبنان)، وهيكل باشا (مصر)، وهم يحاولون، بحماس، نصرة الحق ودفع الكارثة. غير أن كل هذا كان عبثاً، لأن الدول الغربية، وبخاصة الولايات المتحدة، كانت مصممة على الانحياز دون اهتمام بالنتائج.

قرار «اللجنة السياسية الخاصة»

اللجنة الفرعية الأولى تفوز بالتصويت

في الخامس والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر)، جرى التصويت على تقريري اللجنة الفرعية الأولى واللجنة الفرعية الثانية. عرض أولاً على التصويت قرار اللجنة الفرعية الثانية. فكانت النتيجة، أن ردت اللجنة المقطعين الأولين اللذين أوصيا: ١ ــ بالإبقاء على فلسطين دولة واحدة. و ٢ ــ بأخذ رأي محكمة العدل الدولية، بأكثرية صوت واحد فقط (٢١ صوتاً ضد ٢٠ وامتناع ١٣ عضواً عن التصويت). أما المقطع المتعلق باللاجئين اليهود والأشخاص المهجرين فقد تساوى التصويت عليه (١٦ صوتاً مقابل ١٦ معه وامتناع ٢٦ عضواً عن التصويت). وعلى ذلك، بقي هذا الجزء من القرار في تقرير اللجنة السياسية الخاصة إلى الجمعية العمومية.

وجرى كذلك في اليوم نفسه التصويت على قرار اللجنة الفرعية الأولى الذي يحتوي على مشروع التقسيم المعدل، مع وحدة اقتصادية. فنجح القرار بأكثرية ٢٥ صوتاً ضد ١٣ وامتناع ١٧ عضواً عن التصويت.

كانت نتيجة التصويت مثبطة لآمال الصهيونيين والولايات المتحدة، لسبب بسيط وهو أنه لا يمنح دولة يهودية للصهيونيين عن طريق الجمعية العمومية لأن ذلك يحتاج إلى أكثرية الثلثين. وعلى ذلك، شهدت الأمم المتحدة، كما لم تشهد من قبل، أبشع عمليات التطبيق في تاريخها. فلم يكتف البيت الأبيض بالضغط للتأثير على الدول الأعضاء، بل لجأ إلى التهديد والوعيد مما هو ضد مبادىء ميثاق الأمم المتحدة، بل ضد كل المبادىء.

الفصل الثامن والثلاثون

قرار «اللجنة السياسية الخاصة» تبحثه «الجمعية العمومية»
المستر ترومان يستعمل كل الطرق المشينة للوصول إلى غايته
الجمعية العمومية تقر مشروع التقسيم
الوفود العربية تخرج من القاعة احتجاجاً

بدأت الجمعية العمومية في السادس والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ مناقشة قرار اللجنة السياسية الخاصة، مشروع التقسيم المعدل بوحدة اقتصادية وهو مشروع اللجنة الفرعية الأولى. ولسوء حظ العالم، لم يُسمح للأمم المتحدة بأن تجد حلاً عادلاً للقضية الفلسطينية. فقد قرر المستر هاري ترومان، رئيس الولايات المتحدة، تحت ضغط الصهيونيين وتهديدهم، ولكسب أصواتهم في انتخابات الرئاسة، أن يحل القضية بنفسه نيابة عن الأمم المتحدة. وقد تمكن ترومان بالتهديد وبالضغط الشديد من التأثير على عدد كبير من البلدان وإجبارها على التصويت على قرار تقسيم فلسطين ضد إرادتها.



الجمعية العمومية للأمم المتحدة

ولم يقم الرئيس ترومان وحده بهذه المهمة المخجلة، لأن مناصري الصهيونية من مجلس الشيوخ، خفّوا حالاً لنجدته وأبرقوا لعدد من الدول الأعضاء من أجل التصويت على قرار التقسيم. ولقد ثبت أن الضغط والتهديد تناولا الدول التالية: ليبيريا، هايتي، الصين، كندا، اليونان، اللوكسمبورغ، الأرجنتين، كولومبيا والسلفادور. وقد وصف جيمس فورستول، وزير الدفاع الأميركي، في مذكراته، ضغط البيت الأبيض ومجلس الشيوخ على الدول الأعضاء في الأمم المتحدة بالقول:

«إن الطريقة التي استخدمت في الضغط والقسوة على الأمم الأخرى في الجمعية العمومية كانت شبه فضيحة» (Bordered onto Scandal).

وكثر التعليق والنقد من مصادر عديدة لضغط البيت الأبيض ومجلس الشيوخ على الدول الأعضاء في الأمم المتحدة، فمستر ويلز (Sumner Welles)، وكيل وزير الخارجية الأميركية السابق في كتابه: «لسنا بحاجة للفشل» (We Need Not Fail) يقول:

«وصدر أمر مباشر من البيت الأبيض، كي يستخدم الموظفون الأميركيون في الأمم المتحدة كل أشكال الضغط من مُباشر وغير مباشر على تلك البلدان من خارج العالم الإسلامي، المعروفة بترددها في شأن التقسيم أو معارضتها له. وقد استخدم البيت الأبيض الممثلين والوسطاء للتأكد من الحصول على الأكثرية الضرورية».

ويقول الدكتور ميلر بروز، (Millar Burrows)، الأستاذ في جامعة يال الأميركية في كتابه: «فلسطين شغلنا (Palestine Is Our Business):

«إن التصويت على التقسيم الذي جرى في الأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٧، فرضته حكومتنا بدون خجل بالوسائل السياسية القديمة البالية. كان تظاهرة مخجلة لواقعة محزنة وهي أن طرق الضغط المنبوذة والتخويف الديبلوماسي الساقط أخلاقياً، استطاعت أن تسيطر على مؤسسة أنشئت حديثاً لهدف سامٍ هو تحقيق العدالة العالمية!».


هاري ترومان، رئيس الولايات المتحدة

وقالت مجلة «تايم» في عددها الصادر في ١٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥١، مشيرة إلى مذكرات فورستول ما يلي: «يعتقد [فورستول] أن دعم الولايات المتحدة الشامل للدولة الصهيونية محفوف بخطر عظيم على مستقبل أمن هذه البلاد. ولقد أنذره الزعيم

الديموقراطي ج.هاوارد ماك عرايث (J. Howard McGrath) ، بشدة بأن الديموقراطيين ربما يفقدون في الانتخابات ولايات نيويورك، وبنسلفانيا وكاليفورنيا، إذا لم يستجيبوا للطموحات الصهيونية. وكما قال فورستول، فقد جلب دعم الولايات المتحدة الشامل لإسرائيل، كراهية العالم العربي لها وعدم ثقته بها».

ولقد قال الدكتور سيريل غاربيت (Cyril Garbett)، رئيس أساقفة يورك، وهو يتحدث بصفته الناطق السياسي للكنسية الانجليكانية في إنكلترا، في مؤتمر أبرشي في الخامس من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٥٣ : «ان التصويت اليهودي في نيويورك كان له تأثير قوي على التصويت في الأمم المتحدة في حل النزاع العربي ــ الاسرائيلي».



ضغط الصهيونية على الولايات المتحدة

هذه الأقوال جميعها تشهد بوضوح على أن الرئيس الأميركي هاري ترومان، خضع للضغط الصهيوني من أجل ربح «أصوات اليهود». ومنذئذٍ والشرق الأوسط في اضطراب جدي ودائم. والولايات المتحدة لا تزال تدعم الشر والعدوان الممثلين بإسرائيل وتدوس حقوق الإنسان المتمثل بالشعب العربي الفلسطيني إلى يومنا هذا.

كان وزير الدفاع، المستر جيمس فورستول، الوحيد في حكومة الولايات المتحدة الذي استطاع أن يرى أخطار تقسيم فلسطين، فجرب جهده كي يدرك الرئيس ترومان وبقية أعضاء الحكومة وجهة نظره،ولكن عبثاً.

المناقشة في الجمعية العامة
وازدياد الضغط اليهودي على الولايات المتحدة

دامت مناقشة «مشروع التقسيم بوحدة اقتصادية» في الجمعية العمومية ثلاثة أيام. فقد افتتحها في صبيحة السادس والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) المستر رومولو (Romulo)، وزير خارجية الفيليبين بخطاب حماسي ضد التقسيم وضد تمزيق فلسطين. غير أن المستر رومولو، لم يسمح له، للأسف، بإتمام دفاعه، فقد أدت تهديدات الرئيس ترومان لرئيس الفلبين، لأن يدعوه إلى الإبحار في اليوم التالي، على الباخرة كوين اليزابيت

للعودة إلى بلاده. وحلّ محلّه مباشرة، المندوب الدائم في بعثة الفلبين إلى الأمم المتحدة الذي أوصى في خطابه بالتقسيم، على الرغم من أنه لم يكن موافقاً عليه شخصياً.

أما السير الكسندر كادوجان، مندوب المملكة المتحدة، فقد اكتفى بترديد سياسة حكومته قائلاً أن حكومة جلالته لا تريد أن تصوت مع أي قرار تتخذه الجمعية العمومية إلاّ إذا وافق عليه كل من العرب واليهود.

ودعم المستر جونسون، مندوب الولايات المتحدة، حسب توجيه دولته، مشروع التقسيم بحماس شديد. ودعا كل الدول الأعضاء للتصويت معه، لأنه برأيه، مشروع الأمم المتحدة... وقال: «ان مجلس الوصاية، والمجلس الاقتصادي الاجتماعي ومجلس الأمن في الأمم المتحدة، سوف تعمل جميعها لتنفيذ وإنجاح المشروع».



الأمير فيصل آل سعود

وألقى محمود فوزي، مندوب مصر، خطاباً قصيراً ألحّ فيه على أن الجمعية العمومية ليست الجهاز المؤهل ليقرر مستقبل فلسطين ولذلك كانت محكمة العدل الدولية في لاهاي، أي محكمة الأمم المتحدة، هي الجهاز المؤهل لبحث هذا الموضوع والاستنارة من تدقيقه والاستفادة من اختصاصه.

وشدد الأمير فيصل على «أن يكون هذا اليوم، يوم الأمم المتحدة، وعليها أن تقرر فيه عدلاً أو ظلمًا، سلمًا أو حرباً».

وخطب الأمير عادل أرسلان وكميل شمعون خطابين طويلين نددا فيهما بالتقسيم وأكدا أنه لن يأتي بالسلم إلى فلسطين.

في هذا الكتاب، لا يمكننا، ولا نريد تدوين الخطب التي ألقيت في الجمعية العمومية عن منافع ومضار التقسيم غير أن من الواجب الإشارة إلى الرسالة التي بعث بها الدكتور وايزمان إلى الرئيس ترومان، لينفي فيها الشائعات القائلة بأن اليهود لجأوا إلى الضغط المزري على بعض الوفود، من أجل التصويت مع التقسيم. غير أن الرئيس ترومان لم يصدقه، لأنه، هو نفسه، كان رازحاً تحت ضغط يهودي كبير، لا سابقة لمثله. ولقد كتب، يقول في مذكراته التي نشرتها مجلة «لايف» في ٣٠ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٥٦:

«الواقع، أن الضغط الذي أحاط الأمم المتحدة بشكل لا سابقة له، لم يكن فقط في

الأمم المتحدة بل أحاط البيت الأبيض أيضاً. ولا أظنني شهدت أبداً مثل هذا الضغط والدعاية المسددة على البيت الأبيض، كما شهدت في هذه المناسبة. ان إصرار عدد قليل من الزعماء الصهيونيين المتعصبين، وقد حركتهم دوافع سياسية، متشبثين بالتهديدات السياسية إفراداً وجماعات، أزعجني وأغضبني. كانوا يطلبون إلي، بروح انفعالية وعدائية، أن أوقف العرب، وأن أمنع البريطانيين من دعم العرب، وأن أرسل جنوداً أميركيين ليفعلوا هذا وذاك وذلك!».

لقد خضع الرئيس ترومان، للتهديدات اليهودية، مباشرة، فأمر كما قال سامنر ويلز: أن يقوم الموظفون الأميركيون في الأمم المتحدة بالضغط بكل الطرق الممكنة، المباشرة وغير المباشرة على الدول، خارج العالم الإسلامي، المعارضة للتقسيم أو المترددة تجاهه. وقد عمل المندوبون والوسطاء ضد كل المبادىء لضمان الأكثرية الضرورية لنجاح التقسيم في الجمعية العمومية.

تأجيل جلسة الجمعية العمومية

كان يوم السادس والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر)، اليوم الذي كان متوقعا فيه أن يجري التصويت على التقسيم، ولكن علم المؤيدون أن أكثرية الثلثين لم تكن أكيدة في ذلك اليوم، ولذلك صار تأجيل الجلسة ضرورياً وكان هذا أمراً سهل التحقيق، لأنه لا يتطلب سوى أكثرية عادية؛ وكان اليوم الذي يليه «عيد الشكر»، وهو عطلة في أميركا. فتأجل الاجتماع بتصويت ٢٤ مندوباً ضد ٢١. فأعطى هذا التأجيل لمؤيدي التقسيم وقتاً أوسع للتلاعب ولممارسة الضغوط على الدول الأعضاء المترددة.

ثم عقدت الجمعية العمومية جلسة بكامل الأعضاء في الثامن والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) وكان أول المتكلمين مندوب الباكستان، محمد ظفر الله خان، الذي أوضح في خطاب مؤثر، كيف تحاول الدول الأعضاء المؤيدة للتقسيم الحيلولة دون تصويت حرّ في الجمعية العمومية مما يقضي على كل المبادىء التي قام عليها ميثاق الأمم المتحدة. وقال: «إذا استمرت هذه المناورات السرية، على أن تكون قاعدة أخلاقية في الأمم المتحدة، فماذا سيكون مصير هذه المنظمة العظيمة؟».

وكان المتكلم الثاني، طبعاً، غراسيا غراندوس، عن غواتيمالا، العميل الصهيوني، الذي أراد التدخل من أجل التقليل من تأثير خطاب ظفر الله خان. وما كان لديه ما يقوله غير اتهام الزعماء العرب بأنهم وحدهم كتلة الضغط لتعطيل المشروع.

وأوصى الدكتور ألفونسو لوبير، مندوب كولومبيا، بأن تجرب اللجنة السياسية الخاصة مرة أخرى جمع الطرفين معاً؛ وأن يؤخذ رأي محكمة العدل الدولية. لكن وفد الولايات المتحدة، أقنعه لسوء الحظ، بسرعة وبدهاء، بسحب توصيته.

التأجيل الثاني لجلسة الجمعية العمومية

فجأة، ودون إنذار، اقترح الوفد الفرنسي تأجيل جلسة الجمعية العمومية أربعاً وعشرين ساعة، دون أن يدرك أحد سبباً معقولاً لهذا التأجيل. وجرى التصويت عليه فكان معه ٢٥ صوتاً مقابل ١٥ ضده.

اجتمعت الجمعية العمومية في اليوم التالي أي ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر)، وكان أول المتكلمين كميل شمعون (لبنان)، فقدم مشروعاً بالنيابة عن الوفود العربية وهو مشروع الكانتونات ضمن «دولة فيديرالية مستقلة». وهو يقوم على كانتونات عربية، الأكثرية فيها عرب، وأخرى يهودية، غالبيتها من اليهود، على أن تحكم حكومة مركزية كل الكانتونات.

ويقوم المشروع على ستة مبادىء، عدا ما سلف، ويحتوي على قواعد للانتخابات، والتشريع، والإجراءات الحقوقية، وحماية الأماكن المقدسة والوصول إليها، وسلطات الحكومات المركزية والفيديرالية، الخ... ولقد أخذ واضعوه دستور الولايات المتحدة أنموذجاً لهم.

كان المتكلم الثاني، فارس الخوري، الذي كشف سرّ التأجيل الذي تقدم به المندوب الفرنسي في اليوم السابق. فبين أن القصد منه إعطاء فرصة أكبر للمصالحة التي اقترحت في أول تشرين الثاني (نوفمبر). وجلية الأمر أن رئيس «اللجنة السياسية الخاصة»، أرسل، بصفته رئيس لجنة التوفيق، في أول تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧، رسالة إلى جورج مارشال، وزير الخارجية في حكومة الولايات المتحدة، وأخرى إلى الأمير فيصل بن عبد العزيز، طالبا منهما التوسط بين الطرفين. فأجاب الأمير فيصل مباشرة رئيس اللجنة بأنه سيكون سعيداً بالمساهمة في هذه المحاولة ويرجو لها النجاح. غير أن رسالة جورج مارشال بقيت دون جواب مما يدل على أن الولايات المتحدة أوقفت المشروع.

وكان فارس الخوري يريد من ذلك فضح الصهيونية والولايات المتحدة أمام الدول الأعضاء. فانتقد بمرارة الضغط اليهودي على الولايات المتحدة وما نجم عنه من مضار لمبادىء الأمم المتحدة. ثم قال: «هذا الضغط الطاغي، لم يسمح للولايات المتحدة، ولا للأمم المتحدة بالتصرف بحرية».



فارس الخوري

تبني القرار

وكان المتكلم الثالث السيد عدل،

ممثل إيران، فاقترح تأجيلاً طويلاً لاجتماع الجمعية حتى الخامس عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩٤٨، كي يكون لدى «اللجنة السياسية الخاصة» من الوقت ما يمكنها من دراسة «مشروع» كميل شمعون. غير أن الاقتراح عارضه مباشرة وفدا الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. واعتبر رئيس الجمعية العامة، محافظة منه على قواعد الإجراءات، أنه بسبب اقتراح إيران بالتأجيل، وجب عليه أن يعرض مسودة قرار التقسيم على التصويت أولاً. وكانت النتيجة أن نجح القرار بأكثرية ٣٣ صوتاً ضد ١٣ وامتناع عشرة أعضاء عن التصويت.

أغاظ نجاح قرار التقسيم الوفود العربية كثيراً جداً، فأعلنت مباشرة أن الدول العربية لن تعترف أبداً بالدولة اليهودية الجديدة. ثم انسحبوا من الجلسة بغضب شديد، مظهرين رفضهم المطلق للقرار.

كان تحيز الجمعية العمومية في المسألة الفلسطينية واضحاً وكذلك دور الولايات المتحدة في تبني القرار الظالم الذي لا يمكن تنفيذه. وقد شعرت بعض هذه الدول التي صوتت معه «بتبكيت الضمير»، مما جعل رئيس الوفد البلجيكي، وزير الخارجية، المسيو فان لانجنلوف (Van Langenlove) يقول بحق في الجلسة نفسها: «لسنا متأكدين تماماً من عدالته، ونشك في أن يكون عملياً، ونخشى أن ينطوي على مخاطر كبيرة».

قرار تقسيم فلسطين

قرار ١٨١ (دورة ٢) ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧

حكومة فلطين المقبلة

(أ)

ان الجمعية العمومية، بعد ان عقدت دورة استثنائية بناء على طلب الدولة المنتدبة للبحث في تشكيل وتحديد صلاحية «لجنة خاصة بفلسطين»، تحضر موضوع حكومة فلسطين المقبلة، كي يُبحث في الدورة الثانية العادية للجمعية العمومية.

وبعد أن ألفت الجمعية العمومية لجنة خاصة وكلفتها بالبحث في كل المسائل والأمور المتعلقة بالمشكلة الفلسطينية وبإعداد اقتراحات لحل المشكلة، وبعد أن تلقت ودرست تقرير اللجنة الخاصة (وثيقة رقم ٣٦٤/أ) الذي تضمن عدة توصيات نالت اجماعاً، وتوصية أخرى بمشروع تقسيم فلسطين بوحدة اقتصادية، وافقت عليه أكثرية اللجنة الخاصة.

تعتبر ان الحالة الحاضرة في فلسطين من شأنها أن تضر بالمصلحة العامة والعلاقات الودية بين الأمم.

تأخذ علماً بتصريحات الدولة المنتدبة عن نيتها بالجلاء الكامل عن فلسطين حوالى أول آب (أغسطس) ١٩٤٨.

توصي المملكة المتحدة، الدولة المنتدبة، وكل الدول الأعضاء في الأمم المتحدة في ما

يتعلق بحكومة فلسطين المقبلة بتبني وتنفيذ مشروع التقسيم المبين أدناه بوحدة اقتصادية؛

وتطلب:

١ ـ أن يتخذ مجلس الأمن التدابير الضرورية المنوّه عنها في المشروع للعمل على تنفيذه.

٢ ـ أن ينظر مجلس الأمن، في ما إذا صارت الحالة في فلسطين أثناء المرحلة الانتقالية، تشكل تهديداً للسلم، فإذا قرر أن مثل هذا التهديد موجود فعلاً، وجب على المجلس، المحافظة على السلم والأمن الدوليين، أن يضيف إلى تفويض الجمعية العمومية صلاحية اتخاذ التدابير اللازمة، وفقاً للمادتين (٣٩ و ٤١) من الميثاق، وذلك بإعطاء الصلاحيات الضرورية إلى اللجنة الدولية للقيام بالمهمات الملقاة على عاتقها في فلسطين كما هو منوّه عنه في القرار.

٣ ـ على مجلس الأمن أن يعتبر تهديداً للسلم أو خرقاً للسلم أو عملاً عدائياً، بموجب نصوص المادة ٣٩ من الميثاق، كل محاولة ترمي بالقوة إلى تغيير التسوية التي ينص عليها المشروع.

تدعو الجمعية العمومية سكان فلسطين إلى اتخاذ التدابير الضرورية من جهتهم لتأمين تطبيق هذا المشروع. وتوجه نداءاً إلى جميع الحكومات والشعوب لتمتنع عن القيام بأي عمل من شأنه عرقلة أو تأخير تنفيذ المشروع.

تفوّض الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة.. بدفع نفقات سفر ومعيشة أعضاء اللجنة المشار إليها في الجزء الأول، القسم ب للفقره أدناه على الأساس والشكل اللذين يراهما مناسبين وعليه أن يقدم الموظفين الضروريين لمساعدة اللجنة في المهام التي ألقتها الجمعية العمومية على عاتقها.

(ب)

تفوض الجمعية العمومية الأمين العام بأن يسحب من صندوق رأس المال العامل مبلغاً لا يزيد عن مليوني دولار للأغراض المذكورة آنفاً في الفقرة الاخيرة من القرار الراجع إلى حكومة فلسطين المقبلة.

تقسيم فلسطين:

الجمعية العمومية
اجتماع المئة والثامن والعشرين
٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧

مشروع التقسيم

قرار ١٨١ (دورة ٢) ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧
مشروع تقسم بوحدة اقتصادية

الجزء الأول
دستور فلسطين والحكومة المقبلة

الجزء الثاني
١) دولة عربية ٢) دولة يهودية

الجزء الثالث
مدينة القدس
نظام خاص (Corpus Separatum)
تابع لمجلس الوصاية في الأمم المتحدة[٤٤]

بالنظر لما جرى في فلسطين منذ ذلك التاريخ، لا نرى من فائدة لبحثنا في تفصيل هذا القرار الذي لم يطبق يوماً واحداً.

ردود الفعل البريطانية والعربية واليهودية تجاه مشروع التقسيم.

رد الفعل البريطاني:

بلغ سرور الحكومة البريطانية شأواً عظيماً، لأن القضية الفلسطينية وهي العبء الثقيل الذي حملته على كتفيها ثلاثين عاماً، أنزلت عن كاهلها. ولقد أحسّت براحة كبرى حين وضعت العبء على عاتق الأمم المتحدة. كان هدف بريطانيا التخلص من مأزق فلسطين وقد تم لها ذلك. وقد ينتهي انتدابها على فلسطين حسب قرار التقسيم قبل أول تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٤٨. ويا له من نجاح!!

وما يثير الحزن في الأمر، أن الضرر الذي أوقعته بريطانيا العظمى بالشعب العربي الفلسطيني خلال الانتداب، تابعته دون ندم أو تبكيت ضمير. فلم تعبّر تلك الحكومة عن أي أسف تجاه ما آذت به شعب فلسطين البريء، وما فعلته به من شر، لم يأتِ بعد إلى نهايته. وقد سجلت سنوات الانتداب الثلاثون على فلسطين صفحة سوداء في التاريخ البريطاني.

رد الفعل اليهودي

كان اليهود في فلسطين، بل في العالم كله، في غاية الفرح. وكان فرحهم، ليس لما حصلوا عليه من نجاح، بل لأنهم حصلوا على نواة دولة ليبنوا عليها امبراطوريتهم العتيدة، هدفهم البعيد. ولقد أخبرني أحد أعضاء وفودنا في الأمم المتحدة أنه سمع الدكتور وايزمان، رئيس المنظمة الصهيونية العالمية، يجيب، حين سئل وهو خارج من جلسة

الجمعية العمومية في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ «لماذا قبل بنصف فلسطين» بالقول: «النصف الثاني لن يهرب».

غير أن الصهيونيين كانوا يعلمون منذ البدء وقبل سنة ١٩١٨، أن بناء إمبراطوريتهم على أرض ليست لهم، يتطلب أكثر من وعد بلفور وأكثر من قرار الأمم المتحدة. إنه يحتاج إلى المال والسلاح. أما المال، فقد كان يجيء من يهود العالم كلهم ومن الغرب الذي يعطف عليهم وخاصة من الولايات المتحدة. وأما السلاح، فيجب تهريبه إلى فلسطين وهكذا كان. انصب المال على اليهود وبدأ تهريب السلاح منذ بدء الانتداب. وأول خبر ذاع عنه، مصادرة شحنة من الأسلحة في مرفأ يافا سنة ١٩٢٢؛ ثم صودرت شحنة أخرى مهربة في براميل إسمنت، أيضاً في مرفأ يافا سنة ١٩٣٣. أما، كم هرّب من قبل أو من بعد أو ما بينهما، فلا أحد يدري.

وفوق ذلك، كان تسليح المستعمرات اليهودية، تحت حجة الدفاع عن النفس، جزءاً من السياسة البريطانية. فكانت الأسلحة والذخائر تأتيها في صناديق مقفلة، لحماية المستعمرين اليهود ضد الهجمات العربية. واكثر من ذلك، كان تدريب الشباب والبنات العسكري في كل مستعمرة بإشراف الوكالة اليهودية، شيئاً متفقاً عليه.

وقد منعت حكومة الانتداب، لحماية اليهود، حمل أو امتلاك السلاح على العرب. وكان يعاقب المخالف منهم بالسجن الطويل في زمن السلم (وهو نادر في فلسطين)، وبالإعدام في فترات الإضطراب. لقد قضى على المشانق أكثر من مئتين من مناضلينا ضحايا لهذه السياسة الجائرة. لقد شنقوا فرحان السعدي سنة ١٩٣٧ وهو في الثانية والتسعين من عمره وهو صائم في رمضان، وكل الالتماسات بالرحمة نظراً لشيخوخته، قوبلت بالرفض.

رد الفعل العربي

كان وقع خبر الموافقة على قرار التقسيم من قبل الأمم المتحدة أشبه بوقع القنبلة. لم أر في حياتي الشعب الفلسطيني في غضب مثل ذلك اليوم وحماسه للانتقام. وبدا أنه أشد تصميمًا على إلغاء القرار مما كان عليه سنة ١٩٣٧، حين أوصت به «لجنة بيل الملكية». كنت آنئذٍ في يافا وشهدت شعبها الهائج كيف ردّ على التحدي بأن قدّم لبيت المال العربي ٦٠٠٠٠ ل. ف. في ذلك اليوم.

لم يستطع الشعب العربي الفلسطيني أن يبرر قرار الأمم المتحدة أبداً، وما كان بوسعه إلّا أن ينظر باحتقار إلى الأمم التي صوتت مع التقسيم. وكان ازدراؤه أشد لمنظمة الأمم المتحدة الجديدة نفسها، هذه المنظمة الحديثة العهد التي أنشئت لإقامة العدل والسلام بين الأمم، فقامت بعكس الهدف الذي أنشئت لأجله، وجعلتها حفنة من أعضائها العابثين، بلا مبدأ، منظمة مشبوهة لا أمل منها، كسابقتها. .عصبة الأمم!.

الفصل التاسع والثلاثون

العرب يعلنون الحرب على التقسيم
جامعة الدول العربية تؤلف جيش الانقاذ والهيئة العربية العليا تؤلف الجهاد المقدس
وفد إسلامي ـ مسيحي إلى الفاتيكان

كان التاسع والعشرون من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ «يوماً أسود» عند الأمم المتحدة وقد أثبت الزمن ذلك؛ وكان أيضاً «يوماً أسود» شهده الشعب العربي الفلسطيني، لأنه استفاق في اليوم التالي فوجد أن نصف بلاده سلب منه في الليلة السابقة: «ومن له الحق في تقسيم بلدي وإعطاء نصفه إلى الغرباء؟» بهذا صرخ كل عربي في فلسطين! إن الذين أعطوا أنفسهم الحق في هذا العمل المشين هم أيضاً غرباء عنا وعن وطننا فلسطين. إنهم الأم الغريبة في قصة الملك سليمان، التي قبلت بشطر الطفل شطرين. إن الأمم التي قسمت فلسطين إلى قسمين أمم مجردة من كل الروحيات ومنغمسة في المادة. بعملها هذا المشين في تلك الليلة، شوهت البلاد المقدسة ودنستها، ولا توجد كلمات يمكن أن تعبر عن شعور الشعب العربي الفلسطيني في ذلك اليوم.

كنت يومئذ في يافا، فاندفعت في الصباح الباكر إلى مكتب بيت المال، وإذا بي أجده ازدحم بأعضاء اللجنة الاستشارية وبالعشرات من الذين جاؤوا يستعلمون عما حدث. كان هنالك اضطراب وهياج. وظننت أن الكارثة ستؤدي إلى انهيار وهبوط الشعب ولكن، لحسن الحظ، أدت إلى عكس ذلك.

جلسنا جميعاً ندرس الوضع الجديد. وتأكدنا أننا على باب أدق مرحلة في تاريخنا. وأننا على باب حرب دامية فرضت علينا، وما علينا إلاّ أن نواجهها بشجاعة وحزم. فكانت نقطة التحول.

وفيما نحن نناقش النكبة،، رن جرس الهاتف وكان المتكلم الحاج أمين الحسيني، رئيس الهية العربية العليا، يتحدث من دمشق ويريد الاتصال باللجنة الاستشارية لينبئها أن الهيئة العربية العليا قررت الإضراب العام في فلسطين ضد التقسيم لمدة ثلاثة أيام ابتداء من الثاني من كانون الأول (ديسمبر).

وانشغل خط الهاتف بين يافا ودمشق طيلة النهار تقريباً في محاولة إقناع الهيئة العربية

العليا بالاكتفاء بإضراب يوم واحد لإظهار الغضب والسخط. غير أنها تمسكت بإضراب ثلاثة أيام. كان الشعور عالياً جداً وقد تبرع الحاج أمين في ذلك اليوم ببيته لبيت المال العربي. غير أن الوقت لم يسمح بالاستفادة من هذا التبرع.

بدء الاضطرابات

كان من شأن إضراب الأيام الثلاثة، أن يثير الاضطرابات التي بدأت فعلاً، كما روت الإشاعات. وقد سمعنا أنباء تأكدت فيما بعد أن مظاهرات غاضبة قامت في دمشق وبغداد والقاهرة.

وفي أول كانون الأول (ديسمبر) حدثت صدامات بين العرب واليهود على الطريق بين يافا وتل أبيب، وفي الثاني منه قتل ستة من العرب وجرح منهم ستة بينما قتل من اليهود ثمانية وجرح إثنان وثلاثون. ولما أحرق اليهود سينما روكسي العربية على طريق مأمن الله في القدس. أحرق العرب انتقاماً المخازن اليهودية في حيّ الشمّاعة قرب باب الخليل. رأيت ذلك كله وأنا في مكتب بيت المال على بعد عدة ياردات. وروى لي البعض في حينه أن جنوداً بريطانيين دفعوا اليهود لإحراق سينما روكسي، وأن الجماعة نفسها منهم حرضت العرب لإحراق المخازن اليهودية.

في الرابع من كانون الأول، انتهى إضراب الأيام الثلاثة الذي حافظ عليه شعب فلسطين العربي محافظة كاملة اذ برهن على تصميمه لإلغاء التقسيم. لقد أظهر أنه مستعد لعمل أي شيء لتحقيق هذه الغاية. كان يقول: «لقد نجحنا في إلغاء مشروع تقسيم اللجنة الملكية، ونحن عازمون على أن نصنع الشيء نفسه مرة أخرى»

غير أن هذا الشعب، بعد قليل من التفكير، وجد أن مهمته هذه المرة أصعب بكثير مما كانت عليه سنة ١٩٣٧. لقد بات اليهود أفضل تدريباً وتسليحاً مما كانوا عليه في الثلاثينات. والحق أنهم كانوا يحضرون أنفسهم لهذا اليوم منذ نشر كتاب ماكدونالد الأبيض سنة ١٩٣٩. فأرسلوا أكثر من ١٥٠٠٠ من شبابهم للخدمة في الجيش البريطاني في الحرب العالمية الثانية، ليس من أجل الدفاع عن الأمبراطورية البريطانية التي كانوا في حرب معها في فلسطين، وإنما للتدرب من أجل قتال العرب بعد الحرب.

على عكس ذلك، كان شعب فلسطين العربي، خلال الحرب العالمية الثانية، بلا حراك سياسياً وعسكرياً، دون مبرر. لقد رمينا سلاحنا سنة ١٩٤٠ ونعمنا بالسلم النسبي الذي جاءتنا به الحرب العالمية الثانية. ويقع بعض اللوم في هذا التراجع، على زعمائنا الذين لجأوا إلى خارج فلسطين وعلى من بقي منهم فيها أيضاً. لقد بدأت الحياة تدّب فينا متأخرة جداً. في آخر سنة ١٩٤٥، ولم تؤسس نواة الهيئة العربية العليا وبيت المال العربي لدعمها إلّا بعد أوائل سنة ١٩٤٦.

وما كدنا نستفيق حتى واجهنا قرار الحكومة البريطانية، في نيسان (أبريل) ١٩٤٧، بإنهاء انتدابها ونقل المسألة إلى الأمم المتحدة. ولم يترك لنا القرار الوقت لنستعد. كما طالبت إنكلترا، كي تزيد حشرنا بالوقت، بدورة استثنائية للجمعية العمومية، لتبحث المسألة الفلسطينية ولم تنتظر الدورة العادية في أيلول (سبتمبر) من تلك السنة، ونفذ كل شيء بسرعة حتى لا يتركوا لنا مجالاً للاستعداد.

إعداد العرب للحرب

قدمت اللجنة العسكرية في السابع من كانون الأول (ديسمبر)، تقريراً إلى جامعة الدول العربية تقول فيه أن الصهيونيين يملكون في فلسطين جيشاً كبيراً حسن التجهيز، وعلى ذلك، ولإنقاذ فلسطين من الاحتلال الصهيوني، يجب أن تدخل الجيوش العربية إلى فلسطين وتقاتل مع الفلسطينيين. ووضع التقرير أمام مجلس الجامعة الذي دعي للاجتماع في اليوم التالي.

مجلس جامعة الدول العربية يجتمع في القاهرة

اجتمع مجلس جامعة الدول العربية في القاهرة في الثامن من كانون الأول (ديسمبر ١٩٤٧ ليناقش الوضع الجديد. وحضر الاجتماع كل من:

الأمير فيصل ــ رئيس وزراء المملكة العربية السعودية.
فهمي النقراشي ــ رئيس وزراء مصر.
جميل مردم بك ــ رئيس وزراء سوريا.
صالح جبر ــ رئيس وزراء العراق.
رياض الصلح ــ رئيس وزراء لبنان.
فوزي الملقي ــ رئيس وزراء شرق الأردن.
علي المؤيد ــ سفير اليمن في مصر.
عبد الرحمن عزام، الأمين العام لجامعة الدول العربية.
ومندوب فلسطين.

دام الاجتماع عشرة أيام، نوقش خلالها كل مايتعلق بالقضية الفلسطينية بالنسبة للوضع الجديد. وأذيع في نهايته بيان طويل، نختصره بما يلي:

«منذ أن اتفقت قوى الاستعمار والصهيونيين على إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وعرب هذه البلاد في محنة، فرضت عليهم بقوة السلاح جماعات غريبة عنهم تأتيهم من كل أنحاء العالم، ولا تلبث أن تنتزع منهم بشتى الوسائل، أراضيهم وموارد رزقهم. ولقد دربت الدولة المنتدبة، هؤلاء الدخلاء فأرهبوا السكان العرب سنين عديدة وهم يسلبونهم وطنهم.

«وقد حذرت حكومات الدول العربية، الدولة المنتدبة باستمرار من عواقب هذه الشرور دون نتيجة.

«وحين عجزت الدولة المنتدبة عن حفظ الأمن والنظام في فلسطين عرضت المسألة الفلسطينية على الأمم المتحدة. ولقد أنذرت الحكومات العربية الجمعية العمومية بظلم التقسيم وعواقبه الوخيمة، ولكنها لشديد الأسف، تجاهلت الانذار وخرقت مبادىء ميثاقها حين أوصت بالدولة اليهودية.

«إن قرار التقسيم الذي أوصت به الجمعية العمومية يناقض حق الشعوب في تقرير مصيرها وهو لذلك خرق لميثاق الأمم المتحدة. وفوق ذلك فقد أدخلت في ما أسمته الدولة اليهودية، أجود أراضي فلسطين ورسمت حدوداً غير طبيعية، مما جعل قرارها الجائر غير عملي ومستحيل التنفيذ. والأخطر شأناً، أنها وضعت نصف مليون من السكان العرب الاصليين تحت حكم نصف مليون من الدخلاء اليهود في الدولة اليهودية.

«والآن، وقد هبت الشعوب العربية والإسلامية لازهاق الباطل وإحقاق الحق وإنقاذ عرب فلسطين بإعادة أراضيهم وبيوتهم لهم. فقد عزمت على أن تستمر في دعمها لهم حتى يصبحوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم في فلسطين المستقلة.

«وقد قرر رؤساء وممثلو الحكومات العربية في اجتماعهم في القاهرة أن التقسيم باطل وأنهم سيتخذون من التدابير ما هو كفيل، بعون الله القدير، عملاً بإرادة شعوبهم، بإلغائه. وهم لا يسمحون باستعباد شعب فلسطين العربي، بل يستمرون في الجهد لتحقيق الإنصاف والعدل، كي يسود السلام في أرض السلام.

«إن مسؤولية المعركة تقع على الأمم التي وافقت على التقسيم، والتي ساندت الظلم، فأفسدت الأمم المتحدة ومنعت أعضاءها، بالضغط وبالتهديد، من التصويت بالحرية الكاملة.

«وشعب فلسطين العربي مصمم، بدعم من الدول العربية، على خوض المعركة التي أمليت عليه إلى أن يهيمن العدل في الأرض المقدسة وفي العالم».

وقبل أن ينتهي المجلس من أعماله، فاجأهم الحاج أمين بظهوره بينهم. فأثار عبد الرحمن عزام، أمين جامعة الدول العربية موضوع إقامة إدارة فلسطينية، ودعم طلبه مندوبو مصر وسوريا والعربية السعودية، ثم اقترح فهمي النقراشي باسم مصر أن يسمى الحاج أمين، رئيساً لتلك الادارة. لكن العراق، عدو الحاج أمين، اعترض بشدة على الاقتراح فسحب.

المقررات السرية

اتخذ مجلس جامعة الدول العربية إلى جانب القرارات العلنية التي ذكرناها آنفاً، القرارات السرية التالية:

١ ـ يجب إلغاء قرار الجمعية العمومية للتقسيم بكل الوسائل على أن تكون فلسطين دولة عربية مستقلة.

٢ ـ أن تقدم للجنة العسكرية مباشرة ١٠٠٠٠ بندقية تتقاسمها مصر والعراق والعربية السعودية وشرق الأردن.

٣ ـ مساعدة اللجنة العسكرية بتجنيد المتطوعين لجيش الإنقاذ من كافة الأقطار العربية بما فيها فلسطين.

٤ ـ وعدت حكومة اليمن بمبلغ مليون ريال يمني.

٥ ـ وعدت الحكومة المصرية بمليون من الجنيهات (الجنيه كان يعادل ٢١ شلناً).

٦ ـ تعيين اللواء إسماعيل صفوت (العراق) قائداً عاماً لجيش الإنقاذ.

مجمل اجتماعات مجلس جامعة الدول العربية من أجل فلسطين

اجتمع مجلس جامعة الدول العربية منذ أيار (مايو) ١٩٤٦ أربعة اجتماعات لمناقشة القضية الفلسطينية:

١ ـ في الثامن والعشرين من أيار (مايو) سنة ١٩٤٦، إلتقى رؤساء الدول العربية في أنشاص ـ القاهرة، وناقشوا تقرير «اللجنة الانكليزية ـ الأميركية».

٢ ـ في الثامن من حزيران (يونيو) ١٩٤٧ التقى رؤساء وزارات الدول العربية في بلودان ـ سوريا كي يناقشوا تقرير «اللجنة الانكليزية ـ الأميركية».

٣ ـ في السابع من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٧، التقى رؤساء وزارات الدول العربية في عاليه ـ لبنان، وناقشوا قرار «لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين».

٤ ـ في الثامن من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٧ التقى رؤساء وزارات الدول العربية في القاهرة وناقشوا قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين رقم ١٨١ ـ (الدورة الثانية) في التاسع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧).

عرب فلسطين وجامعة الدول العربية

شجع قرار مجلس جامعة الدول العربية الصادر في ١٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٧ الشعب العربي الفلسطيني المضطرب، ولو أنه، لسوء الحظ، لم يكن مطمئناً له كل الأطمئنان

لفقدان الثقة بالجامعة والذي يرجع لعدة عوامل:

١ ــ كانت جامعة الدول العربية حديثة العهد إذ تأسست سنة ١٩٤٥، ولم يستقل ثلاثة من أعضائها وهي سوريا ولبنان وشرق الأردن، إلاّ مؤخراً.

٢ ــ لهذا كانت الدول العربية ضعيفة عسكرياً. ولم يكن لديها متسع من الوقت لتنظيم قواتها العسكرية أو تسليحها.

٣ ــ لم تكن للجيوش العربية قيادة موحدّة. ولم تدرب للقتال معاً.

٤ ــ وصل العداء سنتي ١٩٤٧ و١٩٤٨ بين مختلف الدول العربية إلى أوجه. كان يوجد أكثر من خلاف بين العراق وشرق الأردن من جهة، وبين مصر وسوريا من جهة أخرى، وكان العداء مستحكمًا بين العائلتين المالكتين، السعودية والهاشمية، نظراً لاحتلال السعوديين للحجاز في العشرينات وخروج الهاشميين منه.

٥ ــ لم يكن لدى الدول العربية الحماس نفسه ولا الهدف نفسه من حل القضية الفلسطينية: كانت سوريا تريد الغاء التقسيم ومتحمسة لذلك حماس الشعب الفلسطيني نفسه.

غير إننا لا نقدر أن نقول ذلك عن الحكومة المصرية التي كانت على استعداد ان تقوم بكل مساعدة مادية وطبية دون العسكرية بسبب عدم استعدادها للحرب ضد الصهيونيين. ومع هذا، فقد شعر زعماء وسياسيو مصر منذ زمن بعيد أنه إذا كان العرب في جميع الأقطار العربية، يريدون تحرير أنفسهم من الاستعمار الأوروبي والأميركي والصهيوني، وجب عليهم أن يتحدوا أولاً ليستطيعوا مجابهة الاستعمار، وعلى هذا، فقد اجتمع الزعماء المصريون وأسسوا «جمعية الاتحاد العربي» سنة ١٩٤٢ وأقاموا فروعاً لها في لبنان وسوريا والعراق تمهيداً لهذه الغاية.

وحينما قررت الجمعية العمومية للامم المتحدة تقسيم فلسطين بين العرب واليهود. كان رد الفعل المصري على الجرم عنيفاً، فأنشأ أعضاء «جمعية الاتحاد العربي»، «هيئة وادي النيل العليا لإنقاذ فلسطين» التي قامت بإرسال مساعدات مادية وطبية كبيرة لفلسطين ابتدأت بإرسالها سنة ١٩٤٧ واستمرت إلى آخر سنة ١٩٤٩.

أما في شرق الأردن، فلم يكن الملك عبدالله حرّ التصرّف أو مستقلاً في المسألة الفلسطينية، وكان عليه أن يفعل ما تمليه عليه بريطانيا محافظة على عرشه. فجيشه «الجيش العربي»، كان عربياً بالاسم فحسب، فقد كان تمويله بريطانياً، ويقوده ضباط بريطانيون، آمرهم الجنرال جون باغوت (غلوب باشا)، الملقب (بأبي حنيك)، الذي كان مسؤولاً اسمياً

أمام الملك عبد الله وواقعياً أمام وزارة الخارجية البريطانية. وعلى ذلك، ما كان الجيش العربي، لو أرسل لمساعدة عرب فلسطين، ليستطيع الحرب ضد التقسيم إلاّ إذا رغبت بريطانيا ذلك وما كانت هي بالراغبة. ولذلك، لم يدخل الجيش العربي فلسطين في الخامس عشر من أيار (مايو) سنة ١٩٤٨ لإلغاء التقسيم، وإنما لتنفيذه. وهذا ما أكده جلوب باشا في كتّيبه: «أزمة الشرق الأوسط». الذي قال فيه (ص ٣٩): «لم يدخل الأردنيون الأراضي التي خصصتها الأمم المتحدة لإسرائيل، بل للدفاع عن الأراضي التي خصصت للعرب». وحتى هذا، لم يفعلوه. فقد كان هنالك اتفاق سري عقد في وزارة الخارجية البريطانية في لندن، بين توفيق باشا أبو الهدى، رئيس وزراء شرق الأردن، وكان يرافقه جلوب باشا، وبين المستر بيفن وزير الخارجية البريطانية، تضم بموجبه الدولة العربية كما نص عليه قرار الأمم المتحدة رقم ١٨١ ـ (الدورة الثانية) إلى شرق الأردن عند تنفيذ مشروع التقسيم.



هيئة وادي النيل العليا لإنقاذ فلسطين



سيارات الإسعاف لهيئة وادي النيل لإسعاف فلسطين

أما في العراق، فكان حماس الشعب العراقي مثل حماس الشعب السوري لإلغاء التقسيم،والقتال لهذه الغاية، لكن الحكومة العراقية، وخاصة الوصي على العرش، الأمير عبد الإله ابن أخ الملك عبد الله، ونوري السعيد، رجل العراق الثاني، لم يكونا على ما كان عليه الشعب. فقد كانت سياسة الحكومة العراقية بالنسبة للمسألة الفلسطينية هي سياسة شرق الأردن بالذات. والسبب في ذلك أن الحكومة العراقية لم تنس انقلاب رشيد عالي الكيلاني سنة ١٩٤١، والذي شارك فيه الحاج أمين الحسيني. وما كانت العراق ولا شرق الأردن لتحاربا لإلغاء التقسيم من أجل تقديم فلسطين للحاج أمين كي يحكمها. وهذا كله كان، للأسف، ضد مصلحة الشعب العربي الفلسطيني، الذي ذهب ضحية على مذبح الخصومات العربية والمصالح الشخصية.

أما عن البلدان العربية الأخرى، أي السعودية ولبنان واليمن، فما كان ينتظر منها مساعدة عسكرية هامة.

هذا هو الوضع الذي وجد فيه شعب فلسطين العربي نفسه، يوم التاسع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٧. كان وضعاً مثبطاً للهمة يبدو فيه كل شيء مظلماً، إلاّ روح شعب فلسطين العربي. لقد تحدته الأمم المتحدة وبات على الشعب قبول التحدي في شجاعة وعزم، فكان شعارهم: «فلسطين وطني» الذي نقش على طابع بيت المال العربي وسوف يظلّ شعاره إلى الأبد.

جيش الانقاذ

كان تأليف جيش الانقاذ، تنفيذاً للمادة الأولى من برنامج اللجنة العسكرية في دمشق. فعُينَ اللواء اسماعيل صفوت قائداً عامّاً له، وانتقي لمساعدته الضباط التالية أسماؤهم:

المقدم محمود الهندي (سوريا)	للادارة؛
والرائد شوكت شقير (سوريا)	للتدريب؛
والنقيب وصفي التل (شرقي الأردن)	للتدريب؛
واللواء طه الهاشمي، (العراق)	مديراً للتدريب ومفتشاً عاماً.

كان جيش الانقاذ مؤلفاً من ضباط متقاعدين ومن مدنيين جاؤوا من كل جهات الوطن العربي وكانت أكثريتهم سورية وعراقية وبعض الفلسطينيين.

وما كان كل المنضمين لجيش الانقاذ يسعون للهدف نفسه. فبعضهم، التحقوا به لأنهم مواطنون عرب حقيقيون جاؤوا للقتال من أجل القضية العربية. وبعضهم جاء بحثاً

عن مغامرة؛ كما أن عدداً كبيراً التحق به من أجل ما يقبضه من أجر. وكان عدد الفلسطينيين في جيش الانقاذ قليلاً بالمقارنة بغيرهم، (حوالي ٨٠٠ من أصل ٥٠٠٠). وكان اهتمام اللجنة العسكرية بهم قليلاً، فلم نفهم في البدء، لماذا لا يجند جيش الانقاذ كله من الفلسطينيين، وهم الأكثر استعداداً للموت دفاعاً عن وطنهم. وعلمنا فيما بعد أن الملك عبدالله هو الذي وجه، مع الأمير عبد الاله، اللجنة العسكرية في ألّا تقبل غير قلة في جيش الانقاذ وذلك لسببين:

ـ لأن تجنيد الفلسطينيين وحدهم، يعني خلق جيش غير مباشر للحاج أمين الحسيني، وهما في معركة سياسية ضده.

٢ ـ لأنهما كانا يريدان جيشاً ينسجم مع خطتهما. وعلى ذلك، كان تجنيد الفلسطينيين في جيش الانقاذ، محدوداً، وهذا كان مزرياً، لأن تشكيل جيش من العرب كلهم لتحرير فلسطين دون شعبها، فضيحة مشينة. كان بوسع الفلسطينيين، بالرغم من عدم تدريبهم، أن يكونوا جنوداً أفضل من خليط جيش الانقاذ. وهذا ما أثبتته معركة القدس وسواها مما سنأتي على ذكره.

بدأ تدريب جيش الانقاذ في أول كانون الثاني (يناير) ١٩٤٨، مع العلم أن آخر يوم في الانتداب هو الخامس عشر من أيار (مايو) سنة ١٩٤٨. فكان إذاً أمام اللواء اسماعيل صفوت أربعة أشهر فحسب لتدريب جيش وتجهيزه ليكون قادراً على الحركة ضد جيش من ٦٠,٠٠٠ جندي يهودي، نقدّر أنه حسن التدريب والتجهيز.

جيش الانقاذ يؤلف من ثماني كتائب

كان جيش الانقاذ مؤلفاً من ثماني كتائب يتراوح عدد أفراد الواحدة منها بين ٥٠٠ و ٧٠٠ مقاتل. وكانت تدعى:

الأسم	القائد	البلد
كتيبة اليرموك الأولى	محمد صفا	سوريا
اليرموك الثانية	أديب الشيشكلي	سوريا
اليرموك الثالثة	عبد الحميد الراوي	العراق
القادسية	هادي صالح العاني	العراق
حطّين	مدلول عباس	العراق
أجنادين	ميشيل العيسى	فلسطين
العراق	عادل نجم الدين	العراق
الدروز	شكيب عبد الوهاب	سوريا

وفي حين رفضت سلطة الانتداب السماح للقوات العربية بدخول فلسطين قبل ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨، سمحت للارهابيين اليهود، بحماية الانتداب نفسه، باحتلال عشرات القرى والمدن العربية الصغيرة. ونتيجة لذلك، جاءت المساعدة العربية العسكرية متأخرة، قليلة التأثير والفائدة كما سنرى. ولم تؤمر كتيبة اليرموك الثالثة بالدخول إلى فلسطين إلاّ في ٢٤ نيسان (أبريل) ١٩٤٨، فاتخذت مواقعها في جوار الرملة، وبانتظار ذلك كانت الفاجعة قد حصلت. فقد اقتحمت العصابات الارهابية اليهودية «دير ياسين» في التاسع من نيسان (أبريل) من تلك السنة و«نصر الدين» في الرابع عشر منه. واحتلت طبرية في التاسع عشر وحيفا في الثاني والعشرين منه. وبعد أسبوع، احتلت يافا. جرت هذه المذابح وذاك الاحتلال رغم أنف السلطة المنتدبة والجيش البريطاني، وقبل الخامس عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨. وفي حيفا، أنذر، الجنرال ستوكويل، وكان متواطئاً مع الارهابيين اليهود، العرب بتسليم المدينة إلى الارهابيين اليهود إذا أرادوا النجاة من الابادة.

الهيئة العربية العليا تنظم ميليشيا خاصة بها: «الجهاد المقدس»

دفع استبعاد الفلسطينيين الجزئي عن جيش الانقاذ الهيئة العربية العليا إلى القيام بتأسيس جيش خاص بها: «الجهاد المقدس» وعينت عبدالقادر الحسيني بن الزعيم العربي، موسى كاظم الحسيني، قائداً عاماً له. فجعل مقر قيادته، «بيرزيت» التي تبعد ٢٥ كلم عن القدس. وكانت الهيئة العربية العليا وبيت المال العربي هما اللذان يمولان «الجهاد المقدس».


عبدالقادر الحسيني بطل القسطل

في الخامس والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٤٧، وفي قرية مجهولة قرب الخليل اجتمع عدد من الشباب المتحمسين من صوريف والقرى المجاورة، فألفوا نواة الجهاد المقدس؛ ثم تألف جيش من عدة آلاف بقيادة عبدالقادر الحسيني لعب دوراً كبيراً في معركة فلسطين. ولقد استشهدت على أرض المعركة أكثرية أفراد تلك النواة. ولسوف تعيش أسماء عبد القادر الحسيني وابراهيم أبو دية، وحسن سلامة، وأبو ابراهيم الكبير وأبو ابراهيم الصغير والقائد عبدالرحيم الحاج محمد، ما بقي بشر يروون قصة فلسطين.

كان «الجهاد المقدس» وجيش الانقاذ يقاتلان جنباً إلى جنب بانسجام تام، على الرغم

من أن لكل منها قيادته المنفصلة عن الأخرى. وهذا ما ثبت بوضوح في معركة القدس.

تمركزت فصائل من الجهاد المقدس في القدس، ويافا وحيفا والناصرة وجنين والمدن الأخرى. وعين كامل عريقات مساعداً لعبدالقادر وقاسم الريماوي أميناً عاماً. كما عينّ النقيب منير أبو فاضل، وهو ضابط شرطة سابق في عهد الانتداب، رئيساً للتفتيش. ثم عين فيما بعد، قائداً عاماً لقطاع القدس وقاتل قتالاً مجيداً في معركتها.

اشتراك السيدات في «الجهاد المقدس»

كان لاشتراك السيدات الفلسطينيات في الجهاد المقدس أكبر الأثر. وقد تأسست جمعية السيدات في القدس منذ زمن بعيد وكانت لها فروع في جميع المدن الكبيرة في فلسطين؛ كما كانت لها اتصالات وثيقة مع الجمعيات النسائية في مصر ولبنان وسوريا والعراق. وفي سنة ١٩٤٧، وبعد أن قررت الأمم المتحدة تقسيم فلسطين بين العرب واليهود، وحّدت هذه الجمعيات جهودها لانقاذ فلسطين وطلبت من الزعيمة المصرية، هدى شعراوي، رئيسة الاتحادات النسائية في مصر، أن تتولى التعبير عن جميع الجمعيات النسائية العربية في الدفاع عن القضية الفلسطينية وقد قامت هدى شعراوي بهذه المهمة خير قيام. ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أثني على سيداتنا جميعاً لحماسهن المنقطع النظير وأخص بالذكر السيدات: زليخة الشهابي، شاهندة الحسيني، سلطانة حلبي، كيتي انطونيوس، وديعة خرطبيل وغيرهن...



هدى شعراوي

بطولة «الجهاد المقدس»

كان عمل الجهاد المقدس بطولياً بين الخامس والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٧ والخامس عشر من أيار (مايو) ١٩٤٩، أي يوم حلّه. إن العالمين العربي والاسلامي لمدينان، وإلى الأبد، لأولئك المخلصين لبطولتهم في الدفاع عن القدس، حيث توجد أكثر الأماكن المقدسة المسيحية والاسلامية. وعلى الرغم من أن القدس سقطت سنة ١٩٦٧ بين

أيدي اليهود فإن معركة القدس سنة ١٩٤٨ التي ساهم فيها أيضاً الجيش العربي مساهمة بطولية فائقة، كانت نصراً عربياً من أهم الانتصارات في تاريخ الفروسية العربية. وما من كثرة كانت مدينة لقلّة مثل هذه المرة.


القائد عبدالرحيم الحاج محمد

احتلال القدس القديمة كان هدف العدو الرئيسي

زعم الصهيونيون أنهم وافقوا على الدولة اليهودية كما نصّ عليها قرار التقسيم للأمم المتحدة، والحقيقة أنهم لم يعلنوا أبداً عن موافقتهم على أن يكون للقدس «كيان منفصل» تديره الأمم المتحدة. كانوا يريدون تأجيل توسيع دولتهم، حتى الفرصة المؤاتية. أما بشأن القدس فما كانوا ينوون تأجيل ضمّها إلى الدولة اليهودية، بجزئيها: القدس القديمة والجديدة، يوماً واحداً. كانت غايتهم القدس، وخاصة القدس القديمة، ولو أنها ذات أكثرية عربية ساحقة. ولقد أعدّوا للوصول إلى هدفهم، قوات كبيرة ووضعوها في مواقع تمكنهم، حين يحين الوقت، من الهجوم على المدينة القديمة، من الداخل ومن الخارج. وعلى ذلك، تمركز ٥٠٠ من الهاغاناه في الحي اليهودي داخل السور، كي يقوموا بالدور المخصص لهم حين تدق ساعة الصفر.


الجهاد المقدس

طلب المساعدة من قداسة البابا بيوس الثاني عشر، ضد التقسيم

حالما نشرت لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين تقريرها الذي أوصت فيه بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود، ذهبت أنا وجمال الحسيني، نيابة عن الهيئة العربية العليا، كي نرى، بطريرك اللاتين علّه يتلطف فيرتب لوفد يمُثل الهيئة العربية العليا، مقابلة مع قداسة البابا في روما لنعرض على قداسته موضوع تشويه الأرض المقدسة من قِبل الأمم المتحدة حسب مشروع التقسيم الذي نشرته «لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين». وكانت الهيئة العربية العليا تأمل أن يبذل قداسته جهده الطيب لمنع تشويه الأرض المقدسة.

كان البطريرك بارلا سينا في غاية الود وقام بالترتيبات دون تأخير. تألف الوفد من: أمين عبدالهادي (رئيساً) وأنطوان عطاالله، ويوسف صهيون والدكتور حنا عطاالله، وسافر إلى روما، وانتظر فيها ١٤ يوماً حتى تأمنت له المقابلة التي دامت ٢٥ دقيقة. وأفاد الوفد حين عاد إلى القدس أنه، حسب ما أدرك، لم يرَ أي دليل على أن الفاتيكان يفكر في عمل ما ضد التقسيم.

الفصل الأربعون

الحرب الأهلية في فلسطين
الإرهابيون اليهود ينسفون فندق سميرا ميس في القدس
ويقتلون ٢٢ تحت الأنقاض، ٨ من أسرة واحدة
مئة ألف جندي بريطاني في فلسطين ــ يرقبون ولا يتحركون
الجالية البريطانية تغادر فلسطين

لا أدري كم كان الوضع في فلسطين فوضوياً ومضطرباً لألف سنة خلت أيام الحروب الصليبية، لكني أقدر، أنها لم تشهد عبر تاريخها الطويل هذا الحمام من الدم؛ بينما وقف يتفرّج جيش بريطاني من مائة ألف عسكري، مهمتهم حفظ القانون والنظام. تلك كانت الكارثة. كانت البلاد من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، غارقة في الدم وتغمرها الفوضى، بينما كانت السلطة المنتدبة تراقب فقط؛ حتى إذا سمحت القيادة البريطانية العليا بالتدخل، كان ذلك دائمًا لمساعدة اليهود ضد العرب، وليس العكس أبداً.

وإظهاراً للقوة والاهتمام، أذاع السير ألن جوردان كوننغهام، المندوب السامي على فلسطين، إنذاراً للعرب واليهود ضد الهجمات المسلّحة؛ لكنه كان محل سخرية من العرب واليهود معاً، لأن جيشه الذي جاء لحفظ القانون والنظام، لجأ إلى مناطق آمنة، تحيط بها الأسلاك الشائكة ضد هجمات عصابتي أرغون تسفائي ليؤمّي (اتسل، وشتيرن، الإرهابيتين.

اشتد العداء بين مختلف الفئات في فلسطين، فالعربي يريد قتل اليهودي الذي جاء، بدعم الحراب البريطانية والولايات المتحدة، كي يسرق منه بيته ووطنه. واليهودي يريد قتل العربي الذي يدافع عن بلاده ويجعل السرقة غالية وفي غاية الصعوبة. واليهودي، الجاحد المعروف، يريد قتل الجندي البريطاني لأنه لم يقتل العربي ويزيله من الوجود، ولأنه لم يقدم له فلسطين خالية من أهلها على طبق من فضّة. وأراد العربي أن يقتل البريطاني لأنه أصل الكارثة. والبريطاني، يكره العربي واليهودي معاً ويريد أن يترك فلسطين بسرعة. تلك هي الصورة الحية التي بلغت أوجها في التاسع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧.

كانت فلسطين، سنة ١٩٤٨، كجحيم يوم الحساب والعقاب. برنامجها اليومي كان

إطلاق الرصاص والقنابل، ونزع الخطوط الحديدية، والألغام والخطف. كان الناس يموتون بالعشرات وأحياناً بالمئات من جرّاء إلقاء القنابل على البيوت ودور السينما والمقاهي والمخازن والباصات وأسواق الخضار إلخ... شوارع بكاملها، وفنادق وكنائس وجوامع وكنس غدت ركاماً. كانت هي الحرب ولو أردت أن أسجل كل حوادث العنف والمعارك التي وقعت في تلك الأيام، للزمني عدة مجلدات. وعلى ذلك، سوف أكتفي بذكر بعض أهم تلك الأحداث.

مصادر المعلومات

لا بدّ لي من أن أبين، أنني بالإضافة إلى اختباري الشخصي، اعتمدت عدة مصادر للمعلومات؛ فقد وجدت عوناً كبيراً في يوميات المؤلف والمؤرخ المشهور، عارف العارف التي نشرها في ستة مجلدات سماها: «النكبة». وفي يوميات الهيئة العربية العليا التي جمعها وصنّفها عيسى نخلة. وفي يوميات عبد الله التل، في كتابه القيّم «كارثة فلسطين» وفي «المقاومة العربية» لناجي علّوش و «يوميات فلسطين» لروبرت جون وسامي هداوي ومصادر أخرى. فإلى كل هؤلاء المؤلفين أو «الجامعيين»، أقدّم شكري وعرفاني.

العرب يبررون الحرب ضد التقسيم

أريد أن أوضح، منذ البدء، بأن العرب حين شنوا الحرب ضد تقسيم بلادهم، لم يشعروا أنهم على حق فحسب، بل إنما قاموا بواجبهم المقدس. إن الدفاع عن النفس، وحفظ الكيان، هو قانون الكون الإلهي، ومهما كان التعليل الذي قدمه أو سوف يقدّمه اليهود وأعوانهم في المستقبل عن غزو فلسطين بقوة السلاح، سيظل هذا الغزو موسوماً، كما للصليبيين، بالاعتداء الإجرامي، يدينه التاريخ دائمًا وأبداً.

اندلعت الحرب الأهلية مباشرة بعد إعلان قرار التقسيم من قبل الجمعية العمومية، لأن شعب فلسطين العربي اعتبر «التقسيم» إعلان حرب عليه. وبسببه، انشلت وتعطلت بالتدريج كل الخدمات الحكومية وقطعت الخطوط الكهربائية، وخرّبت أنابيب المياه، وتوقفت الخدمات البريدية والبرقية، وعلقت الاتصالات بين العرب واليهود في كل أنحاء فلسطين. ورحل العرب من الأحياء اليهودية إلى الأحياء العربية، والعكس بالعكس. فمثلاً: أنا أملك بناءً في الحي اليهودي في القدس، ومنذ ذلك الوقت، وأنا لا أعرف شيئاً عن ذلك البناء إلى هذا اليوم. وهو مثل بسيط عمّا حدث في كل فلسطين.

حرب الإنهاك

فيما كان يحس العرب أنهم على حق في القتال من أجل إلغاء التقسيم، كان اليهود يحسون أنهم على حق في القتال لتوسيع دولتهم. والواقع أنهم فكّروا، بصفتهم الشعب الذي اختاره الله، أنهم على حق بإبادة العرب، وطردهم من فلسطين واحتلال بيوتهم.

وهذا ما فعلوه مباشرة بعد تبني الأمم المتحدة لقرار التقسيم في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧. فقد شنوها حرب إفناء، كما فعل ذلك من قبل، يشوع بن نون اليهودي بالفلسطينيين؛ فقتلهم عن بكرة أبيهم حين ادعى أنه يحتل أرض الميعاد؟.

حكومة الانتداب تقوم بعمل جيد وحيد

لم تكن المكاتب الحكومية إلى ذلك التاريخ هدفاً أولياً للإرهابيين اليهود، ما عدا البعض منها. فقد كانت حكومة الانتداب متوقعة الخراب والدمار في هذه الدوائر، فأخذت أفلاماً عن سجلات الأملاك العقارية في السجل العقاري الذي نهبه اليهود فيما بعد. ولولا تلك الأفلام التي أرسلت إلى إنكلترا ثم بيعت إلى الأمم المتحدة، لكانت الفوضى في صكوك أملاك الشعب العربي الفلسطيني كارثة، وهو الذي وضعت ممتلكاته في ذمة الحارس القضائي اليهودي الذي أثبت أنه لص صهيوني محترف.

لقد نظم اليهود جهودهم، في الهجوم على المدن والقرى العربية، من أجل توسيع دولتهم، معطين الأولوية لاحتلال القدس وجوارها. فابتدأوا الهجوم على القرى المحيطة بها كي يعزلوها. وأول ما هاجموا قرية بيت صفافا العربية الهادئة الواقعة على بعد خمسة أميال إلى الجنوب الغربي من القدس.

الهجوم اليهودي على بيت صفافا

في الخامس والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٧، فاجأ ١٥٠ يهودياً قرية بيت صفافا بالهجوم وأهلها نيام. وقد استطاع هؤلاء الأهل بشجاعتهم، وبالرغم من عدم التكافؤ، الدفاع عن قريتهم والنجاح بالاحتفاظ بنصف القرية في أيد عربية. وحين عقدت الهدنة في الثالث من نيسان (أبريل) ١٩٤٩ بين الأردن وإسرائيل، أي بعد خمسة عشر شهراً من الهجوم، بقيت قرية بيت صفافا مقسّمة، نصفها تحت الاحتلال الإسرائيلي والنصف الآخر في الأردن، يفصل بينهما حاجز من الأسلاك يفرق بين العائلة الواحدة فيُجبرها على أن تعيش مقسّمة بين دولتين، لا صلة طبيعية بينها. إن المرء لا يستطيع أن يقدر همجية هذا الأمر حتى يذهب إلى بيت صفافا فيرى الأخ يكلم أخاه من وراء السياج. وفي الأعراس والجنازات، يسير الموكب في صفين على كلا جانبي الحاجز. لم أستطع حبس دموعي عندما رأيت هذا المشهد في زيارة قمت بها سنة ١٩٥٠ لبيت صفافا. طبعاً، زال السياج سنة ١٩٦٧ بعد أن بات أهل بيت صفافا برمتهم يرزحون تحت نير الاحتلال الصهيوني.

حصار الحي اليهودي في المدينة القديمة

انقطعت العلاقات جميعها بين العرب واليهود، وعزل اليهود أنفسهم في جيهم في المدينة القديمة وانقطعوا تماماً عن العالم الخارجي. وكان بينهم ٥٠٠ من عصابة الإرهابيين



بيت صفافا، قرية مقسومة

الهاغاناه ينتظرون الأمر للانقضاض على العرب في المدينة القديمة. وكان يصلهم التموين بواسطة قافلة من الجيش الإنكليزي في تلك الفترة. وكانت الهاغاناه تطلق النار بلا انقطاع على البيوت العربية المحيطة بهم، كي تزرع الخوف في نفوس السكان العرب. ولقد رفضوا التسليم شهوراً عديدة حتى صار وضعهم في شهر أيار (مايو) سنة ١٩٤٨ في غاية الضعف. وسأروي فيها بعد قصة استسلامهم.

الديناميت تجاه باب العمود:

تصاعد الإرهاب المسعور في القدس إلى أوجه يوم التاسع والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٧، حين دفعت عصابة الإرغون ببرميلين من الديناميت في الشارع الموصل إلى باب العمود، فقتل ١٤ عربياً وجرح ٢٧. وأدت هذه الجريمة إلى تبادل القنابل الانتقامية بين العرب واليهود.



فرقة فوزي القطب.

نسف فندق سميرا ميس في القطمون

كان نسف فندق سميرا ميس في حي القطمون في القدس ليلة ٦/٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٨، شبيهاً بنسف سكرتارية الحكومة في فندق الملك داوود في القدس، في تموز (يوليو) ١٩٤٦. كان عدد ضحايا فندق الملك داوود ١٠١ من الناس الأبرياء، وكان القصد منه، كما ذكرنا، إرهاب حكومة الانتداب لإلغاء كتاب ماكدونالد الأبيض لسنة ١٩٣٩. أما عدد الضحايا في فندق سميرا ميس، فقد كان ٢٢ من الرجال والنساء والأطفال الأبرياء؛

والهدف منه إرهاب سكان حي القطمون العرب، ليفرّوا من بيوتهم ويتركوها لليهود المتعطشين لاحتلالها.

ولقد دوّن الدكتور سامي أبو صوّان قصة نسف فندق سميراميس بعد ثلاثة أشهر من حدوثها في «دفاتر الشرق» (Les cahiers de l'Est)، وهو أحد الناجين، بعد أن فقد ثمانية من عائلته في تلك الليلة، من بينهم أمه وأبوه. وليس من الممكن إعادة القصة هنا ونكتفي بالقول أن الأكثر همجية في هذا الجرم، كان إطلاق النار الوحشي المستمر من قبل الهاغاناه على الشرطة البريطانية ومن معهم، وهم يعملون جهدهم في الحفر لإخراج الضحايا من تحت الأنقاض!

وفي العشرين من كانون الثاني (يناير) ١٩٤٨، أي بعد أسبوعين من المأساة، كتبت «البالستاين بوست» الجريدة اليهودية الصادرة في القدس باللغة الإنكليزية، افتتاحية، تقول فيها: «نسفت الهاغاناه عن خطأ فندق سميرا ميس في القطمون؛ ظناً منها أنه مقرّ قيادة الميلشيا العربية، ففجرته وقتل أناس أبرياء».

يا له من عذر ويا له من كذب!!

وينهي الدكتور أبو صوّان قصته المحزنة، في أسف عميق بهذه الكلمات: «ويا للأسف، سوف تصبح الهاغاناه، الجماعة المجرمة، قريباً، جيش الدولة اليهودية المقبلة». ولكم كان صادقاً!

الديناميت في باب الخليل ــ القدس
وإحراق مطحنة شتاكليف

في السابع من كانون الثاني (يناير) ١٩٤٨، دحرج الإرهابيون اليهود في باب الخليل برميلاً آخر امتلأ بالديناميت، شبيهاً بالذي استعمل في باب العمود، فقتل ١٩ عربياً وجرح ٣٦. غير أن المجرمين اليهود، الذين ارتدوا الثياب العربية، لم ينجوا هذه المرة. فلقد طوردوا وألقي القبض عليهم وأعدموا. وفي اليوم نفسه، أحرقت مطحنة شتاكليف القريبة من بيت صفافا.

المعركة الأولى ــ معركة كفاراتسيون

كفاراتسيون، هي مستعمرة يهودية واقعة على الطريق بين بيت لحم والخليل، وقد كانت قوية التحصين وحرس الدفاع فيها مجهزون تجهيزاً جيداً جدّاً. كانت وظيفة هذه المستعمرة قطع الطريق بين القدس وبين جنوبي فلسطين (غزة، بيرالسبع، ومنطقة الخليل).

وقد أراد مسلحو عرب القرى المجاورة أن يوقفوا إطلاق النار على حركة المرور

الكثيفة والقنص الذي سبب خسائر عديدة. ولذلك، هاجموا المستعمرة في الرابع عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩٤٨، لكنهم للأسف، ردّوا بعد أن فقدوا ١٤ قتيلاً وجرح منهم ٢٤. وبعد أيام ثلاثة، أي في السابع عشر من كانون الثاني (يناير)، هاجم الجهاد المقدس المستعمرة فقتل فيها ٣٥ مسلحاً من المستعمرة نشرت أسماؤهم في اليوم التالي في «البالستاين بوست». وأصبح الطريق آمناً ولكن، لمدّة قصيرة.

عدد القتلى والجرحى في فلسطين بين ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ والسابع عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩٤٨:

نشر مكتب الأمن البريطاني إحصاء لعدد القتلى والجرحى في فلسطين خلال ٥٠ يوماً تلت التقسيم فكان كما يلي:

عدد القتلى والجرحى من العرب: ١٠٥٠؛ ومن اليهود: ٧٥٠؛ ومن الإنكليز: ١٠٣؛ والمجموع ١٩٠٣.

وأعتقد أن أرقام الخسائر العربية واليهودية ليست صحيحة. بينما أقدر أن رقم الخسائر البريطانية فقط هو الصحيح.

لغم شارع هاسوليل في القدس

انتقاماً من هجمات اليهود العديدة على الأحياء التجارية والسكنية العربية في القدس، لغم العرب في أول شباط (فبراير) ١٩٤٨، شارعاً يهودياً بأكمله: شارع هاسوليل التجاري وهو شارع رئيسي في القطاع اليهودي الغربي من القدس. وقد نسفت ثمانية مبان كبرى وتضرر ٢٤ بيتاً. أما عدد القتلى والجرحى فقد قدّر بـ ٥٠ شخصاً.



إنفجارات في شارع هاسوليل

خطط للهجوم عبد القادر الحسيني وكانت الألغام كلها صناعة محلية. ولقد شارك في العملية قليل من الشرطة البريطانية كانوا يكرهون سياسة حكومتهم ويمقتون العدوان اليهودي. وبمساعدتهم، دخل، خليل جنحو، وهو يرتدي بزة شرطي بريطاني إلى الشارع برغم الحراسة المشددة وقام بعمله.

نسف الأبنية العربية في حي الشماعة في القدس

في ٦ شباط (فبراير) ١٩٤٨، لغمت الهاغاناه كل الأبنية العربية في حي الشماعة. وغدت بناية الحلبي الملاصقة لبناية طنوس إخوان ركاماً. والذي صان بناية طنّوس هو خلل في اتصال الأسلاك المعدة للتفجير.

الهجوم على مستعمرة مونتي فيوري

هي إحدى أقدم المستعمرات اليهودية في القدس، بناها اللورد روتشيلد في أواخر القرن التاسع عشر. كانت مهمتها في المعركة، إغلاق الطريق بين بيت لحم، وباب الخليل وكل الجنوب بواسطة القنص. وكان موقعها يسيطر على الطريق، ويعرقل حركة المرور الكثيف.

والغريب في هذا الهجوم على هذه المستعمرة أنه قام به أناس عاديون من الذين يستخدمون الطريق في شؤونهم اليومية. وكان المهاجمون يتألفون من سائقين وحمالين وباعة ونجارين وحدادين ومن كل أنواع المدنيين الذين تهددهم يوميًا قذائف مونتي فيوري، فعزموا على أن يضعوا حدّاً لها.

رأيت المهاجمين يندفعون في ١٢ شباط (فبراير) ١٩٤٨ على الهضبة القائمة عليها «المستعمرة»، من بيت المال العربي في بناية طنوس المقابلة لها. كانوا يحملون كل أنواع الأسلحة: من القنابل اليدوية، إلى المسدسات والسكاكين والعصي، وكانوا بالمئات؛ فصارت معركة.

وضربت المستعمرة وأخليت من السكان؛ ولكن قبل الانتهاء من احتلالها، وصلت قوة بريطانية فأجبرت المهاجمين على تركها وهم يحملون قتلاهم وجرحاهم.

على كل حال، جاءت في الثالث والعشرين من آذار (مارس) سيارة قديمة ملأى بالديناميت، تجاوزت بجرأة الحواجز وانفجرت في قلب المستعمرة، وأدت إلى تصدع عشرات البيوت التي أصبحت بدون سقوف. كان الانفجار من الشدة ــ مع أنه على بعد ثلاثة كيلومترات ــ بحيث جعلني أضع يدي على رأسي خوفاً من سقوط سقف بيتنا في الطالبية.

رويت شيئاً عن هذه المناوشات كي أعطي صورة عن نوع الحياة التي كان يعيشها الناس في القدس، والتي ما كانت لتختلف عنها في بقية مدن فلسطين. وسبب هذا الشقاء كله هو السياسة الخاطئة التي أجبرت الأمم المتحدة على تبنيها، حفنة من الدول المتحيزة تقودها «زعيمتها»، الولايات المتحدة الأميركية.

تأسيس اللجان القومية العربية ــ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٨

كان من آفة الاضطراب والفوضى اللذين عمّا فلسطين، منذ تبني قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة، أن شلّت إدارة حكومة الانتداب؛ فاضطر العرب في غياب حكومة تحكم، لأن يؤسسوا إدارتهم الخاصة بهم. فتألفت أول لجنة قومية في القدس من ١٥ عضواً، أحدهم (للشؤون المالية) عضو من بيت المال العربي. وعملت اللجنة بصفة «الوكيل» الذي منح سلطة إدارة شعب في حالة حرب. وأخذت تعمل تحت جناحي الهيئة العربية العليا، بينما كان يموّلها بيت المال العربي. ثم تأسست لجان مشابهة لها في يافا وحيفا والناصرة ونابلس وغزة وفي عدة مدن صغيرة أخرى مثل عكا وجنين والخليل وبيت لحم. وكلفت الهيئة العربية العليا، الشيخ حسن أبو السعود، أحد أعضائها، بالإشراف على إقامة هذه اللجان التي لعبت دوراً كبيراً في تأدية الخدمات لشعب يمرّ بظروف صعبة جداً.

جامعة الدول العربية تؤلف «لجنة فلسطين»

في السادس عشر من شباط (فبراير) ١٩٤٨ عينت اللجنة السياسية في جامعة الدول العربية، اللواء إسماعيل صفوت، قائداً عامّاً لكل الجيوش العربية وجعلته مسؤولاً أمام «لجنة فلسطين» المؤلفة من: عبد الرحمن عزام، أمين عام جامعة الدول العربية؛ نظيف شاوي وجميل مردم (سوريان)؛ رياض الصلح (لبنان)؛ العقيد عبد القادر الجندي (شرق الأردن)؛ خير الدين زركلي (عن العربية السعودية)؛ الحاج أمين الحسيني (فلسطين)؛ واللواء طه الهاشمي، كمستشار عسكري (العراق).

ولسوء الحظ، لم تمارس هذه اللجنة نشاطها، مما أدى إلى استقالة اللواء إسماعيل صفوت.

المقاومة تزداد في حي القطمون ــ القدس:

بات واضحاً، بعد نسف فندق سميراميس وثلاثة بيوت أخرى في القطمون، أن الإرهابيين اليهود يخططون لاحتلال القطمون. وفقدان هذه التلة الهامة يمكّن اليهود من موقع استراتيجي يستطيعون منه السيطرة على مواقعنا في البقعتين الفوقا والتحتا، أهم الأحياء العربية خارج سور المدينة.

كان حي القطمون، مثل بقية أحياء القدس، يدافع عنه حوالى عشرين من المتطوعين جنّد أكثرهم من سكانه دون أن يكون أي منهم حسن التدريب أو التجهيز. ولقد

استطعت، بفضل مساعي النقيب منير أبو فاضل الحميدة، أن أتوصل إلى اتفاق مع إبراهيم أبو دية، المتمركز في منطقة بيت لحم. إستطاع إبراهيم أن يجند جماعة من ثمانين رجلاً من الأقوياء ذوي التدريب والتجهيز الحسن. وفي أيام قليلة كان أبو دية ورجاله يتمركزون في حي القطمون المحاط بالأسلاك الشائكة. وكل ما طلبه شهرياً، ألف ليرة فلسطينية فحسب، لإعالة رجاله؛ أما ذخيرته فكانت تأتيه من الجهاد المقدس، وكان تابعاً له.



القائد إبراهيم أبو دية

أصبحت وابراهيم أبو دية صديقين حميمين؛ كان يأتيني زائراً كلما جاء المدينة. وكان يروي لي كل صداماته الليلية مع الإرهابيين اليهود. كان مثل عبد القادر الحسيني يتحلى بوطنية وشجاعة نادرتين.

اشتداد الحرب في فلسطين
الرعايا البريطانيون يؤمرون بالرحيل

بلغت الحرب الأهلية في فلسطين حدّاً من الدموية والانتشار لم يبق معه أي جزء من البلاد إلا وشملته الفوضى. وانقطع السفر في نهاية كانون الثاني (يناير) بين مختلف المناطق، إلا على العسكريين. ولم تكن حكومة الانتداب بقادرة أو راغبة في تحسين الوضع، فاضطرت إلى الطلب من الرعايا البريطانيين مغادرة فلسطين. ولم يسمح إلا لمن كانت عليه واجبات خاصة بالبقاء، كما أن الذين بقوا، تركوا بيوتهم وسكنوا في مناطق خاصة حددت لهم (Zones). وكانت هذه المناطق في نواحٍ ثلاث مختلفة من المدينة، كل منها تحيط به الأسلاك الشائكة، يحرس «البوليس البريطاني» أبوابها، والدخول إليها ممنوع إلا بإذن خاص. كان عاراً على دولة كبرى مثل بريطانيا العظمى أن تتصرف بهذا الجبن تجاه الإرهابيين اليهود، ولىّ معه كل احترام لبريطانيا العظمى في فلسطين.

الفصل الحادي والأربعون

شباط (فبراير) وآذار (مارس)، شهران امتازا بسفك الدماء
احتلال الأرض وإخراج أهلها العرب
صار هدف الإرهاب اليهودي
«بيان لجنة الاتحاد المسيحي في فلسطين» ضد التقسيم
كتيبة من جيش الانقاذ تصل إلى القدس

كانت المناوشات والمعارك من الكثرة في هذين الشهرين بحيث صارت تغطيتها كلها مستحيلة. ولسوف أصف بعضاً منها كي أعطي فكرة للقارىء[٤٧].

معركة صور باهر

صور باهر قرية عربية، تبعد حوالى ثلاثة كيلومترات إلى الجنوب الشرقي من القدس. هاجمها الارهابيون اليهود في ١٧ شباط (فبراير) ١٩٤٨ لموقعها الجغرافي. فردهم أهلها المسلحون الذين كانوا يتوقعون مثل هذا الهجوم، فلم يؤخذوا بغتة. ومن ثم تحصنت دفاعات القرية.

نسف شارع بن يهودا ـ القدس

تم نسف شارع رئيسي آخر، واقع في المركز التجاري اليهودي في القدس. فقد دخله، في ٢٢ شباط (فبراير) ١٩٤٨ على الرغم من الحراسة المشددة، عرب يرتدون بزات البوليس الإنكليزي في ثلاث سيارات ملأى بالديناميت. اولها كانت سيارة بوليس مصفحة سرقت من قيادة الشرطة في يافا. وكان الانفجار من الشدة بحيث تهدمت معه أكثرية الأبنية في ذلك الشارع، ومن بينها فندق أتلانتيك وفندق أمدورسكي ومركز قيادة الهستدروت. وكان عدد القتلى حسب البيانات الحكومية ٤٩ والجرحى ١٣٢. غير أن أرقام الوكالة اليهودية كانت أكبر بما لا يقاس.

اتهم اليهود أفراد الشرطة البريطانية بأنهم ساهموا في العملية؛ ولذلك قتل الارهابيون اليهود عشوائياً عدة جنود بريطانيين؛ كما أن جنوداً بريطانيين، أطلقوا النار انتقاماً على جماعة في الحي اليهودي من القدس، فقتلوا وجرحوا أناساً عديدين. وبعد أسبوع، نسف اليهود سيارة القائد العام البريطاني، الجنرال ماكميلان، لكنه لم يكن فيها.



شارع بن يهودا يحترق

معركة وادي الجوز ــ القدس:

وادي الجوز هو حي عربي واقع في الشمال الشرقي من القدس على سفح جبل سكوبس الذي شيد على قمته مستشفى هاداسا والجامعة العبرية. لقد أراد اليهود احتلال حي وادي الجوز لأنه يشكل خطراً على المؤسستين المعزولتين. وفي السابع والعشرين من شباط (فبراير)، هاجم ١٥٠ إرهابياً يهوديا الحي في معركة ضارية انتهت بهزيمة المهاجمين بعد أن تكبدوا خسائر جسيمة.

جيش الانقاذ يقوّي الدفاع عن القدس

سببت هجمات اليهود على مختلف أحياء القدس العربية مثل القطمون، وباب العمود، وباب الخليل ووادي الجوز والشيخ جرّاح، وحي الشماعة، الخ، الخ... وعلى القرى العربية المجاورة مثل لفتا، وبيت صفافا، وصور باهر، وعين كارم، وسيريس، الخ... كثيراً من القلق للشعب في القدس وجوارها. ومع أن اللجنة العسكرية في دمشق كانت قد عرفت بهذا القلق، فإنها لم تحرك ساكناً، ولم تقم بأي عمل إلاّ في الخامس والعشرين من شباط (فبراير) ١٩٤٨، حين أمرت اللواء فوزي القاوقجي الذي أصبح قائداً عاماً لجيش الإنقاذ، بإرسال قوة إلى القدس.



فاضل العبدالله الرشيد

عندها بعث على جناح السرعة الكتيبة التي كان يقودها النقيب فاضل العبد الله الرشيد (العراق) الى القدس. وبعد أن قضى بعض الوقت في بيت لحم وبيت جالا، أخلى مدرسة الروضة، وهي بناء قديم يطل على ساحة الحرم الشريف، وجعلها مقر قيادته. ولقد جاء وصوله في الوقت الملائم فلعب دوراً هاماً في معركة القدس، وكانت في أوجها.

عصابة الأرغون الإرهابية تنسف نادي الضباط البريطانيين في القدس

في أول آذار (مارس) ١٩٤٨، نسف إرهابيو الأرغون نادي الضباط البريطانيين في القدس. فقتلوا اثني عشر ضابطاً تحت الأنقاض. وأعلنت الأرغون مباشرة وبكل تبجح، مسؤوليتها عن الحادث وأنها انتقام لحكم الإعدام الذي أصدرته محكمة عسكرية بريطانية ونفذ في ثلاثة من أعضائها.



نادي الضباط الانكليز في القدس، نسفه اليهود

إعلان القدس مدينة مفتوحة

في الثاني من آذار (مارس) ١٩٤٨ صرح السيد جاك رينيي، رئيس الصليب الأحمر الدولي في القدس، قائلاً أنه ينبغي أن تجنّب القدس كوارث الحرب بأن تعلن مدينة مفتوحة. وقال أنه يجب أن يرفع علم الصليب الأحمر على أبنية معينة في مختلف أنحاء القدس، وتطبق عليها مبادىء مؤتمر جنيف لسنة ١٩٢٩.

وافق العرب جميعاً على نداء المسيو رينيي، وقبلت به الهيئة العربية العليا، وكذلك اللجنة العسكرية في دمشق والقيادة المحلية، أي عبد القادر الحسيني وفاضل العبد الله. غير أن هذا الأمر لم يرق لليهود الذين كانوا يريدون احتلال المدينة القديمة. وأخذوا يثيرون الصعوبات لأنهم لم يستطيعوا مبدئياً رفض العرض. فطالبوا أن يكون الاتفاق مكتوباً وموقعاً من الملك عبد الله، وإلاّ فيكون الاتفاق لاغياً.

كانت نية الصهيونيين إعلان القدس عاصمة لدولتهم قبل الخامس عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨، يوم انتهاء الانتداب البريطاني. وكانوا يريدون استمرار القتال حتى يصبح الجزء العربي من القدس، بما فيه القدس القديمة، في أيديهم.

على كل حال وقع، بعد أيام قليلة، اتفاق من قبل الضباط المحليين لكلا الطرفين، يرفع بموجبه علم الصليب الأحمر على بعض الأبنية في مختلف أنحاء المدينة المقدسة، على أن تحترمه كل الأطراف. والذي وقع الاتفاق هو النقيب فاضل العبد الله عن جيش الإنقاذ. ورفع علم الصليب الأحمر على كثير من الأبنية منها: جمعية الشبان المسيحية، دار الحكومة، الكلية العربية، فندق الملك داوود؛ بناء دافيد في شارع الملك جورج، الخ... ولكن الاتفاق لم يدم للأسف، غير أيام قليلة، إذ احتل اليهود كل هذه الأبنية لما سنحت لهم الفرصة. وما كانوا يرتبطون بأي اتفاق أبداً عندما يكون خرقه في مصلحتهم وإذا ما وقعوا اتفاقاً في غير مصلحتهم، كان ذلك لكسب الوقت الذي يمكنهم من خرقه.

كل الكنائس المسيحية في فلسطين تندد بالتقسيم

للتدليل على رفض الكنائس المسيحية، تقسيم الأرض المقدسة في فلسطين، نورد «البيان» الذي نشره بطاركة ورؤساء الكنائس المسيحية في القدس في الثالث من آذار (مارس) ١٩٤٨. كانت المرة الأولى في تاريخ الكنيسة الطويل التي ينشر فيها بيانٌ مُوقع من جميع الطوائف المسيحية، دون استثناء ويحمل «اختامها» جميعاً. لقد أدان الرؤساء المسيحيون التقسيم ونادوا كل «الهيئات الدينية في العالم» للمساعدة على إلغائه. وقد نشر البيان بلغات ثلاث: العربية والإنكليزية والفرنسية.

جيش الانقاذ يحتل رأس العين

كان يجري ضخ الماء من رأس العين، الواقعة قرب يافا، الى القدس. وكانت



بيان
لجنة الاتحاد المسيحي في فلسطين
المرفوع
الى جميع المقامات الدينية والهيئات السياسية في العالم

وقد حضر الاجتماع ممثلون عن:

بطركية الروم الارثوذكس
بطركية الارمن الارثوذكس
بطركية الاقباط الارثوذكس
مطرانية السريان الارثوذكس
رئاسة الطائفة الانجيلية الاسقفية العربية
ممثل الكنائس الانجيلية العربية
بطركية اللاتين
الرئاسة العامة لحراسة الاراضي المقدسة
النيابة البطركية للروم الكاثوليك
النيابة البطركية للسريان الكاثوليك
النيابة البطركية للارمن الكاثوليك

القدس في ٥ اذار سنة ١٩٤٨

بيان لجنة الإتحاد المسيحي

الحكومة المنتدبة التي أنشأت الجهاز تشغل فيه العرب واليهود معاً. وفي الثامن من آذار (مارس) سنة ١٩٤٨ احتـل جيش الانقاذ رأس العـين دون أن يقطع المـاء عن الحي اليهودي.

نسف الوكالة اليهودية في شارع الملك جورج ـ في القدس

في الحادي عشر من آذار (مارس) ١٩٤٨، دخل أنطون داوود وهو عربي من بيت لحم يعمل سائقاً في القنصلية الأميركية، يقود سيارة ترفع العلم الأميركي، الى الوكالة اليهودية، وعليها حراسة مشددة، ثم نسفها. وتهدم جزء كبير من بنائها وتصدع الباقي واشتعلت النار في ملفاتها، وسجلاّتها مما حط من هيبتها. وحسب اذاعـة الوكـالة، كـان عدد القتـلى خمسة عشر وعدد الجرحى أربعين من بينهم أدوين صموئيل، ابن المندوب السـامي الأول على فلسطين.

كانت القدس وجوارها جحيما في آذار (مارس) ١٩٤٨

كان العيش في القدس مريعاً. كان العرب واليهود يتبادلون النار من كل ما في حوزتهم من أسلحة الخراب. القنص واطلاق النار والنسـف مـا زالا برنامجاً يومياً. كان السير في الشوارع خطراً، والبقاء في البيت لم يكن فيه كل السلامة. وقد أصبحنا شعباً بلا خوف، وخوفنا الوحيد هو أن تسقط القدس في أيدي الصهيونيين.



الوكالة اليهودية في القدس نسفها العرب.

شعب فلسطين العربي يهبُّ لشراء الأسلحة دفاعاً عن النفس

دفعت الأحداث المرعبة التي تلت تبني الأمم المتحدة لقرار التقسيم في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧، الشعب العربي الفلسطيني إلى شراء الأسلحة كي يدافع عن نفسه ضد هجمات اليهود. واندفع الشعب بشبابه وشيوخه، في المدن وفي القرى بحماس منقطع النظير إلى شراء الأسلحة، غير أن الأسلحة النارية كانت مفقودة للأسف الشديد. وبما أن امتلاك الأسلحة النارية كان ممنوعاً على العرب، لم يكن في فلسطين تجار لبيع السلاح، فلجأ الشعب العربي الفلسطيني إلى البلدان العربية المجاورة. ولقد رأيت مئات الناس من مختلف الفئات ينامون في باحة الهيئة العربية العليا وفي الأمكنة الأخرى في القاهرة، ينتظرون الحصول على أي نوع من السلاح الذي كانت تجيء أغلبيته من البقايا المتروكة في الصحراء الليبية، أيام الحرب العالمية الثانية. وكانت تدفع أسعار خيالية لقاء أسلحة فاسدة وذخائر غير مناسبة لها. (بلغ ثمن البندقية ١٢٠ ليرة استرلينية) ومع ذلك كانوا يبيعون أساور الزوجة أو أقراط الإبنة لشرائها. كانوا يقومون بهذه التضحيات دفاعاً عن بيوتهم وحفاظاً على أبنائهم من مجرمي عصابتي أرغون تسفائي ليؤمّي. والشتيرن.

القنابل المحلية:

يقول المثل العربي: «الحاجة ام الاختراع». وقد تبينت صحته سنة ١٩٤٨، حين

لم نستطع جلب السلاح من الخارج، اضطررنا أن نصنع المتفجرات بانفسنا. قام بهذا العمل، فوزي القطب، شاب من القدس، له بعض الخبرة بالمتفجرات. وابتدأ وجماعة معه بانتاج كميات ضخمة من المتفجرات مما كان له أكبر الأثر على جهاد القائد عبد القادر الحسيني، والاحتفاظ بالقدس في أيد عربية.

كان من الضروري إخلاء الحي اليهودي في القدس القديمة من سكانه اليهود وأخذ فوزي وجماعته يفجرون بيوت الحي بقنابلهم كي يكرهوا سكانه اليهود على التسليم. وكانت تأتي هؤلاء اليهود مؤونتهم بواسطة قوافل دورية من الجيش البريطاني. وكان من سياستنا ألاّ نتعرض لهذه القوافل.



فوزي القطب

هاجم الارهابيون اليهود، انتقاماً، حي الشيخ جرّاح العربي، الذي يمكّنهم لو احتلوه من إغلاق الطريق الرئيسية التي تصل القدس بالشمال. والحقيقة ظلت القدس تحت النيران طيلة أواخر آذار (مارس) والجزء الأول من نيسان (ابريل). وكانت تقوم يومياً هجمات وهجمات مضادة على القطمون، وميكور حاييم، وكريات صموئيل والشيخ جرّاح، ينجم عنها خسائر كبيرة من الطرفين.

إنذار اللواء اسماعيل صفوت

في الثالث والعشرين من آذار (مارس)، قدم اللواء اسماعيل صفوت، القائد الأعلى السابق، ورئيس اللجنة العسكرية، تقريراً سرّياً، إلى لجنة فلسطين التي تكونت حديثاً، فلم يكن إلاّ تكراراً لما قدّمه من قبل إلى اللجنة السياسية في جامعة الدول العربية ويتعلق

بقوة الصهيونيين العسكرية في فلسطين، مؤكداً أن قوة العرب فيها لا تقاس، بقوة اليهود، وهذا ما يجعل اشتراك الجيوش العربية بعد ١٥ أيار (مايو) اضطرارياً.

معركة شعفاط

في الرابع والعشرين من آذار (مارس) ١٩٤٨، وقعت معركة كبرى قرب قرية شعفاط القائمة على بعد كيلومترين شمالي القدس، فقد هاجم «الجهاد المقدس» قافلة يهودية كبرى تحمل الذخائر والغذاء إلى مستعمرة النبي يعقوب، الواقعة في منتصف الطريق بين القدس ورام الله. كان دفاع هذه المستعمرة قوياً، وما تفتأ تزعج حركة المرور بين القدس وشمالي فلسطين. وحين وجد «الجهاد المقدس» أنه غير قادر على احتلالها، قرر أن يصادر سلاحها ومؤونتها الغذائية. فهاجم القافلة حين مرّت فبعثرها وقتل منها ١٤ وجرح ١٠. وقبل أن تنتهي المعركة، جاء أحد المناضلين فأخبرنا، أنه حين بلغت المعركة أوجها، ظهر فجأة، لحسن حظ القافلة، الجنرال ماكميلان القائد العام للجيش البريطاني ومعه سرّية من الجيش البريطاني، والجنرال غلوب باشا ومعه سرية من الجيش العربي، وهما في طريقهما إلى القدس. فتوقف القتال تلقائياً ونجت القافلة من الإبادة.

معركة كفار أتسيون الثالثة في ٢٧ آذار (مارس) سنة ١٩٤٨

كانت تلك من أكبر المعارك بين العرب واليهود، هاجم فيها العرب قافلة كبرى على طريق مستعمرة كفار أتسيون تحمل لها الغذاء والذخائر. كان عدد أفرادها مائتين من الهاغاناه يركبون في ٥٤ سيارة، تحرسهم أربع سيارات مصفحة. تُركت القافلة تمضي في سبيلها إلى المستعمرة، ثم أقيمت الحواجز على طريق عودتها قرب برك سليمان، وهناك جرى الهجوم. استمرت المعركة ٣٦ ساعة ولم تنته إلاّ بالتسليم بواسطة حكومة الانتداب، والجيش البريطاني والهيئة العربية العليا. كانت الغنيمة كبيرة: ٣ عربات مصفحة، ٨ باصات، ٣٠ شاحنة، ٣٠ مسدس ستين، ٤٠ مسدس برن ومائة بندقية، الخ... وقد قتل ١٥ يهودياً وجرح ٥٠، واستسلم ١٥٩ من المسلّحين إلى حكومة الانتداب. أما عدد قتلانا فكان ١٢ والجرحى ٣.

عدد القتلى والجرحى حتى أول نيسان (ابريل) ١٩٤٨

أذاعت حكومة الانتداب على فلسطين في أول نيسان (ابريل) ١٩٤٨، قائمة القتلى والجرحى فكانت كما يلي: قتلى العرب ١٧٠٠، وقتلى اليهود ٩٣٥، والجرحى من كلتا الجهتين ٣٥٥٢، والخسائر البريطانية ٤٣٠ بين قتيل وجريح.

الفصل الثاني والأربعون

الحرب الأهلية في فلسطين تزعج مجلس الأمن
حكومة الولايات المتحدة تغير رأيها في مشروع التقسيم
المذبحة الوحشية في دير ياسين
موقعة القسطل واستشهاد عبدالقادر الحسيني
سقوط طبريا وحيفا في يد اليهود

في أواخر شباط (فبراير) ١٩٤٨، وضح لمجلس الأمن أن مشروع التقسيم الذي أقر في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧، أتى بالحرب إلى فلسطين وأن تنفيذه كما نص عليه القرار، مستحيل. ثم تبينّ لحكومة الولايات المتحدة أيضاً، أن القرار الذي تبنته الجمعية العمومية لم يكن بالذي يقيم السلام في الأرض المقدسة. فقد فشلت كل الخطوات التي اتخذت لتنفيذه.

لجنة فلسطين الخماسية، تقدم تقريرها لمجلس الأمن

يجب أن نذكر، أن الجمعية العمومية حين تبنت قرار التقسيم، نصّت على أن تقوم في فلسطين لجنة من خمسة أعضاء، يذهبون إلى فلسطين مباشرة للتعاون مع السلطة المنتدبة، فتعمل بالنيابة عن مجلس الأمن، وتتحمل مسؤولية الانتداب بالتدريج، فيكون دورها بداية لتنفيذ التقسيم، غير أن تلك اللجنة لم تستطع القيام بمهمتها لسببين:

١ ــ رفضت حكومة الانتداب التعاون معها وتقديم التسهيلات لها.

٢ ــ أن الحرب الأهلية في فلسطين جعلت عملها مستحيلاً، حتى ولو قدمت الحكومة لها التسهيلات، وعليه، لم يكن بوسعها غير إرسال التقارير إلى مجلس الأمن حول الأحداث المحزنة الدائرة في البلاد. فرفعت في السادس عشر من شباط (فبراير) ١٩٤٨ تقريراً إلى مجلس الأمن، تقول فيه ان عدد الخسائر حتى ذلك التاريخ كان ٨٦٩ قتيلاً و ٢٠٠٠ جريح.

كما قدمت أيضاً تقريراً خاصّاً إلى مجلس الأمن أكّدت فيه أنه لا يمكن تنفيذ قرار التقسيم إلا إذا وُجدت قوة من الأمم المتحدة لتنفيذه. ويقول التقرير أنه إذا انسحبت

القوات البريطانية، كما هو مفروض، ولم توجد تلك القوة، فستزداد الفوضى وإراقة الدماء في فلسطين.

ويضيف التقرير أن التقسيم إذا لم ينفذ كما نصّ عليه قراره، ساءت سمعة الأمم المتحدة. ويذهب التقرير إلى أن الهيئة العربية العليا تتحدى سلطة الأمم المتحدة وتفعل ما في وسعها لتعطيل القرار؛ فإذا نجحت، فتكون خلقت سابقة سيئة. غير أن مجلس الأمن والجمعية العمومية لم يوافقا على استعمال القوة لتنفيذ قرار التقسيم.

وحين فشلت اللجنة في الوصول إلى أية نتيجة من مجلس الأمن، أرسلت في الأسبوع الأول في أيار (مايو) أمينها العام، المستر رالف بنش (Ralph Bunch) وموظفيه إلى القدس في محاولة جديدة لتنفيذ التقسيم. وحين لم تتعاون معهم حكومة الانتداب، اضطروا للعودة إلى نيويورك.

مجلس الأمن يدرس تقرير لجنة فلسطين الخماسية

تبنى مجلس الأمن، بعد دراسة تقرير لجنة فلسطين الخماسية، القرار التالي في ٥ آذار (مارس) ١٩٤٨:

قرار الخامس من آذار (مارس) سنة ١٩٤٨

بناء على اقتراحات الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن حول الحالة في فلسطين فإن مجلس الأمن:

١ ــ بعد أن تلقى القرار رقم ١٨١ (الدورة الثانية) الصادر عن الجمعية العمومية في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧، وبعد أن تلقى التقرير الشهري الأول من لجنة فلسطين وتقريرها الخاص بمشكلة الأمن في فلسطين.

٢ ــ يقرر دعوة أعضاء المجلس الدائمين للتشاور وإعلام مجلس الأمن عن الوضع في فلسطين ولوضع التوصيات الخاصة بالتوجيه والتعليمات التي يمكن أن يعطيها المجلس للجنة فلسطين بغية تنفيذ قرار الجمعية العمومية وتقديم تقرير عن النتائج خلال عشرة أيام.

وهو يدعو كل الحكومات والشعوب لمنع أو تقليل الاضطرابات في فلسطين.

الاجتماع الثالث والعشرون بعد المئتين

في ٥ آذار (مارس) سنة ١٩٤٨

غير أن أعضاء مجلس الأمن الدائمين لم يناقشوا هذا القرار.

حكومة الولايات المتحدة تبدل رأيها في مشروع التقسيم

في التاسع عشر من آذار (مارس) سنة ١٩٤٨ ألقى المستر وارن أوستن، ممثل

الولايات المتحدة الدائم في الأمم المتحدة بياناً في مجلس الأمن أشار فيه إلى أن حكومة الولايات المتحدة قد بدّلت رأيها في مشروع التقسيم وأنها تفضّل دعم اتفاق الوصاية الذي توضع فيه فلسطين تحت انتداب الأمم المتحدة. وأيدت بيان الولايات المتحدة هذا، كل من فرنسا والصين وبقية أعضاء مجلس الأمن بمن فيهم المندوب البريطاني، المستر كريتش جونز. أما العضو الوحيد الذي عارضه فهو المستر أندريه غروميكو، مندوب الاتحاد السوفياتي.

أثار بيان المستر وارن أوستين الصهيونيين. فوجه الدكتور وايزمن حالاً نداءً إلى الرئيس ترومان وإلى مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة قال فيه إن قوّة العرب العسكرية هي وهم. وأنذر بالثأر اليهودي إذا ألغي قرار التقسيم.

وتبديل الولايات المتحدة رأيها يرجع إلى:

(أ) جدّية الاضطرابات في فلسطين.

(ب) الانذار الذي وجهه جيمس فورستول، وزير الدفاع للولايات المتحدة، خلال مناقشة التقسيم.

عقد مجلس الأمن اجتماعه الثاني في أول نيسان (أبريل) ١٩٤٨، فتبنى فيه قرارين (أ و ب):

قرار مجلس الأمن الأول (أ)

الدعوة إلى هدنة مباشرة بين القوات العربية واليهودية المسلحة.

إن مجلس الأمن:

وهو يمارس... يلاحظ ازدياد العنف والفوضى في فلسطين ويعتقد أن تحقيق هدنة فورية في فلسطين هو ضرورة ملحّة.

وهو يدعو الوكالة اليهودية في فلسطين والهيئة العربية العليا لإرسال ممثّلين عنهما إلى مجلس الأمن من أجل... الترتيب لهدنة بين الطائفتين العربية واليهودية في فلسطين؛ والتأكيد على المسؤولية الثقيلة التي تقع على الفريق الذي لا يحترم مثل هذه الهدنة، ويدعو الجماعات العربية واليهودية المسلحة في فلسطين للكف حالاً عن أعمال العنف.

الاجتماع السابع والسبعون بعد المائتين
أول نيسان (أبريل) ١٩٤٨

قرار مجلس الأمن الثاني في أول نيسان (أبريل) ١٩٤٨، (ب)

وهو يدعو الجمعية العمومية لعقد دورة استثنائية.

إن مجلس الأمن:

وقد تلقى...

وقد أخذ علماً...

وبناء على الدعوة التي وجهها في الخامس من آذار (مارس)...

وقد أخذ علماً...

يطلب إلى الأمين العام بموجب المادة ٢٠ من ميثاق الأمم المتحدة أن يدعو الجمعية العمومية إلى عقد دورة استثنائية للنظر في مسألة حكومة فلسطين المقبلة.

الاجتماع السابع والسبعون بعد المائتين
أول نيسان (أبريل) ١٩٤٨

هذا القرار الهام يدل على أن مجلس الأمن قرر، بالرغم من اعتراض اليهود، إلغاء قرار التقسيم وعقد جلسة استثنائية للنظر في قرار أكثر ملاءمة. وهذا بالضبط ما كان يقاتل من أجله شعب فلسطين العربي. فكان هذا نجاحاً عظيماً لحربهم التي كلفتهم غالياً.

فشل الدورة الاستثنائية للجمعية العمومية

اجتمعت الجمعية العمومية في دورتها الاستثنائية في السادس عشر من نيسان (أبريل) ١٩٤٨؛ غير أنها ردّت القضية بكاملها إلى اللجنة الأولى ومجلس الأمن. وتوقفت الأمور عند هذا الحدّ. ويبدو أن وايزمان تابع ضغطه على الرئيس ترومان، فاستخدم هذا نفوذه لتجميد القضية في مجلس الأمن، واستمر القتال.

شهر نيسان (أبريل) الفاجع، سنة ١٩٤٨
الهزائم العربية والانتصارات اليهودية

نذكر أن اللواء اسماعيل صفوت، رئيس اللجنة العسكرية قال في تقريره الذي رفعه إلى جامعة الدول العربية في كانون الثاني (يناير) ١٩٤٨، وفي التقرير الذي رفعه في الثالث والعشرين من آذار (مارس) ١٩٤٨ إلى لجنة فلسطين العربية، أن الصهيونيين متفوقون عسكرياً في فلسطين، وأنه من الضروري إرسال قوات عربية لنجدة إخواننا العرب وانقاذ فلسطين من الاحتلال الصهيوني.

وبالرغم من أن بريطانيا العظمى لم تصوت مع التقسيم لكي تتظاهر بالحياد فقد كانت معه قلباً وقالباً. وعلى ذلك، ما كانت لتسمح للجيوش العربية بدخول فلسطين خلال الفترة الانتقالية لمساعدة عرب فلسطين؛ فمكنت بذلك اليهود من احتلال ما استطاعوا من الأراضي العربية قبل أن تتمكن الجيوش العربية من الدخول في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨.

لم يبدأ العرب بالتخوف من تفوق قوة الصهيونيين وإدراك خطرهم إلا في آخر آذار (مارس) من تلك السنة. والحق أن خسائر اليهود كانت كبيرة، لكن خسائر العرب كانت أكبر. كما كان بوسع اليهود الحصول على الأسلحة والذخائر، أما العرب فلم يستطيعوا ذلك.

العجز في السلاح يغدو معضلة صعبة

كان نقص التسلح عند العرب معضلة. كان السلاح يتناقص بسرعة وموارد الامداد هزيلة. كان الكل يبحث عن السلاح، ومستعداً لشرائه بأي ثمن. وكان هذا شأن «الجهاد المقدس» أيضاً. وما كان النقص في المال، فبيت المال كان مليئاً، وإنما كان النقص في السلاح.

فما كان لنا إلا اللجوء إلى مساعدة اللجنة العسكرية في دمشق. فذهب عبدالقادر الحسيني إليها ليرى اللجنة. وخشيت أن يكون المال عائقاً، فتوجهت شطر دمشق في اليوم التالي. كان الحاج أمين الحسيني هناك، فتحدث حالاً مع طه الهاشمي، مستشار اللجنة العسكرية ورجاه أن يعمل جهده لإنجاح مهمتنا. صرف عبدالقادر يومه التالي مع اللجنة وهو يحاول إقناعها بحاجة القدس الماسة إلى الأسلحة الدفاعية. وألح بالطلب. ولكن وللأسف! لقد رفضت اللجنة، مخيّبة أمل الجميع، ولم تعط «الجهاد المقدس» حتى ولا رشاشاً واحداً، متذرعة بأن ما لديها لا يسد حاجتها. هذا الموقف اللامسؤول والذي يكاد يكون موقف عداء، أغاظ عبد القادر وأهاجه، ولقد روى لي، أنه شاهد رشاشات برن، جديدة، وبأعداد ضخمة، مرمية على الأرض. والذي زاد في غضبه وهياجه، سماعه نبأ سقوط «القسطل»، الواقعة على بعد ستة أميال إلى الغرب من القدس، في أيدي اليهود وهو على قمة جبل يشرف على طريق القدس ــ تل أبيب. وأسرع عبدالقادر بالعودة إلى القدس وهو يشتم ويجدّف على اللجنة العسكرية والهيئة العربية العليا، عله يستعيد «القسطل». قال: «القسطل تعني القلعة، ولن نحتمل فقدان تلك القلعة».

معركة القسطل في السابع من نيسان (أبريل) ١٩٤٨

يجب أن نسجل هنا أن أعوان عبدالقادر، نصحوا قائدهم، في اليوم السابق للمعركة بتأجيل الهجوم، لأن اقتحام «القسطل» يتطلب تخطيطاً دقيقاً. ولكن الدرجة التي بلغها من الغضب والهياج، جعلته لا يأبه لأي نصح. وبدأ الهجوم في السابع من نيسان (أبريل)، يرافقه فيه كامل عريقات وابراهيم أبو دية وغيرهما. وفي اليوم التالي، تسربت الأنباء بأن عبد القادر ورجاله يواجهون خطر الابادة. وهذا ما دفع كل حامل سلاح في القرى المجاورة إلى الاندفاع نحو الساحة في الساعة الرابعة بعد الظهر، من يوم الثامن من نيسان (أبريل)؛ كان يوم نصر مبين للمناضلين. لكن، يا للأسف الشديد! كان عبدالقادر من المنتصرين،



عبدالقادر يخطط لمعركة القسطل

لكنه لم يكن من المحتفلين بالنصر، فقد وجد قتيلاً شهيداً في مدخل القرية، ومعه سلاحه وأوراقه كلها مما يدل على أن العدو الجاني الذي أطلق النار على القائد العام، لم يعرف أنه أصاب الهدف العظيم.

وتألم العرب في كل أقطارهم لاستشهاد عبدالقادر، أما في القدس فقد أصيب شعبها بالذهول. ويصعب علينا أن نصف الحب الذي كان يكنه أهلها ومن في الجوار لعبدالقادر الحسيني لوطنيته وشجاعته وإخلاصه. كان جريئاً لا يعرف الخوف حتى لقد غدا «الرعب» للارهابيين اليهود. وكان عند العرب. . الأمل. وكان وجوده يمنحنا الاحساس بالأمن والشعور بالثقة.

في اليوم التالي، كان تشييع بطل القسطل. وإن أنس لا أنسى آخر نظرة ألقيتها عليه ورأسه ملفوف بالضمادات وابتسامة حلوة قدسية على وجهه الذي قبلته بحنان والدموع في عينيّ. وحمل جسده آلاف المفجوعين الباكين، من بيته إلى الحرم الشريف، حيث لا يدفن في فنائه إلا النادرون. هناك يرقد عبدالقادر الحسيني قريباً من الله العلي الأعلى؛ ولو أنه مات، فما زال بيننا حياً، باقياً، رمزاً للوطنية والبطولة.

مأساة دير ياسين

ذبح ٢٥٠ رجلاً وامرأة وطفلاً بدم بارد

كانت مذبحة ديرياسين في التاسع من نيسان (أبريل) ١٩٤٨ همجية من

كل الفظائع التي ارتكبها الأرهابيون اليهود في القرى والمدن العربية في فلسطين. لقد فاقت ولا شك، جريمة سكرتارية الحكومة في فندق الملك داوود في القدس، حيث قتل ١٠١ من موظفي الدولة من مختلف الأديان بمن فيهـم اليهـود، تحت الأنقاض؛ كما فاقت جريمة فندق سميراميس في القطمون، حيث لاقى ٢٢ مدنياً المصير نفسه؛ وتفجير أسواق حيفا ويافا والقدس، حيث قتل في سوق كل منها ما يزيد على مئة من المدنيين، والهجوم على قريتي نصر الدين وبيت الخوري، حيث قتلت أكثرية السكان بدم بارد، وإلخ، إلخ..

لم يكن الدافع لهجوم الارغون على دير ياسين والقرى العربية الأخرى عقاباً للعرب وانتقاماً منهم لهجمات مشابهة، وإنما لزرع الخوف في قلوبهم كي يفروا من مدنهم، وقراهم بحثاً عن سلامتهم في البلدان العربية المجاورة. كانت «مجازر محسوبة» (Calculated Massacres) كانوا يريدون أن يفرّ العرب من منطقة الدولة اليهودية لأنهم مساوون تقريباً فيها لعدد اليهود، وبذلك يخففون عنهم عبء الأقلية العربية الكبيرة، ويمكنون المهاجرين اليهود الجدد من بيوت العرب ومزارعهم.



كومة من جثث المذبوحين في دير ياسين

تلك السياسة ـ «فرار العرب رعباً» بواسطة «المجازر المحسوبة»، كانت شعار الوكالة اليهودية الذي خططت له قبل مذبحة دير ياسين بزمن طويل، على أن يبدأ التنفيذ في شهر نيسان (أبريل) ١٩٤٨، أي قبل انتهاء الانتداب بشهر واحد. ولقد فضح الجنرال غلوب باشا في كتابه «جندي مع العرب» هذه السياسة المجرمة فقال:

«في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٧، ذهب أحد كبار الضباط البريطانيين في الجيش العربي لزيارة محافظ منطقة بريطاني في فلسطين. وقد حضر معهما موظف يهودي يعمل بامرة محافظ المنطقة. كانوا يتناولون كأساً في المساء. وكانت الأمم المتحدة قد أذاعت قبل قليل مشروع التقسيم. فسأل الضابط البريطاني (الذي من الجيش العربي) الموظف اليهودي عما إذا كانت الدولة اليهودية الجديدة سوف تواجه اضطرابات داخلية، مادام السكان العرب في الدولة اليهودية يساوون اليهود عدداً. فأجاب الموظف اليهودي: 'آه، لا، هذا تمّ تدبيره، قليل من «المجازر المحسوبة» تخلصنا منهم'. والمتحدث، لم يكن إرهابياً، كان موظفاً رسمياً معتدلاً يعد محترماً ويعمل في حكومة الانتداب في فلسطين».

كانت مذابح «دير ياسين» و«سعد الدين» و«بيت الخوري» والقرى الأخرى «مذابح محسوبة» بلغت من الوحشية حداً أن جعلت العرب يفرون من بيوتهم ووطنهم ويخففون على الدولة اليهودية وطأة الأقلية العربية الكبرى ويتركون مكانهم للمهاجرين اليهود الجدد!!

لقد وصف الصحافي اليهودي، رئيس تحرير «الجوويش اوبزرفر» اللندنية، جون كمشي، جيداً، مذبحة دير ياسين في كتابه «سقوط الأعمدة السبعة» فقال: «يوم الجمعة، التاسع من نيسان (أبريل) ١٩٤٨، هاجمت القريـة قـوة من الكوماندوس المشكلة من أفراد عصابتي الارغون والشتيرن، دون أي سبب واضح لفعلتهم. وما حدث بعد ذلك كان موضوع روايات متناقضة وشروح واعتذارات من الأرهابيين، لكن، شيئاً واحداً لم يقولوا سببه وهو قتل حوالي ٢٥٠ عربياً مسكيناً بينهم أكثر من مئـة إمرأة وطفـل أبرياء. ولم يكن أقل جرماً، عرض في شوارع القدس اليهودية قامت به الأرغون لعدد من الأسرى العرب المساكين عراة، للتشهير بهم واحتقارهم.

«كانت مذبحة دير ياسين لطخة سوداء في سجل القتال اليهودي. وهو هام تاريخياً، لأنه كان بداية أسطورة ثانية ركز عليها الأرهابيون في خدمة قضيتهم وتبرير جرائمهم. وبعد أن كانوا يفخرون بأن قرار بريطانيا بترك فلسطين ناجم عن هجمات الارهابيين على القوات البريطانية، أخذوا يعللون مذبحة دير ياسين بأنها أدت الفائدة ذاتها بفرار من بقي من العرب، رعباً من الدولة اليهودية، مما قلل من الخسائر اليهودية» انتهى البيان

وأبشع فصل في مأساة دير ياسين، أن المجرمين لم يكتفوا بقتل النسـاء والأطفال الأبرياء، بل شوهوا ومثلوا بضحاياهم. فبقروا بطون الحبالى ليعرفوا إن كن يحملن صبياً أم بنتاً وتشويهات أخرى لا محل لذكرها هنا. كان المشهد مرعباً حقاً حتى إنهم (الأرهابيون) منعوا الجيش البريطاني أو الصليب الأحمر من زيارة المكان قبل مرور أربع وعشرين ساعة. وحين سمح للمسيو جاك رينيي، ممثل الصليب الأحمر بزيارة القرية، أصيب بالذهول من أن يكون الفعلة بشراً ينتسبون إلى الجنس البشري. وأغرب من هذا كله أن مناحيم بيغن،

قائد مذبحة دير ياسين وصانع الجريمة، وزعيم الارغون، ما زال عضواً في الكنيست ورئيساً لوزراء إسرائيل اليوم وصاحب الحظوة في الولايات المتحدة.

الوكالة اليهودية تحقق هدفها

مذبحة دير ياسين البشعة تخيف شعب فلسطين العربي

أذاع خبر مذبحة دير ياسين المرعبة على الاذاعة بصورة مؤثرة، الدكتور حسين خالدي، أمين عام الهيئة العربية العليا، وانتقد على ذلك فيما بعد. فقد أرعب النبأ جميع العرب الذين كانوا في خطر المواجهة مع اليهود ودفعهم إلى الفرار من بيوتهم، مع أن ذلك لم يكن ما قصده الدكتور خالدي، فقد كان قصده، بروح وطنية، تحريك قلوب الحكام العرب علّهم ينتفضون لمساعدة شعب فلسطين العربي الذي أراعه.

لقد كان موت عبد القادر الحسيني في الثامن من نيسان (أبريل) ومأساة دير ياسين في التاسع منه، صدمة لشعب فلسطين العربي وخاصة لنا، نحن أهل القدس. كانت صدمة تصعب الاستفاقة منها. وزاد في الأمر سوءاً نبأ سقوط القسطل للمرة الثانية بين أيدي الارهابيين اليهود بسبب الجهل، حيث إن الحرس الشجاع الذي بقي في القسطل بعد النصر نزل، عن جهل، إلى القدس لتشييع جنازة قائده عبد القادر الحسيني، والعدد القليل الذي بقي فيها لم يتمكن من الدفاع عنها ضد هجمات اليهود الجديدة القوية.

والبادرة الوحيدة التي رفعت من معنويات أهل القدس، كانت الوضع السيء الذي كان يعانيه يهود القدس. فقد ازدادت حالتهم سوءاً حين نجح «الجهاد المقدس» في إغلاق طريق القدس- تل أبيب في باب الواد، وهو واد ضيق، على بعد أربعين كلم من القدس، فتم بذلك منع الغذاء والسلاح من الوصول من تل-أبيب إلى القدس؛ كما أن الماء قطع من رأس العين، وبات يهود القدس في وضع جد خطر. ولم يكن اليهود في الحي اليهودي داخل السور بحال أفضل. فقد كانوا محاصرين، ترعبهم قنابل فوزي القطب ورجاله كل يوم.

خالد الحسيني يحل محل عبد القادر

دارت مفاوضات طويلة بين القدس والهيئة العربية العليا في دمشق من أجل تعيين خلف لعبد القادر. وتم الاتفاق على تعيين خالد الحسيني، الذي قيل انه لم يكن أهلاً ليحل محل القائد الفقيد في قيادة «الجهاد المقدس».

مذبحتا قريتي بيت الخوري ونصر الدين

لم تكن مجزرة دير ياسين وحدها التي أرهبت الشعب العربي الفلسطيني ودفعته إلى الفرار من وطنه. فقد تلتها مذبحتان أخريان «محسوبتان» في العاشر من نيسان (أبريل) في شمال فلسطين؛ إذ وقع اختيار الارهابيين اليهود على قريتي بيت الخوري ونصر الدين،

الواقعتين قرب طبريا لتؤديا الضريبة ذاتها. فكان عدد الضحايا أقل مما كان في دير ياسين، فقد ذبح ٦٠٪ من أهل القريتين فقط.

سقوط طبريا

تقع طبريا، على بحيرة طبريا، أكثرية سكانها من اليهود. استمر القتال فيها خلال كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٤٧ وكانون الثاني (يناير) وشباط (فبراير) ١٩٤٨، أعلنت بعدها هدنة بين الطرفين في ١٤ آذار (مارس). غير أن الهدنة في العرف اليهودي، هي حدث مؤقت، لم يدم هذه المرة سوى شهر واحد. ففي السادس عشر من نيسان (أبريل) بدأت الأرغون هجومها على طبريا ولكن الجيش البريطاني تدخل هذه المرة وأعلن هدنة أخرى لثلاثة أيام. وفي اليوم الثالث، أقنع الضابط البريطـاني المدافعين العرب بترك طبريا، واستعملت وسائط نقل الجيش البـريطاني لإخـلاء السكان العـرب جميعاً، لأنـه لم يكن باستطاعته ضمان سلامتهم، ويا للكارثة!!



مدينة طبريا التاريخية، وبحيرتها المقدسة

ترى، هل كان في نية الحكومة البريطانية، قبل إنهاء انتدابها على فلسطين إجلاء سكان فلسطين العرب الأصليين عن بيوتهم ومدنهم؟ هل وعدت بريطانيا العظمى اليهود سراً بدولة يهودية في فلسطين خالية من سكانها العرب؟ إن وعد بلفور على ظلمه، نصّ على عكس ذلك: «لا يعمل شيء يضر بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية الموجودة في فلسطين!».

سقوط حيفا

كانت الفكرة السائدة سنة ١٩٤٧، أن حيفا التي صارت أهم مرفأ في فلسطين وربما في الشرق الأوسط، ستصبح مرفأ بريطانيا لمواصلات الأمبراطورية البريطانية. غير أن الذي حدث هو العكس، لأن الجيش البريطاني الذي كان مقرراً له أن يغادر حيفا في آب (أغسطس) ١٩٤٨، أمر فيما بعد أن يرحل في الثالث والعشرين من نيسان (أبريل) من تلك السنة، أي قبل ثلاثة أسابيع من انتهاء الانتداب وأربعة أشهر قبل الوقت المقرر. وما ذلك إلاّ من أجل أن يتأكد البريطانيون أن حيفا، وهي في الدولة اليهودية، قد أصبحت في أيد يهودية قبل مغادرتهم فلسطين في الخامس عشر من أيار (مايو) سنة ١٩٤٨. لقد كانت خيانة البريطانيين للعرب أكثر وضوحاً في حيفا منها في أي مكان آخر.



مدينة حيفا وخليجها الجميل

بدأ القتال في حيفا، بعد تبني قرار التقسيم من قبل الجمعية العمومية مباشرة، فكان شديداً. كان الهجوم والهجوم المضاد مستمرين بين الفئتين؛ فلا يستطيع عربي أن يقترب من الحي اليهودي والعكس صحيح. وكانت الأضرار وعدد الخسائر من الجهتين مريعة. كانت براميل الديناميت تتكرر دحرجتها من حي هدارا- كرمل، فتسبب الخراب في «وادي النسناس» وفي «العباسية»، وهما حيان عربيان، ولقد تهدمت بهذه الطريقة أعداد من البيوت وقتل مئات من المدنيين. أما القنبلة التي انفجرت في سوق الخضار فقد قتلت أكثر من ١٣٠ عربياً، فانتقم لهم العرب بهجوم قاموا به على مصفاة حيفا؛ حيث قتلوا أكثر المستخدمين والعمال اليهود.

لم ينحصر القتال في حيفا، بل امتد إلى عكا وكل القرى المجاورة. وحصلت معركة على الطريق بين حيفا وعكا عندما تصدّى إرهابيون يهود لقافلة عربية من عدة عربات ملأى بالذخائر، في طريقها إلى حيفا؛ فلم يصل منها إلى هدفها غير عربتين بينما دمّر الباقي. فقد

حطم العرب ذخيرتهم بأنفسهم كي لا تسقط بين أيدي اليهود. وكان عدد من استشهد في هذه المعركة ١٥ عربياً بعد أن قاتلوا قتالاً مجيداً.

كان لضياع مثل هذه الكمية من الذخيرة، وفقدان الشجعان الذين تدربوا على استعمالها، أثر سيء على وضع العرب في المدينة. وصار الوضع أسوأ، حين صادر الجيش البريطاني كعادته، إمدادات جديدة جاءت للمناضلين في حيفا. ونظراً لأن بريطانيا العظمى، كما ذكرت آنفاً، كانت تريد أن ترى حيفا بأيدي اليهود قبل الخامس عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨، وهو آخر وقت لانتدابها، اتفق الجنرال ستوكويل البريطاني، قائد القطاع الشمالي، سراً مع الارهابيين اليهود لتسليمهم مواقع الجيش البريطاني المسيطرة الحصينة، يوم انسحابهم، كما أفشى لهم سرّاً آخر، إذ أنبأهم، دون أن ينبىء العرب، بأن انسحاب الجيش البريطاني في حيفا سوف يحدث في وقت مبكر، أي يوم الثالث والعشرين من نيسان (أبريل) وليس في أول آب (أغسطس) كما أعلن من قبل. ومن أجل أن يزيد في مساعدتهم، قسم الجيش الانكليزي حيفا في اليوم الحادي والعشرين من نيسان (أبريل) إلى قسمين وصادر كل الامدادات العربية وهي في طريقها إلى المدينة. فاستغلت الهاغاناه الوضع، بالتواطؤ مع الجنرال ستوكويل، وقامت في اليوم نفسه بهجوم مفاجىء على حيفا، فصارت المدينة، في آخر اليوم التالي، أي ٢٢ نيسان (أبريل)، في أيديهم.


الجنرال ستوكويل الذي خان العرب في حيفا

كتب الدكتور وليد الخالدي، الأستاذ في الجامعة الأميركية في بيروت، مقالاً عنوانه: «سقوط حيفا» في عدد كانون الثاني (يناير) من مجلة «ميدل أيست» الصادرة في بيروت (لبنان)، وصف فيه احتلال الارهابيين اليهود للمدينة، فقال: «بدأ هجوم الصهيونيين الشامل على حيفا في صباح الأربعاء الباكر، الحادي والعشرين من نيسان (أبريل) سنة ١٩٤٨، وانتهى في اليوم التالي بطرد حوالي ٥٠٠٠٠ من السكان العرب وبسقوط المدينة في المهاجمين.

«لم يكن الهجوم حدثاً فريداً، ولا ردة فعل صهيونية ضد مبادرة عربية محلية. كانت مرحلة هامة من الهجوم الصهيوني العام الجديد الذي يعبد الطريق لإعلان دولة إسرائيل.

«وعلى الرغم من أن كلا العرب واليهود أنبىء رسمياً في صباح يوم الأربعاء الواقع في الحادي والعشرين من نيسان (أبريل) أن انسحاب الجيش البريطاني من حيفا سيتم

خلال ساعة، فإن الدلائل كلها تشير إلى أن الصهيونيين علموا من البريطانيين بأمر هذا الانسحاب قبل العرب. وعليه، فقد جمعوا من كل البلاد قوة ضاربة تمركزت فوق الأحياء العربية، وفي اللحظة التي انسحب فيها البريطانيون، احتلوا المواقع التي كان البريطانيون يسيطرون عليها، وقاموا من هناك بعدد من الهجمات مبنية بشكل واضح على افتراض انسحاب البريطانيين منها».

جون كمشي يثبت الخيانة

أما عن خيانة قائد القطاع الشمالي، الجنرال ستوكويل، فليس فيها أدنى شك، مع اننا لا نملك دليلاً مكتوباً يشير إلى أن خيانته كانت بمبادرة منه، أو بأمر من لندن. غير أن هذه الخيانة الانكليزية تثبتها «الجوويش أوبزرفر» في عددها الصادر في ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٣، حيث يقول، رئيس تحريرها، جون كمشي اليهودي:

«لقد جاهر العرب بأن البريطانيين أنبأوا اليهود، دون العرب، أنهم ينوون إخلاء الجزء الأكبر من حيفا. وظننت دائماً أن هذه التهمة كانت عذراً أو دعاية عربية. لكنني أعرف الآن أن هذا القول صحيح: إن أحداً لم ينبئهم».

وهكذا وضعت الأحياء العربية، بالتواطؤ مع الجيش البريطاني، تحت نيران القوات الصهيونية. ولقد ذكر الأستاذ خالدي، أن فريد السعد، رئيس اللجنة القومية العربية «بعث بنداء للبريطانيين ليضعوا حداً لذبح العرب الأبرياء، من نساء وأطفال، وخاصة لأن ذلك من واجبهم؛ غير أنهم لم يأبهوا لندائه».

ذهبت النداءات هدراً بسبب الاتفاقات المعقودة بين البريطانيين والصهيونيين. وهذا ماثبت في كتاب «سقوط الأعمدة السبعة» لجون كمشي حيث: يقول، عن زيارته في ذلك اليوم لأحد أسواق حيفا العربية:

«كان ذاك هو اليوم الأول والمرّة الوحيدة، خلال أحداث فلسطين، التي عمل فيها المسلحون اليهود والجنود البريطانيون معاً بانسجام كامل. وقد فرّ العرب في رعب عظيم؛ وحين مررت بالسوق فيها بعد تصورت الفوضى التي غادر العرب فيها بيوتهم، دون أن يأبهوا



المجاهد أنيس نصر

في غـالب الأحيان لالتقـاط أوان فضيـة وثمينة، كان يمكن أن يحملوها بأيديهم».

وما هذا «الانسجام الكامل بين المسلحين اليهود والجنود البريطانيين»، غير تواطؤ خائن بين البريطانيين والصهيونيين ضد سكان فلسطين العرب الأصليين.

اللجنة القومية العربية في حيفا تطلب المساعدة البريطانية

كان هجوم الصهيونيين على الأحياء العربية في حيفا مفاجئاً ومتوحشاً، استخدمت فيه مدافع الهاون، ونجم عنه تهديم بيوت كثيرة وعدد كبير من الأصابات. وأخذت الأحياء العربية ــ بالرغم من المقاومة العنيدة ــ تسقط الواحد بعد الآخر بين أيدي اليهود. وانتشر الرعب بين العرب، ففرت الجماهير جماعات إلى المرفأ تبحث عن السلامة ــ منظر محزن جداً. وأُخذت اللجنة القومية على حين غرة، بهذه الهجمات، فجربت مع الجيش البريطاني أن يوقفها، لكن عبثاً. وبعد الضغط الشديد، وافق القائد العام على عقد اجتماع في قيادته في الساعة العاشرة والنصف من صباح ٢١ نيسان (أبريل). وحضر الاجتماع عن الجانب البريطاني، الجنرال ستوكويل، القائد العام، والبريغادير جونسون، والمستر لوو (Mr. Law) حاكم المنطقة، والقنصل البريطاني. وحضر عن الجهة العربية: فـريد السعـد، فيكتور خياط، جورج معمر، أنيس نصر، والياس كوسا. وحين طلب الوفد العربي من الجيش البريطاني التدخل، أجاب الجنرال ستوكويل أنه لا يريد تعـريض حياة أي من جنـوده للخطر. وقال ان الجيش البريطاني لن يقف خارج المعركة فحسب، وإنما لن يسمح لأية مساعدة عربية بالمجيء من خارج المدينة. وأنه مستعد لأن يكون وسيطاً بين العرب واليهود شريطة أن يوافق العرب على شروط الهدنة التي يقدّمها اليهود. وحين طلب العرب شروط الهدنة، خرج القائد العام إلى غرفة مجاورة واجتمع فيها بزعماء الارهابيين الصهيونيين. وعاد بعد عشر دقائق، ومعه الشروط التالية:

١ ــ تسليم الأسلحة كلها إلى الجيش البريطاني تحت رقابة الهاغاناه.
٢ ــ التنفيذ خلال ثلاث ساعات.
٣ ــ أن تغادر البلد كل الميليشيات الغريبة خلال ٢٤ ساعة.
٤ ــ تسليم كل الميليشيات النازية في صفوف العرب.
٥ ــ ترفع كل حواجز الطرق المؤدية إلى الأحياء العربية إن وجدت.
٦ ــ يفرض منع التجول على الأحياء العربية ويجري تفتيشها بيتاً بيتاً من قبل الهاغاناه.

نقل الوفد شروط التسليم هذه إلى أعضاء اللجنة القومية الذين كانوا مجتمعين في بيت فيكتور خياط. كانت الشروط من القسوة بحيث لم تتمكن اللجنة معها من اتخاذ قرار. لكنهم عزموا على حضور الاجتماع المقترح عقده في دار البلدية، في اليوم التالي.

عقد هذا الاجتماع في الساعة الثالثة والنصف من بعد ظهر الثاني والعشرين من نيسان (أبريل) في مكتب رئيس البلدية. وقد حضر الاجتماع شباتاي ليفي، رئيس البلدية، وجاكوب سولومون وليفشيتز. وهم الأعضاء اليهود في مجلس بلدية حيفا. كما حضره الجنرال ستوكويل، والبريغادير جونسون، والمستر لوو، حاكم المنطقة، والقنصل البريطاني العام. ووزعت شروط الهدنة نفسها مطبوعة على الآلة الكاتبة. وقد رفض زعماء الهاغاناه بوقاحة، أي تنازل مهما كان صغيراً. فطلب الوفد العربي مهلة للتشاور، فأنذرهم الجنرال ستوكويل بأنه لن يكون مسؤولاً عن مذبحة جماعية لعرب حيفا تقوم بها الهاغاناه، إذا لم يستجيبوا للشروط قبل الساعة السادسة والنصف من بعد الظهر.



المجاهد فريد السعد

رجع الوفد إلى بيت السيد فيكتور خياط، حيث كانت تنتظر بقية أعضاء اللجنة. وبعد مناقشة طويلة مؤلمة قررت اللجنة رفض الشروط لأنها استسلام كامل. لكن حيفا، في تلك الساعة، كانت كلها في أيدي اليهود وكانت عشرات الألوف من السكان في طريقها إلى مرفأ حيفا تبحث عن وسيلة تنقلها شمالاً إلى لبنان أو جنوباً إلى غزة أو إلى مصر. أما عن القلة التي بقيت من العرب في بيوتها وقد قدرت بخمسة آلاف من أصل ستين ألفاً، عاشت في الرعب والتهديد والاضطهاد. فقد سلبت بيوتهم ونهبت أمتعتهم من أشيائها الثمينة. ثم طلب إليهم ترك حيفا إنقاذاً لحياتهم؛ فقبل البعض بالنصيحة ورحلوا وهم يصيحون بأعلى أصواتهم «عاش الجنرال ستوكويل، عاش الجيش البريطاني، عاشت بريطانيا العظمى».

الفصل الثالث والأربعون

هدف الصهيونيين الوحيد ـ احتلال فلسطين
الارهابيون اليهود يهددون العرب
بالذبح إذا بقوا
سقوط مدينة يافا في يد اليهود

كان لنسف فندق سميراميس وعدة بيوت أخرى في حي القطمون تأثير، أشبه بالتهديد لحي الطالبية المجاور، وهو الحي الذي تعيش فيه، منذ ١٩٢٥، أكثر من ثمانين عائلة بسلام وانسجام؛ أما الآن فقد ظهر لهم أن الاضطراب قريب، وأن الرعب الذي زرعته عصابة الارغون زفاي ليومي في القطمون قد وصل إلى الطالبية. فقد مرّت السيارات اليهودية المصفحة في شوارعها وهي تذيع إنذاراً للسكان العرب بترك بيوتهم والرحيل عنها، وكررت ذلك مراراً.

ارتعب أهل الطالبية، وأنا منهم، فاجتمعوا لمناقشة الحالة. وقررنا ألّا نغادر بيوتنا، وحرنا في أمرنا ماذا نفعل، لأننا دون خبرة عسكرية. وعزمنا أخيراً على شراء أسلحة نارية للدفاع عن بيوتنا. واشترينا مائة وخمسين مسدساً سلمنا واحداً لكل رجل، فتى كان أم كهلاً، ولو أن أحدنا حتى ذلك الوقت لا يعرف شيئاً عن السلاح. وقد دفعت ٢٥ ل. فلسطينية ثمن مسدس لم أستعمله أبداً، وما زلت أحتفظ به ذكرى.

وحين تأكدنا من عقم الخطة، فتشنا عن المساعدة البريطانية فاستجابت السلطات البريطانية، لأنها شعرت ـ كما يبدو ـ أنها مسؤولة عن القانون والنظام، فأحاطت الطالبية بالأسلاك الشائكة، وحرس الشرطة الأبواب، ومنعت الدخول إلا بإذن مرور خاص، احتفظ بنسخة منه حتى الساعة. لكن في الثالث عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨، رفعت الأسلاك الشائكة وسحب الحرس البريطاني، وبات على أهل الطالبية أن يرحلوا إلى أحياء أسلم داخل سور القدس القديمة.

لقد أعدّ الصهيونيون هذا المخطط القاضي بإخلاء فلسطين من أهلها العرب منذ زمن طويل. كان الغرض من مذبحة دير ياسين طرد وفرار أكبر عدد ممكن من العرب من

بلادهم. كانت المذبحة موقتة ومرعبة حقاً مما جعل الانذار الذي أذيع في الطالبية قبل أسابيع، يدفع بالأهالي إلى الهرب، ناجين بأنفسهم، إلا قلة جازفت بالبقاء.



تركنا بيتنا في القدس خوفاً من الذبح

معركة مشمار هاعيمك في ٢٥ نيسان (أبريل) ١٩٤٨

كانت هذه المعركة، الأولى التي خاضها جيش الانقاذ ضد مستعمرة يهودية كبرى جيدة التحصين، وقد جاء توقيتها في الفترة التي تدنت فيها معنويات الفلسطينيين العرب إثر سقوط طبريا وحيفا، بين أيدي اليهود، لقد جعلت إذاعة خبر الهجوم في الصباح الباكر من ٢٥ نيسان (أبريل) قلبي وقلوب آلاف العرب الآخرين تقفز من أمكنتها، وقلنا جميعاً: «جاء جيش الخلاص ولسوف نستعيد طبريا وحيفا». وذهبت الاذاعة إلى أن العرب استخدموا المدافع الكبيرة لدكّ تحصينات العدو، وكانت هي المرّة الأولى التي نسمع فيها باستخدام المدافع في فلسطين.

كانت مشمار هاعيمك مستعمرة صهيونية كبرى، لها تحصينات مكينة. وكانت تشرف على مرج ابن عامر الكبير الذي يمتد من قرب جنين حتى حيفا تقريباً وهو الذي اشتراه اليهود في أوائل العشرينات من عائلة «سرسق» اللبنانية الغنية جداً. وقد كانت دفاعاتها على هذه المتانة لأنها بنيت من أجل الدفاع عن السهل والمستعمرات الصغرى القريبة منها.

بدأ الهجوم بعد يومين من سقوط حيفا يقوده العقيد، فوزي القاوقجي، القائد العام لجيش الانقاذ. وتساءلنا حول هذا الهجوم. لو أن القاوقجي كان ينوي تخفيف الضغط عن حيفا، لهاجم في وقت أبكر، ووجب أن ينتقي مستعمرة أقل تحصيناً يستطيع احتلالها في أربع وعشرين ساعة؟ وعلمنا فيما بعد أن الأمر لم يكن كذلك.


فوزي القاوقجي، القائد الأعلى لجيش الإنقاذ

وفيما كان القاوقجي يدكّ تحصينات المستعمرة بمدافعه فتتساقط، تدخل الجيش البريطاني، كالعادة، وطلب من فوزي هدنة ٢٤ ساعة كي يتمكن اليهود من إخلاء النساء والأطفال من المستعمرة. ثم جددت المهلة إلى ثمانية وأربعين ساعة، المدة الكافية لقدوم الامدادات من المستعمرات اليهودية المجاورة لإكراه القاوقجي على التراجع. كان لتراجع القاوقجي، ويا للأسف، أثرٌ على العرب أسوأ من أثر سقوط حيفا لأن الأمل به تراجع.

سقوط مدينة يافا

كانت مدينة يافا أهم مرفأ في فلسطين قبل بناء مرفأ حيفا في الثلاثينات، وكانت كلها عربية، وهي مجاورة تل أبيب اليهودية.

لقد كانت يافا من وجهة النظر العسكرية، في وضع خطر عام ١٩٤٧. فهي، عدا عن اتصالها بتل ـ أبيب، محاطة بمستعمرات يهودية قوية، مثل، نيتر، هاتيكفا، ريشون لتسيون، الخ... التي تكون حلقة حولها.

ذكرت في فصل سابق، أن سكان يافا، أقسموا في صبيحة ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٧، على معارضة تقسيم بلادهم بأي ثمن. لكن، لسوء الحظ، لم يكونوا مستعدين لهذه المعركة كاعدائهم الصهيونيين، الذين بدأوا بتحضير أنفسهم لها منذ صدور كتاب ماكدونالد الأبيض سنة ١٩٣٩، بينما بدأ العرب الاستعداد في وقت متأخر، حين غدت الاتصالات ضعيفة وشراء السلاح والذخيرة في غاية الصعوبة، ناهيك عن الثمن! غير أنهم لم ييأسوا وعمدوا إلى الاعداد للمعركة القادمة.

تأليف لجنة قومية

تألفت في يافا، كما في بقية البلدان الفلسطينية، لجنة قومية عربية، قوامها ١٩ عضواً من كل الأحزاب، وضمّت عدداً من الأعضاء عن قضاء يافا، مثل سلمة، العباسية، بيت دجن، وكفر عانا، الخ... وانتخب السيد محمد عبدالرحيم، رئيس فرع بيت المال العربي في يافا، رئيساً للجنة القومية أيضاً.

وأنشأت اللجنة القومية لجاناً فرعية لمختلف نشاطاتها: التموين، الدفاع، المقاطعة، الخ... وغدت لجنة بيت المال لفرع يافا، هي اللجنة المالية، وهي أول من بادر إلى النشاط بأن وضعت تحت تصرّفها مبلغ ١٦٠٠٠ ليرة فلسطينية كبداية.



القائد حسن سلامه، قائد منطقة يافا

أخذت لجنة الدفاع تجند المتطوعين الذين التحقوا ببعض معسكرات التدريب بقيادة حسن سلامة، قائد قطاع يافا، ولكنها وجدت أنها غير قادرة على تدريب وتجهيز أكثر من سرية، وأن خطتها ليست على مستوى المعركة. عندئذ رفعت تقريراً عن الوضع العسكري الضعيف في يافا، إلى اللجنة العسكرية في دمشق، فأجابت هذه بإرسال فصيل من ٨٠ رجلاً، يقودهم النقيب عبدالوهاب، الذي أزعجه الوضع بعد أن درسه. فبعث بتقرير إلى رؤسائه في دمشق، يطلب فيه دعماً أقوى. وحين فشل، رجع إلى دمشق فنجح في أن يجلب معه مزيداً من الرجال والذخيرة، ولو أنها أقل مما كان بحاجة إليه.

كانت المناوشات مستمرة بين العرب واليهود في منطقة يافا تل أبيب خلال أشهر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٧ وكانون الثاني (يناير) وشباط (فبراير) ١٩٤٨. وأول هجوم قام به الصهيونيون كان على سراي يافا المركزية. فقد دخل الارهابيون بثياب عربية إلى يافا، فلغّموا السراي القديمة (دار الحاكم في العهد العثماني) والأبنية المحيطة بها، مما أدى إلى خسائر كثيرة في الأرواح والممتلكات، كما بث الرعب في قلوب سكان يافا.

غير أن الخوف زال حين عمدت جماعة من الخبراء الذين كانوا يعملون في صناعة المتفجرات، إلى استخدام صناعتهم في تل أبيب وجوارها، فسببوا، حسب ما روى مناحيم بيغن، فوهرر الأرغون، في كتابه «الثورة» (The Revolt): «الخراب في المخازن والبيوت مما

أدى إلى إخلائها. وأدى بمئات العائلات إلى التسكع في والشوارع والعيش تحت الخيام شهوراً».

لكن نجاح العرب لم يدم طويلاً. فقد نقص البارود الذي تصنع منه المتفجرات فغدا نادراً، وقامت الخلافات بين الفصائل العربية، مما نجم عنه، للأسف، استقالة النقيب عبدالوهاب، الذي كان وطنياً إلى أبعد حدّ وجندياً ممتازاً.

وحل محل النقيب عبد الوهاب عادل نجم الدين، الذي وجد بدوره أن تحصينات يافا أضعف من أن تقاوم الهجمات الصهيونية. فلم يُضع وقته ورجع سريعاً إلى دمشق فطلب من اللجنة العسكرية أن تدعمه بمدافع الهاون، وأربعة مدافع ميدان، ومدافع أخرى ثقيلة. كما رفع تقريراً عن الذخيرة الايطالية التالفة التي كانت تستعمل في يافا. وأخيراً رجع من دمشق مع جماعة من المتطوعين في جيش الانقاذ، الذين تركوا مواقعهم بعد قتال ثلاثة أيام وولوا هاربين.

أراد الصهيونيون أن يحتلوا يافا قبل ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨

قضى قرار التقسيم في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ بأن تكون يافا من الدولة العربية، ولو أنها جغرافياً ضمن الدولة اليهودية. ونذكر بأن اللجوء إلى هذا المخرج المعقد، راجع إلى الاحتفاظ بأكثرية يهودية، في الدولة اليهودية المقترحة. ولقد قرر اليهود لحل هذه المشكلة، احتلال يافا وطرد سكانها العرب منها. وعزموا على تحقيق هذا الأمر قبل الخامس عشر من أيار (مايو) سنة ١٩٤٨.



مدينة يافا من أقدم المدن في العالم

بدأ الهجوم الكبير على يافا يوم الخامس عشر من آذار (مارس) سنة ١٩٤٨، غير أن المناضلين العرب ردّوا هذا الهجوم. وفي العشرين من آذار (مارس) شن الارهابيون هجوماً أقوى على أبو كبير، وهو من جوار يافا الهامة، ورد هذا الهجوم أيضاً. وتكرر الهجوم في الثاني والعشرين وكذلك في الثالث والعشرين من الشهر نفسه على أبو كبير.

أخافت، هذه الهجمات المتكررة على يافا وقضائها، سكان المدينة، فقررت اللجنة القومية إرسال وفد يقابل اللجنة العسكرية في دمشق. وهناك ناقش الوفد الوضع مع اللواء طه الهاشمي، مستشار اللجنة العسكرية، وأحاطه علمًا بالهجمات الصهيونية الشديدة على المدينة وقضائها. وأصغى الهاشمي بكل انتباه لكنه لم يعدهم بشيء. ولم يكن هذا الموقف السلبي راجعاً برمته إلى عدم رغبة اللجنة العسكرية بمساعدة أهل يافا، ولا ناجم عن جهل اللجنة بخطورة وضع يافا، وإنما لعدم وجود الدعم. كانت مسؤولية «التجهيز العسكري» للجيوش العربية منوطة باللجنة السياسية لجامعة الدول العربية، وباللجنة العسكرية في دمشق؛ غير أنهما اضطلعا بالأمر بلا مسؤولية وبلا اهتمام أو دقة. واللوم يقع عليهما كلتيهما فقد كانتا تعرفان قوة العدو. وهما، لم تسلحا الجيوش العربية بما فيه الكفاية، ولا سلّحت عرب فلسطين بما يمكنهم من الدفاع عن وطنهم.

غير أن ما أبداه وفد يافا من قلق على المدينة، حرّك مشاعر اللواء طه الهاشمي فأرسل في السادس والعشرين، كتيبة القادسية إلى يافا، فاتخذت مواقعها في حيّ المنشية والبصّة.

كان فوزي القاوقجي في تلك الفترة قائداً لقطاع يافا، ولكن الذي لا يصدّق، أنه لم يزر يافا ولا مرة واحدة، من أجل أن يقدّم تقريره للجنة العسكرية في دمشق عن حالة يافا الخطرة. والأمر المذهل، أن ما من أحدٍ من أعضاء اللجنة العسكرية في دمشق، زار فلسطين كي يدرس الوضع العسكري على الأرض، ما عدا اللواء اسماعيل صفوت، حين كان رئيساً للجنة، فقد زار القدس في مطلع كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٤٨. وأذكر جيداً ما قاله لنا، بعد أن تجولت معه يومين: «آه! لا! لا يمكن الدفاع عن القدس بالتحصينات التي أقمتموها». لقد أزعجني تقديره يومئذ، حتى كاد يغمى عليّ، وكلماته ما زالت ترنّ في أذني.

جلب وصول كتيبة القادسية بعض العزاء لسكان يافا، غير أن سقوط طبريا وحيفا بعد أسابيع قليلة، جدّد مخاوفهم، فبدأوا، بشيء من التردد، يرحلون عن مدينتهم.

الجنرال مواري يحافظ على شرفه العسكري

وفي الرابع والعشرين من نيسان (أبريل)، هاجم الصهيونيون حيّ المنشية، وهو على تخوم تل ـ أبيب، وفي اليوم التالي، ألقوا قنابل الهاون والصواريخ على المدينة كلها. واستمر

الهجوم بالقوة نفسها حتى الثامن والعشرين من نيسان (أبريل). الحوانيت كانت جميعها مغلقة ورحل الناس يبحثون عن السلامة. في ذلك الوقت، أرسل القاوقجي قطعة من جيش الانقاذ بقيادة النقيب ميشيل العيسى لدعم المقاومة، وفيما هم يقتربون من المدينة، فوجئوا حين وجدوا أن النقيب نجم الدين، الذي كان يتمركز في المواقع الاستراتيجية في المدينة، قد أخلاها، لخلافه مع القاوقجي، فتمكن العدوّ من احتلال المنشية وتل الريش دون خسارة. وفي اليوم نفسه، سقطت سلمة والعباسية وبيت دجن من قضاء يافا في أيدي اليهود. ودبَّ الرعب فاندفع الناس إلى المرفأ فارين. ووقع في الشرك النقيب ميشيل العيسى ورجاله فقد أحاط بهم العدو من كل الجهات.

أراد الارهابيون حين احتلوا حي المنشية، بسبب خيانة النقيب نجم الدين، أن يحتلوا بقية المدينة، لكن القيادة البريطانية منعتهم من ذلك. لقد قال الجنرال مواري (Murray) قائد القطاع الجنوبي: «إن مدينة يافا تبعاً لقرار التقسيم الصادر في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٧، هي مدينة عربية تخصّ الدولة العربية، وعلى ذلك يجب ألا يحتلها اليهود قبل نهاية الانتداب». وهذا البيان، يعبّر عن الشرف العسكري، الذي كان مفقوداً تماماً عند الجنرال ستوكويل، قائد القطاع الشمالي، خلال معركة حيفا. في تلك الفترة، وفي الخامس من أيار (مايو بالتحديد، فرّ النقيب العيسى ورجاله وبعض أعضاء اللجنة القومية من المدينة المحاصرة، في السيارات البريطانية المصفحة. وزاد، لسوء الحظ، هذا الانسحاب في رعب المدينة. وأصيب السكان بالذهول وهم يشاهدون القوات العربية ترحل عن يافا. وعمت الفوضى فتركت الآلاف بيوتها خالية وهي تبحث عن وسيلة للفرار.

وسار أكثر السكان على خطى أهل حيفا، فغادروا على القوارب إلى غزة ومصر ولبنان. وبعضهم غامر فذهب إلى اللد، والرملة، وطول كرم، ونابلس، ورام الله. وتضاعف عدد سكان اللد والرملة لأنها قريبتان. ولم يبق من سكان يافا البالغين ثمانين ألفاً غير اربعة آلاف يعانون ذل الاحتلال الصهيوني وهم يعرفون جيداً أن لا عاصم من الخطر الصهيوني.

وهكذا وقعت مأساة الاحتلال الصهيوني لمدينة يافا الأثرية، المرفأ العربي التاريخي، المدينة، ذات الشهرة العالمية ببرتقالها.

عدد الاصابات في فلسطين

كان عدد الاصابات في فلسطين حسب سجلات السلطات البريطانية، حتى نهاية شهر نيسان (أبريل) ١٩٤٨، كما يلي:

العرب: ٣٥٦٩؛

اليهود: ١٢٥٦؛

البريطانيون: ١٥٧؛

وآخرون: ٣٧؛ وبذا بلغ المجموع ٥٠١٤ إصابة.

تلك هي الأرقام الرسمية، أما غير الرسمية فبلغت ثلاثة أضعاف هذا العدد.

الفصل الرابع والأربعون

مجلس الأمن يعين الكونت فولك برنادوت
الانساني العالمي المشهور وسيطاً
مجلس الأمن يعين مندوباً عنه لادارة مدينة القدس
مجلس جامعة الدول العربية يجتمع في عمان
للنظر في حالة فلسطين الخطرة
منطقة القطمون في القدس تسقط في يد اليهود
كتيبة الجيش العربي تؤمر بمغادرة القدس

بذلت لجنة الهدنة في فلسطين، المؤلفة من قناصل كل من بلجيكا وفرنسا والولايات المتحدة في القدس، يوم السابع والعشرين من نيسان (أبريل) سنة ١٩٤٨، جهوداً شاقة من أجل الوصول إلى وقف إطلاق النار في القدس. غير أن المندوب السامي البريطاني عارض محاولاتها، على الرغم من أنها معينة من قِبل مجلس الأمن في الأمم المتحدة، كما رفض الاعتراف بسلطتها.

مجلس الوصاية يرسل حاكمًا مؤقتاً لادارة منطقة القدس الدولية

اعتبر قرار التقسيم مدينة القدس وجوارها كياناً منفصلاً، له نظام خاص يشرف على ادارته مجلس الوصاية. وحتى انسحاب الدولة المنتدبة الذي سينفذ في الخامس عشر من أيار (مايو) سنة ١٩٤٨، فقد أرسل مجلس الوصاية، في نيسان (أبريل)، حاكمًا مؤقتاً يدير المنطقة الدولية. غير أن المندوب السامي رفض أن يمنحه الصفة الديبلوماسية فلم يستطع القيام بمهمته ورجع إلى الأمم المتحدة في نيويورك.

تعيين رئيس بلدية خاص لمدينة القدس

حين فشل مجلس الوصاية في تنصيب حاكم من قِبَل الأمم المتحدة لمنطقة القدس الدولية، أوصى الجمعية العمومية بتعيين رئيس بلدية كي يدير مدينة القدس. ووافقت الجمعية العمومية على التوصية وتبنت القرار التالي، الذي نفذ فيما بعد.

القرار رقم ١٨٧ (الدورة الثانية) في ٦ أيار (مايو) ١٩٤٨

حماية مدينة القدس وسكانها

تعيين رئيس بلدية

إن الجمعية العمومية، توصي الدولة المنتدبة، بموجب التشريع الفلسطيني، قبل الخامس عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨، بتعيين رئيس بلدية، حيادي يقبل به كل من العرب واليهود ويأخذ على عاتقه، بالتعاون مع اللجان الطائفية الموجودة سابقاً في القدس، المهمات التي اضطلعت بها حتى الآن اللجنة المحلية.

مجلس جامعة الدول العربية يعقد اجتماعاً عاجلاً في عمان

اضطرب مجلس جامعة الدول العربية اضطراباً عظيمًا لسقوط حيفا في ٢٢ نيسان (أبريل) ١٩٤٨، في أيدي اليهود. فعقد اجتماعين هامين في عمان بشرق الأردن لمواجهة الوضع الخطر، احدهما سياسي والآخر عسكري.

انعقد الاجتماع السياسي في ٢٣ نيسان (أبريل) ١٩٤٨ وحضره كل من:

توفيق أبو الهدى،	رئيس الوزراء	(الأردن).
فوزي الملقي،	وزير الدفاع	(الأردن).
رياض الصلح،	رئيس الوزراء	(لبنان).
مجيد أرسلان،	وزير الدفاع	(لبنان).
أرشد العمري،	وزير الدفاع	(العراق).
صادق بسام،	وزير المالية	(العراق).
العميد صالح صائب،	قائد الجيش	(العراق).
أحمد الشرباتي،	وزير الدفاع	(سوريا).
وعبدالرحمن عزام،	الأمين العام، لجامعة الدول العربية.	

كما حضر الاجتماع أيضاً الملك عبدالله (الأردن) والأمير عبد الإله (العراق) ولم يحضر الاجتماع كل من مصر، والسعودية واليمن.

قرار تاريخي

تبنى المؤتمر القرار التاريخي التالي:

«إنقاذاً لفلسطين من الاحتلال اليهودي، يجب أن تدخلها الجيوش العربية في أحسن تسليح يوم الخامس عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨، وأن تلعب دورها في القتال. يكلف القواد العامون للجيوش العربية بتنفيذ هذا القرار».

بعد نهاية المؤتمر، ذهب المؤتمرون جميعهم إلى القاهرة لاقناع الحكومة المصرية

بالالتزام بهذا القرار. وعقد مجلس جامعة الدول العربية اجتماعاً في القاهرة (بحضور جميع الأعضاء)، تبنى فيه، بعد المناقشة، قرار عمان بالاجماع.

القواد العسكريون العرب يلتقون في عمان

حضر الاجتماع القواد العامون لجيوش كل من مصر، والعراق، وسوريا، ولبنان، وشرق الأردن وعن جيش الانقاذ. وقد حضره أيضاً أمين عام جامعة الدول العربية وقرروا ما يلي:

١ ــ تعبئة ست فرق وستة أسراب قاذفة للقنابل.

٢ ــ إنشاء قيادة موحدة بقيادة العميد نور الدين محمود (العراق).

ورُفع هذا القرار، حسب بروتوكول جامعة الدول العربية، إلى اللجنة السياسية في الجامعة، المؤلفة من وزراء الخارجية العرب. وللأسف الشديد، لم توافق هذه اللجنة على تقديرات قواد الجيوش واعتبرتها مبالغاً فيها، بالرغم من الوضع الخطير في فلسطين. فأدّى قرارها المجرد من الحكمة والمسؤولية والذي دلّ على جهل بعيد، وحكم خاطىء، إلى نتائج بعيدة. ولقد دخلت الجيوش العربية في الخامس عشر من أيار (مايو) فلسطين بقوى أقل بكثير مما إرتآه قادة الجيوش، فكانت الكارثة.

سقوط حي القطمون في القدس في أيدي اليهود

ظل حي القطمون العربي منذ أن تبنت الأمم المتحدة قرار التقسيم، مسرحاً للهجمات اليهودية نظراً لموقعه الاستراتيجي. ولقد هزّ المدينة نسف فندق سميراميس في ليلة الخامس من كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٤٨، والذي قضى فيه ٢٢ عربياً تحت الأنقاض. كما نسفت قبل ذلك ثلاثة بيوت، منها منزل صديقي وزميلي الدكتور فوتي فريج، وهو طبيب معروف ووطني متحمس.

بعد نسف فندق سميراميس، قوّيت دفاعات القطمون. وتولى الدفاع عنه ابراهيم أبو دية ومعه فرقة جيّدة التسليح والتجهيز. وكانت المناوشات بينهم وبين البالماخ يوميّة؛ ولهذا فما ان جاء نيسان (ابريل) حتى كان جزء كبير من سكان الحي قد رحلوا عنه.

شنّ الصهيونيون هجومهم الأكبر على القطمون في السابع والعشرين من نيسان (أبريل). ولوحظ أن هجماتهم في نيسان (أبريل) لم تعد مناوشات كما في الشهور السابقة. وإنما أصبحت معارك يخوضونها لاحتلال الأراضي وإخلائها من سكانها العرب؛ وقد خططوا لها على أن تبدأ في نيسان (أبريل) وتنتهي قبل الخامس عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨. وعلى هذا، احتلت سمخ وطبريا وأُخليتا في التاسع عشر من نيسان (أبريل)، وحيفا في الثاني والعشرين منه، ويافا في الثامن والعشرين، والقطمون في القدس في الثلاثين منه، وصفد في ١٠ أيار (مايو)، وبيسان في الحادي عشر منه وعكا في الرابع عشر من أيار (مايو)

. ١٩٤٨

كان أول ما سقط من القطمون في أيدي اليهود، دير الروم الارثوذوكس الواقع على قمة الهضبة. ولقد تبينت لابراهيم أبودية حالاً ضخامة القوى المهاجمة فطلب النجدة. فأرسل له النقيب فاضل العبدالله من جيش الانقاذ، فصيلاً من رجاله، لكنهم، لم يستطيعوا، لسوء الحظ، البقاء في ساحة المعركة إلا ساعات قليلة. وأرسل في اليوم نفسه خالد الحسيني، خمسين رجلاً من «الجهاد المقدس»، لكن هذا العدد القليل لا يمكن اعتباره مساعدة حقيقية.

واضطر أبو دية إلى الانسحاب في أول أيار (مايو)، مع قلة من المناضلين الذين ظلّوا على قيد الحياة، لكنه لم ييأس. وأسرع إلى بيت جالا، حيث كان يعسكر قبل مجيئه إلى القطمون، فحشد ٣٠٠ رجل واتجه ناحية القدس كي يستعيد القطمون. وحين اقتربوا منه اعترضهم الجيش البريطاني وأمرهم بالتوقف والانسحاب؛ وإذا لم يفعلوا، جرّدهم من سلاحهم أو أطلق عليهم النار. وحين لم يستطع ابراهيم شق طريقه بالقوة، جاء إلى مكتبي وهو يبكي. أخذ يرجوني أن أفعل شيئاً مع الانكليز. «ألا تستطيع أن تفعل شيئاً؛ ألا تستطيع التدخّل». قلت: «لا يا عزيزي ابراهيم»، ورويت له المثل العربي «إذا كان خصمك حاكمك، فلمن تشتكي؟».

يا له من يوم أسود يمر على أهل القدس وسكانها العرب! ذهبت إلى حي البقعة الملاصق للقطمون كي أدرس الوضع. فرأيت الحي يعجّ بأناس هدّهم الرعب وسحقهم الخوف، وأكثرهم من الذين فروا من القطمون. وها هم يولولون ويروون نكبتهم. أحدهم كان من أعزّ أصدقائي وهو الدكتور ابراهيم جورج، طبيب الأسنان المعروف. قال لي: «هربت وأختي إنقاذاً لحياتنا. اضطررنا إلى الركض وتركنا كل شيء وراءنا حتى الـ ٢٠٠٠ ليرة ذهبية سبيكة». وهكذا تمّ احتلال اليهود للقطمون.

كتيبة الجيش العربي في القدس، تؤمر بمغادرتها
مقابلة مع الملك عبدالله

وازدادت نكبة القطمون مائة ضعف، حين علمت من النقيب منير أبوفاضل أن الأوامر صدرت لكتيبة الجيش العربي في القدس، بقيادة الرقيب عبدالله التل، المتمركز في مدرسة النهضة في البقعة الفوقا، بترك القدس في ١٤ أيار (مايو) ١٩٤٨، والانسحاب إلى أريحا.

هذا اللواء العربي الذي كان يحرس، قليلاً أو كثيراً، قوافلنا، في رحلاتها إلى بيت لحم، والخليل ورام الله، الخ... والذي كان يساعدنا بصورة غير مباشرة، في مناوشاتنا مع العدو في كفار أتسيون والنّبي يعقوب، والذي كنا اتفقنا معه على الدفاع عن بقعتي

القدس: الفوقى والتحتى، من الاحتلال اليهودي، حين ينسحب البريطانيون من فلسطين، في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨، يغادر الآن القدس وقد صدر الأمر بذلك عن غلوب باشا.

كانت مهمة اللواء العربي، عند غلوب باشا، أن يساعد جيش الانتداب البريطاني فحسب، دون العرب. وحين يغادر البريطانيون القدس، يجب أن يغادرها أيضاً اللواء العربي. وإنقاذ القدس العربية من الاحتلال اليهودي لم يكن في برنامج القائد العام للجيش العربي الأردني، سواء خلال الاحتلال البريطاني أم بعده.

عقدنا اجتماعاً ضم النقيب منير أبوفاضل، والنقيب فاضل العبد الله، وداوود الحسيني (ممثلاً لخالد الحسيني)، وناقشنا فيه تلك المسألة الهامة. وقررنا أن نذهب نحن الأربعة إلى عمان كي نقابل الملك عبد الله ونجرّب إقناعه في الابقاء على الكتيبة في القدس. وعلى هذا، تركنا القدس في الثامن من أيار (مايو)، بعد أن اتفقنا مع القصر على مقابلة الملك في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي.

وفي تمام الساعة السابعة من التاسع من أيار (مايو)، كنا نحن الأربعة في قصر رغدان في عمّان. ولم ننتظر طويلاً، ولكن لم نقابل في ذلك اليوم باللياقة المعهودة. جرت المقابلة في أحد مكاتب القصر وليس في قاعة الاستقبال الكبرى. كان الملك واقفاً بالباب فصافحنا ببرود. وبما أنني كنت الناطق باسم الوفد، وقفت وبينت للملك كم هو ضروري الابقاء على الكتيبة العربية في القدس إذا كان يريد أن ينقذ جزءاً كبيراً من القدس الشريف من الاحتلال اليهودي. وذكّرت، مستغيثاً، بأن الجيوش العربية مفروض فيها دخول فلسطين في الخامس عشر من أيار (مايو)، لا أن ينسحب من فيها في الرابع عشر منه.

وأجابني بصوت غاضب، يختلف عن ذلك الذي كلمني به منذ ثلاثة أسابيع، قال:

«يا طنوس، أنت آثم. أتريد أن أضيّع كل جيشي في القدس؟ هل تريد أن أخسر جيشي في حرب شوارع القدس؟. أنا أريد أن أربح الحرب ضد اليهود». وكان غلوب باشا قد أقنع الملك إقناعاً تاماً بأنه إذا دافع عن القدس، خسر جيشه هناك وخسر الحرب نهائياً.

لم يؤثر بي ما وصمني به من اثم، وإنما قراره، أو بالتأكيد، قرار غلوب باشا بسحب كتيبته من أهم مركز في القدس وهو الشيء الذي لا نستطيع تعويضه ولا يجوز تركه كي يحتله اليهود دون مقاومة.

قلت له: «يا صاحب الجلالة، القدس هي مدينة مقدسة لدى المسيحية والإسلام. إنها لا مثيل لها. إنها أهل لأن نموت من أجلها. إننا لا نستطيع أن ندعها تسقط بأيدي الصهيونيين. سوف نقاتل من أجلها حتى الموت وإذا اضطررنا إلى تركها، فلن نتركها على

أقدامنا وإنما على ظهورنا».

قلت هذه الكلمات في انفعال عظيم، لأني كنت على يقين بأن كل الجزء العربي سيكون في أيدي اليهود في الخامس عشر من أيار (مايو) ما لم تكن هنالك قوات عربية تنجده. هذا الاحساس الرهيب دفعني لأن أكرر النداء ثانية وثالثة.

ولقد حرّك قلقنا وإخلاصنا شيئاً في نفس الملك الحائر في أمره، فبدأ يسأل النقيب منير أبو فاضل والنقيب فاضل العبد الله عن عدد القوات التي تحتاجها العملية، الخ... وأنا لا أتذكر أدنى شيء عما دار من الحديث الذي دام قرابة عشر دقائق. على كل حال كان حديثاً بلا قرار، ثم انتهى الاجتماع فجأة.

وترك الملك الغرفة، وقال: «إذا كنتم بحاجة إلى سلاح، فاطلبوا من العميد عبدالقادر الجندي».

لم يكن الملك عبد الله هو نفسه الذي يتخلى عن القدس والحرم الشريف حيث يرقد في فنائه، أبوه التقي العظيم، الشريف حسين الأول، حجر الزاوية الأصيل في استقلال العرب، ولكن، للأسف الشديد، الذي تخلى عن القدس هو غلوب باشا، ولا شك أنه فعل ذلك بأمر من وزارة الخارجية البريطانية!

تسريح ثلاثمائة شرطي عربي والتحاقهم «بالجهاد المقدس»

كان على حكومة الانتداب أن تنهي خدمات كل أعضاء الادارة من مدنيين وسواهم ما دام الانتداب البريطاني على فلسطين ينتهي في الخامس عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨. وعلى ذلك، سرّح بشرف كل موظف في الادارة الفلسطينية من جميع الفئات قبل ذلك التاريخ وعوض عن خدماته السابقة أو أحيل على التقاعد حسب رغبته الشخصية.

لقد وجد بيت المال نفسه سعيداً بأن يجند ما استطاع من أفراد قوة الشرطة العرب المسرحين، بعد أن فقدنا من فقدنا من مناضلينا في مختلف معارك القدس وجوارها كالقسطل وكفار أتسيون وفي المناطق الأخرى أيضاً. ولقد لعب هؤلاء الثلاثمائة المدربون، دوراً عظيماً في معركة القدس، أستطيع معه القول، ان القدس ما كانت لتصمد لولاهم أمام هجمات اليهود المسعورة بين الرابع عشر والتاسع عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨. أما لماذا لم يجند «الجهاد المقدس» أو جامعة الدول العربية الألفي مسرح الأشداء من «قوة الحدود»، وقد كان بوسعهم أن يغيروا نتيجة الحرب، فلا أدري، ولربما كان عدم وجود المال أو عدم وجود السلاح والذخيرة، هو السبب!

تحطيم آلات تموين القدس بمياه رأس العين

بعد سقوط يافا في ٢٨ نيسان (أبريل) ١٩٤٨، وجد المناضلون الذين كانوا يسيطرون

على مركز مياه رأس العين أنفسهم يواجهون خطر الهجوم عليهم. وكانوا يعرفون جيداً أنهم لن يستطيعوا وحدهم الدفاع عن رأس العين، القريبة من يافا. وبما أن القدس العربية تشرب من مياه أخرى مثل عين فاره وبرك سليمان، فقد عمدوا إلى تحطيم آلات رأس العين قبل أن يغادروها.

تركت الطالبية إلى منطقة أكثر أمناً

عندما أيقنا من انسحاب الكتيبة العربية الأردنية من البقعة الفوقى، بات مؤكداً سقوط ذلك الجزء من القدس في أيدي الصهيونيين. ولا أعني من هذا، أن حمايته كانت منوطة بالكتيبة وحدها، كما أن مناضلينا لا يستطيعون وحدهم الدفاع عنه.

وبما أن الطالبية كانت من هذا الجزء، فقد طلب إليّ «الجهاد المقدس» الانتقال إلى منطقة أكثر أمناً لأجل بيت المال العربي. ولحسن الحظ، قدّم لي الأب المحترم ابراهيم عيّاد طابقاً كان قد تركه أمانة بيده أرمني، رحل مع عائلته إلى بيروت. وقد كان موقعه مقابل البطريركية اللاتينية داخل سور المدينة.

وأقولها صراحة، اني لم يكن في نيتي ترك بيتي في الطالبية، ولو أني تركت فيه بعض الرصاصات التي سقطت فيه على الرغم من إغلاق أكثر النوافذ الخارجية بالطوب. ولكن المسألة كانت: أين أستطيع خدمة فلسطين أكثر؟

سقوط بيسان في ١٢ أيار (مايو) ١٩٤٨

بيسان مدينة حدودية على بعد أميال قليلة من بحيرة طبريا وأربعة كلم من الحدود السورية، غدا وضعها العسكري ضعيفاً بعد انسحاب فوزي القاوقجي في الخامس والعشرين من نيسان، من مستعمرة مشمار هاعيمك. وفي الثاني عشر من أيار (مايو) تجمعت قوات يهودية من كل المستعمرات المحيطة بها وقامت بهجومها على المدينة الصغيرة التي لم يتجاوز عدد المدافعين عنها المائتين، جلّهم من أهلها الأشداء.

ولكم أحزنني سقوط بيسان في أيدي اليهود، فقد زرتها عدة مرات بشأن بيت المال العربي، ولكم أثرت فيَّ بساطة أهلها ووطنيتهم.

وترجع أهمية بيسان في صراع ١٩٤٨ إلى موقعها القريب من الحدود السورية، فلقد كان احتلالها قبل ثلاثة أيام من الموعد المحدد لدخول الجيوش العربية، عائقاً كبيراً أمام الجيش السوري كما سنرى فيما بعد.

معركة كفار اتسيون الكبرى في ١٣ أيار (مايو) ١٩٤٨

كانت كفار أتسيون كبرى أربع مستعمرات يهودية، واقعة كما سبق وقلنا، على منتصف الطريق بين القدس والخليل وأشدّها تحصيناً. أما الثلاث الأخريات فهن: رفاديم ومانوث

يشال وعين تسوريم.

كانت كفار اتسيون تقع على هضبة غير بعيدة عن الطريق الرئيسي، ويقطنها حوالى ١٥٠ مستعمراً صهيونياً. وقد اتبع الصهيونيون، خطة تبادل السكان، في زمن الاضطرابات فكانوا يرحّلون النساء والأطفال إلى مستعمرات أخرى، تأخذ قوات الهاغاناه مكانهم مباشرة. وقد بنيت كفار اتسيون، ومثلها في ذلك مثل مستعمرات عديدة، لتكون قلعة صهيونية، لها مهمتها الخاصة. وقد شيدت تلك المستعمرات الأربع في المنطقة العربية كي تسيطر على طريق القدس ــ الخليل وتقطعه زمن الحرب. مثلما شيدت مستعمرة، النبي يعقوب، على منتصف الطريق بين القدس ورام الله للغرض نفسه.

قامت كفار اتسيون بدورها الفعال، منذ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٧، في عدة مناوشات، نجم عنها خسائر من كلا الطرفين. وغدا السفر على الطريق خطراً، في آذار (مارس) ونيسان (أبريل) ١٩٤٨، فصارت لا تسير السيارات إلّا في قوافل محروسة أو بحماية الجيش العربي عندما يسافر جنوباً.

وفي السادس من أيار (مايو) ١٩٤٨، كانت وحدة من الجيش العربي في طريقها إلى الخليل، يرافقها عدد من السيارات المدنية، فسقطت عليها قنابل الهاون من دير الشعار، وهو دير قريب من المستعمرة، احتله اليهود وصاروا يستخدمونه مكمناً، فأصيبت شاحنة فسدت الطريق وتوقفت القافلة. وقتل جندي، وجرح آخر واندلعت معركة أجبرت الضابط الآمر إلى طلب النجدة من القدس. وحين وصلت النجدة اشتدت المعركة. ثم توقف اليهود فجأة عن إطلاق النار، فاستأنفت القافلة العسكرية طريقها.

وفي اليوم التالي هاجم الجيش العربي دير الشعار، يدعمه حوالي ٥٠٠ من المناضلين. واندفع هؤلاء تغطيهم نيران مدفعية الجيش العربي، فاحتلوا الدير لكن الألغام جعلت خسائرهم كبيرة. ولم يجدوا فيه إلّا حوالى عشرين جثة من اليهود فقد فرت البقية إلى كفار اتسيون، عبر نفق حفروه بين الموقعين العسكريين.

وسار الجيش العربي في سبيله إلى القدس بعد أن ترك عدداً قليلاً من المناضلين لحراسة الدير. وتلك غلطة دفع ثمنها فادحاً إذ تمكن الصهيونيون من استعادة المكمن في اليوم التالي.

في ذلك اليوم، كان غلوب باشا يقوم بزيارة للخليل، واستعمل طريقاً جانبية في رحلته إليها. وما كان صعباً عليه أن يرى بأم عينه مدى الضرر الذي تسببه المستعمرة في حركة مرور العرب البريئة، وتحركات جيشه. وحين طلب إليه أهل الخليل أن يوقف هذا العدوان اليهودي، لم يتردد في إصدار الأمر لقواته بالهجوم على المستعمرة.

وفي الثاني عشر من أيار (مايو)، هاجم الجيش العربي المستعمرة، ومعه مئات من المناضلين الفلسطينيين من كل القرى المحيطة بالمستعمرة. وبعد عدة ساعات تطورت المعركة إلى مأزق فطلب الضابط قائد العملية، حكمت مهيار، معونة باللاسلكي، فأمر غلوب باشا، لحسن حظنا، النقيب عبد الله التل، بالتنفيذ.

إتخذ النقيب التل مكانه على رأس القطعة المصفحة الحسنة التجهيز، وأمر مائة من رجاله بالتقدم لنزع الأسلاك الشائكة. وحين بدأ القصف، رفعت المستعمرة العلم الأبيض. حتى إذا تقدم الجنود باتجاه المستعمرة، فتحت الهاغاناه النار غدراً، فقتلت إثني عشر وجرحت ثلاثين. وشن الهجوم ثانية، فاندفع مئات من المناضلين الفلسطينيين إلى المستعمرة فاحتلوها. ولقد روى التل أن كل المدافعين عن المستعمرة قتلوا ما عدا ثلاثة ينتسبون إلى عصابة ارغون تسفائي ليؤمي . أما غير المقاتلين فقد فروا من المستعمرة إلى المستعمرات الثلاث الأخرى.



بعض قتلى اليهود على الأرض

انتهت المعركة ظهر الثالث عشر من أيار (مايو) وعند المساء استسلمت باقي المستعمرات (الثلاث الأخرى) تحت الشروط التالية:

١ ــ تسلم الأسلحة والذخائر للعرب.

٢ ــ يؤخذ الرجال كلهم أسرى. كان عددهم ٣٥٠.

٣ ــ يسلم الأطفال والنساء إلى الصليب الأحمر.

المميزات التي ربحناها في هذا النصر

١ ــ انتهى عزل القدس عن الجنوب.

٢ ــ قتل أو أسر ٥٠٠ إرهابي يهودي.

٣ ــ تحرير ٥٠٠ مناضل عربي للقتال في مكان آخر.

٤ ــ رفع هذا النصر من معنويات الشعب العربي في القدس الذي كان يخوض حرب حياة أو موت.

كانت مستعمرة كفار اتسيون من أقوى المستعمرات الصهيونية التي بنيت كقلعة محصنة، لا لترد هجمات العرب فحسب، بل لتهاجم أيضاً. وكانت مترعة بالذخائر وأكثرها وهبتها حكومة الانتداب للصهيونيين لتمكن سياسة الوطن القومي اليهودي. بينما لم تكن تسمح لعرب فلسطين أن يمتلكوا أي سلاح من أي نوع حتى ولا للدفاع عن النفس. ولم تتصرف حكومة الانتداب البريطانية، حتى تلك اللحظة بأمانة أو بالمساواة بين فئتي السكان.

سقوط عكا

بلغ عدد سكان عكا سنة ١٩٤٨ حوالى ١٣٠٠٠ نسمة، عشرة آلاف منهم مسلمون وثلاثة آلاف مسيحيون وكان فيها خمسون يهودياً. وقد عاشت الطوائف الثلاث فيها بانسجام حتى تبني الأمم المتحدة قرار التقسيم.

بعد تبني الأمم المتحدة قرار التقسيم الجائر تألفت، كما في كل مدن فلسطين، لجنة قومية تهتم بحاجات السكان اليومية، قوامها: حسني خليفة، رئيس البلدية، رئيساً؛ فايز كردي، سكرتيراً؛ مدير مكتب بيت المال خازناً؛ فارس سرحان وموسى نجمي وأحمد برادعي وأحمد العفيفي أعضاء.

وانضم إليها فيما بعد، القاضي صالح حكيم، وفريد أبو النسب(*)، رئيس البوليس، ولو أنهما موظفان رسميان. ولا بد من الملاحظة هنا أنه بعد إعلان قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين، سادت الفوضى في البلاد فصار موظفو اليهود يتعاونون علناً مع الوكالة اليهودية وموظفو العرب مع الهيئة العربية العليا. وعلى ذلك، تفككت حكومة الانتداب وبقيت تتفكك حتى تلاشت.

كان عدد الناس الذين يعيشون في عكا ويعملون في حيفا كبيراً، وكانوا بحاجة لأن تبقى الطريق بين البلدين آمنة، فساد السلام في المدينة حتى آذار (مارس) ١٩٤٨، وانقطع

(*) قابلت فريد أبوالنسب في بوسطن في الولايات المتحدة سنة ١٩٥٩، كما رأيته ثانية في بيروت سنة ١٩٦٩. وقد استقيت منه جزءاً من المعلومات عن سقوط عكا.

هذا السلام في السابع عشر منه حين صادر اليهود قافلة عربية تحمل أسلحة وذخائر من لبنان إلى حيفا وحطموا أكثرها. وفي اليوم التالي صادر المجاهدون العرب باصاً يهودياً ذاهباً من حيفا إلى «جيدّين» (Giddin)، وهي مستعمرة يهودية على طريق ترشيحا، مركز زراعة التبغ الشهير. وكان في الباص ١٩ يهودياً، بينهم امرأة لم يريدوا أذيتها، فطلبوا منها النزول. فخرجت تحمل منديلاً أبيض يعني التسليم، حتى إذا اقتربت منهم، ألقت عليهم قنبلة يدوية كانت تخبئها في المنديل، لكنها لم تنفجر. عندها أطلقوا عليها النار فقتلت.

منذئذ، أصبحت الطريق إلى حيفا جنوباً وإلى لبنان، عبر الناقورة، شمالاً مغلقة. وعزلت عكا وبات مخرجها الوحيد، الطريق الشرقية إلى الرامة ومنها إلى الناصرة فصفد، فلبنان. أما طريق ترشيحا فقد أغلقتها مستعمرة جيدّين.



مدينة عكا وسورها القديم

بدء الهجوم الكبير على عكا

خاض أهل عكا معركة بطولية ضد الإرهابيين الصهيونيين دامت شهرين. وقد استسلموا، عندما انتهت ذخيرتهم، كما حدث في مدن كثيرة؛ ولو أنهم لم يفعلوا ذلك إلاّ بعد أن أوقعوا بالعدو خسائر فادحة.

وفي الخامس والعشرين من نيسان (أبريل) ١٩٤٨، بدأ اليهود يقصفون عكا بمدافع الهاون. وكان ذلك بعد ثلاثة أيام من احتلال حيفا، فقد مكنهم انتصارهم في حيفا من

تحريك قواتهم ضدّ عكا. فاحتلوا الهضبة الواقعة شرقي المدينة وتدعى تل نابليون، أو تل الفخار، وقد كانت دون دفاع. ثم احتلوا بعد ذلك مباشرة المقبرة الإسلامية في جنوب المدينة.

حين وصلوا إلى هذه النقطة، أبرق أديب الشيشكلي، قائد جيش الإنقاذ في الجليل، المعسكر في ترشيحا، إلى اللجنة العسكرية في دمشق لإرسال الامدادات، وفي الوقت نفسه طلب من سكان المدينة تقوية دفاعاتهم. وحين لم تصل المساعدة من دمشق، طلب الأهالي المعونة من المستر كينيون (Kenyon)، مساعد محافظ المنطقة البريطاني، وبما ان عكا كانت مثل يافا مدينة عربية في الدولة العربية تبعاً لقرار التقسيم، طلب المستر كينيون من الجيش البريطاني إيقاف الهجوم اليهودي ففعل، غير أن ذلك لم يدم سوى أسبوعين.

كان من انباء سقوط حيفا، والبصة، ورأس الناقورة، ويافا وصفد إلخ... أن فزع سكان عكا وبدأوا يتركون المدينة عن الطريق الوحيدة إلى الرامة والناصرة، أو بحراً إلى لبنان. غير أن المناضلين على قلتهم، ثبتوا، وردوا كل الهجمات اليهودية، وردوا العدو بعيداً، بعد أن أوقعوا فيه خسائر فادحة.

وفي الحادي عشر من أيار (مايو)، يوم الانسحاب البريطاني من عكا، إتصل خليل كلاس، رئيس لجنة الدفاع الفرعية باللجنة القومية وانبأها أنه تلقى أوامر من أديب الشيشكلي بأن ينسحب المناضلون من عكا لأنه يستحيل الدفاع عنها. لكن المناضلين، بقيادة فريد أبو النسب، قائد الشرطة، رفضوا الانسحاب. وشهدت أيام ١١ و١٢ و١٣ أيار (مايو) قتالاً ضارياً دافع فيه المناضلون العرب ببطولة عن مدينتهم. إلّا أن نقصان الذخائر السريع أجبر فريد أبو النسب وصالح حكيم، القاضي، على السفر إلى بيروت، علّهما يأتيان بالذخيرة بالطائرة. ولما فشلا في مهمتهما مع الحكومة اللبنانية، ذهبا يائسين لرؤية فوزي القاوقجي في بنت جبيل، حيث كانت قيادة جيش الأنقاذ. وحين أخبراه أن عكا سوف تسقط إذا لم ترسل المساعدات إليها، أجاب: «دعوها تسقط، سوف نستعيدها!» ثم أسف القاوقجي لجوابه السلبي، فأرسل خمسين من رجاله إلى عكا، حيث لم يستطع عددهم الصغير أن يقاوم أكثر من ٢٤ ساعة.

حين رجع صالح حكيم وفريد أبو النسب قاصدين عكا، لم يستطيعا تجاوز ترشيحا. فقد التقيا في كفرياسيف، بعدد من المناضلين الذين أجهدوا بعد قتال مرير عنيف، وكانوا في حالة من الإعياء.

وبعد سقوط عكا، سقطت أيضاً القرى التالية: شعيب، المغار، الدامون، تمره، أم الفرج، الكابري، الزيب، البصة، عمقا، وترشيحا في أيدي الصهيونيين وقد قصفوا ترشيحا بالقنابل قبل احتلالها، حتى إذا دخلوها، نسفوا بيت كامل القاضي وهو زعيم بارز

من منطقة الجليل وعضو في هيئة مديري بيت المال العربي.

لقد كان سقوط عكا والقرى المحيطة بها خسارة عظيمة، ولو أنها لم تكن خسارة كلية، لأن جزءاً كبيراً من منطقة الجليل بقي في الأيدي العربية ومنها مدينة الناصرة، عاصمة الجليل الهامة المقدسة.

الجمعية العمومية تُعين وسيطاً لفلسطين

استمرت الحرب الأهلية في فلسطين وفشلت كل جهود لجنة فلسطين لإقامة هدنة. فتابعت الجمعية العمومية جهدها، وعينت في قرار صدر في ١٤ أيار (مايو) ١٩٤٨، «وسيطاً» يحل محلّ لجنة فلسطين.

قرار رقم ١٨٦ (الدورة الاستثنائية الثانية) بتاريخ ١٤ أيار (مايو) ١٩٤٨

إن الجمعية العمومية، «وقدَ أخذت بعين الاعتبار الموقف الحاضر المتعلق بفلسطين؛ تؤكد بشدة:

١ ــ تأييدها لجهود مجلس الأمن في احلال هدنة في فلسطين...

٢ ــ تؤيد انتخاب وسيطٍ تابعٍ للأمم المتحدة في فلسطين يختاره «الاعضاء الدائمون في مجلس الأمن» للقيام بالمهمات التالية:

١ ــ تأمين الخدمات العامة الضرورية لسلامة سكان فلسطين ورفاهيتهم.
٢ ــ تأمين حماية الأماكن المقدسة، إلخ...
٣ ــ ايجاد تسوية سلمية للوضع المستقبلي في فلسطين.

(ب) تصدر الجمعية العمومية تعليماتها إلى الوسيط كي يرفع تقارير شهرية أو أكثر، إلى مجلس الأمن وإلى الأمين العام للأمم المتحدة، ليرفعها بدوره إلى أعضاء الأمم المتحدة.

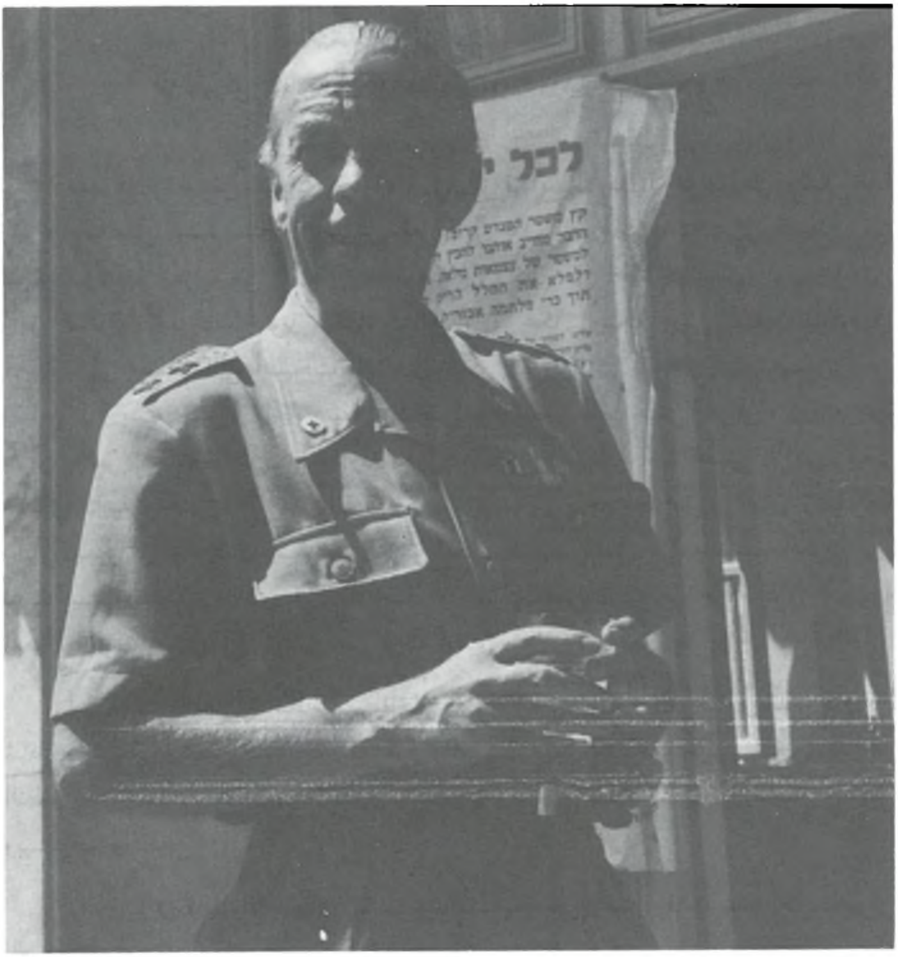
ملاحظة:

إن قرار الجمعية العمومية هذا، يدل على ارتباكها الكبير في فلسطين، وما ذلك إلاّ بسبب قرار التقسيم الذي تبنته في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧، والذي لم يأت هذا القرار على ذكره بالمرة.

الكونت فولك برنادوت
ينتخب وسيطاً للأمم المتحدة في فلسطين

انتخب الأعضاء الدائمون في مجلس الأمن أي: الصين وفرنسا والاتحاد السوفياتي والمملكة المتحدة والولايات المتحدة، الكونت فولك برنادوت وسيطاً للأمم المتحدة في فلسطين. وهو سويدي الجنسية يتمتع بسمعة عالية رفيعة. ولقد ارسله المجلس ليعمل بموجب قرار مجلس الأمن الصادر في ٢٩ أيار (مايو) ١٩٤٨.

كان الكونت برنادوت شخصية عالمية، وقد مكنه عمله الانساني من ربح احترام وتقدير أمم عديدة. وقد حاز على ثقة الجمعية العمومية نظراً لسمعته ومهارته المعروفة فأوكل إليه مهمة «ايجاد تسوية سلمية للوضع المستقبلي في فلسطين». فهل يعني هذا أنه كان بوسع الكونت برنادوت اقتراح حل غير التقسيم لمشكلة فلسطين؟ إن مجلس الأمن نفسه، نظراً للوضع المضطرب في فلسطين، ما كان يستطيع الاجابة على هذا السؤال.



الكونت فولك برنادوت

الفصل الخامس والأربعون

•

تشكيل قيادة عسكرية عربية لإنقاذ فلسطين
انتخاب الملك عبدالله قائداً عاماً
الجيوش العربية تدخل فلسطين في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨

عقد قادة الجيوش العربية اجتماعاً، في الزرقـاء (الأردن) وعملوا على وضع خطة تشرح بالتفصيل كيف ستدخل الجيوش العربية في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨ إلى فلسطين كي تنجدها وأهلها العرب من الارهابيين الصهيونيين. كان على الجيش اللبناني أن يدخل من رأس الناقورة، ويزحف جنوباً بمحاذاة الشاطىء إلى عكا. ويتجه جيش الانقاذ الموجود في الجليل، إلى حيفا، التي أصبحت يومئذ في أيدي اليهود. كما يتقدم الجيش السوري من بانياس إلى بنت جبيل، باتجاه صفد والناصرة والعفولة. أما الجيش العراقي، فيتقدم عن طريق جسر المجامع، على نهر الأردن، إلى بيسان والعفولة. أما الجيش الأردني، فيعبر جسري دامية والحسين على نهر الأردن وينقسم قسمين، يتجه أحدهما إلى جنين والعفولة، والثاني، يسير إلى رام الله وباب الواد، وهو المكان الشبيه بالنفق على منتصف الطريق بين تل ـ أبيب والقدس، والذي كان قد احتله «الجهاد المقدس»، ليوقف حركة المرور اليهودية ويعزل الجزء اليهودي من القدس عن تل ـ أبيب.

أما الجيش المصري النظامي، فيدخل فلسطين من رفح والعوجا ويتقدم بمحاذاة شاطىء البحر الأبيض المتوسط إلى غزة والمجدل واسدود، أما جيش المتطوعين غير النظامي، وجلّه من الاخوان المسلمين، فيتقدمون داخل البلاد باتجاه بير السبع والخليل وبيت لحم والقدس.

وانتخب في ذلك الاجتماع، الملك عبدالله، بناء على رغبته، قائداً عاماً لكل الجيوش العربية مع تحديد المهمة، وهي تنفيذ هذه الخطة.

الجيوش العربية تدخل فلسطين في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨

مهما كانت أهداف الحكومات العربية من دخول جيوشها إلى فلسطين، فإن هدف الشعب العربي في الوطن العربي كله كان واحداً فقط وهو: إنقاذ فلسطين من الاحتلال الصهيوني ومنع إنشاء دولة يهودية. والذي لا شك فيه انه من أجل هذا الهدف النبيل كان

كل جندي من هذه الجيوش، مستعداً لأن يقدّم حياته على أن يتحقق هذا الهدف. وعلى ذلك، سارت كل الجيوش العربية، في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨، يملؤها الايمان والحماس واليقين بأن حكوماتها أرسلتها حقاً لتحقيق هذا الهدف النبيل. وما كان يعلم المواطن أو الجندي العربي، أن كل حكومة عربية كان لها هدف خاص بها بالنسبة لمستقبل فلسطين.

عدد الجيوش العربية التي دخلت فلسطين في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨

تبعاً لما ورد من أرقام في كتاب «النكبة» لعارف العارف، و«كارثة فلسطين» لعبدالله التل، وهما اللذان أخذت عنهما أكثر معلوماتي في هذا الشأن، كان عدد الجيوش التي دخلت فلسطين في الخامس عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨، كالتالي:

القوات السورية:	١,٥٠٠.
القوات اللبنانية:	١٠٠٠.
القوات العراقية:	١,٥٠٠
القوات الأردنية:	٤,٥٠٠.
القوات السعودية:	١,٥٠٠.
القوات المصرية النظامية والمتطوعة:	١٠,٠٠٠.
المجموع:	٢٠,٠٠٠.

وبالمقابل، ذهبت المصادر البريطانية، حسب تقدير النقيب منير أبوفاضل إلى أن عدد القوات اليهودية في فلسطين كان كالتالي:

الهاغاناه: القوات المدربة، المجهزة	٢٠,٠٠٠.
والمدربة دون تجهيز كامل	١٠,٠٠٠.
والمدربة تدريباً جزئياً	٣٠,٠٠٠.
الأرغون: مدربة ومجهزة:	٦,٠٠٠.
شتيرن: مدربة ومجهزة	١,٠٠٠.
المجموع:	٦٧,٠٠٠.

إذاً فإن المجموع ٦٧,٠٠٠ يهودي مقابل ٢٠,٠٠٠ عربي.

كانت أكثر البلدان إخلاصاً في مراميها، سوريا؛ غير أنها لم تبدأ ببناء جيشها إلا بعد انسحاب الفرنسيين سنة ١٩٤٦، فما كان بوسعها تدريب جيش وتجهيزه خلال سنتين، فتكون قدرته على مستوى المسؤولية.

وكان لبنان، في الوضع السوري نفسه، لا يستطيع حشد جيش تتجاوز قدرته الدفاع عن حدوده.

أما عن الجيشين العراقي والأردني فقد كانا أفضل تدريباً وتجهيزاً، غير أن الأهداف التي يبغيان تحقيقها، كانت تختلف، كما شرحت آنفاً. فلم يكن قصدهما إلغاء «تقسيم فلسطين»، بل تنفيذه. وقد دخلا ليحتلا الجزء العربي من فلسطين لضمّه إلى شرق الأردن.

أما السعودية، وقد انغمست منذ عهد قريب في صناعة النفط مع الولايات المتحدة، فلم ترسل إلا حوالى ١٥٠٠ رجل، وضعتهم تحت تصرف القيادة المصرية. أما يمن الإمام يحيى، فكان يعيش، في القرون الوسطى، فلم يرسل أحداً!

أما الحكومة المصرية التي كان يرئسها فهمي النقراشي، فما كانت تريد قتالاً في فلسطين. كانت تعرف أن جيشها ضعيف، سيء التجهيز، كما أن حماسه للقضية العربية كان من الفتور بحيث لا تروق له المغامرة بالقتال ضد الصهيونيين. على كل حال، لم يكن الملك فاروق وحده الذي ألحّ على أن تخوض مصر الحرب، وإنما أيضاً، جامعة الدول العربية، والقاهرة مركزها والعضو الرئيسي فيها. فكان على مصر أن تقود القتال في فلسطين كي تحافظ على زعامتها وسمعتها واحترامها في العالم العربي.

غلوب باشا يحدث تغييراً في الاستراتيجية العربية

لم تعجب غلوب باشا استراتيجية دخول الجيوش العربية إلى فلسطين التي نظمها قادة الجيوش العربية. فقام، وصولاً إلى هدفه، بإحداث بعض التبديلات في الخطة المتعلقة بسوريا، وهي العدو العنيد لمشروع التقسيم.



الجنرال جون باغت غلوب

كان على القوات السورية أن تدخل فلسطين من بانياس وبنت جبيل، غير أن غلوب باشا أرسل برقية قبل الموعد المحدد بثمان وأربعين ساعة، باسم الملك عبدالله، القائد العام للجيوش العربية، إلى قائد الجيش السوري في الجبهة بالهجوم عن طريق بيسان الواقعة إلى الجنوب الغربي من بحيرة طبريا. وكانت هذه المدينة قد سقطت قبل يوم واحد بيد اليهود. فكان على الجيش السوري أن يعبر «خط إيدن» الذي بنته الحكومة البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية ضد الألمان. والحق، أنه كان من أصعب الأمور على قائد الجيش السوري أن يغير مواقعه ويبدل الخطة في وقت قصير كهذا. ومع ذلك، بدأ السوريون هجومهم في الوقت المحدد، غير أن بيسان لم تسقط إلا في ١٨ أيار (مايو) وبعد أن مني الجيش السوري بخسائر جدّ فادحة.

دور الجيش السوري

كان الجيش السوري سنة ١٩٤٨ مؤلفاً مما يلي:

الجيش والشرطة ٦٥٠٠، حرس الحدود، ١٥٠٠، احتياطي ٢٠٠٠، والمجموع ١٠,٠٠٠.

كان على الحكومة السورية أن تشتري الذخيرة التي فرضتها اللجنة العسكرية العربية، على كل بلد عربي. فأرسلت الحكومة السورية، في مطلع ١٩٤٨، كسباً للوقت، أربعة من ضباطها القادة إلى أوروبا لشرائها وهم: فوزي سلّو، عزيز عبدالكريم، جمال فيصل، وفؤاد مردم، ابن عم رئيس الوزراء، جميل مردم. ووجد الوفد في أوروبا أن الحكومات الأوروبية فرضت حظراً على بيع الأسلحة، لكل البلدان العربية. غير أن شركة سكودا، التشيكوسلوفاكية، وافقت على بيعهم كمية كبيرة من السلاح مما جعلهم في غاية الابتهاج. غير أن هؤلاء الضباط قضوا من الوقت أكثر مما ينبغي في انتقاء نوع الذخيرة التي يحتاجها الجيش السوري، حتى أنهم جعلوا الجيش السوري يدخل فلسطين في ١٥ أيار (مايو) ويقاتل ويوقف القتال في الحادي عشر من حزيران (يونيو) موعد الهدنة الأولى، قبل أن تصل الذخيرة!

وأخيراً أرسلت الذخيرة عبر بحر الأدرياتيك، على الباخرة «لونا»، لكنها حين وصلت إلى جنوب إيطاليا، صدمتها بارجة حربية (إنكليزية على الأغلب)، فشطرتها نصفين. وغرقت السفينة قرب الشاطىء. وأُرسل فؤاد مردم إلى إيطاليا لانقاذ الذخيرة، وقد استطاع، لحسن الحظ، إنقاذ ٨٠٪ منها في حالة حسنة. وعندها أرسلها على مركب كبير مبحر إلى اللاذقية، المرفأ السوري على المتوسط. وبروح غير مسؤولة، سافر هو على مركب آخر إلى الاسكندرية. أما مركب الذخيرة، فلم يصل أبداً إلى مرفئه، وقد يكون سطا عليه الصهيونيون. واتهم كثير من الساسة، يومئذ، فؤاد مردم، بالخيانة. وهكذا حدث أن دخلت سوريا الحرب وليس عندها من الذخيرة إلا ما يكفيها أسبوعاً واحداً. ونتيجة لذلك، اضطر وزير الدفاع، أحمد الشرباتي وكان متزوجاً من إمرأة يهودية، وكان موضع شك أيضاً بوطنيته، أن يوقف التعبئة وأن يسرّح الضباط الذين زادت خدمتهم عن ١٥ سنة. وكان قد بلغ النقص في الذخيرة حداً أرسلت معه قيادة الجيش السوري إلى الجبهة، متطوعين بدلاً من الجيش النظامي.

لم تستطع سوريا أن تحشد من جيشها البالغ عشرة آلاف، غير ألفين للقتال في فلسطين. وتركت احتياطاً ألفي جندي، أرسلت منهم ٥٠٠ إلى جيش الانقاذ. أما الباقي وهو ٦٠٠٠ فقد أبقي في سوريا لشؤون الأمن الداخلي.

الهجوم على بيسان

ترك الجيش السوري منطقة بانياس وبنت جبيل واتجه صوب بيسان في الثالث عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨ وبدأ هجومه بعد ظهر الخامس عشر منه. وخاض السوريون معركة جدّ صعبة، بسبب تغيير الخطة التي أمر بها غلوب، فما استطاع السوريون احتلال المدينة قبل ١٨ أيار (مايو)، وبعد أن تكبدوا خسائر جسيمة. غير أن الخسائر اليهودية كانت أكبر بكثير، وقد روي أن اليهود فقدوا أكثر من ١١٠ قتلى وأسر منهم ٢٠ أرسلوا إلى دمشق. وسقطت، على أثر الاستيلاء على بيسان مباشرة، مستعمرتان يهوديتان في اليوم التالي هما، مشمار هاغولان ومسعدة.

ولقد غطّى الجيش العراقي من جسر المجامع في الجنوب، هجوم الجيش السوري بقصف بيسان بمدافعه الثقيلة. ولولا ذلك لتضاعفت خسائر السوريين.


شكري القوتلي، رئيس جمهورية سوريا

حين سقطت بيسان، زارها الرئيس شكري القوتلي، يرافقه أحمد الشرباتي وزير الدفاع، واللواء طه الهاشمي، المستشار العسكري للجنة العسكرية. وهنأ الرئيس الضباط والرجال على قتالهم المجيد، ونصحهم بالاقتصاد بالذخيرة قائلاً: «بسبب النقص فيها».

الهجوم على مستعمرة داجانيا

بعد احتلال بيسان قرر الرائد عبدالوهاب الحكيم الذي قاد المعركة، أن يحتل مستعمرتي داجانيا (أ) و(ب). وكان يعتمد في هجومه على تغطية العراقيين له كما فعلوا أثناء الهجوم السوري على بيسان. غير أن العراقيين، على الرغم من معرفتهم بساعة الصفر، لم يستجيبوا لطلب التغطية، لسبب مجهول. ولم يكتفوا بعدم التعاون، بل انتقلوا من موقعهم دون إخبار القيادة السورية، مما عرّض الجيش لقنابل العدوّ واضطرهم إلى الانسحاب بعد أن تكبدوا خسائر جسيمة. ولم يكن هذا كل شيء، فقد وصلت الامدادات إلى داجانيا من كل المستعمرات المحيطة بها فأكره السوريون على الانسحاب من بيسان. كما أخلوا المستعمرتين الصغيرتين: مشمارهاغولان ومسعدة.

انتقد الخبراء العسكريون الهجوم السوري على مستعمرة داجانيا بقسوة، نظراً للنتائج السيئة التي انعكست على مسيرة الحرب. ووجه معظم النقد إلى قائد المعركة، عبدالوهاب

الحكيم.

دور الجيش اللبناني

في الخامس عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨ تقدم الجيش اللبناني ليحتل مواقعه على الحدود الفلسطينية الممتدة من رأس الناقورة غرباً إلى بانياس شرقاً، أي مسافة ١١٠كلم. ولقد تمركز ٣٠٠٠ جندي على حدود فلسطين من أصل ٥٠٠٠ الذين هم قوام الجيش اللبناني.


الرئيس بشارة الخوري

كان قائد الجيش اللبناني الأمير فؤاد شهاب، يرى أن هذا الجيش ليس من القوة بحيث يستطيع الهجوم، وعليه أن يحافظ على حدوده فحسب. وخالفه بقوة في هذا الرأي رئيس الوزراء، رياض الصلح، الذي أراد للجيش أن يهاجم تنفيذاً للخطة العسكرية العربية. غير أن الرئيس بشارة الخوري، رئيس الجمهورية، فصل في الخلاف بوقوفه إلى جانب فؤاد شهاب. على كل حال، هاجم الجيش اللبناني في السادس من حزيران (يونيو) قرية المالكية العربية القريبة من صفد ومن الحدود اللبنانية، وحررها بعد أن كان الارهابيون اليهود قد احتلوها في أيار (مايو) وبعد أن خاض معركة قاسية. وجرى الاحتفال بالنصر بحضور اللواء شهاب، والأمير مجيد أرسلان، وزير الدفاع، وفوزي القاوقجي قائد عام جيش الانقاذ. وقرر هذا الأخير جعل المالكية مركزاً للقيادة العسكرية. غير أن الأمر لم يدم سوى أيام قليلة. انطلق جيش الانقاذ باتجاه الناصرة وحيفا، لكنه اضطر للانسحاب، واستمرت الوحدات الصهيونية في تقدّمها، واحتلت المالكية ثانية ودخلت الأراضي اللبنانية فاحتلت


الأمير القائد فؤاد شهاب

إحدى عشرة قرية حدودية منها: بليدا، مركبا، محيبيب، كفركلا، الطيبة، القنطرة، الخ... ثم أخليت هذه القرى فيما بعد، بعد مفاوضات ديبلوماسية صعبة.



رئيس الوزراء، رياض الصلح

رد فعل الرأي العام اللبناني

هزّت هذه الهزيمة العسكرية الرأي العام اللبناني وأخذ الشعب ينتقد، بل يلوم القيادة العليا لوجود عدد من الضباط اليهود ذوي الرتب العالية يخدمون في الجيش اللبناني. قال الناس يومئذ: «اليهودي هو يهودي»، وهم يعنون أنه لا يمكن تصديق اليهودي، حين يقاتل يهودياً. ودافعت القيادة العليا عن نفسها بأنه لا يوجد غير ضابطين يهوديين من ذوي الرتب العالية يخدمان في الجيش اللبناني، أحدهما طبيب، يخدم في مستشفى بيروت العسكري والثاني هو النقيب روبين، وهو ضابط مدفعية، مسؤول عن شراء السلاح والذخيرة للجيش. وإننا لنستغرب أن يكون المسؤول عن شراء السلاح والذخيرة للجيش اللبناني يهودياً.

دور الجيش العراقي

دخل الجيش العراقي في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨، عن طريق جسر المجامع وهو الجسر الواقع شمال نهر الأردن. ولقد كان بوسع الحكومة العراقية أن ترسل جيشاً كبيراً لقتال الصهيونيين، لكنهم لم يرسلوا إلا ٢٠٠٠ جندي. ثم زيد هذا العدد فيما بعد، بعد المظاهرات الطلابية الغاضبة، حتى وصل إلى ٩٠٠٠ جندي.

كان قائد الفرق العراقية المقاتلة هو العميد نور الدين محمود، غير أنه ما لبث أن استدعي إلى عمان ليكون معاوناً للملك عبدالله، القائد العام لكل الجيوش العربية، وحل محله الرائد طاهر الزبيدي.

كان الجيش العراقي، قليل الذخيرة، مثله مثل بقية الجيوش العربية، غير أنه كان مجهزاً بمدافع كبيرة، ولو أنها استخدمت كما ينبغي أن تستخدم، لاختلفت نتائج حرب

فلسطين.

السيطرة العسكرية على امتياز كهرباء روتنبيرغ لفلسطين

كانت الحكومة العثمانية في الأستانة (اسطمبول) قد منحت قبل الحرب العالمية الأولى إمتياز تزويد منطقة القدس بالكهرباء لمواطن يوناني اسمه يوريبيديس مافروماتيس، ولكن الحكومة البريطانية، رفضت طلب مافروماتيس، ومنحت امتياز كهرباء فلسطين كلها لشركة روتنبيرغ اليهودية البريطانية في لندن سنة ١٩١٨، أي قبل أن تصبح بريطانيا منتدبة رسمياً على فلسطين. غير أن المحاكم البريطانية ايدت دعوى مافروماتيس وأخرجت القدس من امتياز روتنبيرغ.

وكان روتنبيرغ قد استخدم، دون حق، ضفتي نهر الأردن ليقيم المنشآت، على الجهتين الفلسطينية والأردنية، ولم تستطع السلطات الأردنية سنة ١٩١٨ أن تعترض لأن شرق الأردن كان تحت الانتداب البريطاني، غير أن وضع شرق الأردن السياسي، اختلف سنة ١٩٤٨، وعليه، أرسل حاكم اربد، بهجت طبارة، في الحادي عشر من أيار (مايو) سنة ١٩٤٨، إنذاراً إلى روتنبيرغ في شرق الأردن قال فيه:

١ ــ لا يمكن البقاء في شرق الأردن إلا للمستخدمين المسؤولين مباشرة عن إدارة المنشآت، وعلى سواهم أن يرحل مباشرة.

٢ ــ على كل من يبقى من الموظفين أن يكون مجرداً من السلاح.

٣ ــ تخضع المنشآت للمراقبة العسكرية الأردنية.

٤ ــ يجب أن يتم ذلك اليوم قبل السادسة بعد الظهر، أي في الحادي عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨، وإلا فإن الجيش الأردني سوف يحتل المنشآت.

قبل «روتنبيرغ» الانذار، وغادر المستخدمون الأردن إلى الجهة الفلسطينية، ما عدا أربعين منهم بقوا، دون سلاح، لإدارة المنشآت. وأصبحت منذ الساعة السادسة في ذلك اليوم تحت إشراف حكومة شرق الأردن. والحقيقة أن ذلك لم يكن إلّا تدبيراً مؤقتاً، لأن تلك الجبهة بما فيها «شركة روتنبيرغ» سوف تكون تابعة للجيش العراقي ليحتلها لدى وصوله.

الهجوم على مستعمرة كيشير

عندما وصل الجيش العراقي وحل محل جيش شرق الأردن، أمره الملك عبد الله، بناء على برنامج غلوب باشا، بالهجوم على مستعمرة كيشير اليهودية، التي كانت تقع على الضفة الفلسطينية من نهر الأردن وهي جد قريبة من جسر المجامع. غير أن اليهود نسفوا في ليلة ١٤ أيار (مايو) الجسر فجعلوا عبور الجيش العراقي إلى الضفة الفلسطينية في غاية الصعوبة. ومع ذلك، عبر الجيش وبدأ هجومه على كيشير.

قصف العراقيون المستعمرة بقنابل مدافعهم الثقيلة، لكن دفاعاتها كانت من القوة بحيث لم يتمكنوا من اختراقها. غير أنهم استطاعوا بعد أن خسروا خسائر جسيمة، الوصول إلى «بناء تيغارت» القريب من المستعمرة، ثم استمروا إلى أن باتوا قريبين من مدخلها.

حينئذ، جاءهم الأمر بالانسحاب. لكن لماذا؟ يقول العراقيون في تقريرهم: «لأن غلوب باشا ما كان يريد ذلك. كان يريد أن يخسر العراقيون رجالهم دون احتلال المستعمرة» ويقول عبد الله التل في كتابه «كارثة فلسطين»: «جاء الأمر بالانسحاب عندما أصبح العراقيون على أبواب كيشير».

أقام الجيش العراقي، بعد انسحابه من معركة كيشير، قيادته في منطقة السامرة (في نابلس وطولكرم).

معركة جنين

كان هجوم الإرهابيين اليهود المفاجىء الذي شنوه على جنين من أولى المعارك التي خاضوها بعد ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨. وجنين هي مدينة صغيرة في شمال فلسطين، تقع في الجزء العربي من فلسطين حسب قرار التقسيم للأمم المتحدة. وكانت فيها قوة شرطة صغيرة ومعها عدد قليل من المناضلين وعلى رأسهم، القائمقام، عصام الشوّا. فخاضت هذه القوّة معركة قاسية، اضطرت بعدها إلى اللجوء إلى «بناء تيغارت» في ضاحية المدينة.

كان الجيش العراقي المتمركز في نابلس وطولكرم، أقرب القوات العربية إلى جنين. وحين وصل النبأ إلى معسكراته، اندفعت لنجدتها كتيبة منه عدد أفرادها ٤٠٠. ولحق بهم مئات من مسلّحي القرى القريبة، وتلت ذلك معركة نجم عنها هزيمة القوات اليهودية بعد أن تركت حوالي ٨٠٠ قتيل على أرض المعركة. ولحق بها العرب باتجاه مستعمرة ناتانيا الواقعة على شاطىء المتوسط. وأراد الضابط القائد أن يتابع هجومه حتى احتلال ناتانيا ويقسم فلسطين إلى قسمين، لكن القيادة العليا العراقية استدعته، ووجهت له اللوم لحماسه الزائد عن اللزوم!

دور الجيش المصري

ذكرنا آنفاً أن رئيس وزراء مصر، فهمي النقراشي، لم يوافق على الحرب ضد الصهيونيين في فلسطين مع أن القائد العام للجيش المصري كان قد حضر اجتماع القادة العرب وصوت مع قرار دخول الجيوش العربية إلى فلسطين في الخامس عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨، لنجدة أهلها.

والواقع انه حسب تقدير النقراشي، لم يكن الشعب المصري سنة ١٩٤٨، اذا استثنينا حفنة من الضباط المتحمسين في الجيش والإخوان المسلمين، على حماس شعوب

سوريا والعراق والأردن. وكان النقراشي يعلم أيضاً أن جيشه ضعيف، سيء التجهيز غير قادر على المعركة. إلى جانب هذا التعقيدات الأخرى التي يمكن أن تنشأ عن وجود عدد كبير من القوات البريطانية على قناة السويس والمفروض أن تتخطاها القوات المصرية في تقدمها.

غير أن هذه الاعتراضات زالت جميعاً في ١٤ أيار (مايو) ١٩٤٨. فقد أمر الملك فاروق، النقراشي بأن يرسل الجيش إلى الجبهة في الخامس عشر من أيار (مايو) حسب الاتفاق مع الدول العربية الأخرى. وما كان بوسع مصر أن تظل خارج المعركة ما دامت هي زعيمة جامعة الدول العربية. والحق أن جامعة الدول العربية والرأي العام العربي هما اللذان جعلا مصر تحزم أمرها.



الملك فاروق، ملك مصر

القوات المصرية النظامية

كان عدد القوات المصرية التي دخلت فلسطين في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨، ٦٠٠٠ جندي فقط، حسب ما جاء في كتاب «النكبة» لعارف العارف. وساهمت في القتال أيضاً قوّة سودانية صغيرة تحت القيادة المصرية. وكانت هنالك أيضاً قوة من ٦٠٠٠ جندي تعسكر في العريش قريباً من الحدود الفلسطينية.

أما الكتائب التي ساهمت في الحرب فكانت التالية:

الكتيبة الأولى ويقودها زكريا محي الدين؛

الكتيبة السادسة ويقودها جمال عبد الناصر؛

والكتيبة التاسعة ويقودها عبد الحكيم عامر؛

وصادف أن يكون هؤلاء الضباط الثلاثة من الذين أسقطوا الملك فاروق في ثورة ١٩٥٢، وأعلنوا مصر جمهورية برئاسة محمد نجيب، أول رئيس جمهورية لمصر.

المتطوعون غير النظاميين من الاخوان المسلمين

«الاخوان المسلمون» هم جماعة قوية تأسست في مصر وفي كثير من البلدان العربية والإسلامية. ولقد ألح الاخوان المسلمون المصريون، في الأربعينات، على الذهاب إلى فلسطين والقتال مع إخوانهم العرب الفلسطينيين ضد الصهيونيين، وكان الزعيم المصري

المشهور، حسن البنّا، أمين عام تلك المنظمة. لكن الحكومة رفضت أن تأذن لهم. غير أن حكومة النقراشي اضطرت سنة ١٩٤٨ لتغيير سياستها.

القوات المصرية تدخل فلسطين

كان على الجيش المصري أن يدخل فلسطين عن طريق رفح، حسب الاستراتيجية العسكرية التي تبناها قادة الجيوش العربية في الزرقاء في نيسان (ابريل) ١٩٤٨، وأن يتجه من هناك بمحاذاة الشاطيء إلى خان يونس وغزة والمجدل واسدود ويافا. وكانت كل تلك المدن لا تزال في أيدي العرب الفلسطينيين ما عدا يافا. أما قوى المتطوعين من الاخوان المسلمين فتتجه في داخل البلاد إلى بير السبع، والخليل وبيت لحم والقدس. ولم تكن أي من تلك المدن في أيدي اليهود.

كان يقود القوى النظامية، العقيد، محمد علي الملاوي؛ وكان يقود المتطوعين غير النظاميين، الجندي الوطني الكفوء، المقدم، أحمد عبد العزيز، وهو مقدم سابق في لواء الفرسان الملكي. أراد الملاوي أن تكون القوتان بقيادته، غير أن عبد العزيز رفض رفضاً قاطعاً أن يكون تابعاً له. وهذا ما أدى إلى بعض الخلاف بين الضابطين.

دخل الجيش المصري في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨، فلسطين حسب الخطة. واتجه نحو شاطىء البحر المتوسط وبعد أن أقام مراكز قيادته في رفح وخان يونس ودير البلح، توقف في مدينة غزة.

كانت في غزة كتيبة من الجيش العربي كتلك التي كانت في القدس خلال الانتداب البريطاني، وقد سحبت هي أيضاً في الرابع عشر من أيار (مايو) عند انتهاء الانتداب.

غزة، مدينة عربية في جنوب فلسطين على شاطىء البحر الأبيض المتوسط، على بعد ٥٠ كلم، جنوبي يافا. وكان عدد سكانها حوالي ٥٠٠٠٠، ما فتئوا أن ازدادوا حتى أصبحوا ٤٠٠٠٠٠ بسبب سيل المهاجرين العرب الذين فرّوا إليها من يافا وضواحيها بحثاً عن مأوى.

نظمت غزة لجنتها القومية كما فعلت بقية المدن العربية. وكان مدير مكتب بيت المال العربي الذي أنشىء سنة ١٩٤٦، نشيطاً جداً، هو سامي العلمي، خريج الجامعة الأميركية في بيروت. وكانت اللجنة الاستشارية أيضاً في غاية النشاط وهي المسؤولة عن الفروع التي أسستها في المجدل وأسدود وخان يونس* .

---

* أسماء بعض الزعماء الذين عملوا في اللجنة القومية سنة ١٩٤٨، أسماء يجب أن يحفظها التاريخ في سجلاته ومنها: موسى الصوراني، منير الريس، (رئيس البلدية)، رشيد الشوا، (الرئيس السابق)، رجب أبو رمضان، عبد الخالق أبو شعبان، حسني خيال، عاصم بسيسو، يوسف صايغ، محمد دلول، رفعت بورنو، احمد سكسك، شحيبر، طرزي، سامي العلمي.

كان مناضلو غزة متطوعين من أبناء المنطقة؟ غير أنهم لم يخوضوا أية معركة حتى ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨، لأن مدينتهم لم تتعرض حتى ذلك الوقت لهجمات اليهود. وكان فصيل من الاخوان المسلمين يوجد في دير البلح، وآخر في خان يونس. ولم يتخذ العقيد محمد الملاوي غزة مركزاً لقيادته بالرغم من أنها أكبر المدن في المنطقة، وانما اختار مدينة أصغر وأقرب إلى الشمال هي المجدل*.

غزة تستقبل الجيش المصري بالهتاف

استقبل أهل غزة، وكلهم من العرب، الجيش المصري على أرضهم بالهتاف، لكن المصريين، لسوء الحظ، لم يعاملوا الفلسطينيين في بادىء الأمر معاملة حسنة، لأنهم لم يكونوا يعرفونهم جيداً كما يعرفهم السوريون والأردنيون واللبنانيون. كانوا يجهلون «القضية الفلسطينية» كما كانت معرفة ما يجري في فلسطين تنقص الرأي العام المصري. كانوا يتهمون العرب الفلسطينيين بالخيانة والجبن، وبأنهم شعب باع أرضه لليهود وفرّ. ولقد ذهب الملاوي بعيداً، حتى أراد أن يجرّد المناضلين من سلاحهم. وفيما الجدل قائم، فاجأ اليهود الجيش المصري بالهجوم عليه واحتلالهم القرى العربية شمالي غزة ومنها السوافير، وقسطينة، وتل الترمس، وياهور والمسمية. ووصلوا إلى أسدود حيث كان الجيش المصري.

ولقد كان الجيش المصري، في اتجاهه من رفح في جنوب فلسطين إلى أسدود شمالاً (٤٠ كلم عن يافا)، مضطرا إلى احتلال بعض المستعمرات اليهودية التي كانت على طريقه، لكنه لسوء الحظ لم يستطع احتلالها جميعاً، فترك بعض الجيوب وراءه، مما كان له الأثر السيء على مستقبل المعركة، كما سنرى.

معركة كفر دارم

كانت كفردارم من المستعمرات اليهودية التي عطلها الجيش المصري عن الحركة، أثناء تقدمه باتجاه غزّة، وهي واقعة بين الأخيرة وخان يونس. كانت دفاعات المستعمرة في غاية القوة؛ ففشل المصريون في احتلالها وأبقوا الحصار حولها. وقد جربت القوات اليهودية أن تفكّ الحصار فهاجمت الكتائب المصرية بالدبابات والسيارات المصفّحة، غير أن المصريين، بعد أن جاء لمساعدتهم المناضلون من القرى المجاورة وفصيل من الاخوان المسلمين، قاموا بهجوم معاكس فاستولوا على دبابات العدو ومصفحاته وقتلوا أكثر المهاجمين وكانت نتيجة

* شهدت مدينة غزة في التاريخ الحديث عدداً من الاحتلالات يتجاوز ما شهدته المدن الأخرى. فقد احتلتها البحرية البريطانية في عهد الأتراك، خلال الحرب العالمية الأولى، ثم أخلتها. وبعد سنة، أي سنة ١٩١٧ احتلتها قوات اللنبي. وفي سنة ١٩٤٨، دخل المصريون إليها، دون أن يكونوا محتلين، وبقوافيها حتى سنة ١٩٥٦، حين احتلتها القوات الإسرائيلية. وفي سنة ١٩٥٧ أخلتها القوات الإسرائيلية ورجعت إليها القوات المصرية. وفي سنة ١٩٦٧ أعادت القوات الإسرائيلية احتلالها وما زالت فيها إلى اليوم.

هذه المعركة درساً للقوات العربية وهو أن الحصار أفضل من الاحتلال، حين تحين الفرصة.

المقدم أحمد عبد العزيز

وافق المقدم أحمد عبد العزيز على أن يكون مسؤولاً عن قطاع بيرالسبع، بعد أن رفض الانضواء تحت قيادة العقيد محمد الملاوي على أن يتجه من هناك الى الخليل وبيت لحم والقدس.

وفيما هو ينظم قواته في بيرالسبع، حضر إليه وفد من الخليل، وطلب اليه، إن كان بوسعه، أن يرسل فصيلاً من قواته إلى الخليل وبيت لحم. فجازف بإضعاف دفاعاته في بيرالسبع وسار بأربعمائة رجل من قواته إلى الخليل، فوصلوها في الثاني والعشرين من أيار (مايو) حيث استقبلوا بهتافات الشعب العالية. وحين عرف بالمعركة المحتدمة في رامات راحيل، المستعمرة اليهودية، القائمة على بعد ٤ كلم إلى جنوب القدس، قرر أن يذهب إلى الميدان كي يرى كيف تتطور المعركة. وحين وصل إلى بيت لحم، لم يتردد غلوب باشا ومعاونه الكولونيل لاش، في أن يظهرا له أنه غير مرغوب فيه هناك. فما كانا يرغبان بوجود أية قوات عربية في تلك المنطقة حتى لا تكون عقبة في طريق ضم فلسطين العربية للأردن. وكان من غيظ الأردنيين، أنهم لم يسمحوا لرجاله برفع العلم المصري فوق البناء الذي استأجره عبد العزيز مركزاً لقيادته. وبدأت تظهر منذئذ الخلافات بين القيادتين المصرية والأردنية. واستمر الشقاق، حتى لقد رأيته بعد شهر من ذلك انا والدكتور شحادة الغصين، قنصل عام لبنان في القدس، واضحاً يوم زيارتنا التاريخية إلى منطقة غزة، ابان الهدنة الأولى، هدنة الاسابيع الاربعة. كانت هنالك فوضى عسكرية في بيت لحم والخليل، والفوضى لا تؤدي إلى النصر.

دور جيش شرق الأردن ويدعى الجيش العربي

كان على الجيش العربي، تبعاً للاستراتيجية العسكرية العربية التي وضعها قادة ١
الجيوش العربية، أن يعبُر جسري دامية والحسين على نهر الأردن وينقسم من هناك إلى شطرين. أحدهما يتجه إلى جنين والعفولة والثاني يسير إلى رام الله وباب الواد على طريق يافا ــ تل أبيب.

وتلقى الجيش العربي الأمر بأن يكون في ١٤ أيار (مايو) ١٩٤٨ في الشونة، وهي مشتى الملك عبد الله، وتقع على بعد كيلومترات قليلة من جسر اللنبي. وأراد الملك أن يفتش القوات ويخطب فيها قبل أن تدخل فلسطين.

تنفيذاً للأمر، كانت الكتيبتان الأولى والثانية في الشونة مستعدتين للتفتيش.

أما الكتيبتان الرابعة والسادسة فقد كانتا في فلسطين من قبل، وهما اللتان كانتا في القدس وأمرتا بالانسحاب في ١٤ أيار (مايو) والذهاب إلى أريحا، كما ذ ذكرنا.

وصل الملك في الرابعة بعد الظهر. فاستقبلته القوات المتحمسة بهتاف عظيم. وكان الجيش يشعر بفرح عظيم، ليس لأنه ذاهب الى فلسطين ليلغي التقسيم، بل لأنه ذاهب إلى فلسطين ليحررها من الاحتلال الصهيوني. وكانت الجيوش جدّ مخلصة؛ كانت وطنية، ممتلئة حماساً وشجاعة.

كانت كلمة الملك جدّ قصيرة وبوسعنا أن نلخص ما قاله بكلمة واحدة: «الطاعة! الطاعة!».

استغرب عدد كبير من الضباط حين سمعوا، أن على الجيش أن يتقدم إلى رام الله وباب الواد عن طريق جسري الحسين ودامية عبر نابلس، بدلاً من جسر اللنبي فالقدس وهو الطريق الأقصر والأسهل. وفسر لهم غلوب الأسباب بما يلي:

١ ــ لأن جامعة الدول العربية اتفقت على أن تجتنب الجيوش العربية القدس.

٢ ــ نظراً «لوقف اطلاق النار» فيَ القدس. وكان هذا غير صحيح.

٣ ــ لأن القدس مدينة دولية، حسب قرار الأمم المتحدة بالتقسيم.

كان غلوب باشا، يعرف أكثر من أي شخص آخر، أنه لم تكن هناك أية أسباب حقيقية تمنع مرور الجيش العربي من القدس إلى رام الله والأجزاء الأخرى من فلسطين. والسبب الحقيقي هو أن غلوب باشا كان يريد فعلاً أن تصبح القدس تحت حكم اليهود. ولهذا سحبت الكتيبة الأردنية التي بقيت أربع سنوات في القدس إبان الانتداب البريطاني، إلى أريحا يوم الرابع عشر من أيار (مايو)، أي قبل الانسحاب البريطاني بيوم واحد. فإذا كان وجود الكتيبة حسناً خلال الانتداب البريطاني، فلماذا لا يكون حسناً أيضاً خلال الانتداب العربي؟! ولو أن غلوب كان مخلصاً للعرب، لما أمر الكتيبة العربية في القدس بالانسحاب منها وأهلها العرب في أحلك ساعاتهم؛ وما كان احتل اليهود أكثر المدينة العربية خارج الأسوار وأخذوا يحاولون احتلال ما تبقى منها! وكان مفروضاً بقائد الجيش العربي أن يخلص للقضية العربية لا لوزارة الخارجية البريطانية!!

أمر غلوب الكتيبة السادسة بالبقاء في أريحا للدفاع عن شرق الأردن. وكان خط دفاعه في الخان الأحمر، وهو على بعد ١٦ كلم شرقي القدس. وهناك وضع فصيلاً أمره بقطع طريق القدس ــ أريحا إذا تقدمت القوات اليهودية، (بعد احتلال القدس طبعاً)، شرقاً. وأرسل فصيلاً آخر لحراسة جسر المجامع وجسر دامية. ونبّه غلوب باشا، القائد التل إلى إمكانية مثل هذا التقدم اليهودي وشدد عليه بضرورة اليقظة. وربما كان ينتظر مثل

ذلك الهجوم.

الجيش العربي لم يكن عربيا بسبب غلوب

كان ضابط بريطاني هو الجنرال السير جون باغوت غلوب يقود جيش شرق الأردن، «وكان يدعى الجيش العربي»، بصفته قائداً عاماً له. فكان ولاؤه الاسمي للملك عبد الله، بينما كان ولاؤه العملي لوزارة الخارجية البريطانية. وكان الملك عبد الله نفسه، لا يستطيع، للأسف، الخروج على السياسة البريطانية في المنطقة.

كان في إمرة القائد العام البريطاني للجيش العربي: ٥١ ضابطاً منهم ٦ ضباط عرب والبقية كانوا من البريطانيين. ولم يكن بين مساعدي القائد العام العديدين غير عربي واحد وهو العميد عبد القادر الجندي.

والضباط الخمسة العرب الآخرون هم:

العقيد أحمد صدقي الجندي، قائد الفرقة الرابعة؛ والرائد حابس المجالي، قائد الكتيبة الرابعة؛ والنقيب عبد الحليم ساكت، قائد الكتيبة الخامسة؛ والنقيب عبد الله التل، قائد الكتيبة السادسة؛ والنقيب علي الحياري، ضابط ركن.

مركز القيادة

جُعلت قرية بيتونيا، الواقعة قرب رام الله، مركز قيادة الفرقة الأولى. وتمركزت الكتائب كما يلي: الكتيبة الأولى في النبي صموئيل؛ والكتيبة الثالثة في رام الله؛ والكتيبة الخامسة في نابلس ويالو وتلال باب الواد واللطرون واللد والرملة.

وقد كان الجيش العربي مسؤولاً عن الأماكن التالية: بيتونيا، النبي صموئيل، رام الله، يالو (خلف باب الواد) اللطرون، القدس، طريق تل أبيب أريحا، الجفتلك (بالقرب من نابلس)، نابلس، جسر دامية، بيت نوبا، الخان الأحمر، بيت لحم، الخليل اللد، والرملة. وكان عدد الجيش في معركة فلسطين: النظاميون ٧٨٥٠، والمتطوعون الأردنيون (من عشائر الحويطات وبني صخر) ١٢٠٠.

مشروع بوتاس كاليا على البحر الميت

وضع مشروع البوتاس الصهيوني على البحر الميت «كاليا»، تحت إمرة النقيب عبد الله التل، وهو يقع على بعد ١٢ كلم فقط إلى جنوب أريحا. وكان التل يريد مبدئياً احتلال المنشآت، لكن غلوب أمره بألاّ يفعل ذلك. كان التل يرى أنه مشروع صناعي يساوي ملايين الجنيهات الإسترلينية، وأن الواجب يقضي بالاستيلاء عليه للمقايضة به. لكن

المفاوضات، للأسف، بين غلوب وسلطات كاليا انتهت إلى أن يستمر المشروع بالعمل تحت إشراف الجيش العربي. ونختصر اتفاق كاليا بما يلي:

«يغادر اليهود المسلحون المنشآت ويبقى الخبراء اللازمون لإدارتها. ويبقى هذا الاتفاق سارياً حتى حل المشكلة الفلسطينية النهائي».

غير أن اليهود اختفوا فجأة من المشروع. فقد غادروا خفية إلى المشروع الثاني الشبيه به، القائم على الشاطىء الجنوبي الغربي من البحر الميت، وهو حسب مشروع التقسيم، ضمن الدولة اليهودية المقترحة؛ هذه الدولة التي هي في مأمن من هجوم الجيش العربي، تبعاً للسياسة السرية لشرق الأردن التي يقوم عليها غلوب.

تخريب كاليا

عندما سمع أهل أريحا بأن «كاليا» أصبحت خالية، غزوها ونهبوها. فذهب المشروع التقني الصناعي شذر مذر وبات دون فائدة، مع أن الأشياء التي نهبت كانت غير ذات قيمة تذكر. وفيما كان «الجهل» يفعل فعلته، لم يعط غلوب الأوامر لإيقاف النهب!

الفصل السادس والأربعون

لجنة الهدنة تطلب وقف القتال في القدس
آخر يوم للانتداب البريطاني في فلسطين
الإعلان عن حكومة إسرائيل المؤقتة
اليهود يهجمون على القدس الشرقية «والجهاد المقدس» يدافع منفرداً

كانت لجنة الهدنة تتألف من ثلاثة قناصل عامين في القدس: بلجيكا وفرنسا والولايات المتحدة، وقد عينتها الأمم المتحدة.

وفي الثاني عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨ جرّبت لجنة الهدنة أن توقف القتال في القدس علها تجنب المدينة المقدسة ويلات الحرب. فقابل أعضاؤها الطرفين اللذين وافقا على وقف إطلاق النار على أن يبدأ العمل به في الرابع عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨.

وفي اليوم التالي عقد اجتماع في مكتبي على طريق مأمن الله حضره المستر واسون (Wasson,) القنصل الأميركي العام، نيابة عن لجنة الهدنة، والنقيب منير أبو فاضل عن «الجهاد المقدس» والنقيب فاضل العبد الله الرشيد عن جيش الإنقاذ. أراد المستر واسون في ذلك الاجتماع أن يثبت وقف إطلاق النار، وأن يؤكد لنا أنه سوف يحترم ويبدأ العمل به في اليوم التالي، الجمعة، ١٤ أيار (مايو). غير أننا لم نستطع أن نأخذ تأكيدات المستر واسون بجدية، فنحن نعرف طباع الصهيونيين وأطماعهم. ولم نتردد في تنبيه المستر واسون إلى وعود الصهيونيين الكاذبة، وإلى نقضهم كل اتفاق إذا اقتضت مصلحتهم ذلك.

في اليوم التالي، الجمعة، الواقع في ١٤ أيار (مايو)، وضحت للمستر واسون خيانة الصهيونيين، فقد بدأوا منذ الصباح الباكر بقصف الأحياء العَربية كلها قصفاً كثيفاً، لم أتمكن معه من الخروج من باب الخليل والوصول إلى مكتبي على طريق مأمن الله.

نهاية الانتداب البريطاني على فلسطين

كان يوم ١٤ أيار (مايو) ١٩٤٨ آخر يوم في الانتداب البريطاني على فلسطين «يوماً أسود» في تاريخ بريطانيا الطويل. كان آخر يوم في انتداب ثلاثين عاماً، لم تأت بالسلام والوئام إلى شعب الأرض المقدسة، بل جلبت القتال والنزاع وإراقة الدماء والحروب إلى «أرض السلام» ــ فلسطين.



الجيش البريطاني يترك فلسطين

في ذلك اليوم الأسود، الرابع عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨، غادر البلاد المندوب السامي، رمز الأستعمار والاستبداد البريطاني في فلسطين. وفي ذلك اليوم، رأى المندوب السامي المدينة المقدسة والأرض المقدسة تحترقان، كما شاهد نيرون لقرون خلت، عاصمته روما وهي تحترق. وفي الحالتين كانت النار من صنع أيديهما.



السير آلن كانينغهام
المندوب السامي خارج من دار الحكومة

في ذلك اليوم، أنزل العلم البريطاني لآخر مرة عن دار الحكومة وارتفع مكانه علم الصليب الأحمر الدولي، بدلاً من العلم الفلسطيني. وفي الساعة العاشرة صباحاً، غادر السير آلن كانينغهام، في موكب جنائزي، بالسيارة إلى مطار قلندية الذي يبعد حوالي ١٢ كلم إلى الشمال من القدس، فاستقل الطائرة من هناك إلى حيفا، حيث أبحر إلى إنكلترا.

إعلان حكومة إسرائيل المؤقتة

في ذلك اليوم، أعلنت الوكالة اليهودية، في تل أبيب «حكومة إسرائيل المؤقتة» والتي إعترف بها الرئيس الأميركي، هاري ترومان، بعد خمس دقائق من إعلانها.

وفي ذلك اليوم، الرابع عشر من

أيار (مايو) ١٩٤٨، تذكر العرب الفلسطينيون الأصليون بقوة، يوم الحادي عشر من كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٧، اليوم التاريخي لدخول الجنرال اللنبي إلى المدينة المقدسة، وخطابه الذي لا ينسى (أنظر الفصل الرابع).

عندما دخلت القوات البريطانية إلى المدينة المقدسة في كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٧ كان السلام سائداً. فلقد بعث قائد القدس التركي برسالة إلى القائد البريطاني الذي كان يقصف المدينة بالقنابل، طالباً إليه إيقاف القصف. قال القائد التركي: «انسحبت كل القوات التركية من القدس، إنقاذاً لمدينة كل المعتقدات، من الخراب». لقد احترم الأترك «مدينة كل المعتقدات» سنة ١٩١٧، أما الحكومة البريطانية، فلم تفعل ذلك بعد ثلاثين سنة. وقد غادر ممثلها، المندوب السامي، المدينة المقدسة بعد أن تركها تحترق!!

ثلاثون سنة من الاستبداد البريطاني في فلسطين

هدر حقوق الشعب العربي الفلسطيني

خلال ثلاثين سنة بين ١١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٧ و١٤ أيار (مايو) ١٩٤٨، جلبت الحكومة البريطانية إلى فلسطين بصفتها الدولة المنتدبة عليها، وضد إرادة سكانها العرب الأصليين، وضد مبادىء العدل وتقرير المصير: ٧٠٠٠٠٠ مهاجر يهودي، نظمتهم، وسلحتهم، وقوّتهم، حتى غدوا تهديداً حقيقياً لشعب فلسطين العربي الأصيل. تلك السياسة البريطانية الخاطئة وقد ارتكزت على وعد بلفور، هي التي خلقت «الصراع العربي ـ اليهودي». لقد أدخل وعد بلفور سنة ١٩٢٢، دون حق وضد كل القوانين، في صلب صك الانتداب على فلسطين الذي حُكمت فلسطين بموجبه. ولقد سمحت الدولة المنتدبة في سنتي ١٩٣٤ و١٩٣٥ للمهاجرين اليهود بالدخول إلى فلسطين بأرقام خيالية، (من ٦٠ إلى ٧٠ ألفاً سنوياً) مما جعل الصراع العربي ـ اليهودي خطراً حقيقياً على مستقبل السكان العرب وما كانت ثورة الثلاثينات إلّا نتيجة لهذه الهجرة اليهودية الضخمة. غير أن إعلان الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ ساعد، في تهدئة الحالة في فلسطين لسنوات قليلة.

في سنة ١٩٤٤، بدأ اليهود، وقد أنعشتهم هزيمة هتلر، بتقوية عصاباتهم الارهابية المنظمة (الهاغاناه، والأرغون زفاي ليومي وشتيرن) فأخذت تتآمر على السلطة المنتدبة مهددة إياها بتهديم كل المنشآت الحكومية، إذا لم تقدم لهم فلسطين على طبق من فضة. ولم تجبن الحكومة البريطانية، عن مواجهة الإرهابيين اليهود فحسب، بل كانت غير راغبة في سحقهم حتى ولا في إعادة النظام والقانون إلى فلسطين.

قررت بريطانيا، محاولة منها للتخلص من وضعها المخجل والمضطرب، أن تتنازل عن انتدابها على فلسطين، وأن تنقل المشكلة الفلسطينية الشائكة، التي خلقتها، إلى الجمعية

العمومية للامم المتحدة، كي تتصرف بها. فقبلت الأمم المتحدة المسؤولية لحل القضية الفلسطينية. ولكن الجمعية العمومية كانت، كبريطانيا العظمى، منحازة وغير حكيمة، تخضع لضغوط الولايات المتحدة وتهديداتها؛ سيما تهديد الرئيس ترومان الشخصي للأعضاء. وقررت الجمعية العمومية في التاسع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧، تقسيم فلسطين إلى دولة عربية وأخرى يهودية وأعطت الـ ٧٥٠,٠٠٠ يهودي، الدخلاء، أفضل وأخصب نصفي فلسطين، بينما كانوا لا يملكون أكثر من تسعة بالمائة من أراضيها، وتركت لأكثر من ١,٣٠٠,٠٠٠ عربي من العرب الأصليين، الذين كانوا يملكون واحداً وتسعين بالمائة من فلسطين، نصف البلاد القاحل، مما جعل الصراع العربي ـ اليهودي يبلغ أوجه، فنجم عنه حرب فلسطين لسنة ١٩٤٨، والتي نحن الآن بصدد تسجيل البعض من وقائعها.

الصهيونيون ينوون احتلال القدس بما فيها المدينة القديمة

يوم الرابع عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨، هاجم الإرهابيون اليهود أحياء القدس العربية من كل الجهات بالرغم من اتفاق وقف إطلاق النار الذي أعلنته لجنة الهدنة في اليوم السابق. ولقد قاموا بهجمات عنيفة على باب الخليل وباب العمود والباب الجديد وباب النبي داوود والشيخ جرّاح؛ كان القصد منها احتلال المدينة القديمة قبل أن تصل إليها الجيوش العربية في ١٥ أيار (مايو). وحين عرف الصهيونيون من جواسيسهم أن كتيبة الجيش العربي في البقعة الفوقى سوف تغادر القدس ذلك اليوم، لم يضيعوا الوقت فاحتلوا «البقعتين، الفوقى والتحتى»، «وكولونية اليونانية»، «والطالبية»، «والبناية الروسية»، وفيها مستشفى الحكومة ومستشفى التوليد. وبقي في أيدي العرب «حي المصرارة»، «والشيخ جرّاح» «ومنطقة باب الساهرة» «والقدس القديمة».

غير أن هذا النجاح كان تافهاً، بالنسبة للصهيونيين، من دون مدينة القدس القديمة وفيها الحي اليهودي وسكانه الـ ٢٠٠٠، بالاضافة إلى ٥٠٠ من الهاغاناه الذين أتوا للدفاع عنه. كانوا يريدون احتلال المدينة القديمة حالاً للأسباب التالية:

١ ـ قبل أن يضطروا للاستسلام بعد إغلاق طريق القدس ـ تل أبيب.

٢ ـ قبل أن يبدل غلوب باشا سياسته التي كانت تمنع القدس على قوات الجيش العربي.

٣ ـ قبل دخول الجيوش العربية الأخرى إلى فلسطين، لأن المساعدة يمكن أن تأتي من القوى المصرية القادمة من الجنوب.

٤ ـ نجدة الـ ٢٠٠٠ من السكان اليهود والـ ٥٠٠ من الهاغاناه الذين يمكن نقلهم

إلى مكان آخر.

٥ ـ كي يمتلكوا «جدار المبكى» والأماكن المقدسة الأخرى داخل سور المدينة. وجدار المبكى، وهو ملكية إسلامية، هو المكان المقدس الوحيد لدى اليهود، وهو ليس كنيساً، بل ساحة مغلقة، يحيط بها جزئياً سور المدينة. ويأتيه اليهود، تبعاً للوضع الراهن، كي يصلّوا فيه، وخصوصاً في يوم الجمعة مساء وفي يوم السبت.

كان موضوع الوقت في غاية الأهمية بالنسبة الصهيونيين. فطريق تل أبيب ــ القدس، قطع في باب الواد وقطع أيضاً وصول الإمدادات. كما قطع، أيضاً، الماء من رأس العين عن يهود القدس وهي مشكلة أخرى هامة. يضاف إلى ذلك أن المواد الغذائية التي كان يجيء أكثرها من القسم العربي من المدينة، قطع قطعاً تاماً، وبات الحي اليهودي مهدداً بالمجاعة. هذه الصعاب جميعها دفعت باليهود إلى الإسراع في احتلال المدينة كلها قبل أن يجبروا على التسليم.

الهجوم على كل الجبهات

جاء الهجوم على باب الخليل بالدبابات والسيارات المصفحة من جنوب القدس الذي أصبح في أيدي اليهود. فقد صعدت الدبابات من بركة السلطان المشهورة، كي تقتحم فتحة باب الخليل في سور المدينة، وهي التي فتحها الأتراك للامبراطور الألماني ويلهلم الثاني، حين زار القدس سنة ١٨٩٨. غير أننا سددنا فتحة السور تلك إلى علو عدة أقدام بأكياس الرمل بينما كان مناضلونا والشرطة المسرحون قد تمركزوا حول سور المدينة، مستعدين لردّ العدو عنها؛ فخسر اليهود خسائر فادحة في هجومهم. ولقد شاهدت من أعلى سور المدينة، عشرات الدبابات والسيارات المصفحة التي حطمتها بنادقنا المضادة للدبابات، وما كانت خسارة اليهود لتقل عن ٢٠٠ قتيل في ذلك الهجوم.



صورة أكياس الرمل على أبواب سور المدينة

وحين فشل الصهيونيون في الدخول من الباب الجديد، أحرقوا «دير القربان» (Reparatrice) للاتين وقد كان ملاصقاً للسور على بعد عشرة أمتار من الباب الجديد، وجعلوا من البناء المحروق، جسراً يتمكنون بواسطته من الوصول إلى مدرسة الفرير وهي في الجانب الثاني من السور؛ غير أن كل هذه الهجمات ردّت.



دير القربان أحرقه الارهابيون اليهود

يواجه الباب الجديد بناء «نوتردام» الضخم الجميل وهو دير فرنسي يحتل موقعاً استراتيجياً. فكان أشبه بقلعة وقد كان يحتله «الجهاد المقدس» حتى يوم ١٨ أيار (مايو) فاستطاع أن يرد جميع الهجمات اليهودية، ولما أجهد، جاء فصيل من جيش الإنقاذ كي يحلّ محل «الجهاد المقدس»؛ لكنه انسحب من البناء، بشكل محزن، في اليوم نفسه. وحدثت الكارثة نفسها في دير الفرنسيسكان على جبل صهيون، مقابل باب النبي داوود. فقد أخلاه فصيل جيش الإنقاذ بعد ٢٤ ساعة.

أما رجالنا المناضلون والشرطة المسرحون الذين كانوا في أعلى السور، فقد لزموا مواقعهم ليل نهار. كان غذاؤهم يحمل إليهم. وظلّوا دون تبديل حتى دخل الجيش العربي القدس في ١٨ أيار (مايو). إن الذين كانوا في الساحة يومئذ، يعرفون وحدهم، كم احتمل أولئك الرجال خلال أسبوع. ولا بد من القول أن خسائرنا كانت على كل الجبهات من الكثرة بحيث اضطررت إلى استئناف مهنتي الطبية في مستشفى سبيس النمساوي الموقت لمساعدة الأطباء: إبراهيم إطليل ويعقوب نزهة، وحنا عطا الله، وعدد قليل آخر قدّرت إنهم لن يستطيعوا القيام بمعالجة جميع الجرحى. فلقد كانت الغرف ومن بعدها الممرات جميعاً ملأى بالجرحى.

نضوب ذخيرتنا الخطير

أخبرني يوم السابع عشر من أيار (مايو) النقيبان، منير أبو فاضل، وفاضل العبد الله،

أن ذخائرنا كانت تتناقص بسرعة، وأننا سنواجه الخطر الشديد إذا لم تملأ مستودعاتنا من جديد. وعلمنا صدفة، أن العميد عبدالقادر الجندي، نائب القائد العام للجيش العربي، سوف يمر بأريحا بعد الظهر، فعليَّ إذاً أن أذهب والنقيب منير أبوفاضل ونطلب منه الذخيرة. فذهبنا إلى أريحا ولسان حالنا يقول: «إذا كان غلوب باشا لا يريد أن يساعدنا في القتال، فهو على الأقل ملزم بإعطائنا الذخيرة».

كان العميد الجندي يقيم في فندق نزال. وفيما نحن نناقشه بمسألة الذخيرة والمعركة الضارية التي يخوضها الفلسطينيون وحدهم، مرّ فوزي القاوقجي وهو راجع في طريقه من عمان إلى رام الله، فتوقف في فندق نزال من أجل فنجان من القهوة. وشارك في المناقشة، فقال لنا في غاية الكرم انه «يسعده» أن يعطينا ما نحتاجه من ذخيرة إذا ذهبنا في اليوم التالي إلى رام الله.

في اليوم التالي، استيقظ النقيب أبوفاضل وهو مصاب برشح شديد فأكرهته على البقاء في سريره ريثما أعود من رام الله ومعي الذخيرة. ولم أستطع الذهاب إلى رام الله عن طريق القدس بسبب الحواجز اليهودية في الشيخ جرّاح، ومستعمرة النبي يعقوب، وكنت مضطراً إلى استخدام الطريق التي بناها بسرعة الجيش الأردني أخيراً، وهو طريق صعب خطر، حل محل طريق القدس ــ رام الله الجيد، الذي منع غلوب جيشه من استخدامه، وقد أعلن، لغرض في نفسه، أن القدس «محرمة» على الجيش العربي.


النقيب منير أبو فاضل

بالقرب من رام الله، التقيت بأربعة من زملائي وقد تعطلت سيارتهم وهم راجعون إلى القدس. وهم: أنور نسيبة، أنور الخطيب، أميل الغوري، عدنان التميمي؛ وكانوا جميعاً في غاية القلق على القدس. قلت: «هيا لنذهب جميعاً إلى رام الله لنرى القاوقجي في شأن الذخيرة» وكانت الموافقة إجماعية.

في الساعة التاسعة، كنا نحن الخمسة، في قيادة جيش الإنقاذ ولكن القائد العام لم يكن هناك، لسوء الحظ. غير أن نائبه النقيب مهدي (عراقي) أخبرنا بأن القائد سيرجع حالاً، وأضاف: «بدلاً من انتظاره هنا، إذهبوا وألقوا نظرة على مستعمرة «النبي يعقوب» اليهودية التي أخلاها المدافعون عنها خلال الليل، وذهبوا إلى مستشفى هداساً على جبل

سكوبس، الذي ما زال في أيدي اليهود».

كانت هذه المستعمرة، على منتصف الطريق، بين القدس ورام الله، ولقد كانت مصدر إزعاج لنا، اذ قطعت الطريق بين المدينتين منذ بدء الاضطرابات. ولقد أفرحنا كثيراً هذا النبأ الطيب وذهبنا جميعاً بانتظار عودة القائد، لنرى الحصن الذي أخلاه العدو.

وجدنا المستعمرة تعج بالناس من القرى المجاورة، وهم يحزمون أنفسهم بكل ما يستطيعون حمله من فرش وآلات وذخيرة وأي شيء تصل إليه أيديهم. وبعد ساعات قليلة،غدت المستعمرة هيكلاً عظمياً.

ثلاثمائة متطوع من أم الفحم

حين رجعنا إلى رام الله من مستعمرة «النبي يعقوب»، وجدنا عدة باصات تحمل مناضلين وقد وقفت قرب قيادة القاوقجي. كانوا حوالي ٣٠٠ جاؤوا من أم الفحم، وهي قرية صغيرة قريبة من حيفا، ومن القرى المجاورة لها، كي يساعدوا في معركة القدس. كانت إذاعة القدس تذيع نداء إلى كل الوطن العربي طلباً للمساعدة، غير أن أحداً من الجيوش العربية لم يستجب للنداء، والجواب الوحيد جاء من قرية أم الفحم الصغيرة، ومن قرى أصغر منها تحيط بها. جاؤوا بأسلحة دفعوا ثمنها من مدخراتهم، كي ينقذوا المدينة المقدسة من الاحتلال الصهيوني. جاؤوا كي يسلم القبر المقدس والجامع الأقصى المبارك والصخرة المشرفة من التدنيس الصهيوني.

قالوا لنا، وقد امتلأوا وطنية وحماساً، أنهم يريدون «السير إلى القدس لانقاذها» ولقد توقفوا في رام الله طلباً للرأي، لأنهم كانوا بلا قيادة وبلا ضباط.

كان الطريق إلى القدس مقطوعاً في مكانين. أحدهما مستعمرة النبي يعقوب وقد زال الآن. والثاني في الشيخ جرّاح، أي الجزء الشمالي من القدس الذي احتله الارهابيون الصهيونيون. كانت المساعدة الحقيقية التي يستطيع تقديمها مناضلو أم الفحم للمدافعين عن القدس هي المرور عبر حاجز الشيخ جرّاح والوصول إلى باب العمود. وكانوا بحاجة إلى ضباط يقودونهم في تنفيذ العملية. واجتمع الناس حول الزوار فعلمنا منهم أن حوالي ٤٠٠ مسلح متطوع من رام الله والقرى المجاورة استجابوا أيضاً لنداء القدس، وهم مستعدون للسير إليها. كان هنالك جيش من سبعمائة، مستعداً للموت من أجل «القضية» العظيمة. وما كنا نحن الخمسة بأقل حماساً منهم فقلنا لهم «سوف نسير معكم ونكون في الخط الأمامي».

لم أنس أني جئت إلى رام الله من أجل الذخيرة للقدس. لكن، أما كنت أعين المدافعين عنها أكثر لو ذهبت بالذخيرة وسبعمائة من المناضلين عن طريق أقصر، إذا

استطعنا إلى ذلك سبيلا؟ كان يعترض طريقنا حاجز وحيد وهو الشيخ جراح. كان معنا الرجال ولا نحتاج غير ضباط يمكن أن يعطينا إياهم القاوقجي.

كان فوزي القاوقجي ينتظرني، لكنه لم يكن يتوقع رؤية الفلسطينيين الأربعة المتحمسين. لم يكن يحمل أي واحد منا سلاحاً ماعدا أنور الخطيب الذي كان معه مسدس تومي. وبدأت أشرح لقائد جيش الانقاذ، التطور الجديد، الذي وقع بعد أن رأيته في أريحا. قلت له: «في الخارج سبعمائة مسلح، وبعضهم جاء من شمال فلسطين للمسيرة إلى القدس ومساعدة أهلها في الدفاع عنها. والطريق إليها يقطعه حاجز في الشيخ جراح، وهم يطلبون أن تساعدهم بعدد من الضباط، حسبما ترى، كي يقودوهم. وأضفت: «نحن الخمسة لن نبقى هنا. إننا مستعدون للسير في الخط الأول». كنت أتكلم بصدق وعزم فقد كان حماسنا وإخلاصنا للقضية لا يوصفان. كنا جميعاً على استعداد للموت من أجل القدس، من أجل فلسطين، وهذا كان شأن كل فلسطيني عربي.

أجاب القاوقجي على ندائنا بقوله: «آسف أني لا أستطيع مساعدتكم. أمرني الملك عبدالله بأن أتجه برجالي إلى شمال فلسطين وأنا أنتظر وصول الجيش العربي كي يأخذ مكاننا. إن جيش الانقاذ في منطقة رام الله سيغادر إلى الجليل».

قلت: «نعم... لكن انتقالكم سيحتاج أياماً تكون القدس، أشرف مدينة في العالم، قد سقطت خلالها في أيدي اليهود: جاء هؤلاء الرجال من مسافة بعيدة، من أم الفحم كي يموتوا من أجل بلادهم وإنقاذ القدس. ومن المؤكد أنك تستطيع الاستغناء عن قليل من الضباط لهذا الهدف العظيم».

قال: «لا... في جيبي الآن رسالة من الملك عبدالله تطلب مني الاتجاه إلى الشمال حالما يصل الجيش العربي». وأخرج الرسالة من جيبه وأرانيها. فتحتها وقرأتها وكانت تحوي فعلاً ما تحدث به.

تلك اللحظة فقدت صبري وأناتي. قلت له: «خبىء رسالتك. مزقها! القدس تعاني خطر السقوط في أيدي الصهيونيين وأنت وجيشك ترقبون احتلالها. أين صلاح الدين؟ لستم أهلاً لحذائه!!».

كنت في هياج لم أدرِ معه ما أقول. كنت أكابد ألماً جعلني أحتقر الرجل، وأنوي إهانته. كانت استجابته خيانة لندائنا، حتى لقد أردت قتله، بالرغم من أن قتلي كان أسهل عليه.

لم يقتلني، ولم يعنفني على كلماتي المهينة، بل على العكس. ربما وخز ضميره اسم صلاح الدين وجعله يخجل من نفسه. وطلب حالاً من نائبه، المهدي، أن يأتيه بخارطة

القدس ومنطقة رام الله. واخذا يدرسانها معاً. ثم قال: «هل تعرفون أحداً يعرف القدس جيداً فيدل مدفعيتنا على الأحياء اليهودية؟» أجبنا معاً: «طبعاً!» قال: «إذاً، فليحضر هؤلاء الرجال في الساعة الثالثة بعد الظهر إلى قرية الجيب، حيث توجد مدافعنا. ولينتظر المناضلون ضباطنا في قرية شعفاط». وما كان بحاجة إلى مزيد من الشرح. تقع قرية الجيب على رأس تلة على أميال قليلة من جنوب رام الله الغربي. وتقع شعفاط على ميلين إلى شمالي القدس.

كانت سعادتنا لا توصف. وشكرناه ثم ذهبنا وقد امتلأنا أملاً وغبطة. وما كان متطوعو أم الفحم ورام الله أقل منا فرحاً وقد وعدوا أن يكونوا في شعفاط في تمام الثالثة والنصف.

الجميع في شعفاط في الوقت المحدد

كنا جميعاً نحن الخمسة والـ ٧٠٠ مناضل في شعفاط قبل الرابعة بمدة طويلة. وذهب اثنان من شبابنا من القدس إلى الجيب ليوجهوا المدفعية في قصفها. وبدأ إطلاق القنابل في الثالثة والنصف وكنا نسمعه من شعفاط، فأخذنا نهتف للقاوقجي ونسميه بصلاح الدين الساعة.

كان صفير القنابل يمرّ من فوق رؤوسنا فينعشنا جميعاً واستمر القصف نظامياً أكثر من ساعة، لكن الضباط لم يأتوا. وبدأنا نقلق. وذهب أميل الغوري كي يرى سبب التأخر. وعيل صبرنا وأخذ المناضلون يتساءلون. وفجأة مرّت طائرة يهودية فوق رؤوسنا. لقد اكتشف العدو مكاننا. وما كان من يهود في شعفاط أو في النبي صموئيل يمكن أن يهددونا، غير أن يهود الجزء الشمالي من القدس، كان بوسعهم أن يفعلوا وهم لا يبعدون عنا أكثر من ثلاثة أميال.

وفي الرابعة والنصف جاء أربعة ضباط في سيارة جيب إلى شعفاط وسألوا عني. قالوا لي: «بعث إليك القائد العام بأنه لا يستطيع أن يقدم الضباط بعد ظهر هذا اليوم، لكنه يأمل أن يتمكن في صباح الغد». كـاد يغمى علي. وذهبت إلى الجيب حالاً كي أرى القاوقجي لعلي أتمكن من تبديل رأيه. وعلى الطريق التقيت باميل الغوري الذي توقف كي يقول لي انه من العبث إقناع القاوقجي بإرسال الضباط. غير أني تابعت طريقي إلى قمة الهضبة. وهناك رأيت المدافع الكبيرة تضرب الحي اليهودي في القدس، ورجلاً في ثياب مدنية، يقفز فرحاً. كان الأمير نايف، الابن الثاني للملك عبدالله، يستمتع بذاك القصف.

ذهبت إلى القاوقجي وقلت له منفعلاً: «أين هم الضباط؟» فأشار القاوقجي بإصبعه إلى الأمير نايف وقال: «لا أستطيع إرسال الضباط والأمير هنا».

عدت إلى شعفاط وأنا في أوج اليأس فوجدت أن بعض المناضلين قد رجع إلى رام الله، وأن الباقين يستعدون لمغادرة المكان. وصاح بي أحدهم: «أسرع. عد إلى رام الله لأن أنور نسيبه أصيب في ساقه وحالته خطرة». قدت السيارة كمجنون إلى رام الله فوجدت أنور أصفر اللون كالليمون لما فقد من دم. فقد كسر عظم ساقه ولم يكن في رام الله من مستشفى، تمكن معالجته فيه كما ينبغي. وما كان لدي من وسيلة سوى إسعافه أوّلياً وإرساله إلى مستشفى نابلس الحكومي، وهو أقرب مركز طبي، يقع على بعد ٤٥ كلم. عولج أنور شهرين في المستشفى، لكن ساقه بترت في النهاية، للأسف الشديد.

فشلت في مهمتي ورجعت إلى أريحا

وحين فشلت في مهمتي، لم يبق لدي غير الرجوع إلى أريحا حيث كان ينتظرني بفارغ الصبر، صديقي النقيب منير أبو فاضل. وحين رآني، لم يستطع أن يخفي قلقه لتأخري، حتى تلك الساعة. وكانت لا تزال إذاعة القدس العربية تذيع أن المدينة القديمة تواجه الهجوم الصهيوني وأنها بحاجة للمساعدة. وعندها قدرنا، أن أقرب مصدر للمساعدة هو الجيش العربي، وهو «دون عمل» في بناء تيغارت التابع لشرطة أريحا على مسافة كيلومترين منا.

كان كل شيء هادئاً في بناء تيغارت

كانت مهمّة الكتيبتين الرابعة والسادسة من الجيش العربي، الدفاع عن شرق الأردن من هجوم يهودي، غير محتمل. ولقد ظلت الكتيبة السادسة في القدس حتى الرابع عشر من أيار (مايو)، حين أمرت بالذهاب إلى أريحا. وكان قائدها هو صديقنا النقيب عبدالله التل. وهذا ما شجعنا للتوجه إليه. كان كل شيء هادئاً في بناية تيغارت، وكل من فيها نيام. وكانت المدافع الكبيرة على الدبابات ومدافع الهاون دون حراك. وقادنا الخفير إلى الغرفة التي كان ينام فيها عبدالله. ونادينا معاً بصوت عال النقيب باسمه. قلت: «عزيزي عبدالله. أنت ورجالك في نوم عميق ودباباتكم وسياراتكم المصفحة، ساكنة على سهل أريحا الفسيح، بينما تكاد تسقط مدينة القدس القديمة في أيدي الصهيونيين، كيف يمكن ذلك؟».

وقد ذكر عبد الله ذلك في كتابه: «كارثة فلسطين» ص ١٠٠، فقال:

«آخر وفد جاء عمان هو وفد يرئسه الدكتور عزّت طنّوس، وقد مرّ بقيادتي في أريحا وبقي عندي حتى الثانية صباحاً من ١٨ أيار (مايو). كان الدكتور في غاية الاضطراب مغيظاً من العرب والعروبة».

طلبت من التل أن يسمح لي بالكلام مع الملك عبدالله على الهاتف. قال لي: «لا أستطيع ذلك، فهو غير مباح لي». قلت: «إذاً دعني، أتكلم مع توفيق أبو الهدى، رئيس الوزراء». وأدار التل قرص الهاتف برقم رئيس الوزراء. كنت أتّقد غضباً وأنا أكلمه. قلت له إذا سقطت القدس الليلة في أيدي اليهود، وجيشكم نائم، فإن التاريخ لن ينسى لكم ذلك!

كان توفيق، وهو من أعرف جيّداً، في غاية اللطف معي. جرّب أن يهدّئني ووعد بأن يعمل ما استطاع حالاً. وقد علمت فيما بعد أن التأثر دفع به إلى أن يذهب إلى الملك فيراه وهو في قميص النوم.

وفرح عبدالله التل، حين رآني أهتف للعميد عبدالقادر الجندي بصراحة أكثر من صراحتي مع رئيس الوزراء. أردت أن أثير ضميره وأكرهه على أن يعمل شيئاً بالرغم من معرفتي أنه ليس قادراً على شيء وأن الأمر كله بيد غلوب باشا.

أدرك العميد عبدالقادر سريعاً حقيقة مخاوفنا على مستقبل المدينة المقدسة، وكان ردّ فعله جدّ وطنياً. وأنا على يقين أن كل الضباط والجنود العرب كانوا في غاية الاخلاص لقضية فلسطين، حتى أن بعضهم غامر، كما سنرى فيما بعد، بالمثول أمام المحكمة العسكرية لعدم إطاعتهم أوامر غلوب، حين قدروا أنها غير مخلصة.

بقيت ومنير مع التل حتى الخامسة صباحاً لا الثانية كما روى التل في كتابه، ولم نغادره حتى جاء الأمر من القصر إلى الكتيبة السادسة بالتوجه إلى القدس. ويقول الملك عبدالله فيما بعد، أنه حلم تلك الليلة بأبيه، الملك حسين الأول، يحضّه على إرسال قطعات الجيش العربي لإنقاذ المدينة المقدسة من الاحتلال اليهودي. فاستيقظ، وأمر بتنفيذ إرادة أبيه في الحال. أما، كم مرة أراد الملك عبدالله أن يلغي فيها أوامر غلوب ويفرض أوامره، فإن أحداً لن يعرف.

إن قراراً على هذه الأهمية سياسياً ودينياً، يتخذه الملك عبدالله، فينقذ به المدينة المقدسة من الاحتلال الصهيوني الكامل ويوقف تلقائياً كل الخطط البريطانية حول مستقبل القدس، ليس نصراً للملك عبدالله فقط، بل نصراً لمسلمي ومسيحيي العرب ونصراً للمسيحية والإسلام معاً أينما وجدا.

وفيما كنا نغادر بناء تيغارت، أتانا الملازم عبدالكريم الدباس، معاون التل، وقد أسعده أن يرجع إلى المدينة المقدسة كي يشارك في معركة القدس، فصافحنا بحرارة وقال لنا: «بارك الله فيكم! الحركة فيها بركة!».

وحين وثقنا بأن الجيش العربي سوف يكون سريعاً على طريق القدس، غادرنا أريحا

وذهبنا تواً إلى الروضة، حيث وجدنا النقيب فاضل العبدالله مشغولاً في غرفة العمليات. وسألناه في قلق واضح: «صباح الخير يا فاضل! ما الوضع؟» قال: «لا تغيرّ» قلنا: «وما إذاعتكم طيلة الليل، بأن القدس العربية على حافة التسليم؟» قال فاضل: «لا بد أن تكون تلك إذاعة يهودية كي تزرع اليأس في قلوب العرب وتدفعهم إلى التسليم». قلت: «نعم يا عزيزي فاضل! يكذب الصهيونيون ما وسعهم، ويخرقون كل وقف للنار، ويرتكبون أية جريمة ضد الله أو الإنسان، إذا مكّنهم ذلك من احتلال متر مربع واحد من الأرض العربية، لا في فلسطين وحدها، بل في أي مكان من العالم العربي».

الجيش العربي (الكتيبة السادسة) يعود إلى القدس

كان فرح عرب القدس عظيًا عندما علموا بأن قوات الجيش العربي هي في طريقها إلى المدينة المقدسة. وبدأوا يبنون الآمال، وهم يجهلون الحالة، على أن تعود أكثر الأحياء العربية التي فقدت في القدس إن لم تكن كلها، وبخاصة، تلك التي كل أهلها من العرب (طريق سليمان، طريق مأمن الله، الطالبية البقعتان الفوقى والتحتى) تلك الأحياء ما كانت ليضيع أكثرها أبداً، لو أن القوات العائدة بقيت تلك الأيام الأربعة في القدس. وما كان غلوب يستطيع أن يستعيد في أربعة أشهر ما أعطاه للصهيونيين في أربعة أيام، حتى ولو أخلص في ذلك، ولم يخلص. فكيف يستطيع أهل القدس العرب أن يغفروا لغلوب ولبريطانيا هذه الجرائم؟

حوالي الظهر، وصل فصيل من الجيش العربي بقيادة التل، إلى رأس العمود، على سفح جبل الزيتون. ودخل المدينة من باب الاسباط أو باب القديس استيفانوس. وأقام النقيب التل قيادته في الروضة، حيث كانت قيادة النقيب فاضل العبدالله أيضاً، بينما كانت قيادة منير أبو فاضل في مدرسة المأمونية، قرب باب الساهرة.



النقيب عبدالله التل (على اليمين النقيب فاضل العبدالله الرشيد)

انتخاب النقيب عبدالله التل قائداً عامّاً لمعركة القدس

حالما استقر النقيب التل اجتمع القادة الثلاثة: أي النقيب عبدالله التل عن الجيش العربي، والنقيب فاضل العبدالله الرشيد عن جيش الانقاذ، والنقيب منير أبو فاضل، نيابة عن خالد الحسيني، من «الجهاد المقدس»، وحضر الاجتماع أحمد حلمي عبدالباقي نيابة عن الهيئة العربية العليا وقرروا في هذا الاجتماع إنتخاب عبدالله التل قائداً عامّاً «لمعركة القدس».

كان مجيء الجيش العربي إلى القدس، حسب ما روى التلّ، ضدّ مشيئة غلوب. قال: «تلقيت الأوامر بالصعود إلى القدس من الملك عبدالله لا من غلوب. وهذا أمر غير عادي».

كان التل وكتيبته في القدس قبل ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨، ولهذا، فهم يعرفون الأرض جيّداً ويعرفون زعماء القدس وأهلها وقد خبروا العدوّ الذي سوف يقاتلون. لقد كان عبدالله ضابطاً محترفاً، نبيلاً وشهمّا. كان وطنياً، ولذلك كان عدواً للصهيونية، كما كان ضدّ غلوب، لأن هذا الأخير كان ينفّذ السياسة البريطانية في فلسطين، حتى ثار في النهاية ضد خيانة قائده وفضحها في كتابه «كارثة فلسطين». تلك الصفات الشريفة، الكريمة، جعلت كل عرب القدس نعجبون ويثقون بعبدالله التل. ولقد كنت أبقى معه طيلة النهار وفي غالب الأحيان حتى ساعات الصباح.

أوامر غلوب للتل أن يدافع فقط

وضع النقيب التل الخطة الدفاعية عما بقي من القدس ومركز قواته في مواقعها. كانت الكتيبة التي يقودها للدفاع، لا للهجوم. كان غلوب واثقاً من أن لا قوات هجومية ستعطى له. وكنت من جهتي قانعاً بأن لا طلب بالتقدم سيستجاب بالرغم من رغبة التل الحارّة في السيطرة على القدس كلها. وكنت أرى كيف كان يحترق من داخله لعدم قدرته على أن يفعل ما يود أن يفعله أي جندي عربي مخلص. وأهم ما في الأمر أنهم لم يتركوا له حتى حرية وضع خطّته. كان يزوره غلوب دورياً في الروضة، وقد تعودت أن أراه عابساً، كأنه يجد نفسه في غير محله الصحيح. التقيت به عدة مرّات وجهاً لوجه، ولم نتكلم حتى ولا بهزة الرأس. ربما كان يكرهني لأنه عرف، وأنا على يقين من هذا، بما حدث في أريحا، ليلة الثامن عشر من أيار (مايو). كان يكره القتال ضد الصهيونيين، فهو إنكليزي والانكليز يكرهون قتال الصهيونيين.

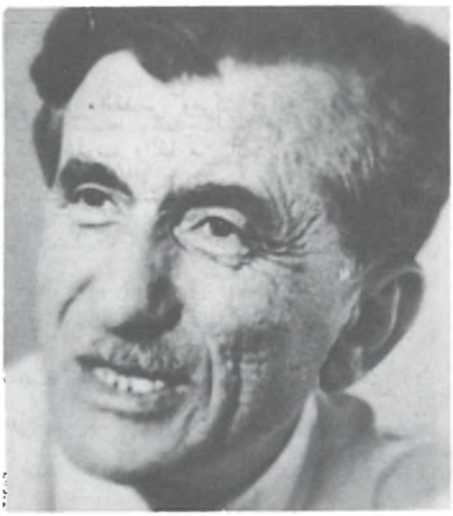
لم يخفف وصول الجيش العربي إلى القدس من هجوم الصهيونيين على المدينة القديمة، وإنما على العكس. هاجم الارهابيون الصهيونيون بجنون كي يحرروا الألفي يهودي والخمسمائة من الهاغاناه المحاصرين معهم في الحي اليهودي وداوموا على هذه الهجمات

أسبوعين، فيما استمر إطلاق الرصاص والقنابل ليل نهار. ولقد قضيت أكثر وقتي في هذين الأسبوعين بصحبة التل، أرقب كيف يقود رجاله ويشجعهم. وكنت أغادر الروضة في الصباح الباكر كي أنام بضع ساعات، فأجد بانتظاري الدكتور توفيق كنعان، وأنطون ألبينا، وعدداً آخر من الأصدقاء الذين يودون أن يستعلموا عن سلامة المدينة القديمة. كانوا خائفين فعلاً من أن يقتحمها الصهيونيون ويذبح ماينوف عن الستين ألفاً من مواطنيها العرب. لكنني كنت أشجعهم دائماً، ولا أدعهم يذهبون قبل تناول فنجان من القهوة، تعدّه أمي التي بلغت خمسة وثمانين عاماً، وقد رفضت أن تتركني وحدي في تلك الفترة الحرجة.

عمل عبدالله التل في انسجام تام مع زميليه: فاضل العبدالله ومنير أبو فاضل. كان لدى عبدالله أركان قيادة نظامية، أما فاضل ومنير فكان عندهما متطوعون، كلهم تحت رتبة نقيب، منهم: ابراهيم جرجورة، سليمان عزار، صادق ناصيف، جميل عسلي، محمد داوود وهاشم نجم.

كان حول خالد الحسيني، القائد العام «للجهاد المقدس»، ومركز قيادته في بيرزيت، جماعة كبيرة من المتطوعين والوطنيين الشجعان. وفيهم من كانوا مستشارين سياسيين وإداريين أمثال:

روحي الخطيب، أنور نسيبة، أنور الخطيب، أميل الغوري، داوود الحسيني، قاسم الريماوي، كامل عريقات، فوزي القطب (الذي قاد عملية التفجير)، بهجت أبو غربية، اسحق دزدار، عدنان تميمي، محمد النجار، محمد منير عودة، المحترم الأب ابراهيم عياد، خليل جنحو، صلاح حاج مير، رؤوف درويش (بيت المال)، جورج فؤاد جورج (بيت المال)، الدكتور موسى اسحق الحسيني، الدكتور توفيق كنعان، أنطون ألبينا، عبدالحكيم جولاني، عبدالمجيد شومان، الذي فتح خزينة البنك العربي لدعم المناضلين.


المجاهد روحي الخطيب

وبهذه المناسبة أرى من واجبي أن أقول: إن ماساهمت فيه عائلة شومان والبنك العربي في معركة القدس لا يمكن

أن ينسى. كانت وطنية المرحوم عبد المجيد شومان نادرة، وكانت أخلاقه نموذجاً يقتدى به، كما أن أبناءه، لحسن الحظ، يسيرون على خطواته. وما من طلب للوطن، رفضه الشومانيون.



عائلة شومان

وجدير بالذكر أيضاً المهندس نبيه بولس الذي قدم ٨٠٠٠ ل. ف من بقايا حكومة الانتداب السابقة، للمعركة وكان باستطاعته حفظها، فاستحق الثناء لوطنيته.

ونذكر أيضاً الأطباء الوطنيين الشجعان الذين مكثوا في القدس للدفاع عن وطنهم، في مستشفى سبيس النمسا الموقت وهم:

الاطباء: ابراهيم إطليل، توفيق كنعان، عبد الله مغربي، حسيب بولس، يعقوب نزهة، رأفت فارس، حنا عطالله، أسعد بشارة. وكذلك الذين ظلوا في مستشفى بيت صفافا ومنهم: د. يوسف حجار، ومحمود دجاني. هؤلاء الأطباء، كانوا جميعاً متطوعين، يستحقون شكر الأمة.

الفصل السابع والأربعون

إقفال طريق تل أبيب ــ القدس عند باب الواد
استسلام اليهود للعرب في مدينة القدس القديمة
الجيش العربي يفتح طريق القدس رام الله

باب الواد هو ممر ضيق، على منتصف الطريق بين تل ــ أبيب والقدس، تحيط به جبال عالية، جعل احتلالها المرور على ذلك الجزء من الطريق معرضاً للهجوم. ويوجد في تلك المنطقة عدد من القرى العربية، جعل رجالها المسلحون مرور القوافل اليهودية من باب الواد، خطراً؛ ثم بعد فترة مستحيلاً.

كان أول من فكر بقطع طريق تل أبيب ــ القدس هم قرويوا المنطقة. فقد بدأوا يطلقون النار على السيارات اليهودية التي تمر على الطريق. وحين اشتدت الهجمات، أخذ اليهود يسافرون بقوافل محروسة. وقد وقعت عدة مناوشات في باب الواد، لأنه كان الطريق الوحيد الذي تمر منه المؤن والذخيرة إلى الطائفة اليهودية في القدس.

وقد وقعت المناوشة القوية الأولى في أول آذار (مارس) ١٩٤٨، وقد قتل فيها أربعة يهود وجرح منهم ثمانية. ثم وقعت مناوشات أخرى في الثالث من آذار (مارس) وفي الثاني عشر والثالث عشر والسابع عشر منه؛ ثم حصلت معركة في التاسع عشر منه انتهت بمقتل ١٥ يهودياً وجرح عدد أكبر منهم.

عند هذا الحد، عزم «الجهاد المقدس» على إغلاق طريق تل أبيب ــ القدس عن باب الواد نهائياً. وأخذ كامل عريقات وإميل الغوري وقاسم الريماوي الأمر على عاتقهم. دحرج المناضلون صخوراً كبيرة وجعلوا بينها حجارة صغيرة وتراباً حتى سدّت الطريق تماماً. وحفروا خنادق على الجانبين كي يمنعوا فتحها.

وحرس «الجهاد المقدس» في البدء باب الواد ومن بعدهم جيش الإنقاذ ثم الجيش العربي في آخر أيار (مايو). وقد كانت لسد هذا الطريق آثار هامة على معركة القدس. ولقد حاول يهود تل ــ أبيب مراراً عديدة فتح الطريق، ولكن عبثاً. ولم يتوقفوا عن المحاولة بالرغم من خسائرهم الفادحة. ولقد هاجمت كتيبة كاملة من اليهود الجيش العربي في التاسع عشر من أيار (مايو) وفي الحادي والعشرين والخامس والعشرين منه، فردت خاسرة.

ولا بد لي قبل أن أنهي قصتي المختصرة «لمعركة باب الواد» من أن أذكر القرى المجاورة التي قاتلت قتالاً بطولياً في تلك الصدامات، وهي: سيريس، بيت محسير، اللاطرون، عمواس، يالو، بيت نتيف، بيت نوبا، وعرب الحويطات.

معركة مدينة القدس القديمة:

لم يضعف وصول الجيش العربي إلى القدس هجمات اليهود على المدينة القديمة، بل على العكس زاد منها، ذلك لأنهم عرفوا جيداً أنهم إذا لم يحتلوا المدينة القديمة خلال أيام، فلن يستطيعوا الاحتفاظ بما لهم في المدينة الجديدة، إلاّ إذا وصلتهم كميات كبيرة من السلاح والذخائر من تل أبيب، التي قطع اتصالهم بها منذ شهر نيسان (أبريل). وعلى ذلك، شنوا هجمات جديدة على باب الخليل والباب الجديد، فردّت جميعاً. ثم إنهم فجروا لغمًا في هجومهم يوم الرابع والعشرين من أيار (مايو) على باب النبي داوود فحطم مدخل الباب الكبير، غير أن الجيش العربي، كان مستعداً، فمنعهم من دخول سور المدينة. ولقد كانت خسارتهم في هذا الهجوم من الضخامة بحيث لم يجرؤوا على القيام بهجوم آخر.

نسف الحي اليهودي داخل المدينة القديمة:

حتى الرابع عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨، كان يقوم بتموين الألفي يهودي والخمسمئة من الهاغاناه الارهابيين، قافلة للجيش البريطاني، تأتيهم مرة في الأسبوع وهي تحمل الغذاء، وفي غالب الأحيان، الذخائر؛ فغدا كل بيت يهودي في الحي أشبه بالقلعة.



الحي اليهودي في القدس القديمة يحترق

وانقطعت عنهم القوافل البريطانية بعد الرابع عشر من أيار (مايو)، فطلب إليهم النقيب التل الاستسلام، بعد أن أعطاهم الضمانات بحسن معاملتهم. غير أنهم رفضوا، لأن الوكالة اليهودية أمرتهم بألا يستسلموا. عندها، تدخل النقيب كورفوازيه من الصليب الأحمر الدولي، بل وصل به الأمر إلى التهديد بشأنهم، غير أن النقيب التل ألح على استسلامهم. وقد كان الملك عبد الله يشجعه على موقفه هذا لأنه كان على نقيض غلوب، قلقاً على مستقبل القدس، وخاصة المدينة القديمة وأماكنها المقدسة. ولا ننسى أن أباه العظيم، الشريف حسين الأول، مدفون في فناء الجامع الأقصى المبارك إلى جانب عدد من عظماء المسلمين مثل، محمد علي جنة، الزعيم الهندي.

كان الـ ٥٠٠ من الهاغاناه المحاصرين في الحي اليهودي يزعجوننا بإطلاق نوع خاص من القنابل الطائرة، التي لا تخرب كثيراً، ولكنها توقع صوتاً مخيفاً. وكانت هذه الانفجارات المتكررة في أوقات محددة توتر أعصاب السكان العرب. وقد كان حي الروضة، وفيه القيادتان، قريباً جداً من الحي اليهودي وكذلك كان الصوت الذي أزعج القيادتين كثيراً سيما الأشخاص الذين كان من واجبهم أن يقضوا معظم وقتهم هناك.

وعليه، أمر التل بأن يقصف الحي لإيقاف تلك القذائف. وتعهد فوزي القطب وجماعته بالمهمة فكانوا، في عدة أيام على التوالي ينسفون كل بناء يتمكنون من الوصول إليه. واعتقد التل أن تلك أفضل الطرق أيضاً لاستسلام الحي.

الدبابات تعبر شوارع المدينة القديمة الضيقة

بعد أن تفحص التل دفاعاته، وجد أنه بحاجة إلى الإمدادات. ولما طلبها من غلوب، أحاله هذا إلى الكولونيل لاش الذي رفض إرسال أي شيء قطعاً. عندها عمد إلى تدبير أمره بوسائل أخرى. وكان يعرف أنه إذا استطاع إيصال بعض الدبابات إلى باب الخليل وباب النبي داوود، أصبحت دفاعاته أقوى. لكن هل من الممكن قيادة الدبابات عبر شوارع المدينة الضيقة للوصول إلى هناك؟ وبعد دراسة دقيقة قام بها هو وخبراؤه وجد أن الأمر ممكن تحقيقه؛ ولو أنه صعب. فقاد الدبابة الأولى من باب الأسباط (باب القديس استيفانوس) إلى مستشفى سبيس النمسا الموقت ومن هناك إلى باب العمود، ثم إلى خان الزيت، فحارة النصارى مروراً ببطريركية الروم الأرثوذكس وأخيراً إلى باب الخليل. وتبعته دبابتان أخريان وضعت إحداهما قرب القلعة والثانية قرب باب النبي داوود. وقد أراد النقيب التل أن يثبت لغلوب وللاش أنه من الممكن، إذا وجدت الإرادة، أن تستعاد كل الأراضي العربية، وأنه من الممكن احتلال القدس كلها إذا تيسرت الإمدادات.

والذي لا شك فيه أن خلافاً كان قائماً بين غلوب والملك عبد الله حول موضوع القدس. كان هذا الأمر واضحاً لاتصال الملك عبد الله الدائم بالنقيب التل مباشرة دون



عبدالله التل يقود دبابة في شوارع القدس القديمة

غلوب. كان الملك يستفسر بالهاتف من التل عن الوضع العسكري في القدس، وأحياناً عدة مرات في اليوم. قال لي التل: «وهذا ضد البروتوكول». الواقع أن الملك كان قلقاً لما عرف أن غلوب ولاش رفضا إرسال الإمدادات إلى القدس.

إستسلام الحي اليهودي داخل القدس

كان الحي اليهودي داخل المدينة القديمة كله في الأيام الأخيرة مليء بالدخان، الناتج عن ألغام فوزي القطب وفرقته. وفي الساعة العاشرة صباحاً من يوم ٢٨ أيار (مايو) ١٩٤٨، رأى الحراس العرب، رجلين يحملان علماً أبيض، خرجا من الحي واقتربا منهم. فأخذوهما إلى قيادة الجيش في دير الأرمن. قال الرجلان إنهما أرسلا ليفوما بترتيبات الاستسلام. نقل هذا الخبر السار إلى التل في الروضة. وفيما هومتجه إلى دير الأرمن في سيارة مصفحة رأيته قرب المستشفى النمساوي. كان فرحاً، فطلب إلي أن أرافقه، فذهبنا معاً إلى الدير.

كان الرسولان حاخامين وقد أرسلا كي يعدّا الطريق لوفد عسكري يأتي للاستسلام. عندها أرسل التل حالاً أحد الحاخامين مع حراسة كي يأتي بالوفد. أما الآخر، الذي كان الرعب ظاهراً عليه، فقد أمر بالبقاء. وأخذ عبثاً يهدىء روعه بقراءة التلمود دون توقف وهو لم يكن يعلم، للأسف، أن وجوده عندنا، أسلم له من وجوده في الحي اليهودي.



الحاخامان خارجان من الحي اليهودي يعلنان الاستسلام

وصل الوفد اليهودي في أقل من خمس عشرة دقيقة. وكان قوامه شخصين: موشي روزنيك (Moshe Roznik) قائد الهاغاناه، وموردخاي فون غارتن مختار الحي، (Mordachi Von Garten) وهو مدني. وحينما دخلا، سلّم روزنيك مسدسه.

استدعى التل حالاً النقيب فاضل العبد الله للحضور عن جيش الإنقاذ. وبحثنا عن النقيب كورفوازيه (عن الصليب الأحمر) فلم نجده، فدعونا مكانه، المسيو أزكراتي (Azcraté) رئيس بلدية القدس المعينّ من قبل الأمم المتحدة. وطلب الوفد اليهودي نقل كل من في الحيّ اليهودي إلى خارج السور.

وضع التل شروطه:

١ ـ تسليم كل الأسلحة والذخائر.

٢ ـ كل من يحمل أو يستطيع حمل السلاح هو أسير حرب.

٣ ـ يؤتمن الصليب الأحمر على النساء والأطفال والجرحى فيأخذهم إلى الحي اليهودي في القدس خارج السور، ويكون خروجهم عبر باب النبي داوود.

وافق الوفد اليهودي على هذه الشروط فوضعت بشكل اتفاق كتب بالعربية وبالعبرية. ووقع عبد الله التل وموشي روزنيك الاتفاق على نسختين.

واجتمع كل سكان الحي اليهودي في ساحة الحي وجمعت الأسلحة فبلغت حوالى ١٥٠٠ قطعة. كان أكثرهم يرتعش رعباً. ولكم حزنت لهم. كانوا خائفين من أن يقتلهم

العرب انتقاماً لمذبحة دير ياسين. كانوا يتجمعون بعضهم على بعض، كخراف مذعورة. لكن العرب أهل شهامة ونبل، فلقد كان يوم الثامن والعشرين من أيار (مايو)، من أشرف أيام السلوك العسكري العربي (أنظر الصورة).



اليهود في الحي اليهودي يستسلمون

غادر الحي اليهودي في المدينة القديمة حوالي ١٨٠٠ بين شيخ وامرأة وطفل وجريح، من باب النبي داوود. وأرسل ٣٤٠ أسيراً في اليوم التالي إلى عمان. وهكذا انتهت معركة الحي اليهودي في المدينة القديمة. ووجدنا أن عناد اليهود كلفهم حوالي ٣٠٠ جثة تركوها لنا وراءهم كي ندفنها.

كان استسلام ٢٠٠٠ يهودي داخل سور المدينة عزاء عظيًا لسكان القدس العرب للأسباب التالية:

١ ــ انه يعني يأس اليهود من نجدة ذويهم خارج السور لهم، كما يعني أن أحوال اليهود خارج السور، قد تدهورت.

٢ ــ ان القدس سلمت من الخراب الذي كان سيلحق بالمدينة المقدسة لو ترك الـ ٥٠٠ من الهاغاناه على هواهم.

٣ ـ ارتاحت المدينة من الحكم الصهيوني العنصري.

٤ ــ ضمن الحجاج المسلمون والمسيحيون الوصول إلى الأماكن المقدسة والاستمرار دون تدخل الإرهابيين اليهود.

٥ ــ سلم القبر المقدس والمسجد الأقصى من الاحتقار والتدنيس.

احتلال الجيش العربي للشيخ جرّاح

الشيخ جراح، حي عربي، يكّون الجزء الشمالي من القدس. وحين احتله اليهود في ١٥ أيار (مايو) قطعوا طريق القدس ــ رام الله على العرب. وكان بنيتنا فتح طريق القدس ــ رام الله في الشيخ جرّاح لما طلبنا من القاوقجي في ١٧ أيار (مايو) ضباطاً يقودون مناضلي أم الفحم ورام الله إلى القدس.

وقد أمر غلوب، كي يرضى الملك عبد الله، الكتيبة الثالثة بالتقدم من مستعمرة النبي يعقوب، التي سقطت في أيدي العرب قبل أربعة أيام، لاحتلال الشيخ جرّاح، وكان على القوات أن تسير بعد ذلك إلى باب العمود ومنه، جنوباً لاحتلال نوتردام، والمستشفى الفرنسي، وبنك ياركلي وطريق مأمن الله (حيث توجد عيادتي).

كان يقود الكتيبة الضابط البريطاني الكولونيل نيومان. وبدأ الهجوم في الحادي والعشرين من أيار (مايو) ١٩٤٨، وسار على الاقدام من مستعمرة النبي يعقوب الواقعة على بعد ثمانية كيلومترات من الشيخ جرّاح؛ فما وصلت القوات إلى هدفها إلّا وقد أنهكها التعب. أما لماذا لم ينقلوا القوات آلياً إلى شعفاط وهي على بعد كيلومتر واحد من الشيخ جرّاح، فمسألة لا تخفى على أحد. ومن المحزن أن نقول، أن غلوب لم يرد أن ينجح الهجوم مئة بالمئة، حتى يفهم الملك عبد الله أن الجيش العربي ليس على قوة تمكنه من استرداد الأرض العربية المحتلة في القدس. ولقد أراد غلوب الفشل كي يبين للملك عبد الله لماذا تجنب قتال الشوارع في القدس.

كانت أكثرية الكتيبة الثالثة من البدو، دون تجربة في قتال الشوارع. وقد دخلوا معركة قاسية في الشيخ جرّاح وهم في أشد التعب بعد مسيرة ثمانية كليومترات. استمرت المعركة يوماً كاملاً، حتى وصلوا مدرسة سان جورج، فبدلاً من أن يواصلوا سيرهم مستقيًما إلى باب العمود حسب التعليمات، ويسلكوا طريقاً يحرسه المناضلون، اتخذوا طريقاً إلى اليمين يؤدي رأساً إلى ميشوريم، المستعمرة اليهودية القديمة، حيث كان ينتظرهم الإرهابيون اليهود، وتنتظرهم معركة شديدة خسروا فيها كثيراً. فخف فصيل من الكتيبة الثانية وآخر من الخامسة لنجدتهم حتى إذا وصلوا باب العمود لم يستطيعوا إتمام مهمتهم.

معركة نوتردام

بعد احتلال الشيخ جراح وخوض معركة ميشوريم القاسية، اضطرت قوات الكتيبة الثالثة المتعبة إلى التوقف في باب العمود دون الانتهاء من مهمتها. غير أن فصيلاً آخر من الجيش العربي قام باحتلال النوتردام، بقيادة الملازم الشجاع، غازي حرب، فقد نجح في الرابع والعشرين من أيار (مايو) باحتلال الطابق الأول من نوتردام. وحين ندرك الموقع الاستراتيجي لهذا الحصن، نقرر أن المغامرة التي قام بها فصيل من ٣٥ رجلاً فقط

هو عمل بطولي. غير أن هذا الانجاز المتميّز لم يرق للضباط البريطانيين في الجيش العربي فأصدر الميجر هونكن توفن (Hunken Toven) أمراً إلى الملازم غازي بالانسحاب، فلم يستطع هذا أن يصدق أذنيه، وفكر بالعصيان. غير أنه انسحب، تحت التهديد بالمحاكمة العسكرية وفقد في تراجعه، ١٨ من رجاله الشجعان.

الهجوم على مستشفى هداسا والجامعة العبرية في جبل سكوبس

كان جبل سكوبس وهو تتمة جبل الزيتون، في أيدي العرب. وكانت مؤسستا هداسا والجامعة العبرية تموّنان قبل الانسحاب البريطاني بواسطة القوافل البريطانية كما كان شأن الحي اليهودي في القدس. وحين توقفت القوافل البريطانية، لم يكن أمام هاتين المؤسستين من خيار إلّا الاستسلام للعرب، لأنهما كانتا ستكرهان على التسليم أمام الحصار الطويل مهما كانتا حسنتي التسليح.

ولما وصل الجيش العربي إلى المفرق الذي يؤدي إلى جبل سكوبس، ذهب الرأي إلى أن احتلال هاتين المؤسستين يجب أن يسبق احتلال الشيخ جراح لتنظيف المنطقة من جيوب العدو. غير أن الهجوم تم بعد معركة الشيخ جراح، ويبدو أن هيئات سياسية تدخلت، حالما بدأ قصفهما، فأسرع الكولونيل لاش وأصدر أوامره بإيقاف القصف. وتم الاتفاق على إبقاء المؤسستين تحت الإشراف اليهودي على أن تموّنهما قافلة للصليب الأحمر الأميركي مرّة في الأسبوع، وعلى أن تحرس هذه القافلة قوة من الجيش العربي. وعلمنا فيما بعد أن القنصل الأميركي في القدس هو الرجل الذي نجح في عقد هذا الاتفاق مع قادة الجيش العربي.

بناء أوغيستا فيكتوريا

تقع على مئات من الياردات شرقاً من الجامعة العبرية بناية أوغيستا فيكتوريا الضخمة التي بنتها الحكومة الألمانية قبل الحرب العالمية الأولى. وقد كنت تلميذاً في مدرسة سان جورج حين احتفلت بافتتاحها بعثة أرسلها قيصر ألمانيا. وفي سنة ١٩١٨ استخدمها جيش الاحتلال البريطاني مركزاً لقيادته وسماها (إدارة أراضي العدو المحتلة .O. E. T. A)؛ ثم ردت إلى الألمان بعد أن تم السلم. وفي إبان الأحداث، لم نجد خياراً في تحويلها إلى مستشفى يحل محل المستشفيات



منظر اوغيستا فكتوريا

العديدة التي أصبحت في القدس المحتلة، وهي المستشفى الحكـومي، والفرنسي، والألماني. وقد صار هذا المستشفى المؤقت، دائمًا، وما زال يقدّم الخدمات الصحية الجليلة إلى سكان القدس العرب، وخاصة إلى اللاجئين العرب الفلسطينيين التابعين لوكالة الغوث (UNRWA).

استمرار معركة القدس وضواحيها

زاد استسلام الحي اليهودي داخل السور في هجمات اليهود على المدينة القديمة. ولقد تعرضت للقنابل قبة القبر المقدس وعدة كنائس وأديرة مما نجمت عنه أضرار جسيمة. فعمد رؤساء الملل المسيحية إلى اجتماع عقد في بطريركية الروم الأرثوذكس مثلت فيه كل الطوائف حيث ناقشوا كيفية إنقاذ الأماكن المقدسة داخل المدينة القديمة من الخراب. وأجمعوا الرأي على إرسال نداء إلى الفاتيكان وإلى كل الهيئات الدينية والسياسية بالتدخل. وألحق بهذا النداء بيان بأسماء الأمكنة المتضررة.

ظلت الأبواب الثلاثة: باب الخليل وباب النبي داوود والباب الجديد، هدف الارهابيين الصهيونيين، غير أن هجماتهم ردّت جميعها ومنوا بخسائر فادحة. وكان أخطرها موقعاً، الباب الجديد الذي كانوا يهاجمونه من دير نوتردام المقابل له تماماً، ومن دير القربان الذي أحرقوه وجعلوا منه سلمًا يصعدون على جدرانه. وبعد أن فشل الإرهابيون في المدينة القديمة، جربوا في محاولة يائسة استعادة الشيخ جرّاح وإغلاق طريق القدس ــ رام الله مرة أخرى؛ لكنهم أيضاً فشلوا. عندئذ انهارت معنوياتهم انهياراً شديداً.

ملخص عن حالة اليهود في القدس

أصبح اليهود في القدس محاصرين من جميع الجهات. كانت طريق تل ــ أبيب القدس مغلقة في باب الواد وانقطع عنهم الزاد والذخيرة. كما توقفت عنهم الماء حين تمّ تخريب الآلات في رأس العين. وبدأت المجاعة وباتت الطائفة اليهودية على أهبة التسليم.

قوة المتطوعين المصريين تلتحق بالقتال

كانت قوة المتطوعين المصريين، بقيادة المقدم عبد العزيز، صغيرة ومسلحة سلاحاً خفيفاً. وبعد أن تمركزت في بير السبع بعض الوقت تقدّمت شمالاً إلى الخليل وبيت لحم متخطية في طريقها كل المستعمرات اليهودية.

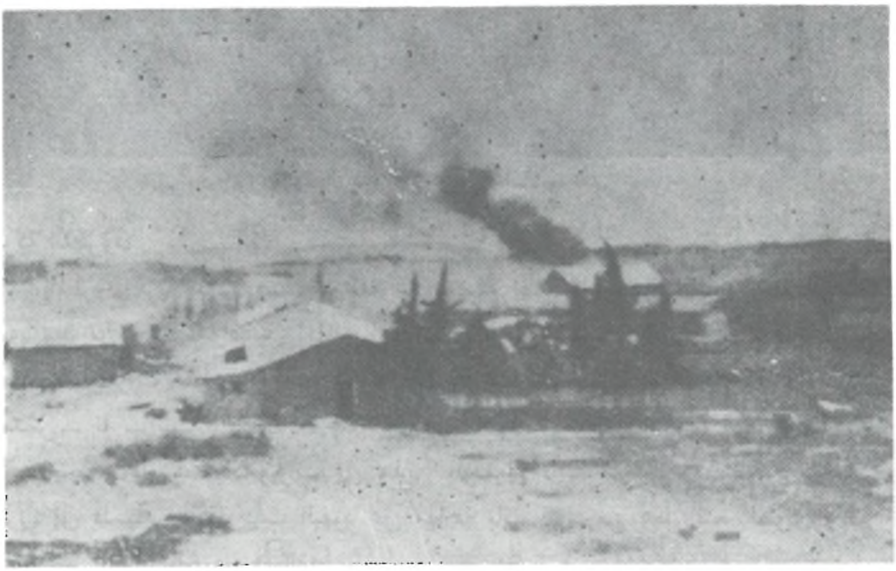
وقد كان في بيت لحم فصيل صغير من الجيش العربي يقوده ضابط بريطاني، مقيم في رام الله. وقد صدرت إليه الأوامر بعدم مساعدة المصريين في أي هجوم يقومون به. لأن الملك وغلوب كانا ضد وجود جيش مصري في جنوب فلسطين. كانا يكرهان بنوع خاص، المصريين، ويحاولان إزعاجهما في بيت لحم والخليل. وباعتقادهما أن نجاح المصريين في معركة فلسطين يجعلهم مزاحماً قوياً على الجزء العربي من فلسطين. وهذا يفسد الخطة البريطانية ــ

الأردنية ويمكن أن يؤدي إلى الحرب، وهو الشيء الذي سيؤدي إلى فشل العرب جميعاً.

معركة رامات راحيل

كانت رامات راحيل مستعمرة صهيونية جيدة التحصين، تقع على بعد ثلاثة كيلومترات جنوبي شرقي القدس، على طريق القدس ـ بيت لحم. وقد قطعت هذه الطريق الهامة عن العرب عندما احتل اليهود في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨ البقعتين الفوقى والتحتى وكل الأجزاء العربية الواقعة جنوب باب الخليل. ولذلك، كان لا يمكن فتح طريق القدس ـ بيت لحم من جهة القدس، بل فقط من جهة بيت لحم، شريطة احتلال مستعمرة رامات راحيل. وهذا ما قرره المقدم أحمد عبد العزيز ومناضلو المنطقة.

إتصل المقدم عبد العزيز بعبد الله التل، تحقيقاً للتعاون بين الجيوش، عله يسمح لفصيل الجيش العربي في بيت لحم أن يساهم بالهجوم. فوافق التل، على الطلب، بعد دراسته، مع أن الكولونيل لاش كان قد جرده من مركز قيادة ذاك الفصيل قبل أسبوعين.



مستعمرة رامات راحيل تحترق

بعد أن ضربت مدفعية الجيش المصري والجيش العربي المستعمرة، سار إليها المشاة ومن ثم هدموها. وقد كانت المعركة ضارية سقط فيها ٧٠ قتيلاً من اليهود و١٩ من العرب. كما جرح ستة آخرون من العرب، كان من بينهم إبراهيم أبو دية نفسه، مناضل معركة القطمون الشجاع. كانت نتيجة المعركة نصراً عربياً لم يرده الانكليز. فما أن سمع الكولونيل لاش به، حتى أصدر عن طريق حكمت مهيار أوامره، بالانسحاب حالاً من المستعمرة. وعندها أيضاً أصدر عبد العزيز أوامره لرجاله بالانسحاب.



إبراهيم أبو دية مقعد بعد جراحه التي استشهد على اثرها

معركة اللطرون

اللطرون قرية عربية صغيرة واقعة على هضبة تطل على سهل اللد والرملة الواسع الذي يمتد من باب الـواد حتى يافا وتل ـ أبيب. وهي تبعد سبعة كيلومترات عن الرملة وبعض كيلومترات فقط عن باب الـواد الذي احتله المناضلون من أجل إغلاق طريق القـدس ـ تل ـ أبيب. وكـان الاحتفاظ ببـاب الـواد واللطرون حيـوياً من النـاحيـة الاستراتيجية. فأرسلت التعزيزات إلى هذين الموقعين الاستراتيجيين منـذ دخول الجيش العربي إلى فلسطين. وقد دأب اليهود على مهاجمة باب الواد من أجل فتح الطريق ورفع الحصار عن الجالية اليهودية في القدس.

وحين فشل اليهود في احتلال باب الـواد حاولوا احتلال اللطرون. فشنوا هجوماً في اليوم الثامن من حزيران (يونيو) ١٩٤٨، حققوا فيه بعض النجاح، إثر معركة ضارية. غير أن العرب قاموا بهجوم مضاد في اليوم التالي حسمت فيه الحراب العربية، ومني اليهود بخسائر فادحة بالذخيرة وقتل منهم ٥٦ قتيلاً، فيما غنم العرب أربع دبابات، وعدداً من مسدسات التومي و١٢٠ بندقية.

الفصل الثامن والأربعون

اليهود في القدس الجديدة، على وشك الاستسلام
مجلس الأمن يفرض هدنة أربعة أسابيع لانقاذهم
أسلحة بكميات كبيرة تتدفق على اليهود من تشيكوسلوفاكيا
ومرتزقة من أميركا وأوروبا، خرقاً للهدنة
مجلس الأمن يخون العرب

حين عجزت القوات اليهودية عن فتح طريق القدس ــ تل أبيب، يئست الجالية اليهودية في القدس من حالتها بعد أن حوصرت بالقوات العربية من كل الجهات وقطع عنها الماء والغذاء، حتى أصبحت المواد الغذائية ليست فقط غالية جداً، بل غير موجودة. وهذه الأمور كلها مجتمعة التي(أضرت)بالحالة العسكرية والاقتصادية والصحية لليهود حدت بزعمائهم إلى درس موضوع التسليم للجيش العربي، جدّياً. وبعد الدرس، لجأوا إلى محاولة أخيرة بالابراق طلباً للمساعدة. وإلى القارىء نصّ تلك البرقيات وقد أرسلت أولاها يوم ٨ حزيران (يونيو) ١٩٤٨

١ ــ من القدس إلى تل ــ أبيب ٢٧٦ (S.H.L.) إلى قيادة الجيش. «إذا لم تأتوا لنجدتنا، كان لا فائدة للقتال، وسنستسلم».

٢ ــ «من مهندس القدس ٢٢٤٥» «نلح على إمدادنا بالطائرة بالقنابل والذخيرة. مؤونتنا لا تكفي يومين».

٣ ــ «من إستر إلى روكاخ ــ تل أبيب». «الأم في خطر. الويل لاسرائيل إذا لم تخلصنا. إبذلوا جهدكم».

أجوبة تل أبيب:

«تشجعوا؛ دافعوا ولا تستسلموا». ٩ حزيران (يونيو) ١٩٤٨.

«انتظروا قليلاً وسوف تصل المساعدة. لكنها عون سياسي. فلتنسني يدي اليسرى إذا نسيتك يا أوروشليم».

ملاحظة: المساعدة السياسية المشار إليها في هذه البرقية هي قرار مجلس الأمن الصادر

في ٢٩ أيار (مايو) ١٩٤٨، وهو الذي أمر بوقف إطلاق النار وعقد هدنة الاسابيع الأربعة فقط وعين «وسيطاً» ليشرف على تنفيذها. وهذه الهدنة هي التي أنقذت، دون شك، يهود القدس، من الاستسلام، كما سنرى.

المسيو دو أسكاراتي يجرّب مساعدة اليهود في القدس

حاول المسيو دو أسكاراتي، أن يساعد يهود القدس ثانية. وهو الذي كان قد جرّب من قبل مع النقيب عبدالله التل أن يفكّ الحصار عن يهود المدينة القديمة، وفشل. وهو الآن ينوي التخفيف عن كاهل اليهود خارج السور وقد باتوا على وشك التسليم.

أرسل المسيو دو أسكاراتي الرسالة التالية إلى الملك عبدالله، طلب إليه فيها من ناحية إنسانية، أن يأمر بالترتيبات اللازمة لضخ الماء إلى يهود القدس، يقول:

«... كما أننا نقدّر أن نقصان الماءِ الكبير يزيد من خطر الأوبئة، والأوبئة لا تفرق بين العنصر والأديان».

بهذه الكلمات يصف المسيو دو أسكاراتي الصهيونيين، دون قصد منه، بأنهم أسوأ من الوباء. فالأوبئة لا تفرق بين الكائنات البشرية فيما يميّز الصهيونيون بين اليهود وبقية البشر.

الحكومة البريطانية تقترح، في محاولة لمساعدة يهود القدس،
هدنة الأسابيع الأربعة التي لا سابقة لها

بضغط من الصهيونية العالمية، وحباً بمساعدة يهود القدس، رأت الحكومة البريطانية أن وقف إطلاق النار، وإعلان هدنة في القدس يفرضها مجلس الأمن، لا بد وأن ينقذ يهودها من الحصار. ومن أجل الوصول إلى هذا الغرض، أرسلت الحكومة البريطانية مندوباً سامياً سابقاً على فلسطين إلى نيويورك، كي يقترح على مجلس الأمن هدنة مدتها أربعة أسابيع فقط يفرضها مجلس الأمن، وإرسال الوسيط، الكونت برنادوت، كي يشرف على وقف إطلاق النار ويتوسط بين العرب واليهود. فوافق المجلس على الاقتراح وتبنى قراراً:

١ ــ بفرض هدنة مدتها أربعة أسابيع وإرسال الوسيط إلى فلسطين.

قرار مجلس الأمن في التاسع والعشرين من أيار (مايو) ١٩٤٨:

إن مجلس الأمن [باختصار]:

«رغبة منه بالتوصل إلى وقف القتال في فلسطين...

«يدعو كافة الدول والسلطات المعنية بأن تأمر بوقف القوات المسلحة لفترة أربعة أسابيع.

«يدعو كافة الدول والسلطات المعنية أن تمتنع عن استيراد وتصدير المواد الحربية إلى فلسطين ومصر والعراق ولبنان والعربية السعودية وشرق الأردن واليمن خلال وقف إطلاق النار.

«يؤمر وسيط الأمم المتحدة لفلسطين، بأن يشرف، بالتعاون مع لجنة الهدنة، على احترام الفقرات الآنفة، ويقرر أن يزودوا بعدد كاف من المراقبين العسكريين.

«يؤمر وسيط الامم المتحدة بالاتصال مع كل الفرقاء، حال تطبيق وقف اطلاق النار، فيما يختص بقيامه بمهمته كما حددتها الجمعية العمومية.

«يؤمر وسيط الأمم المتحدة بأن يرفع تقريراً أسبوعياً إلى مجلس الأمن خلال وقف إطلاق النار.

«يقرّر، في حال رفض القرار الحالي من أحد أو من كلا الطرفين، أو في حال الامتناع عن تنفيذه أو خرقه بعد قبوله، أن يعاد النظر بالوضع في فلسطين من وجهة نظر العمل بما ينص عليه الفصل السابع من الميثاق».

الاجتماع ٣١٠

٢٩ أيار (مايو) ١٩٤٨.



مجلس الأمن

التعليق على القرار

١ — جرى تبني هذا القرار عندما كان الموقف العسكري اليهودي عامة، سيئاً؛ وحين

بات يهود القدس على وشك الاستسلام.

٢ ـ حدّد وقف إطلاق النار بأربعة أسابيع فقط. ولم يسبق في التاريخ أن حدد وقف إطلاق النار بمدّة محددة. أفلا يدفعنا هذا للتقدير بأنه وضع من أجل:

(أ) إعطاء اليهود فترة يتنفسون فيها وفرصة ليتزودوا فيها بالأسلحة والذخائر، ثم يستأنفون الحرب بعد انتهاء الأسابيع الأربعة، وهم مدججون بالسلاح؟

(ب) تحرير يهود القدس المحاصرين، بفتح طريق القدس ـ تـل أبيب خلال الهدنة.

٣ ـ للمرّة الأولى ينص القرار على أن مجلس الأمن سيعاقب على عدم الاذعان لقرار وقف إطلاق النار وأنه سينفذ الفصل السابع من الميثاق ضد الفريق الذي يرفض، أو يمتنع عن التنفيذ أو يخرق القرار. ان القصاص ضد من يرفض وقف إطلاق النار غير المحدد له ما يبرره. أمّا القصاص ضد من يرفض كما هو في قرار مجلس الأمن الصادر في ٢٩ أيار (مايو) ١٩٤٨ الذي يحدد وقف إطلاق النار، فهو جرم لأن هـذا القـرار يطلب من كلا الفريقين، بعد انتهاء الاسابيع الأربعة، أن يذبح الواحد الآخر؛ ويا له من جرم!!

رفع الحصار

استغل اليهود تلك الامتيازات كلها منذ تبني القرار. أما يهود القدس فإنهم لم يصدقوا برفع الحصار العربي عنهم. وقد قال لي صديقي في بيروت، عزيز سابا، الذي بقي في حي الطالبية من القدس حتى سنة ١٩٥٥، «اعتقد اليهود في القدس أن معجزة حدثت».

وخلافاً لقرار مجلس الأمن الواضح، بدأ اليهود باستيراد كميات كبيرة من السلاح والذخيرة من تشيكوسلوفاكيا. وبذلك، يرجح الميزان العسكري لمصلحتهم مما أدّى إلى أسوأ النتائج عند العرب الذين لم يريدوا خرق القرار. وقد بات معروفاً الآن أن موافقة العرب على قرار وقف إطلاق النار لمدة أربعة أسابيع الصادر في ٢٩ أيار (مايو) ١٩٤٨، كان له من سوء العاقبة عليهم ما كان لقرار التقسيم الصادر في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧.

لماذا وافقت الحكومات العربية على القرار

عندما علم العرب بقرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار، اجتمعت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية في عمان كي تناقشه. في ذلك الاجتماع، ذهل أعضاء اللجنة حين سمعوا من ممثل الأردن، رئيس الوزراء، توفيق أبو الهدى، أن الجنرال غلوب، القائد العام للجيش العربي، أعلمه أن الجيش العربي قد استنفد سلاحه وذخائره، وبات غير قادر على القتال. وعليه، باتت الحكومة الأردنية مضطرة إلى قبول «قرار وقف إطلاق النار». ولم يكن هذا كل شيء، فقد أضاف رئيس الوزراء قائلاً: «إذا قرّرت اللجنة السياسية رفض وقف

إطلاق النار، فإن الأردن سوف ينسحب، من جامعة الدول العربية».

وعلى الرغم من قناعة اللجنة، نظراً للظروف القائمة، بأن وقف إطلاق النار ضار جدّاً بالعرب، فإن تهديد الأردن بالانسحاب من جامعة الدول العربية، وما يمكن أن يليه من انسحاب العراق، دفع بتلك اللجنة إلى قبوله مع وضع التحفظات التالية، (وهي طبعاً دون فائدة):

١ ــ يوضع اللاجئون اليهود القادمون إلى فلسطين خلال «وقف إطلاق النار» في معسكرات خاصة، ويجب ألا يتدربّوا.

٢ ــ الصليب الأحمر الدولي وحده هو الذي يشرف على تموين يهود القدس بالماء والغذاء.

٣ ــ لا تدخل فلسطين أية ذخيرة.

٤ ــ يجب تقوية الجيوش العربية الموجودة في فلسطين.

وضعت هذه التحفظات بنية طيبة، وأثبتت غباوة أعضاء اللجنة السياسية الذين تخيلوا فعلاً أن الصهيونيين سوف ينفذون هذه التحفظات كشعب مستقيم. وما أبعد هذا عن الحقيقة!

خطيئة لا تغتفر

كان قبول مجلس الجامعة لقرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار في ٢٩ أيار (مايو) ١٩٤٨، خطيئة لا تغتفر، لان رفع الحصار عما لا يقل عن مئة ألف من اليهود في القدس كانوا على وشك التسليم فهو ضرب من الجنون. كان متوقعاً أن ينهي سقوط القدس بأيدي العرب، الحرب القائمة، فيطلب اليهود التفاوض مع العرب من أجل السلم. وكان على جامعة الدول العربية ألا تقبل أبداً، بوقف محدود لإطلاق النار، وأيّ مجلس أمن، يأمر بوقف إطلاق النار لمدة محددة، ثم يأمر باستئناف القتال ويكون ذلك بحسن نية وللخير العام؟؟ إنه أمر غير مألوف تفوح منه رائحة الخيانة، بل الخيانة نفسها.

كانت حكومة الولايات المتحدة متعطشة جداً لقبول العرب وقف إطلاق النار، ولقد روى التل في كتابه «كارثة فلسطين» أن القنصل الأميركي في عمّان أرسل إلى رئيس الوزراء، توفيق أبو الهدى، برقية يلحّ فيها عليه، نيابة عن حكومته، بقبول قرار وقف إطلاق النار دون قيد أو شرط. ولم تكن الحكومة البريطانية أقل اهتماماً من الولايات المتحدة، لأن وزارة الخارجية البريطانية أرسلت حال تبني القرار، برقية إلى لجنة الهدنة القنصلية في القدس تطلب منها الاتصال مباشرة بضابط ارتباط جامعة الدول العربية وبوزارة الخارجية في عمان عن طريق النقيب عبدالله التل في القدس لتطبيق القرار بسرعة.

فرح اليهود بالقرار

كان استغلال اتفاق وقف إطلاق النار والقيام بأشد الهجمات خلاله، سجيّة صهيونية. كانوا يقولون: «انها الحرب. والمبادىء القويمة لا تطبّق زمن الحرب». لذلك، ما كان اليهود يتقيدون بأي هدنة أو إعلان لوقف إطلاق النار؛ أما هذه المرّة فقد تقيد اليهود بالمبدأ، لأنه كان في مصلحتهم. كانوا بحاجة لفترة استراحة يأتون خلالها بالسلاح والذخيرة من الخارج ولفتح طريق القدس ـ تل أبيب وتحرير يهود القدس من الحصار.

لما صدر قرار وقف إطلاق النار، أذاعه غلوب باشا حالاً، كي يساعد في تنفيذه على جيشه، وهذا يعني إيقاف القتال، وبقاء كلٍّ من كتائبه في مكانها. ولقد نفذ هذا الأمر قبل أن وُضع القرار موضع التنفيذ رسمياً، بعشرة أيام.

سمي وقف إطلاق النار لأربعة أسابيع فيما بعد، بالهدنة الأولى

سمي قرار وقف إطلاق النار لأربعة أسابيع، الصادر عن مجلس الأمن في التاسع والعشرين من أيار (مايو) ١٩٤٨، بالهدنة الأولى تمييزاً له عن الهدنة الثانية التي تبناها مجلس الأمن في شهر تموز (يوليو) التالي. ولقد بدأ تطبيق الهدنة الأولى رسمياً في اليوم الحادي عشر من حزيران (يونيو) وانتهى العمل بها يوم التاسع من تموز (يوليو) أي بعد أربعة أسابيع. واستؤنفت الحرب في العاشر من تموز (يوليو)، في فلسطين، ثم انتهت بالهدنة الثانية في التاسع عشر من تموز (يوليو) ١٩٤٨.

مكاسب اليهود في الهدنة الأولى

١ ـ رفع الحصار عن الجالية اليهودية في القدس، ونجا اليهود من التسليم بأعجوبة.

٢ ـ لم يجر تموينهم، بالزاد والماء فحسب، وإنما بكميات كبيرة من السلاح والذخيرة، خلافاً لقرار مجلس الأمن.

٣ ـ فتحت طريق القدس ـ تل أبيب لهم.

٤ ـ شقّ اليهود طريقاً موازية لطريق القدس ـ تل أبيب، سموها بطريق بورما. ولم يوقفهم وسيط الأمم المتحدة، الكونت برنادوت، عن شقها، وهو الذي جاء للاشراف على تطبيق قرار وقف إطلاق النار، بحذافيره. والقرار يمنعهم من ذلك. وما كان بوسعهم أن يقوموا بشق طريق كهذه لولا الهدنة.

٥ ـ جاؤوا بكميات كبيرة من السلاح والذخيرة، من تشيكوسلوفاكيا، بشكل رئيسي، فخرقوا قرار مجلس الأمن. وهذا رجح كفة الميزان العسكري لمصلحتهم، فيما كان الرجحان قبل الهدنة لمصلحة العرب.

٦ ــ أتوا بالذخائر والمرتزقة من الولايات المتحدة ومن انكلترا ومن أفريقيا الجنوبية.

٧ ــ حفروا الخنادق وبدلوا في مواقعهم الاستراتيجية، وباتوا مستعدين للهجوم.

٨ ــ لم يفعل وسيط الأمم المتحدة، الكونت برنادوت، الذي وصل في اليوم الثاني من الهدنة، شيئاً لايقاف الباخرة الأتالينا (Alatalina) من الرسو، في العشرين من حزيران (يونيو)، ١٩٤٨، وعليها عدد كبير من المهاجرين اليهود والمرتزقة وكميات كبيرة من الذخيرة. ولقد قال في تقريره إلى الأمم المتحدة: «لقد قام الصهيونيون باستعدادات عسكرية جمّة، حتى صرت على يقين، من أن استئناف الحرب، سوف يؤدي إلى هزيمة العرب».

٩ ــ طردوا الفلاحين من قراهم لتأمين خطوط اتصالهم. ففي السادس عشر من حزيران (يونيو). أي في أيام الهدنة، طردوا سكان جَبع من قريتهم.

نشاط العرب خلال أسابيع وقف إطلاق النار الأربعة

لم يُعمل شيء، خلال الهدنة، من أجل تقوية الجيوش العربية أو تحسين مواقعها. بل على العكس، فقد جرب الجيش العربي أن يحلّ «الجهاد المقدس» وأن يجرّده من سلاحه. ومن المؤكد أن الجيوش العربية الأخرى لم تجلب ذخائر جديدة، ولم تقوّ مواقعها. وأسوأ من ذلك كله، أن الضباط الانكليز، قادة الجيش العربي، لم يعتبروا أنفسهم في حرب مع اليهود، أعداء العرب. ولم يشعروا أنهم يقاتلون من أجل بلادهم. أو لأجل امبراطوريتهم لأن الأردن ليست وطنهم؛ ولما كانت بريطانيا العظمى تعطف على اليهود، سرى هذا العطف على الضباط البريطانيين في الجيش العربي.

وهناك دليل آخر على انحياز الضباط البريطانيين في الجيش العربي وهو المعاملة الخاصة التي حظيت بها الجامعة العبرية ومستشفى هداسا على جبل سكوبس، وقد كانتا في أيدي العرب. غير أن الجيش العربي لم يحتلهما كما ينبغي وإنما تركا في رعاية الأمم المتحدة ورفع علمها على أبنيتهما. كما أن الغذاء وبقية المؤن، كانت تأتيهم أسبوعياً من الجزء اليهودي في المدينة، بحراسة الجيش العربي.

كان هذا الاجراء نتيجة اتفاق وقعه في ٧ تموز (يوليو) ١٩٤٨، كل من: نورمان لاش (Norman Lash) قائد عسكري في الجيش العربي، نيابة عن الجيش العربي، شالتييل (Shaltiel) ضابط عسكري يهودي، نيابة عن حكومة إسرائيل المؤقتة، جين نين وين هيوز (Jean Nien huys) رئيس لجنة الهدنة التابعة للأمم المتحدة، ونيلز برونسون (Nils Bronson) رئيس المراقبين، ورئيس مجموعة مراقبي القدس، التابعة للأمم المتحدة.

وقد نص الاتفاق على تجريد منطقة جبل سكوبس الذي تقوم عليه الجامعة العبرية ومستشفى هداسا وأوغيستا فيكتوريا، وقرية العيسوية العربية، من السلاح.

ويقوم على الأمن قوة بوليس مدنية من عرب ويهود تحت قيادة ضابط من الأمم المتحدة.

هذا الاتفاق هو برهان ساطع على أن الملك عبدالله لم يكن قائد الجيش العربي وأن غلوب، الذي يتلقى الأوامر من وزارة الخارجية البريطانية، كان هو القائد العام لذلك الجيش، فكان يتلاعب بالجيش العربي كما يريد مستقّلاً عن الملك عبدالله.

بريطانيا العظمى تريد استمرار الحرب لمصلحتها الخاصة

يروي جون كـمشي في كتابه «سقوط الأعمدة السبعة»، الصفحة ٢٥١، كيف أخبره وزير الدولة البريطاني، هيكتور ماكنيل (Hector MacNeil)، أن الحرب يجب أن تستأنف حتى تؤدي إلى قبول العرب «بالأمر الواقع» في خلق الدولة اليهودية.

ويستمر كيمشي في روايته: «قال الوزير أيضاً انه يريد أن تؤدي الحرب إلى هزيمة كبرى للمصريين على أيدي اليهود، كي يعرفوا مدى ضعفهم ويوقفوا إزعاجهم للبريطانيين بطلبهم الجلاء عن الأرض المصرية والتنازل عن سيادتهم على قناة السويس».

«وا أسفاه»! هل يجب طرد شعب عرب فلسطين من بيوته ووطنه، من أجل إبقاء بعض الكتائب البريطانية، بعض الوقت، على قناة السويس؟!

الفصل التاسع والأربعون

زيارة منطقة غزة، مدة الهدنة، مع شحادة الغصين
قنصل عام لبنان في فلسطين
زيارة لبنان أيضاً مع منير أبي فاضل، للتفقد
مشروع تقسيم جديد لكونت برنادوت
اليهود يستمرون بخرق الهدنة

نظمت، خلال الأسبوع الأول من الهدنة، بناء على طلب من رئيس جمهورية لبنان، بشارة الخوري، رحلة لي وللدكتور شحادة الغصين، قنصل لبنان في القدس، لزيارة بيت لحم، والخليل، وقطاع غزة، كي ندرس ردّ فعل الشعب تجاه الحرب ونتائجها ونقدم به تقريراً إليه.

كانت طريق القدس – بيت لحم الرئيسية مغلقة منذ ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨، فاضطررنا إلى سلوك طريق متعرجة وفي غاية الخطورة، طولها حوالي ٣٠ كلم، شقها الجيش العربي على جناح السرعة لاستعمالها مؤقتاً لأغراضه. وكان أن الرحلة التي كانت تتطلب عشر دقائق فقط، أخذت منا أربع ساعات خطرة متعبة. ليس هذا فحسب، بل كانت غير آمنة. فالارهابيون اليهود خندقوا على رؤوس التلال التي تحيط بالطريق، فباتوا يستطيعون اعتراض المرور بسهولة.

قضينا الليل في بيت لحم، مع أصدقاء لنا: فريد الخياط وعائلته الكريمة. فسروا بمجيئنا بعد أن استغربوا كيف وصلنا إلى بيت لحم. فالطريق كانت مضنية وقلما يستعملها أحد.


الدكتور شحاده الغصين

كان في بيت لحم ثلاثة جيوش عربية: الجيش المصري بقيادة المقدم أحمد عبد العزيز، والجيش العربي، و«الجهاد المقدس». وما كان هنالك من تعاون بين الجيش المصري والجيش العربي.

أعطانا صديقي، رفيق عويس، الضابط المكلف بقيادة «الجهاد المقدس»، كل ما نحتاج من معلومات، ولما أردنا زيارة الوحدات الأخرى، نصحنا رفيق ألّا نفعل ذلك قائلاً: «من الممكن أن يتنازعوا في أمر من سيرافقكما إلى غزة. وربما رفضوا السماح لكما بالذهاب إليها. سوف أهتم أنا بكما».

وسألت رفيق إذا كان السفر إلى غزة آمناً، نظراً لوجود عدة مستعمرات يهودية على الطريق، فقال لنا انه ما من خطر، ومع ذلك أرسل معنا أربعة من رجاله المسلحين.


الضابط رفيق عويس

كانت الطريق من الخليل إلى غزة مقفرة. لا حياة فيها، ولا حركة مرور، غير أننا أحسسنا بالأمان لأننا لم نر أثراً للعدو.

في غزة، نزلنا بضيافة رئيس بلديتها رشدي الشوّا وقضينا عنده أربعة أيام.

بدأ الشوّا بإقامة وليمة عشاء كبرى على شرفنا دعا إليها عدداً كبيراً من وجوه المدينة. كانت المناقشة حامية بعد العشاء. كانوا في قلق يريدون أن يعرفوا كل شيء عن القدس، كما كنا نود معرفة كل شيء عن المنطقة الجنوبية.

ولم يطل بنا الوقت حتى علمنا أنهم حزينون للطريقة التي تتطور فيها الحرب في منطقتهم. قالوا: «إن جيش النقراشي ضعيف، لا يملك ذخيرة كافية». وقد استغربوا تقدم الجيش المصري تاركاً وراءه عدة مستعمرات صهيونية مسلحة دون إزعاج. ولم يكتف بعدم التصدي لهذه المستعمرات، بل منع «الجهاد المقدس» من مهاجمتها. ولما هاجم «الجهاد المقدس» إحدى تلك المستعمرات واحتلها، أمرته القيادة المصرية باخلائها حالا. وحين تردد في تنفيذ الأمر هددته بضربه بالقنابل!

زرنا المجدل وأسدود في الشمال وخان يونس في الجنوب وبير السبع في الشرق. واجتمعنا بالناس في بلدية كل منها. وكان يشرف على بير السبع، جيش أحمد عبد العزيز غير

النظامي، بينما كان يسيطر على مدينة غزة وبقية مدن الساحل، الجيش المصري النظامي.

غادرنا غزة ونحن نشعر بأن الثقة كانت مفقودة بين المصريين والفلسطينيين. كان المصريون يعتقدون أن الفلسطينيين خانوا وطنهم كما أن الفلسطينيين يعتقدون أيضاً أن الحكومة المصرية لم تكن لديها القوة لانقاذ فلسطين من الاحتلال اليهودي. وعلى ذلك أساء المصريون معاملة الفلسطينيين ولم يعاملوهم كشركاء، يعملون معاً للغاية نفسها. والواقع أن أحدهما لم يعرف الآخر ومع أن كليهما عربي؛ فقد قاتلا، وكأن كلًّا منهما غريب عن الآخر. وكانت النتيجة هي الكارثة كما سنرى.

زيارة لبيروت مع منير أبو فاضل خلال الهدنة

سافرت والنقيب أبو فاضل، إلى بيروت، خلال الأسبوع الثالث من الهدنة، لكي نرى الوضع العسكري على الجبهة اللبنانية وقد كان وزير الدفاع اللبناني، الأمير مجيد أرسلان، خير مصدر لمعلوماتنا فهو صديق حميم للنقيب أبو فاضل، وكلاهما لبناني ومن المنطقة نفسها.

دامت مقابلتنا للأمير أكثر من ساعتين، أحسست في نهايتها بكآبة لم أشعر بها من قبل. كان على الجيش اللبناني، تبعاً للاستراتيجة العسكرية العربية أن يسير في الخامس عشر من أيار (مايو) سنة ١٩٤٨ جنوباً في محاذاة شاطىء البحر المتوسط، من رأس الناقورة إلى عكا. غير أنه لم يفشل في تحقيق هدفه فحسب، بل احتل العدو، كما علمنا، عدة قرى لبنانية حدودية! كانت الوقائع في رواية وزير الدفاع كسكاكين تخرق قلبينا.

لم يكن حديثنا ذا صفة رسمية. تكلمنا بكل صداقة وصراحة. وبكل بساطة، قال لنا الأمير مجيد ان مصلحتنا تقضي بعدم استئناف الحرب، وما الحاحنا عليها إلّا لضررنا.

كانت تلك صدمة لي، فما كنت، آنئذ، أرضى بأقل من إلغاء تقسيم فلسطين وما كنت أستطيع إقناع نفسي بأن الجيوش العربية أضعف من أن تصل إلى هذا الهدف، ولإرضاء لهذه النفس الثائرة، ذهبت أستطلع رأي وزير لبناني آخر وهو جبرائيل المر، الصديق العزيز عليّ. غير أنه كان يرى تماماً ما يراه وزير الدفاع، بل لقد كان أكثر وضوحاً من زميله، قال: «أما فيما يتعلق بلبنان، فإن الجيش اللبناني، لا يستطيع أكثر من الدفاع عن حدوده». ولمح إلى تقدم وتراجع الجيوش العربية الأخرى فقال: «صدقني، يا صديقي، أننا إذا استطعنا الاحتفاظ بما لدينا الآن، كان ذلك لخير العرب». وقبل أن أغادر وزارة العمل، علمت بأمر شحنة الأسلحة والذخائر التي وصلت وما زالت تصل بكميات كبيرة إلى الأرهابيين اليهود في فلسطين.

الملك عبد الله يزور القدس خلال الهدنة الأولى

في اليوم الأول من الهدنة، كلم الملك عبد الله النقيب التل فأنبأه أنه قادم لزيارة

القدس في العاشر من حزيران (يونيو) وهو مزمع على اداء صلاة الجمعة في الجامع الأقصى.

أقيمت الاستعدادات للزيارة الملكية واجتمعت الوفود في باب الأسباط وحيته لدى وصوله بهتافات حماسية. وسار على قدميه على مثال الخليفة العظيم، عمر بن الخطاب، وزار أولاً كنيسة القبر المقدس، قمة الأماكن المقدسة في المسيحية، ومن ثم اتجه إلى الجامع الأقصى فوجد ساحته الواسعة وقد اكتظت بآلاف المصلين. وبعد أن زار الصخرة المقدسة، أمّ صلاة الجمعة في الأقصى.

تعيين حلمي عبد الباقي حاكمًا عسكرياً وترفيع التل إلى رتبة رائد

اتجه الملك بعد الصلاة إلى المجلس الإسلامي الأعلى، حيث كان المفتي الأكبر، الحاج أمين الحسيني، يستقبل ضيوفه في صالونه. وأديرت القهوة على الضيوف. كنا حوالى خمسين. أما الجوّ فكان هادئاً. وقد عين الملك، قبل رحيله، حلمي باشا، حاكمًا عسكرياً عاماً على القدس، ورفع التل إلى رتبة رائد.

السماح لليهود بزيارة المبكى خلال الهدنة

قدّم الكولونيل لاش، قائد الفرقة الأولى، كتاباً إلى قاضي القضاة ووزير التربية، محمد الشنقيطي، يطلب منه فيه السماح لليهود بزيارة المبكى، يومياً، خلال الهدنة. فوافق الملك وحكومة أبي الهدى على ذلك. وكان اليهود يريدون أن يقدّموا ٥٠٠٠٠ ل إسترلينية تقديراً لهذا الامتياز. وعندما طلب إلى التل أن يبدي رأيه في الموضوع، أجاب ان اليهود يدفعون مليون إسترلينية لقاء إذن رسمي لهذه الغاية.

عندها أرسل الكولونيل لاش كتاباً إلى الرائد التل يقول فيه:

«أردت، بعد اجتماع لجنة الهدنة اليوم، أن أعرف رأيك حول النقاط التالية:

١ ــ السماح للحاخامين اللذين كانا في الحي اليهودي من المدينة القديمة واستسلما للجيش العربي، بزيارة كنيس الحي خلال الهدنة والإذن لخمسين يهودياً بزيارة المبكى يومياً على أن تقرر لجنة الهدنة توقيت الزيارة.

٢ ــ يرافق الزوار في كل زيارة، أحد «مراقبي» لجنة الهدنة.

٣ ــ الإذن لزوار يوم الجمعة بالبقاء مساء مدة ساعتين زيادة.

٤ ــ يجب أن يكون الزوار غير مسلحين.

٥ ــ ان زيارة الأماكن المقدسة ووفق عليها من مجلس جامعة الدول العربية حسب «اتفاق الهدنة» الساري المفعول.

الكولونيل لاش
قائد الفرقة الأولى

وتجاهل الرائد التل الكتاب، بكل بساطة، ولم يجب عليه. ولم يمزقه، بل احتفظ به للمراجعة.

الملك عبد الله يزور مصر والعربية السعودية خلال الهدنة

في الثاني والعشرين من حزيران (يونيو) طار الملك عبد الله إلى القاهرة، بصفته القائد الأعلى للجيوش العربية. فاستقبله الملك فاروق استقبالاً حسناً وتوقعت الأوساط العربية نتائج حسنة من هذا اللقاء. ونقدّر أن الملك تباحث مع السلطات المصرية حول الوضع الصعب في فلسطين. لأن بياناً رسمياً لم يصدر في أعقاب الزيارة.

بعدها، ذهب الملك عبد الله إلى الرياض كي يلتقي بالملك عبد العزيز بن سعود. وما كانت العلاقة لسوء الحظ، حسنة بين الملكين منذ احتلال ابن السعود للحجاز وخروج العائلة الهاشمية من مكة سنة ١٩٢٢. وكان للنزاعات بين الحكام العرب تأثير سيء على الحرب التي كانوا يخوضونها معاً، ضد العدو المشترك الذي كان يستغل هذه الخلافات. وكما أنه لم يصدر بيان رسمي بعد مباحثات الملك في مصر، فكذلك لم يصدر أيضاً بيان رسمي في نهاية مباحثاته في المملكة العربية السعودية.

الكونت فولك برنادوت يصل إلى القدس

لم تستطع لجنة الخمسة وهي التي عينها مجلس الأمن تبعاً لقرار التقسيم، ان تمارس عملها في فلسطين أو أن تنفذ قرار التقسيم الذي تبنته الجمعية العمومية؛ وعلى ذلك، قررت الأمم المتحدة أن تلغي اللجنة وتعين «وسيطاً» بدلاً عنها. وبعد ذلك بأسبوعين، أعلن مجلس الأمن، في القرار الذي أصدره في ٢٩ أيار (مايو) ١٩٤٨، عن هدنة في فلسطين لمدة أربعة أسابيع، كما قرر أيضاً إرسال وسيط إلى فلسطين للإشراف على وقف إطلاق النار والتوسط بين العرب واليهود. وقد انتخب أعضاء مجلس الأمن الدائمين، الكونت فولك برنادوت، السويدي، ذا الشهرة العالمية، وسيطاً.

حين وصل الكونت برنادوت إلى القدس في ١٢ حزيران (يونيو) ١٩٤٨، خرج لملاقاته في مطار قلندية، عارف العارف، محافظ رام الله، والرائد عبد الله التل. وبعد أن أقيمت حفلة استقبال على شرفه في رام الله، ذهب إلى القدس ليرى التل في مقر قيادته. وهناك، في حديث دام ساعتين، أعطى التل لبرنادوت صورة عن الوضع العسكري في القدس وجوارها وشرح له كيف كان الوضع قبل الهدنة وكيف هو الآن، وشدّد في الوقت نفسه، على النقطة الأساسية وهي: أنه لولا قرار الهدنة، لسقطت القدس اليهودية في أيدي العرب.

وبعدها، أخذ التل برنادوت إلى كل المواقع العسكرية العربية، وإلى مخيمات

اللاجئين العرب الفلسطينيين في المنطقة.

تموين القدس اليهودية بالغذاء والماء

في اليوم التالي، أتى الكولونيل لاش لكي يزور الكونت برنادوت. وقد أقام الكونت في دار الحكومة سابقاً، الواقعة على جبل المكبر، وقد رفع عليها علم الأمم المتحدة. فاتخذ الكونت والكولونيل الترتيبات لتموين القدس اليهودية بالغذاء والماء. تلك كانت المسألة الملحة عند ضباط الجيش العربي الإنكليز، الذين لم يشعروا أبداً أنهم في حرب مع اليهود.

تعيين مراقبي الأمم المتحدة العسكريين

لم يُضع الكونت برنادوت وقته وعين مراقبين عسكريين تابعين للأمم المتحدة للأشراف على تنفيذ وقف إطلاق النار بشروطه التي نصّ عليها قرار الهدنة. فعين الكولونيل برونسون، وهو سويدي، رئيساً للمراقبين في القدس، والنقيب بوري (بلجيكي) والكولونيل سيرو (فرنسي). مساعدين له. غير أن الكونت أو أحداً من مساعديه، لسوء الحظ، ما كان يعرف شيئاً عن سلوك الإرهابيين اليهود الإجرامي والحاجة إلى اتخاذ أشد الاحتياطات ضد إجرامهم. هذا الجهل، لم يجعل المراقبة غير ناجعة فحسب، وإنما كلفت الوسيط وأحد أعوانه حياتهما كما سنرى.

تحديد مواقع مختلف الجيوش في القدس

في السادس عشر من حزيران (يونيو) ١٩٤٨، وضعت مخططات تدل على موقع كل جيش في القدس. وقد صرّح الرائد التل مراراً أنه كان ينبغي وضع حيّي سعد وسعيد والمصرارة، وسكانهما من العرب في الجزء العربي من القدس، لا في جزئها اليهودي. فقال: «كان يجب ذلك لولم يتنازل ضباط الجيش العربي الانكليز، عنهما ويضموهما إلى الجزء اليهودي.

فتح طريق القدس ــ تل أبيب

أهم مغنم ربحه اليهود من الهدنة الأولى، كان فتح طريق القدس ــ تل أبيب. فقد بدأ اليهود، بعد إعلان وقف إطلاق النار مباشرة، باستخدام الطريق التي سدّت في باب الواد منذ نيسان (أبريل)، وكادت تؤدي إلى سقوط القدس اليهودية في أيدي العرب.

كما بدأ اليهود بإصلاح محطات الماء المتضررة على طول طريق القدس ــ تل أبيب، وأمنوا وصول الماء من رأس العين إلى الجالية اليهودية في القدس، ثم بدأوا يرسلون إلى القدس كميات كبيرة من السلاح والذخيرة، وذلك خرق يناقض إطلاقاً قرار الهدنة. وكان الأمر من الوضوح بحيث إضطر الرائد التل إلى تقديم شكوى للجنة الهدنة عن هذه المخالفة الصارخة. عندها عينت لجنة الهدنة، استجابة للاعتراض، مراقبين في باب الواد لتفتيش القوافل اليهودية ومنعها من نقل السلاح.

شكوى التل أغضبت غلوب باشا

ومن الغريب حقاً أن يغضب غلوب من شكوى الحق التي قدّمها التل إلى اللجنة، فانزعج القائد العام، وحين لم يستطع الحفاظ على هدوئه، أرسل في الثالث والعشرين من حزيران (يونيو) ١٩٤٨، البرقية التالية للرائد التل:

لا تقدم تقارير عن الحوادث خارج القدس

«بالاشارة إلى كتابك في ١٩٤٨/٦/١٦ إلى مراقب الهدنة، النقيب بوري، لا تكتب منذ الآن إلى لجنة الهدنة عن الحوادث خارج مدينة القدس».

١٩٤٨/٦/٢٣

واترك لخيال القارىء الكريم تقدير الأثر البعيد لهذه البرقية. لقد بات واضحاً أن غلوب يريد أن تصل كمية كافية من الذخيرة، إلى يهود القدس خلال أسابيع وقف إطلاق النار الأربعة ليتمكنوا من هزيمة جيشه، الجيش العربي، واحتلال القدس كاملة عند استئناف القتال. فهل هنالك فعل أشدّ خيانة من هذا الذي ارتكبه القائد العام؟

غير أن التل لم يرض عن مركز التفتيش الذي أقامته لجنة الهدنة في باب الواد؛ وخشي أن يبدأ اليهود بضرب المدينة القديمة بالمدفعية في نهاية الهدنة، فأرسل تقريراً إلى قائد الفيلق الرابع يقول له فيه:

١ ــ إن مدافع المورتر التي أتت حديثاً من تل أبيب إلى القدس، سوف ترمي قنابلها، حال انتهاء فترة أسابيع وقف إطلاق النار الأربعة على الـ ٥٠,٠٠٠ مواطن عربي في القدس القديمة، ولسوف يحيق بهم ما حاق بعرب يافا وحيفا من عذاب.

٢ ــ يجب أن يراقب باب الواد أيضاً، أحد الجيشين، العراقي أو المصري.

٣ ــ حال انتهاء الهدنة، يجب أن نهاجِم، قبل أن نهاجَم.

غلوب باشا يزور القدس

في الحادي والعشرين من حزيران (يونيو) ١٩٢٨، زار غلوب باشا، القدس للمرّة الأولى منذ إخلائها من قِبَل البريطانيين في الرابع عشر من أيار (مايو) سنة ١٩٤٨. وذهب حال وصوله إلى الروضة ليمتدح عبدالله التل على جهده العظيم في الدفاع عن القدس وتهنئة الكتيبة السادسة لشجاعتها. وتلطف، فعرض على التل عطلة شهر أو شهرين، إذا أحب، يقضيها في لندن أو باريس، مما يدل على أن غلوب كان يتحرق للتخلص من التل حتى نهاية حرب فلسطين. غير أن خداع التل ما كان سهلاً، فرفض العرض بلطف قائلاً انه: «يريد التضحية بحياته دفاعاً عن القدس».

بعد أيام قليلة، تلقى التل رسالة من عمّان وقعها القائد العام يمتدحه فيها وكتيبته



الجنرال غلوب باشا يزور القدس

لجهادهم في إنقاذ القدس من: «التخريب والاستبداد اليهوديين» من أعمال العصابات الارهابية الشريرة، ومن أجل طرد اليهود من مدينة القدس القديمة. لقد انتزعنا هذا النصر بفضل بطولة الكتيبة السادسة. إنه حدث تاريخي سوف يسجل في تاريخ الأرض المقدسة، ونصر عظيم يضاف إلى الانتصارات العربية».

وقد وقّع الجنرال الرسالة باسمه الكامل وألقابه. لكن ماذا يمكن أن نعتقد بهذه الرسالة؟ وكيف نوفقّ بينها وبين أعماله؟

اليهود يهاجمون المدينة القديمة بالرغم من الهدنة

حالما وصلت كميات السلاح إلى يهود القدس، بدأ الارهابيون يشنون هجماتهم على المدينة القديمة بالرغم من الهدنة. وقد قامت البالماخ بهجومها العنيف على باب النبي داوود يوم الثلاثين من حزيران (يونيو) سنة ١٩٤٨. فاستخدمت مدافع الهاون ثلاث ساعات متتالية: من الثامنة حتى الحادية عشرة مساءً. ولم يجب الجيش العربي حتى بدأوا تقدمهم فكان صداماً عنيفاً انتهى بتراجع اليهود بعد أن تركوا وراءهم ٨٥ قتيلاً.

لم تتوقف هجمات اليهود لاحتلال الحي اليهودي في القدس القديمة خلال الهدنة الأولى. كانت هجمات يائسة؛ لكن الجيش العربي والمناضلين ردّوها جميعاً؛ فقد كانا يعملان معاً بانسجام تام.

أمين عام جامعة الدول العربية يتقدم بشكوى إلى برنادوت عن انتهاكات اليهود

عندما استمر انتهاك اليهود لقرار مجلس الأمن للتاسع والعشرين من أيار (مايو) ١٩٤٨، أبرق عبدالرحمن عزّام، أمين عام جامعة الدول العربية، إلى الكونت برنادوت يشكو إليه انتهاكات اليهود ويهدد بإلغاء «اتفاق وقف إطلاق النار» إذا لم تتوقف هذه الانتهاكات. غير أن الجامعة لم تنفذ تهديدها وواصل اليهود استيراد السلاح وتجهيزات العسكرية الثقيلة من تشيكوسلوفاكيا والبلدان الغربية الأخرى. كما أن المتطوعين والمرتزقة من الولايات المتحدة ومن انكلترا وغيرها كانوا يصلون فيدرّبون حالاً للاشتراك بالعمليات. وشُقّت الطرق وحُفرت الخنادق في كل المواقع الاستراتيجية في فلسطين. كما شيدت مطارات مؤقتة للطائرات التي وصلت حديثاً.



عبدالرحمن عزام

وفي العشرين من حزيران، (يونيو) رست السفينة «آليتالينا»، وحمولتها ٤٠٠٠ طن، رافعة العلم الصهيوني، في كفار فيتكين شمالي ناتانيا. وكانت تحمل كمية كبيرة من الأسلحة والذخائر: خمسة آلاف بندقية وأربعة ملايين خرطوشة، وثلاثمائة رشاش برن، و ١٥٠ مدفعاً مضاداً للطائرات، الخ... و ٩٠٠ أميركي بين متطوع ومرتزق.

خرج المهرّب مناحيم بيغن، فوهرر الارغون زفاي ليومي، لاستقبال السفينة والترحيب بالمرتزقة. وحين اطلع بن ــ غوريون، رئيس وزراء الحكومة المؤقتة الاسرائيلية، على هذا، أراد أن يدلل على أن حكومته ضد انتهاك قرار وقف إطلاق النار، فأنذر بيغن بعدم استلام السلاح وتركه للحكومة المؤقتة التي سوف تمنع نزوله ونزول المتطوعين والمرتزقة.

أجاب بيغن باحتقار: «لقد عصيت الحكومة البريطانية، فهل أُطيعك أنت؟».

وقامت معركة كاذبة بين الهاغاناه والأرغون، بوجود مراقبي الأمم المتحدة؛ وقد كانوا في ذلك اليوم قادرين على منع نزول الذخيرة والمتطوعين. لكن، في اليوم التالي، نزل كل ما على السفينة «بسلام» في قوارب صغيرة ليلاً.

وبعد يومين وصلت سفينة أخرى ورست في تل ــ أبيب. وقامت مناوشة أخرى كاذبة بين الهاغاناه والأرغون. وأخذت الهاغاناه، على نفسها، نيابة عن الحكومة المؤقتة، مهمة تفريغ السفينة من حمولتها العسكرية، لأن الحكومة تستطيع، ولا شك، استخدامها بشكل

أفضل. وقد نسفوا السفينة بعد التفريغ ليُظهروا مدى «أمانتهم» لمبادىء الهدنة!

واستمرت المعارك الكاذبة بين الهاغاناه والارغون، عدة أيام ثم انتهت ولم يظهـر خلالها وزراء الجماعتين في الحكومة المؤقتة أي دليل على الخلاف؛ ومن استقال بسبب الخلافات، عاد إلى مركزه. كما أن الذين أوقفوا من عصابة الارغون خلال المناوشات، أطلق سراحهم. يقول الكونت برنادوت في «مذكراته» ان حـادثة «اليتاليـنا» لم تكن مفاجأة لمراقبينا: جاءت السفينة من البون بور في فرنسا قـرب مرسيليـا، وعندمـا اقتربت من الشاطىء، منع إرهابيو الارغون مراقبينا من الاقتراب منها» وهكذا كان. ويقول أيضاً: «ان كمية السلاح التي أتت بها الارغون وشتيرن، قلبت الميزان لمصلحة اليهود في القتال الذي بدأ في نهاية الأسابيع الأربعة لوقف إطلاق النار». كما أن مناحيم بيغن ذكر أيضاً في كتابه: «الثورة» حكاية الباخرة «اليتالينا» وبيّـن ان عصابتي الهاغاناه والأرغون لم تقتتلا، وإنما كانتا على اتفاق وتفاهم كاملين بما يختص برسو السفينة، وتفريغها وطريقة توزيع البضاعة على ظهرهـا.

انتهاء أسابيع الهدنة الأربعة وازدياد القوة العسكرية اليهودية كثيراً

بات وضع الارهابيين اليهود العسكري، في نهاية أسابيع الهدنة الأربعة، مختلفاً جداً عمّا كان عليه في بدء الهدنة، فقد حصلوا على الطائرات المقاتلة (بوفور)، وعلى كميات كبيرة من السلاح الثقيل من تشيكوسلوفاكيا، كما حصلوا على مدافع هاون، ورشاشـات برنَ الألمانية.

كان الارهابيون اليهود يملكون قبل الهدنة الأولى أربع طائرات فقط؛ فارتفع العدد، حسب ما روت «النيويورك تـايمز» بعدها إلى أربعين. إشتروا اثنتي عشرة طائرة خفيفة، و٢٢ طائرة نقل و١٠ قاذفات؛ جاءت كلها من تشيكوسلوفاكيا التي خصصّت للصهيونيين مطاراً خاصاً هو مطار «زاله» (Zaleh Airport).

مقابل ذلك:

١ ــ لم تأت أية أسلحة من أي نوع إلى الحكومات العربية أو إلى عرب فلسطين.

٢ ــ لم تتحرك الجيوش العربية عن مواقعها خلال الهدنة.

٣ ــ لم تهاجم الجيوش العربية اليهود عندما انتهكوا مبادىء وقف إطلاق النار في باب الواد وفتحوا طريق القدس ــ تل أبيب، تمسكاً منهم بوقف إطلاق النار.

لم يكتف غلوب بمنع رجاله من التحرك ضد مخالفات اليهود، بل طلب إلى الرائد التل أن يحلّ «الجهاد المقدس»، وهو الميليشيا العربية. فأذهل هذا الأمر التل، فجاء يكلمني بشأنه، لأنه يتعلّق بي. كان غاضباً، وقال: «كيف أسرح هؤلاء الشجعان الذين أنقذوا

القدس قبل أن نأتي من الاحتلال اليهودي؟ لا، لن أفعل. إنني لن أسرّح أبداً أبطال القدس».

مرّة أخرى أعجبت بصدق ووطنية عبدالله التل. كان عربياً حقيقياً وأكثر من ذلك، كان رجلاً.

الكونت برنادوت يذهب إلى القاهرة

ذهب الكونت برنادوت في السادس عشر من حزيران (يونيو) ١٩٤٨، إلى القاهرة في محاولة للتوسط. والتقى هناك برئيس الوزراء المصري، محمود فهمي النقراشي، ورئيس وزراء الأردن، توفيق أبو الهدى، الذي صادف وجوده هناك؛ كما التقى بعبدالرحمن عزام أمين عام جامعة الدول العربية. فبينوا جميعاً له أن الشعب العربي رفض التقسيم، وأن كل وساطة على أساسه غير ممكنة. وقد كان جواب برنادوت على هذا ما يلي:

لا وجود لحل آخر لسببين: ١) قرار التقسيم صدر عن الأمم المتحدة؛ ٢) لا يقبل اليهود أي أساس آخر.

برنادوت يذهب إلى رودس

ذهب الكونت برنادوت إلى جزيرة رودس التي جعلها مركزاً لقيادته، وطلب وفداً عربياً وآخر يهودياً للذهاب إليها. فذهب عن العرب المحاميان، هنري كتن وأحمد الشقيري، ومثّل اليهود، ليوكوهن (Leo Khohn)، وروفين شيلوح (Reuven Shiloah).



الاستاذ أحمد الشقيري

ولم تكن مهمة الوفد العربي مهمة التفاوض، بل كخبراء ليجيبوا على ما يلقى عليهم من أسئلة، على سبيل المعلومات. ولم تأت تلك الاجتماعات بأية فائدة، غير أن الكونت برنادوت حصل على معلومات ساعدته في وضع توصياته إلى الأمم المتحدة في تقريره المؤرخ في ٢٧ حزيران (يونيو) ١٩٤٨.

مشروع برنادوت لتقسيم فلسطين

أدرك الكونت برنادوت أن مشروع التقسيم الذي أوصت به الجمعية العمومية في قرارها ١٨١ (اللجنة الثانية) الصادر في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧، كان جدّ معقّداً، ويحتوي خطوطاً وهمية لحدود الدولتين، وممرات، تجعله حتى في حال قبول الجانبين به، على غاية الصعوبة في التنفيذ. فأوصى هو بمشروع أبسط، يسهل، حسب رأيه،

تنفيـذه.

المشروع:

قسم مشروع الكونت برنادوت، ببساطة، فلسطين إلى جزءين: الشمـالي الغربي لليهود، والجنوبي الشرقي للعرب (أنظر الخارطة).

١ ــ أعطى مشروع برنادوت، في الشمال، الجليل حتى عكا (وهو في الدولة العربية) لليهود؛ والنقب في الجنوب (وهو في الدولة اليهودية) للعرب. أما القدس، وبالرغم من وجودها في الجزء العربي فقد قسمها إلى مدينتين مستقلتين ذاتياً؛ احداهما عربية والأخرى يهودية.

٢ ــ حيفا، ومعها مصفاة البترول، مرفأ حرّ.

٣ ــ يعاد النظر بوضع يافا.

٤ ــ يوضع نظام فيدرالي للجزئين معا، فيما يدير. في الوقت نفسه، كل جزء إدارة ذاتية خاصة تتضمن «جهازاً خارجيًا».

٥ ــ **الهجرة**: في السنتين الأوليين يدرس كل من الفريقين طاقته في قبول المهاجرين، ويعاد النظر، في نهايتهما، بمسألة الهجرة إلى كلا الجزءين.

٦ ــ **اللاجئون**: يرجع اللاجئون جميعاً إلى ديارهم.

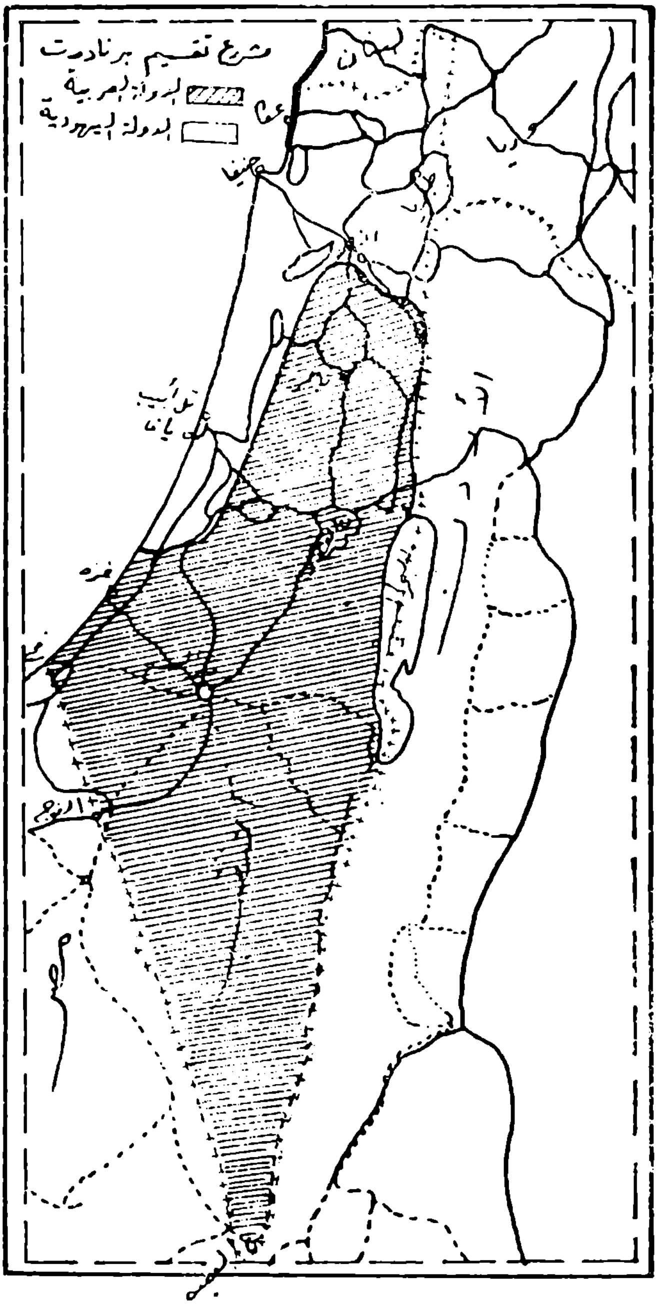
٧ ــ **مطار دولي**: يصبح مطار اللد مطاراً دولياً لكل من العرب واليهود.

أرسل برنادوت «مشروعه» إلى العرب وإلى اليهود وطلب وفداً من كليهما للذهاب إلى رودس.

ولما وصل المشروع إلى جامعة الدول العربية، عقدت اللجنة السيـاسية (وزراء الخارجية) اجتماعاً في ٢٩ حزيران (يونيو) ١٩٤٨ لدراسته. فرفضته جملة وتفصيلاً، لأنه لم يكن غير صورة أخرى «للتقسيم». كما رفضه اليهود أيضاً لأنه جعل القدس في الدولة العربية، ولأنه جرّدهم من النقب، وهم بحاجة إليه، على ما زعموا، ليوصلهم إلى البحر الأحمر.

كتيبة جيش الانقاذ تغادر القدس

أمر غلوب باشا، كتيبة جيش الانقاذ، بقيادة فاضل العبدالله الرشيد بالانسحاب من القدس وبالسفر إلى سوريا. وما كان على النقيب فاضل العبدالله إلا الرضوخ، بالرغم من أنه يتلقى الأوامر من قيادة جيش الانقاذ. وانسحبت الكتيبة إلى سوريـا قبل انقضـاء الأسابيع الأربعة. كان غلوب يتصّرف وكأن الحرب انتهت بين العرب واليهود. وودّعت



مشروع تقسيم برنادوت

فاضل العبدالله الرشيد عند باب الاسباط والدموع تترقرق في أعيننا.

المقدم أحمد عبدالعزيز يزور القدس قبل نهاية الهدنة

زار المقدم، أحمد عبدالعزيز، القدس قبل انقضاء هدنة الأسابيع الأربعة. جاء من بيت لحم ليناقش الوضع مع التلّ، لأن ماحدث خلال الهدنة، جعلهما يتشاءمان كثيراً. فقد اكتشفا، خلال تلك الفترة، خيانة مجلس الأمن، ولذلك، قررا أن يكتفيا بدفاعهما عن مواقعهما وحسب.



القائد المصري أحمد عبدالعزيز

الفصل الخمسون

الحرب تندلع ثانية ــ حرب الأيام التسعة
سقوط اللد والرملة بيد اليهود يريده غلوب باشا
جامعة الدول العربية تطلب من الملك عبد الله إقالة غلوب
سقوط الجليل بيد اليهود

انتهت «أسابيع الهدنة الأربعة» في التاسع من حزيران (يونيو) ١٩٤٨ ورفض كلّ من العرب واليهود مشروع التوفيق للكونت برنادوت. فطلب الكونت برنادوت إلى الفريقين تمديد الهدنة فترة أخرى. فوافق اليهود على الطلب بسرور بينما رفض العرب التمديد لأنه كان يعني زيادة الفرصة لليهود لتهريب السلاح من تشيكوسلوفاكيا والبلاد الأخرى استعداداً للحرب.

بداية الكارثة ــ سقوط اللد والرملة

اللد والرملة، مدينتان توأمان تقعان على بعد عشرة أميال شرقي يافا، وعدد سكانها معاً ٣٢٠٠٠ نسمة، تضاعف لما سقطت يافا في أيدي اليهود يوم ٢٨ نيسان (أبريل) ١٩٤٨.

كان الجيش العربي مسؤولاً عن الدفاع عن هاتين المدينتين وكان مقرراً أن يكون مقرّ قيادته فيهما، الأمر الذي لم ينفذ. وكان مفروضاً، حسب الاستراتيجية العربية، أن يلتقي الجيشان المصري والعربي في اللد أثناء تقدمهما باتجاه تل ــ أبيب.

ولقد ردّ عن اللد والرملة قبل الهدنة الأولى، عدّة هجمات، فصيل من (الكتيبة الخامسة)، وكانوا مشاة من الجيش العربي وفصيل من «الجهاد المقدس» يقوده الشيخ حسن سلامة، يعاونهما فصيل من المتطوعين المحليين. وقد جاءت إلى اللد والرملة أثناء الهدنة، الكتيبة الأولى من الجيش العربي لزيادة الدعم.

أهمية منطقة اللد والرملة الاستراتيجية

١ ــ يوجد في منطقة اللد والرملة، منشآت جدّ هامة تتطلب حماية خاصة:

أ) مطار اللّد ــ أكبر مطار في فلسطين.

ب) معسكر الصرفند العسكري.

جـ) مركز تزويد القدس بالماء في رأس العين، قريباً منها.

أخلى الجيش البريطاني هذه المنشآت في الخامس عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨. ورفض غلوب أن يرسل فصيلاً من الجيش العربي للدفاع عن معسكر الصرفند، فيما تولى أمر مطار اللد فصيل من الجيش العربي وآخر من المناضلين.

٢ ــ إن قرب اللد والرملة من تـل أبيب، وهي أكبر وأهم مـدينة يهـودية في فلسطين، يجعل للمدينتين العربيتين أهميـة استراتيجيـة خاصـة. وبما أنهما تبعـدان عن تل ــ أبيب عشرة أميال فقط إلى الشرق، فقد باتتا تهديداً عـسكريـاً حقيقياً للدفـاعات اليهودية.

٣ ــ تلتقي كل الخطوط الحديدية في فلسطين في اللد. وهي محطة فلسطين المركزية. فالخط الذي يتجه شمالاً من القنطرة (على قناة السويس) إلى حيفا، يلتقي في اللد بالخط الذي يتجه شرقاً من يافا إلى القدس.

٤ ــ ان شبكة البريد والهاتف كانت في منطقة اللد.

أهمية منطقة اللد الاقتصادية

نقع اللد والرملة على سهل ساحلي طويل يمتد من شاطىء المتوسط غرباً، إلى باب الواد شرقاً. ويبلغ طوله ٦٥ ميلاً وعرضه ٢٠ ميلاً.

وسهل اللد والرملة من أخصب سهول فلسطين، فيه كميات كبيرة من المياه الجوفية، التي تسقى بالضخ، من آبار ارتوازية، آلاف الدنمات المزروعة برتقالاً من أجود أنواع البرتقال في العالم (برتقال يافا المشهور).

ومعروف أن فلسطين ليست بلاداً صناعية، فهي تعتمد على الزراعة والسياحة؛ فكان إذاً تصدير ملايين صناديق البرتقال من تلك المنطقة إلى إنكلترا وأوروبا مصدراً يكوّن جزءاً هاماً من واردات البلاد. وعليه كان سقوط منطقة اللد في أيدي اليهود كثير الضرر على العرب، استراتيجياً، وعسكرياً، واقتصادياً. والعجيب، أن تترك اللجنة العسكرية في دمشق، منطقة على هذه الأهمية للعرب، دون دفاع. وكانت المدينتان التوأمان، خاليتين من أية تحصينات تدفع عنها أي هجوم صغيراً كان أم كبيراً. ولم يكن في المنطقة كلها خندق واحد للدفاع عنها، فكان بوسع أي هجوم عـسكري أن يصل رأساً إلى قلب المدينتين. والواقع أن اللجنة العسكرية العربيـة في دمشق، لم تكلف نفسها عنـاء إرسال أي من أعضائها، ولو مرة واحدة، لدراسة الوضع، بالرغم من النداءات المتكررة التي تلقتها من مختلف اللجان القومية.

كـان ممكنـاً أن يعوّض الجيش العربي عن إهمال اللجنة العسكرية في دمشق، حين أخذ على عاتقه الدفاع عن المنطقة في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨؛ فلماذا إذاً لم يقم الجيش

العربي بتحصينهما خلال أسابيع وقف إطلاق النار الأربعة حين كانتا لا تزالان في أيد عربية؟!

الجواب سهل. لم يهمل غلوب الدفاع عن اللد والرملة فحسب، بل أراد أن تسقط المدينتان في أيدي اليهود. ولقد حاك مؤامرة للوصول إلى هذه الغاية.

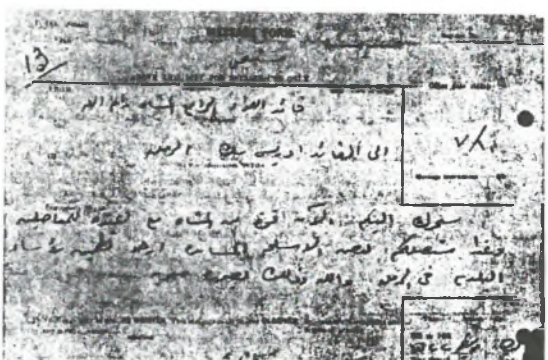
المؤامرة

يقول عبد الله التل في كتابه «كارثة فلسطين» عن المؤامرة:

في الخامس من تموز (يوليو) ١٩٤٨، رتب غلوب ونديم السمان، وهو ضابط في الجيش العربي من إربد، الخدعة على النحو التالي: أبرق نديم إلى القيادة العامة في عمان منذراً بأن اليهود حرّكوا قواتهم باتجاه طوباس التي تشرف على وادي الأردن. درءاً لهذا الخطر، تحركت الكتيبة الأولى التي أرسلت للد والرملة خلال الهدنة، باتجاه طوباس. وبقيت اللد والرملة دون دفاع. وفي العاشر من حزيران (يونيو)، أي بعد يوم من انتهاء الهدنة الأولى، باغتت القوات اليهودية مطار اللد بالهجوم فلم تجد أثراً للجيش العربي فيه.

وفي الحادي عشر من حزيران (يونيو) احتل اليهود القرى التالية في منطقة اللد: عنّابة، والمزرعة، ودير طريف، وبيت نبالا، والحديثة ودانيال.

أخاف سقوط هذه القرى في أيدي اليهود، سكان اللد والرملة فاستنجدوا حالاً بعمان، كما استنجد بعمان أيضاً، حاكم اللد والرملة العسكري الأردني، إدريس سلطان، الذي عينه مؤخراً الملك عبد الله. وكان الجواب أن المدد في الطريق إليهم وكان هذا كذباً، وتكملة للخدعة، ثم تلقى الحاكم العسكري من القيادة كتاباً يطمئنه بإرسال المدد، هذه صورته.



كتاب من اللواء الرابع إلى حاكم اللد والرملة أن القوات على الطريق إلى اللد

ولما لم تصل المساعدة العسكرية احتمى الحاكم العسكري وقليلون معه في مبنى تيغارت للبوليس، وقرر الأهلون أن يستسلموا للقوات اليهودية التي أطبقت عليهم، فخرج وفد منهم لمقابلة القائد اليهودي في قرية البرية. وهكذا استسلمت، ويا للأسف، اللد والرملة، دون قيدأو شرط ودون إطلاق رصاصة واحدة.

مذابح شبيهة بدير ياسين

اجتمع الناس في الجوامع والكنائس ووراء الأبواب المغلقة، في رعب عظيم. فمذبحة دير ياسين والمذابح الأخرى في شمال فلسطين، مازالت حية في أذهانهم ولم تكن توقعاتهم خاطئة، فحين دخل الإرهابيون اللد أولاً، جمعوا من كان تحت الخمسين من الرجال ووضعوهم في معسكر أعدّوه لهم. وتختلف الروايات في ماحدث لتلك الآلاف، غيرانها كلها تلتقي عند التعذيب والمعاملة الوحشية. يقول عارف العارف في كتابه «النكبة»، انهم قتلوا ١٧٦ شاباً، من الذين اجتمعوا في جامع اللد، كما قتلوا ٤٢٦ في أماكن أخرى من اللد. وعوملت الرملة المعاملة نفسها.

أما من بقي من السكان ممن تجاوزوا الخمسين والنساء والأطفال وعددهم يربو على الخمسين ألفاً، فقد أخرجوا برؤوس الحراب من بيوتهم دون أن يحملوا شيئاً مما يملكون وساروا على غير هدى، إلى رام الله وغيرها ظهراً تحت شمس تموز (يوليو) المحرقة. وقد نفذ الأمر في أبشع وحشية، حتى لقد اكتشفت بعض النساء، بعد مسيرة عدة أميال، أنهن في رعبهن حملن مخدة أو وسادة بدلاً من أطفالهن. وبعضهن ولدن في العراء، بعيداً عن أية عناية طبية. أما عن عدد اللائي أجهضن، فإن أحداً لم يعلمه!

وقد جردت النساء من حليهن قبل أن يؤذن لهن بالمغادرة. كانوا يأخذون الأقراط عنوة من الآذان وبالطريقة الوحشية نفسها كانوا يأخذون الأساور والأشياء الثمينة الأخرى. سارت عشرات الألوف على أقدامها، وبعضهم حفاة، والبعض في ثياب النوم، مسافة خمسة وعشرين ميلاً إلى رام الله، وهم يمشون على أرض قاسية، وجبال صاعدة تحت شمس لاهبة. وأية أم تستطيع حمل طفلها مسافة خمسة وعشرين ميلاً، أو عشرة أميال في تلك الحرارة؟ أي طفل يستطيع السير إلى هذا الحد؟ كم عدد الذين قضوا وما عدد الذين تركوا على الطرقات، ومن يعرف عدد الذين مات منهم ظمأً؟

فاجعة أكبر من فاجعة دير ياسين

كانت كارثة اللد والرملة أسوأ، بما لا يقاس، من كارثة ديرياسين و«نصر الدين» و«بيت الخوري». لقد تعرض ستون ألفاً من الأبرياء، إلى الذبح والتعذيب والنهب والطرد من بيوتهم التي يقدسونها، إلى المجهول في أقسى الظروف وأخطرها. ذبح منهم المئات عن عمد دون ذنب اقترفوه. وعذب الآلاف، فضربوا وأهينوا. وطرد الآلاف من بيوتهم،

ودفعوا إلى الموت تحت حرارة شمس تموز (يوليو) اللاهبة، وهذا كله جرى، من أجل ملء تلك البيوت باليهود من جميع أنحاء العالم. إن أكبر عدو للإنسان هو «أخوه» الإنسان!

فعل الصهيونيون كل ذلك. وكانت لديهم الجرأة والوقاحة وقلة الوجدان في تحريف الوقائع والترديد في الأمم المتحدة وأمام العالم كله أن عرب فلسطين غادروا ديارهم ووطنهم بملء حريتهم!



مطرودون من اللد والرملة يستريحون على الطريق

ولم يحاول غلوب استعادة اللد والرملة أو أي من القرى العربية التي سقطت في أيدي اليهود، مع أنه كان قادراً على ذلك؛ لأن الكتيبة الأولى التي انسحبت من اللد والرملة، رجعت إلى المنطقة منذ أن علم غلوب بأن الاحتلال قد تمّ. كانت الكتيبة الأولى وعدد أفرادها ١٠٠٠ جندي، جيدة التسليح، ولكن لم يسمح لها بالوصول إلّا إلى اللطرون الواقعة على بعد ثلاثة أميال من المدينتين الحزينتين. ولقد ثبت، أن اليهود ما كانوا ليقدروا على احتلال اللد والرملة، لو أن الكتيبة الأولى بقيت فيهما، لأنهم كانوا يحتاجون، حسب رأي الرائد عبد الله التل، إلى ما لا يقل عن ٥٠٠٠ رجل لاحتلالهما. كما أن مئات المناضلين ممن كانوا يساندون الكتيبة الأولى، لم تتح لهم فرصة القتال، ولم يكن بوسعهم القتال وحدهم. وأحزن ما في الكارثة وأحط ما فيها، ليس إضافة الستين ألف لاجىء إلى ٧٠٠٠٠٠ لاجىء، فحسب، بل ان هاتين المدينتين، اللتين كانتا في غاية الأهمية استراتيجياً واقتصادياً، سلمهما لليهود الجيش العربي وليس الجيش البريطاني كما في حيفا ويافا وطبرية وسواها!!

نتائج كارثة منطقة اللد المؤلمة

١ ــ ازدياد عدد اللاجئين ٦٠٠٠٠.

٢ ــ فقد العرب فوائد ومميزات هذه المنطقة الاستراتيجية والاقتصادية، وهي كثيرة. كما أن العرب فقدوا أكثر المواقع العسكرية التي تهدد العدو. واستولى اليهود على ٧٥٠٠٠ دونم من أجود وأخصب الأراضي العربية.

٣ ــ أزيلت العوائق الأساسية على طريق القدس ــ تل أبيب.

٤ ــ أصبح مطار اللد، وهو أهم مطار في فلسطين، بكامله يهودياً. وبات لزاماً على العرب توسيع مطار القدس.

٥ ــ كان رد فعل الكارثة سيئاً جداً، إضطرب لها العالم العربي بأسره.

٦ ــ كما أن ردّ الفعل في الجيوش العربية كان سيئاً، فقد اهينت الجيوش العربية بهذه الهزيمة.

٧ ــ فقد العرب مدينتين من أهم مدنهم التاريخية.

٨ ــ مكّن القوات اليهودية من حرية الحركة في الهجوم على القدس من الجبهة الشرقية والهجوم على الجيش المصري في الجنوب. وهذا ما فعلوه فيما بعد.

٩ ــ أعطى حماساً قوياً للقوات اليهودية التي ظنت خطأً أنها خاضت معركة كبرى وانتصرت فيها. أما عند العرب فقد حدث العكس.

الاضطرابات الناجمة في الأردن وفلسطين

بدأ الاضطراب ينمو في الأردن وفي فلسطين وانتشرت رائحة الخيانة، وقامت مظاهرات في عمان ضد السلطة وخاصة ضد غلوب، الذي قذفت سيارته وداره بالحجارة؛ دون أن يظهر اهتماماً بالأمر. ولم يتعرض غلوب للاستجواب من قبل الملك أو الحكومة عن كيفية حدوث كارثة اللد والرملة أو عن سحبه الكتيبة الأولى من المنطقة، أو لماذا لم يحلّ محلها قوة أخرى؟ كما انه لم يستجوب لماذا أعاد الكتيبة إلى منطقة اللد بعد سقوط اللد والرملة في أيدي اليهود؟ فهل زال الخطر عن طوباس التي أرسلت الكتيبة الأولى لأجله؟ ولماذا توقفت الكتيبة الأولى في اللطرون ولم تجرب استعادة المدينتين؟

لم يجب أحد على كل تلك الأسئلة، فخيانة غلوب في رأي الرائد التل، وهو العارف بالأمور، ما كانت بحاجة للاستجواب، فهي ثابتة في سحبه الكتيبة الأولى من المنطقة، وفي تركه اليهود يحتلون المنطقة دون قتال!

جامعة الدول العربية تطلب تسريح غلوب

طلبت جامعة الدول العربية من الملك عبد الله تسريح غلوب وبعض الضباط الإنكليز الآخرين من الجيش، فأجاب الملك: «لا أستطيع الآن أن أغير السرج»!

ثورة ضباط الجيش العربي في باب الواد.

عندما سمع ضباط الجيش العربي في باب الواد بالكارثة التي لا تصدق، ثاروا. وجرّب الضابط البريطاني، الكولونيل آشتون (Ashton) تهدئتهم ففشل. أما عبد الله شويل وهو عسكري عادي، فانفجر صارخاً: «إننا لا نستطيع أن نحتمل هذه الهزيمة، إن الجيش العربي لا يقاتل، إنه يتفرج فحسب، أرجوك أعدنا إلى شرق الأردن».

سأله الكولونيل آشتون: «ماذا تريد»؟

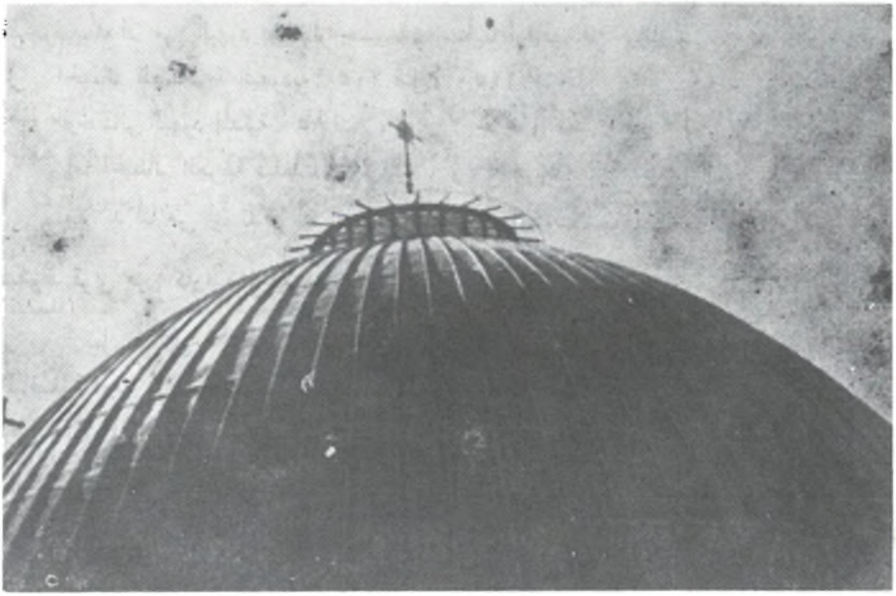
أجاب الشويل: «أن أقاتل يا سيدي. أن نهاجم اليهود، الذين تسللوا إلى قرية 'البرج'. وهي التي يسيطر موقعها على الطريق المؤدية إلى رام الله واللطرون، وباب الواد واللد والرملة. لقد احتل اليهود هذه القرية الاستراتيجية ولم نفعل شيئاً لإيقافهم».

فقال آشتون: «نعم سوف أضع خطة للهجوم على البرج».

ووضع خطة تكفل هزيمة الجيش العربي. ويقول الرائد التل: «وهكذا كان. حتى إذا أصبحت الخيانة واضحة فرّ الكولونيل آشتون إلى عمان ثم اختفى».

معركة القدس الثانية

منذ أن انتهت هدنة الأسابيع الأربعة، زاد اليهود هجماتهم على القدس، وما انقطعت أبداً. واستخدموا مدافع الهاون (من عيار ٦ إنشات) التي أتو بها من تشيكوسلوفاكيا. وقد أصيبت قبة الصخرة المقدسة وكنيسة القبر المقدس (القيامة) أيضاً.



رصاص اليهود مصوب على قبة كنيسة القيامة

وفي الثاني عشر من تموز (يوليو) قاموا بهجوم شديد على باب العامود. ووسعوا الهجوم حتى الشيخ جراح وهم ينوون إغلاق طريق القدس ــ رام الله، ثانية. ودامت المعركة عدة أيام، غير أن النقيب، خالد المجالي، ردّها في النهاية.

وقرر الرائد عبد الله التل، أن يحتل مستعمرة ميشوريم (ومعناها مئة بيت)، وهي المستعمرة اليهودية القائمة عند بوابة مندلبوم قرب مدرسة سان جورج، كي يحمي طريق القدس ــ رام الله. كان احتلال هذه المستعمرة المؤلفة من بيوت قديمة يحمي طريق الشيخ جرّاح وينقذ الاتصال بالجزء الشمالي من فلسطين. لكن، القائد العام، أمر، للأسف، بوقف الهجوم منذ بدايته.

آخر هجوم حاسم لليهود على المدينة القديمة

في السادس عشر من تموز (يوليو) ١٩٤٨

أراد اليهود بهجومهم العنيف هذا، أن يصلوا فعلاً إلى نتيجة. وقد بدأ الهجوم يوم الجمعة في ١٦ تموز (يوليو) الساعة الثامنة والنصف ليلاً موجهاً إلى:

١ ــ باب الخليل وعلى امتداد السور حتى الباب الجديد.

٢ ــ باب النبي داوود.

٣ ــ الشيخ جرّاح.

سقط في هذا الهجوم حوالي ٨٠٠ قنبلة مدفع على القدس، فسببت خسائر في الأرواح والأبنية. وردّ الجيش العربي على الهجوم بمثله وقد عزم على أن يخرج منتصراً. ثم توقف الهجوم بعد أن مني اليهود بخسائر جسيمة، استقينا أرقامها من بياناتهم:

الخسائر العسكرية اليهودية: ٢٠٥ قتلى، و١٤٥ جريحاً؛

وخسائر اليهود المدنية: ٨٥ قتيلاً، و٢٠٠ جريحاً؛

أما الخسائر العربية فبلغت: ٢٣ قتيلاً، و٤٧ جريحاً؛

ولا بد لنا من أن نذكر أن القوات المصرية في الجنوب، ساعدت في هذه المعركة.

سقوط قرى عين كارم والمالحة وصوبا

أرسل فصيل الجيش العربي الذي كان في عين كارم إلى بيت لحم، فلم يستطع المناضلون، وقد بقوا وحدهم، أن يثبتوا، ولو أنهم قاموا ببطولة قبل انسحابهم.

أما المالحة وصوبا، فإن الجيش العربي لم يحاول الدفاع عنهما.

كارثة الجليل وسقوط الناصرة في ١٦ تموز (يوليو) ١٩٤٨

لما انتهت هدنة الأسابيع الأربعة، فاجأ الإرهابيون اليهود العرب بهجوم شامل على كل أجزاء فلسطين دون استثناء. وفي الوقت نفسه، هاجموا جنوباً اللد والرملة، كما رأينا، وفي

الوسط،مدينة القدس القديمة والقرى المحيطة بها كعين كارم، وعرطوف، والمالحة، وصور باهر، وبيت صفافا، إلخ. . وفي الشمال، هاجموا الجليل.

بدأ الهجوم على الجليل، وما زال في أيدي العرب، متجهاً نحو القرى التي هي بدون دفاع؛ وأولها كفر سلط وقد سقطت في ١١ تموز (يوليو) ١٩٤٨. وفي الخامس عشر منه سقطت الشجرة كما سقطت في السادس عشر منه الدبورية. وسقطت في اليوم نفسه اهم مدينة في الجليل، الناصرة، وهي إحدى المدن الثلاث المقدسة في المسيحية. وفي الثامن عشر منه سقطت، لوبية، وطردان ونمرين وتلتها عين ماهل في التاسع عشر من تموز (يوليو) ١٩٤٨.

كان جيش الإنقاذ هو المسؤول عن الدفاع عن الجليل، وكان الضابط المسؤول مباشرة هو الرائد أديب الشيشكلي، الذي أصبح فيما بعد، رئيساً لجمهورية سوريا. وكانت ترشيحا مركز قيادته. أما فوزي القاوقجي، قائد عام جيش الإنقاذ، فقد جعل قيادته خارج فلسطين، في بنت جبيل، داخل الأراضي اللبنانية. ويقال انه كان في الناصرة قبل سقوطها بأيام وحاول إقناع أهلها بالبقاء فيها وعدم مغادرتها. وبالأضافة إلى جيش الإنقاذ، كان في الجليل فصيل من الجهاد المقدس وعدد كبير من المناضلين جنّدوا من الناصرة والقرى المجاورة. وقد امتلأ هؤلاء المتطوعون حماساً وشجاعة؛ وظلّوا في مواقعهم، بالرغم من أن جيش الإنقاذ ترك الجليل قبل الهجوم اليهودي بأيام، وقاتلوا قتالاً عنيداً وأوقعوا بالعدو خسائر جسيمة.

الهدنة الثانية بقرار من مجلس الأمن

عقد مجلس الأمن اجتماعاً في السادس عشر من تموز (يوليو) ١٩٤٨، ليناقش أمر الحرب التي«أمر» بها مجلس الأمن بعد هدنة الأسابيع الأربعة، فحزم أمره على املاء هدنة أخرى غير محددة، مستمدة من ميثاق الأمم المتحدة، وأصدر في ١٥ تموز (يولو) ١٩٤٨ قراراً، نقدمه باختصار:

١ ــ يقرر مجلس الأمن أن الوضع في فلسطين يكوّن تهديداً للسلام، تبعاً للمادة ٣٩ من الميثاق.

٢ ــ يأمر مجلس الأمن، تطبيقاً للمادة ٤٠ من الميثاق، الفريقين، بالكف عن العمليات العسكرية وإصدار الأوامر إلى قواتها بوقف إطلاق النار في مدة لا تتجاوز الأيام الثلاثة من تاريخ هذا القرار.

٣ ــ يعلن مجلس الأمن أن عدم الإذعان، سوف يعالج حالاً بموجب الفصل السابع من الميثاق.

٤ ـ يطلب المجلس من الفريقين التعاون مع الوسيط.

٥ ـ يجب إيقاف إطلاق النار حالاً في القدس، ونزع سلاحها وتأمين حماية الأماكن المقدسة وحرية المرور إليها.

٦ ـ يشرف الوسيط على المحافظة على الهدنة على أن يُطلع المجلس دائمًا على سير الهدنة؛ وأن يتدخل عند اللزوم.

٧ ـ يقرر. . . أن تبقى الهدنة نافذة حتى الوصول إلى التسوية السلمية لمستقبل الوضع في فلسطين.

٨ ـ يطلب مجلس الأمن إلى الأمين العام أن يقدّم للوسيط ما يلزم من الموظفين والأموال.

تحيز مجلس الأمن

لا نستطيع الآن إلاّ وأن نطرح هذا السؤال: لماذا جعل هذا القرار الهدنة مستمرة حتى الوصول إلى التسوية السلمية لمستقبل فلسطين مع أن قرار مجلس الأمن الصادر في ٢٩ أيار (مايو) ١٩٤٨ حدد «وقف إطلاق النار» بأربعة أسابيع فقط؟ أما كان، كما ذكرنا سابقاً، للتخفيف عن يهود القدس الجائعين، المحاصرين الذين كانوا على حافة الاستسلام؟ أما كان لاعطاء اليهود فرصة جلب السلاح والطائرات الحربية من تشيكوسلوفاكيا والمرتزقة من الولايات المتحدة وأوروبا؟ أما كان لمنح الصهيونيين الوقت لتحسين وضعهم العسكري وفتح طريق باب الواد وطريق بورما وإقامة الاستحكامات إلخ. . . إلخ. . .

وإذا لم يكن كذلك، فلماذا حدّدت الهدنة بأربعة أسابيع؟ أما كان يعني ذلك دعوة غير مباشرة من مجلس الأمن للفريقين المتحاربين، لاستئناف القتال في نهاية الأسابيع الاربعة؟ كيف يسع مجلس الأمن أن يأذن بالحرب ويصادق على القتال ويحدد زمن ابتدائه؟ إنه لأمر غريب. . غريب حقاً!

الفصل الحادي والخمسون

حرب سنة ١٩٤٨ انتهت اسمياً
فرض مجلس الأمن الهدنة الثانية بعد تسعة أيام من الحرب
خسر العرب مساحات واسعة من الأرض
ردود الفعل على الهدنة الثانية عند العرب، كانت رهيبة

فقد العرب، كما كان منتظراً، مساحة كبيرة من الأرض في «حرب الأيام التسعة». ولقد تنبأ الكونت برنادوت، حين رأى ماجلب اليهود من طائرات وسلاح خلال الهدنة الأولى، دون أن يعمل شيئاً لإيقافهم، بأن الحرب سوف تنتهي بهزيمة الجيوش العربية. لقد أتى اليهود بالسلاح الثقيل وبالمرتزقة، خلافاً لما نص عليه قرار مجلس الأمن، من تشيكوسلوفاكيا والولايات المتحدة وأعدوا لمفاجأة العرب في اليوم الأول من الحرب، بهجومهم على مدينتي اللد والرملة.

أما العرب فإنهم لم يصنعوا شيئاً إبان الهدنة، لتحسين قدرتهم القتالية أو مواقعهم: فالبعض منهم تمسّك بالمبادىء، والبعض الآخر عن غباوة وجهل بمدى الخيانة الصهيونية. أما عن الجيش العربي، فإن خيانة غلوب للقضية العربية وإخلاصه فقط لبريطانيا العظمى، بطلة القضية الفلسطينية، كان لها أكبر الأثر على حرب سنة ١٩٤٨. ومن أخسّ غدره بالعرب ماتعلق بمستقبل القدس. كان يريدها أن تسقط في أيدي اليهود. ان، سحبه لكتيبة الجيش العربي، التي كانت تعمل في القدس طيلة الانتداب البريطاني في ١٤ أيار (مايو) ١٩٤٨ إلى أريحا، في وقت كان مفروضاً فيه دخول الجيش العربي إلى فلسطين والاسراع إلى القدس للدفاع عنها، فضحت بوضوح خيانته للقضية العربية. كما أن خيانة الضباط البريطانيين الآخرين في الجيش العربي للقضية العربية اتضحت لكل ذي عين عند الهجوم على الشيخ جراح، والجامعة العبرية، ومستشفى هداسا على جبل سكوبس؛ وفي الهجوم على النوتردام وميشوريم ورامات راحيل، وفي عرطوف والمالحة وعين كارم وصوبا الخ... وربما لم يكن غلوب وضباطه يعملون في فلسطين حسب ما يُمليه عليهم وجدانهم وإنما كانوا ينفذون أوامر الامبراطورية البريطانية فقط، لأنه بالرغم من أن بريطانيا العظمى لم تصوت إلى جانب التقسيم في الجمعية العمومية في الأمم المتحدة، فإنها كانت تريد تحقيقه. وعلى ذلك، أراد غلوب حين اضطر إلى إرسال قوات إلى القدس، أن

يبقى في أيدي العرب من المدينة المقدسة، ما أنقذه المناضلون فقط دون سواه. ومنع، كما روى التل، استعادة أية أرض عربية احتلها اليهود في القدس، مع أنه كان بوسعه استرداد بعضها، لو أراد، أو لو أذنت له بريطانيا.

نقطة أخرى أحب أن أذكّر بها القارىء. وهي أن الحكومة البريطانية، هي التي أوصت إلى مجلس الأمن بفرض هدنة مؤقتة «أربعـة أسابيع» في قراره في ٢٩ أيار (مايو) ١٩٤٨. لقد قصدت من ذلك اخراج اليهود من أزمتهم ومن الحصار المطبق عليهم، ومنحهم الوقت والفرصة لاستيراد الأسلحة والذخائر التي كانوا بحاجة ماسة إليها. لقد بدأت خيانة بريطانيا للقضية العربية قبل أن تضع الامبراطورية قدمها في فلسطين. أوَلَمْ تبـدأ بوعد بلفور سنة ١٩١٧؟ أوَلَـم تستمر حتى بعد رحيل آخر مندوب سامي بريطاني عن فلسطين سنة ١٩٤٨؟ والحق أنها لم تتوقف أبداً. إن العرب الذين عاشوا كارثة فلسطين، هم ونسلهم، يَعْزون، بعين التشفي، سقوط الامبراطورية البريطانية المستمر إلى ما ارتكبته هذه الامبراطورية من آثام وخطايا ضد الأرض المقدسة وسكانها العرب الأبرياء!!

الأراضي العربية التي فقدت في حرب الأيام التسعة

لم يفقد الجيش المصري أية أرض خلال حرب الأيام التسعة.

كما أن الجيش العراقي لم يخسر ولم يربح أية أرض في تلك الحرب.

أما السوريون، فقد ربحوا أرضاً باحتلالهم مستعمرة مشمار هايردن، التي بقيت في أيديهم حتى العشرين من تموز (يوليو) ١٩٤٩، حين وُقع اتفاق الهدنة العامة بين سوريا والسلطات اليهودية.

أما جيش الانقاذ وقائده العام، فوزي القاوقجي، وقائد الجليل ـ أديب الشيشكلي، فقد خسر كل الجليل، بما فيه الناصرة، والرينة، وعيلوط، وترشيحا، وكفركنّا، وحطين، ومسكينة، الخ...

فقد الجيش العربي اللد والرملة وباب الواد وكل القرى على طريق يافا القدس ومن بينها: سيريس، وبيت محسير، وعين كارم، وعرطوف وصوبا، والمالحة، ونصف بيت صفافا، الخ...

وكان يهون الأمر لو أن هذه الأراضي التي خسرتها الجيوش العربية في حرب الأيام التسعة، كانت الأخيرة. غير أن ما فقدته، للأسف، خلال الهدنة الثانية يفوق ما فقدته خلال الحرب. لأن كلمة هدنة لا تعني عند الصهيونيين وقف إطلاق النار، إلا بعد الوصول إلى غايتهم. ولهذا، فقد العرب خلال الهدنة الثانية كل النقب، والمثلث، وعشرات القرى العربية أمام الهجمات اليهودية التي لم يتخذ مجلس الأمن أية خطوة لإيقافها.

الملك عبدالله يعلن الهدنة على شعبه

حين توقف القتال في التاسع عشر من تموز (يوليو) ١٩٤٨، أعلن الملك عبدالله بنفسه، الهدنة على شعبه. ولقد توقع الملك أن الشعب العربي، في كل الوطن العربي، وخاصة شعب فلسطين الذي كان ينتظر استمرار الحرب حتى النصر، سوف يثور ضد هذا الخبر المخيب للآمال. وما كان منتظراً من ستة جيوش نظامية، دخلت حرباً حاسمة، أن توقف القتال دون أن تحتل أي جزء من الدولة اليهودية وأن يحدث العكس. ولم يكن هذا كل شيء. لقد تلت النكسة كارثة كبرى وهي إيجاد مئات الألوف من اللاجئين الفلسطينيين. كانت المصيبة أكثر هولاً وأشد إيلاماً من أن يتحملها أو يدركها أي عربي!

وتملك الناس شعور عميق بأن خطأ ما قد حدث، خطأ جسيمًا. فلكي يقدر إرهابيون، نعم ارهابيون، أن يقهروا ستة جيوش نظامية فإنهم، يحتاجون إلى واسطة، وهي الخيانة، خيانة الحكومة البريطانية، التي رافقت القضية الفلسطينية منذ سنة ١٩١٧، وهل انتهت؟

أراد الملك عبدالله، في خطابه أن يظهر عبر مجلس الأمن أن الهدنة أمليت قهراً على الدول العربية. قال الملك: «إن الملوم هو مجلس الأمن وليس الجيش العربي. إنها القوّة القاهرة».

وأضاف يقول: «لقد قبلنا الآن بالهدنة، ليس عن اختيار، بل لأنها أمليت علينا من قبل مجلس الأمن في الأمم المتحدة. وليس لدي، في الوقت نفسه، من أسباب ألوم فيها جيشي على أي تقصير في قيامه بواجبه نحو إخوته في فلسطين. لقد أصدرت أوامري إلى كل من يعنيهم الأمر بتقديم العون إلى إخواننا اللاجئين، الذين سوف يرجعون، بعون الله، إلى ديارهم».

«ويجدر بنا، طلباً للعزاء، أن نعود الآن، إلى الماضي الأسود من تاريخنا الطويل [يعني هزيمة العرب في اسبانيا]. ولقد قمنا بما نستطيعه في هذا القتال، فتقبل الله جهادنا وغفر لنا. اللهم لا شريك لك، إغفر لنا ذنوبنا واعف عمن أخطأ أو ظلم».

لم يتوصل الخطاب إلى تهدئة الشعب الثائر. فقد سارت المظاهرات في عمان وفي أكثر المدن الفلسطينية التي بقيت في أيدي العرب مثل القدس، ونابلس وجنين وطولكرم والخليل. وشق المتظاهرون في عمان، طريقهم حتى القصر الملكي، حتى خرج إليهم الملك كي يهدىء غليانهم ودخلوا معه في مشادة كلامية. كانوا في غاية الغضب والهياج. مما أزعج الملك، فصفع أحدهم على وجهه بعد أن تمادى بالكلام.

الاضطراب العام في الوطن العربي بسبب كارثة فلسطين

كان لهزيمة الجيوش العربية في فلسطين آثار خطيرة، لا في فلسطين وشرق الأردن وحدهما، بل في سوريا ومصر والعراق ولبنان أيضاً.

الأثر في سوريا

كان التعبير عن الأثر السيء لكارثة فلسطين، انقلاباً عسكرياً في سوريا يقوده اللواء حسني الزعيم، قائد الجيش السوري. وذلك في أعقاب توقيع اتفاقية الهدنة بين سوريا والحكومة الاسرائيلية في العشرين من تموز (يوليو) ١٩٤٩. فقد عمد القائد إلى خلع الرئيس شكري القوتلي ووضعه هو ووزراءه في السجن، ونصب نفسه رئيساً مكانه.

غير أن دكتاتورية حسني الزعيم الشرسة لم تدم طويلاً. فقد وضعت الخطط لاغتياله فقتل في قصر الرئاسة إثر معركة قاسية بين حرس الرئاسة والمهاجمين.

استمرت آثار كارثة فلسطين مدة طويلة في سورية. فقد تلا انقلاب حسني الزعيم عدة انقلابات أخرى. قاد أحدها العقيد أديب الشيشكلي الذي كان قائداً لجيش الانقاذ في الجليل سنة ١٩٤٨. والحق، أن سوريا، لا تزال تعاني من كارثة فلسطين إلى الآن.



حسني الزعيم ومعه فارس الخوري

أثر الكارثة في مصر

كان تأثير الكارثة الفلسطينية على الجيش المصري، أعمق منه في الشعب. فتوقيع اتفاق الهدنة في ٢٤ شباط (فبراير) ١٩٤٩، تلاه اغتيال رئيس الوزراء، فهمي النقراشي، واضطراب في القاهرة، أحرقت فيه عدة أبنية حكومية ومراكز تجارية وفنادق، أهمها «فندق شيبرد» الذي كان له شهرة عالمية.



جمال عبدالناصر

ثم تطورت الأمور إلى انقلاب ١٩٥٢ الذي قاده الضباط الأحرار: اللواء محمد نجيب والبيكباشي جمال عبدالناصر وأنور السادات وزكريا محي الدين وعبدالحكيم عامر - وكلهم ضباط قاتلوا في فلسطين - وأطاح بالملك فاروق، الذي نفي وعائلته من مصر. وأعلنت منذئذ الجمهورية. ثم غدت حين تمت الوحدة مع سوريا بقيادة جمال عبدالناصر سنة ١٩٥٨، الجمهورية العربية المتحدة. وفي حكم الرئيس السادات، صار الاسم الرسمي، جمهورية مصر العربية.

أثر كارثة فلسطين في العراق

أما في العراق فقد كان الأثر مباشراً. فقد عمت المظاهرات بغداد وساد الاضطراب كل العراق. واستقال رئيس الوزراء مزاحم الباجه جي، الذي كان يعادي سياسة الوصي، عبدالاله. ولم يقتصر الشعور الثائر على الشعب، بل تجاوزه إلى القوات المسلحة التي أدركت من تجربتها في حرب فلسطين أن هزيمتها وإهانتها لم يكن سببها غياب القوة العسكرية بل الانحراف في المقامات العالية. كانت الـ «ماكو أوامر» تأتي دائماً من فوق. كانت سياسة القصر متوافقة وعلى اتفاق تام مع سياسة بريطانيا العظمى غير المعلنة.

ولم ينعم العراق، مثله مثل البلدان العربية الأخرى المجاورة للدولة اليهودية، بالسلام الحقيقي منذ كارثة فلسطين. كان عبدالاله، الوصي، وذراعه الأيمن نوري السعيد، خائفين دائماً من انقلاب مشابه لانقلاب ١٩٣٧؛ وتضاعف هذا الخوف مئة مرة بعد كارثة فلسطين وقيام دولة إسرائيل. وكان لهذا الخوف ما يبرره، فقد أدّى الانقلاب الذي قاده عبدالكريم قاسم إلى قتل العائلة المالكة، ونوري السعيد وعددا من أعضاء الوزارة ممن قبض عليهم. ولقد كان الانقلاب في غاية القسوة والدموية بحيث انتقدت أوساط سياسية، خاصة اغتيال

الملك الشاب فيصل الثاني*.

ومن المهم أن أذكر أننا نخطىء اذا ظننا أن كل الذين اشتركوا في الحكومات العراقية بين ١٩٤٧ ــ ١٩٥٨، كانوا متبعي السياسة الانكليزية، بل على العكس، فأنا لم أقابل إلا نادراً أناساً على مثل صدق واستقامة ووطنية وإخلاص فاضل الجمالي للقضية الفلسطينية ومزاحم الباجةجي وعبدالغني دلي وعدنان الباجه جي وعبدالرحمن البزاز وياش أعيان وسواهم. وقد عرفتهم شخصياً وأنا أكنّ لهم عظيم التقدير والاحترام. والحق أني لا أجد الكلمات التي أستطيع فيها وصف وطنية وإخلاص فاضل الجمالي للقضية الفلسطينية.



فاضل الجمالي

آثار كارثة فلسطين في لبنان

كانت كارثة فلسطين «صدمة» للبنان. فقد كان مقرراً للجيش اللبناني أن يسير في محاذاة الشاطىء إلى أن يلتقي بالجيوش العربية في حيفا. غير أنه بدلاً من ذلك، احتلت القوات اليهودية عدة قرى لبنانية على حدود فلسطين، ومن ثم أخليت هذه القرى، نتيجة لمفاوضات سياسية، غير أن كابوس التوسع الاسرائيلي في الأرض اللبنانية حتى نهر الليطاني، ما زال جاثمًا على شعب لبنان حتى الآن.

* وهو ابن الملك غازي، وحفيد فيصل الأول قائد حركة الصحراء في ثورة ١٩١٦ العربية. وقد كا جدّ صغيراً عندما توفي ابوه سنة ١٩٣٩. وقد حلّ خاله عبد الإله، ابن الملك علي، أكبر أبناء الملك حسين الأول، ابي الثورة العربية سنة ١٩١٦، وصياً على العرش.

ان الأثر الحقيقي لكارثة فلسطين في لبنان هو إدراكه أن جيشه ضعيف، وغير قادر على الدفاع عن حدوده الجنوبية.

تقسيم القدس وتثبيت الحدود بين القسمين العربي واليهودي

بالرغم من إعلان الهدنة وإيقاف القتال بين الفريقين ظاهرياً، فقد ظلّت كل علاقة بينهما مقطوعة، وما كانت لتستأنف قبل إعلان السلم العتيد. وبات ضرورياً تخطيط الحدود بين فئتي السكان في المدينة المقدسة.

خُططت الحدود بحضور لجنة الهدنة ومراقبي الأمم المتحدة. ومثّل الأردن الضباط البريطانيون، في وضع المشروع النهائي لتقسيم القدس. والضابط العربي الوحيد الذي حضر الاجتماعات هو الرائد عبدالله التل، الذي انتقدها ووصفها بأنها غير عادلة. مردداً: أن حيي «المصرارة» و«سعد وسعيد» هما عربيان تماماً ولم يكونا محتلين من اليهود، فمن غير العدل ضمهما للجزء اليهودي.

الكونت برنادوت يزور القدس في ٢ آب (أغسطس) ١٩٤٨

جاء الكونت برنادوت إلى القدس كي يرى كيف يحافظ الطرفان على قرار الهدنة. فعقد اجتماعاً مع غلوب باشا وضباط الجيش العربي الكبار وأعلمهم أنه جدّ منزعج من انتهاكات اليهود للقانون ومن عدم احترامهم لقرارات مجلس الأمن.

قال الكونت: «أخبرت شرتوك [وزير خارجية إسرائيل الذي صار اسمه فيما بعد شاريت]، بأنه ليس من مصلحتهم الاستمرار في خرق الهدنة في منطقة القدس أو أي مكان آخر، وبخاصة بعد إقامة إسرائيل».

مسكين برنادوت! يبدو أن خبرته بالصهيونيين وخروجهم على القانون لم تكن كافية، وكذلك معرفته بالطبيعة الاجرامية لعصابات الهاغاناه والأرغون زفاي ليومي وشتيرن التي كان يتعامل معها، ولم تشأ هي أن تترك له الوقت الكافي لمعرفتها!!

في الاجتماع، قدم الرائد التل إلى برنادوت، تقريراً عن انتهاكات القوات الصهيونية في قطاع القدس، جاء فيه أن الصهيونيين أظهروا من عدم الاحترام لقرارات الأمم المتحدة، مايدل على أنهم لا ينوون التقيد بما نص عليه اتفاق الهدنة. ويضيف التقرير أنهم إنما يريدون التقيد بالشروط التي تلائم أهدافهم، وخاصة ـــ التوسع وطرد السكان العرب من بيوتهم.

الأمير عبدالاله، وصي العراق، يزور القدس

في الثامن والعشرين من تموز (يوليو) قام الأمير عبدالاله، الوصي على عرش العراق، بزيارة مفاجئة للقدس، واستعلم من الرائد التل عن الوضع المتردي في المدينة المقدسة،



الأمير عبدالإله يزور القدس

فأجابه هذا بوصف السياسة السيئة التي تبناها غلوب في الحرب. وطلب منه قوات لاستعادة الجزء الأكبر مما فقد من أيدي العرب، فوعد عبدالاله بالاستجابة وقد وجدها معقولة. وازداد الأمل وبقيت القدس في الانتظار، ولكن عبثاً.

اليهود يحتلون القرى في منطقة اللطرون

تجاهل اليهود الهدنة مرة أخرى، واحتلوا كل المنطقة المحيطة باللطرون، وقد كانت تحت حماية الجيش العربي. أما عن فشل الجيش العربي في الدفاع عن ذاك الموقع الاستراتيجي الهام، فان غلوب وحده يستطيع الجواب! وحين سمح غلوب بنقل مياه عين فاره، وهو جدول في شمال القدس، الى الحي اليهودي في القدس، تألم الضباط العرب، فنسفوا محطة المياه في اللطرون انتقاماً.

قرار اليهود بالهجوم على القدس القديمة خلال الهدنة

علمت قيادة التل، من برقيات صهيونية حلّت رموزها، أن الصهيونيين كانوا يعدّون هجوماً كبيراً على المدينة القديمة لاحتلالها ووضع العالم أمام الأمر الواقع. ونقل الخبر في السادس من آب (أغسطس) ١٩٤٨، فطلب، إلى الكولونيل لاش، من القيادة في عمان قوات للنجدة.

وفي الخامس عشر من آب (أغسطس) وفي الساعة السابعة صباحاً، سمعت قيادة التل خطاباً في الاذاعة موجهاً إلى يهود القدس يحثهم على الهجوم على المدينة القديمة واحتلال «بيت حيكداش» أو ما معناه الجامع الأقصى في الحرم الشريف. وقال المذيع: «لقد آن الوقت لاستعادته».

وبدأ الهجوم بعد ظهر ذاك اليوم على كل أبواب سور المدينة، وسدّت كل الطرق إلى القدس وهاجموا أيضاً جبل المكبر، حيث كانت قيادة الصليب الأحمر الدولي، في دار الحكومة.

رُدّت هجمات اليهود على المدينة القديمة بسرعة، ومنوا فيها بخسائر جسيمة. غير أنهم في الثامن عشر من آب (أغسطس)، استطاعوا احتلال جبل المكبر، فكان ردّ فعل سكان القدس العرب شديداً. وقام الجيش العربي بهجوم معاكس، تسانده فيه القوات المصرية من بيت لحم، فانتصر انتصاراً باهراً إذ استعاد جبل المكبر وأنزل بالعدو خسائر فادحة. وانسحب اليهود تاركين وراءهم على أرض المعركة خمسين قتيلاً بينهم ضابطان.



الضباط المصريون، والضباط الأردنيون يتعاونون في القتال

الجنرال رايلي كبير مراقبي الأمم المتحدة يلتقي بالضباط العرب

عقد الجنرال رايلي، كبير مراقبي الأمم المتحدة، اجتماعاً مع الضباط العرب في منطقتي القدس وبيت لحم قبل نهاية آب (أغسطس) ١٩٤٨. وقد حضر الاجتماع المقدم أحمد عبدالعزيز والرائد المصري صلاح سالم (الذي اشترك مع جمال عبدالناصر في انقلاب ١٩٥٢). وقد نوقش في الجلسة التقيد بقرار الهدنة، وتقدم الضباط العرب بعدة شكاوى عن الانتهاكات اليهودية.

الفصل الثاني والخمسون

آخر تقرير للوسيط، الكونت برنادوت، يزعج اليهود
الوسيط يحثّ الأمم المتحدة على إرجاع اللاجئين الفلسطينيين
الارهابيون اليهود يغتالون الكونت فولك برنادوت
والكولونيل سيرو في القدس
المؤتمر الفلسطيني في غزة
إنشاء «حكومة عموم فلسطين» في مدينة غزة

بعد أن رفض العرب واليهود مشروع الكونت برنادوت وفشلت كل المفاوضات في الوصول إلى اتفاق بين الطرفين، أرسل الوسيط آخر تقرير شامل له وفيه «مقترحاته السلمية» إلى الأمم المتحدة. ونجد هذا التقرير في سجلات الأمم المتحدة الرسمية: الدورة الثالثة، الملحق رقم ١١ (A/648).



الكونت برنادوت

يحتوي هذا التقرير الهام العناوين التالية:

١) المقدمة. ٢) العوامل الأساسية في المشكلة الفلسطينية. ٣) ملخص عن المفاوضات التي قام بها مع العرب واليهود. ٤) نزع سلاح القدس. ٥) اللاجئون. ٦) قرار الجمعية العمومية في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧. ٧) حماية الأماكن المقدسة؛ الخدمات المشتركة. ٨) الخاتمة.

وبما أننا لا نستطيع مناقشة كل بنود التقرير، فسوف نقدم ملخصاً، يكفي لمرمى هذا الكتاب.

حين رُفض مشروع التقسيم الذي اقترحه الكونت برنادوت. لم ير هذا الأخير أن من اختصاصه أن يوصي بورقة عمل أخرى تتبعها الأمم المتحدة في المسألة الفلسطينية. غير أنه «كوسيط» اجتمعت لديه معلومات وخرج من اختباره باستنتاجات، رأى من واجبه أن يضعها في تقرير، يمكن أن يساعد أعضاء الأمم المتحدة «في التخطيط» لمستقبل فلسطين.

كانت اقتراحاته، باختصار، كما يلي:

١ ــ **العودة إلى السلم**: يجب أن يعود السلام إلى فلسطين؛ فإذا لم يمكن ذلك باتفاق متبادل، فعن طريق الأمم المتحدة.

٢ ــ **مشروع تقسيم آخر**: مشروع برنادوت.

تقام الحدود بين الدولتين باتفاق متبادل فإن لم يمكن وضعته لجنة حدود تقنية من الأمم المتحدة، مسؤولة أمامها، على أن تجري التعديلات الآتية:

(أ) يصنف النقب بأنه أرض عربية.

(ب) يصنف الجليل، بأنه منطقة يهودية.

(ج) ميناء حيفا، بما فيه مصفاة النفط ومحطاته، يجب أن يعلن ميناءاً حرّاً مع ضمان حرية الوصول إليه للبلدان العربية المعنية، وعدم وضع العقبات في وجه التجارة النفطية.

(د) يعلن مطار اللد مطاراً حرّاً للبلدان العربية المعنية.

(هـ) تبقى مدينة القدس على ماحدده قرار الجمعية العمومية في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧، وتعامل معاملة خاصة فتوضع تحت إشراف الأمم المتحدة الفعلي، مع أعلى حدّ ممكن من الاستقلال للطائفتين العربية واليهودية، وضمان حماية الأماكن المقدسة وضمان حرية الوصول إليها والحرية الدينية.

٣ ــ **حقوق اللاجئين**: قدم الكونت برنادوت بيانات عديدة هامة تتعلق بالعدد المخيف «الذين هُجّروا من ديارهم»:

«لقد تكونت عندي القناعة، منذ البدء، وبعد أخذ كل الظروف بعين الاعتبار، أن حق هؤلاء اللاجئين بالعودة إلى ديارهم في أقرب وقت يجب تأكيده. . . لقد ترك معظمهم كل ممتلكاتهم، فلم يبق لديهم أية وسيلة. خرج العرب الفلسطينيون مرعوبين بسبب القتال الذي نشب في البلاد والارهاب الذي مارسته العصابات الارهابية الصهيونية، وبسبب الاشاعات التي بثتها عن أعمال الارهاب، ما كان منها حقيقياً أو مزعوماً. إن إنكار حق العودة لأولئك الضحايا الأبرياء إلى ديارهم، لهو جرم ضد المبادىء الأولية للعدالة، بينما يتدفّق المهاجرون اليهود إلى فلسطين، مما يشكّل تهديداً دائماً، ليحلّوا محل اللاجئين العرب الذين رسخت جذورهم في الأرض منذ قرون».



اللاجئون العرب الفلسطينيون

«إن حق هؤلاء الأبرياء، الذين اقتلعهم الرعب السائد ودمار الحرب من ديارهم، في الرجوع إليها، يجب أن يؤكّد ويصبح عملياً، وأن يضمن التعويض المناسب عن الملكية لمن يختار عدم العودة».

«يجب أن تؤكد الأمم المتحدة، في أسرع وقت ممكن، حق اللاجئين العرب بالعودة إلى ديارهم في الأراضي التي يحتلها اليهود، وإعادة توطينهم، وإسكانهم، ورد اعتبارهم اقتصادياً واجتماعياً، ودفع التعويضات المناسبة لمن يختار عدم العودة، وأن يكون هذا تحت إشراف ومساعدة لجنة التوفيق الفلسطينية التابعة للأمم المتحدة».

يتّضح من هذه التصريحات، أن الكونت برنادوت قد أدرك، من مفاوضاته مع حكومة اسرائيل المؤقتة حول عودة اللاجئين العرب، أن مجلس الأمن إذا لم يستخدم القوّة

بأنواعها المختلفة، فإن تلك الحكومة لن تعيد أحداً منهم. ولقد أثبت الزمن أن الكونت برنادوت كان على حق، بينما لم تعمد الأمم المتحدة حتى اليوم إلى أي نوع من القوة لإعادتهم، فظلّوا حتى الآن خارج ديارهم!

٤ ـ **حقوق العرب**: يجب أن تصان حقوق العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية في الدولة اليهودية والعكس بالعكس.

لجنة التوفيق: تقام لجنة توفيق فلسطينية، لفترة محدودة، من أجل تحقيق ما يلي:

(أ) ضمان استمرار التسوية السلمية للوضع في فلسطين.

(ب) رعاية قيام علائق طيبة بين العرب واليهود.

(ج) الاشراف على الحدود والطرق والخطوط الحديدية، ومرفأ حيفا الحرّ، ومطار اللدّ الحر، وحقوق الأقليات، الخ...

(د) أن تقدم التقارير للأمم المتحدة «عن تقدمها في مهمتها».

أرسل هذا التقرير إلى الأمم المتحدة، وقبل أن تتخذ الأمم المتحدة أي إجراء بخصوصه، اغتالت العصابات الارهابية اليهودية المجرمة، الكونت برنادوت، لأنها لم توافق على تقريره. ولأنها كانت تخشى أن ينفذ مجلس الأمن هذا التقرير لوبقي الوسيط حياً، نظراً لما للكونت من نفوذ عالمي وشهرة إنسانية. أما كيف اغتيل الكونت برنادوت، فسيأتي بيان ذلك في حينه.

إنشاء وزارة دفاع في الأردن

أُسست وزارة دفاع، للمرة الأولى، في شرق الأردن. وقد جاء الاقتراح من غلوب باشا، الذي كان يقوم حتى ذلك الوقت بمهمة وزير الدفاع. وقد أراد، بعد هزيمة الجيش العربي في حرب فلسطين، أن يحلّ نفسه من المسؤولية بإنشاء تلك الوزارة.

افتتحت الوزارة أبوابها في عمّان في الثاني عشر من آب (أغسطس) ١٩٤٨، وغدا فوزي الملقي، الذي كان وزيراً للخارجية، أول وزير للدفاع.

أعلن الملك عبدالله عن إنشاء تلك الوزارة باعتزاز، في اجتماع له مع الضباط القادة في جيشه بقيادة غلوب باشا حين قال ان ذلك تمّ من أجل مصلحة البلاد.

موت المقدم أحمد عبدالعزيز، قائد قوة المتطوعين المصريين

رجع عبدالعزيز إلى بيت لحم بعد معركة جبل المكبر التي ساعد رجاله فيها ومن ثم، ذهب مع صلاح سالم في سيارة جيب إلى المجدل، كي يرى العقيد الملاوي في قيادة الجيش المصري النظامي. وحين اقتربت السيارة من الموقع المصري العسكري في الفالوجة، أطلق

أحد الحرس خطأ رصاصة، قتل بها الضابط العظيم في ٢٢ آب (أغسطس) ١٩٤٨.


أحمد عبدالعزيز

كان أحمد عبدالعزيز، جندياً محترفاً ووطنياً كبيراً، وعربياً عظيماً. لقد مات في وقت نحن فيه بأمس الحاجة إليه. ولقد خلد اسمه في تاريخ العرب المجاهدين.

توالي الهجمات اليهودية على القدس العربية

لم تنقطع الهجمات اليهودية على القدس العربية. فما كان يمضي يوم واحدٌ دون رصاص أو قنابل. لقد ألقوا قنبلة على دير الأرمن نهار الأحد بينما كان الناس خارجين من الكنيسة، فقتلوا ستة وجرحوا اثنين وثلاثين من المصلّين. فأثار هذا الأمر الرائد عبدالله التل كثيراً، لأنه لم يكن قادراً على الرد، نظراً للنقص في الرجال والعتاد. وكان على يقين أن حرمانه من ذلك كان بأمر من غلوب، القائد العام، فقدم من خلاله، استقالته إلى وزير الدفاع. وقد جاء في كتاب الاستقالة:

«نظراً للوضع الغريب السائد في القدس والذي يؤثر في صحتي، أرجو من معاليكم قبول استقالتي لا تمكن من المعالجة الطبية. وسوف أكون سعيداً بالعودة إلى القدس إذا اندلعت الحرب النظامية مرة أخرى».

في ٤٨/٩/١٤   الرائد عبدالله التل

رفض الملك عبدالله، الذي كان يقدر عبدالله التل تقديراً عظيماً لبسالته ووطنيته، الاستقالة رفضاً باتاً، وكذلك فعل وزير الدفاع. وبعد أن عولج التل من فقر الدم لمدة أسبوعين في مستشفى الزرقاء الحكومي، أخذه الوزير لمقابلة الملك الذي قال له: «أنت سيفي ودرعي فكيف تتركني؟».

فأجاب عبدالله: «يشرفني ذلك، يا صاحب الجلالة. لكنني أريد صادقاً أن جلالتكم تستخدم هذا السيف»(٦٠).

فلسطين على المسرح السياسي ثانية: إنشاء حكومة فلسطين

التأمت اللجنة السياسية التابعة لجامعة الدول العربية في القاهرة في أيلول (سبتمبر) ١٩٤٨، كي تناقش وضع فلسطين في أعقاب الحرب. وحضرت الاجتماع كل الحكومات العربية التي قاتلت جيوشها في فلسطين، ومنها الأردن التي مثلها فوزي الملقي، وزير

الخارجية والدفاع، وسعيد المفتي رئيس مجلس الشيوخ.

رأت اللجنة أنه مادامت الحرب قد «انتهت» في فلسطين، وبما أن الهدنة قائمة تحت اشراف مراقبي الأمم المتحدة، أن من واجبها دراسة مستقبل الادارة في فلسطين أو بالأحرى، فيما بقي من فلسطين.

قررت اللجنة السياسية، بعد مناقشة طويلة، إنشاء حكومة ــ حكومة فلسطين ــ لإدارة فلسطين. ووقع القرار جميع الوفود، ماعدا الوفد الأردني، الذي رفض التوقيع على القرار دون أن يسجل اعتراضاً عليه؛ بالرغم من معرفة أعضائه بسياسة حكومتهم القاضية بإلحاق الجزء العربي من فلسطين بالأردن.

حين عرف الملك عبدالله بقرار جامعة الدول العربية وعزمها على إنشاء حكومة فلسطين؛ غضب جداً واستدعى وفده في الحال إلى عمّان، وفي القصر، وبخّهم بقسوة، فدافعوا عن أنفسهم بالقول انهم رفضوا التوقيع على القرار، مما يعني عدم موافقتهم. غير أن الملك رفض قبول حجتهم.

الملك عبد الله يقلد الأوسمة لـ ٨٢ ضابطاً وجندياً في القدس

قلّد الملك عبدالله ٨٢ ضابطاً وجندياً أوسمة لخدمتهم الممتازة في القدس وتقديراً للرائد عبدالله التل وكتيبته.

اغتيال الكونت برنادوت والكولونيل أندريه سيرو

حالما رشحت الأخبار عن محتويات التقرير الذي أرسله الكونت برنادوت إلى الأمم المتحدة، بدأ اليهود هجوماً دعاوياً ضد الوسيط: لأنه كان قد غيرّ في حدود قرار التقسيم (٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧) الذي خطط طبقا لرغباتهم، وأبدل النقب بالجليل، ووضع القدس في الجزء العربي من فلسطين، وجعل ميناء حيفا ومطار اللد حرّين، وطالب بتطبيق أوليات العدالة بإعادة اللاجئين إلى ديارهم. كل تلك التغييرات التي كانت، باعتقاد الوسيط، أوفر حظاً في التطبيق وأقل انحيازاً وأكثر عدلاً، جعلت من الكونت فولك برنادوت بنظر الصهيونيين، عدوهم الأول الذي تجب إزالته.

كان رأي الصهيونيين، وخاصة عصابات الهاغاناه والأرغون وشتيرن، أنه إذا بقي الكونت برنادوت ليدافع عن وجهة نظره أمام مجلس الأمن، فإن الأمل في تبني مشروعه سيكون كبيراً، نظراً لما يتمتع به الكونت من نفوذ في الأمم المتحدة، وتأثير في مجلس الأمن. قال الارهابيون اليهود: ان هذا يجب ألاّ يتم ويجب تجنب خطره. ولذلك، يجب أن يموت الكونت برنادوت!!

وصل الكونت برنادوت وبعض موظفيه إلى مطار قلندية في القدس، بعد ظهر يوم

الجمعة، في ١٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٨. فرافقهم حرس من الجيش العربي إلى بوابة مندلبوم، وهناك التقى بهم حرس عسكري يهودي رافقهم حتى دار الحكومة في جبل المكبر، حيث مركز الأمم المتحدة.

استقل الكونت برنادوت سيارة للأمم المتحدة واتجه إلى الجزء اليهودي من القدس. كان جالساً في المقعد الخلفي وإلى جانبه الكولونيل أندريه سيرو. وقد جلس إلى جانب السائق، الكولونيل بيجلي، مساعد رئيس المراقبين، وهو أميركي. وحين وصلوا إلى الحي اليهودي، أوقفهم ارهابيون في سيارة جيب، فقتلوا، بدم بارد، الكونت برنادوت والكولونيل سيرو، وفرّوا. ولم يمسوا الكولونيل بيجلي. كان رئيس المراقبين الجنرال رايلي، في سيارة خلف سيارة برنادوت، فلم يجرؤ على ملاحقة القتلة.



كونت برنادوت وسيرو غتيلا

رياء حكومة اسرائيل

وكما هي العادة الصهيونية، أسفت حكومة إسرائيل للحادث وأدانته، ولو أنها كانت سعيدة داخلياً، لخلاصها من صانع السلام الشجاع الذي دافع عن حقوق اللاجئين العرب الأبرياء. ولهذا، لم يبرىء الرأي العام يومئذ، حكومة إسرائيل المؤقتة ولا الوكالة اليهودية من هذه الجريمة. ولقد ذكّر اغتيال الكونت برنادوت الناس باغتيال اللورد موين في القاهرة سنة ١٩٤٤، الذي قضت عليه الأيدي المجرمة نفسها.

أزعج اغتيال الكونت فولك برنادوت، (من الجنسية السويدية) والكولونيل سيرو (من الجنسية الفرنسية) الأمم المتحدة والعالم كله. غير أن اليهود في تلك الفترة، نعموا بالمغفرة

عن خطايا وجرائم كثيرة اقترفوها، بسبب اضطهاد هتلر لهم في الأربعينات، مع أنهم ارتكبوا أفظع من جرائم هتلر بدلاً من أن يتعلموا منها.

اجتمع مجلس الأمن في الثامن عشر والتاسع عشر من أيلول (سبتمبر) وطلب من حكومة إسرائيل المؤقتة أن يمثل الفعلة أمام القضاء وأن يجرى تحقيق عن إهمال الموظفين المسؤولين أو أي عامل آخر له علاقة بالجريمة. غير أن أي تحقيق لم يجر ولم يؤتَ بالفعلة إلى العدالة، وذلك دليل واضح على أن حكومة إسرائيل المؤقتة ساهمت في الجريمة. وقد وجّه مجلس الأمن إنذارين إلى حكومة إسرائيل المؤقتة طالباً توقيف الفعلة ومعاقبتهم ولكنها لم تفعل. كما أنه لم يتخذ أي إجراء ضد الحكومة الإسرائيلية، واكتفى. بتنكيس علم الأمم المتحدة أياماً ثلاثة، حزناً للحادث، ودُفع مبلغ من المال لأرملة الفقيد من ميزانية الأمم المتحدة. كما رفضت حكومة السويد أن تطالب إسرائيل بأي شيء، واختارت بدلاً عن ذلك، الاعتراف بها كدولة. وهكذا انتهت حياة رجل عظيم، وإنساني كبير، شهيداً في سبيل الإنسانية والحق والعدل.

الهيئة العربية العليا تدعو إلى «مؤتمر فلسطين» لانتخاب حكومة فلسطين

اجتمعت الهيئة العربية العليا في القاهرة يوم الخامس من كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٤٨، (أي قبل انتهاء الانتداب) وقررت إيجاد الوسائل الكفيلة بإقامة حكومة فلسطينية لتحل محل الهيئة العربية العليا وتتحمل مسؤوليات الحكومة. أما لماذا لم ينفذ القرار مباشرة فالسبب هو البطء الذي هيمن على كل تحركات الهيئة العربية العليا. فهي لم تقرر تنفيذ القرار إلاّ في تشرين الأول (اكتوبر) أي بعد تسعة أشهر، من وضع القرار، حيث دعت إلى مؤتمر يعقد في غزة. غير أن عوامل سلبية عديدة، برزت في تلك الفترة: مدن هامة ومناطق واسعة، تبدل مالكوها. فقد باتت حيفا ويافا وطبريا، واللد، والرملة، والناصرة، والجليل والجزء الأكبر من القدس الغربية والقرى المحيطة بها في أيدي اليهود. أما أهم المدن التي بقيت في أيدي العرب فهي: نابلس، جنين، طولكرم، بيت لحم، غزة، رام الله، البيرة، وأهم منها جميعــاً، القدس الشرقية.

اجتمع «مؤتمر فلسطين» في مدينة غزة في أول تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٨، وقد حضره ٨٥ فلسطينياً دعتهم الهيئة العربية العليا. وقد دعي كثيرون غيرهم فلم يحضروا وأنا منهم، لأني اعتقدت أن الخطوة جاءت متأخرة جداً، وأن مثل هذه الحكومة، إذا أنشئت، تولد ميتة، لأن الحكومة الأردنية تسيطر على كل ما بقي من فلسطين باستثناء قطاع غزة.

أسس المؤتمر في أول اجتماع له، مجلساً وطنياً انتخب ميشال عازر رئيساً له، كما أسس حكومة هي «حكومة عموم فلسطين» وانتخب الحاج أمين الحسيني رئيساً للدولة الفلسطينية.


المؤتمر الفلسطيني في غزة لإنشاء حكومة

ضمت الوزارة أحمد حلمي عبد الباقي الذي كان الملك عبد الله قد عينه حاكماً عسكرياً للقدس، فترك حاكمية القدس وحضر المؤتمر لأنه كان عضواً في الهيئة العربية العليا حيث تم انتخابه رئيساً للوزراء. ولذلك تألفت الوزارة من:

أحمد حلمي عبد الباقي:	رئيساً للوزراء؛
جمال الحسيني *:	وزيراً للخارجية؛
ميشال إبيكاريوس:	وزيراً للمالية؛
رجائي الحسيني:	وزيراً للدفاع؛
عوني عبد الهادي *:	وزيراً للشؤون الاجتماعية؛
الدكتور حسين الخالدي *:	وزيراً للصحة؛
سليمان طوقان *:	وزيراً للنقل؛
الدكتور فوتي فريج:	وزيراً للاقتصاد؛
علي حسنة:	وزيراً للعدلية؛

(*) هؤلاء الوزراء لم يحضروا المؤتمر ولم يمارسوا عملهم في الوزارة.

بيان المجلس الوطني

أذاع المجلس الوطني بياناً جاء فيه:

«بما أن شعب فلسطين العربي يمتلك الحق المقدس في الحرية والاستقلال، اللذين كبتهما إلى الآن الاستعمار البريطاني والصهيونية، فإننا، نحن أعضاء المجلس الوطني، المجتمعين في غزّة، نعلن في أول تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٤٨، استقلال كل فلسطين، استقلالاً كاملاً، وإنشاء دولة حرة ديمقراطية على كل فلسطين، تصان فيها الحرية وتساوى حقوق كل المواطنين، وتسير على نهج أخواتها العربيات في القيام ببناء الثقافة العربية والمجد العربي».



المفتي الحاج أمين الحسيني يوقع الدستور

إعلان حكومة فلسطين

وأذاعت حكومة فلسطين بياناً بإنشائها وعن برنامجها، ضمنته تاريخاً قصيراً عانته فلسطين وشعبها العربي تحت الانتداب البريطاني الظالم حتى ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨، يوم أخلت بريطانيا العظمى، بصفتها الدولة المنتدبة، فلسطين.

ردود الفعل تجاه تأليف «حكومة عموم فلسطين»

استقبلت أكثرية الشعب الفلسطيني النبأ بفرح وأمل عظيمين. إن أنباء هزيمة الدول العربية جعلته متشائماً قانطاً، كما جعلته يتقبل بفرح أي نبأ يرجى منه التفاؤل أو الأمل أو التشجيع. وها ان أبناء فلسطين يسمعون الآن وللمرة الأولى، بحكومة فلسطين. فيقول

المتفائلون منهم: «ربما شنت هذه الحكومة حرباً أخرى تردّ إلينا ديارنا» وذهب الأمل بالبعض إلى إمكانية الانتفاضة. كما قال آخرون: «من يدري ما الذي يمكن أن تفعله هذه الحكومة».



المفتي يستعرض الجيش

غير أن القليلين من الشعب العربي الفلسطيني العالمين بوقائع الأمور، لم يتفاءلوا بها كثيراً لأنهم كانوا يعلمون أن الملك عبد الله، وهو المستولي على ما تبقى من فلسطين لا يمكن أن يسمح لحكومة فلسطين أن تدير فلسطين، وما لبث الملك عبد الله أن قال: «ما كان يجوز هذا». واحتج بقوة لدى فهمي النقراشي، رئيس وزراء مصر، لأنه أذن بعقد المؤتمر الفلسطيني في غزة.

أوضح الملك عبدالله للنقراشي بأن احتجاجه الشديد راجع إلى أن الحكومة الفلسطينية ضعيفة، لا تستطيع أن تتحمل مسؤولية الجزء العربي من فلسطين وهي بلا جيش يحميها من هجوم اليهود. والوقائع تقول أن الجيش العربي الموجود في فلسطين هو وحده القادر على منع القوات اليهودية من احتلال بقية فلسطين. وأضاف: «إن شعب فلسطين هو الآن دون دفاع، ولا يمكن أن نسلم إليه فلسطين».

حين تلقى النقراشي رسالة الملك عبد الله، رسل يطلب من الحاج أمين الحسيني العودة إلى القاهرة، ولما رفض الحاج أمين، جرب إقناعه على الهاتف، لكنه ظل على رفضه. عندها، أرسل النقراشي العقيد حسين سرّي إلى غزة فجاء بالحاج أمين إلى القاهرة بالقوة.


محمود فهمي النقراشي

كان السبب الذي من أجله سمح النقراشي بتأليف حكومة فلسطين هو أن مجلس جامعة الدول العربية كان قد وافق في اجتماع أيلول (سبتمبر) ١٩٤٨، على إنشاء حكومة لفلسطين وتبنى قراراً لهذه الغاية. وقد صوتت يومئذ كل الدول العربية، كما مرّ معنا، إلى جانب القرار ما عدا الأردن. وقد اتخذ قرار وقتئذ تلبية لتوصية الممثلين الدائمين للدول العربية في الأمم المتحدة، فقد أكدوا أن مثل هذه الحكومة، سوف تساعد في القضية الفلسطينية، داخل الأمم المتحدة وخارجها. وقد كانت مصر والسعودية وسوريا في غاية الحماس لرعاية مثل هذه الدولة.

وقد اعترفت كل الحكومات العربية، ما عدا الأردن، «بحكومة فلسطين» كما اعترفت بها دولتان مسلمتان هما: الباكستان وافغانستان.

استدعاء حكومة عموم فلسطين من غزة للقاهرة

تقع مدينة غزة في الجزء الشمالي من قطاع من الأرض طوله ٤٠ كلم وعرضه ٨ كلم، ظلّ في أيدي العرب، وسمي: قطاع غزة، دون أن يكون له صلة مع مابقي بأيدي العرب من أرض فلسطين، وهو يقع على بعد خمسين كلم جنوب مدينة يافا. ولا منفذ له إلّا على مصر جنوباً، وعلى البحر الأبيض المتوسط غرباً.

كانت الحكومة المصرية هي التي تدير القطاع من القاهرة، بواسطة جيشها الذي بقي هناك كي يحميه من هجمات اليهود الذين استمرت قواتهم، بالرغم من الهدنة التي يشرف عليها مجلس الأمن، تحاول اقتطاع مزيد من الأرض العربية كي توسع ما يدعى الآن

«بإسرائيل». كان القطاع* إذاً تحت خطر دائم. وهذا ما حدا بالحكومة المصرية إلى استدعاء حكومة «عموم فلسطين الجديدة» إلى القاهرة وبقائها في القاهرة، وليس في غزة، لتمارس نشاطها في مكاتب كبرى في مصر الجديدة، مدة سنتين. غير أنها كابدت الكثير من جامعة الدول العربية، مما جعل أكثرية أعضائها يتركون العمل، بحثاً عن مشغل في مختلف البلدان العربية، فتقلصت المكاتب حتى تحولت إلى غرفتين. ثم توقفت نهائياً عن النشاط، ولم يبق من «حكومة عموم فلسطين» إلاّ رئيس وزرائها، أحمد حلمي عبدالباقي، الذي عينته جامعة الدولة العربية في مجلسها، ممثلاً «لفلسطين».

الملك عبد الله وغلوب يقرران حلّ «الجهاد المقدس»

كان الملك عبد الله وغلوب يعرفان أن عبد الله التل يقدّر كثيراً ما قام به «الجهاد المقدس» وحيداً في الدفاع عن القدس، حتى وصول الجيش العربي في الثامن عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨، وأنه لا يرضى بحله. وكان عبد الله التل، يعتقد، أن القدس، كل القدس بما فيها المدينة القديمة، كادت لتسقط في أيدي اليهود لولا تضحيات المناضلين الفلسطينيين الكبرى، وما كانوا غير حفنة من المخلصين المتحمسين الذين عزموا على الدفاع عن المدينة حتى الموت. غير أن «الجهاد المقدس» فلسطيني، ومن الممكن أن يقف في طريق إلحاق ما بقي من فلسطين بشرق الأردن، ولذلك وجب حلّه.

ونذكر بأن غلوب كان قد طلب من التل، خلال الهدنة الأولى، حلّ «الجهاد المقدس»، غير أن هذا رفض ذلك، ولقد جاء الوقت الآن لمحاولة ثانية. فقد بعث العقيد صدقي الجندي بكتاب يأمر فيه التل بتوقيف منير أبو فاضل، مستشار «الجهاد المقدس»، وقد كان يقود وحدة في بيت لحم. ومما قال في الكتاب: «إنك بتوقيف منير أبو فاضل، تؤدي خدمة عظيمة لشرق الأردن.

لكن التل تجاهل الأمر، وفي هذا، قلة احترام للقائد العام، مما جعل غلوب يفكر بنقله.

أثناء ذلك، كان حلمي عبد الباقي قد ترك القدس إلى غزة واصبح رئيس الوزراء في «حكومة عموم فلسطين» فانتهز غلوب الفرصة وعرض على التل، منصب حاكم القدس العسكري، وقبل أن يصله الجواب، أصدر الأمر بتعيينه، كما عين مكانه، الكولونيل غولدي (Goldy).

---

* هاجم اليهود قطاع غزة سنة ١٩٥٦ واحتلوه أشهراً أربعة، ثم أكرهوا على الانسحاب منه بأمر من رئيس الولايات المتحدة، الجنرال إيزنهاور. ثم احتلوه ثانية سنة ١٩٦٧، واعتقد بأمر من رئيس الولايات المتحدة، المستر جونسون، وما زالوا فيه.

رفض التل المركز بكتاب إلى القائد العام قال فيه إن معركة القدس التي خاضها منذ بدايتها لم تنته بعد وانه يريد أن يستمر فيها حتى تنتهي. وقال: «إن اليهود لم يتنازلوا عن احتلال مدينة القدس القديمة» وهو يعتقد أنه أكثر الضباط خبرة في مواجهة حيلهم وهزم مخططاتهم. وأضاف انه يوافق على أن يكون حاكمًا على القدس شريطة أن يظل الضابط القائد فيها، القائم على كل مسؤولياته العسكرية في الدفاع عنها. أما إذا لم يقبل هذا الاقتراح، فإنه يفضل أن يعفى من خدماته.

رأى التل في مقابلة له مع غلوب أن القيادة العامة عازمة على حل «الجهاد المقدس»، وقد طلب إليه أن ينفذ الأوامر الثلاثة التالية:

١ ــ مصادرة أسلحة «الجهاد المقدس» في بيت لحم والخليل بالتعاون مع الرائد لوكيت.

٢ ــ نشر الاشاعات بأن القوات المصرية سوف تغادر بيت لحم والخليل.

٣ ــ ان الملك عبد الله وجيشه هما أفضل حماية لكل المنطقة وليس المصريين.

ولم يبطىء الرائد لوكيت في تنفيذ الأمر فأسرع وحاصر في العاشر من تشرين الثاني (نوفمبر) قيادة «الجهاد المقدس» في بيت لحم، وما لبث أن أدهشه ما رأى، فقد خفت القوات المصرية القريبة لنجدتهم وأحاطت بالجيش العربي المهاجم، فاضطر إلى التراجع ببطء إلى قاعدته. كما أن الكولونيل نيومان، يرافقه حاكم رام الله العسكري نديم السمان، أسرع وهاجم في ١٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٨، قيادة «الجهاد المقدس» العامة المتمركزة في بيرزيت. لكن الهجوم فشل لأنهم وجدوا المقر خالياً بسبب انسحاب القيادة إلى بيت لحم دون أن يلاحظ أحد ذلك.

أول مجلس بلدي للقدس بعد الحرب

توقفت كل الخدمات البلدية تقريباً، إبان معركة القدس. ولما صارت دار بلدية القدس بيد اليهود عمد العرب إلى استخدام بناية مستشفى دير الروم الأرثوذكسي داخل سور المدينة للخدمات البلدية.

إن أنطون صافية الذي عمل كرئيس لبلدية القدس العربية، مع قلة من الموظفين العرب الذين استمروا في القيام بواجبهم، استطاع أن يقوم بأعباء هذه الخدمات. كان هذا الأمر حسناً زمن الحرب، لكنه غير كاف في السلم. ولا بد من بعض النشاط لسدّ هذه الحاجة.

وعلى هذا، قام التل، بصفته حاكمًا عسكرياً للقدس، بمبادرة تعيين مجلس بلدي، في الثاني والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٨، دون الرجوع إلى عمّان، تجنباً للتأخر،

فعين: أنور الخطيب التميمي رئيساً، يحيى حموده والدكتور رأفت فارس والمحترم إبراهيم عيّاد وعبد الله نعواس، أعضاء، تنطون صافية رئيساً للديوان.

دهشت الحكومة في عمان، لهذا التعين لأنه نفذ دون استشارة حاكم فلسطين، عمر مطر، الذي كان يكره الفلسطينيين. ولكنها لم تتخذ أي تدبير ضدّه.

استمرار القتال في القدس بالرغم من هدنة ١٨ تموز (يوليو) ١٩٤٨

استمر إطلاق النار في القدس دون توقف من الجهة اليهودية، واستمر الوسيط بالوكالة، المستر بانش في تقديم تقاريره إلى مجلس الأمن، مما اضطر المجلس إلى العمل، فاتخذ في اجتماعه المنعقد في ١٩ آب (أغسطس) ١٩٤٨، قراراً يطلب فيه التقيد الدقيق بالهدنة. غير أن اليهود، تجاهلوه على عادتهم كما تجاهلوا إنذارات مجلس الأمن أيضاً، وظلوا كذلك حتى ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٨، حين دعت لجنة الهدنة، بتأييد من المراقبين، إلى اجتماع عام عقد في دار الحكومة برئاسة الكولونيل روجر كارلسون (Roger Carleson)، رئيس المراقبين حيث تم التوصل إلى اتفاق ووضعت خرائط وقع عليها كل من العرب واليهود ولجنة الهدنة.

الفصل الثالث والخمسون

عبدالله بن الحسين يُتوّج ملكاً على الفلسطينيين
فلسطين تُلغى وتصبح الضفة الغربية للأردن
معركة الفالوجة، وحصار الجيش المصري فيها
رؤساء وزراء العرب يجتمعون في عمان لفك الحصار
عن الفالوجة

بتنا في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٨، دون أن يتقرر مستقبل حكومة عرب فلسطين. وكان السؤال المطروح هو: من يحكم عرب فلسطين؟ هل الفلسطينيون أنفسهم بقيادة الهيئة العربية العليا، وأعضاؤها خارج فلسطين منذ نيسان (أبريل) ١٩٤٧؟ أم جامعة الدول العربية، فتعمل وكأنها حكومة منتدبة حتى تتألف حكومة لفلسطين؟ ثم هل يسمح الملك عبدالله لحكومة عموم فلسطين الموجودة في القاهرة بالمجيء إلى فلسطين لتحكم؟ ولأن الحكومة المصرية لا تسمح لها بالبقاء في قطاع غزّة المتاخم لليهود؛ فكيف يسمح لها الملك عبدالله، وللسبب نفسه، بالعمل في القدس؟ وماذا عن الاتفاق الذي عقده، أرنست بيفن وزير الخارجية البريطانية، نيابة عن بريطانيا العظمى مع توفيق أبو الهدى، رئيس الوزراء، وغلوب باشا، نيابة عن شرق الأردن، والذي قرر فيه الطرفان ضم فلسطين العربية إلى شرق الأردن؟

أما عن قطاع غزة، الذي يسيطر عليه المصريون، فما كان يطمح الملك عبدالله بإلحاقه بالمملكة لسببين:

١) لأن المصريين فيه. ٢) لأنه لا يوجد اتصال بين قطاع غزة وبقية فلسطين العربية التي يريد ضمّها.

والذي كان يريده الملك عبدالله حقّاً هو انسحاب الجنود المصريين من بيت لحم والخليل لكي لا يشكلوا عقبة في طريق الضم.

كان الملك عبدالله يريد أن يطالبه شعب فلسطين بحمايته ولذلك كان محبّون له في جميع أنحاء فلسطين يدعون له بأنه الزعيم العربي الوحيد الذي يستطيع حماية ما بقي من فلسطين، من هجوم اليهود. كان معه، في نابلس، وهي أهم مدينة في تلك المنطقة،

رئيس بلديتها، سليمان طوقان. وفي بيت لحم، رئيس بلديتها، عيسى البندك. وفي الخليل، رئيس بلديتها، محمد علي الجعبري. وكان يدعم كلاً من هؤلاء حزب له نفوذ في الرأي العام.

وحين علمت عمّان بأن الرأي العام الفلسطيني أصبح على استعداد لقبول تبديل في السلطة، «أرسلت حكومة شرق الأردن، دعوات إلى ممثلين من كل أنحاء فلسطين، تحضر مؤتمراً يعقد في أول كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٨ في أريحا، كي يناقش موضوع منح صاحب الجلالة الملك عبدالله، ملك شرق الأردن «السيادة على فلسطين». وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة لإلحاق ذلك الجزء من فلسطين، بما يشبه الشرعية، إلى شرق الأردن؛ لأن الذين حضروا المؤتمر، لا يمكن أن يكونوا في الظروف الطبيعية، ممثلين لشعب فلسطين، حسب القوانين الانتخابية المعمول بها.

وما كانت القدس بقادرة، كغيرها من المدن العربية، على رفض إرسال وفد يمثلها في مؤتمر أريحا. وقد كان من بين أعضاء وفدها: موسى عبدالله الحسيني (رئيساً) وعلي الدجاني ويحيى حمودة. والحق أنهم كانوا ضد المشروع، غير أنهم لم يستطيعوا الامتناع عن الحضور. وكان في نيتهم، حين ذهبوا إلى أريحا، أن يعملوا ما في وسعهم لإلغاء الضم.

وما كانت عمّان بجاهلة للتيار الخفيّ الجاري في القدس. فاتخذت احتياطاتها كي يسير المؤتمر حسب خطتها.

حدث تاريخي

وصلت الوفود يوم الجمعة، الأول من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٨، من كل أنحاء فلسطين إلى المؤتمر، فاجتمعوا في باحة فندق «ونتر بالاس»، وكان الشيخ محمد علي الجعبري، يرأس أكبر الوفود، التي جاءت من الخليل، بينما جاء أصغرها من القدس.

افتتح عجاج نويهض «المؤتمر» بكلمة قصيرة ثم اقترح انتخاب الشيخ محمد علي الجعبري رئيساً للمؤتمر. فانتخب، كما انتخبت اللجنة التنفيذية حسب الخطة المرسومة.

أفصح الشيخ علي الجعبري، في كلمة الرئاسة التي ألقاها، عن أن الدول العربية فشلت في إنقاذ فلسطين من الغزو الصهيوني، وأن الأعمال التي قام بها الجيش العربي، جيش الملك عبدالله، هي التي استطاعت رد الغزو الصهيوني، وبعد الاستماع لعدة خطب، تبنىّ المؤتمر القرار التالي:

١ ــ يرغب المؤتمر في توجيه الشكر للدول العربية لمحاولاتها وتضحياتها التي قامت بها من أجل فلسطين؛ ويدعوها إلى الاستمرار في بذل الجهود حتى إنقاذ فلسطين من الاحتلال الصهيوني.

٢ ــ يعتبر المؤتمر فلسطين وحدة لا تنفصم.

٣ ــ لا تستطيع الدول العربية مواجهة الأخطار التي تواجهها إلا إذا اتحدت، وهذه الوحدة يجب أن تبدأ بتوحيد فلسطين والأردن.

٤ ــ يقدم المؤتمر إلى الملك عبدالله السيادة على فلسطين، كل فلسطين، ويحيي جيشه الشجاع الذي قاتل ومازال يقاتل في الدفاع عن فلسطين.

٥ ــ يوضع تشريع للفلسطينيين كي ينتخبوا لجنة تهتم بمصالح الشعب الفلسطيني.

٦ ــ يلح المؤتمر على عودة جميع اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم وممتلكاتهم وأن يأخذوا التعويض عن كل خسائرهم.

٧ ــ يجب أن يرسل القرار إلى جامعة الدول العربية، والأمم المتحدة، وإلى الدول العربية. ثم صودق على القرار وفض المؤتمر.

الوفود تذهب إلى الشونة لتهنئة الملك عبد الله

بعد انتهاء المؤتمر، ذهبت كل الوفود إلى الشونة لتهنئة الملك عبدالله بتتويجه ملكاً على فلسطين وشرق الأردن، وقرأ القرار على الملك، الشيخ محمد علي الجعبري، رئيس المؤتمر.

جواب الملك عبد الله

«عندما جاء وفد فلسطيني كي يراني في آذار (مارس) ١٩٤٨ وأنبأني عن مذبحة دير ياسين، وعدت أن أكرس نفسي لشعب فلسطين حتى نصل إلى النصر، أو حتى يقول الشعب كفى. ولقد قمنا بما وعدنا به. وهذا ليس زمن الخطب وإنما زمن التفكير والتدبير. ولسوف أبعث بهذا القرار إلى حكومتي، كما، ولا شك، سوف تعلم به الدول العربية الأخرى واني لآمل أن أكون أهلاً لإنقاذ فلسطين من محنتها الحاضرة».

الحكومة الاردنية توحد فلسطين وشرق الأردن:
تسمية فلسطين «بالضفة الغربية للأردن»
ومحو اسم فلسطين من الخارطة

في الثالث عشر من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٨، اجتمع برلمان شرق الأردن وصوت على توحيد فلسطين وشرق الأردن. وغدا اسم مملكة شرق الأردن، المملكة الأردنية. وهي مكونة من الضفتين الشرقية والغربية لنهر الأردن، وفلسطين هي الضفة الغربية. وهكذا محي للمرة الأولى في التاريخ، اسم فلسطين القديم يمحى من الخارطة. وما كان هذا إلاّ لإرضاء اليهود الذين كانوا يحاولون ما في وسعهم لإحلال اسم اسرائيل محل فلسطين، ثم القضاء على شعب فلسطين العربي، بمنعه من العودة إلى دياره ووطنه، وتجميد أمواله في البنوك كي يموت جوعاً. والقضاء على الشعب العربي الفلسطيني له هدف بعيد وهو:

«لا توجد فلسطين ولا يوجد شعب فلسطيني». وبما أن الملك عبدالله كان يريد أن يربط اسم عائلته بمملكته، جعل اسم شرق الأردن الجديد: «المملكة الأردنية الهاشمية».

الملك عبدالله يزور بيت لحم والخليل لإنعاش شعبيته

زار الملك عبدالله بيت لحم والخليل كي يزيد في شعبيته. وأراد أن يتأكد من وضعه في تلك المنطقة، لأن القوات المصرية كانت ما تزال مسيطرة هناك.

في بيت لحم، احتفل رئيس البلدية، عيسى البندك، بالمناسبة، بحفلة شاي على شرف جلالة الملك دعا إليها الحاكم المصري والقائد المصري في بيت لحم. فحضر كلاهما وسارت الأمور على ما يرام.

وفي اليوم التالي، ذهب الملك إلى الخليل وتناول طعام الغداء في دار رئيس البلدية، الشيخ محمد علي الجعبري، حيث أمضى ليلة هناك. وقد استقبله أهل الخليل استقبالاً حسناً. وفي اليوم التالي زار الملك القيادة المصرية في بيت لحم فرحبوا به وقدموا له الشاي والحلوى. ولما رجع إلى الشونة، كان في غاية السرور للطريقة الجيدة التي استقبله بها سكان المنطقة والعسكريون المصريون.

زيارة الملك الرسمية لفلسطين

شجعت الملك عبدالله زيارته لبيت لحم والخليل فعزم على أن يقوم بزيارة رسمية إلى فلسطين بصفته مُلكها. وكان اسمها ما يزال فلسطين لأن قانون التسمية الجديدة «بالضفة



الملك عبدالله يزور القدس

الغربية للأردن» لم يكن قد صدر بعد في المجلة الرسمية الأردنية. وأخذ نديم السمان، حاكم فلسطين العسكري، وبقية الحكام العسكريين في مختلف المدن الباقية في أيدي العرب يحضرون للزيارة الملكية. فأقيمت أقواس النصر، وأعلم القرويون بزيارة الملك كي يجيئوا ليحيوا الملك عند مرور الموكب.

كانت القدس أول محطة، وما ان وصلها حتى ذهب إلى الجامع الأقصى وأمّ صلاة الظهر. ومن القدس إلى رام الله، حيث تناول فيها طعام الغداء. ومن ثم إلى نابلس، أكبر مدن المملكة الجديدة. وقد حيّاه الناس حيث مـرّ، في المدن وعلى مختلف الطرق. ولم يكن الشعب يشعر بفداحة الكارثة، بل كان فرحاً بعودة السلام ولو المؤقت، بعد سني حرب عديدة.

مؤتمر في القدس يعلنها مدينة عربية

كان اليهود مازالوا يذيعون في دعايتهم أن القدس عاصمة إسرائيل وأنها لليهود وحدهم، دون أي شعب آخر، وأن مسيحيي العالم ومسلميه لاحق لهم فيها، مما أزعج إلى حدّ بعيد، شعب فلسطين العربي، وهو مؤلف من مسلمين ومسيحيين. وقد كان هذا التمييز الديني، والعنصري الصهيوني يعمي اليهود دائمًا، وخاصة الصهيونيين، لا عن حق العرب في القدس فقط وإنما حقهم بالخالق، سبحانه وتعالى، أيضـاً. لـم يزعموا أنهم «الشعب المختار»، فجعلوا الله، جلّ جلاله، خالقاً يميّز بين خلقه، أو بالأحرى خالقاً عنصرياً؟

قرر عرب فلسطين أن يعقدوا مؤتمراً في القدس ضدّ هذه الدعاية العنصرية الصهيونية ولوضع الأمور في نصابها. فالقدس، هي مهد المسيحية روحياً، وهي المدينة المقدسة الأولى للمسيحية في العالم، وهي روحياً أيضاً ثالثة مدن المسلمين المقدسة. وما حرمان أكثر من مليار مسلم ومسيحي من هذا البلد المقدس، والزعم بأنه لليهود وحدهم، وعددهم ليس إلاّ بضعة ملايين، إلاّ ضرب من الجنون. أما نحن وإن كنا نوافق على أن القدس هي المثابة الروحية لمن يؤمن باليهودية، فإننا نرى أنها وطن لشعبها العربي، مسيحياً كان أم مسلمًا أم يهوديًا، وهو الذي عاش فيها دون انقطاع منذ أبعد الأزمنة.

قرر الفلسطينيون أن يدعوا زعيمًا مسيحياً من لبنان لرئاسة المؤتمر. فاختاروا كميل شمعون الذي أصبح رئيساً للبنان سنة ١٩٥٢. وعقد المؤتمر في القدس، يوم الحادي والثلاثين من كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٤٩.

باختصار، شرح كميل شمعون في كلمة الرئاسة، الغَرَضْ من المؤتمر، وحضّ، في


الزعيم اللبناني كميل شمعون (في الوسط) يرأس «مؤتمر القدس»

الوقت نفسه، شعب فلسطين، على الاستمرار في الكفاح حتى الوصول إلى حقوقه. كما ركّز الخطباء الذين تلوه على أهمية القدس الروحية عند المسلمين والمسيحيين. فتحدث عارف العارف، المؤرخ الكبير، رئيس بلدية رام الله، عن صلات العرب بالقدس التي تمتد إلى ٣٠٠٠ سنة قبل المسيح. وقال، ان اليهود كانوا دائماً «غزاة لفلسطين» ولم يكونوا أبداً أهلها الأصليين. أما نغمة «أرض الميعاد» فهي الحجة الكاذبة التي اخترعوها لغزوهم لها، وأي إله عادل يعد شعباً بأرض شعب آخر!

ثم تبنى المؤتمر القرار التالي:

١ ـ فلسطين، أرض عربية يسكنها شعبها العربي منذ زمن قبل التاريخ. ولا يقبل شعب فلسطين العربي أبداً بقرار التقسيم الذي وضعته الأمم المتحدة. لأن هذا الشعب هو صاحب الحق في تقرير مصيره.

٢ ـ لشعب القدس الحق في اختيار نوع الحكم بنفسه ولا يجوز إجباره على القبول بمشروع الأمم المتحدة.

٣ ـ يجب ألاّ تتعاون الدول العربية مع لجنة التوفيق الفلسطينية حتى يرجع اللاجئون العرب إلى ديارهم.

٤ ـ نشر، فيما يجب أن يسمى «بالكتاب الأسود» عما قام به اليهود من تدنيس للأماكن المقدسة الاسلامية والمسيحية في فلسطين.

٥ ـ الابراق إلى الدول العربية بضرورة عقد «مؤتمر قمة» لمناقشة المسألة الفلسطينية من جديد ورسم استراتيجية جديدة لاستعادة فلسطين.

خمسة آلاف مواطن عربي مسالم يطردون على أنهم أسرى حرب

اعتبر اليهود المدنيين من سكان القرى العربية التي احتلوها أسرى حرب. وتلك طريقة مجرمة لطرد ٥٠٠٠ قروي مقابل ٧٠٠ يهودي إرهابي أخذهم العرب أسرى خلال الحرب.

حرب النقب خلال الهدنة الثانية

زار غلوب باشا القدس في الثاني عشر من تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٤٨، وخطب في الضباط وقال لهم: «إن العرب يخطئون دائمًا برفضهم عقد الصلح مع اليهود. يجب ألاّ نقاتل اليهود، وألا ننتهك وقف إطلاق النار، لأنه ينقصنا السلاح والذخيرة. ودار غلوب على ضباطه يحذّرهم لأنه كان يعرف، حسب ما روى التلّ، أن اليهود ينوون الهجوم على الجيش المصري في النقب.

معركة الفالوجة: الحصار(٦٤)

بدأ الهجوم على الجيش المصري في ١٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٨، أي بعد إعلان الهدنة الثانية بثلاثة أشهر تماماً. كان اليهود يريدون احتلال النقب. ولقد ادعوا، لتبرير هجومهم، بأن المصريين هاجموهم أوّلاً فردّوا دفاعاً عن النفس. وقد قاموا بالمغامرة لأنهم عرفوا، أن أحداً من الجيشين الأردني والعراقي، لن يساعد المصريين. كما علموا أيضاً أن الهجوم يُرضي الحكومة البريطانية الراغبة بهزيمتهم، وهم الذين يضغطون على الانكليز من أجل إخلاء قناة السويس.

كان القتال في النقب عنيفاً وخسائر اليهود جسيمة غير أنهم استطاعوا احتلال بير السبع وعزل وحدة مصرية كبيرة في الفالوجة. فقد حوصر فيها لواء من ٣٠٠٠ رجل يقوده العميد سيّد طه.

مجلس الأمن يحاط علمًا بالاعتداء اليهودي

أحاطت الحكومة المصرية مجلس الأمن علمًا بالاعتداء اليهودي، فأرسل، جواباً على ذلك، مراقبي الأمم المتحدة كي يتأكدوا من البادىء. وأمر الدكتور رالف بانش، مساعد الكونت برنادوت، الذي أصبح نائباً له بعد اغتياله، بوقف إطلاق النار، فرفض اليهود إطاعته. فدفعه خوفه من الارهابيين اليهود الذين قتلوا رئيسه ـ لاقتراحه تغييرات لم تعجبهم ـ إلى القول في تقريره «انه لا يستطيع أن يقرّر من بدأ القتال». وعلى ذلك، أمر مجلس الأمن، في التاسع عشر من تشرين الأول(أكتوبر) بوقف إطلاق النار، فتجاهله اليهود واستمروا في القتال حتى ٢٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٨.

درس بانش الحالة، فيما بعد، مع مراقبيه، وأرسل تقريراً إلى مجلس الأمن. وبناءً على ذلك التقرير أمر مجلس الأمن الفريقين بالعودة إلى حيث كانا في ١٤ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٤٨، وبالتفاوض فيما بينهما، أو بواسطة الأمم المتحدة، من أجل السلم. وفي حال عصيان الأوامر، تجتمع لجنة من سبعة أعضاء لتعاقب الفريق الرافض بتطبيق المادة ٧ من الميثاق، وهو قرار عظيم حقاً، ولكن لسوء الحظ، بقي حبراً على ورق، وبقي اليهود حيث كانوا ولم يرجعوا إلى مواقعهم في الرابع عشر من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٨.



رالف بانش، وكيل الوسيط

في السادس عشر من تشرين الثاني (أكتوبر) ١٩٤٨، تبنى مجلس الأمن قراراً آخر يأمر اليهود بالعودة إلى مواقعهم في ١٤ تشرين الأول (أكتوبر) والبدء بمفاوضات مع العرب؛ غير أن اليهود رفضوا للمرّة الثانية الانسحاب، لمعرفتهم بأن الولايات المتحدة والبلدان الأوروبية الأخرى في مجلس الأمن، لا تريد أن تطبّق العقوبات ضدّهم. وهذا ما أكده لهم ترومان، رئيس الولايات المتحدة، الذي أعطى التعليمات لممثله في مجلس الأمن باستخدام الفيتو إذا صدر أي قرار بإدانة إسرائيل أو بتطبيق العقوبات عليها، حتى ولو رفضت العودة إلى مواقع ١٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٨. وهكذا بقي اليهود في النقب وظلّ ٣٠٠٠ جندي مصري محاصرين في الفالوجة.

الجيش الأردني يذهب إلى الخليل في ١٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٨

وفيما كان الجيش المصري يقاتل اليهود في النقب، سار الجيش الأردني إلى الخليل واحتل القيادة المصرية فيها. وأعلن الكولونيل لوكيت نفسه حاكماً عسكرياً على المنطقة وأنزل العلمين المصري والفلسطيني ورفع العلم الأردني. فانقسم الناس فريقين، لأن فريقاً منهم كان يريد بقاء المصريين. كما أن إنزال العلم الفلسطيني سبب توتّراً إضافياً، غير أن

حكمة المصريين واتفاقهم مع الأردنيين على رفع الأعلام الثلاثة، هدّأ الناس وأعاد السكينة.

مصر تطلب رسمياً من الأردن المساعدة العسكرية

بعث اللواء حيدر، قائد الجيش المصري العام، مع اللواء حسين سرّي، رسالة بالطائرة إلى الملك عبدالله بصفته القائد الأعلى للجيوش العربية، وصف له فيها الوضع العسكري السيء الذي باتت فيه القوات المصرية في الفالوجة، وفي الوقت نفسه، إرسال وحدة من الجيش الأردني لفكّ الحصار عنها.

فعقد الملك اجتماعاً، لدرس هذه المسألة الهامة، في بيت الجنرال غلوب، دعي إليه رئيس الوزراء، توفيق أبو الهدى وعبدالله التل، فوعد غلوب في ذلك الاجتماع بالذهاب في اليوم التالي إلى بيت لحم، كي يرى ما يمكن عمله؛ لكنه لم يذهب في اليوم التالي ولم يفعل شيئاً. فعرضت سوريا إرسال فصيلين لفكّ الحصار لكن غلوب رفض العرض بحجة قلة العدد.

قادة الجيوش العربية يجتمعون في الزرقا

عقد قادة الجيوش العربية اجتماعاً في الزرقاء الأردن، كي يناقشوا المسألة. وحضر الاجتماع عبدالقادر الجندي، نائب قائد عام الجيش الأردني. وبعد المناقشة وافق المجتمعون على إرسال فصيلين سوريين لرفع الحصار عن المصريين، فرفض غلوب هذه المرة، بحجة أن الطيران الاسرائيلي، لو أرسل، سيهدم عمّان في ساعات قليلة. ووعد أخيراً، بوضع خطته لفكّ الحصار.

قدم غلوب فعلاً خطة إلى المصريين، كان نصيبها الرفض لأنها تقضي بتدمير كل الذخائر الموجودة في الفالوجة أولاً، ثم يتسلل الجيش المصري من الفالوجة عبر طريق سرّي. ويقود العملية الرائد لوكيت (Locket)، ورقيب انكليزي معه، كانا قد تسللا إلى الفالوجة قبلاً.

درست القيادة المصرية العليا الخطة، فوجدتها خطرة ومهينة. وكانت حجة المصريين: «إذا عرف اليهود بالخطة، وهذا ممكن، فالجيش الهارب، سيكون كله عرضة للتدمير». والطريقة الوحيدة لفكّ الحصار هي هجوم مشترك من قِبَل جيوش العراق والأردن وسوريا، التي كانت واقفة تتفرج. وانتهت المناقشة حين قال عبدالقادر الجندي بصراحة: «إن الأردن غير قادر على القتال».

رؤساء الوزارات العربية يجتمعون في عمان
يوم الرابع والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٨

كان طبيعياً أن تدعو الحكومة المصرية إلى اجتماع لجامعة الدول العربية على مستوى

رؤساء الوزارات كي يناقشوا وضعاً في غاية الغرابة. والغرابة هي أن يقوم اليهود بهجوم كبير على الجيش المصري و«الهدنة» قائمة، ولا يعمل الجيشان، العربي والعراقي، شيئاً غير المشاهدة. والسبب الآخر الذي جعل الاجتماع ملحاً، هو مؤتمر الزرقاء لقادة الجيوش الذي قال فيه الأردن صراحة (وهذا يعني العراق أيضاً) أنه غير قادر على القتال.

كرر الأردن في اجتماع رؤساء الوزارات أن الجيش العربي غير قادر على القتال أو تقديم المعونة للجيش المصري. فاستمر حصار الجيش المصري في الفالوجة.

الفصل الرابع والخمسون

الحرب الأهلية المستمرة في فلسطين ومشكلة اللاجئين العرب الفلسطينيين
أصبحت معضلة مجلس الأمن
أنشأت الامم المتحدة «لجنة التوفيق الفلسطينية»
أنشأت الأمم المتحدة وكالة الغوث لإغاثة وتشغيل اللاجئين العرب
الفلسطينيين المعروفة بـ«الانروا ــU.N.R.W.A»
انحياز الولايات المتحدة لإسرائيل سبب الكارثة الفلسطينية
وسبّب التوتر في الشرق الأوسط

في أواخر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٨ وجدت الجمعية العمومية للأمم المتحدة نفسها في ورطة تجاه فلسطين بسبب ثلاث معضلات:

١ ــ لأنّ قرار التقسيم الذي أصدرته الجمعية العمومية في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧، وقسمت بموجبه فلسطين إلى دولة عربية وأخرى يهودية، وتبنته كي يأتي بالسلم إلى فلسطين وأهلها من عرب ويهود، لم يأت إلاّ بالحرب، كما نوّه العرب. فالتقسيم لم يساعد في تسوية المشكلة الفلسطينية بل زادها تعقيداً.

٢ ــ إنه بالرغم من الهدنة التي فرضها مجلس الأمن في الثامن عشر من تموز (يوليو) سنة ١٩٤٨، على كل الأطراف المعنية، وبالرغم من تدخل وسيط الأمم المتحدة ولجنة الهدنة،تابع اليهود الحرب ضدّ العرب متجاهلين قرارات مجلس الأمن كلياً. وهي مشكلة ثانية جدية تواجهها الأمم المتحدة.

٣ ــ بسبب الارهاب اليهودي «والمذابح المحسوبة»، وما نجم عنهما من طرد وترحيل وهرب مئات الألوف من العرب الذين رفضت السلطات الإسرائيلية إعادتهم إلى ديارهم، تواجه الأمم المتحدة الآن مشكلة كبرى هي مشكلة اللاجئين، التي ساهمت هي أيضاً في خلقها.

محاولة الأمم المتحدة لحل تلك المعضلات الثلاث:

المشكلة رقم ١: تقسيم فلسطين

لم يكن بوسع الجمعية العمومية عمل أي شيء تجاه هذه المشكلة، لأن التقسيم نفذ عمليّاً.

المشكلة رقم ٢: انتهاكات اليهود للهدنة

لم يكن بوسع الجمعية العمومية أن تفعل أي شيء تجاه هذه المشكلة أيضاً لأن ترومان، رئيس الولايات المتحدة، أمر ممثليه في مجلس الأمن باستخدام حق الفيتو ضد كل القرارات التي تتخذ ضد إسرائيل، صواباً كانت أم خطأ!

المشكلة رقم ٣: مشكلة اللاجئين العرب

أوصت الجمعية العمومية بالنسبة لمشكلة اللاجئين العرب بما يلي:

١ ــ برنامج إغاثة مؤقت ــ يليه:

٢ ــ برنامج دائم يتضمن «العودة والإسكان».

برنامج الإغاثة المؤقت

منحت الجمعية العمومية في قرارها رقم ٢١٢ (الدورة الثالثة) الصادر في ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر)١٩٤٨، مبلغ ٢٩,٥٠٠,٠٠٠ دولار لمصاريف أعمال الاغاثة المحلية والإدارية. وقد أذاعت الجمعية العمومية نداء إلى وكالات الأمم المتحدة الخاصة، مثل صندوق الطفولة العالمي، ولجنة الصليب الأحمر الدولية، واتحاد جمعيات الصليب الأحمر وغيرها من الوكالات الخيرية، بالمساهمة في هذا العمل الخيري، لأن المبلغ المشار إليه لا يسدّد من ميزانية الأمم المتحدة بل بواسطة التبرعات، واستجابت وكالات عديدة للنداء؛ وعين مدير مؤقت للوكالة، كما انتخبت «لجنة استشارية» لها.

برنامج الأغاثة الدائم

برنامج الاغاثة الدائم؛ تأسيس الانروا ــ U.N.R.W.A.
وكالة الامم المتحدة لاغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين

ظل مخطط الاغاثة المؤقتة معمولاً به حتى الثامن من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٩، أي حتى تأسست الأنروا (وكالة الغوث) حسب قرار الامم المتحدة الآتي:

قرار الجمعية العمومية رقم ٣٠٢ (الدورة الرابعة) الصادر في ٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٩. مهمات الوكالة:

أن تنفذ، بالتعاون مع الحكومات المحلية، برنامج الإغاثة والعمل.

تؤسس لجنة استشارية من ممثلين عن فرنسا وتركيا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة لنصح ومساعدة مدير الوكالة.

يعين الأمين العام للأمم المتحدة مديراً للوكالة بالتشاور مع اللجنة الاستشارية.

إنشاء لجنة التوفيق الفلسطينية

بعد أن أسست الأمم المتحدة وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين (الأونروا) لتنفيذ برنامج العمل وغوث اللاجئين إلى حين عودتهم، أنشأت أيضاً لجنة توفيق فلسطينية، الغاية منها تحقيق تلك العودة، كما كانت مهمتها أيضاً الوساطة بين العرب واليهود. وقد صدر قرار الجمعية العمومية بتأسيسها في اليوم الحادي عشر من كانون الأول، ديسمبر ١٩٤٨، تحت رقم ١٩٤(الدورة الثالثة). وقد علق اللاجئون الفلسطينيون على هذه اللجنة آمالاً كبيرة.

قرار رقم ١٩٤ (الدورة الثالثة) في ١١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٨

المهمات الرئيسية للجنة التوفيق

١ ــ أن تعمل على عقد مفاوضات بين الحكومات العربية والسلطات اليهودية المعنية مباشرة أو عبر اللجنة لأجل التسوية النهائية لكل المسائل المعلقة.

٢ ــ يجب أن تقدم لجنة التوفيق للجمعية العمومية في دورتها القادمة اقتراحات مفصلة لنظام دولي لمنطقة القدس يؤمن أيضاً حماية الأماكن المقدسة خارج منطقة القدس وحرية الوصول إليها.

٣ ــ تطلب الجمعية العمومية إلى لجنة التوفيق الفلسطينية أن تسهل عودة اللاجئين إلى ديارهم وإسكانهم وتأهيلهم اقتصادياً واجتماعياً ودفع التعويض للذين لا يرغبون في العودة عملاً بالفقرة الحادية عشر من القرار رقم ١٩٤ (الدورة الثالثة) الصادر في ١١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٨.

٤ ــ تكون القدس مركز رئاسة لجنة التوفيق الفلسطينية الرسمي.

٥ ــ يطلب من لجنة التوفيق الفلسطينية تقديم دورية شاملة إلى مجلس الأمن بواسطة الأمين العام الذي سيوزعها على أعضاء الأمم المتحدة.

تشكيل لجنة التوفيق

انتخب الأعضاء الدائمون في مجلس الأمن، ثلاثة من الدول الأعضاء، ليؤلفوا لجنة التوفيق الفلسطينية وهي: فرنسا وتركيا والولايات المتحدة الأميركية.

خطورة مشكلة اللاجئين العرب الفلسطينيين

كان من أصعب ما واجهته الأمم المتحدة منذ سنة ١٩٤٨ حتى الآن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين. تلك المشكلة التي خلقتها هي بنفسها بإملاء قرار التقسيم (رقم ١٨١ في الدورة الثانية في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٧، الذي قسم فلسطين إلى دولة عربية وأخرى يهودية. ولم يخلق هذا القرار الظالم الخالي من الحكمة، مشكلة اللاجئين العرب

فحسب، وإنما نجمت عنه أيضاً حرب ضروس بين العرب واليهود، لا تزال مستمرة حتى اليوم.

كان عدد اللاجئين سنة ١٩٤٨ حوالى ٨٠٠,٠٠٠ مبعثرين في مناطق عديدة، دون غذاء أو غطاء أو حماية. ولم يكتف الصهيونيون باحتلال بيوتهم ومنعهم من العودة إلى أوطانهم، بل حجزوا أموالهم في البنوك التي يسيطرون عليها، مثل بنك باركلي والبنك العثماني، والبنك الإنكليزي الفلسطيني، إلخ... والبنك الوحيد الذي ظل أميناً تجاه زبائنه هو «البنك العربي» الذي استمر يقدم كل مساعدة مالية للاجئين الفلسطينيين وأنقذ مئات الآلاف من الموت جوعاً وأصبح كالواحة في الصحراء، الملجأ الوحيد. وقد كان تجميد أموال اللاجئين، الذين باتوا لا حول لهم في العراء، أكثر الأعمال قسوة في التاريخ الإنساني: إنه جريمة إفناء شعب.



إدارة البنك العربي

الوسيط، الكونت برنادوت، واللاجئون العرب الفلسطينيون

أحبَّ اللاجئون العرب الفلسطينيون، الانساني العظيم، الكونت برنادوت، حباً جماً، لأنه عمل الكثير قبل اغتياله من أجل عودتهم، لكن عبثاً. ولقد ألحّ في تقاريره إلى الجمعية العمومية على حق اللاجئين في العودة إلى ديارهم. قال: «إن حق اللاجئين العرب بالعودة إلى ديارهم هو من أوّليات العدالة».

وقد تحدث كثيراً، في تقريره الشامل للدورة الثالثة في الملحق ذي الرقم ١١/٦٤٨/أ بما يؤكد عودة اللاجئين العرب الفلسطينيين، إذ بدأ تقريره بالقول: «يجب أن نثبّت حق عودة اللاجئين إلى ديارهم في أقرب وقت ممكن...» «إنها لاهانة لمبادىء العدالة إذا أُنكر

على ضحايا النزاع البريئة، حق العودة إلى ديارهم، فيما يتدفق المهاجرون اليهود إلى فلسطين، وهم والحق يهددون بالحلول نهائياً محل اللاجئين العرب الذين رسخت جذورهم في البلاد منذ قرون. . .». «وليس لنا أن ننكر، أن أي تسوية لا تكون عادلة أو كاملة ما لم تعترف بحق اللاجيء العربي بالعودة إلى بيته الذي طردته منه ويلات وتخطيطات النزاع المسلح بين العرب واليهود في فلسطين».

قرار الجمعية العمومية بشأن اللاجئين الفلسطينيين العرب

متأثرة بقناعة وسيط الأمم المتحدة بالنسبة لعودة اللاجئين الفلسطينيين العرب إلى ديارهم، قررت الجمعية العمومية في الفقرة ١١ من قرارها رقم ١٩٤ (الدورة الثالثة) بتاريخ ١١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٨ ما يلي: «تقرر بأن اللاجئين الراغبين بالعودة إلى ديارهم والعيش بسلام مع جيرانهم، يجب أن يسمح لهم بذلك في أقرب وقت ممكن، وأن تدفع التعويضات عن الأملاك للذين يختارون عدم العودة، على أن تقوم بالتعويض، عن الخسائر والاضرار بالملكية الحكومات أو السلطات المسؤولة، تبعاً لمبادىء القانون الدولي.

خيبة أمل اللاجئين بالعودة

فكر اللاجئون، عند إنشاء لجنة التوفيق الفلسطينية، أن عودتهم إلى أوطانهم باتت قريبة. كل شيء بدا مشجعاً، فقد وعدت الفقرة الحادية عشر من القرار رقم ١٩٤ (الدورة الثالثة) في ١١ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٤٨، بعودتهم أو التعويض لمن اختار عدم العودة. وأنشأت الجمعية العمومية من أجل تنفيذ هذا القرار، لجنة التوفيق الفلسطينية، والولايات المتحدة عضو فعال فيها. كما أن وكالة الغوث (الأونروا)، أسست لتهتم بهم مؤقتاً، حتى لا يموتوا برداً وجوعاً كما خطط لهم أعداؤهم الصهيونيون وحلفاؤهم. وما كان ليدور أبداً في خلد اللاجئين العرب الفلسطينيين أنهم لن يرجعوا إلى وطنهم، والسبب لانه لم نعرف له سابقة. ففي كل الحالات، يرجع الذين غادروا بيوتهم، مهما كان السبب والقصد، إليها، عندما يتوقف القتال، دون تحفظ كما حدث بعد الحربين العالميتين، الأولى والثانية. وما من ألماني منع من الرجوع إلى المانيا بعد الحربين. وأضرب بنفسي مثلاً، فأنا لم يتصور خيالي أنني سأمنع من العودة إلى وطني لأنني ناضلت من أجل حمايته من الغزاة. وما كنت لأعتقد بأن الأمم المتحدة التي فرضت التقسيم على شعبنا وأتت بالحرب إلى فلسين، غير قادرة هي نفسها على تنفيذ قرارها القاضي بعودتي، وقد تبنته الجمعية العمومية بالاجماع.

وماذا عن إعلان حقوق الإنسان الذي نادت به الأمم المتحدة في الفقرة (٢) من المادة (١٣): «لكل إمرىء الحق بمغادرة أي بلد، بما فيها بلده، وأن يعود إلى بلده».

إنجازات لجنة التوفيق الفلسطينية

تألفت اللجنة من الأعضاء التالية أسماؤهم: المستر مارك أرثريدج (Mark Erthridge) (الولايات المتحدة)؛ المسيو بوازينيي (Mons. Boiseignier) (فرنسا)؛ والمستر حسين يالتشين (Mr Hussein Yaltchin) (تركيا).

وسافرت اللجنة إلى فلسطين يوم ١٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٨، حيث وصلت إلى القدس، مركز قيادتها، في الرابع والعشرين منه. ومن ثم زارت عمان والقاهرة ودمشق وناقشت حكوماتها بمشكلة اللاجئين الفلسطينيين الكبرى.

ثم سافرت اللجنة إلى جنيف في الثامن والعشرين من نيسان (أبريل) ١٩٤٩ لتكتب أول تقرير شامل لها. وأستطيع القول بجرأة، وأنا أكتب الآن عن مهمات وإنجازات لجنة التوفيق الفلسطينية، بعد أكثر من ثلاثين عاماً من تأسيسها، أنها كما يبدو لي، لم تفعل إلّا القليل، حتى ولا القليل. لقد فشلت فشلاً ذريعاً في الوصول إلى هدفها وهو مصالحة العرب واليهود، وإعادة اللاجئين إلى ديارهم. وأسباب الفشل ترجع في أكثرها إلى سياسة الولايات المتحدة المنحازة، وغير الإنسانية، التي وقفت ضد تحقيق العدالة للاجئين الأبرياء الذين يتحملون، حتى هذا اليوم، آلاماً لا توصف. فبدل أن تهيمن الأمم المتحدة على اللجنة التي أسستها، هيمن عليها العضو الأميركي الذي كان بدوره يتلقى أوامره من دولته؛ ولهذا، لم تستطع اللجنة أن تنجز إلّا ما أرادته واشنطن، وواشنطن لم ترد إنجاز شيء، إلّا إذا كان في مصلحة إسرائيل. وظل اللاجئون العرب الفلسطينيون، محرومين حتى الآن من بيوتهم، التي يستغلها اليهود الذين جاؤوا من كل أنحاء العالم. وهكذا فإن موقف الولايات المتحدة في المسألة الفلسطينية منذ سنة ١٩٤٧؛ منذ هدد الرئيس ترومان الدول الأعضاء، وفرض قرار تقسيم فلسطين الظالم على الجمعية العمومية، هو الذي أزّم مشكلة فلسطين، وأبقى مئات ألوف اللاجئين الفلسطينيين بعيدين عن ديارهم، وتنكّر لحقوق الإنسان، وساعد في خلق أزمة الشرق الأوسط التي يعاني العالم منها اليوم.

لجنة التوفيق الفلسطينية أداة معطلة

حين رفض اليهود السماح للاجئين بالعودة إلى ديارهم، ولم تستطع لجنة التوفيق إعادتهم بقوة الأمم المتحدة، غدت اللجنة جهازاً دون فائدة، إلّا في أمور تافهة لا علاقة لها بحل المشكلة. غير أنها كي يظل اللاجئون متعلقين بأمل العودة، استمرت تعمل وتكتب التقارير التافهة، التي وصلت إلى أرقام عالية، والتي هي الآن جميعها مهملة في ملفّات الأمم المتحدة. ونحن لا نسمع الآن عنها شيئاً، ومع أن أعضاء اللجنة مازالوا يقبضون الرواتب العالية، دون أن يعملوا شيئاً. لم تستطع هذه اللجنة أن تعيد لاجئاً واحداً إلى بيته. لم تستطع أن ترفع الحجز عن أموالهم في البنوك. وما سمح للاجئين بأموالهم إلّا سنة

١٩٥٥، أي بعد سبعة أعوام من تهجيرهم، وبعد إقامة الدعاوى ضد بنك باركلي والبنك العثماني في محاكم عمّان في الأردن. وبعد ربح تلك الدعاوى، لم يقبضوا أموالهم رغم كل ذلك، إلاّ أقساطاً، وعلى دفعات صغيرة، دون فائدة!!

الفصل الخامس والخمسون

اعتداء اليهود على الجيش المصري المتكرر، خرق للهدنة
المصريون يقدمون الشكوى لمجلس الأمن دون نتيجة
المصريون اليائسون يعقدون اتفاق هدنة دائمة عمومية مع إسرائيل
أبطال الفالوجة يرجعون إلى القاهرة بالشرف العسكري

كانت الفالوجة تحت الحصار، حين أنذر غلوب ضباطه للمرّة الثانية بعدم التحارب مع اليهود. وبين لهم بوضوح أن الحرب مع اليهود قد انتهت وأنها لن تستأنف ثانية. وكي يؤكد قوله، أعطى لبعض ضباطه إجازات، كما في زمن السلم.

وفي الثالث والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٨، أي بعد أيام ثلاثة فقط من اجتماع غلوب بضباطه، هاجم اليهود المصريين في النقب. وكان الوطن العربي كله يفكر، بأن الجيشين العراقي والأردني، وقد أخلّا بتقديم العون في تشرين الأول (أكتوبر)، سيساعدان حتماً في كانون الأول (ديسمبر)؛ لكن غلوب قال: «لا».

أزعج هذا الأمر البرلمان العراقي، وطالب في جلسة عاصفة بمساهمة الجيش العراقي في فك الحصار عن الجيش المصري. غير أن نوري السعيد، كان أقوى من رئيس الوزارة، مزاحم الباجه جي، واستطاع من خلال الوصي، عبدالاله، أن يفشّل القرار. مما أدى إلى استقالة الباجه جي.

عين الوصي نوري السعيد رئيساً للوزارة من أجل التأكد من أن أية مساعدة لن ترسل إلى المصريين، ومن ثم حلّ البرلمان وأغلق الموضوع. فأعجب هذا التغيير غلوب باشا إعجاباً عظيماً.

إن الانتصارات التي أحرزها اليهود بعد الهدنة الأولى مباشرة في النقب وفي كل فلسطين، أظهرت جلياً أن كميات السلاح والذخيرة التي تلقوها من تشيكوسلوفاكيا والولايات المتحدة، وكندا، وانكلترا، وجنوب أفريقيا ابانَ الهدنة الأولى، كانت جدّ كبيرة. كما أن الطيارين والمتطوعين أتوا بأعداد ضخمة. والتأكيد على ذلك جاء من بن غوريون نفسه، أول رئيس وزارة في إسرائيل، فقد قال، وهو يتحدث عن شجاعة الطيارين اليهود: «. . . ومع شباب إسرائيل، كان اخوتنا الذين جاؤوا متطوعين من كل أنحاء العالم، كي

يقاتلوا معنا، يقودهم مقاتلون شجعان من الولايات المتحدة، وجنوب أفريقيا وانكلترا وكندا»!!

شكوى مصر لمجلس الأمن عن الهجوم اليهودي على النقب
في ٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٩

قالت الحكومة المصرية في شكواها إلى مجلس الأمن ما يلي:

«في الخامس عشر من أيار (مايو) سنة ١٩٤٨، دخل الجيش المصري فلسطين، كي يأتي بالسلام لشعبها العربي الذي هاجمه الصهيونيون الارهابيون. ولم نقم بذلك حباً بالحرب أو جرّ مغنم لمصر. ودامت الحرب أشهراً ثمانية، ضحّى فيها الجيش المصري كثيراً كي يحقق السلام».

«فرض مجلس الأمن «الهدنة» علينا ثلاث مرات، فالتزمنا بها كلّ مرّة، خلافاً للصهيونيين الذين خرقوها كل مرّة. ولقد هاجم الصهيونيون الجيش المصري في النقب وحده ثلاث مرّات، منتهكين الهدنة في كل مرة. ودعت الحكومة المصرية مجلس الأمن أن يعمل شيئاً لوقف هذه الاعتداءات، فأصدر مجلس الأمن أوامره في الرابع من تشرين الثاني (نوفمبر)، وفي السادس عشر منه، وفي التاسع والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٨، وتجاهل الصهيونيون في كل مرة أوامر مجلس الأمن، ورفضوا العودة إلى مواقعهم الأصلية في ١٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٨، معتمدين على فيتو الولايات المتحدة.

«وبما أن الولايات المتحدة تقترح الآن هدنة دائمة، فإن مصر ترغب في الموافقة على اقتراحها».

ولم يكن لهذه الشكوى من أثر، إلا احتلال الصهيونيين لمزيد من الأراضي في النقب.

الحكومة المصرية تبحث عن اتفاق هدنة عامة دائمة مع إسرائيل

عندما وجدت الحكومة المصرية أن الحكومتين الأردنية والعراقية لا تريدان القتال، وأن مجلس الأمن لا يقدر، نظراً لتحيز الرئيس الأميركي ترومان والدول الأوروبية الكبرى، على إيقاف العدوان الاسرائيلي ضد مصر خلال الهدنة، طلبت من مجلس الأمن، بواسطة نائب الوسيط، أن توقع اتفاق هدنة عامة، منفصل، مع إسرائيل. وتم الاتفاق في ٢٤ شباط (فبراير) ١٩٤٩، فكان أول اتفاق هدنة عام وقع بين إسرائيل ودولة عربية، ووقع في رودس، في مقر قيادة الوسيط.

اتفاقية الهدنة العامة بين مصر وإسرائيل

وقعت اتفاقية الهدنة العامة بين مصر وإسرائيل في ٢٤ شباط (فبراير) ١٩٤٩. فكان

أول اتفاق يوقّع بين بلد عربي وإسرائيل. وقد نشرت الحكومة المصرية بياناً إيضاحياً طويلاً قالت فيه:

«في الخامس عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨، دخلت القوات المصرية فلسطين لتضع حدّاً لأعمال الارهاب التي شنتها، عصابات الهاغاناه والأرغون زفاي ليومي، وشتيرن، ضد عرب فلسطين، وما فعلنا ذلك، لأننا أردنا شنّ حرب ضد أحد، ولا لنجني ربحاً من أي نوع كان، وإنما لكي نأتي بالسلم للأرض المقدسة.

«خلال هذه الحرب التي دامت ثمانية أشهر، تدخل مجلس الأمن عدة مرّات وأمر بوقف إطلاق النار، الذي نفذته القوات المصرية دائمًا وتجاهله اليهود دائمًا. وآخر انتهاك لهم لوقف إطلاق النار كان الهجوم على النقب، الذي بدأوه في الرابع عشر من تشرين الأول، (أكتوبر) ١٩٤٨، والذي قدمنا شكوى بصدده إلى مجلس الأمن.

«ومن أجل أن نضع حدّاً لتلك الانتهاكات الصهيونية لوقف إطلاق النار، أوصت حكومة الولايات المتحدة باتفاقية هدنة دائمة بين الأطراف المتنازعة؛ وبناء عليه، بدأت المفاوضات لعقد تلك الاتفاقية في الثالث عشر من كانون الثاني (يناير) ، ١٩٤٨ في رودس، تحت رعاية نائب وسيط الأمم المتحدة، الدكتور رالف بانش، والجنرال رايلي، رئيس المراقبين. ودامت المفاوضات خمسين يوماً وقعت بعدها اتفاقية هدنة عامة بين مصر وإسرائيل في الرابع والعشرين من شباط (فبراير) ١٩٤٩.

نص الاتفاقية

الاتفاقية مكونة من مقدمة و١٢ بنداً. ومن أجل أن نعطي القارىء فكرة، عما ينطوي عليه هذا الاتفاق والاتفاقات الأخرى مع البلدان العربية، نورد التالي كما جاء في الاتفاق بين الحكومة المصرية وحكومة إسرائيل المؤقتة:

المقدمة

من أجل تسهيل الانتقال من الهدنة الحالية إلى السلم الدائم في فلسطين، وتبعاً لقراري مجلس الأمن الصادرين في ٤ وفي ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٨، اتفق ممثلو الدولتين المطلقو الصلاحية من قبل حكومتيها، على البنود التالية:

البند الأول:

١ ــ يمُنع استعمال القوة.
٢ ــ تمنع أعمال العدوان.
٣ ــ حق كل من الطرفين بالأمن.
٤ ــ إقامة هدنة كخطوة أولى نحو تصفية النزاع المسلح.

البند الثاني: ١) من أجل تحقيق المبادىء المنوه عنها أعلاه، تعقد هذه الهدنة العامة.
٢) لا يقترف أي من الطرفين عملاً حربياً أو عدوانياً ضد قوات الآخر البرية أو البحرية أو الجوّية.

البند الثالث (خاص): تنسحب قوات الفالوجة العسكرية من الفالوجة تحت إشراف الأمم المتحدة وحسب خطة الأمم المتحدة.

البند الرابع: لا تسمح هذه الاتفاقية بأي مغنم عسكري لأي من الطرفين. ولا تقوّي هذه الاتفاقية أو تُضعِف، أو تلغي بأية طريقة، أي حق قانوني أو حق في الأرض أو حقوق أخرى أو مطالب ومنافع يمكن أن يدعيها الطرف الآخر في أرض فلسطين.

البند الخامس: أما عن الحدود، فإن الخطوط الفاصلة بموجب هذا الاتفاق، لا تؤثر بحقوق أو مطالب أو وضع أي من الطرفين، بالنسبة للحل النهائي للمسألة الفلسطينية.

البند السادس: (خاص) يبحث في تحديد الخطوط الفاصلة في منطقة غزة ــ رفح ومنطقة بيت لحم ــ الخليل.

البند السابع: يبحث في القوات الدفاعية لكل جانب.

البند الثامن: يبحث في نزع سلاح العوجا وجوارها ــ (خاص).

البند التاسع: يبحث في تبادل الأسرى الذي يجري برعاية الأمم المتحدة. وتتحمل لجنة الهدنة المشتركة مسؤوليتها.

البند العاشر: تأليف لجنة هدنة مشتركة: من سبعة أعضاء: ثلاثة مصريين، وثلاثة يهود، ورئيس من الأمم المتحدة، لها قوانينها وتنظيماتها. وتبت في كل الشكاوى. والرئيس هو الذي يفصل فيها.

البند الحادي عشر: لا يؤثر أي تحفظ في هذه الاتفاقية بحقوق ومطالب ووضع أي من الطرفين، في التسوية السلمية الأخيرة لمشكلة فلسطين.

البند الثاني عشر: لا تخضع هذه الاتفاقية لتصديق أي من الطرفين وتصبح نافذة تلقائياً بعد التوقيع. وتبقى معمولاً بها حتى الوصول إلى الحل السلمي النهائي.

ملاحظة: من الممكن إعادة النظر أو تغيير أي بند من هذه الاتفاقية ماعدا الأول والثاني، شريطة عقد مؤتمر يدعو إليه الأمين العام للأمم المتحدة، من ممثلي الفريقين، ويعقد تحت رعاية الأمم المتحدة.

جرى التوقيع في رودس ــ جزيرة رودس (اليونان) في ٢٤ شباط (فبراير) ١٩٤٩.

نيابة عن الحكومة المصرية:	نيابة عن حكومة إسرائيل:
العقيد سيف الدين	وولتر ايتان
العقيد الرحماني	يغئال يادين
	إلياهو ساسون

قطاع غزة

تطرق البند السادس من اتفاقية الهدنة العامة، التي وقعتها مصر وإسرائيل في الرابع والعشرين من شباط (فبراير) ١٩٤٩، إلى قطاع غزة. تلك الأرض الفلسطينية الصغيرة التي يبلغ طولها ٣٨ كلم وعرضها ١٠ كلم، الواقعة على الشاطىء الجنوبي من فلسطين بين المجدل في الشمال، ورفح في الجنوب، والتي نجت سنة ١٩٤٨ من الاحتلال اليهودي، وانتدبت عليها جامعة الدول العربية، على أن تديرها الحكومة المصرية حتى الحلّ الشامل للمسألة الفلسطينية. ولم تضم مصر قطاع غزّة بل أبقتها فلسطينية، على عكس ما فعلت الأردن.

كان عدد سكان القطاع يبلغ حوالى مئة ألف شخص، غير أن تدفق اللاجئين من الجوار ومن بقية الأرض العربية التي سقطت بأيدي اليهود، جعل عدد السكان يرتفع حتى الأربعمئة ألف. حدث ذلك في سنتي ١٩٤٨ و١٩٤٩. أما ما تم لقطاع غزة والضفة الغربية منذئذ، فإننا سوف نتكلم عنه في حينه.

أبطال الفالوجة

بقي هؤلاء الرجال في الحصار من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٨ حتى شباط (فبراير) ١٩٤٩، ردّوا خلال ذلك، هجومين يهوديين كبيرين، أحدهما يوم ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) والثاني في ٢٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٨، وأوقعوا بالعدو خسائر فادحة. تحمّل الجنود المصريون صعوبات الحصار، وقنعوا بقليل من الغذاء والدواء، يقدمه لهم أهل الفالوجة، مما يهربه المناضلون الفلسطينيون من غزّة. لقد رفضوا الاستسلام كي لا يمسوا شرف مصر العسكري. ولقد كان جمال عبدالناصر وزكريا محيي الدين، وعبد الحكيم عامر من بين الضباط المحاصرين، وهم الذين قادوا انقلاب ١٩٥٢ ضد الملك فاروق، وهو الانقلاب الذي عجّل به الحصار، وحرر مصر من استبداد الملك فاروق وفساده.

وقد نصت اتفاقية الهدنة العامة في البند الثالث، على فكّ الحصار عن رجال الفالوجة، مباشرة بعد التوقيع، على أن يغادروها بأسلحتهم وذخائرهم وأن يلتحقوا بقطعاتهم في غزّة، تحت إشراف الأمم المتحدة. ودخلوا القاهرة في عرض عظيم يوم العاشر من آذار (مارس) ١٩٤٩. فحيتهم عشرات الألوف من مواطنيهم وهم يشاهدون العرض بحماس عظيم.

وبعد هذا العرض العظيم، لا بد من القول، إن الضباط والجنود المصريين الذين ذاقوا الأمرّين في الحصار، كانوا افضل من عرّف شعبهم وحكومتهم بالعرب الفلسطينيين وبإخلاصهم ووطنيتهم، وأنه لولا مساعدة الفلسطينيين، لاضطر المجاهدون المحاصرون في الفالوجة إلى الاستسلام إلى عدوّ شرس. لقد جعلت هذه التجربة المرة في الفالوجة، عبد الناصر، عندما وصل إلى الحكم، أباً حنوناً للاجئين الفلسطينيين.

القطعات المصرية في بيت لحم والخليل تعود إلى القاهرة
والكتائب المصرية تبقى في قطاع غزة

أرسل الملك عبدالله في ١١ نيسان (أبريل) ١٩٤٩ وزيرين من عمان إلى القاهرة كي يفاوضا الحكومة المصرية بانسحاب الجيش المصري من بيت لحم والخليل وحلول القوات الأردنية محله، دون أن يطالبا بالانسحاب من قطاع غزّة؛ فانسحب المصريون، استجابة لطلب الملك عبدالله، في أواخر نيسان (أبريل) ١٩٤٩.

الفصل السادس والخمسون

اليهود يصرون على احتلال المثلث
الملك عبد الله يعين وفداً إلى رودس للمفاوضة
غلوب باشا يسحب جيشه من النقب ليحتله اليهود
الملك عبد الله يجتمع بساسون لتصفية المشاكل

في العاشر من كانون الأول (ديسمبر)، أنبأ رئيس مراقبي الأمم المتحدة، التل، بأن دايان يريد أن يقابله في الأرض الحرام، القائمة وراء باب الخليل. وفي الاجتماع أعطى دايان التل رسالة مختومة موجهة للملك عبد الله، وطلب منه تسليمها إليـه..

أخذ التل الرسالة وفتحها فوجد أنها من إلياهو ساسون، مكتوبة بخط اليد، يقول فيها أنه يودّ مقابلة وفد أردني، كي يحل المسائل المعلقة بين الأردن واليهود.

ذهب التل إلى الشونة فسلّم الرسالة للملك. وبعد قراءتها، طلب الملك من طبيبه الخاص، شوكت الساطي، وكان يأتمنه، أن يذهب وعبد الله التل لفتح المناقشة. واقترح موضوعاً له، النقاط التالية:

١ ــ سروره بالمفاوضة.
٢ ــ يجب أن تكون التسوية مرضية، وإلاّ كانت هنالك اضطرابات.
٣ ــ يجب احترام ضمّ فلسطين للأردن الذي قرره مؤتمر أريحا.
٤ ــ يجب أن تعود اللد والرملة.
٥ ــ يجب أن يدرس مستقبل يافا وأن تبقى القدس على ما هي عليه.
٦ ــ أن يدرس مستقبل النقب.
٧ ــ أن يدرس موضوع اللاجئين.

وطلب الملك إلى التل أن يأخذ وجهة نظر رئيس الوزراء، توفيق أبو الهدى، حول هذه الأفكار، غير أن الساطي والتل درساها، قبل أخذها لـ«ابو الهدى وأجريا عليها التعديلات والاضافات التالية:

١ ــ شطبت عبارة «تبقى القدس على ما هي عليه».
٢ ــ «عودة اللد والرملة» كدليل على التفاهم المتبادل.

٣ ــ «عودة اللاجئين» قبل فصل الشتاء.

٤ ــ وأضيفت عبارة «عودة الحي العربي في القدس».

وبعد موافقة رئيس الوزراء على تلك التعديلات، اجتمع الساطي والتل بدايان وساسون في الأرض الحرام وقدّما رسالة الملك إلى ساسون الذي قرأها باهتمام. وبعد أن أبدى بعض الملاحظات، التي دلّت على عدم سروره، قال انه من الضروري أن يناقش تلك النقاط مع حكومته في تل أبيب. وحدد الاجتماع التالي في ١٣ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٨. فقدمت فيه السلطات اليهودية، مقترحات نلخصها بما يلي:

١ ــ توافق السلطات اليهودية على الضم وأن يصبح الملك عبد الله، ملكاً على ضفتي الأردن.

٢ ــ أما عن الاقتراحات الثلاثة المتعلقة باللد والرملة ويافا والنقب فقد أعطى اليهود أجوبة غامضة.

٣ ــ أما عن مشكلة اللاجئين فلم يشيروا إليها بالمرة وطلبوا أن يناقشوا مسألة القدس مع الملك شخصياً.

٤ ــ أفضل للملك أن يعلن الهدنة الحالية، دائمة؛ فإن لم يكن علناً، فبالسر.

٥ ــ يجب أن يحلّ الجيش الأردني محل الجيش العراقي.

٦ ــ أن يجري انسحاب الجيش المصري من بيت لحم والخليل.

٧ ــ المفاوضات المباشرة، خير منها عبر فريق ثالث.

٨ ــ إذا جرت الموافقة على هذه النقاط، فإن اليهود يبدأون بمعركة دعاوية لصالح الضمّ.

سلمت المذكرة اليهودية مباشرة إلى الملك فاتصل، بعد قراءتها مباشرة، هاتفياً بالتل وقال له أن الساطي سيكون في القدس في اليوم التالي ومعه جواب الملك الذي يجب أن يسلم لليهود دون تأخير.

انعقد الاجتماع في اليوم التالي فحضر روفين شيلوح بدلاً عن ساسون. وسلّمت مذكرة الملك، فوعد اليهود بإرسال الجواب.

جواب اليهود النهائي

احتوى جواب اليهود النهائي على النقاط التالية:

١ ــ «من الممكن أن تنظر إسرائيل بعودة بعض أهل اللد والرملة، لكن المدينتين لن تردا أبداً للعرب».

٢ ـ عودة اللاجئين أمر مستبعد جدّاً، وإسرائيل مستعدة لمناقشة مشروع إقامتهم حيث هم مع التعويض عليهم.

٣ ـ من الممكن السماح باستعمال مرفأ حيفا بعد استرداد مشروع (كاليا) للبوتاس على البحر الميت.

٤ ـ موضوع القدس صعب جدّاً، بخاصة لأن اليهود يعتبرونها عاصمتهم. «أما الأحياء العربية في القدس فلن تعاد لأن يهوداً سكنوها».

عندما قرأ الساطي الجواب، خاب أمله إلى أبعد حد وأسف للبدء بالمفاوضات. قال: «آسف، أن ملكنا المحبوب صدق بإخلاص الزعماء اليهود، لكنهم خيبوا أمله. إن الصهيونيين عنصريون».

وبالرغم من أن الدكتور الساطي والرائد التل كانا مفوضين بالتفاوض مع اليهود، فإن الجواب السلبي على مقترحات الملك، دفعهما لاتخاذ قرار بتعليق تلك المفاوضات.

الدكتور الساطي يعود للشونة

عاد الدكتور الساطي إلى الشونة وأخبر الملك عن أنباء المفاوضات. فلم يستطع الملك أن يصدق أن اليهود لم يوافقوا على طلباته. لأنه لم يعرف من هم الصهيونيون، إلّا متأخراً، وللأسف!

استدعى الملك الغاضب التل، إلى الشونة، كي يسمع منه ما حصل فعلاً في الاجتماع. ولما وصل التل إلى القصر وجد السفير البريطاني، المستر ألن كيركبرايد، في حضرة الملك، كي يسمع ما يقول التل حول موقف اليهود السلبي. كان التل في غاية الصراحة مع الملك، قال: «إن اليهود يا صاحب الجلالة، يشعرون بأنهم ربحوا الحرب ضد العرب وهم الآن يفاوضون من موقع المنتصر. إنهم لا يريدون أن يفاوضوا للسلام لأنهم لا يشعرون أنهم مضطرون له. إنهم يفاوضون للسلام، يا صاحب الجلالة، عندما نظهر نحن القوة».

الملك عبد الله يقابل ساسون في الشونة

أعلم الملك عبد الله التل هاتفياً، في الحادي عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩٤٩، وأنبأه أنه يريد أن يأتي ساسون ودايان للشونة من أجل المناقشة. واعتقد التل بأنه ليس من الحكمة أن يقابل الملك مسؤولاً يهودياً في قصره، لكن وزير الدفاع، فوزي الملقي كان له رأي آخر. قال الملقي للتل: «للملك الكلمة الأخيرة، وهو وحده المسؤول».

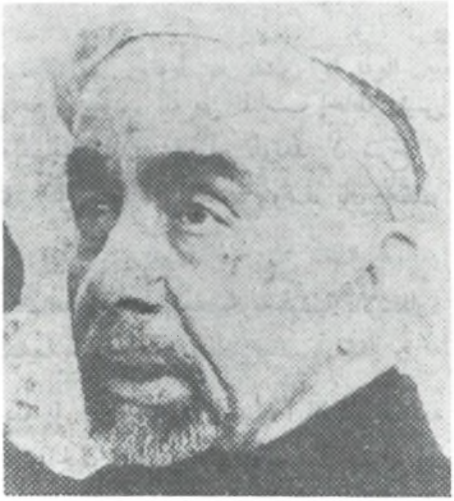
ذهب التل إلى الشونة ليرى الملك في شأن هذا الاجتماع. كان التل يرى أن من أشار على الملك بهذا الاجتماع قد خدعه. أما الملك فقد جرب أن يبين للتل أن ساسون،

حسب رأيه، غير متعصب. غير أن التل لم يقتنع. وفي النهاية، لم ير التل بدأ من التحضير للاجتماع.

الاجتماع في ١٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٩

اجتمع التل بدايان في الأرض الحرام خارج باب الخليل وأنبأه بأن الملك عبد الله يريد لقاء مع ساسون في الشونة، وأن يكون ذلك مساء ١٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٩. وبعد انتظار ساعة، جاء الردّ مرحباً بالطلب. وفي الساعة السادسة والنصف مساء، ذهب التل إلى بوابة مندلبوم حيث كانت تنتظر سيارة تابعة لقوة الجيش الأردني، أخذتهم جميعاً إلى الشونة. ورحب الدكتور الساطي بالضيوف في مدخل القصر وقادهم إلى الصالون. وبعد دقائق، أعلن عن دخول الملك. كان يرتدي ثوبه الحجازي الرسمي، وعلى رأسه العمامة الهاشمية فبدا جميلاً وجليلاً.

وحين سلم الملك على ساسون قال: «لماذا تركتني يا أخي؟» وأجاب ساسون، خجلاً: «عذراً، يا سيدي».


الملك عبدالله، بلباس رأسه التقليدي

واتجه الملك إلى ضيوفه بالحديث قائلاً: «إن نياتي طيبة نحوكم ولا شيء يحول بيننا». والخلاصة، أن الحديث بين الملك وساسون لم يأت برأي التل بأية نتيجة لدفع المفاوضات إلى الأمام. كان الملك عبد الله يعتقد بكل اخلاص، في ذلك الوقت، أنه يفاوض خصماً يعطي ويأخذ في الحوار حتى الوصول إلى تسوية. غير أن الأمر كان يختلف بالنسبة للصهيونيين، فكلما فاوضتهم، كلما ازدادوا تصلباً.

كان الملك يتكلم بحرارة وتكلم كثيراً، ثم قال فجأة: «فلنتناول العشاء».

جلس الجميع، دون أي حديث سياسي إبان العشاء. تلك كانت القاعدة على المائدة الملكية.

وبعد العشاء، أخذ الملك ساسون إلى غرفة خاصة فتحدثا وحدهما. وبعد دقائق قليلة، استدعي الدكتور الساطي للاشتراك في الحديث. دام الاجتماع الخاص عشر دقائق حتى إذا خرج الثلاثة، انتهى الاجتماع. وأتت السيارة نفسها يتبعها جيب من حرس الملك،

وأوصلت الجماعة إلى بوابة مندلبوم. كانت الساعة الثانية عشرة ليلاً.

اليهود يغيرون موقفهم بعد هذا الاجتماع

اتخذ اليهود موقفاً مختلفاً بعد هذا الاجتماع، وبخاصة تجاه القدس. وفي الثالث والعشرين من كانون الثاني (يناير) ١٩٤٩، بدأوا هجوماً على أبوطور، وهو غير بعيد عن جبل المكبر، ورد الجيش العربي الهجوم، دون أن يكون الهجوم المضاد شاملاً، كما كان يبغي اليهود.

كان التل قد استنتج من حديثه مع دايان، أن اليهود قرروا احتلال القدس كلها مهما كان الثمن، وهو هدف ينظرون إليه منذ ألفي عام. ونقل التل الخبر إلى وزير الدفاع، الذي نقله بدوره إلى الملك. وفي السادس والعشرين من كانون الثاني (يناير) طلب إلى التل أن يذهب إلى الشونة. وبعد أن شرح للملك موقف اليهود الجديد، قال الملك: «أريد أن أراهما ثانية» وهو يعني ساسون ودايان.

الاجتماع الثاني مع ساسون
في ٣٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٩

اعتقد التل، قبل تحضير الاجتماع الثاني مع ساسون، أنه من المناسب إحاطة رئيس الوزراء، توفيق أبوالهدى بهذه الاجتماعات وبسياسة الملك الجديدة. وبعد أن شرح له ماحدث في الاجتماع الأول، نصح أبوالهدى التل بإطاعة الملك، ووعد بأن يحضر الاجتماع الثاني بنفسه.

ذهب التل إلى بوابة مندلبوم فوجد، كما كان مقرراً، سيارة عسكرية أردنية بالانتظار، حملتهم جميعاً إلى الشونة فوصلوها في الساعة السابعة مساء.

أثار ساسون مسألة الجيش العراقي وعودته إلى العراق وقد اتخذ هذا الجيش مواقعه في «المثلث» للدفاع عنه. وكان ساسون يعرف أن الجيش الأردني لا يستطيع سدّ الفراغ إذا غادر الجيش العراقي، فتضاف آنئذ أكثر من ٣٠٠ ألف دونم من أخصب الأراضي إلى دولة إسرائيل الجديدة. ولما فتح الحديث عن مفاوضات رودس، قال الملك أنه مستعد لإرسال وفد أردني حالما يكون الدكتور رالف بانش، نائب الوسيط، جاهزاً ليدعو إلى اجتماع. ثم أشار إلى التل قائلاً: «ومن سوف يكون رئيس الوفد؟»

على مائدة العشاء، جلس رئيس الوزراء، توفيق أبوالهدى، مقابلاً للملك. ولم تناقش الأمور السياسية. وبعد العشاء جرت مقابلة خاصة، بين الملك وساسون، دعي إليها الدكتور الساطي بعد دقائق قليلة، دون رئيس الوزراء. وعند انتهاء الاجتماع، ذهب رئيس الوزراء إلى عمّان وجماعة القدس إلى القدس، فوصلوا بوابة مندلبوم بعد منتصف الليل.

لقاء الملك عبد الله بالأمير عبد الإله
في المحطة الثالثة لشركة بترول العراق

حضر الملك عبد الله الاجتماع مع الأمير عبد الإله، الوصي على عرش العراق كي يناقش معه، عودة الجيش العراقي إلى العراق. وكان التل يعتقد أن تلك خطوة خطرة، قبل توقيع الهدنة الدائمة النهائية.

التقى الملك عبد الله ووزير دفاعه، فوزي الملقي، في المحطة الثالثة مع الأمير عبد الاله ورئيس وزرائه نوري السعيد. كان اجتماعاً طويلاً اتفقوا فيه على انسحاب الجيش العراقي تدريجياً، كما تسمح به الظروف.

الدكتور الساطي يأخذ نتيجة الاجتماع إلى اليهود

أعلم التل بذهاب الساطي إلى القدس لتسليم رسالة إلى اليهود. وقد كانت مختومة بالشمع الأحمر، تحوي نتيجة اجتماع المحطة الثالثة، وسلمت الرسالة إلى دايان.

تعين الوفد إلى رودس من أردنين دون الفلسطينين

كان التل أول من طلب إليه رئاسة الوفد إلى رودس، غير أنه رفض، لأنه كان يعلم أن الوفد ذاهب، لا ليفاوض في اتفاق، وإنما كي يضع توقيعه على اتفاق جاهز.

وفي الثامن عشر من شباط (فبراير) ١٩٤٩، ذهب التل إلى الشونة كي يشرح للملك لماذا رفض الذهاب إلى رودس. فقال له، تخلصاً من اللوم، ان واجبه كعسكري يقتضي بقاءه في القدس. فقبل الملك عبدالله عذره وعينّ مكانه العقيد أحمد الجندي.

تألف الوفد من:

العقيد أحمد صدقي الجندي رئيساً، والرائد راضي الهنداوي نائباً للرئيس، والرائد محمد المعايطة والنقيب علي أبو نوار أعضاء، الملازم فتحي ياسين سكرتيراً.

ومن مستشارين قانونيين هما: رياض المفلح سكرتير في وزارة الخارجية، والقاضي عبدالله نصير.

كان تعيين وفد رودس على هذا الشكل سيئاً للأسباب التالية:

١ ــ كان الوفد مؤلفاً بكامله من أردنيين، مع أن المفاوضات تتناول فلسطين لا الأردن.

٢ ــ كان المفاوضون كلهم من العسكريين، ذهبوا إلى رودس ليناقشوا في السلم لا في الحرب، وفي الأراضي والممتلكات، لا في السلاح والذخيرة أو المعدّات الحربية.

٣ ــ كان المفاوضون لا يعرفون شيئاً عن مشكلة فلسطين، موضوع التفاوض، ثم إن المشاكل كانت فلسطينية ولم تكن مشاكل أردنية.

٤ ــ كان الوفد خالياً من الاختصاصين في الموضوع الذي ذهب ليفاوض من أجله.

٥ ــ كان الوفد خالياً من الفلسطينيين وهم الضحايا. وكانت المفاوضات تتعلق ببلادهم وحقوقهم، وبممتلكاتهم، وأرضهم، ووجودهم.

٦ ــ لم يكن بين الأعضاء أي مهندس، أو مخطط مدن، حتى ولا مسّاح، يستطيع قراءة خارطة أو مشروع، وهذا أمر أساسي في المفاوضات.

٧ ــ إن أحداً من الموفدين لم يسكن في فلسطين، فكان بالتالي جاهلاً لتفاصيل النزاع اليهودي ــ الفلسطيني.

٨ ــ والوفد المثالي كان ينبغي أن يكون من خبراء وساسة فلسطينيين.

الملك عبدالله يريد مقابلة رئيسي الوفدين:
الأردني والاسرائيلي، قبل سفرهما إلى رودس

أنبأ الدكتور الساطي التلّ أن الملك يريد مقابلة رئيسي الوفدين الأردني والاسرائيلي في الشونة قبل سفرهما إلى رودس كي يوضّح لهما بعض النقاط. وطلب إلى التل أن يحضر هذا الاجتماع الذي ضرب الملك له موعداً في الرابع والعشرين من شباط (فبراير) ١٩٤٩.

بعد أن وعد اليهود بإرسال شيلوح ودايان، أرسلوا عوضاً عنهما «أسفهم» متذرعين بأن الوفد قد سبق إلى رودس. فغضب الملك غضباً شديداً صبّه، للأسف، على رأس عبدالله التل، متهمًا إياه بأنه هو الذي لم يرد أن يتم الاجتماع.

دعا فوزي الملقي، وزير الدفاع، صديقه التل إليه، وطلب إليه أن يذهب إلى الشونة كي يهدىء الملك، كما أراد أن يعرف منه لماذا رفض الذهاب إلى رودس وهي فرصة مناسبة، اعتقد الوزير، أن فقدانها كان خطأً. غير أن التل كان جدّ صريحاً مع الوزير وقال له: «إذا لم تعد اللد والرملة إلى العرب ولم يُخلِ المحتلون اليهود الأحياء العربية في القدس فإن مصير مفاوضات رودس الفشل الكامل». وأضاف: «لأني أعرف أن اليهود لن يوافقوا على أيّ من هذه المطالب ولهذا رفضت الذهاب إلى رودس».

ذهب التل إلى الشونة وأقنع الملك بأن الاجتماع لم يعقد لكذب اليهود المطلق.

الوفد الأردني يذهب إلى رودس في ٢٨ شباط (فبراير) ١٩٤٩

جربت الحكومة الأردنية، نظراً للحلف القائم بين الحكومتين الأردنية والعراقية، أن تقنع هذه الأخيرة لتشترك بمفاوضات رودس، غير أنها فشلت. فقد رفض العراقيون رفضاً قاطعاً أن يمثّلوا أو يحضروا للأسباب التالية:

١ ــ خوفاً من الشعب العراقي الذي ثار ضد حكومته لأنها فشلت في حرب فلسطين.

٢ ــ لعدم وجود حدود مشتركة بين العراق وإسرائيل تجبره على توقيع اتفاقية.

٣ ــ لأن توقيع مثل هذه الاتفاقية مع إسرائيل هو إهانة للحكومة العراقية.

اليهود يقدمون خمسة مطالب في رودس

قدم اليهود، في مفاوضات رودس خمسة مطالب لا علاقة لأي منها بالمطالب التي قدّمها الملك عبدالله:

١ ــ حرية المرور من تل ــ أبيب إلى القدس عبر اللطرون.

٢ ــ القطار من تل ــ أبيب إلى القدس.

٣ ــ حرية المرور من القدس إلى مستشفى هداسا والجامعة العبرية على جبل سكوبس.

٤ ــ إزالة كل الدفاعات العربية على جبل المكبر قرب الكلية العربية.

٥ ــ حرية الوصول إلى جدار المبكى (وهذا أهمها).

قدمت هذه المطالب إلى الوفد الأردني في «رودس» فأرسلها رئيسه، أحمد صدقي الجندي، إلى الملك في عمان. فكان جوابه كما يلي:

١ ــ حرية المرور إلى يافا واللد والرملة.

٢ ــ عودة الأحياء العربية في القدس.

٣ ــ حرية المرور إلى الأماكن المقدسة، المسيحية والاسلامية، في الناصرة وعكا وصفد. وقدم الجواب إلى الوفد اليهودي.

كارثة النقب خلال مفاوضات الهدنة

كان الجيش الأردني يحتل جزءاً كبيراً من النقب، يوم كانت المفاوضات تجري في رودس. وكان عدده فيها ١٨٠٠ رجل مجهزين بالدبابات وبالمدفعية الثقيلة. وكان يقود تلك

القوة ضابط عربي، لكن القائد العام راق له في ذلك الوقت الحاسم أن يبدله بضابط بريطاني هو النقيب برومي.

كان اليهود، وهم يحاصرون الفالوجة، ما زالوا بعيدين عن العقبة الواقعة على طرف النقب الجنوبي، على البحر الأحمر، هدفهم الرئيسي. وقد رفضوا مشروع برنادوت في حينه لأنه أخرج العقبة من دولتهم. ومن أين لهم الآن أن يصلوا إلى العقبة دون أن يقاتلوا الجيش الأردني؟ ولذلك أمر غلوب باشا الجيش العربي في النقب بالانسحاب، وهو عمل، وجد فيه المراقبون حينئذ أنه تجاوب مع رغبات الحكومة البريطانية. وحين اكتشف اليهود انسحاب الجيش العربي، احتلوا مباشرة ذلك الجزء، حتى العقبة التي كانت تسمى يومئذ «أم الرشراش». وما احتاجت العملية لأكثر من ٢٠٠ رجل، وهي قوة كان يستطيع الجيش الأردني محوها لو أنه بقي في مواقعه.

الحكومة الأردنية تحتج إلى نائب الوسيط ضد هذا الانتهاك

احتجت الحكومة الأردنية، لدى نائب الوسيط، الذي استغرب الاحتجاج قائلاً: «لماذا لم يوقفهم الجيش الأردني، أو يقاتلهم على الأقل؟».

لم يرضِ جواب الدكتور بانش الحكومة الأردنية، فأرسلت احتجاجاً آخر إلى لجنة التوفيق الفلسطينية؛ غير أن هذه تجاهلته أيضاً. أما في اسرائيل، فقد ضحكوا من الاحتجاج.

بانش يرسل مراقبيه إلى العقبة للتحقيق

على كل حال، أرسل بانش مراقبيه، فيما بعد، إلى العقبة، للتحري عن حدوث قتال في النقب، فرفع المراقبون تقريراً أشاروا فيه إلى أنهم لم يجدوا أي أثر للقتال أو ما يدل على



مراقبون: جنود للأمم المتحدة يذهبون إلى النقب بمهمة

أن معركة نشبت بين العرب واليهود. وسرّ بانش للنتيجة فأقفل القضية. أما اليهود فقد أعلنوا فيها بعد، باعتزاز كاذب، أن احتلال العقبة كان نصراً عسكرياً وليس نزهة!

الملك عبدالله يتابع مسألة النقب

في العاشر من آذار (مارس) ١٩٤٩، كتب الملك عبدالله رسالة صداقة إلى ساسون يشكو له فيها احتلال القوات اليهودية، خلال مفاوضات رودس، للنقب حتى العقبة. كما كتب بالأمر إلى شرتوك (الذي عرف فيما بعد بشاريت)، وزير خارجية إسرائيل، معترضاً على احتلال اليهود للعقبة. فأجابه شرتوك قائلاً:

١ ــ أنه مسرور برسالة الملك عبدالله.

٢ ــ النقب ليست أرضاً أردنية ولليهود الحق باحتلال أية أرض من فلسطين.

٣ ــ احتل النقب دون قتال: «لقد سلم إلينا».

٤ ــ ليس للأردن الحق في أن يناقشنا بموضوع النقب لأن النقب ليس أرضاً أردنية.

٥ ــ إذا لم تقفل القضية فإنها سوف ترفع إلى مجلس الأمن. لم تكن رسالة شرتوك الوقحة سلبية فحسب؛ بل كانت رسالة تهديد. ومن الغريب حقاً أن ينتظر الملك عبدالله إيجابية أناس عنصريين!

أرسلت الرسالة إلى الملك عبدالله فأغلق الموضوع دون تردد.

الفصل السابع والخمسون

العوامل التي أدت إلى كارثة المثلث
الملك عبد الله قبل بالمبادلة
أخذ المثلث، ولم يُؤخذ البديل

كارثة المثلث

المثلث أرض زراعية تزيد مساحتها على ٣٠٠٠٠٠ دونم من أخصب الأراضي، يسكنها حوالي ١٥٠٠٠٠ من المزارعين العرب. وهو واقع بين جنين وطولكرم، وهو من الجزء العربي بالنسبة لمشروع الأمم المتحدة للتقسيم. وشكله مثلث ومن هنا جاء الاسم.

العوامل التي أدّت إلى فقدان هذا السهل الخصب

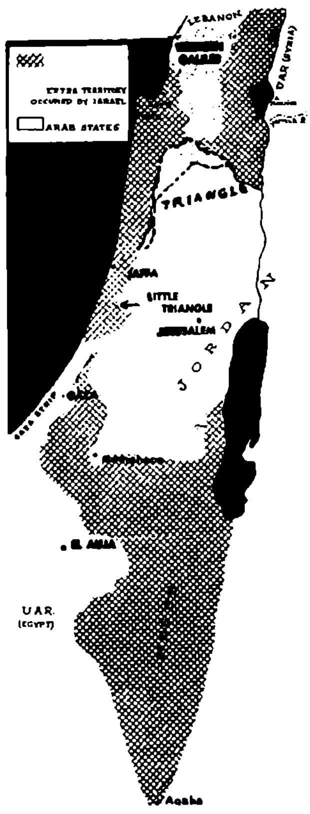
يذهب الرائد التل الذي كان على الساحة، إلى أن العوامل التي أدت إلى فقدان هذا السهل الكبير هي التالية:

١ ــ أراد الملك عبد الله أن يعقد الصلح مع اليهود بأسرع ما يمكن. وكان قليل الصبر.

٢ ــ ضعف الحكومة الأردنية التي كانت دون أي تأثير على الملك. كانت شخصية الملك عبد الله طاغية على الجميع.

٣ ــ سمح العداء بين الأردنيين والمصريين، أن يعمل اليهود كل ما في مصلحتهم، لثقتهم، بأن أياً منهما لن يساعد الآخر في أية معركة، كبرت أم صغرت.

٤ ــ موقف الأمير عبد الاله ونوري السعيد العدائي من مصر، وعداؤهما



خارطة المثلث

وكرههما للحاج أمين الحسيني، رئيس الهيئة العربية العليا.

٥ ـ عدم كفاءة الوفد الأردني في رودس وفاعليته.

٦ ـ تحيز الحكومة البريطانية (وهذا أهمها)، التي كانت مغالية في ميلها للصهيونية. كما أن سياستها المنحازة أدت بالجيش العربي، في شخص قائده العام، غلوب باشا، إلى خيانة القضية العربية.

الملك عبد الله يكتب ثانية لشرتوك بشأن النقب

كتب الملك عبد الله في الرابع عشر من آذار (مارس) ١٩٤٩، رسالة ثانية إلى شرتوك، وزير الخارجية الإسرائيلي، يطلب إليه فيها ألّا يقوم اليهود بأية عملية عسكرية أثناء مفاوضات رودس. فأجاب ايتان، نائب وزير الخارجية، أثناء غياب شرتوك في الولايات المتحدة، الملك برسالة قال فيها:

«التحيات:

١ ـ إن الحكومة الاسرائيلية تعتبر احتلالها للنقب احتلالاً سلمياً، تمّ دون قتال أو اصطدام مع أي جيش، حتى ولا الجيش الأردني. وفوق ذلك، لا وجود لأي قتال في تلك المنطقة الآن.

٢ ـ إذا ترك الجيش العراقي مواقعه، فإن الحكومة الإسرائيلية تعتبر، أن حلول القوات الأردنية محله، هو ضد اتفاقية الهدنة.

٣ ـ إذا غادرت القوات العراقية، حلت محلها القوات الإسرائيلية.

٤ ـ هذه المسائل الصعبة يجب أن تسوّى بيننا شخصياً، لا في رودس. فإذا كان هذا مقبولاً، فنحن مستعدون لسحب دايان من رودوس لمناقشة هذه المسائل وتسويتها بالطرق السلمية.

جواب الملك عبد الله إلى ايتان

في التاسع عشر من آذار (مارس) ١٩٤٩، أرسل الملك عبد الله جوابه إلى ايتان ينبئه فيه، أنه لا يستطيع السماح لأية قوات بالحلول محل الجيش العراقي، ما عدا القوات الأردنية، حسب الاتفاق مع الأمير عبد الاله في المحطة الثالثة. وقد عبر الملك عن رغبته باجتماع على انفراد مع ايتان ودايان.

ماذا يجري في رودوس: «كل الجيوش العربية هي أجنبية». هكذا قال اليهود

اعتبر اليهود، في مفاوضات رودس، أن الأرض التي يحتلها الجيش العراقي (المثلث) هي أرض يحتلها العدو، لأن الحكومة العراقية، لم تفوض الحكومة الأردنية بتمثيلها

أو بالكلام باسمها. وعلى هذا، لم يكن من حق الأردنيين، تبعاً لمنطق اليهود، أن يأخذوا مكان العراقيين إذا أخلوا المثلث. قالوا: «إن القوات اليهودية، هي وحدها التي لها الحق بالحلول مكان العراقيين». وبما أن الحكومة العراقية لم تشأ أن توقع اتفاقية الهدنة مع اليهود، وهم يريدون إخلاء الأرض؛ فقد اتصلت الحكومة الإسرائيلية بالدكتور بانش، نائب الوسيط، وأنبأته بنيتها في احتلال «المثلث» حالما تخليه القوات العراقية.

كل ذلك جرت مناقشته في مركز قيادة نائب الوسيط الدولي في رودس. وعلى كل حال، ونظراً لجدّية المسألة، أرسل العقيد صدقي الجندي، رئيس الوفد، مساعده النقيب علي أبونوّار إلى عمان ومعه كتابان، أحدهما للحكومة، والثاني لغلوب باشا. قدّم رئيس الوفد تقريراً عن المناقشة التي دارت حول المثلث وعن الجدل الذي جرى حول وضع القوات العراقية. ولقد حمل أبو نوار بالذات الرسالتين لأن المفاوضات، برأي الوفد الأردني، تمرّ ببرهة جدّ خطرة.

الملك عبد الله يلتقي بالكولونيل دايان والميجر هركابي
في الشونة في ١٩ آذار (مارس) ١٩٤٩

جرى ترتيب الاجتماع بالطريقة المعتادة، وشرح فيه الملك عبد الله لدايان أن موضوع حلول القوات الأردنية محل القوات العراقية جرى الاتفاق عليه بينه وبين الوصي، الأمير عبد الاله، في المحطة الثالثة؛ وعلى ذلك، لا يجد الملك سبباً لاعتراض اليهود عليه. غير أن دايان عالج المسألة بطريقته الماكرة ومن زاوية مختلفة تماماً. قال: «نحن لا نريد أن نأخذ المثلث، وإنما نريد أن نبادله بقطعة أرض أخرى من المساحة نفسها في مكان آخر». وأضاف: «إن المثلث أساسي لنا لأنه يصل ذاك الجزء من إسرائيل في منطقة الحولة بسهل إزدر يلون (مرج ابن عامر) الذي هو أرض إسرائيلية. والاتصال بهذا السهل وأماكن أخرى مثل العفولة، إلخ... هو أساسي لليهود». ثم أضاف دايان تهديداً ذكياً بصورة غير مباشرة فقال: «إذا لم تقبلوا الحل بالتبادل، دعوا الأمر لليهود كي يسوّوه بطريقتهم مع العراقيين».

الملك يقبل بعرض دايان

قبل الملك اقتراح دايان، بأن يعطي المثلث مقابل أرض يهودية في منطقة أخرى، غير أن التبادل لم ينفذ ولم يكن في نية اليهود أن ينفذوه. ومع هذا فقد وعد الملك بأن يكتب لوفده في رودس، عن اتفاق التبادل كي يتصرف الوفد بموجبه.

بعد الاجتماع، طلب الملك إلى التل أن يذهب إلى بيروت، حيث كان رئيس الوزراء، توفيق أبو الهدى، يحضر اجتماعاً لجامعة الدول العربية، كي يحيطه علماً بالاتفاق. ولما علم أبو الهدى بالاتفاق، انزعج كثيراً وقال: إن اتفاقاً على مثل هذه الأهمية لا يجوز

التفاوض فيه مع وفد غير مختص كالذي في رودس، بل مع وفد يختلف تماماً ومن غير ذاك الوزن. وكتب للملك برأيه البسيط حول الموضوع، فوافق الملك على الاقتراح سريعاً وأعطى أوامره بتأليف وفد جديد في الحال.

ايتان يكتب للملك عبد الله.

امتدح ايتان الملك للاتفاق الذي عقده مع دايان وهركابي، واقترح عليه نقل المفاوضات من رودس إلى مكان أقرب. قال ايتان: «رودس بعيدة، تأخذ فيها المفاوضات وقتاً طويلاً. ومن الممكن توفير كثير من الوقت لو تناقشنا في مكان قريب» وأنهى ايتان رسالته بمكر شديد قائلاً: «لكم مطالبكم العادلة ولنا مطالبنا العادلة ولقد أخذنا دائماً بعين الاعتبار مطالبكم العادلة ومن الواجب أن تأخذوا مطالبنا العادلة أيضاً بعين الاعتبار».

وافق الملك على اقتراح ايتان وطلب من التل أن يتخذ الترتيبات لعقد الاجتماعات في المنطقة الحرام، في القدس؛ على أن يتم أول اجتماع في ليل ٢٢ ـ ١٩٤٩/٣/٢٣، الساعة الثامنة مساء.

مؤتمر الطاولة المستديرة

تألف **الوفد الأردني**: إلى المفاوضات من:

فلاح المدادحة

حسين سرّاج

عبد الله التل ــ مستشاراً

(صلاحية مطلقة)

وتألف **الوفد الإسرائيلي** من

والتر ايتان؛ البريغادير يادين؛ كولونيل دايان؛ ميجر هركابي.

وافتتح مدادحة الاجتماع بقوله: «أرسلنا صاحب الجلالة، الملك عبد الله، كي نناقش مسألة المثلث. وإن جلالة الملك قد وافق مبدئياً على مطالبكم بالتبادل فإذا اتفقنا على هذه المسألة، وقعنا اتفاقية هدنة نهائية».

ووضع الوفد اليهودي خريطة على الطاولة تحتوي على ما يلي:

(أ) خط أحمر يدل على الحدود الجديدة التي تحل محل الحدود القديمة بين اليهود والجيش العراقي.

(ب) دُفعت الحدود في بعض الأمكنة مسافة خمسة عشر كيلومتراً إلى الوراء لمصلحتهم.

(ج) ورسم خط يمتد من وادي الأردن موازياً لطوباس وجنين وطولكرم وقلقيلية، وهو تعديل يعطي اليهود زيادة عشرة كيلومترات في عمق الأرض العربية.

طلب التل، بصفته مستشار الوفد الأردني، من المداحة السماح له بالجواب على التعديلات اليهودية.

قال التل: مطالبكم هذه خيالية. إنكم تحلمون. إن أمر مهمتنا لا يسمح لنا بمناقشة هذا القدر من التعديلات. فإذا كنتم تلحون عليها، سوف أشير على الوفد بإنهاء المفاوضات».

عندئذ تكلّم المداحة فقال:

«لا تعاندوا كثيراً، فنحن أكثر مرونة من بقية البلدان العربية. إننا جيران طيبون».

عندئذ خط يادين خطاً آخر، غير أن التلّ قال إن هذا الخط هو أيضاً وهمي.

قال المداحة: «أعطونا الحدّ الأدنى لما تطلبون». عندها خط خطاً آخر أعطى اليهود المثلث الذي يحتلونه الآن.

لقد جعلت الطريقة التي سارت عليها المفاوضات في مؤتمر الطاولة المستديرة الناس يشكون بمعرفة المفاوضين أن ميلمتراً على الخارطة يعني مئات، بل آلاف الأمتار أو الكيلومترات المربعة على الأرض. لأن أكثر من ٣٠٠٠٠٠ دونم من أخصب الأراضي أعطاها أناس لا يملكونها، لأناس لا حق لهم فيها. ولقد قيل، رغم ذلك، أن غلوب باشا سرّ حين طالب اليهود باحتلال المثلث فقط وقال أنه سعيد لأنهم لم يطالبوا باحتلال جنين ونابلس أيضاً!

التل يضع العراقيل في الطريق

عندما طلب يادين من المداحة أن يوقع على آخر خط أحمر، تدخل التلّ فقال إن الوفد أرسل وهو يحمل وجهات نظر مختلفة. أضاف: «على كل حال؛ نحن لنا أيضاً مطالب مقابلة نريد تقديمها».

فسأله يادين: «ما هي طلباتكم؟»

١ ــ أن تعيدوا اللد والرملة.

٢ ــ أن تنسحبوا إلى وراء خط بيت جبرين واسدود.

٣ ــ فتح الطريق بين الخليل وبيرالسبع وغزّة.

وظهر، مما انعكس على وجوه الوفد الاسرائيلي التي اصفرّت، أن طلبات التل هي أيضاً كانت خيالية. واستمرت المناقشة حتى الواحدة بعد الظهر وانتهت بأن قرر الوفدان أن يستشير كل منهما حكومته حول مطالب الفريق الآخر.

الملك عبدالله يقضي ليلة قلقة

في الصباح التالي، كلم الملك عبدالله، وهو في غاية القلق، هاتفياً المدادحة الذي قال: «آسف يا مولاي، أن أنبئكم أن المفاوضات فشلت لأسباب هامة أشرحها لجلالتكم عندما آتي إلى الشونة».

ثم قال المدادحة لزملائه: «الملك غضبٌ جدّاً من فشل المحادثات. سوف أذهب للشونة لتبرير موقفي».

الملك والحكومة يجتمعان في الشونة، بحضور غلوب

وصل الوفد إلى الشونة في الساعة التاسعة من صباح الثالث والعشرين من آذار (مارس) سنة ١٩٤٩. كان الملك غاضباً قلقاً، يروح ويجيء في الصالة. فحيّاه الوفد بتقبيل يده. (والشعب كله في الأردن يقبل يد الملك بمن فيهم أعضاء الوزارة وغلوب باشا نفسه).

حضر الاجتماع الذي ترأسه جلالة الملك كل من: سعيد المفتي، نائب رئيس الوزراء؛ محمد الشنقيطي وزير التربية؛ وغلوب باشا، القائد العام للجيش العربي؛ الدكتور شوكت الساطي، مستشار الملك؛ فلاح المدادحة، رئيس الوفد الأردني إلى مفاوضات رودس؛ حسين سرّاج، عضو الوفد؛ عبدالله التل، مستشار الوفد؛ بيريغوردان (Perigordan)، القائم بالأعمال البريطاني وستيبلر (Stibler)، القائم بالأعمال الأميركي.

طلب الملك من المدادحة أن يشرح للحاضرين لماذا فشلت المفاوضات فقال: «طلبوا يا سيدنا، مساحات واسعة من الأرض ورفضنا القبول بها خوفاً من اعتراض جلالتكم. كما أن الرائد التل نصح بعدم قبول طلباتهم».

وقبل أن يستطيع التل الشرح قال الملك:

«أنتم تعرفون أن العرب تخلّوا عنّا وأننا أصبحنا وحدنا نواجه اليهود. وأنتم تعرفون أيضاً أن جيشنا صغير وأنه تألف من أجل الدفاع عن حدودنا لا من أجل احتلال فلسطين وقد امتلأت يهوداً ممن أتى بهم الانكليز. إننا لا نستطيع الاعتماد على الجيش العراقي. لقد تخلوا عنا، ومن الممكن أن ينسحبوا في أي وقت، لأسباب داخلية وهي أهم عند الحكومة العراقية من فلسطين. ولقد وعدنا العراقيين أن نحل محلهم إذا انسحبوا. المصريون والسوريون واللبنانيون أوقفوا القتال ولا نستطيع أن نعتمد عليهم بعد الآن. وعليه، فإننا إذا قاتلنا، نفقد أكثر مما نفقد في استجابتنا لمطالبهم؛ وعندئذ سوف تفقدونني أنا أيضاً ولن تجدوا رجلاً مثلي».

فأجابوا جميعاً: «نحن جميعاً تحت أمر سيدنا، وسوف نوافق على ما تقولون».

وخرق التل الصمت عندئذ قائلاً:

«لقد طلب اليهود، يا سيدنا، تعديلات في الحدود من السعة بحيث لا نستطيع قبولها، وخاصة، لأنهم رفضوا قبول مطالبنا عوضاً عنها». واستمر التل: «إن الضباط البريطانيين هم الذين قادوا القتال مع اليهود، لا جلالتكم، ووقعنا في المأزق بسبب قيادتهم السيئة. ولقد أرسل اليهود رئيس أركانهم لمفاوضات رودس كي يرأس وفدهم وأعتقد أن غلوب باشا، أو على الأقل، الكولونيل لاش، يجب أن يرئس وفدنا فيها. فإذا تم ذلك يا سيدنا، فإن البريطانيين هم الذين يتحملون المسؤولية، لاجلالتكم».

كان كلام الرائد التل جدّ صريحاً، وخاصة إذا اعتبرنا أن غلوب باشا كان حاضراً الاجتماع؛ غير أنه كلام واقعي، ولو أنه كان مُرْبِكاً للملك وللحضور. لكنه لم يظهر غضبه.

سأل الملك، قائلاً: «ماذا تقول في الأمر يا غلوب باشا؟ مَنْ مِنْ ضُباطك يجب أن يكون في الوفد؟ وهل بوسعك رفض المطالب اليهودية؟»

أجاب غلوب باشا: «تعلمون، يا سيدنا، أن إمكاناتنا العسكرية ضئيلة وأن الحكومة البريطانية لم تعطنا الذخائر، ونحن الآن وحدنا في المعركة. وعلى ذلك، لا نستطيع قتال اليهود بعد أن جلبوا الأسلحة من تشيكوسلوفاكيا وأمكنة أخرى وبعد أن جمعوا كل قوتهم. أنا أريد، إذا لم يشأ عبدالله بك حضور المفاوضات، أن أرسل رئيس الأركان عضواً في الوفد. أمّا أنا، فآسف، لعدم استطاعتي الحضور، لأني لا أريد أن أرى وجوه اليهود».

وسأل الملك عندئذ غلوب باشا: «لماذا يريد اليهود أن يستغلونا عندما نريد أن نعقد الصلح معهم؟»

أجاب غلوب باشا: «إنهم في غاية الجشع، يا سيدنا. يريدون زيادة من الأرض مهما كان الثمن. إنهم يريدون توسيع دولتهم في اللطرون فهي لا تتجاوز العشرة كيلومترات في تلك المنطقة».

التفت الملك، حائراً، إلى ستيبلر، القائم بالأعمال الأميركي، موجهاً اللوم والنقد للولايات المتحدة لمساعدة إسرائيل، ثم سأله ماذا يفعل بالمثلث الذي تحرسه الآن القوات العراقية.

أجاب ستيبلر: «لا أستطيع، يا سيدنا، أن أجيب رسمياً على سؤالكم، لكنني أعرف أن حكومتي طلبت من ممثلها في تل ــ أبيب أن يحلّ الجيش الأردني مكان الجيش العراقي». وطلب مهلة ٤٨ ساعة ليتصل بحكومته وكذلك فعل بيريغوردان، القائم بالأعمال البريطاني،

الذي قال انه بحاجة لمثل هذا الوقت كي يتصل بحكومته. غير أن الملك، قرر في الحال، استدعاء اليهود إلى الشونة للاتفاق معهم.

وبعد لظهر، تكلم الملك مع القدس لترتيب مجيء الوفد اليهودي إلى الشونة في تلك الليلة.

الاجتماع الحاسم في الشونة

تم عقد الاجتماع ليل ٢٣ ـ آذار (مارس) ١٩٤٩ بحضور: الملك عبدالله؛ سعيد المفتي، نائب رئيس الوزراء الأردني؛ محمد الشنقيطي وزير التربية؛ فلاح مدادحة، وزير العدلية؛ حسين سرّاج، الرائد كوكر والملازم عبد الرحمن رصاص، ممثلين عن الجيش؛ الدكتور الساطي، مستشار الملك؛ وهاشم دباس، عن الجانب الأردني دون أن يدعى عبد الله التل لحضور الاجتماع. وحضر عن الجانب اليهودي كل من: والتر ايتان؛ يادين؛ دايان وهركابي.

تناول الجميع طعام العشاء، وبعده بدأت المباحثات.

قال الملك: «الغرب ضدنا، لم يعطنا سلاحاً. ونحن لم نكن ننوي قتال اليهود، لكنهم أجبرونا لقتالهم. أنا لست جباناً وأريد أن أتحمل المسؤولية وأنهي المشكلة بإيجاد حلّ لها. تلك هي نيتي وأنتم تعرفون صراحتي». وأنهى الملك كلمته بالطلب إلى اليهود أن يكونوا ليّنين.

أجاب إيتان على كلمة الملك بالقول: «إذا كان على اليهود أن يعيشوا بسلام مع العرب، فمن الضروري أن يوافق العرب على التبّدلات التي أحدثناها في المثلث. تلك هي قاعدة التفاهم بيننا وإذا لم يكن كلامنا مقبولاً، دعونا نقاتل العراقيين من أجله».

دعا الملك إلى التنازلات فطالب بأن تبقى قرى الطيبة، وأم الفحم، وباقة الغربية في الجزء العربي، خارج المثلث. ومن ثم انسحب من الاجتماع واعداً بأنه لن ينام قبل أن ينتهي الاجتماع بنجاح.

موافقة الوفد الأردني على كل التعديلات

وفي الثالثة صباحاً وُقّع الاتفاق والخرائط التابعة له. على أن يتم احتلال المثلث ــ كل المثلث ــ على ثلاث مراحل. فتتم المرحلة الأولى بعد خمسة أسابيع من توقيع اتفاقية الهدنة العامة؛ والمرحلة الثانية بعد ذلك بسبعة أسابيع؛ والثالثة بعد خمسة عشر أسبوعاً من توقيع اتفاقية الهدنة. ويحل الجيش الأردني، خلال تلك الفترة، محل الجيش العراقي، كي يكون في وضع يمكنه من تسليم المثلث إلى اليهود.

لماذا لم يتمّ التبادل؟

كان يحوي هذا الاتفاق الذي وقع في الساعة الثالثة من صباح الرابع والعشرين من آذار (مارس) سنة ١٩٤٩، بنداً هامّاً جداً، لم ينفذ أبداً. فقد وعد فيه اليهود أنهم يبادلون المثلث بمساحة مساوية له من الأرض التي يملكها اليهود وبالخصُوبة نفسها. ولو أنهم وفوا بهذا الشرط، لهانت الكارثة وعوضت الصفقة. وكان يجب تحديد التبادل على الخرائط وزمن تنفيذها قبل توقيع الاتفاق.

فرح الملك عبدالله

كان الملك عبدالله في تلك الليلة في غاية الفرح. وحين خرج، رأى التل، الذي كان خارج غرفة الاجتماع، فقال له: «لماذا لم تشترك؟ ألا تريد أن تتحمل المسؤولية؟ أنا، أوافق معك. لقد تحملت المسؤولية!»

كان هذا الكلام يدل على أن الملك كان قلقاً وقد زاد قلقه حين علم أنّ مكان التبادل الذي وعد به اليهود لم يحدد ولم يعين وقت للتنفيذ. وعلى كل حال ما كان ليصبح هذا الاتفاق نافذاً إلا بعد التصديق عليه من الحكومة الأردنية.

الملك عبدالله يدعو لمؤتمر كبير للدفاع عن اتفاق المثلث

الذي لا شكّ فيه أن تسليم المثلث لليهود سبب للملك عبدالله ليالٍ عديدة من الأرق. كان خائفاً من النتائج ولا عزاء لديه إلاّ أن يشرح لأكبر عدد من الناس أنه لم يكن بيده غير هذا الخيار. وعقد مؤتمراً موسعاً ليدافع عن اتفاق المثلث، وحضر الاجتماع كل من:

توفيق أبو الهدى:	رئيس الوزراء
فوزي الملقي:	وزير الدفاع
محمد الشنقيطي:	وزير التربية
فلاح مدادحة:	وزير العدلية
سليمان سكر:	وزير المالية
نجيب شريدان:	وزير النقل
حمد الفرحان:	نيابة عن العسكريين
شوكت الساطي:	طبيب الملك
غلوب باشا وكوكر:	سكرتير الحكومة

وعبدالله التل: حاكم القدس العسكري.

جرب الملك أن يشرح للمؤتمر لماذا تم توقيع اتفاق المثلث، فذكر الأسباب التالية:

١ ــ جيشنا ضعيف.

٢ ــ لا نستطيع الاعتماد على الغرباء، كالانكليز مثلاً. أحالنا الانكليز على الرئيس ترومان الذي طلب إلينا ألا نقاتل اليهود ووعدنا بأن يوقف أي عدوان يهودي جديد.

٣ ــ يقول، قائدنا العام، (كالعادة): أن جيشنا ضعيف ولا نستطيع القتال.

٤ ــ رئيس وزرائنا، توفيق أبو الهدى يقول: اننا لا نستطيع الاعتماد على الأجانب واننا لا نستطيع القتال.

توفيق أبو الهدى ينتقد تحيّز الانكليز

قال رئيس الوزراء: «طلبنا من الجيش الانكليزي أن يذهب إلى النقب ليمنع القوات اليهودية من الوصول إلى العقبة؛ ذهبوا، غير أنهم لم يمنعوا العدوّ من احتلال العقبة. لماذا؟ لأن الولايات المتحدة، ولأن دول الكومنولث، ضدّ قتال اليهود، وما استطعنا أن نفعل شيئاً».

لم يشارك غلوب باشا في المناقشة الطويلة التي دارت حول هذا الموضوع. وهو الذي لم يسمح للجيش الأردني بمنع اليهود من الوصول إلى العقبة.

نتيجة المؤتمر

وافق المؤتمرون على «اتفاق المثلث» الذي وقعه الوفدان العربي واليهودي، على أن يبقى الأمر سرّاً. وعلى أن تتضمنه اتفاقية الهدنة الدائمة التي تعقد فيما بعد في رودس ويظهر وكأنه جرى التفاوض عليه في رودس وليس في الشونة.

كما قرر المؤتمر دعوة رئيس الوفد الأردني في رودس ورئيس الوفد الاسرائيلي فيها لحضور اجتماع يعقد في الثلاثين من آذار (مارس) في الشونة، شبيه بالذي عقد ليل ٢٣ ــ ٢٤ آذار (مارس) ١٩٤٩ حتى يبدو أن الوفدين قد اشتركا فيه.

حين انفضّ المؤتمر، بدا الملك عبدالله راضياً عن نتائجه، مرتاحاً لها.

الفصل الثامن والخمسون

الكذب والغش ميزة صهيونية

كان الصهيونيون يخططون، قبل المفاوضات بشأن المثلث مع الملك عبد الله، بزمن طويل، للهجوم على الجيش العراقي في المثلث واحتلاله، بحجة الدفاع عن النفس. ولهذا وزع اليهود نشرة في الخامس من آذار (مارس) ١٩٤٩، زعموا فيها أن القوات العراقية في المثلث تقوم بهجمات على المستعمرات اليهودية المجاورة. وأتبعوها ببرقية للدكتور بانش، نائب الوسيط، ينذرونه فيها، بأنهم لن يصبروا طويلاً على مثل هذا العدوان. والحق انه لم يكن في هذه الادعاءات كلها شيء من الصدق. ومع ذلك، لم تتوقف الأمور عند هذا الحد.

وفي الرابع عشر من آذار (مارس) ١٩٤٩، وزعوا نشرة ثانية تزعم بحدوث اعتداءات أخرى، عززوها هذه المرة بمعركة صحافية تتنبأ بعمل عسكري تقوم به القوات اليهودية لأن القوات العراقية التي في المثلث، جعلت الوضع في المستعمرات اليهودية لا يطاق.

وفي السادس عشر من آذار (مارس) سنة ١٩٤٩ تلقى الدكتور بانش شكوى من المستر شرتوك، وزير خارجية إسرائيل، يتهم فيها القوات العراقية في المثلث بالقيام بهجمات على المستعمرات اليهودية المجاورة، مما جعل الدكتور بانش يطلب إلى الجنرال رايلي إرسال عدد أكبر من المراقبين إلى المثلث.

العراق يطلب من الأردن، متأخراً، أن يحل محله في المثلث

عندما وصلت المفاوضات بين الملك عبد الله والإسرائيليين حول المثلث إلى درجة دقيقة، أرسلت الحكومة العراقية، دون سابق إنذار، برقية إلى نائب الوسيط تنبئه فيها أن الأردن سوف يتكلم باسم العراق في مفاوضات رودس. والسبب أن الحكومة العراقية، خوفاً من هجوم إسرائيلي على المثلث، عزمت على الانسحاب لأنها تعرف أنه لو حصل هذا الهجوم، لما خف الجيش الأردني لمساعدة العراقيين، تمشياً مع سياسة غلوب.

في السادس والعشرين من آذار (مارس) ١٩٤٩، أرسلت الحكومة العراقية نور الدين محمود، وجميل الراوي، ممثلها في عمّان إلى الشونة، كي ينبيء الملك أن الحكومة العراقية قررت سحب قواتها من المثلث وأنه يجب أن تحل محلها القوات الأردنية. كانت تلك مفاجأة

للملك وللحكومة الأردنية معاً.

الاجتماع النهائي حول المثلث

كان قد تقرر في اجتماع ٣ آذار (مارس) ١٩٤٩، دعوة رئيسي الوفدين العربي واليهودي في رودس إلى الشونة من أجل أن تظهر مفاوضات المثلث وكأنها تمت في رودس. ولذلك عقد اجتماع في ٣٠ آذار (مارس) ١٩٤٩ لهذا الغرض.

حضر اجتماع ٣٠ آذار (مارس) المذكور كل الذين حضروا اجتماع ٢٣ ــ ٢٤ آذار (مارس) ١٩٤٩، يضاف إليهم رئيس وزراء الأردن، توفيق أبو الهدى، ورئيس الوفد الأردني في رودس؛ العقيد أحمد صدقي الجندي، ونائبه علي أبو نوّار، وروبين شيلوح، رئيس الوفد اليهودي في رودس.

بدأ الاجتماع بعد العشاء مباشرة. وافتتحه الملك، بأن أعطى الكلمة لرئيس الوزراء، توفيق أبو الهدى.

قال رئيس الوزراء، بعد الترحيب بالوفد اليهودي: «كانت مدينة القدس سبب الحرب بيننا. وما كنا لنختلف لولا القدس. سياستنا تقضي بألا نقاتلكم على أية أرض تمنحكم إياها الأمم المتحدة. وما كنا لنقاتلكم لولا القدس. ونحن نريد، صادقين، توقيع اتفاقية سلام دائم معكم، وإذا كانت نيتكم للمستقبل كنيتنا، أقمنا علاقات جوار طيبة بين بلدينا».



توفيق أبو الهدى، رئيس وزراء مملكة شرق الاردن

واستمر رئيس الوزراء الأردني يقول: «أنتم تطلبون اتفاقية هدنة دائمة وتبديل الحدود، فلماذا لا ننفذ مشروع تقسيم الأمم المتحدة، على أن يعترف بضم فلسطين العربية إلى الأردن ونتجنب الشغب؟ وبما أن فوزي الملقي، وفلاح المدادحة، وأحمد صدقي الجندي، ومحمد فرحان والرائد كوكر هنا، لماذا لا تتفاوضون طيلة الليل. إننا نأمل أن تصلوا إلى اتفاق؛ وبما أن الخلاف هو تقني، فلا حاجة لحضوري، ومفهوم أن هذا الاتفاق هو اتفاق رودس لأن رئيسي الوفدين، هنا.

أراد إيتان الإجابة، لكنه قبل أن

يؤذن له، تدخل الملك قائلاً: «أريد أن أؤيد كل ما قاله رئيس الوزراء. ولنا مصالح مشتركة، ونحن شئنا أم أبينا، جيران، لكنني أرجوكم ألاّ تضعوني أنا وحكومتي في موقف حرج».

أجاب ايتان بالقول:

«شكراً لكم على ضيافتكم الماضية والحاضرة. ليس الحديث عن الماضي مجدياً. دعونا نناقش الموضوع. المثلث هو حديث الرأي العام اليهودي. إن سلطتنا العسكرية ترى أن المثلث ضروري جدّاً لسلامة إسرائيل، ولهذا لن نتوقف عن المطالبة به. ولن نتراجع ذرة واحدة عن هذه النقطة. إذا وافقتم على طلبنا في المثلث وقعنا اتفاقاً هذه الليلة».

هل من الممكن أن نتوقع جواباً من هؤلاء الإرهابيين أقل وقاحة وعدواناً، على مطالب الملك ورئيس وزرائه، هؤلاء الذين قاموا بمذبحة دير ياسين، ونسفوا فندق الملك داوود وفندق سميراميس، واغتالوا اللورد موين والكونت برنادوت ومئات الآخرين؟

دفعت كلمة إيتان بالملك إلى النهوض من مقعده والطلب إلى المندوبين بالدخول إلى قاعة المؤتمر. وكانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف، بينما بقي هو ورئيس وزرائه ينتظران في الصالة.

جرّب فوزي الملقي وفلاح المدادحة، المستحيل كي يعدّل اليهود مخططهم بإخراج قرية أو قريتين أو قطعة من الأرض هنا أو هناك ولكن عبثاً. ثم غادر رئيس الوزراء الشونة في الساعة الواحدة ليلاً. وظل الملك ساهراً يقوم بين الحين والآخر بزيارة غرفة المؤتمر مشجعاً الفريقين على الاستمرار بالمفاوضات.

وفي الساعة الرابعة صباحاً جرى التوقيع على اتفاق قد ربح اليهود بموجبه كل المثلث. ووقع عن الجانب الأردني: فوزي الملقي، فلاح المدادحة، أحمد صدقي الجندي؛ علي أبو نوار والرائد كوكر. أما لماذا هؤلاء المسؤولون لم يحددوا الأرض البديلة وزمن التنفيذ قبل التوقيع على الاتفاق، لاأعلم. والحقيقة أنهم هم المسؤولون عن هذا الاهمال الخطير وليس الملك وأخيراً ذهب الزوار يحملون نسخة موقعة تمنحهم مئات ألوف الدنمات من الأرض التي كان يملكها عرب فلسطينيون دون أن يأخذوا عنها بديلاً. ورجع أحمد صدقي الجندي وعلي أبو نوار إلى رودس يحملان معهما «اتفاق الشونة» كي يضم إلى اتفاقية الهدنة الدائمة التي ستعقد فيما بعد.

الخسائر الناجمة عن فقدان المثلث

١ ــ خسارة أكثر من ٣٠٠٠٠٠ دونم من أخصب الأراضي، فيها عدة قرى عربية أضيفت إلى الدولة اليهودية.

٢ ـ يقضي الاتفاق، بأن يعطى القرويـون بعض الحمايـة وأن يبقوا في قـراهم ويعيشوا على أرضهم؛ لكن هذه المادة لم تنفذ وطرد العرب من المثلث نهائياً وغدوا لاجئين.

٣ ـ انتزعت ملكية كل سكان المدن في المنطقة العربية، الذين كانوا يملكون أراضٍ في المثلث ومنعوا من الوصول إلى ممتلكاتهم، ولم يعوّضوا، لأنهم عُدوا من الغائبين، تماماً مثل اللاجئين الذين فرّوا من بيوتهم خوفاً من الموت في مذابح الصهيونيين. كان صديقي راضي النابلسي، يملك ٥٠٠ دونم من بيارات البرتقال في المثلث، فمنع من الوصول إلى بياراته حالما استولى اليهود على المثلث ولم ير راضي بعدها بياراته لأنه مات في الأربعين من عمره بعد سنتين من ذلك، بنوبة قلبية.

وفيما كان اليهود يناقشون مسألة المثلث مع الحكومة الأردنية، كانوا في الوقت نفسه يفاوضون الحكومة اللبنانية لعقد اتفاقية هدنة دائمة،وقعت في ٢٣ آذار (مارس) ١٩٤٩.

الفصل التاسع والخمسون

اتفاقات الهدنة العمومية
بين
اسرائيل وبين: لبنان والأردن وسوريا

اتفاقية الهدنة العامة بين لبنان وإسرائيل:

كانت هذه، هي الهدنة الدائمة الثانية التي وقعت بين العرب واليهود، بعد الأولى التي كانت قد وقعت بين مصر وإسرائيل. وقد أصيب الشعب العربي، وخاصة الفلسطينيين، بخيبة أمل كبرى من هذه الاتفاقات المخجلة، وبالأخص اتفاقية مصر وإسرائيل. أما عن لبنان فإن الفلسطينيين منذ البدء لم ينتظروا عوناً كبيراً من لبنـان لأن جيش لبنان، لا تمكنه قوته من الدفاع عن حدوده فكيف بالهجوم.

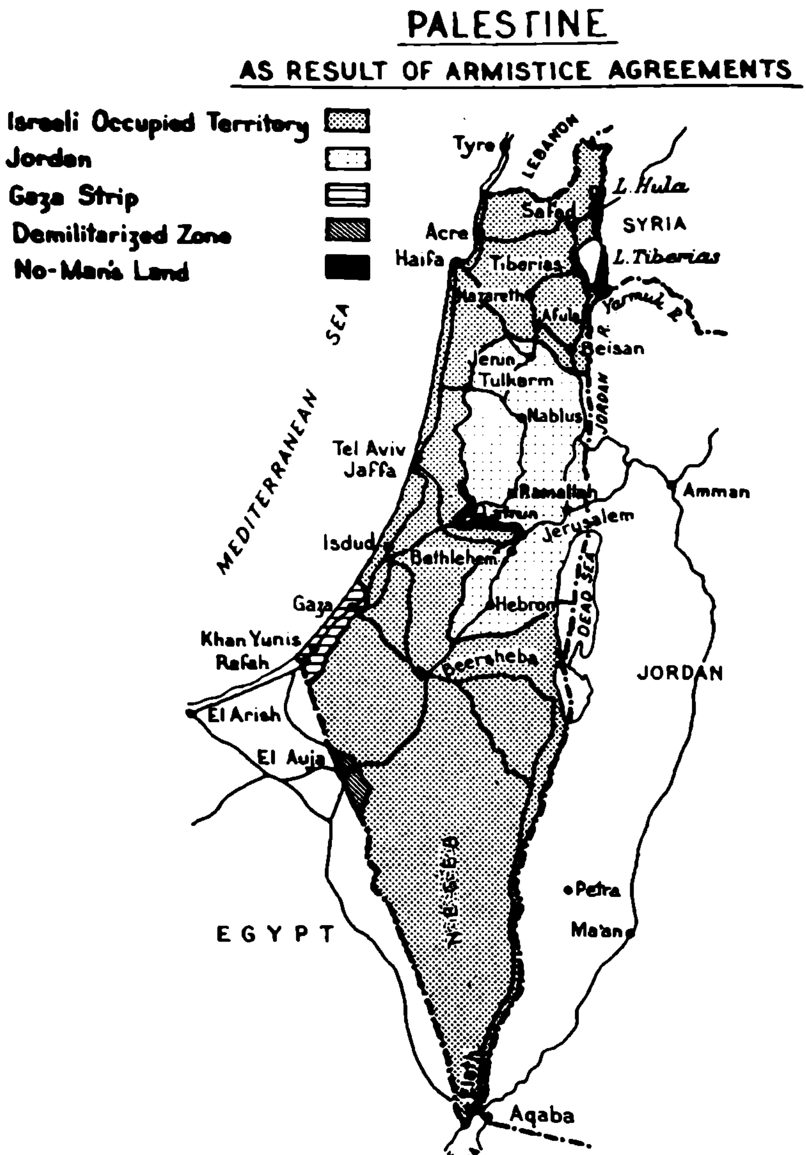
عقدت اتفاقية الهدنة الدائمة بين لبنان وإسرائيـل على أسس الاتفـاقية المصـرية الاسرائيلية نفسها، ووقعت بحضور الدكتور رالف بانش، نائب الوسيط للأمم المتحدة، ورئيس هيئة منظمة مراقبة الهدنة التابعة للأمم المتحدة، في ٢٣ آذار (مارس) ١٩٤٩ في رأس الناقورة من قبل:

نيابة عن الحكومة اللبنانية	نيابة عن حكومة اسرائيل
المقدم توفيق سالم	المقدم موردخاي ماكليف
الرائد حرب	ينوشوا بلمان
	شبتاي روزين

اتفاقية الهدنة الدائمة بين الأردن وإسرائيل:

عندما وصل رئيسا الوفدين الأردني والاسرائيلي إلى رودس أطلعا الدكتور بانش على اتفاق الشونة. وكان سهلاً ضمّه إلى اتفاقية الهدنة الدائمة التي وقعت في الثالث من نيسان (أبريل) ١٩٤٩.

كانت هذه الاتفاقية تحوي مثل الأخريات، مقدمة و١٢ بنداً. وقد ألحقت بها خريطة تظهر المناطق العربية والمناطق اليهودية في فلسطين. يتبين من إلقاء نظرة عليها، أن اليهود يسيطرون، بموجب الاتفاقية، على ٧٠ في المئة من أراضي فلسطين.



خارطة فلسطين بعد اتفاقات الهدنة

وقعت الاتفاقية في رودس، في اليونان، في الثالث من نيسان (أبريل) ١٩٤٩، بحضور نائب وسيط الأمم المتحدة ورئيس هيئة منظمة مراقبة الهدنة، ووقعها:

نيابة عن حكومة المملكة الأردنية	نيابة عن حكومة اسرائيل
العقيد: أحمد صدقي الجندي	روفين شيلوح
المقدم: محمد معايطة	المقدم: موشى دايان

لجنة الهدنة الأردنية ـ الاسرائيلية المشتركة

في العاشر من نيسان (أبريل ١٩٤٩، كتب إيتان إلى الملك عبدالله يطلب إليه، عملاً بالبند الثامن من اتفاقية الهدنة الدائمة، تعيين الأعضاء الأردنيين في لجنة الهدنة الأردنية ـ الاسرائيلية المشتركة، التي ستشرف على تطبيق الاتفاقية وتنظر في المسائل المعلقة. وكان من أعضائها: موشي دايان والدكتور ابراهيم برغمان، الاسرائيليان. ويرئس اجتماعاتها أحد مراقبي الأمم المتحدة.

عين الملك، العقيد أحمد صدقي الجندي، وعلي أبونوّار، في لجنة الهدنة المشتركة. وهكذا، أُنشئت لجان هدنة مشتركة مشابهة بين إسرائيل من جهة، وسوريا ولبنان ومصر، من جهة أخرى.

تخطيط الحدود نهائياً

اجتمعت لجنة الهدنة المشتركة في أيار (مايو) ١٩٤٩، في بوابة مندلبوم، وحضر الاجتماع مراقب الأمم المتحدة النقيب، دي موز (De Mouz) فقدّم دايان خريطة مزيفة ذات حدود مزيفة وضعت فيها قريتا القبو وبتير العربيتان، في المنطقة الحرام. ولم يلحّ الممثلون الأردنيون على جلب الخريطة الأصلية من رودس فقبلوا بخريطة دايان المزيفة، وبدأوا يخططون حدوداً جديدة تبعاً لها. وهذا الإهمال الذي لايغتفر، أعطى لليهود أراضٍ عربية ما ملكوها من قبل أبداً، ولا قاتلوا من أجلها أو دفعوا رجالاً أو مادة ثمناً لها. كما قسمت تلك الحدود بعض القرى إلى نصفين وفصلت كثيراً من القرى عن أراضيها الزراعية والمثال على ذلك قرية، بيت صفافاً، الواقعة على بُعد سبعة كيلومترات إلى جنوب القدس الغربي، فقد قسّمت هذه القرية إلى نصفين بأسلاك شائكة، جعلت نصفها الغربي في إسرائيل، ونصفها الشرقي في الأردن، مع أنه ما عاش ولم يعش أي يهودي في القسم الاسرائيلي من القرية. وبهذه الطريقة، انفصلت العائلة العربية الواحدة فكانت مواكب أهل القرية في الأعراس، والمآتم، تسير من جهتي السياج، كما مرّ معنا.

أما في قرية بتير، فقد فصلت الحدود الجديدة القرية عن أرضها الزراعية وسمح اليهود

لسكانها بادىء الأمر، بحراثة أرضهم التي في الجانب اليهودي، ثم أوقفوا هذا الاذن بالتدريج. كان تخطيط الأرض في غاية الاجحاف؛ حيث جرى تخطيط مساحات كبيرة من الأرض بحساب المتر الواحد حتى أن مستشفى بيت صفافا الواقع في ضاحية القرية، قسم إلى نصفين!

جبل المكبر أو المساحة التي يقوم عليها مقر الحكومة

جبل المكبر، هو تل واقع في جنوب شرقي مدينة القدس يتاخم البقعة التحتى. كان مفروضاً أن يبقى تحت علم الأمم المتحدة، كما كان مفروضاً أن تتمتع القدس ومنطقة محددة حولها، بنظام خاص، تبعاً لقرار الأمم المتحدة الصادر في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧، وأن يديرها مجلس الوصاية في الأمم المتحدة. ولم يعترض اليهود على وضع القدس الدولي في الجمعية العمومية، كي تتم الموافقة على قرار التقسيم الذي رفضه العرب، وقبلوا بشأنها حينئذٍ الأمر الواقع. ولكن، حالما تبنت الجمعية العمومية قرار التقسيم، أسرعوا إلى المطالبة بالقدس، كل القدس، عاصمة لهم، مدّعين أن لا دولة صهيونية، دون صهيون. وهكذا، لم تستطع الأمم المتحدة تنفيذ قرارها بشأن القدس، فعملت على تقسيمها بين العرب واليهود.

وفي حين تقسيم جبل المكبر، اجتمعت لجنة الهدنة المشتركة دون مراقب من الأمم المتحدة، مما جعل الاجتماع غير قانوني. ولكن في الاجتماع الذي عقد في اليوم الثالث والعشرين من نيسان (أبريل) سنة ١٩٤٩. كان الأعضاء العرب من الضعف، بحيث سمحوا لليهود بإدخال الكلية العربية في منطقتهم وأيضاً مدرسة الزراعة اليهودية، وما تركوا إلا جزءًا عربيّاً صغيراً، تاركين مقرّ الحكومة وحده، تحت علم الأمم المتحدة.

ولما وصلت نتائج التقسيم إلى الملك عبد الله ورئيس وزرائه، اعترضا عليه، فعقدت لجنة الهدنة المشتركة اجتماعاً آخر في الخامس والعشرين من نيسان (أبريل) ١٩٤٩، حضره مراقب عن الأمم المتحدة: دي موز، والرائد عبدالله التل. وتأجل البت، لأن الموضوع بكامله يتطلب دراسة أكثر.

وحين ذاع خبر جبل المكبر وفقدان بعض القرى العربية في جنوب القدس لمصلحة اليهود، مثل صورباهر والولجة وجزء من بتّير، فجعت القدس وخلق فيها شعور ضدّ الحكومة، وصل إلى حدّ الغليان. وخشي الملك من الانفجار، فطلب إلى الحكومة الاستقالة، وبدأ يدرس تشكيل حكومة جديدة أقدر على تهدئة الشعب.

الملك عبدالله يشكل حكومة جديدة:

توفيق ابو الهدى	رئيساً للوزراء
سعيد المفتي	وزيراً للداخلية
محمد الشنقيطي	وزيراً للتربية ورئيساً للقضاء
روحي عبد الهادي (فلسطيني)	وزيراً للخارجية
فلاح المدادحة	وزيراً للعدلية
فوزي الملقي	وزيراً للدفاع
سليمان سكر	وزيراً للمالية
خلوصي الخيري (فلسطيني)	وزيراً للتجارة
موسى ناصر (فلسطيني)	وزيراً للنقل

ولقد اعتقد الملك أن تعيين ثلاثة وزراء فلسطينيين في وزارته، يهدىء الفلسطينيين، لكن شيئاً من هذا لم يحصل.

اتفاقية الهدنة الدائمة بين سوريا واسرائيل

كانت اتفاقية الهدنة الدائمة بين سوريا وإسرائيل هي الرابعة والأخيرة بين إسرائيل والبلدان العربية المجاورة لها. وقد وضعت على قواعد الاتفاقيات الأخرى نفسها، مع بعض الاستثناءات الخاصة بها. فقد أعيدت مستعمرة مشمار هاياردين، التي احتلها السوريون خلال الحرب إلى اليهود، دون تعويض؛ فيما بقيت مزرعة الخوري ومساحتها ١٠٠٠ فدان الواقعة على الجزء الشمالي من نهر الأردن وبحيرة الحولة،* بيد أصحابها (أبو أسعد وأبو سعيد، الخ...) بعد توقيع اتفاقية الهدنة، ثم أجبرتهم القوات اليهودية، فيما بعد، على مغادرتها واللجوء إلى لبنان.

وقعت اتفاقية الهدنة الدائمة على التلة ٢٣٢ قرب ماناحاييم في ٢٠ تموز (يوليو) ١٩٤٩، بحضور ممثل الأمم المتحدة، نائب الوسيط ورئيس هيئة منظمة الاشراف التابعة للأمم المتحدة وقد وقعها:

نيابة عن الحكومة الاسرائيلية،	ونيابة عن الحكومة السورية،
المقدم موردخاي ماركيف	العقيد فوزي سِلّو
ينوشوا بلمان	والمقدم محمد ناصر
شبتاي روزين	والنقيب عفيف بزري

الفصل الستون

إسرائيل تطلب الانضمام إلى الأمم المتحدة
مفاوضات إسرائيل مع لجنة التوفيق الفلسطينية، للغش فقط
بالخداع، نالت إسرائيل عضوية الأمم المتحدة

شرحنا في الفصول السابقة أن إسرائيل أنشئت، خلافاً لكل بلدان العالم، وبصورة غير شرعية ــ بقرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة الصادر في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧. وهذا القرار الوحيد من نوعه، ما كان ممكناً أن يتخذ، لولا إكراه الرئيس هاري ترومان، رئيس الولايات المتحدة الأميركية، لعدد من الدول الأعضاء ليصوتوا معه. ولم يمنع قرار التقسيم هذا الشعب العربي الفلسطيني من تقرير مصيره فحسب، أي من مبدأ تتمتع به كل الشعوب تبعاً لميثاق الأمم المتحدة، بل أعطى لليهود الدخلاء الذين أتت بهم الحراب البريطانية، وهم ثلث السكان فقط ويملكون ٧ بالمئة فقط من الأرض، أخصب نصفي البلاد. وترك للسكان العرب الأصليين. ثلثي السكان الذين يملكون ٩٢ بالمئة من أراضي فلسطين، النصف الآخر القاحل.

ومع ذلك، وبالرغم من هذه المنحة اللاشرعية المنحازة الضخمة من قبل الأمم المتحدة، كان اليهود الدخلاء غير راضين عما قدم لهم والسبب بسيط: لأن هدف الحركة الصهيونية لم يكن نصف فلسطين فحسب وإنما «أرتز إسرائيل» أي (أرض ــ إسرائيل) الممتدة من الفرات إلى النيل. ولذلك، وبواسطة الارهاب و«المذابح المحسوبة» التي اقترفتها عصابات الهاغاناه وأرغون تسفائي ليؤمّي والشتيرن، أجبروا مئات الألوف من السكان العرب على الفرار من بيوتهم واللجوء إلى البلدان العربية المجاورة (أنظر إلى خارطة إسرائيل في الفصل السابع).

تجاه هذه الأعمال البربرية الاسرائيلية، قامت الجمعية العمومية للأمم المتحدة بإصدار بعض القرارات، ليس لتقتص من اليهود، بل لتصحيح بعض الأخطاء التي نتجت عن العدوان الصهيوني، ومن تلك القرارات:

١ ــ قرار إعادة اللاجئين الفلسطينيين العرب الذين فروا من ديارهم خوفاً من أعمال العنف الصهيوني أو لأي سبب آخر.

٢ ــ إنسحاب إسرائيل من كل الأراضي العربية التي احتلتها زيادة عن الأرض

المحـددة في مشروع التقسيم الصادر في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ (أنظر خارطة «C» في الفصل السابع).

٣ ـ التعاون مع مجلس الوصاية التابع للأمم المتحـدة في جعل مـدينة القـدس وجوارها، المعتبرة حسب خارطة الأمم المتحدة. منطقة دولية، كياناً مستقلاً يديرها مجلس الوصاية. (أنظر إلى خارطة القدس في الفصل السابع).

غير أن إسرائيل قررت أن لا تنفذ هذه القرارات لأنها جميعها تعـاكس سياستهـا التوسعية العنصرية. وبما أن تنفيذ هذه القرارات شرط لكي تقبل عضواً في الأمم المتحدة، فقد قررت إسرائيل الوصول إلى العضوية «بالاحتيال».

«الخدعة» الصهيونية

كانت إسرائيل بحاجة، كي تصبح عضواً في الأمم المتحدة، إلى توصية من مجلس الأمن للجمعية العمومية تشهد بأن إسرائيل «دولة محبة للسلام وهي قادرة على القيـام بالتزاماتها تجاه الميثاق وراغبة في ذلك، وبناء على ذلك، يوصي مجلس الأمن الجمعية العمومية بقبول عضوية إسرائيل».

ولكي تظهر للمجلس إرادتها في القيام بالتزاماتها وتنفيذ القرارات، عمدت إسرائيل إلى المبادرة بمفاوضات مع «لجنة التوفيق الفلسطينية» في لوزان (سويسرا). وبما أن لجنة التوفيق الفلسطينية هي الجهاز المختص في الأمم المتحدة لهذه الغاية، فقد تأثر المجلس فعلاً بتلك المفاوضات وهو لا يدري بأنها ليست إلاّ لخداعه فقط.

مجلس الأمن يوصي بالقبول

وفيما كانت المفاوضات تجري في لوزان، تبنى مجلس الأمن، رغبة منه بنجاحها، قراراً في الرابع من آذار (مارس) ١٩٤٩ جاء فيه:

«بما أن إسرائيل دولة محبة للسلام قادرة وراغبة على أن تقوم بالالتزامات التي نص عليها الميثاق... يوصي [مجلس الأمن] الجمعية العمومية بقبول إسرائيل في عضوية الأمم المتحدة».. ثم أرسل القرار إلى اللجنة السياسية الخاصة لتقدمه إلى الجمعية العمومية.

واستمرت إسرائيل بمفاوضاتها مع لجنة التوفيق الفلسطينية في لوزان لعلهـا تصل بخداعها إلى نهاية مثمرة. وهي تنوي إطالة المفاوضات حتى يتسم قبولها في الأمم المتحدة أو على الأقل، التأكد من قبولها.

اللجنة السياسية الخاصة تناقش قرار مجلس الأمن

قررت اللجنة السياسية الخاصة مناقشة قرار مجلس الأمن لأن أكثرية أعضاء اللجنة



بروتوكول لوزان

كانت تشك بصدق إسرائيل في تنفيذ القرارت، وقد أرادوا التأكد من تنفيذها قبل إرسال التوصية بالقبول إلى الجمعية العمومية.

المناقشة

حين تهربت إسرائيل من إعادة اللاجئين العرب إلى ديارهم، وحين تخلصت من التعاون مع مجلس الوصاية بإقامة منطقة دولية في القدس وجوارها ـ ذات كيان منفصل (Corpus Separatum) ـ أقامت إسرائيل حولها هالة من «الريب والشك» ولذلك، وبالرغم من توصية مجلس الأمن بالقبول، فإن عدة دول من الأعضاء رفضت التوصية بقبولها في الأمم المتحدة قبل تنفيذ القرارات الرئيسي؛ وقد عزز الشك وفقدان الثقة بإسرائيل عدم إلقاء القبض على قتلة الكونت برنادوت، الوسيط الدولي ومساعده سيرو، ومحاكمتهم!

بدأ السلفادور بالمناقشة

قال المستر كاسترو (Castro) ممثل السلفادور، في الثالث من أيار (مايو) ١٩٤٩ «ان وفد السلفادور ينوي التصويت لصالح قبول اسرائيل شريطة أن يوضح مندوب إسرائيل تماماً، موقفها تجاه قرار الجمعية العمومية في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧، وتدويل القدس، وقرار الحادي عشر من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٨، القاضي بعودة اللاجئين».

ثم تحدث المستر سوزا جويس (De Souza Gowes) من وفد البرازيل فقال: «نظراً لهذه الاعتبارات يجد وفد البرازيل نفسه غير قادر على اتخاذ موقف نهائي من مسألة قبول

إسرائيل، قبل أن تعطي حكومتها تأكيداً رسمياً وواضحاً عن نيتها في إنجاز حل مرض للمعضلات الباقية دون حل».

وقال الوفد الكوبي: «هكذا يجب تنفيذ قرارات الجمعية العمومية؛ أما إذا لم تنفذ، فإن العالم سوف يفقد إيمانه بقراراتها».

وأخيراً، قررت اللجنة قبول اقتراح وفد السلفادور ودعوة ممثل اسرائيلي كي يشرح موقف اسرائيل من تنفيذ تلك القرارات.

مثّل «أبا إيبان» الحكومة الاسرائيلية أمام اللجنة السياسية الخاصة في الخامس من أيار (مايو) ١٩٤٩ وظل عدة أيام يجيب على أسئلتها. كان أبا إيبان في أجوبته غامضاً، لم يتمكن أكثر الأعضاء من فهم ما كان يعني. والحق أنه كان يتهرب من الصدق ويتهرب من الصراحة في أجوبته. وتجدر مطالعة تلك المناقشة التي نجدها في سجلات الدورة الثالثة للجنة السياسية الخاصة الرسمية، فهي جد هامة. وعلى كل حال، فالمفاوضات التي كانت جارية في لوزان مع لجنة التوفيق الفلسطينية وقدرة أبا إيبان الخطابية، والضغوط السياسية التي مارستها الدول العظمى في اللجنة، ساهمت جميعها في تصويت الأكثرية بالموافقة على توصية مجلس الأمن بقبول إسرائيل في عضوية الأمم المتحدة. ومن ثم رفعت التوصية إلى الجمعية العمومية للتصديق عليها.

في الجمعية العمومية:

بما أن مفاوضات لوزان لم تكن قد انتهت بعد، ولأن الكثير من الدول الأعضاء ظل غير راض عن المناقشة التي دارت في اللجنة السياسية الخاصة، نوقشت التوصية للمرة الثالثة في الجمعية العمومية وأثيرت الاعتراضات نفسها وألح عدة أعضاء على ضرورة تنفيذ القرارات الرئيسية (كرجوع اللاجئين إلى ديارهم) قبل القبول بالتوصية. كان الشك في إخلاص إسرائيل وحسن نيتها لا يزال قائمًا، كما أن شرح أبا إيبان أمام اللجنة، زاده تأكيداً بدلاً من أن يخفف من هذا الشك. ولكن، هنا أيضاً، وبعد بضعة أيام من المناقشة، استخدمت الولايات المتحدة وحلفاؤها طرقهم الخاصة، وتم التصديق على التوصية.

لكن الأعضاء المعارضين نجحوا في أمر مهم جداً، ألا وهو إدخال تنفيذ قرارات الأمم المتحدة المنوه عنها، في «قرار القبول» وهذا ما جعل قرار قبول إسرائيل في العضوية، مشروطاً ومختلفاً عن كل القرارات الأخرى كما هو ظاهر في النص أدناه:

قرار الجمعية العمومية ٢٧٣ في دورتها الثالثة في ١١ أيار (مايو) ١٩٤٩
قبول إسرائيل في عضوية الأمم المتحدة

«... إن إعلان دولة إسرائيل بأنها «تقبل دون تحفظ الالتزامات بميثاق الأمم المتحدة

وتعمل على احترامها منذ اليوم الذي تصبح فيه عضواً في الأمم المتحدة».

«والجمعية العمومية... وهي تذكرّ بقراريها الصادرين في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ و١١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٨؛ وبعد أخذها علمًا ببيانات وشروح ممثل حكومة إسرائيل أمام اللجنة السياسية الخاصة المتعلقة بتنفيذ تلك القرارات...

«تقرر أن إسرائيل دولة محبة للسلام، تقبل بالالتزامات التي تضمنها الميثاق وهي قادرة وراغبة في القيام بتلك الالتزامات».

الجلسة ٢٠٧ للجمعية العمومية

١١ أيار (مايو) ١٩٤٩

أنهت إسرائيل مفاوضاتها مع لجنة التوفيق الفلسطينية بعد يوم واحد من قبولها عضواً في الأمم المتحدة ووقعت ما أصبح معروفاً «ببروتوكول لوزان» الذي أخذت فيه إسرائيل على عاتقها إنجاز أهداف قرار الجمعية العمومية الصادر في ١١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٨ بعودة اللاجئين العرب الفلسطينيين واحترام حقوقهم وحفظ ممتلكاتهم وأراضيهم وبقية الأمور،بأسرع ما يمكن.

إسرائيل تحنث بتعهداتها

بعد أن قبلت إسرائيل عضواً في الأمم المتحدة، ما لبثت أن رفضت احترام توقيعها والتفاوض على أساس بروتوكول لوزان أو بموجب التزاماتها التي أدخلت في «قرار قبولها» في الأمم المتحدة. ولم تخجل أبداً، فيما بعد، من الإعلان عن أنها وقعت بروتوكول لوزان، خدعة، لا لتلتزم به، بل لتتوصل إلى إقناع الجمعية العمومية بقبول «الدولة الجديدة» في عضويتها، ونجد هذا التصريح المخجل في كتاب اسرائيل السنوي (لسنة ١٩٥٠) صفحة ١٤٢ و١٤٣، الذي يقول:

«رغب بعض الأعضاء في الأمم المتحدة، في هذه المناسبة، في أن يتأكدوا من نيات إسرائيل المتعلقة باللاجئين والحدود وموضوع القدس، قبل التصديق على طلب قبولها في العضوية، وقد ساعدت، بطريقة ما، مفاوضات لوزان، موقف وفدها في ليك ساكس، كما أقنع إعلانها عنها أكثرية المندوبين في الأمم المتحدة بأن إسرائيل تبحث صادقة عن السلم وأن لها الحق بمركز في الأمم المتحدة *».

هذا التصريح هو اعتراف صريح بالغش والخداع، صرحت به إسرائيل سنة ١٩٥٠ وغدا منذ ذلك الوقت، الصفة الجديدة، أو بتعبير آخر، التوراة الاسرائيلية الجديدة،

* كان مركز الأمم المتحدة بين سنتي ١٩٤٥ و١٩٥٢ في ليك ساكس قرب نيويورك. أما بناء الأمم المتحدة الحالي في نيويورك فقد انتقلت إليه سنة ١٩٥٢.

لسلوكهم الخلقي. فلا عجب إذاً أنه منذ هذا التصريح، أي منذ ثلاثين عاماً ويزيد، والقضية الفلسطينية تسجل صفحة سوداء ان لم تكن أشد سواداً في تاريخ الإنسانية.

بروتوكول لوزان

١٢ أيار (مايو) ١٩٤٩

«إن لجنة التوفيق الفلسطينية المنبثقة عن الأمم المتحدة، راغبة في تحقيق أهداف قرار الجمعية العمومية الصادر في ١١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٨ الخاص باللاجئين، واحترام حقوقهم والحفاظ على ممتلكاتهم. وإلى جانب مسائل الحدود وغيرها من المسائل، فقد اقترحت اللجنة على الوفود العربية وعلى وفد إسرائيل أن تأخذ ورقة العمل* المرفقة كأساس للمباحثات مع اللجنة.

وقد وافقت الوفود المعنية على هذا الاقتراح وهي مدركة ان تبادل وجهات النظر الذي ستشرف عليه اللجنة بين الطرفين، سيتعرض للتعديلات التي تتطلبها الأهداف السابق ذكرها بالنسبة للحدود».

لوزان ١٢ أيار (مايو) ١٩٤٩

اسرائيل: وولتر ايتان

لجنة التوفيق

فرنسا ــ كلود بوزنبيه
تركيا ــ جاهد يَلسين
الولايات المتحدة ــ مارك اثريج

---

* ورقة العمل المرفقة هي قرار التقسيم لسنة ١٩٤٧ والخريطة الخاصة به.

الفصل الحادي والستون

كارثة اللاجئين العرب الفلسطينيين
خاتمة

نتج عن وعد بلفور الذي صرحت به بريطانيا العظمى سنة ١٩١٧، «القضية الفلسطينية» التي نتجت عنها عدة كوارث، أفجعها وأبعدها أثراً، كارثة اللاجئين العرب الفلسطينيين.

لم تقع هذه الكارثة بين عشية وضحاها، وإنما وضعت لها الخطط مع تأسيس الحركة الصهيونية في أواخر القرن الماضي. إذ كان أول أهداف هذه الحركة، تحويل فلسطين من بلد عربي إلى بلد يهودي وطرد الشعب العربي من دياره ووطنه وإحلال اليهود محله. وقد أشرنا إلى ذلك في الفصل السابع، حين بيّنا أن الحركة الصهيونية، حركة سياسية، عدوانية، كان الهدف المنوه عنه أعلاه، أول أهدافها. وحين سهّل وعد بلفور الوصول إلى هذا الهدف، انتظر الصهيونيون من بريطانيا العظمى، صانعة الوعد، أن تتمم مهمتها وتقدم فلسطين لهم على طبق من فضة خالية من أهلها العرب. وحين لم يتم لهم ذلك، قرر الصهيونيون الوصول إليه بأنفسهم، وقد نفذوه بأبشع الوسائل الوحشية.

طرد السكان العرب في فلسطين من بيوتهم ووطنهم:
صفحة سوداء في التاريخ اليهودي

ان التسجيل الكامل للكيفية التي طرد بها الارهابيون اليهود العرب الفلسطينيين من بيوتهم ووطنهم، يتطلب مجلداً ضخمًا. لقد كان شيئاً محزناً أن نرى الشعب اليهودي في هذا القرن، القرن العشرين، وقد انقاد للصهيونية المجرمة، وشارك، منفعلاً، في أبشع مذابح اقترفت في هذا العصر، وكتب بذلك صفحة سوداء في التاريخ اليهودي الطويل.

والحق أن أبرز مأساة للشعب اليهودي في هذا العصر، هي أنه لم يتعلم من اضطهاده الطويل من مختلف الشعوب على مدى العصور حتى سقوط الرايخ الثالث سنة ١٩٤٥ ولم يتعلم الحكمة الخالدة القائلة: «إن لم يبنِ الرب [لا السيف] البيت، فباطلاً يتعب البناؤ ون» ـــ والقائلة أيضاً: «الذين يأخذون بالسيف، بالسيف يؤخذون». وهكذا فإن الصهيونيين أقدموا في بناء دولة اسرائيل العنصرية، على مذابح وفظاعات مخيفة ليرعبوا

السكان العرب الفلسطينيين كي يفروا ناجين بأرواحهم، حتى أصبح أكثر من مليوني لاجىء عربي فلسطيني يعانون مرارة المنفى، ومع ذلك، فإن وجدان يهود العالم، لم يتحرك من هذه المذابح والفظاعات، ما عدا عدد ضئيل، منهم أعضاء «المجلس الأميركي لليهودية» (The American Council For Judaism) و«حركة القوة الثالثة» في إسرائيل، وأعضاء «الايحود». ولم يعتبروا أن يوم الحساب آت، عاجلاً أم آجلاً.

الصهيونيون لا يجرِّمون أنفسهم

ليس من المنتظر أن يعترف الصهيونيون أنفسهم بالجريمة فيعطوا الأسباب الصحيحة لفرار العرب الفلسطينيين من بيوتهم ووطنهم، ذلك لأن السبب الحقيقي الذي خرق الدعاية الصهيونية الكثيفة، وضع الصهيونيين في مصاف النازيين. فالجرائم التي اقترفها النازيون ضد اليهود خلال الحرب العالمية الثانية، قلّدها الصهيونيون اليهود ضد العرب الفلسطينيين سنة ١٩٤٨، كما ان الوحشية التي عانى منها اليهود على أيدي النازيين كانت شبيهة بالوحشية التي عاناها عرب فلسطين على أيدي اليهود، وإن لم تكن بالكمية، فبالنوعية.

الدعاية اليهودية حجبت الحقيقة

غطّى الصهيونيون، بقيادة الوكالة اليهودية، شرور أعمالهم في فلسطين بدعايتهم الكاذبة، وحجب جهازهم الدعاوي، أكثر الأجهزة تأثيراً في العالم، الحقيقة، فكانوا كلما وجدوا أنفسهم في ضيق وأن الحقيقة تتسرب، استخدموا سلاحهم الحاد الذي صنعوه بدقة، سلاح «اللاسامية» (Anti Semetic) الذي جعلوه يعني الذنب واللاانسانية «والعنصرية ضد اليهودية». فأحاطهم هذا السلاح «بهالة من الأمان» فكانوا يستعملونه ضد أي انسان يكتشف جرائمهم التي اقترفوها. لقد كان التهديد باستخدام هذا السلاح ضد كثيرين من المؤرخين والصحافيين أو الموظفين الحكوميين أو السياسيين أو رجال الأعمال، يجعل ضحاياهم تركع أمامهم طالبة الرحمة.

رجال صدق وشجاعة

ما كان العالم كله ليعرف أبداً لماذا فرَّ عرب فلسطين من بيوتهم ووطنهم، لولا استقامة وشجاعة عدد قليل من النبلاء وفي طليعتهم، المؤرخ البريطاني، أرنولد توينبي (Arnold Toynbee) والأستاذ ميلر برووز (Millar Burrows)، والأستاذ ويليام إيرنست هوكنغ (William Ernest Hocking)، والصحافية الشهيرة دوروتي تومبسون (Dorothy Thompson) والفرد ليلينتال (Alfred Lillienthal) وموشي مانوهين

(Moshe Menuhin)، وقليل سواهم. فلقد روى أرنولد توينبي في كتابه (دراسة في التاريخ» (A Study of History) كيف طرد الارهابيون الصهيونيون عرب فلسطين من بيوتهم وبيوت أجدادهم بالقوة القاهرة.


دوروثي تومبسون، رائدة في مناصرة القضية

استطاعت الدعاية الصهيونية، لسنوات عديدة، أن تحجب الحقيقة وتخدع العالم. وكانت الغمامة التي خلقها التضليل الصهيوني من الكثافة بحيث غطت على الجرائم الصهيونية التي ارتكبت في نزاع سنة ١٩٤٨، حتى أن توينبي عندما كشف حقيقة هذه الجرائم في جامعة ماك جيل في مونتريال (كندا)، في كانون الثاني (يناير) ١٩٦١، لم يذهل العالم اليهودي وحده، في تلك السنة، بل أذهل وجدان العالم كله.

الارهاب اليهودي و«المذابح المحسوبة»

لقد فرّ عرب فلسطين من بيوتهم ووطنهم بسبب الارهاب اليهودي وبسبب «المذابح المحسوبة». لقد طردتهم عصابات الهاغاناه والأرغون زفاي ليومي وشتيرن، وهي المنظمات اليهودية المسلحة اللاشرعية، التي أنشأتها وموّلتها الوكالة اليهودية في فلسطين. (راجع الفصل التاسع والعشرين).

لقد اختلق الصهيونيون أسباباً كاذبة كثيرة لفرار العرب من ديارهم،تغطية لجرائمهم منها:

١ ــ أن العرب الفلسطينيين تركوا وطنهم بملء إرادتهم الحرّة.

٢ ــ أن زعماءهم شجعوهم على الرحيل.

٣ ــ أن هجرتهم كانت نتيجة للحرب الدائرة بين العرب وإسرائيل.

وقد روجت لهذه الادعاءات الكاذبة، دعاية واسعة في الصحافة اليهودية والصحف الممالئة لليهود، والزعماء الصهيونيون وممثلو إسرائيل في الأمم المتحدة؛ وما كانت الغاية منها ومن تضخيمها تغطية الفظاعات والجرائم الاسرائيلية فحسب، وإنما كانت عذراً يستعمله المعتدون الاسرائيليون لأجل تبرير رفض عودة اللاجئين العرب إلى ديارهم.

وما كانت هذه الادعاءات الكاذبة، حتى ولو صحّت، لتحرم عرب فلسطين من حق العودة إلى بيوتهم ووطنهم. ومهما كان سبب ترك الفلسطيني لوطنه... أكان ذلك خوفاً من أن يذبحه قتلة الأرغون، أو كان بملء إرادته الحرّة، أو لأي سبب آخر... فذلك لا أثر له على حقه بالعودة. وما من ألماني أو ياباني منع من العودة إلى ألمانيا أو اليابان، لأنه ترك بلاده خلال الحرب عن رغبة أو خوف أو لأن زعماءه نصحوه بالرحيل.

والحق أن عرب فلسطين، لم يغادروا بلادهم بإرادتهم كما يدعي الصهيونيون، بل طردوا من بيوتهم ومزارعهم وأماكن عملهم وجوامعهم وكنائسهم ومدارسهم، ورمي بهم فعلاً في الصحراء تحت الشمس الحارقة والبرد القارس، دون غذاء ولا مأوى.


الأستاذ وليام أيرنست وهوكنغ

فظائع العصابات الارهابية الثلاث

كانت هجمات العصابات اليهودية الارهابية منذ سنة ١٩٤٤ وما بعدها، همجية ومتوحشة. كانت هجمات كاسحة على المدن والقرى العربية، كما ذكرنا في الفصول السابقة، هدفها الوحيد، إرهاب السكان العرب وإخراجهم من بيوتهم ووطنهم حسب خطة مرسومة. فكان الارهابيون يذبحون قرية بكاملها هنا، ويذبحون عدداً قليلاً هناك، كي يستمر الرعب والفرار. ومع ذلك، فإن نسف فندق الملك داود في الثاني والعشرين من تموز (يوليو) ١٩٤٦، حيث قضى تحت الانقاض، ١٠١ موظف حكومي من كل الفئات، ونسف فندق سميراميس في القدس، حيث لاقى ٢٢ عربياً المصير نفسه؛ وشنق الجنود البريطانيين على الأشجار؛ والهجوم على قرية دير ياسين العربية في التاسع من نيسان (أبريل) ١٩٤٨، حيث قتل فيها وشوه أيضاً ٢٥٠ بين رجل وامرأة وطفل، بشراسة وبدم بارد؛ والهجوم على القرية العربية «بيت الخوري» في السادس من أيار (مايو) ١٩٤٨، حيث قتل من العرب عدد عظيم وجرح منهم المئات بالرشاشات؛ وكذلك الهجوم على قرية نصر الدين، قرب طبريا، بالبنادق والقنابل اليدوية، وقتل كل سكان القرية، ما عدا ٤٠ امرأة وطفلاً فرّوا إلى القرى المجاورة؛ ومحاولة اغتيال المفوض السامي في فلسطين وزوجته قرب كالونيا، على بعد ثلاثة أميال غربي القدس؛ واغتيال اللورد موين، وزير الدولة البريطاني في

القاهرة، وخطف الضباط البريطانيين، وإلقاء براميل المتفجرات في أسواق حيفا ويافا والقدس العربية وقتل حوالى مئة كل مرّة؛ والهجوم على قرية بيت داراس، قرب غزة، حيث ذبح أهل القرية كلهم، ونسفت الأبنية العربية والبيوت الخاصة في القدس ويافا وحيفا، هذه كلها، هي أمثلة فقط على تلك الفظائع التي ارتكبتها تلك العصابات.

تضاف إلى ذلك، الأوراق التي رميت من الجو بتوقيع «قائد الهاغاناه في الجليل» والتي يهدد فيها بالموت السكان العرب الذين تسول لهم أنفسهم البقاء في فلسطين والتي يقول فيها: «أعلن في هذا البيان، أن على الناس الذين لا يريدون الحرب، أن يرحلوا جميعاً ومعهم نساؤهم وأطفالهم كي يكونوا بأمان. إنها سوف تكون حرباً قاسية دون رحمة ولا شفقة. ولا ضرورة لأن تخاطروا بأنفسكم».

توينبي يسجل بعض تلك الفظاعات

«ان المرجع الذي يَدعم هذه الحقائق هو أرنولد توينبي، أعظم مؤرخ في عصرنا الحاضر. فهو يقول في كتابه «دراسة في التاريخ»:

«أن الأعمال المجرمة التي ارتكبها اليهود الصهيونيون ضد الفلسطينيين العرب، شبيهة بالجرائم التي اقترفها النازيون ضد اليهود. فقتل الرجال والنساء والأطفال في دير ياسين، يوم التاسع من نيسان (أبريل) ١٩٤٨، عجّل بفرار السكان العرب بأعداد كبيرة من المناطق العربية خوفاً من القوات اليهودية المسلحة، وما نجم عنه من طرد مدروس للسكان العرب من مناطقهم التي اجتاحتها القوات اليهودية بين الخامس عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨ وآخر السنة. فهرب العرب من عكا في أيار (مايو)، ومن اللد والرملة في تموز (يوليو) ومن بيرالسبع والجليل الغربي في تشرين الأول (أكتوبر). ان الدم العربي الذي أريق في التاسع من نيسان (أبريل) ١٩٤٨، في ديرياسين، يقع على رأس الأرغون؛ وأما التهجير الذي وقع بعد ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨، فيقع على رأس كل إسرائيل».

لم يتعلم اليهود درسهم

ذهب توينبي المؤرخ العظيم إلى أبعد من ذلك. فلم يكتف بإدانة اليهود بشدة لطردهم الفلسطينيين العرب من ديارهم، بل أظهر ما هو أفظع من ذلك، فاليهود الذين عانوا الفظائع، على مدى الأجيال، على أيدي نبوخذ نصر، وطيطس، وهادريان وأخيراً على أيدي النازيين، ما استطاعوا أن يأخذوا من هذه



ارنولد توينبي

الويلات التي حلت بهم، «درساً» يتعلمون منه، كما كان يجب أن يفعلوا، بل كانوا أكبر المقلدين لمضطهديهم.

فقد ذكر أرنولد توينبي في كتابه «دراسة في التاريخ»: «ان عذر اليهود بطردهم العرب الفلسطينيين من ديارهم سنة ١٩٤٨، أشد من عذر نبوخذ نصر وطيطس وهادريان والمحاكمات الاسبانية البرتغالية. ففي سنة ١٩٤٨، كان اليهود، من تجاربهم الخاضة يعرفون ما يفعلون؛ وفداحة مأساتهم هي أن الدرس الذي تعلموه من مواجهتهم للنازيين، لم يكن للتخلي عن إجرامهم، بل لتقليد ما اقترفه النازيون ضدهم من إجرام».

هذا هو حكم أعظم مؤرخ في هذا العصر. إنه حكم ضد الوكالة اليهودية التي أنشأت وموّلت العصابات الصهيونية الارهابية الثلاث. إنه حكم ضد بن ـ غوريون وحكومته التي ساهمت بأعمال الشر ورعتها. إنه حكم ضدّ شعب إسرائيل الذي، مع بعض الاستثناءات، شارك في مسؤولية سفك الدم العربي البريء، دون ذنب جناه.

أرنولد توينبي يناضل في معركة اللاجىء العربي الفلسطيني

حوار بين ارنولد توينبي ويعقوب هرتزوغ، سفير إسرائيل في كندا

في حوار جرى بين أرنولد توينبي ويعقوب هرتزوغ، سفير إسرائيل في كندا، في جامعة ماك جيل هيلل هاوس (McGill University,Hillel House). في مونتريال، في الحادي والثلاثين من كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٦١، كان توينبي رائعاً وقوياً في موضوع اللاجئين العرب الفلسطينيين. كان لما قاله في المناقشة صدى وتأثير على العالم كله، إذ حرك ضمير الشعوب. ونرى من المناسب والمهم أن نسجل بعض ما قاله هذا المؤرخ العالمي، وهو الذي ناضل طوال حياته، بشجاعة نادرة في معركة اللاجيء العربي الفلسطيني، لا لشيء إلاّ للحق.

يقول توينبي: «... والذي نقمت في ما فعله الألمان، أنه كان مخططاً من قبل، ونفذ بدم بارد وقسوة مريعة، وعن قصد. والذي أخشاه الآن، أن كل النقاط التي تميّز المذابح التي فعلتها بعض القطع الإسرائيلية المسلحة، منها مثلاً عصابتي شتيرن والأرغون، وهي من ناحية العدد لا تقارن بتلك، لكنها في النوعية، مثيلة لما فعل النازيون.

«.. نحن نقول ان الشعب اليهودي عانى الذبح والنهب والتهجير من بيوته، ليس لسنة أو لسنتين وحسب، بل سنين عديدة، تناهز ألفين وخمسمئة سنة. وأريد أن أقول: ان التجربة كلما كبرت، عرف المرء ما تعني، فكانت أشدّ إلزاماً أخلاقياً عليه في ألاّ يفعل الشيء نفسه ثانية تجاه الآخرين.

« لقد قدّمت للشعب اليهودي، ما يسميه النفسيون «بعلاج الصدمة» (Shock

(Treatment) لقد قلت عالياً وبكلمات مرعبة ما أفكر به، وهو شيء يهمس في ضمير كل منكم، أعني كل من يمت بصلة إلى الطائفة اليهودية في العالم.

«... وأريد أن أقول: كونوا أنتم نقاد أنفسكم، وتلك هي من أعظم تقاليدكم اليهودية. وأترككم الآن مع وجدانكم ومع أولئك اللاجئين العرب الذين يعدّون الآن ٩٠٠٠٠٠، لأن أطفالاً كثيرين ولدوا في المنفى.

«... وأريد أن أوضحّ أن إسرائيل، كل إسرائيل، ورّطت نفسها، في نتائج هذا الفرار، [بعضه فرار، وبعضه طرد]، وفي مسألة مذبحة العرب الفلسطينين والنهب، لأن الاسرائيليين استولوا على الأرض والأملاك التي ما زالت، شرعاً، حقاً للعرب. والحقيقة تلك سرقة، وأنا على يقين أنها تثقل على الضمير اليهودي.

«... لقد ذهبت إلى مخيم اللاجئين في قطاع غزة، وسمعت الأغاني التي يغنيها الأطفال في مدارسهم. وإذا كنتم تريدون أن تشهدوا ما يشبه ما كان عليه اليهود، بعد ثلاثة عشر أو أربعة عشر عاماً من نفي نبوخذ نصّر لهم، فاذهبوا إلى قطاع غزة، وعندها ترون روح وحالة العرب النفسية هناك.. إنهم يقولون الشيء نفسه مما كان يشعر به اليهود يومئذ، واستمروا على الشعور به فيما بعد: إنه وطننا ونريد العودة إليه».

مصدر معلومات آخر: السير جون باغوت غلوب


موشي مناحيم

يصف غلوب باشا في كتابه: «جندي مع العرب» فرار العرب بالكلمات التالية:

«إن الحكاية التي حاكتها الدعاية اليهودية وأقنعت العالم بقبولها، من أن اللاجئين العرب رحلوا من ديارهم بإرادتهم، ليست صادقة. فالمهاجرون باختيارهم لا يغادرون بيوتهم وليس معهم سوى ما يرتدون من ثياب. إن الناس الذين يعزمون على الرحيل من بيوتهم، لا يستعجلون إلى الدرجة التي ينسون فيها أفراد عائلاتهم: من زوج ينسى زوجته، أو أهل ينسون أطفالهم. الواقع هو أن الأكثرية غادرت في فرار مرعوبة، هرباً من الذبح».

المذابح المحسوبة لدفع العرب إلى الفرار
(Calculated Massacres)

يذهب السير جون في كتابه «جندي مع العرب» إلى أبعد من ذلك فيظهر كيف خطط الصهيونيون لتلك الفظاعات والمذابح قبل شهور، وربما قبل سنين، من أجل إرعاب السكان العرب ودفعهم إلى الفرار من بيوتهم. لقد أراد اليهود فلسطين خالية من سكانها العرب، لأنهم تبينوا، أن دولتهم، كما أوصى بها قرار تقسيم الأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ تحتوي من العرب بقدر مما تحتويه من اليهود. وما كانوا يريدون إخراج العرب فحسب، وإنما كانوا يريدون أيضاً بيوتهم وأراضيهم كي يفسحوا المجال لمن يأتي من المهاجرين اليهود. ولهذا فقد بدأوا يضعون الخطط لهذه الغاية، والبريطانيون ما زالوا في فلسطين. ويروي السير جون حكاية تلك الخطط الرهيبة، لا ضرر من اعادتها:

«كان أحد الضباط القادة البريطانيين في الجيش العربي في زيارة لأحد حكام المناطق البريطانيين في فلسطين، في شهر كان الأول (ديسمبر) ١٩٤٧. وقد حضر الزيارة موظف يهودي كبير، يعمل في السكرتارية وكانوا في ذلك المساء يشربون كأساً. وكان قد أذيع قرار التقسيم قبل مدّة قريبة. فسأل الضابط البريطاني الموظف اليهودي، عما إذا كانت الدولة اليهودية الحديثة. سوف تتعرض للاضطرابات الداخلية، بسبب تعادل السكان اليهود والعرب في الدولة اليهودية؟ فأجاب الموظف اليهودي: «آه؛ لا؛ هذا أمر سوف يسوى. فبعض المذابح المحسوبة (Calculated Massacres) سوف تخلصنا منهم» والمتحدث لم يكن إرهابياً، كان موظفاً يهودياً معتدلاً يعد محترماً، ويعمل في حكومة الانتداب.

«... وحين أصبحت، فيما بعد، مشكلة اللاجئين، «مأساة»، جذبت انتباه العالم. زعم اليهود المنافقون أن العرب أصبحوا لاجئين بمحض إرادتهم، وأنهم لم يطردوا قطعاً. والحق اليقين أن الدولة اليهودية ماكانت لتصبح ممكنة، لو لم يرحل عنها العرب. أما إلى أي حدّ طردوا عمداً بواسطة «المذابح المحسوبة» فلا أحد «من غير اليهود» يستطيع أن يعرف!!»

مناحيم بيغن: مصدر آخر للمعلومات

مصدر آخر للمعلومات هو مناحيم بيغن نفسه، فوهرر الارغون، المنظمة المسؤولة عن فظاعات دير ياسين، وفندق الملك، وعن اغتيال الكونت برنادوت ورفيقه، ومئات آخرين. فقد كتب يقول في كتابه: «الثورة، حكاية الأرغون» ما يلي:

«... إن العرب في طول البلاد وعرضها بعد أن صدقوا بالقصص المتوحشة عن مجازر الأرغون، استولى عليهم رعب بلا حدود وبدأوا يفرون ناجين بحياتهم. وتطور هذا الفرار الجماعي، إلى رحيل مصروع فوضوي».

«... بدأ العرب في بقية البلاد يفرّون رعباً، حتى قبل الصدام مع القوات اليهودية. ولقد تقدمت القوات اليهودية في حيفا كسكين في الزبدة وأخذ العرب يهربون رعباً وهم يصيحون «دير ياسين دير ياسين».

هكذا كتب مناحيم بيغن، فوهرر الأرغون، صانع الجريمة، عضو الكنيست، ورئيس وزراء إسرائيل اليوم.


مناحيم بيغن

كانت عصابة أرغون تسفائي ليؤمّي، التي قادها مناحيم بيغن، مسؤولة عن مئات الجرائم و«المذابح المحسوبة» وأهمها مأساة دير ياسين، ودائرة السكرتير العام في فندق الملك داود (القدس).

لقد تبجح مناحيم بيغن بأعمال عصابته الشريرة، لكنه لم يقل لنا كيف ذبحت عصابته النساء والاطفال وحتى الأبقار في دير ياسين، القرية العربية. لم يقل لنا أن عصابته بقّرت بطون النساء الحوامل، بالحراب، وأن مجرميه قطّعوا الأطفال الصغار، أمام عيون أمهاتهم، وأن القلّة التي ظلت على قيد الحياة، والتي تركت، فقط لإذاعة النبأ، نزعوا عنها ثيابها، وأخذوها في شاحنات مكشوفة لعرضها في أحياء القدس اليهودية لتتعرض للشتائم والازدراء؛ وزيادة في الجور، أخذت لها صور وهي عارية تماماً.

إدانة بريطانيا العظمى

حدث كل ذلك قبل ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨، وكانت بريطانيا العظمى لا تزال هي المسؤولة عن أمن البلاد التي ائتمنتها عليها الأمم المتحدة؛ وكم كانت القوات البريطانية، في غالب الأحيان، على أقل من ميل من ساحة المذبحة، دون أن تحرك ساكناً لوقفها، أو تحاول أي عمل ضد المجرمين. ولقد سجل أرنولد توينبي هذه الادانة، وهو مواطن بريطاني في كتابه: «دراسة في التاريخ» فقال:

«بينما تقع المسؤولية المباشرة عن النكبة التي حاقت بعرب فلسطين سنة ١٩٤٨، على رؤوس اليهود الصهيونيين الذين استولوا على جزء حيوي كبير من فلسطين بقوة السلاح في

تلك السنة، فإن عبئاً كبيراً، لا يمكن إنكاره، من المسؤولية غير المباشرة، يقع على رؤوس شعب المملكة المتحدة؛ لأن اليهود ما كانت لتتاح لهم الفرصة سنة ١٩٤٨ باحتلال البلد العربي، الذي لم يتجاوزوا فيه سنة ١٩١٨ الأقلية الضئيلة، لو لم تتدخل، خلال الثلاثين سنة الماضية، حكومة المملكة المتحدة، باستمرار، لتمكن المهاجرين اليهود من الدخول إلى فلسطين، ضد إرادة العرب ورغم احتجاجاتهم، مهملين إنذارات سكان البلاد العرب الأصليين، الذين أصبحوا سنة ١٩٤٨ ضحايا تلك السياسة البريطانية».

اللورد مونتغومري ينتقد حكومته للسياسة التي تبنتها تجاه الارهابيين الصهيونيين الذين هجّروا العرب

يقول الفيلد مارشال مونتغومري: «لقد اعترضت على السياسة القائمة في فلسطين من وجهة نظر استخدام الجيش استخداماً صحيحاً: فقد كان يقيم هنالك [في فلسطين] ١٠٠٠٠٠ رجل، يتحملون الخسائر بمعدل اثنين يومياً، دون أن يسمح لهم بالرد المناسب ضدّ المعتدين الصهيونيين عليهم... والطريقة الوحيدة التي يمكن أن تقمع الارهابيين هي الهجوم عليهم، وهذا ما لم يكن مسموحاً به. والواقع أننا سلمنا بالمبادرة لهم [للارهابيين اليهود]».

أربع موجات من التهجير والفرار

الموجة الأولى: تظهر الإحصاءات أن ٦٠٠٠٠ لاجىء فقط، تركوا فلسطين قبل مذبحة دير ياسين. والعدد الأكبر منهم كان من غير الفلسطينيين، وممن كانوا يعملون في حكومة الانتداب وفي مختلف الشركات، وقد فقدوا عملهم.

الموجة الثانية: فرّ ٣٠٠,٠٠٠ عربي بين التاسع من نيسان (أبريل) ١٩٤٨ (يوم ديرياسين)، والخامس عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨ (يوم نهاية الانتداب)، وهي الفترة التي نفذ فيها الصهيونيون مذابحهم «المحسوبة والمخطط لها». وخلال تلك المرحلة، احتلت المدن والقرى العربية وقتل سكانها أو طردوا. فقد هوجمت دير ياسين في ٩ نيسان (أبريل) ونصر الدين في ١٤ منه وحيفا في ٢٢، ويافا في ٢٨، وبيسان في ١١ أيار (مايو) وعكا في ١٤ منه.

الموجة الثالثة: طرد عدد كبير في هذه الموجة من اللد والرملة. وقد كان احتلالها في ١٢ تموز (يوليو) ١٩٤٨. وقد سجلنا في فصل سابق كيف ذبح وعذب وطرد سكان هاتين المدينتين.

الموجة الرابعة: فرّ في الموجة الرابعة أكثر من ١٧٥٠٠٠ عربي، بين ١٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٨ و٢٤ شباط (فبراير) ١٩٤٩، وهو يوم توقيع اتفاقية الهدنة الدائمة بين مصر وإسرائيل. فقد انسحب الفلسطينيون العرب مع المصريين لدى انسحابهم.

غير أن هذه لم تكن نهاية المأساة يقول غلوب في كتابه: «جندي مع العرب»:

«فيما استمر اللاجئون يتدفقون، كان الاسرائيليون يطردون بلا تمييز كل العرب.

«... في الواحد والثلاثين من تشرين الأول، رفع مراقبو الأمم المتحدة تقريراً بأن الإسرائيليين قتلوا ثلاثين بين طفل وشيخ وامرأة في قرية الدوايمه، الواقعة قرب الخليل. وفي بادىء الأمر، رجع كثير من اللاجئين، بكل بساطة، ودون سلاح، إلى مزارعهم... غير أن كثيرين من أولئك المنكودين، أطلقت عليهم المراكز أو الدوريات الإسرائيلية النار على الفور، دون سؤال أو توقيف. وهكذا كان نصيب الفلاحين الذين خرجوا لفلاحة أرضهم، فقد أطلقت عليهم الدوريات الاسرائيلية النار، فقتلتهم وهم يدفعون محاريثهم في حقولهم. فالفلاحون ما كانوا أدركوا: أن خطأً رسم على خارطة في مكان ما، فأصبحت نصف حقولهم ليست لهم».

لقد مرّ زمن طويل على ماكتبه غلوب؛ أما ما عاناه اللاجئون الفلسطينيون العرب من الم، منذ ذلك الحين خلال الثلاثين سنة، فسوف نتحدث عنه في الجزء الثاني من هذا الكتاب، ويكفي أن نقول الآن ان «كرم الولايات المتحدة الأميركية الحاتمي»، جعل لاجئي سنة ١٩٤٨ العرب الفلسطينيين، كما كانوا، لاجئين عرباً فلسطينيين، ولكن مع ازدياد إيمانهم بعدالة قضيتهم وبعودتهم الظافرة إلى وطنهم الحبيب فلسطين. إنهم قانعون بأن لا ريغان الولايات المتحدة، ولا بيغن العصابات الارهابية، يتمكنان من الوقوف في وجه



مناضلون من الجهاد المقدس

إقامة دولتهم الفلسطينية.

خاتمة

إسرائيل، هي دولة عسكرية خلقها الغرب المسيحي وبخاصة المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأميركية؛ غير أن الشرق المسيحي والمسلم ما زال يعارض وجودها لأنها سرطان الشرق الأوسط.

والصهيونية كالنازية، تقوم على التمييز الديني والعنصري، وعلى القوة والعدوان. ليس لها صديق أو عدو بل لها أهداف تبرر كل الوسائل. وقد سجلنا جزءاً يسيراً من الجرائم التي اقترفها الصهيونيون ضد الفلسطينيين العرب، سكان فلسطين الأصليين، الذين منذ سنة ١٩٤٨، والصهيونيون يستهدفون إبادتهم. ولقد كاد ينجح الصهيونيون، بمساعدات المملكة المتحدة والولايات المتحدة التي لا تنضب، بإبادة سكان فلسطين العرب، فقد ذبحوا الآلاف منهم، وطردوا أكثريتهم من بيوتهم ووطنهم، ومحوا اسم وطنهم القديم المقدس من خارطة العالم، وجعلوهم دون دولة، وحرموهم من أموالهم، وأملاكهم ومداخيلهم، وكل ذلك من أجل هدف واحد هو أبادتهم.

لكن الصهيونيين وحلفاءهم، لحسن الحظ، لم ينجحوا في ما خططوا له. فاللاجئون العرب الفلسطينيون لم يبادوا، ولم يتوطّنوا في البلدان العربية، كما كان يأمل الصهيونيون، وما قبلوا بالأمر الواقع؛ وما نسي أطفالهم فلسطين؛ كما رفض العرب جميعاً بحزم، القبول بالصهيونية العدوانية، بين ظهرانيهم؛ ومعركة الحياة أو الموت، ما زالت تزداد استعاراً بين العدل العربي من جهة والباطل الصهيوني الذي تدعمه دولة كبرى من جهة ثانية. هذه الحرب التي شنّت منذ أكثر من ستين عاماً سوف نخصص لها كتاباً منفرداً نصف فيه أيضاً، استرداد الهوية الفلسطينية وعودة الأرض المقدسة إلى مجالها الروحي. والثابت الآن هو، أن هذه المعركة، نظراً لموقف حكومة الولايات المتحدة المتحيز لصالح إسرائيل، والمتحيز ضد شعب فلسطين العربي، الذي ديست حقوقه ـ بسبب ذلك التحيز ـ، سوف تستمر حتى يبدأ رؤساء الولايات المتحدة وشيوخها ونوابها، بالبحث بكل نزاهة عن العدل والانصاف، بدل البحث عن أصوات اليهود الانتخابية؛ وحتى يتوقف المرشحون للرئاسة الأميركية، في سنة الانتخاب، عن شراء الأصوات اليهودية، بوعود تسيء لحقوق الفلسطينيين الانسانية. عندها فقط، تسحب أيديهم الملطخة بدمائنا في المعركة التي ورطوا أنفسهم فيها. أما عن نتيجة المعركة، فلسنا بحاجة للتنبؤ عن الذي سيخرج ظافراً لأن:

«صهيون [كما علّم الأنبياء] لا تبنى بالدمله، ولا تؤخذ القدس بالظلم...

ولا بأي جيش أو أية قوة، وإنما بروح الله» (ميخا: ٣ ـ ١٠؛ وزخريا ٤ ـ ٦).

إلى مناحيم بيغن

يا مغتصب الأرض المقدسة
أنزل سيفك، سلاح الشرّ.

قف باحترام، طأطىء رأسك،
أطع «الوصايا». لا تقتل.

كل الذين قبلك، بالسيف
احتلوا هذه السهول والتلال.

فرّوا إلى بابل، أو أي مكان،
كانوا دون «وعد» يحققون.

إن «أرض الايمان» لا يربحها
الفريسيون، تلك إرادة يسوع.

عزّت طنوس

Usurper of the Holy Land
Drop down thy sword,
This weapon of ill.
In reverence stand,
bow down thine head
Obey the «Command»
«Thou shall not kill»
all those before you,
who by the sword
Conquered these plains
and every hill
Fled back to Babylon,
tô every place
They had no promises
to fulfil
The «hand of Faith»
cannot be won
By Pharisees, it's Jesus, will.

ثبت بمصادر الكتاب ومراجعه

(١) عبد الله التل، **كارثة فلسطين**، القاهرة: مطبعة مصر، ١٩٥٩.

(٢) عارف العارف، **النكبة**، صيدا: المكتبة العصرية، ١٩٥٦.

(٣) John Bagot Glubb, *A Soldier with the Arabs*, London: Hodder and Stoughon, 1957.
(جون باغوت غلوب)، (**جندي مع العرب**).

(٤) George Antonius, *The Arab Awakening*, New York: Gem Pression, Capricorn Books Edition, 1965.
(جورج أنطونيوس)، (**يقظة العرب**).

(٥) Arnold Toynbee, *A Study of History*, London: Oxford Uni versity Press, 1955.
(آرنولد توينبي)، (**درس التاريخ**).

(٦) J.M.N. Geffries, *Palestine: The Reality*, London: Longmans Green and Co., 1939.
(ج.م.ن. جيفرز)، (**فلسطين: الحقيقة**).

(٧) Nevill Barbour, *Nisi Dominus*, London: George G. Harrap and Co. Ltd., 1946.

(٨) Palestine Government, *Survey of Palestine, 1945-1946*
(**مسح فلسطين، ١٩٤٥ ــ ١٩٤٦**).

(٩) Games Forrestol, *Forrestol Diarries*, London: Castel and Co. Ltd., 1952.
(جيمس فوريستول)، (**يوميات فوريستول**).

(١٠) John Kimche, *Seven Fallen Pillars*, London: Secker and Warborg, 1950.
(جون كمشي)، (**سبعة أعمدة ساقطة**).

فهرس الأعلام

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(ر)

(ش)

(ص)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)